BOBST LIBRARY
3 1142 00444 5261

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE
FEB 18 1998 Bobst Library MAR 2 9 1998 CIRCULATION	Bobst Library OCT 1 4 1998 CIRCULATION JUL 3 0 1998
MAY 2 7 1999 Bobst Library DEC 2 1998 CIRCULATION	

al-Tabari, 838-923.
Jami' al-Bayan /

جامع البيان
عن
تأويل آي القرآن

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ».
قرآن كريم

« ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير ».
محمد بن إسحاق بن خزيمة

تأليف

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
المتوفى سنة ٣١٠ هـ

الجزء الأول

الطبعة الثانية
١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

BP
130
.4
.T3
1954
v. 1
c. 1

0044y 5261

وقد ظهر فى الطبعتين السابقتين كثير من الأخطاء ، سببه أنه لم يكن فى مصر عند طبعهما غير مخطوطتين اثنتين ، هما المخفوظتان برقم ٤٢ م و ٤٣ م تفسير بدار الكتب المصرية ، وفى هاتين النسختين كثير من الخطأ والتحريف والاضطراب ، ومع ذلك استطاع المصححون تلافىَ كثير مما فيهما من الأخطاء ، بالاستدراك عليهما حينا ، وبالرجوع إلى غيرهما من الكتب كالدرّ المنثور للسيوطى أحيانا أخرى .

ولما كان كثير من العلماء فى العالم الإسلامىّ يرغبون فى اقتناء تفسير ابن جرير الطبرىّ الذى طبقت شهرته البلاد ، وقد نفد جميع نسخ الطبعتين السابقتين من الأسواق ، وكتب إلينا كثير من أصحاب المكتبات بالشرق من عملائنا ، يُوَصُّوننا بطبعه طبعة جديدة مع العناية بتصحيحه ، رأينا أن نلبّىَ هذه الرغبة الشريفة ، حبًا منا فى نشر الثقافة الدينية الصحيحة فى سائر بلاد المسلمين .

وها نحن أولاء نقدّم الجزء الأول من هذه الطبعة الثانية من تفسير الإمام محمد بن جرير الطبرىّ ، إلى علماء الآفاق الإسلامية ، غير مدّخرين جهدا فى إخراجها فى ثوب فنىّ أنيق ، بعد أن قامت لجنة التصحيح بمطبعتنا برياسة الشيخ (أحمد سعد على) أحد علماء الأزهر الشريف بمعارضة هذه الطبعة بالطبعتين السابقتين عليها ، وبالمخطوطتين اللتين سبقت الإشارة إليهما ، والنسخة رقم ١٠٠ تفسير بدار الكتب المصرية ، مع بذل قُصارَى الجهد فى الضبط والتصحيح .

وقد عملنا لهذا الجزء ثلاثة فهارس : الأول للآيات المفسرة ، والثانى للموضوعات ، والثالث لتصحيح الأخطاء التى وقعت فى أثناء الطبع ، وخاصة فى ضبط بعض الشواهد .

وسنضاعف جهودنا فى الأجزاء التالية ، حتى لايقع فيها شىء من الخطأ المطبعى أصلا .

ومن الله نستمدّ العون والتوفيق ؟

القاهرة فى { ١٢ رجب سنة ١٣٧٣ هـ / ١٧ مارس سنة ١٩٥٤ م }

مدير شركة مكتبة ومطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده
محمود نصار الحلبى

(٨) [illegible] ١٨١٨ [illegible]

(٩) [illegible] (٧١ : ٤٤ : ٥٤) [illegible]

[illegible] (٦) [illegible] ١٨٨٨ [illegible]

[illegible] (٧) [illegible] ١٨٨١ [illegible]

[illegible]

وهو تفسير ذو منهج خاص : يذكر الآية أو الآيات من القرآن ، ثم يُعقّبها بذكر أشهر الأقوال التى أُثرت عن الصحابة والتابعين من سلف الأمة فى تفسيرها . ثم يورد بعد ذلك روايات أخرى متفاوتة الدرجة فى الثقة والقوّة ، فى الآية كلها ، أو بعض أجزائها ، بناء على خلاف فى القراءة أو اختلاف فى التأويل . ثم يعقّب على كل ذلك بالترجيح بين الروايات ، واختيار أولاها بالتقدمة ، وأحقها بالإيثار . ثم ينتقل إلى آية أخرى ، فينهج نفس النَّهْج : عارضا ، ثم ناقدا ، ثم مرجّحا .

وهو إذ ينقد أو يرجّح ، يردّ النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية ، من حال رجال السَّنَد فى القوّة والضعف ؛ أو إلى مقاييس علمية وفنية : من الاحتكام إلى اللغة التى نزل بها الكتاب ، نصوصها وأقوال شعرائها ، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها ، ومن رجوع إلى ما تقرّر بين العلماء من أصول العقائد أو أصول الأحكام ، أو غيرهما من ضروب المعارف التى أحاط بها ابن جرير . وجمع فيها مادّة لم تجتمع لكثير غيره من كبار علماء عصره .

وقد سَبَق هذا النوعُ من التفسير بالمأثور غيره من أنواع التفسير عند المسلمين ، وذلك أشبه بأن يكون طبيعيا ؛ فالرسول الذى اختصه الله بالكتاب المُنَزَّل ، هو أعلم الناس بمبانيه ومعانيه ، وظواهره وبواطنه ، ماقى ذلك ريب . ثم يليه فى العلم بكل ذلك صحابته وتلاميذه وحَوارِيّوه ، الذين لابسوه وخالطوه ، وأخذوا القرآن عنه حين نزوله ، وعرفوا مقاصده ومراميَه ، وأسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ؛ فهم أولى بأن تؤخذ عنهم قراءته ، وتفسيره ، وأحكامه جميعا .

وقد كان بعض الصحابة يرفع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم وجها من القراءة أو التأويل لم يعرفه الآخر ، وبعض هذه الأوجه لم يكن مما رفع إلى النبىّ ، وإنما هو من أقوال الصحابة ومراسيلهم ، أو من أقوال التابعين ، وبعضها كان خطأ ممن ليس من أهل الحفظ والتحمُّل ، أو ليس من أهل الفقه فى الدين ، أو البصر باللغة . أو مما دسه بعض ذوى الأهواء والزيغ ، وسوء الاعتقاد . ومن هنا مست الحاجة إلى دراسة الأخبار المروية كلها متنا وسندا ، من قراءات ، وأوجه تأويل ، وأحاديث ، وأخبار وسِيَر ، دراسة علمية نقدية ، لنفى الضعيف منها ، وتمييز القوىّ ؛ وكان القرن الثالث الذى عاش فيه ابن جرير هو القرن الذى ضبطت فيه علوم الرواية الخبرية متنا وسَنَدا ، ووضعت مناهجها ، وكشف عن أحوال رُواتها فيما صنعه يحيى بن مَعين ، وتلميذه محمد بن اسماعيل البُخارىّ ، وتلميذه مسلم بن الحَجَّاج القشيرىّ ، ومن حذا حذوهم من أئمة الحديث ونَقَدَة رجال ، وشارك ابن جرير بنصيب موفور من ذلك فى نقد روايات التفسير والتاريخ ، ونقد رجالهما ، فى كتابيه الكبيرين .

وقد نقل ابن جرير روايات عن أشهر مفسرى الصحابة والتابعين ، كابن عبَّاس من خمسة طرق ، وعن سعيد بن جبير من طريقين ، وعن مجاهد من ثلاثة طرق أو أكثر فى بعض المواضع ، وعن قتادة بن دعامة من ثلاثة طرق ، وعن الحسن البصرىّ من ثلاثة طرق ، وعن عِكرمة من ثلاثة طرق ، وعن الضحاك بن مزاحم من طريقين ، وعن عبد الله بن مسعود من طريق واحد . وذكر من التفاسير تفسير عبد الرحمن

كلمة الناشر

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَرىّ (نسبة إلى طَبَرِسْتان من بلاد العَجم) أحدُ أفراد العلماء فى الإسلام ، وصاحب التأليفين المشهورين فى التاريخ والتفسير ، وغيرهما من الأسفار النفيسة .

عاش ابن جرير فيما بين سنتى (٢٢٥ و ٣١٠ هـ) ، وجمع ثقافة عصره من إسلامية وعربية ، إلى مانقله النَّقَلَةُ من ثقافة الأمم القديمة ، كاليونانيِّين والهنود وغيرهم ، مما ترجم فى الدولة العباسيَّة .

كان ابن جرير حافظا للقرآن ، وكانت له قراءة مدوَّنة ، اختارها لنفسه ، وأقرأ بها بعض تلاميذه .

وكان فقيها بلغ مرتبة الاجتهاد ، عالما بالخلاف بين المذاهب ، وكان له مذهب خاصٌّ وأتباع .

وكان من أئمة الحديث وحُفَّاظه ، واسع المعرفة بمتونه وأسانيده وأحوال رجاله .

وكان عالما باللغة والنحو ، وخاصةً مذهب الكوفيين ، لَقِىَ إمامهم ثعلبا ، وأخذ عنه النحو ، وقرأ عليه دواوين الشعراء ، واستخرج منها كثيرا من الشواهد التى عوَّل عليها فى التفسير والتاريخ وغيرهما .

وكان عالما بأقوال الصحابة والتابعين فى تفسير القرآن ، وتاريخ رُواته وطرقهم إلى الصحابة .

ثم كان فوق ذلك مؤرِّخ الإسلام الثقة الأمين فيما ينقل ، العالم بالكلام والجدل ومقالات الإسلاميين وغيرهم من أهل النِّحل والأهواء ، وبالمنطق والحساب والجبر والمقابلة والطب ، وسائر فروع الفلسفة القديمة .

ويُعدّ ابن جرير من أحسن الأمثلة لذوى الشخصيات الكبيرة من العلماء الذين تخرجوا بثقافة القرن الثالث ، وكان من أخصب عصور العلم والمعرفة عند المسلمين ، التقت فيه تيارات الفكر الإسلامىّ بتيارات الفكر الأجنبىّ ، فظهرت فيه عقليات جديدة ، امتازت بالنضج والدقة والعمق ، وصفاء التفكير ، وسيطرة المنطق على آثار العقول ، والميل إلى الاستقصاء فى البحث ، واستقلال الرأى .

وقد ظهرت هذه السِّمات الثقافية للقرن الثالث فى عقل ابن جرير ومنهجه فى التأليف ، فأخرجت منه عالما مستقلّ الرأى ، وبحرا زخَّارا منقطع النظير ، وظهرت آثار ثقافته الواسعة فيما ألَّف من تواليف أثنى عليها العلماء ، وتلقتها الأمة بالقبول ، ولا سيما كتابه فى التاريخ ، ثم كتابه فى التفسير ، وهو الذى نقدِّمه بهذه الكلمة الموجزة [١] .

عُرِف تفسير ابن جرير فيما نقله ياقوت فى ترجمته باسم « جامع البيان ، عن تأويل آى القرآن » [٢] .

---

(١) اعتمدنا فى هذه الترجمة على المصادر الآتية : (ا) ترجمة المؤلف فى إرشاد الأريب ، إلى معرفة الأديب ، لياقوت الحموى (١٨ : ٤٠ – ٩٤) طبعة فريد رفاعى . و (ب) تاريخ خطيب بغداد (٣ : ١٦٢ – ١٦٨) طبعة السعادة بالقاهرة . و (ج) الطبرى المفسر ، وهو البحث الذى قدمه الدكتور السيد أحمد خليل إلى جامعة القاهرة للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب سنة ١٩٥٣ .

(٢) إرشاد الأريب ، إلى معرفة الأديب (١٨ : ٤٤) .

فهارس الجزء الأول

من

جامع البيان عن تأويل آى القرآن

لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى

الفهرس الأول : للآيات المفسرة .

الفهرس الثانى : للموضوعات .

الفهرس الثالث : لاستدراك الأخطاء .

١ – فهرس الآيات

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
١	بسم الله الرحمن الرحيم .	٥٠
٢	الحمد لله ربّ العالمين .	٥٩
٣	الرحمن الرحيم .	٦٤
٤	مالك يوم الدين .	٦٥
٥	إياك نعبد وإياك نستعين .	٦٩
٦	اهدنا الصراط المستقيم .	٧١
٧	صراط الذين أنعمت عليهم . . .	٧٥
١	الم .	٨٦
٢	ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين .	٩٦
٣	الذين يؤمنون بالغيب . . .	١٠٠
٤	والذين يؤمنون بما أنزل إليك . . .	١٠٥
٥	أولئك على هدى من ربهم . . .	١٠٦
٦	إن الذين كفروا سواء عليهم . . .	١٠٨
٧	ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم . . .	١١٢
٨	ومن الناس من يقول آمنا بالله . . .	١١٥
٩	يخادعون الله والذين آمنوا . . .	١١٨
١٠	فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا . . .	١٢٠
١١	وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض . . .	١٢٥
١٢	ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون .	١٢٧
١٣	وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس . . .	١٢٧
١٤	وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . . .	١٢٩
١٥	الله يستهزئ بهم ويمدّهم فى طغيانهم . . .	١٣٢
١٦	أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى . .	١٣٧
١٧	مثلهم كمثل الذى استوقد نارا . . .	١٤٠
١٨	صمّ بكم عمى فهم لايرجعون .	١٤٥
١٩	أو كصيب من السماء فيه ظلمات . . .	١٤٧
٢٠	يكاد البرق يخطف أبصارهم . . .	١٤٧
٢١	يا أيها الناس اعبدوا ربكم . . .	١٦٠
٢٢	الذى جعل لكم الأرض فراشا . . .	١٦١
٢٣	وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا . . .	١٦٥
٢٤	فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا . . .	١٦٨
٢٥	وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .	١٦٩
٢٦	إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما . . .	١٧٧
٢٧	الذين ينقضون عهد الله . . .	١٨٢
٢٨	كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا . . .	١٨٦
٢٩	هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا	١٨٦
٣٠	وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل . . .	١٩٥
٣١	وعلم آدم الأسماء كلها . . .	٢١٤
٣٢	قالوا سبحانك لاعلم لنا إلاماعلمتنا . . .	٢٢٠
٣٣	قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . . .	٢٢١
٣٤	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . .	٢٢٤
٣٥	وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة	٢٢٩
٣٦	فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما . . .	٢٣٤
٣٧	فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . .	٢٤٢
٣٨	قلنا اهبطوا منها جميعا . . .	٢٤٢
٣٩	والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا . . .	٢٤٨
٤٠	يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى . . .	٢٤٨
٤١	وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم . . .	٢٥١

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٤٢	ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل . . .	٢٥٤
٤٣	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .	٢٥٦
٤٤	أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم . .	٢٥٨
٤٥	واستعينوا بالصبر والصلاة . . .	٢٥٩
٤٦	الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم . . .	٢٦٢
٤٧	يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى . . .	٢٦٤
٤٨	واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس . .	٢٦٥
٤٩	وإذ نجيناكم من آل فرعون . . .	٢٦٩
٥٠	وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم . . .	٢٧٥
٥١	وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة . . .	٢٧٩
٥٢	ثم عفونا عنكم من بعد ذلك . . .	٢٨٤
٥٣	وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان . . .	٢٨٤
٥٤	وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم	٢٨٥
٥٥	وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك . . .	٢٨٩
٥٦	ثم بعثناكم من موتكم لعلكم تشكرون . .	٢٩٠
٥٧	وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنَّ .	٢٩٣
٥٨	وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها . .	٢٩٩
٥٩	فبدَّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل .	٣٠٣
٦٠	وإذ استسقى موسى لقومه . . .	٣٠٦
٦١	وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام . .	٣٠٩
٦٢	إن الذين آمنوا والذين هادوا . . .	٣١٧
٦٣	وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور	٣٢٤
٦٤	ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله . .	٣٢٧
٦٥	ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت	٣٢٩
٦٦	فجعلناها نكالا لما بين يديها . . .	٣٣٣
٦٧	وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم . . .	٣٣٦
٦٨	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى . . .	٣٣٦
٦٩	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها . . .	٣٤٤
٧٠	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى . . .	٣٤٦
٧١	قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول . . .	٣٥٠
٧٢	وإذ قتلتم نفسا فادَّارأتم فيها . . .	٣٥٦
٧٣	فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله . .	٣٥٩
٧٤	ثم قست قلوبكم من بعد ذلك . . .	٣٦١
٧٥	أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . . .	٣٦٦
٧٦	وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . . .	٣٦٩
٧٧	أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرّون . .	٣٧٢
٧٨	ومنهم أميون لايعلمون الكتاب . . .	٣٧٣
٧٩	فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم . .	٣٧٧
٨٠	وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . .	٣٨٠
٨١	بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته	٣٨٤
٨٢	والذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .	٣٨٧
٨٣	وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل . . .	٣٨٨
٨٤	وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم . .	٣٩٤
٨٥	ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم . . .	٣٩٦
٨٦	أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا . . .	٤٠٢
٨٧	ولقد آتينا موسى الكتاب . . .	٤٠٣
٨٨	وقالوا قلوبنا غُلْف بل لعنهم الله . . .	٤٠٦
٨٩	ولما جاءهم كتاب من عند الله . . .	٤١٠
٩٠	بئسما اشتروا به أنفسهم . . .	٤١٣
٩١	وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله . . .	٤١٨
٩٢	ولقد جاءكم موسى بالبينات . . .	٤٢١
٩٣	وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور .	٤٢٢
٩٤	قل إن كانت لكم الدار الآخرة . . .	٤٢٤
٩٥	ولن يتمنوه أبدا بما قدَّمت أيديهم . . .	٤٢٦
٩٦	ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . . .	٤٢٨
٩٧	قل من كان عدوًّا لجبريل . . .	٤٣١

الآية	الآية المفسرة	الصفحة
٩٨	من كان عدواً لله وملائكته ورسله . . .	٤٣٩
٩٩	ولقد أنزلنا إليك آيات بينات . . .	٤٤٠
١٠٠	أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم	٤٤١
١٠١	ولما جاءهم رسول من عند الله . . .	٤٤٣
١٠٢	واتبعوا ما تتلوا الشياطين . . .	٤٤٤
١٠٣	ولو أنهم آمنوا واتقوا . . .	٤٦٧
١٠٤	يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا . . .	٤٦٩
١٠٥	ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب	٤٧٤
١٠٦	ما ننسخ من آية أو ننسها . . .	٤٧٥
١٠٧	ألم تعلم أن الله له ملك السموات . . .	٤٨١
١٠٨	أم تريدون أن تسألوا رسولكم . . .	٤٨٣
١٠٩	ودّ كثير من أهل الكتاب . . .	٤٨٧
١١٠	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .	٤٩٠
١١١	وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا	٤٩١
١١٢	بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن . . .	٤٩٣
١١٣	وقالت اليهود ليست النصارى . . .	٤٩٤
١١٤	ومن أظلم ممن منع مساجد الله . . .	٤٩٧
١١٥	ولله المشرق والمغرب . . .	٥٠١
١١٦	وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه . . .	٥٠٦
١١٧	بديع السموات والأرض . . .	٥٠٨
١١٨	وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله	٥١٢
١١٩	إنا أرسلناك بالحقّ بشيرا ونذيرا . . .	٥١٥
١٢٠	ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى . .	٥١٧
١٢١	الذين آتيناهم الكتاب يتلونه . . .	٥١٨
١٢٢	يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى . . .	٥٢٣
١٢٣	واتقوا يوما لاتجزى نفس . . .	٥٢٣
١٢٤	وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه . . .	٥٢٣
١٢٥	وإذ جعلنا البيت مثابة للناس . . .	٥٣٢
١٢٦	وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدا . .	٥٤١
١٢٧	وإذ يرفع إبراهيم القواعد . . .	٥٤٦
١٢٨	ربنا واجعلنا مسلمَين لك . . .	٥٥٣
١٢٩	ربنا وابعث فيهم رسولا منهم . . .	٥٥٦
١٣٠	ومن يرغب عن ملة إبراهيم . . .	٥٥٨
١٣١	إذ قال له ربه أسلم . . .	٥٦٠
١٣٢	ووصى بها إبراهيم بنيه . . .	٥٦٠
١٣٣	أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب . . .	٥٦٢
١٣٤	تلك أمة قد خلت لها ما كسبت . . .	٥٦٣
١٣٥	وقالوا كونوا هودا أو نصارى . . .	٥٦٣
١٣٦	قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . . .	٥٦٦
١٣٧	فإن آمنوا بمثل ما آمنتم . . .	٥٦٨
١٣٨	صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . .	٥٧٠
١٣٩	قل أتحاجوننا فى الله . . .	٥٧٢
١٤٠	أم تقولون إن إبراهيم . . .	٥٧٣
١٤١	تلك أمة قد خلت . . .	٥٧٥

٢ – فهرس الموضوعات

الصفحة

٢ كلمة الناشر .

٣ خطبة الكتاب .

مقدمات التفسير

٥ اتفاق معانى آى القرآن ومعانى منطق من أنزل بلسانه .

٦ المعنى الذى به باين القرآن سائر الكلام .

فصاحة القرآن معجزة .

٧ الله تعالى لا يخاطبنا بما لا نفهمه .

القرآن وقع فيه ما يقع فى كلام العرب من الإيجاز والإطالة والإكثار . . . الخ .

٨ لغة العرب تتفق مع غيرها فى بعض الكلمات

١١ اللغة التى نزل بها القرآن من لغات العرب .

أنزل القرآن على سبعة أحرف .

٢٠ الذى نزل به القرآن من ألسن العرب بعضها لا كلها .

٢٢ الأحرف السبعة لا يلزم أن تكون فى كل لفظة .

٢٥ الأحرف السبعة لا يلزم أن تكون موجودة اليوم .

العلة التى اقتضت اقتصار الأمة على حرف واحد من السبعة .

٢٨ السبب المقتضى لكتْب المصحف .

٣٠ معنى أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة .

٣١ الكتاب الأول نزل من باب واحد ، وعلى وزن واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف .

٣٢ الوجوه التى من قِبَلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن .

٣٣ ما روى فى النهى عن القول فى تأويل القرآن .

الصفحة

٣٤ ماروى فى النهى عن القول فى تأويل القرآن بالرأى .

٣٥ ما روى فى الحضّ على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة .

٣٦ الأمة ملزمة معرفة تأويل القرآن .

٣٧ بعض الأخبار التى غلط فى تأويلها منكر والقول فى تأويل القرآن .

٤٠ من كان من قدماء المفسرين محمودا علمه بالتفسير ، ومن كان منهم مذموما علمه بذلك .

٤١ تأويل تفسير القرآن وسوره وآيه .

٤٢ القراءة مصدر بمعنى الضم .

٤٣ المكتوب يسمى كتابا .

٤٤ لسور القرآن أسماء سماها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤٦ شواهد من كلام العرب على أسماء سور القرآن .

٤٧ تأويل أسماء فاتحة الكتاب .

السبب فى تسمية الفاتحة أمّ القرآن .

٤٨ السبب فى تسمية مكة أمّ القرى .

تسمية الفاتحة السبع المثانى .

٤٩ تأويل الاستعاذة .

كل متمرّد يسمى شيطانا .

٥٠ تأويل بسم الله الرحمن الرحيم .

٥١ إبدال اسم المصدر من المصدر .

٥٤ تأويل لفظ الجلالة .

٥٥ تأويل الرحمن الرحيم .

٥٩ تأويل فاتحة الكتاب .

الصفحة

٦٠ بيان أن الحمد قد يوضع موضع الشكر .

٦١ العرب تحذف فى أثناء كلامها ما يعلم من غير ذكر .

٦٢ الربّ بمعنى السيد المطاع .

٦٢ الرجل المصلح للشىء يدعى ربا .

تأويل لفظ العالمين .

٦٤ تأويل الرحمن الرحيم .

٦٥ تأويل مالك يوم الدين .

أصحّ القراءات فى مالك .

٦٦ عالم كل زمان غير عالم الزمان الذى بعده .

٦٧ حذف (يا) التى للنداء فى كلام العرب .

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى كلام العرب .

٦٨ الدين بمعنى الحساب والمجازاة فى كلامهم .

٧٠ فساد قول من ذهب إلى أن الله لا يأمر بأمر إلا بعد المعونة على فعله .

٧١ فساد قول من ذهب إلى أن إياك مع نستعين مكرّر .

٧٢ الهداية بمعنى التوفيق وشواهدها من كلام العرب .

٧٣ فساد قول من ذهب إلى أن معنى اهدنا : اسلكنا طريق الجنة .

الشاهد على أنّ هدَى يتعدّى بنفسه وبالحرف

الشاهد على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح .

٧٤ السبب فى وصف الصراط بالاستقامة .

٧٦ ما أمر النبيّ وأمته أن يسألوه .

طاعة الله لاتنال إلا بإنعام الله .

٧٨ نصب غير على قراءة من نصبه .

٧٩ من المغضوب عليهم ؟

الصفحة

٨٠ معنى الغضب فى حقه تعالى .

٨١ زيادة « لا » فى « ولا الضالين » .

٨٢ العرب لاتزيد « لا » فى كلام مبتدأ ولم يتقدمها جحد .

٨٣ من الضالون ؟

٨٥ مسألة يسأل عنها أهل الإلحاد وجوابها .

٨٦ الأحاديث الواردة فى الفاتحة .

السورة التى تذكر فيها البقرة .

٨٨ الأقوال الواردة فى أوائل السور بالحروف .

٨٩ بعض الحروف ينطق به ويراد منه الكلام .

٩١ بعض الكلمات ينطق بحرف منها مرادا به الباقى .

الوجه الذى اختاره المؤلف فى تفسير أوائل السور

٩٥ « بل » تأتى رجوعا عن كلام قد تقضى .

٩٧ « لاريب » بمعنى لاشك .

٩٨ معانى هدى للمتقين .

١٠٠ أولى التأويلات بقوله : هدى للمتقين .

١٠٢ اختلاف أهل التأويل فى القوم المنزل فيهم هاتان الآيتان .

١٠٤ الإقامة بمعنى الأداء فى كلام العرب .

الصلاة بمعنى الدعاء فى كلامهم .

١٠٨ من معانى الفلاح : إدراك الطلبة ، والظفر بالحاجة .

١١١ « سواء » بمعنى معتدل فى كلام العرب .

١١٤ نصب « غشاوة » وشاهده من كلام العرب .

« الغشاوة » معناها الغطاء وشاهده

١١٦ إجماع أهل التأويل على « ومن الناس . . . » الآيات ، نزلت فى المنافقين .

١١٧ تسمية يوم القيامة اليوم الآخر .

الصفحة
١١٨ خداع المنافق ربه والمؤمنين .
١٢٠ الشاهد على أن لم يشعر : بمعنى لم يدر .
١٢١ الشيء يطلق ويراد أهله وشواهد عليه .
١٢٣ أليم بمعنى موئلم وشاهده .
١٢٥ اختلاف أهل التأويل فى المعنىّ بقول الله : « لاتفسدوا فى الأرض » .
١٢٨ معنى السفيه وجمعه .
١٣١ « إلى » بمعنى « مع » فى قوله : إلى شياطينهم . « على » بمعنى « عن » فى كلام العرب .
١٣٢ الاستهزاء بمعنى التوبيخ وشاهده .
١٣٤ الخلاف فى تأويل : ويمدّهم .
١٣٥ الطغيان : معناه تجاوز الحدّ وشاهده .
١٣٦ العمه : الضلال .
١٣٧ شراء الضلالة بالهدى .
١٣٨ معنى الشراء الاختيار فى كلام العرب .
ترجيح المؤلف تأويله لاشتراء الضلالة .
١٣٩ الربح فى التجارة وشاهده .
١٤٠ تأويل « مثلهم كمثل . . . » الخ .
١٤٠ حذف المضارع من قوله « كمثل الذى » ، وشاهده .
١٤١ استوقد بمعنى أوقد وشاهده .
الذى بمعنى الذين وشاهده .
١٤٤ ما اختاره المؤلف فى تأويل « كمثل الذى استوقد نارا » .
١٤٥ الحذف فى قوله « كمثل الذى » وشاهده .
١٤٦ أوجه الإعراب فى « صمّ بكم عمى » .
١٤٧ الخلاف فى المراد بقوله « فهم لايرجعون » .
١٤٨ الصيب : النازل المنحدر وشاهده .

صفحة
١٤٩ معنى « أو » فى قوله « أو كصيب » .
١٥٠ وجه التشبيه فى « كمثل الذى » .
١٥١ ما قيل فى الرعد والبرق من الآثار .
١٥٦ تأويل « فيه ظلمات » وما فيها من الأوجه .
١٥٨ الخطف معناه السلب وشاهده .
١٥٩ لم خصّ السمع والأبصار دون سائر الأعضاء فى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم » .
السبب فى توحيد السمع وجمع الأبصار .
١٦٠ معنى العبادة فى « اعبدوا ربكم » : الاستكانة والخضوع .
١٦١ فساد زعم من قال إن تكليف ما لايطاق غير جائز .
معنى الترجى فى قوله «لعلكم تتقون» وشاهده.
١٦٢ السماء مأخوذة من سما إذا أشرف . وشاهده .
١٦٣ معنى الندّ فى قوله « أندادا » . والشاهد عليه .
المعنىّ بقوله تعالى « فلا تجعلوا لله أندادا » .
١٦٥ تأويل « وإن كنتم فى ريب » ، وأنه احتجاج على مشركى العرب .
ما اختاره المؤلف فى تأويل « وإن كنتم فى ريب » .
١٦٧ تأويل « وادعوا » وشاهده .
١٦٨ معنى «فاتقوا النار» ،وكون الحجارة وقودا لها .
١٦٩ تأويل « وبشر الذين آمنوا » ومعنى البشارة .
١٧٠ تأويل قوله «كلما رزقوا» ، والخلاف فى قوله « هذا الذى رزقنا من قبل » .
١٧٢ تأويل « وأتوا به متشابها » ، ومرجع الضمير فى به .
١٧٤ أولى التأويلات فى « متشابها » .

الصفحة

١٧٥ تأويل « ولهم فيها أزواج مطهرة » .
١٧٧ الخلاف فى تأويل « إن الله لايستحيي » .
١٧٩ معنى يضرب : يصف . ومعنى المَثَل : الشبه ، وشاهدهما .
١٨٠ نصب « بعوضة » والشاهد عليه .
تأويل « فأما الذين آمنوا » . . . الآية
١٨١ تأويل « يضلّ به » وبيان معنى الفسق .
١٨٢ معنى العهد والخلاف فيه .
١٨٤ تأويل « ويقطعون » . . . الآية
١٨٥ معنى الخسار فى قوله « أولئك هم الخاسرون » .
١٨٦ تأويل « كيف تكفرون » الآية . والخلاف فيها .
١٨٧ الميت يطلق على خامل الذكر والحيّ بضده .
١٩١ تأويل «ثم استوى» الآية والخلاف فى الاستواء .
الاستواء يطلق بمعنى الاستقامة . وبمعنى تدبير الأمر .
١٩٣ المؤنث ربما يذكر والشاهد عليه .
التسوية فى قوله « فسوّاهن » .
١٩٥ تأويل « وإذ قال ربك للملائكة » وأن « إذ » قد تزاد فى الكلام .
١٩٦ « إذ » ربما حذف جوابها .
١٩٧ ربما يعطف الشيء على ماتضمن معنى ماقبله .
تأويل « وإذ قال ربك للملائكة » . والخلاف فى اشتقاق لفظ الملك .
١٩٩ معنى الخليفة ، وذكر ما كان فى الأرض من قبل بنى آدم .
٢٠١ تأويل « أتجعل فيها » . . . الآية
٢٠٩ استخبار الملائكة مع علمهم .
حذف ما دلّ عليه الظاهر وشواهده .
٢١٠ تأويل « ونحن نسبح » .

الصفحة

٢١١ التسبيح بمعنى التنزيه
٢١٢ تأويل «إنى أعلم» ... الآية . والخلاف فى معنى « أعلم ما لاتعملون » .
٢١٣ المعلوم له تعالى الذى لايعلمون .
٢١٥ الخلاف فى الأسماء التى علمها آدم .
٢١٨ أنبأ بمعنى أخبر وشاهده .
٢٢٠ تأويل « لا علم لنا » وما فيه من العبرة .
٢٢١ تأويل «قال يا آدم أنبئهم » الآية ، وأن الملائكة وغيرهم لايعلمون إلا ما علمهم الله .
٢٢٢ الخلاف فى تأويل « وما تبدون » .
٢٢٤ تأويل « وإذ قلنا » ... الآية ، والخلاف فى أن إبليس من الملائكة .
٢٢٧ اشتقاق اسم إبليس وشاهده .
٢٢٩ تأويل « وقلنا يا آدم » وصحة قول من قال أخرج إبليس من الجنة .
٢٣٠ بيان معنى الرغَد وشاهده .
٢٣١ الخلاف فى الشجرة ماهى ؟
٢٣٣ حذف النون من « فتكونا » وشاهده .
٢٣٩ هبط بمعنى حلّ وشاهده .
٢٤١ تأويل « ولكم فى الأرض مستقرّ » ، والخلاف فيها
٢٤٣ معنى تاقى الكلمات .
٢٤٨ معنى إسرائيل .
٢٥٢ يجوز توحيد ما أضيف له « أفعل » .
وهو خبر لجمع . . . الخ .
٢٥٤ تأويل « ولا تلبسوا » وشاهده .
٢٥٦ تأويل « وأقيموا الصلاة » ، والشواهد على معنى الزكاة والركوع .

الصفحة
٢٦١ معنى الخشوع ، ومعنى الظنّ وشاهداهما .
٢٦٣ حذف النون من « ملاقو ربهم » وشاهده .
٢٦٨ معنى العدل ، بالكسر والفتح .
٢٧٠ معنى الآل والشاهد عليه .
يخاطب المرء بما فعله قومه وإن لم يحضر ذلك وشاهده .
٢٧١ تأويل « يذبحون أبناءكم » وما كان يصنعه فرعون ببنى إسرائيل .
٢٧٥ معنى البلاء وشاهده .
٢٨١ حقيقة العجل الذى اتخذه بنو إسرائيل .
٢٨٧ قتل بنى إسرائيل أنفسهم .
٢٨٨ معنى البرية وشاهده .
٢٩٠ معنى الصاعقة .
٢٩١ معنى الموت الذى حلّ ببنى إسرائيل .
٢٩٣ معنى تظليل الغمام .
٢٩٤ الخلاف فى المنّ وشاهده .
٢٩٩ الباب الذى أمروا بالدخول منه .
السجود معناه الركوع وشاهده .
٣٠٢ الغفران وشاهده .
٣٠٦ المكان الذى كان موسى يستسقى فيه .
٣٠٨ « العثوّ » وشاهده .
٣١١ معنى « الفوم » وشاهده .
٣١٣ المصر الذى أمروا بالهبوط فيه .
٣١٦ معنى النبىّ والشواهد عليه .
٣٢١ إسلام سلمان الفارسىّ ، وما كان عليه قبله .
٣٢٤ معنى « الطور » وشاهده .
٣٢٧ معنى « التولى » ووجه الخطاب لهم .
٣٣٦ السبب الذى أمروا بذبح البقرة لأجله .

الصفحة
٣٤١ معنى « الفارض » وشاهده .
٣٥٠ « الباقر » جمع البقرة وشاهده .
٣٥٢ معنى الشِّية وشاهده .
٣٥٦ معنى الدرء وشاهده .
٣٦٢ معنى « أو أشد » وشاهده .
٣٦٥ هبوط الحجر من خشية الله وشاهده .
٣٦٨ تناهى اليهود عن ذكر النبىّ وصفاته فى كتابهم .
٣٧٥ الاستثناء فى « إلا أمانىّ » وشاهده .
٣٨٠ عدد الأيام التى أخبر اليهود أنهايدخلون النارفيها .
٣٨٩ العطف على المعنى وشاهده .
٣٩١ معنى الحسن . واختلاف القرّاء فى قراءة « وقولوا للناس حسنا » .
٣٩٦ ما كانت عليه اليهود فى الجاهلية .
الضمير ربما عاد على مصدر فعل تقدّم .
٤٠٣ التأييد معناه التقوية . ومعنى روح القدس .
٤٠٨ اللعين بمعنى الملعون اسم مفعول .
٤٠٩ « ما » : تأتى زائدة وشاهده .
٤١٩ الشاهد على أنّ تقتلون بمعنى قتلتم .
٤٢٣ معنى إشراب القلوب الحبّ وشاهده .
٤٢٨ ما كانت عليه اليهود من معرفة الرسول .
٤٣٠ معنى مزحزح : منقذ وشاهده .
٤٣٦ اللغات فى اسم جبريل وميكال وشواهدهما .
٤٤٢ معنى نبذ الكتاب والعهد : عدم العمل به وشاهده .
٤٤٤ السحر وكذب نسبته إلى سليمان .
٤٥٢ ما قيل فى الملكين .
٤٦١ الفتنة والشاهد عليها .
٤٦٣ الملكان لم يعلما التفريق . والآية تفند ذلك ، والشاهد عليه .

الصفحة

٤٦٩ ما كانت اليهود تقوله للنبيّ فى مخاطباته ونهى عنه المسلمون .
٤٧٢ معنى « راعنا » والشواهد عليه .
٤٧٥ معنى النسخ فى القرآن .
٤٨٢ ابتداء الخطاب مع الواحد وختمه بخطاب الجمع .
٤٨٣ ما سألوا النبيّ فنُهوا عنه .
٤٨٦ الضالّ : بمعنى الخامل .
٤٩٣ أسلم وجهه : استسلم وأخلص وشاهده .
٤٩٨ من المانعون المساجد من ذكر الله ؟
٥٠٨ معنى الإبداع والقضاء والشواهد عليهما .
٥١٠ القول يراد به غير التلفظ وشاهده .

الصفحة

٥١٣ معنى « لولا » : هلا ، وشاهده .
٥١٧ معنى الجحيم وشاهده .
٥١٩ معنى حقّ التلاوة .
٥٢٤ معنى الكلمات التى ابتلى اللهُ بها إبراهيم .
٥٢٩ معنى الإمام .
٥٣٠ معنى الظلم والعهد فى « لاينال عهدى الظالمين » .
٥٣٢ معنى المثابة والمثاب وشاهدهما .
٥٣٥ معنى مقام إبراهيم المأمور باتخاذه مصلى .
٥٤٦ معنى القواعد وذكر شىء من تاريخ البيت .
٥٥٣ معنى المناسك ، وأن الرؤية تأتى بمعنى العلم .
٥٦٨ معنى الأسباط وذكر أسمائهم .

فهرس القوافى

القافية	الصفحة
ا	
داءُ	٤٢٣
الفداءُ	١٦٣
الغراء	٤٣
تآ	٩١
ب	
رهبُ	٤٨٢
وارتقبوا	٤٨٢
ثلبوا	٤٨٢
والاجب	٤٨٢
النسب	٤٨٢
تلعبُ	١٣٣
وتُخلَبُ	٦٧
يتذبذب	٤٦
مصعبُ	١٩١
ومصوّب	٣٦٦
صعابُ	١٩٨
حبيبُ	٤٨٥
دبيبُ	١٤٨
تصوبُ	١٤٨
رُبُوبُ	٦٢
يصوبُ	١٤٨ ، ١٩٨
الأريبُ	١٠٨
طبيبُ	٤٨
مجيبُ	١٤٠
طلابُها	١٤٥
مَرْحَبِ	١٤٠
المواضبِ	١٣٨
بغائبِ	٣٧٦
لغائبِ	٢٧٠
الرقابِ	٣٧٦
مربوبِ	٦٢
كالزبيب	٣٤٥
أزْرَى بها	١٩٣
ليضربا	٣٥٠
أشعبا	٥١
وخابا	٣٠٢
ت	
أُمْنِيَتْ	٤٦
ثلثت	٤٦
فصلت	٤٦
تقلتِ	٣٩١
الكماةِ	٧٧
ث	
مُقاعِثُ	٣٠٩
ج	
تعتلجُ	٢٥٧
الأوداج	٤٤٠
قَدْ شَجا	٨٩
النباجا	٧٣
ح	
الوضَحُ	١٢٠
جانحُ	١٤٥
ومَنادحُ	٤٨٢
الصلائح	٥٣٢
ورُمْحًا	٦١ ، ١١٤
وقاحًا	٢٩٠
فلاحا	١٠٨
فبركاحًا	١٠٨
د	
أيّدُ	٤٠٤
مُرْصَدُ	١٥٣
بلَدُهْ	١٩١
السَّنَدِ	٥٦١
فقَدِ	٣٦٤
أحَدِ	٧٨
الجَلَدِ	٧٨ ، ٢٣٤
فى غَدِ	٤٢٠
باليدِ	٤٧٧
رَغَدِ	٢٣٠
الفَنَدِ	٢٨٨
مُعَبَّدِ	٦٩
المسرَّدِ	٢٦٢
مخلدى	٣٨٩
وتالدى	٦٢
خالد	١٤١
مَشْهَدِ	٤٤٨

القافية	الصفحة
الملحدِ	٤٨٦
بفسادِ	١٩٥
وللمولودِ	٧١
الشُّمَّرْدَا	١٩٦
به بُدَّا	٣٢٨
أنكَدَا	١٩٦
مُخَلَّدَا	٥٥٤
الحديدَا	٣٨٩
ر	
وَشُقُرْ	٤٠٦
حَقَرْ	٣٥٦
كَسَرْ	٣٢٤
اعتذرْ	٥٢
لايسيرُ	٦١
وزيرُ	٦١
فبصيرُ	١٤٠
فبصيرُ	٣٦٥
ولا عُمَرْ	٨٢
السَّقَرْ	٧٢
حاضِرُهْ	١٣٩
فُجورُها	١٤٩
وعُورُها	١١١
ونهارُها	١١١
الدهر	٢٢٦
مصر	٢٢٦
الجُزُرِ	١٤٦
الأُزُرِ	١٤٦
للحوافر	٣٠٠
للحوافرِ	٣٦٥

القافية	الصفحة
الفاخرِ	٢١١
أمّ عامرِ	٢١٠
وانتظارِ	١٩٨
لعامرِ	١٦٧
كافرِ	١١٠
الأعفرِ	٦٧
وعَرْعَرِ	٦٢
الحائرِ	٤٩٤
الظاهرِ	٣١٢
وحِمْيَرِ	١٠٨
بلا أجر	٢٢٦
السُّورِ	٤٦
بالعُذْرِ	٤٢٠
قَدَرِ	١٤٩
قَدَرِ	٣٦٣
أزْرا	٤٧
أمرا	٤٨
فخرا	٤٨
بِكْرَا	٣٤٣
فاستدارا	٢٩٠
متَمورا	٢٩٥
وخورا	٢٩٥
ممرورا	٢٩٥
تبورَا	٣٥٠
حُوارَا	٥١١
نهارَا	١٢٠ ، ٤٩١
انفجارَا	٣٦٤
جارا	٣١٨
جهارَا	٢٨٩
جؤارا	٣٠٠

القافية	الصفحة
القفندَرَا	٨١
تشرى	٤١٥
وأبكارِ	٣٤٢
مستطيرا	٤٧
شَطيرا	٣١٦
تصيرا	٣١٦
مشيرا	١٣٥
الإزارا	٣١٨
تنكيرِ	٢٢٧
س	
وإبلاسُ	٢٢٧
رأسُ	٤٠١
شامسُ	٣١٨
يتبئسِ	٤٠١
بنى عبس	٤٠١
وتنساس	٤٧٣
وأبلسا	٢٢٧
ص	
خميصُ	١٦٠
ض	
تبيضِّى	٩١
بعضِ	١٨٧
الماخضِ	٣٤١
الحائض	٣٤١
رِضَاها	١٠٢
ط	
ولَطَّ	٨٩
يغطّى	٨٩

القافية	الصفحة
الصراطِ	٧٣
ع	
المستمعُ	٣٦٥
تُبَّعُ	٥٠٩
واسِعُ	٤٦٥
فاقعُ	٣٤٦
راقعُ	٤٣٠
نوازعُ	١٥٨
الخشعُ	٣٦٥
جياعُ	٢٥٢
هجوعُ	١٢٣
وجيعُ	٣٩١
قَعِ	٥١٠
الخشعِ	٢٦٠
المقلعِ	٢٣٤
الكوانعِ	٥٣٩
الضجوعِ	١٩١
ابتدعا	٥٠٨
ما نفعا	٧٤
ما ركعا	٢٥٧
نجعا	٢٩٥
وأربعا	٩٥
الأصبعا	٩٥
أروعا	٩٥
المقنَّعا	٥١٣
الأطوعا	٥٠٨
الرتاعا	٥١
جميعا	١٠٤

القافية	الصفحة
ف	
نطفُ	٢٦٣
من تخلفوا	٣٢١
تحنَّفِ	٣١٨
الإيجافِ	٩٠
السَّفَا	٢٥٧
ق	
فتزلقُ	٢٣٤
ويطلقِ	٥٨
تُفْتَقِ	٥٠٩
موثَّقِ	١٦١
متألقِ	١٦١
المحنقِ	٥١٠
ابن مخراقِ	٢٦٣
باقي	٤٨٣
عناقِ	١٤٩
واشتياقِ	١٤٩
بالعناقِ	٥٦٤
فلقا	٢٣٩
عقوقا	٤٦٣
ك	
يحمدونكا	٥٣
هداكا	٣١٧
مالكا	٩٧ ، ٣٩٧
أنا ذلكا	٩٧ ، ٣٩٧
نِعالكا	٤٤٢
ل	
نجلْ	٤٢٣

القافية	الصفحة
عقلْ	١٠٨
ما سألْ	١٩٨
يبلُو	٢٧٥
والعملُ	٧٣
القبلُ	٣٥٦
مرملُ	٤٦٧
منسحلُ	٣١٧
السلاسلُ	٣٢٧
العواذلُ	٣٢٧
لمقتولُ	٣٥٢
الأباطيلُ	١٧٩
مقاولُه	١٦٢
وقتالُها	٤٢٣
يستبيلها	٤٦٢
نزولُها	٤٩٤
البزلِ	٤٦٣
بالنجلِ	٤٦٣
المالِ	٧٠ ، ١٣٨
مجالِ	٩١
والأكبالِ	٤٩
غافلِ	٨١
قبلي	٤٨٢
فصلا	٧١
عجلا	٦٧
واشتعلا	٢٥٤
أجهلا	٣٠٢
مقالا	٧٢
زلالا	٤٩٣
ضلالا	٤٨٦
خيالا	٤٨٤

القافية	الصفحة
ميكالا	٤٣٦
ذمولا	١٩٧
حمولا	١٩٧
الأنفالا	٢٧٠
أكفالا	٢٧٠
طويلا	٤٦٢
شمْريلا	٤٣٦
لاشىء لَه	٣٣٧
إبقالها	١٩٣
م	
ارتسمْ	١٠٤
حلْمْ	٤٧
ظلْمْ	٥١
النّجومُ	٥٨
العالمِ	٦٣
لحيمُ	٩٨
أليمُ	١٢٣
عظيمُ	٢٥٥
الجحيمُ	٥١٧
السلامِ	٢٦٥
سنامُ	٢٦٥
الطعامُ	٢٦٥
رِهَمُهْ	٧٣
قَدَمُهْ	٧٣
طعامُها	٣٨٠
ألومُها	١١٤
بدم	٤٠٩
يتثلم	٣٧٦
فُوم	٣١١
جُذام	٢١٨

القافية	الصفحة
بالضرام	٤٦٤
القِرامِ	١٦٢
تميمِ	٤٢٢
مستقيمِ	٧٣
همّى	١٣٥
غمّى	١٣٩
تعلمى	١٢١
البَرَما	١١٤
أيما	١٩٦
مُرَجّما	٢٦٢
وزَمْزَما	١٠٤
سلاما	٦٤
ن	
الجُونْ	١٥٣
تُدانُ	٦٨
رهينُ	٤٩
يمينُها	٥٨
بشَنّ	٧٧
يصطحبانِ	٣٢١
فى كَوّفانِ	٤٢٠
اللعين	٤٠٨
عنّى	١٩٨
بطنى	٥١٠
منى	٢٥٤
عافانى	٤٨
أعطانى	٤٨
المثانى	٤٨
مثانى	٤٨
الدوانى	٤٨
لايَعنينى	٤٠

القافية	الصفحة
ودينى	٥١١
إيانا	١٧٩
وقرآنا	٤٣
لاتكونا	١٧٩
عُونا	٣٤٢
ما يُقْرِضُونا	٦٨
سبعينا	٦٧
الكاشحينا	٤٢
جنينا	٤٢
هـ	
أقِنّهْ	١٨٥
هامهْ	٤١٥
عنْجهِ	٣٥٦
وكَلْتهِ	١٣٦
فى مهمهِ	١٣٦
العُمَّهِ	١٣٦
تألهى	٥٤
نرعاها	٤١٤
عيناها	١١٤
نصاها	١٣١
ى	
غنىّ	٣٧١
أقلّى	٥٥
تهاديا	٤٧ ، ١٩٨
والوصيا	٣٦٢
كان غيا	٣٦٢
شآميا	٣٠٢
إذايا	٩١

٣ – فهرس استدراك الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	١٨	سَدَف	سُدَف
٥	١٣	الإنابة	الإبانة
٥	٢٥	ومعجم	ومُفْحَم
٦	١٥	فَبَيَّنَ	فَبَيَّنٌ
٨	٥	فيما	فيما
١٠	٦	ذو غبا	ذو غَبَاء
١٢	٧	مَطْلَع	مُطَّلَع
١٢	١٦	نحو هذا معناه	نحو هذا ومعناه
١٧	٧	نحوه	بنحوه
١٨	١٣	فتقارءا	فتقارأا
٤٢	٢٥	هِجَان	هِجَان
٤٣	١٦	يَقْطَعُ	يُقَطِّعُ
٤٧	١٠	عَمْرُكَ اللهُ	عَمْرَكَ اللهَ
٤٨	٢٨	تُبَيَّنُ	تُبِينُ
٥٨	٥	يَشَا	يَشَإِ
٥٨	١٠	ونَدْمانَ	ونَدْمانِ
٦٢	٧	وأهْلِكَنْ	وأهْلَكَنَ
٦٢	١١	سَلاءَها	سِلاءَها
٦٣	٤	فَخِنْدِفُ	فَخِنْدِفٌ
٦٧	٢٧	تُشَكَّى	تَشَكَّى
٦٧	٢٧	حَمَلْتُكَ	حَمَلْتُكَ
٧٢	١٣	تَعْجَلَنِّى	تُعْجِلَنِّى
٧٣	٩	رَهْمُهُ	رِهَمُهُ
٧٣	٢١	الوَنَا	الوَنَى
٧٣	٢٨	صَبَّحْنَا	صَبَحْنا
٧٤	٢	عن مَنْهَجٍ	عن نَهْجٍ
٧٧	٦	صُدِئَ	صَدِئَ
٧٨	٢٤	أُوارِيَ	أُوارِيَ
٨١	١٧	ويُلْحِينَنِي	ويَلْحَيْنَنِي
٨٩	١٥	شَمْط	شُمُط
٨٩	١٥	بهاضربى ومُعطى	ضَرْبَى بها ومَعْطى
٨٩	٢٥	ماء الأُنْس	ماء الإنْس
٩٠	٢٨	قلنا لها قفى لنا... قَالَت قاف	قلنا لها قفى قالت قاف
٩١	٢٠	خِرْتُ	خَرَتْ
٩٥	٢٦	وطيبِ أَرْدانِهِ	وطَيِّبٌ أَرْدانُهُ
٩٧	٧	خِفافا	خُفَافا
٩٨	٤	حَصِروا	حَصَروا
١٠٨	١٤	نَحِلُ... حِلُ	نَحْلٌ... حُلَ
١٠٨	١٨	ستُشْعِبُهُ شَعُوبُ	ستَشْعَبُهُ شَعُوبٌ
١١١	٦	تَغِدُ	تُغِدُّ
١١٤	٢٥	البَرِمَا	البَرَمَا
١٣٥	٢٣	دعوةَ لاتَ هُنا	دعوةٌ لاتَ هَنَّا
١٤٦	٤	لايَبْعُدَنْ	لايَبْعَدَنْ
١٦٧	٩	فِرْسانُنا	فُرْسانُنا
١٩٨	١٧	ستَهْدِيهِ	ستُهْدِيهِ
٢٢٦	٤	ثُرَيَّا	ثُرْيَا
٢٢٧	٢٤	مُكَرَّسا	مُكْرَسَا
٣٤٦	١١	يَسِفُ	يَسَفُّ
٣٨٠	٢٤	قهدٌ	قهد
٤٠١	٤	بِضُريةٍ	بضَرِيَّةٍ
٤٠٦	١٥	وردًا	وِرَادًا
٤٣٠	٦	رأسُ	رأسِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[وبه ثقتى وعليه اعتمادى رب يسّر] قرئ على أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فى سنة ست وثلثمائة قال :

الحمد لله الذى حجبت الألبابَ بدائعُ حكمه ، وخصمت العقولَ لطائفُ حججه ، وقطعت عذرَ الملحدين عجائبُ صنعه ، وهتفت فى أسماع العالمين ألسن أدلته ، شاهدةً أنه الله الذى لاإله إلا هو ، الذى لاعدل له معادل ، ولا مثل له مماثل ، ولا شريك له مظاهر ، ولا ولد له ولا والد ، ولم يكن له صاحبة ، ولاكفوا أحد . وأنه الجبار الذى خضعت لجبروته الجبابرة ، والعزيز الذى ذلت لعزّته الملوك الأعزّة ، وخشعت لمهابة سطوته ذوو المهابة ، وأذعن له جميع الخلق بالطاعة ، طوعا وكرها ، كما قال الله عزّ وجلّ : (وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) .

فكل موجود إلى وحدانيته داع ، وكل محسوس إلى ربوبيته هاد ، بما وسمهم به من آثار الصنعة ، من نقص وزيادة ، وعجز وحاجة ، وتصرّف فى عاهات عارضة ، ومقارنة أحداث لازمة ، لتكون له الحجة البالغة ، ثم أردف ماشهدت به من ذلك أدلته ، وأكد ما استنارت فى القلوب منه بهجته ، برسل ابتعثهم إلى من يشاء من عباده ، دعاة إلى ما اتضحت لديهم صحته ، وثبتت فى العقول حجته ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليذّكر أولو النهى والحلم ؛ فأمدّهم بعونه ، وأبانهم من سائر خلقه ، بما دلّ به على صدقهم من الأدلة ، وأيدهم به من الحجج البالغة ، والآى المعجزة ، لئلا يقول القائل فيهم : (مَاهَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ) .

فجعلهم سفراء بينه وبين خلقه ، وأمناءه على وحيه ، واختصهم بفضله ، واصطفاهم برسالته ، ثم جعلهم فيما خصهم به مِن مواهبه ، ومَنّ به عليهم من كراماته ، مراتبَ مختلفة ، ومنازلَ مفترقة ، ورَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، متفاضلات متباينات ، فكرّم بعضهم بالتكليم والنجوى ، وأيّد بعضهم بروح القدس ، وخَصّه بإحياء الموتى ، وإبراء أولى العاهة والعمى .

وفَضَّل نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، من الدرجات بالعليا ، ومن المراتب بالعظمى ، فحباه من أقسام كرامته بالقسم الأفضل ، وخصّه من درجات النبوّة بالحظّ الأجزل ، ومن الأتباع والأصحاب بالنصيب الأوفر ، وابتعثه بالدعوة التامة ، والرسالة العامة ، وحاطه وحيدا ، وعصمه فريدا من كل جبار عاند ، وكل شيطان مارد ، حتى أظهر به الدين ، وأوضح به السبيل ، وأنهج[1] به معالم الحق ، ومَحَقَ به منار الشرك ، وزهق به الباطل ، واضمحلّ به الضلال وخدع الشيطان ، وعبادة الأصنام والأوثان ، مؤيَّدا بدلالة على الأيام باقية ، وعلى الدهور والأزمان ثابتة ، وعلى ممرّ الشهور والسنين دائمة ، يزداد ضياؤها على كرّ الدهور إشراقا ، وعلى مرّ الليالى والأيام ائتلاقا ، تخصيصا من الله له بها ، دون سائر رسله الذين قهرتهم[2] الجبابرة ، واستذلتهم[2] الأمم الفاجرة ، فعفت بعدهم منهم الآثار ، وأخملت ذكرهم الليالى والأيام ، ودون مَنْ كان منهم مرسلا إلى أمة دون أمة ، وخاصة دون عامة ، وجماعة دون كافة .

فالحمد لله الذى كرّمنا بتصديقه ، وشرّفنا باتباعه ، وجعلنا من أهل الإقرار والإيمان به ، وبما دعا إليه وجاء به ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أزكى صلواته ، وأفضل سلامه ، وأتمّ تحياته .

أما بعد ، فإن من جسيم ما خصّ الله به أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الفضيلة ، وشرّفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية ، حفظَه ماحفظ ـ جلّ ذكره وتقدّست أسماؤه ـ عليهم من وحيه وتنزيله ، الذى جعله على حقيقة نبوّة نبيهم صلى الله عليه وسلم دلالة ، وعلى ماخصّه به من الكرامة علامة واضحة ، وحجة بالغة ، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ ، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد ، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك ، الذى لو اجتمع جميع مَنْ بين أقطارها ، من جنها وإنسها ، وصغيرها وكبيرها ، على أن يأتوا بسورة من مثله ، لم يأتوا بمثله ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . فجعله لهم فى دجى الظلم نورا ساطعا ، وفى سدف الشبه شهابا لامعا ، وفى مضلة المسالك دليلا هاديا ، وإلى سبل النجاة والحقّ حاديا . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ؛ حرسه بعين منه لاتنام ، وحاطه بركن منه لايضام ؛ لاتهى على الأيام دعائمه ، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجور عن قصد المحجة تابعه ، ولا يضلّ عن سبل الهدى مصاحبه ، من اتبعه فاز وهدى ، ومن حاد عنه ضلّ وغوى . فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون ، ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعتقلون ، وحصنهم الذى به من وساوس الشيطان يتحصنون ، وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون ، وفصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون ، وعن الرضا به يصدرون ، وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون .

اللهمّ فوفقنا لإصابة صواب القول ، فى محكمه ومتشابهه ، وحلاله وحرامه ، وعامه وخاصه ، ومجمله ومفسره ، وناسخه ومنسوخه ، وظاهره وباطنه ، وتأويل آيه ، وتفسير مشكله ، وألهمنا التمسك به .

---

(١) فى م وأبهج بدل وأنهج .

(٢) فى م قهر بهم بدل قهرتهم ، واستذل بهم بدل استذلتهم .

والاعتصام بمحكمه ، والثبات على التسليم لمتشابهه ، وأوْزِعْنا الشكرعلى ما أنعمت به علينا ، من حفظه والعلم بحدوده ، إنك سميع الدعاء ، قريب الإجابة . وصلى الله على سيدنا محمد وآله . وسلم تسليما كثيرا .

اعلموا عباد الله ، رحمكم الله ، أن أحقّ ماصرفت إلى علمه العناية ، وبلغت فى معرفته الغاية ، ما كان لله فى العلم به رضا ، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى ، وأنّ أجمع ذلك لباغيه ، كتاب الله الذى لاريب فيه ، وتنزيله الذى لامرية فيه ، الفائز بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه ، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ونحن فى شرح تأويله ، وبيان ما فيه من معانيه ، منشئون - إن شاء الله ذلك - كتابا ، مستوعبا لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعا ، ومن سائر الكتب غيره فى ذلك كافيا ، ومخبرون فى كل ذلك ، بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمة ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ، ومبينو [1] علل كل مذهب من مذاهبهم ، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك ، بأوجز ما أمكن من الإيجاز فى ذلك ، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه . والله نسأل عونه وتوفيقه ، لما يقرّب من محابه ، ويبعد من مساخطه ، وصلى الله على صفوته من خلقه ، وعلى آله ، وسلم تسليما كثيرا .

وإن أوّل ما نبدأ به من القيل فى ذلك ، الإبانة عن الأسباب التى البداية بها أولى ، وتقديمها قبل ماعداها أحرى ، وذلك البيان عما فى آى القرآن من المعانى ، التى مِنْ قِبَلِها يدخل اللبسُ على من لم يعان رياضة العلوم العربية ، ولم تستحكم معرفته ، بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية .

القول فى البيان عن اتفاق معانى آى القرآن ومعانى منطق من نزل بلسانه من وجه البيان ، والدلالة على أن ذلك من الله جلّ وعز هو الحكمة البالغة ، مع الإبانة عن فضل المعنى ، الذى به باين القرآن سائر الكلام

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، رحمه الله :

إن من عظيم نعم الله على عباده ، وجسيم منته على خلقه ، ما منحهم من فضل البيان ، الذى به عن ضمائر صدورهم يبينون ، وبه على عزائم نفوسهم يدلون ، فذلل به منهم الألسن ، وسهل به عليهم المستصعب فبه إياه يوحدون ، وإياه به يسبحون ويقدّسون ، وإلى حاجاتهم به يتوصلون ، وبه بينهم يتحاورون ، فيتعارفون ويتعاملون .

ثم جعلهم - جلّ ذكره - فيما منحهم من ذلك طبقات ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، فَبيْنَ خطيب مسهب ، وذلق اللسان مهذّب ، ومعجم [2] عن نفسه لايبين ، وعىّ عن ضمير قلبه لايعبر ؛ وجعل أعلاهم فيه رتبة ، وأرفعهم فيه درجة ، أبلغهم فيما أراد به بلاغا ، وأبينهم عن نفسه به بيانا .

---

(١) فى م ومثبتو بدل ومبينو .　　(٢) فى م مفحم بدل معجم .

ثم عرّفهم فى تنزيله ، ومحكم آى كتابه ، فضل ما حباهم به من البيان ، على من فضّلهم به عليه من ذى البكم والمستعجم اللسان ، فقال تعالى ذكره : (أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) .

فقد وضح إذًا لذوى الأفهام، وتبيّن لأولى الألباب ، أن فضل أهل البيان على أهل البكم والمستعجم اللسان ، بفضل اقتدار هذا من نفسه على إبانة ما أراد إبانته عن نفسه ببيانه ، واستعجام لسان هذا عما حاول إبانته بلسانه؛ فإذا كان ذلك كذلك ، وكان المعنى الذى به باين الفاضل المفضول فى ذلك ، فصار به فاضلا ، والآخر مفضولا ، هو ما وصفنا من فضل إبانة ذى البيان ، عما قصر عنه المستعجم اللسان ، وكان ذلك مختلف الأقدار ، متفاوت الغايات والنهايات ، فلا شكّ أن أعلى منازل البيان درجة ، وأسنى مراتبه مرتبة ، أبلغه فى حاجة المبين عن نفسه ، وأبينه عن مراد قائله ، وأقربه من فهم سامعه .

فإن تجاوز ذلك المقدار ، وارتفع عن وسع الأنام ، وعجز عن أن يأتى بمثله جميع العباد ، كان حجة وعلما لرسل الواحد القهار ، كما كان حجة وعلما لها إحياء الموتى وإبراء الأبرص ، وذوى العمى ، بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طبّ المتطببين ، وأرفع مراتب علاج المعالجين ، إلى ما يعجز عنه جميع العالمين ، وكالذى كان لها حجة وعلما قطع مسافة شهرين فى الليلة الواحدة ، بارتفاع ذلك عن وسع الأنام ، وتعذّر مثله على جميع العباد ، وإن كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين ، ولليسير منه فاعلين .

فإذا كان ما وصفنا من ذلك كالذى وصفنا ، فبيّن أن لا بيان أبين ، ولا حكمة أبلغ ، ولا منطق أعلى ، ولا كلام أشرف ، من بيان ومنطق ، تحدّى به امرؤ قوما ، فى زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشعر والفصاحة ، والسجع والكهانة ، كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم وفصيح ، وكل ذى سجع وكهانة ، فسفّه أحلامهم ، وقصر معقولهم[1] ، وتبرأ من دينهم ، ودعا جميعهم إلى اتباعه ، والقبول منه ، والتصديق به ، والإقرار بأنه رسول إليهم من ربهم . وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته ، وحجته على حقيقة نبوّته ،ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان ، بلسان مثل ألسنتهم ، ومنطق موافقة معانيه معانى منطقهم ، ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزة ، ومن القدرة عليه نقصة .

فأقرّ جميعُهم بالعجز ، وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستورا ، ومن عىّ لسانه ما كان مصونا ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، فالخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ! ! ونحو ذلك من الحماقات ، المشبهة دعواه الكاذبة .

فإذا كان تفاضل مراتب البيان ، وتباين منازل درجات الكلام بما وصفنا قبل ، وكان الله ـ تعالى ذكره

---

(١) فى م بعقولهم .

وتقدّست أسماؤه - أحكم الحكماء ، وأحلم الحلماء ، كان معلوما أن أبينَ البيان بيانُه ، وأفضلَ الكلام كلامُه ، وأن قدر فضل بيانه - جل ذكره - على بيان جميع خلقه ، كفضله على جميع عباده .

فإن كان ذلك كذلك ، وكان غير مبين منا عن نفسه مَنْ خاطب غيره بما لايفهمه عنه المخاطَب ، كان معلوما أنه غير جائز أن يخاطب - جل ذكره - أحدا من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَب ، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولا برسالة ، إلا بلسان وبيان يفهمه المرسَل إليه ، لأن المخاطَب والمرسَل إليه ، إن لم يفهم ماخوطب به وأرسل به إليه ، فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء ، إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئا كان به قبل ذلك جاهلا . والله - جل ذكره - يتعالى عن أن يخاطب خطابا . أو يرسل رسالة لاتوجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه ، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث ، والله تعالى عن ذلك متعال ، ولذلك قال - جلّ ثناؤه - فى محكم تنزيله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، وقال لنبيه ، محمد صلى الله عليه وسلم : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

فغير جائز أن يكون به مهتديا من كان بما يهدى إليه جاهلا ، فقد تبين إذًا بما عليه دللنا من الدلالة أن كل رسول لله جلّ ثناؤه ، أرسله إلى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه ، وكل كتاب أنزله على نبىّ ، ورسالة أرسلها إلى أمة ، فانما أنزله بلسان من أنزله أوأرسله إليه ، واتضح بما قلنا ووصفنا ، أن كتاب الله ، الذى أنزله إلى نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان لسان محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربيا ، فبيّن أن القرآن عربىّ ، وبذلك أيضا نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جلّ ذكره : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) . وإذ كانت واضحة صحة ماقلنا بما عليه استشهدنا من الشواهد ودللنا عليه من الدلائل ، فالواجب أن تكون معانى كتاب الله المنزل ، على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لمعانى كلام العرب موافقة ، وظاهرُه لظاهر كلامها ملائما ، وإن باينه كتابُ الله بالفضيلة ، التى فضل بها سائرَ الكلام والبيان ، بما قد تقدم وصفنا ؛ فإذا كان ذلك كذلك ، فبيِّن إذ كان موجودا فى كلام العرب الإيجاز والاختصار ، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار ، وبالقلة من الإكثار ، فى بعض الأحوال ، واستعمال الإطالة والإكثار ، والترداد والتكرار ، وإظهار المعانى بالأسماء دون الكناية عنها ، والإسرار فى بعض الأوقات ، والخبر عن الخاص فى المراد بالعام الظاهر ، وعن العام فى المراد بالخاص الظاهر ، وعن الكناية والمراد منه المصرّح ، وعن الصفة والمراد الموصوف ، وعن الموصوف والمراد الصفة ، وتقديم ما هو فى المعنى مؤخر ، وتأخير ما هو فى المعنى مقدم ، والاكتفاء ببعض من بعض ، وبما يظهر عما يحذف ، وإظهار ما حظه الحذف ، أن يكون ما فى كتاب الله المنزل ، على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك فى كل ذلك له نظيرا ؛ وله مثلا وشبيها ؛ ونحن مبينو جميع ذلك فى أماكنه ، إن شاء الله ذلك ، وأمدّ منه بعون وقوة .

القول فى البيان عن الأحرف التى اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم

قال أبو جعفر :

إن سألنا سائل ، فقال : إنك ذكرت أنه غير جائز ، أن يخاطب الله أحدا من خلقه إلا بما يفهمه . وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذى يفقهه ، فما أنت قائل فيما حدثكم به محمد بن حميد الرازى ، قال : حدثنا حكام بن سلم ، قال : حدثنا عنبسة عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص ، عن أبى موسى : يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ . قال : الكفلان : ضعفان من الأجر ، بلسان الحبشة .

وفيما حدثكم به ، ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن أبى إسحق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ . قال : بلسان الحبشة ، إذا قام الرجل من الليل ، قالوا : نشأ .

وفيما حدثكم به ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، قال : حدثنا عنبسة ، عن أبى إسحق ، عن أبى ميسرة : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ . قال : سبحى ، بلسان الحبشة .

قال أبو جعفر : وكل ما قلنا فى هذا الكتاب حدثكم ، فقد حدثونا به .

وفيما حدثكم به ، محمد بن خالد بن خداش الأزْدى قال : حدثنا سلم بن قتيبة ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن علىّ بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه سُئِل عن قوله : فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ . قال : هو بالعربية : الأسد . وبالفارسية : شار . وبالنبطية : أريا . وبالحبشية : قسورة .

وفيما حدثكم به ابن حميد ، قال : حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن [على رجل] أعجميا وعربيا ! فأنزل الله تعالى ذكره : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِيًّا لقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ للَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفاءٌ) فأنزل الله بعد هذه الآية فى القرآن بكل لسان ، فيه [1] حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . قال : فارسية أعربت : سنك وكل .

وفيما حدثكم به ، محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحق ، عن أبى ميسرة ، قال : فى القرآن من كل لسان . وفيما أشبه ذلك من الأخبار ، التى يطول بذكرها الكتاب ، مما يدل على أن فيه من غير لسان العرب ؟ ؟

قيل له : إن الذى قالوه من ذلك ، غير خارج من معنى ما قلنا ، من أجل أنهم لم يقولوا هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاما ، ولا كان ذلك لها منطقا قبل نزول القرآن ، ولا كانت بها العرب عارفة ، قبل مجىء الفرقان ، فيكون ذلك قولا لقولنا خلافا . وإنما قال بعضهم : حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا ،

---

(١) فى م : فنه بدل فيه .

وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا ، ولم يستنكر أن يكون من الكلام ، ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد ، فكيف بجنسين منها .

كما قد وجدنا اتفاق كثير منه ، فيما قد علمناه من الألسن المختلفة ، وذلك كالدرهم ، والدينار ، والدواة ، والقلم ، والقرطاس ، وغير ذلك ، مما يتعب إحصاؤه ، ويمل تعداده ، كرهنا إطالة الكتاب بذكره ، مما اتفقت فيه الفارسية والعربية ، باللفظ والمعنى . ولعل ذلك كذلك فى سائر الألسن ، التى يجهل منطقها ، ولا يعرف كلامها .

فلو أن قائلا قال : فيما ذكرنا من الأشياء التى عددنا وأخبرنا اتفاقه فى اللفظ والمعنى ، بالفارسية والعربية ، وما أشبه ذلك مما سكتنا عن ذكره ، ذلك كله فارسى لا عربى ، أو ذلك كله عربى لا فارسى ، أو قال : بعضه عربى وبعضه فارسى ، أو قال : كان مخرج أصله من عند العرب ، فوقع إلى العجم فنطقوا به ، أو قال : كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته . كان مستجهلا ، لأن العرب ليست بأولى أن تكون كان مخرج أصل ذلك منها إلى العجم ، ولا العجم بأحق أن تكون كان مخرج أصل ذلك منها إلى العرب . إذ كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجودا فى الجنسين ، وإن كان ذلك موجودا على ما وصفنا فى الجنسين ، فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده ، من الجنس الآخر ، والمدعى أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر مدع أمرا لا يوصل إلى حقيقة صحته ، إلا بخبر يوجب العلم ، ويزيل الشك ، ويقطع العذر صحته .

بل الصواب فى ذلك عندنا أن يسمى عربيا أعجميا ، أو حبشيا عربيا ، إذا كانت الأمتان له مستعملتين فى بيانها ومنطقها ، استعمال سائر منطقها وبيانها ؛ فليس غير ذلك من كلام كل أمة منهما بأولى أن يكون إليها منسوبا منه ، فكذلك سبيل كل كلمة واسم ، اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها ومعناها ، ووجد ذلك مستعملا فى كل جنس منها ، استعمال سائر منطقهم ، فسبيل إضافته إلى كل جنس منها ، سبيل ما وصفنا من الدرهم ، والدينار ، والدواة ، والقلم ، التى اتفقت ألسن الفرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة ، والمعنى الواحد ، فى أنه مستحق إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس باجتماع وافتراق .

وذلك هو معنى من روينا عنه القول ، فى الأحرف التى مضت فى صدر هذا الباب ، من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة ، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الفرس ، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم ، لأن من نسب شيئا من ذلك إلى ما نسبه إليه ، لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه ، أن يكون عربيا ، ولا من قال منهم هو عربى نفى ذلك أن يكون مستحقا النسبة إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها ، وإنما يكون الإثبات دليلا على النفى فيما لا يجوز اجتماعه من المعانى كقول القائل : فلان قائم ، فيكون بذلك من قوله دالا على أنه غير قاعد ، ونحو ذلك ، مما يمتنع اجتماعه لتنافيهما .

فأما ما جاز اجتماعه ، فهو خارج من هذا المعنى ، وذلك كقول القائل : فلان قائم مكلم فلانا ، فليس

فى تثبيت القيام له مادلّ على نفى كلام آخر . لجواز اجتماع ذلك فى حال واحد . من شخص واحد . فقائل ذلك صادق ، إذا كان صاحبه على ما وصفه به .

فكذلك ما قلنا فى الأحرف التى ذكرنا وما أشبهها . غير مستحيل أن يكون عربيا بعضها أعجميا ، وحبشيا بعضها عربيا ، إذ كان موجودا استعمال ذلك فى كلتا الأمتين . فَنَاسِبُ مانسب من ذلك . إلى إحدى الأمتين ، أو كلتيهما ، محقّ غير مبطل .

فإن ظنّ ذو غبا أن اجتماع ذلك فى الكلام مستحيل . كما هو مستحيل فى أنساب بنى آدم . فقد ظنّ جهلا ؛ وذلك أن أنساب بنى آدم . محصورة على أحد الطرفين دون الآخر . لقول الله تعالى ذكره : (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) وليس ذلك كذلك فى المنطق والبيان ، لأن المنطق إنما هو منسوب إلى من كان به معروفا استعماله .

فلو عُرِف استعمال بعض الكلام فى أجناس من الأمم . جنسين أو أكثر . بلفظ واحد ومعنى واحد . كان ذلك منسوبا إلى كل جنس من تلك الأجناس. لايستحق جنس منها أن يكون به أولى من سائر الأجناس غيره . كما لو أن أرضا بين سهل وجبل. لها هواء السهل وهواء الجبل ، أو بين برّ وبحر . لها هواء البرّ وهواءالبحر ، لم يمتنع ذو عقل صحيح . أن يصفها بأنها سهلية جبلية أو بأنها برية بحرية . إذ لم تكن نسبتها إلى إحدى صفتيها ، نافية حقها من النسبة إلى الأخرى .

ولو أفرد لها مفرد إحدى صفتيها ولم يسلبها صفتها الأخرى . كان صادقا محقا ؛ وكذلك القول فى الأحرف التى تقدم ذكرنا لها فى أول هذا الباب . وهذا المعنى الذى قلناه فى ذلك . هو معنى قول مَنْ قال فى القرآن: من كل لسان عندنا . بمعنى - والله أعلم - أن فيه من كل لسان. اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التى تنطق به. نظير ما وصفنا من القول فيما مضى . وذلك أنه غيرجائز أن يتوهم على ذى فطرة صحيحة . مقرّ بكتاب الله. ممن قد قرأ القرآن. وعرف حدود الله. أن يعتقد أن بعض القرآن فارسى لاعربى . وبعضه نبطى لاعربى . وبعضه عربى لافارسى . وبعضه حبشى لاعربى . بعد ما أخبر الله تعالى ذكره عنه. أنه جعله قُرْآناً عَرَبِيّاً . لأن ذلك إن كان كذلك فليس قول القائل القرآن حبشى أو فارسى . ولا نسبة من نسبه إلى بعض ألسن الأمم ، التى بعضه بلسانه دون العرب ، بأولى بالتطوّل . من قول القائل هو عربى ، ولا قول القائل هو عربى بأولى بالصحة والصواب ، من قول ناسبه إلى بعض الأجناس التى ذكرناها ، إذ كان الذى بلسان غير العرب ، من سائر ألسن أجناس الأمم ، فيه نظير الذى فيه من لسان العرب .

وإذ كان ذلك كذلك ، فبيِّنٌ إذًا خطأ قول من زعم ، أن القائل من السلف فى القرآن . مَنْ كل لسان ، إنما عنى بقيله ذلك ، أن فيه من البيان ماليس بعربىّ ، ولا جائزة نسبته إلى لسان العرب .

ويقال لمن أبى ما قلنا ، ممن زعم أن الأحرف التى قدمنا ذكرها فى أول الباب وما أشبهها ، إنما هى كلام أجناس الأمم سوى العرب ، وقعت إلى العرب فعرّبته : ما برهانك على صحة ما قلتَ فى ذلك ، من الوجه الذى يجب التسليم له ؟ فقد علمت مَنْ خالفك فى ذلك فقال فيه خلاف قولك ، وما الفرق بينك

وبين من عارضك فى ذلك ، فقال : هـذه الأحرف وما أشبهها من الأحرف غيرها ، أصلها عربى غير أنها وقعت إلى سائر أجناس الأمم غيرها ، فنطقت كل أمة منها ببعض ذلك بألسنتها من الوجه الذى يجب التسليم له ؟ فلن يقول فى شىء من ذلك قولا إلا ألزم فى الآخر مثله .

فإن اعتلّ فى ذلك بأقوال السلف ، التى قد ذكرنا بعضها وما أشبهها ، طولب مطالبتنا مَنْ تأوّل عليهم فى ذلك تأويله ، بالذى قد تقدم فى بياننا ، وقيل له ما أنكرت أن يكون مَن نسب شيئا من ذلك منهم ، إلى من نسبه من أجناس الأمم سوى العرب ، إنما نسبه إلى إحدى نسبتيه ، التى هو لها مستحق ، من غير نفى منه عنه النسبة الأخرى . ثم يقال له : أرأيت من قال لأرض سهلية جبلية ، هى سهلية ، ولم ينكر أن تكون جبلية ، أو قال : هى جبلية ، ولم يدفع أن تكون سهلية ، أنافٍ عنها أن تكون لها الصفة الأخرى بقيله ذلك ؟ فإن قال : نعم ! كابر عقله . وإن قال : لا ! قيل له : فما أنكرت أن يكون قول من قال فى سجيل ، هى فارسية ، وفى القسطاس هى رومية ، نظير ذلك . وسئل الفرق بين ذلك ، فلن يقول فى أحدهما قولا إلا ألزم فى الآخر مثله .

القول فى اللغة التى نزل بها القرآن من لغات العرب

قال أبو جعفر :

قد دللنا على صحة القول ، بما فيه الكفاية ، لمن وُفّقَ لفهمه ، على أن الله ـ جلّ ثناؤه ـ أنزل جميع القرآن ، بلسان العرب دون غيرها ، من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها ، فنقول الآن إذا كان ذلك صحيحا فى الدلالة عليه : بأىّ ألسن العرب أنزل ؟ أبألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ إذ كانت العرب ، وإن جمَعَ جميعها اسمٌ أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام .

وإن كان ذلك كذلك ، وكان الله ـ جل ذكره ـ قد أخبر عباده ، أنه قد جعل القرآن عربيا ، وأنه أُنْزِلَ بلسانٍ عربىٍّ مُبِين ، ثم كان ظاهره محتملا خصوصا وعموما ، لم يكن لنا السبيل إلى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه ، إلا ببيان من جُعِلَ إليه بيانُ القرآن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا كان ذلك كذلك ، وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه ، صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنا به خلاد ابن أسلم ، قال : حدثنا أنس بن عياض ، عن أبى حازم ، عن أبى سلمة ، قال : لاأعلمه إلا عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« أُنْزِلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، فالمِرَاءُ فى القُرآنِ كُفْرٌ ـ ثلاث مرات ـ فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إلى عالمِهِ » .

وحدثنى عبيد بن أسباط بن محمد ، قال : حدثنا أبى ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أُنْزِلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ عَلِيمٌ حَكِيمٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثني عبدة بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، مثله .

وحدثنا محمد بن حميد الرازي ، قال : حدثنا جرير[1] بن عبد الحميد ، عن مغيرة ، عن واصل بن حيان ، عمن ذكره ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُنْزِلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْها ظَهْرٌ وبَطْنٌ ، ولِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ ، ولِكُلِّ حَدٍّ مُطَّلَعٌ » .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا مهران ، قال : حدثنا سفيان ، عن إبراهيم الهجرى ، عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ، ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، مثله .

حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ، قال : حدثنا أبو بكر بن عياش ، قال : حدثنا عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله ، قال : اختلف رجلان في سورة ، فقال هذا : أقرأني النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وقال هذا : أقرأني النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأخبر بذلك ، قال : فتغير وجهه ، وعنده رجل ، فقال :

« اقْرَءُوا كَمَا عَلِمْتُمْ – فلا أدرى أبشيء أمر أم بشيء ابتدعه من قبل نفسه – فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ اخْتِلافُهُمْ على أنْبِيائِهِمْ » .

قال : فقام كل رجل منا وهو لايقرأ على قراءة صاحبه . نحو هذا معناه .

حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا الأعمش ، وحدثني أحمد ابن منيع ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد الأموى ، عن الأعمش عن عاصم ، عن زرّ بن حبيش ، قال : قال عبد الله بن مسعود : تماريْنا في سورة من القرآن ، فقلنا : خمس وثلاثون ، أو ستّ وثلاثون آية . قال : فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدنا عَليًّا يناجيه ، قال : فقلنا : إنا اختلفنا في القراءة ، قال : فاحمرّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ ، باخْتِلافِهِمْ بَيْنَهُمْ » قال : ثم أسرّ إلى عليٍّ شيئا ، فقال لنا عليٌّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرءوا كما علمتم .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن عيسى بن قرطاس ، عن زيد القصار ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا معه في المسجد فحدثنا ساعة ، ثم قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقرأني عبد الله بن مسعود سورة ، أقرأنيها زيد ، وأقرأنيها أُبيّ بن كعب ، فاختلفت

---

(١) ق م : جهير .

قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وعليّ إلى جنبه ، فقال عليّ : ليقرأ كل إنسان كما عُلِّم ، كلٌّ حسن جميل .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني عروة بن الزبير : أن المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القاريّ ، أخبراه: أنهما سمعا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يقول : سمعت هشام بن حكيم ، يقرأ سورة الفرقان ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة ، لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبَّرتُ حتى سلَّم ، فلما سلم لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: كذبتَ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهو أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله ، إنى سمعت هذا، يقرأ سورة الفرقان، على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرْسِلْه يا عمر! اقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرؤها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ هذا القرآن أُنْزِلَ على سبْعةِ أحْرُفٍ ، فاقرءُوا ما تيسَّرَ مِنْها» .

حدثني أحمد بن منصور ، قال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، قال : حدثنا حرب بن أبى ثابت من بنى سليم ، قال : حدثنا إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فغير عليه ، فقال : لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يغير عليّ . قال : فاختصما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ألم تقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع فى صدر عمر شىء ، فعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك فى وجهه ، قال : فضرب صدره ، وقال : ابعد شيطانا ! ! قالها ثلاثا ، ثم قال : «يا عُمَرُ ، إنَّ القُرآنَ كُلَّهُ صَوَابٌ ، ما لَمْ تَجْعَلْ رَحْمَةً عَذَاباً ، أوْ عَذَاباً رَحْمَةً» .

حدثنا عبيد الله بن محمد الفريابى ، قال : حدثنا عبد الله بن ميمون ، قال : حدثنا عبيد الله : يعنى ابن عمر [١] عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : «سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، رجلا يقرأ القرآن، فسمع آية على غير ما سمع ، من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأتى به عمر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن هذا قرأ آية كذا وكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُنْزِلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، كلُّها شافٍ كافٍ .

---

(١) هو عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، وليس هو ابن عمر بن الخطاب مباشرة .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني هشام بن سعد ، عن عليّ بن أبي عليّ ، عن زبيد [١] ، عن علقمة النخعي ، قال : لما خرج عبد الله بن مسعود من الكوفة ، اجتمع إليه أصحابه فودعهم ، ثم قال : لاتنازعوا فى القرآن ، فانه لايختلف ولا يتلاشى ولايتغير لكثرة الرّد . وإن شريعة الإسلام وحدودَه وفرائضَه فيه واحدة ، ولو كان شيء من الحرفين ينهى عن شيء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله ، لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ولا شيء من شرائع الإسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع فيه ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أنّ كلنا محسن ، ولو أعلم أحدا أعلم بما أنزل الله على رسوله منى لطلبته ، حتى أزداد علمه إلى علمى ، ولقد قرأت من لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يُعْرض عليه القرآن فى كل رمضان ، حتى كان عام قُبِض ، فعُرِض عليه مرّتين ، فكان إذا فرغ ، أقرأ عليه ، فيخبرنى أنى محسن ، فمن قرأ على قراءتى فلا يَدَعَنَّها رغبة عنها ، ومن قرأ على شيء من هذه الحروف ، فلا يَدَعَنَّه رغبة عنه ، فانه من جحد بآية جحد به كله .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس ؛ وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا رشدين بن سعد ، عن عقيل بن خالد جميعا ، عن ابن شهاب ، قال : حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أن ابن عباس ، حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« أقْرَأني جِبْرِيلُ على حَرْفٍ ، فَرَاجَعْتُهُ ، فلَمْ أزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيَزِيدُنِي ، حتى انْتَهَى إلى سَبْعَةِ أحْرُفٍ » . قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف ، إنما هى فى الأمر ، الذى يكون واحدا ، لايختلف فى حلال ولا حرام .

حدثني محمد بن عبد الله بن أبي مخلد الواسطي ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفى ، قالا : حدثنا سفيان ابن عيينة ، عن عبيد الله ، أخبره أبوه ، أن أمّ أيوب أخبرته ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

« أُنْزِلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، أيّها قرأتَ أصَبْتَ » .

حدثنا إسمعيل بن موسى السدى ، قال : أنبأنا شريك ، عن أبي إسحق ، عن سليمان بن صرد ، يرفعه ، قال :

« أتاني مَلَكَانِ فقال أحَدُهما : اقرَأْ . قالَ : على كَمْ ؟ قالَ : على حَرْفٍ ، قالَ : زِدْهُ ، حتى انْتَهَى بِهِ إلى سَبْعَةِ أحْرُفٍ » .

حدثنا ابن البرقى ، قال : حدثنا ابن أبي مريم ، قال : حدثنا نافع بن يزيد ، قال : حدثني عقيل بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أقْرَأَنِي جِبْرِيلُ القُرآنَ على حَرْفٍ ، فاسْتَزَدْتُهُ فزَادَنِي ، ثُمّ اسْتَزَدْتُهُ فزَادَنِي ، حتى انْتَهَى إلى سَبْعَةِ أحْرُفٍ » .

حدثني الربيع بن سليمان ، قال : حدثنا أسد بن موسى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبيد الله بن

(١) ف م : زيد .

أبى يزيد ، عن أبيه ، أنه سمع أم ّ أيوب تحدث عن النبى ّ صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه ، يعنى نحو حديث ابن أبى مخلد .

حدثنا الربيع ، قال : حدثنا أسد ، قال : حدثنا أبو الربيع السمان ، قال : حدثنى عبيد الله بن أبى يزيد ، عن أبيه ، عن أم ّ أيوب ، أنها سمعت النبى ّ صلى الله عليه وسلم يقول :

« نَزَلَ القُرْآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، فَمَا قَرَأْتَ أصَبْتَ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنى يحيى بن آدم ، قال : حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحق ، عن فلان العبدى ـ قال أبو جعفر : ذهب عنى اسمه ـ عن سليمان بن صرد ، عن أبىّ بن كعب ، قال : « رحت إلى المسجد فسمعت رجلا يقرأ ، فقلت : من أقرأك ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانطلقت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : استقرئ هذا ، قال : فقرأ ، فقال : أحْسَنْتَ ، قال : فقلت : إنك أقرأتنى كذا وكذا ، فقال : وأنْتَ قَدْ أحْسَنْتَ ، قال : فقلت : قد أحسنت قد أحسنت ! قال : فضرب بيده على صدرى ثم قال : اللّهُمَّ أذْهِبْ عَنْ أُبَىٍّ الشّكَّ . قال : ففضت عرقا ، وامتلأ جوفى فرقا ، ثم قال : إنّ المَلَكَيْنِ أتيانِي ، فقالَ أحَدُهُمَا : اقْرأ القُرآنَ على حَرْفٍ . وقالَ الآخَرُ : زِدْهُ ، قالَ : فقُلْتُ : زِدْنِي . قالَ : اقْرأهُ على حَرْفَيْنِ ، حتى بَلَغَ سَبْعَةَ أحْرُفٍ ، فقالَ : اقْرأْ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ » .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ، وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا محمد بن ميمون الزعفرانى جميعا ، عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه ، قال : ما حاك فى صدرى شىء ، منذ أسلمت ، إلا أنى قرأت آية ، فقرأها رجل غير قراءتى ، فقلت : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الرجل : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أقرأتنى آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال الرجل : ألم تقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : بَلَى ! إنّ جِبْرِيلَ وَمِيكائيلَ عَلَيْهِما السّلامُ ، أتَيانِي ، فَقَعَدَ جِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِي وَمِيكائيلُ عَنْ يَسارِي ، فقالَ جِبْرِيلُ : اقْرأِ القُرآنَ على حَرْفٍ واحِدٍ ، وَقالَ مِيكائيلُ : اسْتَزِدْهُ . قالَ جِبْرِيلُ : اقْرأِ القُرآنَ على حَرْفَيْنِ . فَقالَ مِيكائيلُ : اسْتَزِدْهُ ، حتى بَلَغَ سِتّةَ أوْ سَبْعَةَ . الشك من أبى كريب .

وقال ابن بشار فى حديثه : حتى بلغ سبعة أحرف ـ ولم يشك فيه ـ وكلٌّ شافٍ كافٍ ، ولفظ الحديث لأبى كريب .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يحيى بن أيوب ، عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن أبىّ بن كعب ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بنحوه . وقال فى حديثه : حتى بلغ ستة أحرف ، قال : اقرأه على سبعة أحرف ، كل شاف كاف .

حدثنا محمد بن مرزوق ، قال : حدثنا أبو الوليد ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن أنس بن مالك ، عن عبادة بن الصامت ، عن أبىّ بن كعب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أُنزِلَ القُرآنُ على سبْعَةِ أحرُفٍ » .

حدثنا أبو كريب قال : حدثنا حسين بن عليّ ، وأبو أسامة ، عن زائدة ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن أبيّ ، قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جبريل عند أحجار المراء ، فقال : إنى بعثت إلى أمة أميين ، منهم الغلام والخادم والشيخ الفانى والعجوز . فقال جبريل : فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف . ولفظ الحديث لأبى أسامة .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن نمير ، قال : حدثنا إسمعيل بن أبى خالد، وحدثنا عبد الحميد بن بيان القناد ، قال : حدثنا محمد بن يزيد الواسطى ، عن إسمعيل ، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن جده ، عن أبيّ بن كعب ، قال : كنت فى المسجد ، فدخل رجل يصلى ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل رجل آخر ، فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه ، فدخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : فقلت : يا رسول الله ! إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرآ ، فحسَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنَهُما ، فوقع فى نفسى من التكذيب، ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماغشينى ، ضرب فى صدرى ، ففضت عرقا كأنما أنظر إلى الله فرقا ، فقال لى : يا أُبَىُّ ! أُرْسِلَ إلىَّ أنِ اقْرَأ القرآنَ علىَ حرْفٍ ، فرَدَدْتُ عليْهِ : أنْ هوِّنْ على أُمَّتِى ! فرَدَّ علىَّ فى الثَّانيَةِ : أنِ اقْرَأ القُرآنَ علىَ حرْفٍ ، فرَدَدْتُ عليْهِ : أنْ هوِّنْ على أُمَّتِى ! فرَدَّ علىَّ فى الثَّالِثَةِ : أنِ اقْرأْهُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، ولكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُها مَسْئَلَةٌ تسْألُنيها ، فقُلْتُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأُمَّتِى ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأُمَّتِى ، وأخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إلىَّ فِيهِ الخَلْقُ كُلُّهُمْ حتى إبْرَاهِيم .

إلا أن ابن بيان قال فى حديثه : فقال لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم : « قد أصبتم وأحسنتم » وقال أيضا : « فارفضضت عرقا » .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا محمد بن فضيل ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، بإسناده عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، نحوه ، وقال : قال لى : أعيذك بالله من الشكّ والتكذيب ؛ وقال أيضا : « إن الله أمَرَنِى أنْ أقْرأَ القُرآنَ على حرْفٍ ، فقُلْتُ : اللَّهُمَّ رَبِّ خفِّفْ عنْ أُمَّتِى ! قالَ : اقْرأْهُ على حرْفَيْنِ ، فأمَرَنِى أنْ أقْرأَهُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، منْ سَبْعَةِ أبْوَابٍ منَ الجنَّةِ كُلُّها شاف كاف » .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى بن أبى ليلى ، [و] عن ابن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن ابن أبى ليلى ، عن أبىّ ، قال : دخلت المسجد ، فصليت فقرأت النحل ، ثم جاء رجل آخر ، فقرأها على غير قراءتى ، ثم دخل رجل آخر ، فقرأ بخلاف قراءتنا ، فدخل فى نفسى من الشك والتكذيب ، أشدّ مما كان فى الجاهلية ، فأخذت بأيديهما ، فأتيت بهما النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ! استقرئ هذين ؛ فقرأ أحدهما ، فقال : أصبت . ثم استقرأ الآخر ،

فقال : أصبت . فدخل قلبي أشدّ مما كان في الجاهلية من الشك والتكذيب ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . صدري . وقال : أعاذَكَ اللهُ مِنَ الشَّكِّ ، وأخسأ عَنْكَ الشَّيْطانَ . قال إسمعيل : ففضت عرقا . ولم يقله ابن أبي ليلى . قال : فقال : أتاني جِبْرِيلُ ، فَقالَ : اقْرَأِ القُرآنَ على حَرْفٍ واحد . فقُلْتُ : إنَّ أُمَّتِي لاتَسْتَطِيعُ ذلكَ ، حتى قالَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، فقال لى : اقْرأ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، وَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتَها مَسْئَلَةٌ [١] ، قال : فاحتاج إلىّ فيها الخلائق ، حتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عبد الله ، عن ابن أبي ليلى [٢] ، عن الحكم ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيّ ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، نحوه .

حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، قال : حدثنا عبد الصمد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا محمد ابن جحادة ، عن الحكم بن عتيبة ، عن مجاهد ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبيّ بن كعب ، قال : أتى جبريلُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو عند أضاة بني غفار ، فقال : إن الله تبارك وتعالى ، يأمرك أن تُقْرِئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فمن قرأ منها حرفا فهو كما قرأ .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبيّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان عند أضاة بني غفار ، قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن الله يأمرك أن تُقْرِئ أمتك القرآن على حرف . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك . قال : ثم أتاه الثانية ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لاتطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لاتطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبي عديّ ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن أبي ليلى قال : أتى جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عند أضاة بني غفار ، فذكر نحوه .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا موسى بن داود ، قال : حدثنا شعبة ، وحدثنا الحسن بن عرفة ، قال : حدثنا شبابة ، قال : حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبيّ بن كعب ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني هشام بن سعد ، عن عبيد الله ابن عمر ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيّ بن كعب ، أنه قال : سمعت رجلا يقرأ في سورة النحل ، قراءة تخالف قراءتي ، ثم سمعت آخر يقرؤها قراءة تخالف ذلك ، فانطلقت بهما إلى رسول الله صلى الله

(١) في هامش م : هكذا بالأصل ، ولعل هنا سقطا يعلم من الرواية السابقة .
(٢) هكذا في الأصول ، ويظهر أنه قد سقط من السند راويان أو ثلاثة .

عليه وسلم ، فقلت : إنى سمعت هذين يقرآن فى سورة النحل ، فسألتهما : من أقرأهما ؟ فقالا : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : لأذهبنّ بكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ خالفتما ما أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحدهما : اقرأ . فقرأ ، فقال : أحسنت ! ثم قال للآخر : اقرأ . فقرأ ، فقال : أحسنت ؛ قال أبىّ : فوجدت فى نفسى وسوسة الشيطان ، حتى احمرّ وجهى ، فعرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهى ، فضرب بيده فى صدرى ، ثم قال : اللهمّ أخسئ الشيطان عنه ! يا أبىّ ، أتانى آت من ربى ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : ربِّ خفف عنى . ثم أتانى الثانية ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : ربِّ خفف عن أمتى . ثم أتانى الثالثة ، فقال مثل ذلك ، وقلت مثله . ثم أتانى الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكلّ ردّة مسئلة ، فقلت : يا ربّ اغفر لأمتى ، يا ربّ اغفر لأمتى ، واختبأت الثالثة شفاعتى لأمتى يوم القيامة .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت عبيد الله بن عمر ، عن سيار أبى الحكم ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ذكر : أن رجلين اختصما فى آية من القرآن ، وكلّ يزعم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أقرأه ، فتقارءا إلى أبىّ ، فخالفهما أبىّ ، فتقارءوا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبىّ الله ، اختلفنا فى آية من القرآن ، وكلنا يزعم أنك أقرأته . فقال لأحدهما : اقرأ . قال : فقرأ . فقال : أصبت . وقال للآخر : اقرأ . فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه . فقال : أصبت . وقال لأبىّ : اقرأ . فقرأ فخالفهما . فقال : أصبت . قال أبىّ : فدخلنى من الشكّ فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دخل فىّ من أمر الجاهلية ، قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى فى وجهى ، فرفع يده فضرب صدرى ، وقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : ففضت عرقا ، وكأنى أنظر إلى الله فرقا ، وقال : إنه أتانى آت من ربى ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ خفف عن أمتى . قال : ثم جاء ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ خفف عن أمتى . قال : ثم جاء الثالثة ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ خفف عن أمتى . قال : ثم جاءنى الرابعة ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة مسئلة ، قال : قلت : ربّ اغفر لأمتى ، ربّ اغفر لأمتى ؛ واختبأت الثالثة شفاعة لأمتى ، حتى إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، خليل الرحمن ، ليرغب فيها .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا زيد بن الحباب ، عن حماد بن سلمة ، عن علىّ بن زيد ، عن عبد الرحمن ابن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال جبريل : اقرءوا القرآن على حرف . فقال ميكائيل : استزده . فقال : على حرفين . حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف . فقال : كلها شافٍ كافٍ ، ما لم يختم آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب ، كقولك : هلمّ وتعال .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنا سليمان بن بلال ، عن يزيد ابن خصيفة ، عن بشر بن سعيد : أن أبا جهم الأنصارى ، أخبره : أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن ، فقال هذا : تلقيتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، فَلا تَمارَوْا فى القُرْآنِ ، فإنَّ المِراءَ فيهِ كُفْرٌ » .

حدثنا يونس قال : أخبرنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أُنْزِلَ القُرْآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ كُلُّها شافٍ كافٍ » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى سليمان بن بلال ، عن أبى عيسى بن عبد الله ابن مسعود ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُمِرْتُ أنْ أقْرَأ القُرْآنَ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، كلٌّ كافٍ شافٍ »[1] .

حدثنا أحمد بن حازم الغفارى ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا أبو خلدة ، قال : حدثنى أبو العالية ، قال : قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كل خمس رجلٌ ، فاختلفوا فى اللغة ، فرضى قراءتهم كلهم ، فكان بنو تميم أعرب القوم .

حدثنا عمرو بن عثمان العثمانى ، قال : حدثنا ابن أبى أويس ، قال : حدثنا أخى ، عن سليمان بن بلال ، عن محمد بن عجلان ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ هَذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، فاقْرَءُوا ولا حَرَجَ ، ولكِنْ لا تَخْتِمُوا ذِكْرَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ ، ولا ذِكْرَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ » .

حدثنا محمد بن مرزوق[2] ، قال : حدثنا أبو معمر عبد الله بن عمرو بن أبى الحجاج ، قال حدثنا عبد الوارث ، قال حدثنا محمد بن جحادة ، عن الحكم بن عتيبة ، عن مجاهد ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أُبىّ بن كعب ، قال : « أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم جبريلُ ، وهو بأضاة بنى غفار ، فقال : إنَّ اللهَ يأمرك أن تُقرِئَ أمتك القرآن على حرف واحد . قال ، فقال : أسأل اللهَ مغفرته ومعافاته ـ أو قال : معافاته ومغفرته ـ سَلِ اللهَ لهم التخفيف ، فإنهم لايطيقون ذلك . فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين . قال : أسأل الله مغفرته ومعافاته ـ أو قال : معافاته ومغفرته ـ إنهم لايطيقون ذلك . فسل الله لهم التخفيف . فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال : أسأل الله مغفرته ومعافاته ـ أو قال : معافاته ومغفرته ـ إنهم لايطيقون ذلك ، سل الله لهم التخفيف .

(١) جاءت أسماء رواة هذا الحديث فى م على نحو آخر : وحدثنى يونس ، قال : أخبرنى سليمان بن بلال ، عن أبى عيسى ، عن عبد الله بن مسعود .

(٢) فى م الرواة هكذا : حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا أبو معمر عبد الله بن عمرو ، عن أبى الحجاج ، قال : حدثنا عبد الوارث ، يعنى ابن جحادة ، عن الحكم . . . ثم يتفق مع ب .

فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ .

قال أبو جعفر :

صحّ وثبت ، أن الذى نزل به القرآن من ألسن العرب ، البعض منها دون الجميع ، إذ كان معلوما أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبعة ، بما يعجز عن إحصائه . فإن قال : وما برهانك على أن معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « نزل القرآن على سبعة أحرف » وقوله : « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » هو ما ادعيته ، من أنه نزل بسبع لغات ، وأمر بقراءته على سبعة ألسن ، دون أن يكون معناه ، ما قاله مخالفوك ، من أنه نزل بأمر ، وزجر ، وترغيب ، وترهيب ، وقصص ، ومثل ، ونحو ذلك ، من الأقوال فقد علمتَ قائلى ذلك ، من سلف الأمة ، وخيار الأئمة ؟ ؟

قيل له : إن الذين قالوا ذلك ، لم يدّعوا أن تأويل الأخبار التى تقدم ذكرنا لها ، هو ما زعمت أنهم قالوه فى الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن دون غيره ، فيكون ذلك لقولنا مخالفا ، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف . يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه ، والذى قالوه من ذلك كما قالوا ، وقد روينا بمثل الذى قالوا من ذلك ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعن جماعة من أصحابه ، أخبارا قد تقدم ذكرنا بعضها ، وسنستقصى ذكر باقيها ببيانه ، إذا انتهينا إليه إن شاء الله .

فأما الذى [قد] تقدم [و] ذكرناه من ذلك ، فخبر أبىّ بن كعب ، من رواية أبى كريب ، عن ابن فضيل ، عن اسمعيل بن أبى خالد ، الذى ذكر فيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرآنَ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابِ الجَنَّةِ » .

والسبعة الأحرف ، هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة ، والأبواب السبعة من الجنة ، هى المعانى التى فيها من الأمر ، والنهى ، والترغيب ، والترهيب ، والقصص ، والمثل ، التى إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهى ، استوجب به الجنة .

وليس - والحمد لله - فى قول من قال ذلك من المتقدمين ، خلاف لشىء مما قلناه ؛ والدلالة على صحة ما قلناه ، من أن معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم ، « نزل القرآن على سبعة أحرف » إنما هو أنه نزل بسبع لغات ، كما تقدم ذكرنا من الروايات الثابتة عن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، وسائر من قد قدمنا الرواية عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فى أول هذا الباب ، أنهم تماروا فى القرآن ، فخالف بعضهم بعضا فى نفس التلاوة ، دون ما فى ذلك من المعانى ، وأنهم احتكموا فيه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فاستقرأ كل رجل منهم ، ثم صوّب جميعهم فى قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم ، للذى ارتاب منهم ، عند تصويبه جميعهم :

« إنَّ اللهَ أمَرَنِى أنْ أقْرَأَ القُرآنَ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ » .

ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك ، لو كان تماريا واختلافا فيما دلت عليه تلاواتهم ، من

التحليل ، والتحريم ، والوعد ، والوعيد ، وما أشبه ذلك ، لكان مستحيلا أن يصوِّب جميعهم ، صلى الله عليه وسلم ، ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته في ذلك ، على النحو الذى هو عليه ، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحا ، وجب أن يكون الله ـ جل ثناؤه ـ قد أمر بفعل شيء بعينه ، وفرضه في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه ، ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه ، في تلاوة الذى دلت تلاوته على النهى والزجر عنه ، وأباح وأطلق فِعْلَ ذلك الشيء بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فَعَلَه ، ولمن شاء منهم أن يتركه تركه ، في تلاوة من دلت تلاوته عن التخيير .

وذلك من قائله ـ إن قاله ـ إثبات ما قد نفى الله ـ جلّ ثناؤه ـ عن تنزيله وحكم كتابه . فقال (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وفى نفى الله ـ جل ثناؤه ـ ذلك عن حكم كتابه ، أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا بحكم واحد ، متفق في جميع خلقه ، لا بأحكام فيهم مختلفة .

وفى صحة كون ذلك كذلك ، ما يبطل دعوى من ادعى خلاف قولنا ، في تأويل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أُنْزِلَ القُرْآنُ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » للذين تخاصموا إليه ، عند اختلافهم في قراءتهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، قد أمر جميعهم بالثبوت على قراءته ، ورضى قراءة كل قارئ منهم ، على خلافها قراءة خصومه ومنازعيه فيها وصوّبها .

ولو كان ذلك منه تصويبا فيما اختلفت فيه المعانى ، وكان قوله صلى الله عليه وسلم : أنزل علىّ القرآن على سبعة أحرف ، إعلاما منه لهم أنه نزل بسبعة أوجه مختلفة ، وسبعة معان مفترقة ، كان ذلك إثباتا لما قد نفى الله عن كتابه من الاختلاف ، ونفيا لما قد أوجب له من الائتلاف .

مع أن فى قيام الحجة بأن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يقض فى شيء واحد ، فى وقت واحد ، بحكمين مختلفين ، ولا أذن بذلك لأمته ، ما يغنى عن الإكثار فى الدلالة على أن ذلك منفىّ عن كتاب الله ، وفى انتفاء ذلك عن كتاب الله ، وجوب صحة القول الذى قلناه ، فى معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ، « أنزل القرآن على سبعة أحرف » عند اختصام المختصمين إليه ، فيما اختلفوا فيه من تلاوة ما تلوه من القرآن ، وفساد تأويل قول من خالف قولنا فى ذلك ، وأحرى أن الذين تماروا فيما تماروا فيه من قراءتهم ، فاحتكموا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منكرا عند أحد منهم ، أن يأمر الله عباده ـ جل ثناؤه ـ فى كتابه وتنزيله ، بما شاء ، وينهى عما شاء ، ويعد فيما أحبّ من طاعاته ، ويوعد على معاصيه ، ويحتجّ لنبيه ، ويعظه فيه ، ويضرب فيه لعباده الأمثال ، فيخاصم غيره على إنكاره سماع ذلك من قارئه . بل على الإقرار بذلك كله كان إسلام من أسلم منهم ، فما الوجه الذى أوجب له إنكار ما أنكر ، إن لم يكن كان ذلك اختلافا منهم فى الألفاظ واللغات ؟

وبعد ، فقد أبان صحة ما قلنا ، الخبر عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم نصا ، وذلك الخبر الذى ذكرنا ؛

أن أبا كريب حدثنا ، قال حدثنا زيد بن الحباب ، عن حماد بن سلمة ، عن علىّ بن زيد ، عن عبد الرحمن ابن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال جبريل : اقرأ القرآن على حرف . قال ميكائيل عليه السلام : استزده . فقال : على حرفين . حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب ، كقولك هلم وتعال .

فقد أوضح نص هذا الخبر ، أن اختلاف الأحرف السبعة ، إنما هو اختلاف ألفاظ ، كقولك هلم وتعال ، باتفاق المعانى ، لا باختلاف معان موجبة اختلاف أحكام . وبمثل الذى قلنا فى ذلك ، صحت الأخبار عن جماعة من السلف والخلف .

حدثنى أبو السائب سالم بن جنادة السوائى ، قال حدثنا أبو معاوية ، وحدثنا محمد بن المثنى ، قال حدثنا ابن أبى عدىّ ، عن شعبة ، جميعا عن الأعمش ، عن شقيق ، قال ، قال عبد الله : إنى قد سمعت القرّاء ، فوجدتهم متقاربين ، فاقرءوا كما علمتم وإياكم والتنطع ، فانما هو كقول أحدكم : هلم وتعال .

وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا أبو داود ، قال حدثنا شعبة ، عن أبى إسحق ، عمن سمع ابن مسعود ، يقول : من قرأ منكم على حرف ، فلا يتحولنّ ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله لأتيته .

وحدثنا ابن المثنى ، قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال حدثنا شعبة ، عن عبد الرحمن بن عابس ، عن رجل من أصحاب عبد الله ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : من قرأ القرآن على حرف ، فلا يتحولن منه إلى غيره .

فعلوم أن عبد الله ، لم يعن بقوله هذا : من قرأ ما فى القرآن من الأمر والنهى ، فلا يتحولن منه إلى قراءة ما فيه من الوعد والوعيد ، ومن قرأ ما فيه من الوعد والوعيد ، فلا يتحولن منه إلى قراءة ما فيه من القصص والمثل ، وإنما عنى رحمة الله عليه ، أن من قرأ بحرفه ، وحرفه : قراءته .

وكذلك تقول العرب لقراءة رجل : حرف فلان ، وتقول للحرف من حروف الهجاء المقطعة : حرف ، كما تقول لقصيدة من قصائد الشاعر : كلمة فلان . فلا يتحولن عنه إلى غيره ، رغبة عنه .

ومن قرأ بحرف أبىّ ، أو بحرف زيد ، أو بحرف بعض مَن قرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببعض الأحرف السبعة ، فلا يتحولنّ عنه إلى غيره ، رغبة عنه ، فان الكفر ببعضه كفر بجميعه ، والكفر بحرف من ذلك كفر بجميعه ؛ يعنى بالحرف ما وصفنا من قراءة بعض من قرأ ببعض الأحرف السبعة .

وقد حدثنا يحيى بن داود الواسطى ، قال : حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ، قال : قرأ أنس هذه الآية : (إنَّ ناشئةَ اللَّيْلِ هى أشدُّ وَطْئاً وأصْوَبُ قيلاً) فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة ! إنما هى وأقْوَمُ . فقال : أقوم وأصوب وأهدى ، واحد . وحدثنى محمد بن حميد الرازى ، قال : حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن ليث ، عن مجاهد ، أنه كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف .

وحدثنا ابن حميد ، قال حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن سالم : أن سعيد بن جبير ، كان يقرأ القرآن على حرفين .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن مغيرة ، قال : كان يزيد بن الوليد ، يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف[١] .

أفترى الزاعم أن تأويل قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنزل القرآن على سبعة أحرف » إنما هو أنه نزل على الأوجه السبعة التى ذكرنا ، من الأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والجدل ، والقصص ، والمثل ، كان يرى أن مجاهدا وسعيد بن جبير ، لم يقرءا من القرآن ، إلا ما كان من وجهيه ، أو وجوهه الخمسة ، دون سائر معانيه ؟ لئن كان ظنّ ذلك بهما لقد ظنّ بهما غير الذى يُعْرَفان به ، من منازلهما من القرآن ، ومعرفتهما بآى الفرقان .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا أيوب ، عن محمد ، قال : نبئت أن جبرائيل وميكائيل ، أتيا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبرائيل : اقرأ القرآن على حرفين . فقال له ميكائيل : استزده . فقال : اقرأ القرآن على ثلاثة أحرف . فقال له ميكائيل : استزده . قال : حتى بلغ سبعة أحرف . قال محمد : لاتختلف فى حلال ، ولا حرام ، ولا أمر ، ولا نهى ، هو كقولك : تعال ، وهلم ، وأقبل . قال : وفى قراءتنا ، إن كانت إلا صيحة واحدة ، وفى قراءة ابن مسعود ، إن كانت إلا زَقْيَة واحدة .

وحدثنى يعقوب ، قال حدثنا ابن علية ، قال حدثنا شعيب ، يعنى ابن الحبحاب ، قال : كان أبو العالية إذا قرأ عنده رجل ، لم يقل « ليس كما يقرأ » وإنما يقول : أما أنا فأقرأ كذا وكذا . قال : فذكرت ذلك لإبراهيم النخعى ، فقال : أرى صاحبك قد سمع أنّ من كفر بحرف منه ، فقد كفر به كله .

حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : حدثنا يونس ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرنى سعيد بن المسيب : أن الذى ذكر الله تعالى ذكره (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) إنما افتتن إنه كان يكتب الوحى ، فكان يملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سميع عليم ، أو عزيز حكيم ، وغير ذلك من خواتم الآى ، ثم يشتغل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على الوحى ، فيستفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : أعزيز حكيم ، أو سميع عليم ، أو عزيز عليم ؟ فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ ذلك كتبتَ ، فهو كذلك . ففتنه ذلك ، فقال : إن محمدا وَكَلَ ذلك إلىّ ، فأكتب ماشئتُ . وهو الذى ذكر لى سعيد بن المسيب ، من الحروف السبعة .

حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن عبد الله ، قال : من كفر بحرف من القرآن ، أو بآية منه ، فقد كفر به كله .

---

(١) جاءت هذه الفقرة فى م هكذا : حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا حكام ، عن مغيرة ، قال حدثنا يزيد بن الوليد أنه يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف . ومنها يفهم أن المتحدث عنه ، وهو سعيد بن جبير المذكور فى الفقرة السابقة ، هو الذى كان يقرأ على ثلاثة أحرف . وهذا هو الأقرب إلى الصواب بعكس ما يفهم من « ب » والفقرة الآتية تؤيد رأينا (راجع تراجم سعيد بن جبير ويزيد بن القعقاع ويزيد بن رومان فى كتاب طبقات القراء) .

قال أبو جعفر :

فان قال لنا قائل : فإذا كان تأويل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم «أُنزِل القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ» عندك ما وصفت بما عليه استشهدت ، فأوجدنا حرفا فى كتاب الله مقروءا بسبع لغات ، فنحقق بذلك قولك ، وإلا فإن لم تجد ذلك كذلك ، كان معلوما بعد مكه[1] ، صحة قول من زعم : أن تأويل ذلك أنه نزل بسبعة معان ، وهو : الأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والجدل ، والقصص ، والمثل ، وفساد قولك . أو تقول فى ذلك : إن الأحرف السبعة لغات فى القرآن سبع ، متفرقة فى جميعه ، من لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة الألسن ، كما كان يقوله بعض من لم يمعن النظر فى ذلك ، فيصير بذلك إلى القول بما لايجهل فسادَه ذو عقل ، ولا يلتبس خطؤه على ذى لبٍّ ، وذلك أن الأخبار التى بها احتججت لتصحيح مقالتك ، فى تأويل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ القرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ » هى الأخبار التى رويتها عن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، رحمة الله عليهم ، وعمن رويت ذلك عنه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأنهم تماروا فى تلاوة بعض القرآن ، فاختلفوا فى قراءته دون تأويله ، وأنكر بعضٌ قراءة بعضٍ ، مع دعوى كل قارئ منهم قراءةً منها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقرأه ما قرأ بالصفة التى قرأ ، ثم احتكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، أن صوّب قراءة كل قارئ منهم ، على خلافها قراءة أصحابه الذين نازعوه فيها ، وأمر كلّ امرئٍ منهم أن يقرأ كما علم ، حتى خالط قلبَ بعضهم الشكُّ فى الإسلام ، لما رأى من تصويب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قراءة كل قارئ منهم على اختلافها ، ثم جلاه الله عنه ، ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ؛ فإن كانت الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن عندك ــ كما قال هذا القائل ــ متفرقة فى القرآن ، مثبتة اليوم فى مصاحف أهل الإسلام ، فقد بطلت معانى الأخبار التى رويتَها عمن رويتَها عنه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنهم اختلفوا فى قراءة سورة من القرآن ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر كلا أن يقرأ كما علم ، لأن الأحرف السبعة ، إذا كانت لغات متفرقة فى جميع القرآن ، فغير موجب حرف من ذلك اختلافا بين تاليه ، لأن كل تالٍ فإنما يتلو ذلك الحرف تلاوة واحدة ، على ما هو به فى المصحف ، وعلى ما أنزل . وإذا كان ذلك كذلك ، بطل وجه اختلاف الذين رُوِى عنهم ، أنهم اختلفوا فى قراءة سورة ، وفسد معنى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كل قارئ منهم أن يقرأه على ما علم ، إذ كان لامعنى هنالك يوجب اختلافا فى لفظ ، ولا افتراقا فى معنى ، وكيف يجوز أن يكون هنالك اختلاف بين القوم ، والمعلم واحد ، والعلم واحد غير ذى أوجه ؟ وفى صحة الخبر عن الذين روى عنهم الاختلاف فى حروف القرآن ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم اختلفوا وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، على ما [قد] تقدم وصفناه ، أبين الدلالة على فساد القول ، بأن الأحرف السبعة ، إنما هى

١ ــ هكذا ورد هذا اللفظ فى م و ب . فلينظر .

أحرف سبعة متفرقة فى سور القرآن ، لا أنها لغات مختلفة ، فى كلمة واحدة ، باتفاق المعانى ، مع أن المتدبر إذا تدبر قول هذا القائل، فى تأويله قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « أُنْزِلَ القُرآنُ عَلى سَبْعَةِ أحْرُفٍ » وادعائه أن معنى ذلك أنها سبع لغات متفرّقة فى جميع القرآن ، ثم جمع بين قيله ذلك ، واعتلاله لقيله ذلك بالأخبار التى رويت عمن روى ذلك عنه من الصحابة والتابعين ، أنه قال : هو بمنزلة قولك : تعال ، وهلم ، وأقبل ؛ وأن بعضهم قال : هو بمنزلة قراءة عبد الله : إلا زَقْيَةً ، وهى فى قراءتنا : إلا صَيْحَةً، وما أشبه ذلك من حججه ، علم أن حججه مفسدة فى ذلك مقالته ، وأن مقالته فيه مضادة حججه ، لأن الذى نزل به القرآن، عنده إحدى القراءتين، إمَّا صيحة وإمَّا زقية ، وإما تعال ، أو أقبل ، أو هلم ، لا جميع ذلك ، لأن كل لغة من اللغات السبع ، عنده فى كلمة أو حرف من القرآن ، غير الكلمة أو الحرف الذى فيه اللغة الأخرى ، وإذا كان ذلك كذلك بطل اعتلاله لقوله بقول من قال ذلك بمنزلة : هلم ، وتعال ، وأقبل ؛ لأن هذه الكلمات هى ألفاظ مختلفة يجمعها فى التأويل معنى واحد ، وقد أبطل قائل هذا القول الذى حكينا قوله، اجتماع اللغات السبع فى حرف واحد من القرآن، فقد تبين بذلك إفساد[ه] حجته ، لقوله بقوله، وإفساد[ه] قوله بحجته ، فقيل له ليس القول فى ذلك بواحد من الوجهين اللذين وصفت ، بل الأحرف السبعة التى أنزل الله بها القرآن ، هن لغات سبع فى حرف واحد وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلىّ ، وقصدى ، ونحوى ، وقربى ، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ ، بضروب من المنطق ، وتتفق فيه المعانى ، وإن اختلفت بالبيان به الألسن ، كالذى روينا آنفا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة ، أن ذلك بمنزلة قولك: هلم ، وتعال ، وأقبل ، وقوله : ما يَنْتَظِرُونَ إلا زَقْيَةً ، وإلا صَيْحَةً ، فإن قال : فى أىّ كتاب الله نجد حرفا واحدا ، مقروءا بلغات سبع ، مختلفات الألفاظ ، متفقات المعنى ، فنسلم لك صحة ما ادعيت من التأويل فى ذلك ؟ .

قيل : إنا لم ندّع أن ذلك موجودٌ اليوم ، وإنما أخبرنا أن معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أُنْزِلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ »، على نحو ماجاءت به الأخبار التى تقدم وذكرناها، هو ما وصفنا دون ما ادعاه مخالفونا فى ذلك للعلل التى قد بينا .

فإن قال : فما بال الأحرف الأخر الستة ، غير موجودة ، إن كان الأمر فى ذلك على ما وصفت ، وقد أقرأهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمر بالقراءة بهنّ ، وأنزلهنّ الله من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم، أنسخت فرفعت ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتهنّ الأمة ؟ فذلك تضييع ماقد أمروا بحفظه ، أم ما القصة فى ذلك ؟ .

قيل له : لم تنسخ فترفع ، ولا ضيعتها الأمة ، وهى مأمورة بحفظها ، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخُيِّرت فى قراءته وحفظه ، بأىّ تلك الأحرف السبعة شاءت ؛ كما أمرت إذا هى حنثت فى يمين وهى موسرة ، أن تكفر بأىّ الكفارات الثلاث شاءت : إما بعتق ، أو إطعام ، أو كسوة ؛ فلو أجمع جميعُها على

التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث، دون حظرها التكفير [فيها] بأىّ الثلاث شاء المكفر . كانت مصيبة[1] حكم الله، مؤدية فى ذلك الواجب عليها من حق الله. فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخيرت فى قراءته بأىّ الأحرف السبعة شاءت ، فرأت لعلة من العلل . أوجبت عليها الثبات على حرف واحد . قراءته بحرف واحد، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية، ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه، بما أذن له فى قراءته به.

فإن قال : وما العلة التى أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ، دون سائر الأحرف الستة الباقية ؟

قيل حدثنا أحمد بن عبدة الضبى ، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردى ، عن عمارة بن غزية[2]، عن ابن شهاب ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه زيد قال : لما قُتِل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمامة ، دخل عمر بن الخطاب على أبى بكر رحمه الله ، فقال : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمامة ، تهافتوا تهافت الفراش فى النار ، وإنى أخشى أن لايشهدوا موطنا ، إلا فعلوا ذلك حتى يُقْتَلوا ، وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن وينسى ، فلو جمعته وكتبته ؟ فنفر منها أبو بكر ، وقال : أفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فتراجعا فى ذلك ، ثم أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت ، قال زيد: فدخلت عليه ، وعمر محزئل[3]، فقال أبو بكر : إن هذا قد دعانى إلى أمر ، فأبيتُ عليه ، وأنت كاتب الوحى ، فإن تكن معه اتبعتكما ، وإن توافقنى لا أفعل . قال : فاقتصّ أبو بكر قول عمر ، وعمر ساكت . فنفرت من ذلك ، وقلت : نفعل[4] ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إلى أن قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ قال : فذهبنا ننظر . فقلنا : لاشىء ، والله ما علينا فى ذلك شىء . قال زيد : فأمرنى أبو بكر ، فكتبته فى قطع الأدم ، وكسر الأكتاف والعسب .

فلما هلك أبو بكر ، وكان عمر كتب ذلك فى صحيفة واحدة ، فكانت عنده ؛ فلما هلك ، كانت الصحيفة عند حفصة ، زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إن حذيفة بن اليمان ، قدم من غزوة كان غزاها ، فى فرج أرمينية ، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أدرك الناس ! فقال عثمان : وما ذاك ؟ قال : غزوت فرج أرمينية ، فحضرها أهل العراق وأهل الشام ، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبىّ بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، فتكفرهم أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فتكفرهم أهل الشام .

قال زيد : فأمرنى عثمان بن عفان أكتب له مصحفا ، وقال : إنى مدخل معك رجلا لبيبا فصيحا ، فما اجتمعتما عليه فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلىّ . فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص .

قال : فلما بلغا (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) قال زيد ، فقلت : التابوه . وقال أبان ابن سعيد : التابوتُ ، فرفعنا ذلك إلى عثمان ، فكتب التابوت .

قال : فلما فرغت ، عرضته عرضة ، فلم أجد فيه هذه الآية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا

---

(١) فى م : مظنة بدل مصيبة .
(٢) فى م خزيمة بدل غزية .
(٣) فى م : مسر بل بدل محزئل
(٤) فى م يفعل بدل نفعل .

ماعاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ) إلى قوله (وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلا) قال : فاستعرضت المهاجرين أسألهم عنها ، فلم أجدها عند أحد منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها ، فلم أجدها عند أحد منهم ، حتى وجدتها عند خزيمة بن ثابت فكتبتها ، ثم عرضته عرضة أخرى ، فلم أجد فيه هاتين الآيتين (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ماعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) إلى آخر السورة ، فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحد منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها ، فلم أجدها عند أحد منهم ، حتى وجدتها مع رجل آخر ، يدعى خزيمة أيضا ، فأثبتها فى آخر براءة ، ولو تمت ثلاث آيات ، لجعلتها سورة على حدة ، ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئا .

ثم أرسل عثمان إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة ، وحلف لها ليردنها إليها ، فأعطته إياها ، فعرض المصحف عليها ، فلم يختلفا فى شىء ، فردّها إليها ، وطابت نفسه ، وأمرَ الناسَ أن يكتبوا مصاحف ، فلما ماتت حفصة ، أرسل إلى عبد الله بن عمر فى الصحيفة بعزمة ، فأعطاهم إياها ، فغسلت غسلا .

وحدثنى [به] يونس بن عبد الأعلى، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عمارة بن غزية [١]، عن ابن شهاب ، عن خارجة بن زيد ، عن أبيه زيد بن ثابت ، بنحوه سواء .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال حدثنا ابن علية ، قال حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة ، قال : لما كان فى خلافة عثمان، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، قال أيوب : فلا أعلمه إلا قال : حتى كفر بعضهم بقراءة بعض .

فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيبا ، فقال : أنتم عندى تختلفون فيه وتلحنون ، فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد فيه اختلافا ، وأشد لحنا ، اجتمعوا يا أصحاب محمد ، فاكتبوا للناس إماما !

قال أبو قلابة : فحدثنى أنس بن مالك ، قال : كنت فيمن يملى عليهم ، قال : فربما اختلفوا فى الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعله أن يكون غائبا ، أو فى بعض البوادى ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ، ويَدَعُون موضعها ، حتى يجىء أو يُرسل إليه ، فلما فرغ من المصحف ، كتب عثمان إلى أهل الأمصار : إنى قد صنعت كذا وكذا ، ومحوت ماعندى ، فامحوا ماعندكم .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال: أخبرنى يونس قال : قال ابن شهاب : أخبرنى أنس بن مالك الأنصارى : أنه اجتمع فى غزوة أذربيجان وأرمينية ، أهل الشام وأهل العراق ، فتذاكروا القرآن واختلفوا فيه حتى كاد يكون بينهم فتنة ، فركب حذيفة بن اليمان لما رأى اختلافهم فى القرآن إلى عثمان ، فقال : إن الناس قد اختلفوا فى القرآن ، حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف . قال : ففزع لذلك فزعا شديدا ، فأرسل إلى حفصة ، فاستخرج الصحف التى كان أبو بكر أمر زيدا بجمعها ، فنسخ منها مصاحف ، فبعث بها إلى الآفاق .

---

(١) فى م : خزيمة بدل غزية .

حدثني سعيد بن الربيع ، قال: حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، قال : قبض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن القرآن جمع ، وإنما كان في الكرانيف والعسب[1] .

حدثنا سعيد بن الربيع ، قال: حدثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن صعصعة : أن أبا بكر أول من ورّث الكلالة ، وجمع المصحف .

قال أبو جعفر :

وما أشبه ذلك من الأخبار ، التي يطول باستيعاب جميعها الكتاب ، والآثار الدالة على أن إمام المسلمين ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رحمة الله عليه ، جمع المسلمين ، نظرا منه لهم ، وإشفاقا منه عليهم ، ورأفة منه بهم ،حذار الردّة [بمحضره] من بعضهم بعد الإسلام ،والدخول في الكفر بعد الإيمان ،إذ ظهر من بعضهم بمحضره وفي عصره ، التكذيب ببعض الأحرف السبعة ، التي نزل عليها القرآن ، مع سماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، النهي عن التكذيب بشيء منها ،وإخباره إياهم ، أن المراء فيها كفر ، فحملهم ـ رحمة الله عليه ـ إذ رأى ذلك ظاهرا بينهم في عصره ، وبحداثة عهدهم بنزول القرآن ، وفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم ، بما أمن عليهم معه ، عظيم البلاء في الدين ، من تلاوة القرآن على حرف واحد ، وجمعهم على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه ، وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه أن يحرقه ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة ، التي عزم عليها إمامها العادل في تركها ، طاعة منها له ، ونظرا منها لأنفسها ، ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، وتعفت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها ، وتتابعِ المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها، ولكن نظرا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها ، فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد ، الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ماعداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك ، لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم ،لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند من يقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره[2] العذر ، ويزيل الشك من قراءة الأمة ؛ وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين ، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمّة ، من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة ، فإذا كان ذلك كذلك ، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع تاركين ماكان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا ، إذ كان الذي

(١) في م : السعف بدل العسب . (٢) في م : خبرة بدل خبره .

فعلوا من ذلك ، كان هو النظر للإسلام وأهله ، فكان القيام بفعل الواجب عليهم بهم أولى ، من فعل ما لو فعلوه ، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب ، منهم إلى السلامة من ذلك .

فأما ما كان من اختلاف القراءة ، فى رفع حرف وجرّه ونصبه ، وتسكين حرف وتحريكه ، ونقل حرف إلى آخر ، مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرآنَ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ بِمَعْزِلٍ » لأنه معلوم أنه لاحرف من حروف القرآن ، مما اختلفت القراءة فى قراءته بهذا المعنى ، يوجب المراء به كفر المماري به فى قول أحد من علماء الأمة .

وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر من الوجه الذى تنازع فيه المتنازعون إليه ، وتظاهرت عنه بذلك الرواية ، على ما قد قدمنا ذكرها فى أوّل هذا الباب .

فإن قال لنا قائل : فهل لك من علم بالألسن السبعة التى نزل بها القرآن ، وأىّ الألسن هى من ألسن العرب ؟

قلنا : أما الألسن الستة ، التى قد نزلت القراءة بها ، فلا حاجة بنا إلى معرفتها ، لأنا لو عرفناها ، لم نقرأ اليوم بها ، مع الأسباب التى قدمنا ذكرها . وقد قيل : إن خمسة منها لعجز هوازن ، واثنين منها لقريش وخزاعة .

وروى جميع ذلك عن ابن عباس ، وليست الرواية عنه ، من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله ، وذلك أن الذى روى عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن ، الكلبى عن أبى صالح ، وأن الذى روى عنه أن اللسانين الآخرين ، لسان قريش وخزاعة ، قتادة ، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه .

حدثنى بذلك بعض أصحابنا ، قال : حدثنا صالح بن نصر الخزاعى ، قال : حدثنا الهيثم بن عدى ، عن سعيد ابن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس ، قال : نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة ، وذلك أن الدار واحدة .

وحدثنى بعض أصحابنا ، قال : حدثنا صالح بن نصر ، قال : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبى الأسود الديلى ، قال : نزل القرآن بلسان الكعبين : كعب بن عمرو ، وكعب بن لؤىّ . فقال خالد بن سلمة لسعد بن إبراهيم : ألا تعجب من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نزل بلسان الكعبين وإنما نزل بلسان قريش !؟

قال أبو جعفر :

والعجز من هوازن : سعد بن بكر ، وخيثم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف .

وأما معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم ، إذ ذكر نزول القرآن على سبعة أحرف ، أن كلها شاف كاف ، فإنه كما قال - جل ثناؤه - فى وصفه القرآن : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وهُدًى ورَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) جعله الله للمؤمنين شفاء يستشفون بمواعظه ، من الأدواء العارضة لصدورهم ، من وساوس الشيطان وخطراته ، فيكفيهم ويغنيهم ، عن كل ماعداه من المواعظ ببيان آياته .

القول فى البيان عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة ، وذكر الأخبار المروية بذلك

قال أبو جعفر :

اختلفت النقلة فى ألفاظ الخبر بذلك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رُوِى عن ابن مسعود ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « كانَ الكِتابُ الأوَّلُ نَزَلَ مِنْ بابٍ واحِدٍ ، وَعلى حَرْفٍ واحِدٍ ، وَنَزَلَ القُرآنُ مِنْ سَبْعَةِ أبْوابٍ ، وَعلى سَبْعَةِ أحْرُفٍ : زَجْرٍ ، وأمْرٍ ، وَحَلالٍ ، وَحَرامٍ ، ومُحْكَمٍ ، ومُتَشابِهٍ ، وأمْثالٍ ؛ فأحِلُّوا حَلالَهُ ، وَحَرِّمُوا حَرامَهُ ، وَافْعَلُوا ما أُمِرْتُمْ بِهِ ، وانْتَهُوا عمّا نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَاعْتَبِرُوا بأمْثالِهِ ، وَاعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ ، وآمِنُوا بِمُتَشابِهِهِ ، وقُولُوا آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا » .

حدثنى بذلك يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : أخبرنى حيوة بن شريح ، عن عقيل ابن خالد ، عن سلمة بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وروى عن أبى قلابة ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مرسلا غير ذلك .

حدثنا محمد بن بشار ، قال حدثنا عباد بن زكريا ، عن عوف ، عن أبى قلابة ، قال : بلغنى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « أُنْزِلَ القُرْآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ : أمْرٍ ، وَزَجْرٍ ، وتَرْغِيبٍ ، وتَرْهِيبٍ ، وَجَدَلٍ ، وقَصَصٍ ، وَمَثَلٍ » .

وروى عن أبىّ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك ماحدثنى به أبو كريب ، قال : حدثنا محمد ابن فضيل ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن عبيد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبىّ بن كعب ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ أمَرَنِي أنْ أقْرَأَ القُرآنَ على حَرْفٍ واحِدٍ ، فَقُلْتُ : رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي ، قالَ : اقْرَأْهُ على حَرْفَيْنِ ، فَقُلْتُ : رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي ، فَأمَرَنِي أنْ أقْرَأَهُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ ، مِنْ سَبْعَةِ أبْوابٍ مِنَ الجَنَّةِ ، كُلُّها شافٍ كافٍ » .

وروى عن ابن مسعود من قبله ، خلاف ذلك كله ، وهو ماحدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا المحاربى ، عن الأحوص بن حكيم ، عن ضمرة بن حبيب ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : إن الله أنزل القرآن على خمسة أحرف : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فأحلّ الحلال وحرِّم الحرام ، واعمل بالمحكم ، وآمن بالمتشابه ، واعتبر بالأمثال .

وكل هذه الأخبار التى ذكرناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متقاربة المعانى ، لأن قول القائل :

فلان مقيم على باب من أبواب هذا الأمر ، وفلان مقيم على وجه من وجوه هذا الأمر ، وفلان مقيم على حرف من هذا الأمر ،سواء . ألا ترى أن الله ـ جل ثناؤه ـ وصف قوما عبدوه ، على وجه من وجوه العبادات فأخبر عنهم أنهم عبدوه على حرف ، فقال : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ) يعنى أنهم عبدوه على وجه الشك ، لاعلى اليقين والتسليم لأمره ؛ فكذلك رواية من روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : نزل القرآن من سبعة أبواب ، ونزل على سبعة أحرف سواء . معناهما مؤتلف . وتأويلهما غير مختلف فى هذا الوجه . ومعنى ذلك كله : الخبر منه صلى الله عليه وسلم ، عما خَصَّه الله به وأمته ، من الفضيلة والكرامة ، التى لم يؤتها أحدا فى تنزيله . وذلك أن كل كتاب تقدم كتابنا نزوله ، على نبى من أنبياء الله، صلوات الله عليهم، فإنما نزل بلسان واحد ، متى حُوِّل إلى غير اللسان الذى نزل به، كان ذلك له ترجمة وتفسيرا ، لا تلاوة له على ما أنزله الله ، وأنزل كتابنا بألسن سبعة ، بأىّ تلك الألسن السبعة تلاه التالى ، كان له تاليا على ما أنزله الله ، لامترجما ولا مفسرا ، حتى يحوِّله عن تلك الألسن السبعة إلى غيرها ، فيصير فاعل ذلك حينئذ إذا أصاب معناه مترجما له ، كما كان التالى لبعض الكتب التى أنزلها الله بلسان واحد ، إذا تلاه بغير اللسان الذى نزل به ، له مترجما لاتاليا على ما أنزله الله به .

فذلك معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : «كانَ الكِتابُ الأوَّلُ نَزَلَ على حَرْفٍ وَاحِدٍ ،وَنَزَلَ القُرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ » .

وأما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الكتاب الأول نزل من باب واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب » فإنه صلى الله عليه وسلم ، عنى بقوله : نزل الكتاب الأول من باب واحد ــ والله أعلم مانزل من كتب الله ، على مَنْ أنزله من أنبيائه ـ خاليا من الحدود والأحكام والحلال والحرام ، كزبور داود ، الذى إنما هو تذكير ومواعظ ، وإنجيل عيسى ، الذى هو تمجيد ومحامد وحضّ على الصفح والإعراض ، دون غيرها من الأحكام والشرائع ، وما أشبه ذلك من الكتب ، التى نزلت ببعض المعانى السبعة التى يحوى جميعها كتابنا الذى خصّ الله به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأمته .

فلم يكن المتعبدون بإقامته ، يجدون لرضا الله ـ تعالى ذكره ـ مطلبا ينالون به الجنة ، ويستوجبون منه القربة ، إلا من الوجه الواحد ، الذى أنزل به كتابهم ، وذلك هو الباب الواحد من أبواب الجنة ، الذى نزل منه ذلك الكتاب ، وخصّ الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، بأن أنزل عليهم كتابه ، على أوجه سبعة ، من الوجوه التى ينالون بها رِضْوان الله ، ويدركون بها الفوز بالجنة ، إذا أقاموها ؛ فلكل وجه من أوجهه السبعة ، باب من أبواب الجنة الذى نزل منه القرآن ، لأن العامل بكل وجه من أوجهه السبعة ، عامل فى باب من أبواب الجنة وطالب من قبله الفوز بها ، والعمل بما أمر الله جل ذكره فى كتابه بابٌ من أبواب الجنة ، وترك ما نهى الله عنه فيه باب آخر ثان من أبوابها ، وتحليل ما أحلّ الله فيه باب ثالث من أبوابها ، وتحريم ماحرّم الله فيه باب رابع من أبوابها ، والإيمان بمحكمه المبين باب خامس من أبوابها ، والتسليم لمتشابهه ـ الذى استأثر الله بعلمه ، وحجب علْمَه عن خلقه ، والإقرار بأن كلّ

ذلك من عند ربه - باب سادس من أبوابها ، والاعتبارات بأمثاله والاتعاظ بعظاته باب سابع من أبوابها ؛ فجميع ما فى القرآن ، من حروفه السبعة ، وأبوابه السبعة ، التى نزل منها ، جعله الله لعباده ، إلى رضوانه هاديا ، ولهم إلى الجنة قائدا .

فذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « نَزَلَ القُرآنُ مِنْ سَبْعَةِ أبْوَابِ الجَنَّةِ » .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن : « إنَّ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ حَدًّا » يعنى لكل وجه من أوجهه السبعة حدٌّ حَدَّهُ الله جل ثناؤه ، لايجوز لأحد أن يتجاوزه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإنَّ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا ظَهْرًا وَبَطْنًا » فظهره الظاهر فى التلاوة ، وبطنه ما بطن من تأويله .

وقوله : « وَإنَّ لِكُلِّ حَدٍّ مِنْ ذلكَ مُطَّلَعًا[1] » ؛ فإنه يعنى أن لكل حدٍّ من حدود الله التى حدها فيه ، من حلال وحرام وسائر شرائعه ، مقدار من ثواب الله وعقابه ، يعانيه فى الآخرة ، ويطلع عليه ، ويلاقيه فى القيامة . كما قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : لو أن لى ما فى الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع ؛ يعنى بذلك ما يطلع عليه ويهجم عليه من أمر الله بعد وفاته .

القول فى الوجوه التى من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن

قال أبو جعفر :

قد قلنا فى الدلالة على أن القرآن كله عربى ، وأنه نزل بألسن بعض العرب ، دون ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ، ومصاحفهم التى هى بين أظهرهم ، ببعض الألسن التى نزل بها القرآن دون جميعها ، وقلنا فى البيان عما يحويه القرآن من النور والبرهان والحكمة والبيان ، التى أودعها الله إياه ، من أمره ، ونهيه ، وحلاله ، وحرامه ، ووعده ، ووعيده ، ومحكمه ، ومتشابهه ، ولطائف حكمه ، مافيه الكفاية لمن وفق لفهمه .

ونحن قائلون فى البيان عن وجوه مطالب تأويله .

قال الله ، جل ذكره ، وتقدست أسماؤه ، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (وَأنْزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال أيضا جلَّ ذكره : (وما أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وقال : (هُوَ الَّذِى أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ

(١) جاء فى القاموس فى شرح هذا الحديث : مطلع : أى مصعد يصعد إليه من معرفة علمه . وبكسر اللام : القوى ، العالى ، القاهر .

مُتَشابِهاتٌ فأمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ماتَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تأوِيلَهُ إلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ) .

فقد تبين ببيان الله جل ذكره ، أن مما أنزل الله من القرآن ، على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ما لايوصل إلى علم تأويله ، إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك تأويل جميع مافيه ، من وجوه أمره ، واجبه [1] ، وندبه، وإرشاده ، وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه ، وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض ، وما أشبه ذلك من أحكام آيه ، التى لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته . وهذا وجه لايجوز لأحد القول فيه ، إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتأويله ، بنص منه عليه ، أو بدلالة قد نصبها دالةً أمته على تأويله .

وأن منه ما لايعلم تأويله إلا الله الواحد القهار : وذلك مافيه من الخبر عن آجال حادثة ، وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، ونزول عيسى بن مريم ، وما أشبه ذلك ؛ فإن تلك أوقات لايعلم أحد حدودها ، ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها ، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه . وكذلك أنزل ربنا فى محكم كتابه ، فقال : (يَسألُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْساهَا قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إلا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لاتأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يَسألُونَكَ كأنَّكَ حَفِىٌّ عَنْها قُلْ إنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ اللهِ ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ) .

وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذا ذَكَر شيئا من ذلك لم يدل عليه إلا بأشراطه ، دون تحديده بوقت ، كالذى روى عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لأصحابه إذ ذكر الدجال: « إنْ يَخْرُجْ وأنَا فِيكُمْ ، فأنَا حَجِيجُهُ ، وإنْ يَخْرُجْ بَعْدِى ، فَاللهُ خَلِيفَتِى عَلَيْكُمْ » .

وما أشبه ذلك من الأخبار ، التى يطول باستيعابها الكتاب ، الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يكن عنده علم أوقات شىء منه ، بمقادير السنين والأيام ، وأن الله جلَّ ثناؤه ، إنما كان عرّفه مجيئه بأشراطه ، ووقته بأدلته .

وأن منه ما يعلم تأويله كلُّ ذى علم باللسان الذى نزل به القرآن ، وذلك إقامة إعرابه ، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة ، غير المشترك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها ، فإن ذلك لايجهله أحد منهم، وذلك كسامع منهم لو سمع تاليا يتلو : (وإذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فى الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، ألاَ إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ ولَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ماينبغى تركه مما هو مضرّة ، وأن الإصلاح هو ما ينبغى فعله ، مما فعله منفعة ؛ وإن جهل المعانى التى جعلها الله إفسادا ، والمعانى التى جعلها الله إصلاحا ، فالذى يعلمه ذو اللسان الذى بلسانه نزل القرآن ، من

(١) فى م : ونهيه بدل واجبه .

تأويل القرآن ، هو ماوصفت من معرفة أعيان المسميات بأسمائها اللازمة ، غير المشترك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة ، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيئاتها ، التى خص الله بعلمها نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يدرك علمه إلا ببيانه ، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه . وبمثل ما قلنا من ذلك ،روى الخبر عن ابن عباس .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا مؤمل ، قال : حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لايعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه إلا الله .

قال أبو جعفر : وهذا الوجه الرابع الذى ذكره ابن عباس ، من أن أحدا لا يعذر بجهالته ، معنى غير الإبانة عن وجوه مطالب تأويله ، وإنما هو خبر عن أن مِنْ تأويله ما لايجوز لأحد الجهل به ؛ وقد روى بنحو ما قلنا فى ذلك أيضا ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر فى إسناده نظر .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت عمرو بن الحارث ، يحدث عن الكلبى ، عن أبى صالح مولى أمّ هانئ ، عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُنْزِلَ القُرْآنُ على أرْبَعَةِ أحْرُفٍ : حَلالٍ ، وَحَرَامٍ لايُعْذَرُ أحَدٌ بالجَهالَةِ به ، وَتَفْسِيرٍ يُفَسِّرُهُ العَرَبُ ، وَتَفْسِيرٍ تُفَسِّرُهُ العُلَماءُ ، وَمُتَشابِهٍ لايَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ ، وَمَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ سِوَى اللهِ ، فَهُوَ كاذِبٌ » .

ذكر بعض الأخبار التى رويت بالنهى عن القول فى تأويل القرآن بالرأى

حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعى ، قال : حدثنا شريك ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ قالَ فى القُرْآنِ بِرَأْيِهِ ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد ، قال : حدثنا سفيان ، قال : حدثنا عبد الأعلى ، هو ابن عامر الثعلبى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ قالَ فى القُرْآنِ بِرَأْيِهِ ، أوْ بِمَا لايَعْلَم ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا محمد بن بشر وقبيصة ، عن سفيان ، عن عبد الأعلى ، قال : حدثنا سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قالَ فى القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا الحكم بن بشير ، قال : حدثنا عمرو بن قيس الملائى ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار .

حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا جرير ، عن ليث ، عن بكر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : من تكلم فى القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار .

وحدثنى أبو السائب سالم بن جنادة السوائى ، قال: حدثنا حفص بن غياث ، عن الحسن بن عبيد الله ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أىّ أرض تقلنى ، وأىّ سماء تظلنى ، إذا قلت فى القرآن ما لاأعلمَ ؟

حدثنا محمد بن المثنى ، قال: حدثنا ابن أبى عدىّ ، عن شعبة، عن سليمان ، عن عبد الله بن مرّة ، عن أبى معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق : أىّ أرض تقلنى ، وأىّ سماء تظلنى ، إذا قلت فى القرآن برأيى أو بما لاأعلم ؟

قال أبو جعفر : وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا ، من أن ما كان من تأويل آى القرآن الذى لايدرك علمه ، إلا بنصّ بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بنصبه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه ، بل القائل فى ذلك برأيه، وإن أصاب الحقّ فيه ، فمخطئ فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق ، وإنما هو إصابة خارص وظانّ ، والقائل فى دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم ، وقد حرّم الله جلّ ثناؤه ذلك ، فى كتابه على عباده ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فالقائل فى تأويل كتاب الله الذى لايدرك علمُه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعل الله إليه بيانه ، قائل بما لايعلم ، وإن وافق قيله ذلك فى تأويله ما أراد الله به من معناه ، لأن القائل فيه بغير علم ، قائل على الله مالاعلم له به .

وهذا هو معنى الخبر ، الذى حدثنا به العباس بن عبد العظيم العنبرى ، قال: حدثنا حبان بن هلال ، قال: حدثنا سهيل بن أبى حزم ، قال : حدثنا أبو عمران الجونى ، عن جندب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قالَ فى القُرآنِ بِرأيِهِ فأصابَ ، فَقَدْ أخْطَأ » .

يعنى صلى الله عليه وسلم ، أنه أخطأ فى فعله ، بقيله فيه برأيه ، وإن وافق قيله ذلك عين الصواب عند الله ، لأن قيله فيه برأيه ، ليس بقيل عالم أن الذى قال فيه من قول حقّ وصواب ، فهو قائل على الله ما لايعلم ، آثم بفعله ما قد نُهى عنه وحظر عليه .

ذكر بعض الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة

حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق المروزى ، قال: سمعت أبى يقول: حدثنا الحسين بن واقد، قال : حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن ابن مسعود ، قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات ، لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهن .

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن، قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات، لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا.

وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا جابر بن نوح، قال: حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: والذى لا إله غيره، ما نزلت آية فى كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين أنزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته.

وحدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى، قال: حدثنا أبى، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار.

حدثنى أبو السائب سالم بن جنادة، قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، قال: استعمل علىٌّ ابنَ عباس على الحجّ، قال: فخطب الناس خطبة، لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سورة النور، فجعل يفسرها.

وحدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، قال: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبى وائل شقيق بن سلمة، قال: قرأ ابن عباس سورة البقرة، فجعل يفسرها. فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم لأسلمت!

وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو يمان، عن أشعث بن إسحق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، قال: من قرأ القرآن، ثم لم يفسره، كان كالأعمى، أو كالأعرابى.

وحدثنا أبو كريب، قال: ذكر أبو بكر بن عياش الأعمش، قال: قال أبو وائل: ولى ابن عباس الموسم، فخطبهم فقرأ على المنبر سورة النور، والله لو سمعها الترك لأسلموا. فقيل له: حدثنا به عن عاصم. فسكت.

وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن إدريس، قال: سمعت الأعمش، عن شقيق، قال: شهدت ابن عباس وولى الموسم، فقرأ سورة النور على المنبر، وفسرها، لو سمعت الروم لأسلمت.

قال أبو جعفر:

وفى حثّ الله عزّ وجلّ عباده على الاعتبار بما فى آى القرآن، من المواعظ والتبيان، بقوله جل ذكره، لنبيه صلى الله عليه وسلم: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) وقوله: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وما أشبه ذلك من آى القرآن، التى أمر الله عباده، وحثهم فيها، على الاعتبار بأمثال آى القرآن، والاتعاظ بمواعظه، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا معرفة من القيل والبيان! إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به.

فأما قبل ذلك ، فمستحيل أمره بتدبره ، وهو بمعناه جاهل ، كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم ، الذين لايعقلون كلام العرب ولا يفهمونه ، لو أنشدت قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ، ذات أمثال ومواعظ وحكم : اعتبر بما فيها من الأمثال ، وادكر بما فيها من المواعظ ! إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته ، ثم الاعتبار بما نبهه عليه ما فيها من الحكم ، فأما وهى جاهلة بمعانى ما فيها من الكلام والمنطق ، فمحال أمرها بما دلت عليه معانى ما حوته من الأمثال والعبر . بل سواء أمرها بذلك وأمر بعض البهائم به ، إلا بعد العلم بمعانى المنطق والبيان الذى فيها .

فكذلك ما فى آى كتاب الله ، من العبر والحكم والأمثال والمواعظ ، لايجوز أن يقال اعتبر بها ، إلا لمن كان بمعانى بيانه عالمًا ، وبكلام العرب عارفا ، وإلا بمعنى الأمر لمن كان بذلك منه جاهلا ، أن يعلم معانى كلام العرب ، ثم يتدبره بعد ، ويتعظ بحكمه وصنوف عبره .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله جلّ ثناؤه ، قد أمر عباده بتدبره ، وحثهم على الاعتبار بأمثاله ، كان معلوما أنه لم يأمر بذلك مَنْ كان بما يدل عليه آيه جاهلا . وإذا لم يجز أن يأمرهم بذلك ، إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون ، صحّ أنهم بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آيه ، الذى استأثر الله بعلمه منه دون خلقه ، الذى قد قدمنا صفته آنفا ، عارفون . وإذا صحّ ذلك ، فسد قول من أنكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزيله ، ما لم يحجب عن خلقه تأويله .

ذكر بعض الأخبار التى غلط فى تأويلها منكرو القول فى تأويل القرآن

فإن قال لنا قائل : فما أنت قائل ، فيما حدثكم به العباس بن عبد العظيم قال : حدثنا محمد بن خالد بن عثمة ، قال : حدثنى جعفر بن محمد الزبيرى ، قال : حدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : ما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، يفسر شيئا من القرآن ، إلا آيا تُعَدّ ، علّمهن إياه جبريل ؟

حدثنا محمد بن يزيد الطرسوسى ، قال : أخبرنا معن ، عن جعفر[1] بن خالد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ، يفسر شيئا من القرآن ، إلا آيا تعدّ ، علّمهن إياه جبريل ، عليه السلام .

وحدثنا أحمد بن عبدة الضبى ، قال : حدثنا حماد بن زيد ، قال : حدثنا عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركت فقهاء المدينة ، وإنهم ليعظمون القول فى التفسير ، منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد ابن المسيب ، ونافع .

وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا بشر بن عمر ، قال : حدثنا مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت رجلا يسأل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن ، فقال : لاأقول فى القرآن شيئا .

حدثنا يونس ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرنى مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه كان إذا سُئِلَ عن تفسير آية من القرآن ، قال : أنا لاأقول فى القرآن شيئا .

(١) فى م : جبريل بدل جعفر .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت الليث يحدث عن يحيى بن سعيد ، عن ابن المسيب ، أنه كان لايتكلم إلا فى المعلوم من القرآن .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام قال : حدثنا سفيان ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، قال : سألت عبيدة السلمانى عن آية ، قال : عليك بالسداد ! فقد ذهب الذين علموا فيم أنزل القرآن .

حدثنى يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية ، عن أيوب وابن عون ، عن محمد ، قال : سألت عبيدة عن آية من القرآن ، فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن ، اتق الله ، وعليك بالسداد !

وحدثنى يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية عن أيوب ، عن ابن أبى مليكة ، أن ابن عباس سئل عن آية ، لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها .

حدثنى يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية ، عن مهدى بن ميمون ، عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طلق بن حبيب ، إلى جندب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ، فقال له : أحرّج عليك إن كنت مسلما لما قمت عنى ! أو قال : أن تجالسنى .

حدثنى عباس بن الوليد ، قال : أخبرنى أبى ، قال : حدثنا عبد الله بن شوذب ، قال : حدثنى يزيد بن أبى يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، وإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن ، سكت كأن لم يسمع .

وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : أخبرنا شعبة ، عن عمرو بن مرّة ، قال : سأل رجل سعيد بن المسيب ، عن آية من القرآن ، فقال : لاتسألنى عن آية من القرآن ، وسل من يزعم أنه لايخفى عليه شىء منه !! يعنى عكرمة .

وحدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا سعيد بن عامر ، عن شعبة ، عن عبد الله بن أبى السفر ، قال : قال الشعبى : والله ما من آية إلا قد سألتُ عنها ، ولكنها الرواية عن الله .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن صالح ، يعنى ابن مسلم ، قال : حدثنى رجل ، عن الشعبى ، قال : ثلاث لاأقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح ، والرأى ، وما أشبه ذلك من الأخبار .

قيل له : أما الخبر الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه لم يكن يفسر من القرآن شيئا إلا آيا تعدّ ، فإن ذلك مصحح ما قلنا من القول فى الباب الماضى قبل ، وهو أن من تأويل القرآن ، ما لايدرك علمه إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك يفصل جمل ما فى آيه ، من أمر الله ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه ، وسائر معانى شرائع دينه ، الذى هو مجمل فى ظاهر التنزيل ، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة ، لا يدرك علم تأويله إلا ببيان من عند الله ، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أشبه ذلك مما تحويه آى القرآن ، من سائر حكمه ، الذى جعل الله بيانه لخلقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يعلم أحد من خلق الله تأويل ذلك ، إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا بتعليم الله إياه ذلك ، بوحيه إليه ، إما مع جبريل ، أو مع من شاء

من رسله إليه . . فذلك هو الآى ، التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يفسرها لأصحابه ، بتعليم جبريل إياه ، وهن لاشكّ آى ذوات عدد .

ومن آى القرآن ، ما قد ذكرنا أن الله جلّ ثناؤه ، استأثر بعلم تأويله ، فلم يطلع على علمه ملكا مقرّبا ، ولا نبيا مرسلا ، ولكنهم يؤمنون بأنه من عنده ، وأنه لايعلم تأويله إلا الله .

فأما ما لابد للعباد من علم تأويله ، فقد بين لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ببيان الله ذلك له ، بوحيه مع جبريل ، وذلك هو المعنى الذى أمره الله ببيانه لهم ، فقال له جلّ ذكره : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

ولو كان تأويل الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كان لايفسر من القرآن شيئا إلا آيا تعدّ ، هو ما يسبق إليه أوهام أهل الغباء ، من أنه لم يكن يفسر من القرآن إلا القليل من آيه ، واليسير من حروفه ، كان إنما أنزل إليه صلى الله عليه وسلم الذكر ، ليترك للناس بيان ما أنزل إليهم ، لاليبين لهم ما أنزل إليهم .

وفى أمر الله جل ثناؤه ، نبيه صلى الله عليه وسلم ، ببلاغ ما أنزل إليه ، وإعلامه إياه ، أنه إنما نزل إليه ما أنزل ، ليبين للناس مانزل إليهم ، وقيام الحجة على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قد بلّغ فأدّى ، ما أمره الله ببلاغه وأدائه ، على ما أمره به ، وصحة الخبر عن عبد الله بن مسعود لقيله « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات ، لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن » ما ينبئ عن جهل من ظنّ أو توهم ، أن معنى الخبر الذى ذكرنا ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه لم يكن يفسر من القرآن شيئا إلا آيا تعدّ ، هو أنه لم يكن يبين لأمته من تأويله إلا اليسير القليل منه . هذا مع ما فى الخبر ، الذى روى عن عائشة ، من العلة التى فى إسناده ، التى لايجوز معها الاحتجاج به لأحد ممن علم صحيح سند الآثار وفاسدها فى الدين ، لأن راويه ممن لايعرف فى أهل الآثار ، وهو جعفر بن محمد الزبيرى . وأما الأخبار التى ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين ، بإحجامه عن التأويل ، فإن فِعْلَ مَنْ فَعَلَ ذلك منهم ، كفِعْلِ من أحجم منهم عن الفتيا فى النوازل والحوادث ، مع إقراره بأن الله جلّ ثناؤه ، لم يقبض نبيه إليه ، إلا بعد إكمال الدين به لعباده ، وعلمه بأن لله فى كل نازلة وحادثة ، حكما موجودا ، بنصّ أو دلالة ، فلم يكن إحجامه عن القول فى ذلك ، إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم ، موجود بين أظهر عباده ، ولكن إحجام خائف ، أن لايبلغ فى اجتهاده ، ما كلف الله العلماء من عباده فيه ، فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل فى تأويل القرآن ، وتفسيره من العلماء السلف ، إنما كان إحجامه عنه حذار أن لايبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب القول فيه ، لاعلى أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم .

ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محمودا علمه بالتفسير ومن كان منهم مذموما علمه بذلك

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا وكيع ، قال : حدثنا سفيان ، عن سليمان ، عن مسلم ، قال : قال عبد الله : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وحدثني يحيى بن داود الواسطي ، قال : حدثنا إسحق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وحدثني محمد بن بشار ، قال : حدثنا جعفر بن عون ، قال : حدثنا الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله : بنحوه .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا طلق بن غنام ، عن عثمان المكي ، عن ابن أبي مليكة ، قال : رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس ، عن تفسير القرآن ، ومعه الواحد ، فيقول له ابن عباس : اكتب ، قال : حتى سأله عن التفسير كله .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا المحاربي ، ويونس بن بكير ، قالا : حدثنا محمد بن إسحق ، عن أبان بن صالح ، عن مجاهد ، قال : عرضت المصحف على ابن عباس ، ثلاث عرضات ، من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه ، وأسأله عنها .

وحدثني عبيد الله بن يوسف الجبيري ، عن أبي بكر الحنفي ، قال : سمعت سفيان الثوري ، يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به !

وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا سليمان أبو داود ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن ميسرة ، قال : لم يلق الضحاك ابن عباس ، وإنما لقي سعيد بن جبير بالريّ ، وأخذ عنه التفسير .

وحدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا أبو داود ، عن شعبة ، عن مشاش ، قال : قلتُ للضحاك : سمعتَ من ابن عباس شيئا ؟ قال : لا .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن إدريس ، قال : حدثنا زكريا ، قال : كان الشعبي يمرّ بأبي صالح باذان ، فيأخذ بأذنه فيعركها ، ويقول : تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن ؟ ! .

وحدثني عبيد الله بن أحمد بن شبويه ، قال : حدثنا عليّ بن الحسين بن واقد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا الأعمش ، قال : حدثني سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، قال : قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة ، إن الله هو السميع البصير ؛ قال الحسين : فقلت للأعمش : حدثني به الكلبي ، إلا أنه قال : إن الله قادر أن يجزي بالسيئة السيئة ، وبالحسنة عشرا ، فقال الأعمش : لو أن الذي عند الكلبي عندي ، ما خرج مني بحقير ! !

وحدثنى سليمان بن عبد الجبار ، قال : حدثنا علىّ بن حكيم الأودى ، قال : حدثنا عبد الله بن بكير ، عن صالح بن مسلم ، قال : مرّ الشعبى على السدى وهو يفسر ، فقال : لأن يضرب على استك بالطبل ، خير لك من مجلسك هذا !

وحدثنى سليمان بن عبد الجبار ، قال : حدثنى علىّ بن حكيم ، قال : حدثنا شريك ، عن مسلم بن عبد الرحمن النخعى ، قال : كنت مع إبراهيم ، فرأى السدى ، فقال : أما إنه يفسر تفسير القوم .

حدثنا ابن البرقى ، قال : حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، قال : سمعت سعيد بن بشير ، يقول عن قتادة ، قال : ما أرى أحدا يجرى مع الكلبى فى التفسير فى عنان .

قال أبو جعفر :

قد قلنا فيما مضى من كتابنا هذا فى وجوه تأويل القرآن ، وأن تأويل جميع القرآن على أوجه ثلاثة :

أحدها : لاسبيل إلى الوصول إليه ، وهو الذى استأثر الله بعلمه ، وحجب علمه عن جميع خلقه ، وهو أوقات ما كان من آجال الأمور الحادثة ، التى أخبر الله فى كتابه أنها كائنة ، مثل وقت قيام الساعة ، ووقت نزول عيسى ابن مريم ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، والنفخ فى الصور ، وما أشبه ذلك .

والوجه الثانى : ماخصّ الله بعلم تأويله نبيه صلى الله عليه وسلم ، دون سائر أمته ، وهو مافيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجة ، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك ، إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم لهم تأويله .

والثالث منها : ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن ، وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه ، لاتوصل إلى علم ذلك إلا من قبلهم ، فإذا كان ذلك كذلك ، فأحقّ المفسرين بإصابة الحق فى تأويل القرآن الذى إلى علم تأويله للعباد السبيل ، أوضحهم حجة فيما تأوّل وفسر ، مما كان تأويله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون سائر أمته ، من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الثابتة عنه ، إما من وجه النقل المستفيض ، فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض ، وإما من وجه نقل العدول الأثبات ، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض ، أو من وجه الدلالة المنصوبة على صحته ، وأوضحهم برهانا فيما ترجم وبيّن من ذلك ، مما كان مدركا علمه من جهة اللسان ، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة ، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة ، كائنا من كان ذلك المتأول والمفسر ، بعد أن لايكون خارجا تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك ، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة .

القول فى تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه

قال أبو جعفر :

إن الله تعالى ذكره ، سمى تنزيله الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أسماء أربعة : منهن القرآن ، فقال فى تسميته إياه بذلك ، فى تنزيله : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) وقال : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

ومنهن الفرقان: قال جلّ ثناؤه ، فى وحيه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، يسميه بذلك: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

ومنهن الكتاب : قال تبارك اسمه ، فى تسميته إياه به : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا) .

ومنهن الذكر : قال تعالى ذكره ، فى تسميته إياه به : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

ولكل اسم من أسمائه الأربعة فى كلام العرب معنى ووجه ، غير معنى الآخر ووجهه .

فأما القرآن : فإن المفسرين اختلفوا فى تأويله ، والواجب أن يكون تأويله ، على قول ابن عباس ، من التلاوة والقراءة ، وأن يكون مصدرا ، من قول القائل : قرأت القرآن ، كقولك الخسران من خسرت ، والغفرآن من غفر الله لك ، والكفران من كفرتك .

والفرقان : من فرق الله بين الحقّ والباطل .

وذلك أن يحيى بن عثمان بن صالح السهمى ، حدثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية ابن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) ، يقول بيناه ، فاتبع قرآنه ، يقول اعمل به ؛ ومعنى قول ابن عباس هذا ، فاذا بيناه بالقراءة ، فاعمل بما بيناه لك بالقراءة . ومما يوضح صحة ما قلنا فى تأويل حديث ابن عباس هذا ، ما حدثنى به محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عباس (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) قال : أن نقرئك فلا تنسى ، (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) عليك (فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) يقول : إذا تلى عليك ، فاتبع ما فيه .

قال أبو جعفر :

فقد صرّح هذا الخبر عن ابن عباس ، أن معنى القرآن عنده القراءة ، فإنه مصدر من قول القائل قرأت على ما قد قلناه ، وأما على قول قتادة ، فإن الواجب أن يكون مصدرا ، من قول القائل قرأت الشىء ، إذا جمعته وضممتَ بعضه إلى بعض ، كقولك : ماقرأت هذه الناقة سلا قط ، تريد بذلك أنها لم تضم رحما على ولد ، كما قال عمرو بن كلثوم التغلبى :

تُرِيكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاءٍ ... وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الْكَاشِحِينَا
ذِرَاعَىْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ ... هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

يعنى بقوله : لم تقرأ جنينا : لم تضمم رحما على ولد .

وذلك أن بشر بن معاذ العقدى حدثنا ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ، فى قوله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) يقول : حفظه وتأليفه ، (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) يقول : اتبع حلاله ، واجتنب حرامه .

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، قال : حدثنا معمر ، عن قتادة ، بمثله . فرأى قتادة ، أن تأويل القرآن : التأليف .

قال أبو جعفر :

ولكلا القولين ، أعنى قول ابن عباس وقول قتادة ، اللذين حكيناهما ، وجه صحيح فى كلام العرب . غير أن أولى قوليهما ، بتأويل قول الله تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) قول ابن عباس ، لأن الله جلّ ثناؤه ، أمر نبيه فى غير آية من تنزيله ، باتباع ما أوحى إليه ، ولم يرخص له فى ترك اتباع شىء من أمره ، إلى وقت تأليفه القرآن ، فكذلك قوله (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) نظير سائر ما فى آى القرآن ، التى أمره الله فيها باتباع ما أوحى إليه فى تنزيله ، ولو وجب أن يكون معنى قوله (فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) فإذا ألفناه فاتبع ما ألفنا لك فيه ، لوجب أن لايكون كان لزمه فرض (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) ولا فرض (يا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) قبل أن يؤلف إلى ذلك غيره من القرآن وذلك إن قاله قائل خروج من قول أهل الملة ، وإذا صح أن حكم كل آية من آى القرآن ، كان لازما النبىّ صلى الله عليه وسلم ، اتباعه والعمل به ، مؤلفة كانت إلى غيرها ، أو غير مؤلفة ، صحّ ما قال ابن عباس فى تأويل قوله (فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) أنه يعنى به : فإذا بيناه لك بقراءتنا ، فاتبع ما بيناه لك بقراءتنا ، دون قول من قال : معناه فإذا ألفناه فاتبع ما ألفناه .

وقد قيل ، إن قول الشاعر :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا

يعنى به قائله تسبيحا وقراءة .

فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يسمى قرآنا بمعنى القراءة ، وإنما هو مقروء ؟ قيل كما جاز أن يسمى المكتوب كتابا ، بمعنى كتاب الكاتب ، كما قال الشاعر ، فى صفة كتاب طلاق ، كتبه لامرأته :

تُؤَمِّلُ رَجْعَةً مِنِّى وَفِيهَا ... كِتَابٌ مِثْلُ مَا لَصِقَ الْغِرَاءُ

يريد طلاقا مكتوبا ، فجعل المكتوب كتابا .

وأما تأويل اسمه ، الذى هو فرقان ، فإن تفسير أهل التفسير ، جاء فى ذلك بألفاظ مختلفة ، هى فى المعانى مؤتلفة . فقال عكرمة ، فيما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا حكام بن سلم ، عن عنبسة ، عن جابر ، عن عكرمة أنه كان يقول : هو النجاة .

وكذلك كان السدى يتأوله . حدثنا بذلك محمد بن الحسين ، قال : حدثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، وهو قول جماعة غيرهما .

وكان ابن عباس ، يقول : الفرقان : المخرج . حدثنى بذلك يحيى بن عثمان[1] بن صالح ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ؛ وكذلك كان مجاهد ،

(١) فى م عمر بدل عثمان .

يقول فى تأويله . حدثنا بذلك ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن جابر ، عن مجاهد ؛ وكان مجاهد يقول ، فى قول الله عزّ وجل (يَوْمَ الفُرْقَانِ) يوم فرّق الله فيه بين الحقّ والباطل . حدثنى بذلك محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنى أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد .

فكل هذه التأويلات ، فى معنى الفرقان ، على اختلاف ألفاظها ، متقاربات المعانى ، وذلك أن من جعل له مخرج من أمر كان فيه ، فقد جعل له ذلك المخرج منه نجاة ، وكذلك إذا نجى منه ، فقد نصر على من بغاه فيه سوءا ، وفرق بينه وبين باغيه بالسوء .

فجميع ما روينا ، عمن روينا عنه فى معنى الفرقان ، قول صحيح المعنى ، لاتفاق معانى ألفاظهم فى ذلك .

وأصل الفرقان عندنا : الفرق بين الشيئين ، والفصل بينهما ، وقد يكون ذلك بقضاء ، واستنقاذ ، وإظهار حجة ، وتصرّف ، وغير ذلك من المعانى المفرّقة بين المحقّ والمبطل . فقد تبين بذلك ، أن القرآن سمى فرقانا ، لفصله بحجته وأدلته وحدوده وفرائضه وسائر معانى حكمه ، بين المحق والمبطل ، وفرقانه بينهما ، بنصره المحقّ وتخذيله المبطل ، حكما وقضاء .

وأما تأويل اسمه ، الذى هو الكتاب ، فهو مصدر من قولك كتبت كتابا ، كما تقول قمت قياما ، وحسبت الشىء حسابا ، والكتاب هو خط الكاتب حروف المعجم ، مجموعة ومفترقة ، وسمى كتابا وإنما هو مكتوب ، كما قال الشاعر فى البيت الذى استشهدنا به :

. . . . وفيها كِتابٌ مِثْلُ ما لَصِقَ الغِراءُ

يعنى به مكتوبا .

وأما تأويل اسمه الذى هو الذكر ، فانه محتمل معنيين : أحدهما أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكر به عباده ، فعرّفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه ، والآخر أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدّق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) يعنى به أنه شرف له ولقومه .

ثم لسور القرآن أسماء سماها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا أبو داود الطيالسى ، قال : حدثنا أبو العوام ، وحدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، قال : حدثنا داود بن الجرّاح ، قال : حدثنا سعيد بن بشير ، جميعا عن قتادة ، عن أبى المليح ، عن واثلة بن الأسقع ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال « أُعْطِيتُ مَكانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطُّوَلَ ، وأُعْطِيتُ مَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ ، وأُعْطِيتُ مَكانَ الإنجِيلِ المَثانِيَ ، وفُضِّلْتُ بالمُفَصَّلِ » .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن خالد الحذاء ، عن أبى قلابة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُعْطِيتُ السَّبْعَ الطُّوَلَ مَكانَ التَّوْرَاةِ ، وأُعْطِيتُ المَثانِيَ مَكانَ الزَّبُورِ ، وأُعْطِيتُ المِئِينَ مَكانَ الإنجِيلِ ، وفُضِّلْتُ بالمُفَصَّلِ » .

قال خالد : كانوا يسمون المفصل : العربى ؛ قال خالد : قال بعضهم : ليس فى العربى سجدة .

وحدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا حكام بن سلم، عن عمرو بن أبي قيس ، عن عاصم ، عن المسيب ، عن ابن مسعود ، قال : الطول كالتوراة ، والمئين كالإنجيل ، والمثانى كالزبور ، وسائر القرآن بعد ، فضل على الكتب .

حدثنى أبو عبيد الوصابى ، قال : حدثنا محمد بن حفص ، قال : أنبأنا أبو حميد ، حدثنا الفزارى ، عن ليث بن أبي سليم ، عن أبي بردة ، عن أبي المليح عن واثلة بن الأسقع ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أعْطانِي رَبِّي مَكانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطُّوَلَ ، ومَكانَ الإنْجِيلِ المَثانِيَ ، ومَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ ، وفَضَّلَنِي بالمُفَصَّلِ » .

قال أبو جعفر :

فالسبع الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ؛ فى قول سعيد بن جبير .

حدثنى بذلك يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، وقد رُوى عن ابن عباس ، قولٌ يدلّ على موافقته قول سعيد هذا ؛ وذلك ما حدثنا به محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ، ويحيى بن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وسهل بن يوسف ، قالوا : حدثنا عوف ، قال : حدثنى يزيد الفارسى ، قال : حدثنى ابن عباس ، قال : قلت لعثمان بن عفان : ماحملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموهما فى السبع الطول ؟ ماحملكم على ذلك ؟ قال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما يأتى عليه الزمان ، وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا ببعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما فى السبع الطول .

فهذا الخبر ينبئ عن عثمان بن عفان ، رحمة الله عليه ، أنه لم يكن تبين له ، أن الأنفال وبراءة ، من السبع الطول ، ويصرّح عن ابن عباس ، أنه لم يكن يرى ذلك منها .

وإنما سميت هذه السور السبع الطول ، لطولها على سائر سور القرآن .

وأما المئون : فهى ما كان من سور القرآن ، عدد آيه مائة آية ، أو تزيد عليها شيئا أو تنقص منها شيئا يسيرا .

وأما المثانى : فإنها ما ثنى المئين فتلاها ، وكان المئون لها أوائل ، وكان المثانى لها ثوانى ؛ وقد قيل إن المثانى ، سميت مثانى لتثنية [1] الله جلّ ذكره ، فيها الأمثال والخبر والعبر ، وهو قول ابن عباس .

حدثنا بذلك أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن عبد الله بن عثمان ، عن سعيد بن جبير ،

(١) فى م لتبيين .

عن ابن عباس . وروى عن سعيد بن جبير ، أنه كان يقول : إنما سميت مثانى لأنها ثنيت فيها الفرائض والحدود . حدثنا بذلك محمد بن بشار ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير .

وقد قال جماعة يكثر تعدادهم : القرآن كله مثان .

وقال جماعة أخرى : بل المثانى فاتحة الكتاب ، لأنها تثنى قراءتها فى كل صلاة . وسنذكر أسماء قائلى ذلك وعللهم ، والصواب من القول ، فيما اختلفوا فيه من ذلك ، إذا انتهينا إلى تأويل قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي) إن شاء الله ذلك .

وبمثل ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أسماء سور القرآن التى ذكرت ، جاء شعر الشعراء ، فقال بعضهم :

حَلَفْتُ بالسَّبْعِ اللَّوَاتى طُوِّلَتْ وَبِمِئِينٍ بَعْدَها قَدْ أُمْئِيَتْ
وَبِمَثَانٍ ثُنِّيَتْ فَكُرِّرَتْ وبالطَّوَاسِينِ التى قَدْ ثُلِّثَتْ
وبالْحَوَامِيمِ اللَّوَاتِى سُبِّعَتْ وَبالمُفَصَّلِ اللَّوَاتِى فُصِّلَتْ

قال أبو جعفر رحمة الله عليه : وهذه الأبيات تدل على صحة التأويل الذى تأولناه ، فى هذه الأسماء ؛ وأما المفصل ، فإنها سميت مفصلا ، لكثرة الفصول التى بين سورها ، ببسم الله الرحمن الرحيم .

قال أبو جعفر : ثم تسمى كل سورة من سورة القرآن سورة ، وتجمع سورا ، على تقدير خطبة وخطب ، وغرفة وغرف ؛ والسورة بغير همز ، المنزلة من منازل الارتفاع ، ومن ذلك سور المدينة ، سمى بذلك الحائط الذى يحويها لارتفاعه على ما يحويه ، غير أن السورة من سور المدينة لم يسمع فى جمعها سور ، كما سمع فى جمع سورة من القرآن سُوَر ، قال العجاج ، فى جمع السورة من البناء :

فَرُبَّ ذِى سُرادِقٍ مَحْجُورِ سِرْتُ إِلَيْهِ فى أعالى السُّورِ

فخرّج بتقدير جمعها ، على تقدير جمع برّة وبسرة ، لأن جمع ذلك برّ وبسر . وكذلك لم يسمع فى جمع سورة من القرآن سور ، ولو جمعت كذلك لم يكن خطأ فى القياس ، إذا أريد به جميع القرآن . وإنما تركوا فيما يرى جمعه كذلك ، لأن كل جمع كان بلفظ الواحد المذكر ، مثل برّ وشعير وقصب وما أشبه ذلك ، فإن جماعه كا لواحد من الأشياء غيره ، لأن حكم الواحد منه مفردا قلما يصاب ، فجرى جماعه مجرى الواحد من الأشياء غيره . ثم جعلت الواحدة منه كالقطعة من جميعه ، فقيل برّة وشعيرة وقصبة ، يراد به قطعة منه ، ولم تكن سور القرآن موجودة مجتمعة ، اجتماع البرّ والشعير وسور المدينة ، بل كل سورة منها موجودة منفردة بنفسها ، انفراد كل غرفة من الغرف ، وخطبة من الخطب . فجعل جمعها جمع الغرف والخطب ، المبنى جمعها من واحدها ، ومن الدلالة على أن معنى السورة المنزلة من الارتفاع ، قول نابغة بنى ذبيان :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

يعنى بذلك أن الله أعطاه منزلة ، من منازل الشرف ، التى قصرت عنها منازل الملوك .

وقد همز بعضهم السورة من القرآن ، وتأويلها فى لغة من همزها : القطعةُ التى قد أفضلت من القرآن عما

سواها وأبقيت ، وذلك أن سؤر كل شيء البقية منه ، تبقى بعد الذى يؤخذ منه . ولذلك سميت الفضلة من شراب الرجل يشربه ، ثم يفضلها فيبقيها فى الإناء سؤرا ؛ ومن ذلك قول أعشى بنى ثعلبة ، يصف امرأة فارقته . فأبقت فى قلبه من وَجْدها بقية :

فَبانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فى الفؤا د صَدْعاً على نَأْيِها مُسْتَطِيرَا

وقال الأعشى فى مثل ذلك :

بانَتْ وقَدْ أَسأَرَتْ فى النَّفْسِ حاجَتَها بَعْدَ ائْتِلافٍ وخَيْرُ الوُدِّ ما نَفَعا

وأما الآية من آى القرآن ، فإنها تحتمل وجهين فى كلام العرب :

أحدهما أن تكون سميت آية ، لأنها علامة يعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها ، كالآية التى تكون دلالة على الشيء ، يستدل بها عليه ، كقول الشاعر :

أَلِكْنِى إِلَيْها عَمْرَكَ اللهُ يا فَتَى بِآيَةِ ما جاءَتْ إِلَيْنا تَهادِيا

يعنى بعلامة ذلك ، ومنه قوله ، جلّ ذكره : (رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وآخِرِنا وآيَةً مِنْكَ) أى علامة منك ، لإجابتك دعاءنا ، وإعطائك إيانا سؤلنا .

والآخر منهما القصة ، كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى :

ألا أَبْلِغا هَـذَا المُعَرِّضَ آيَةً أَيَقْظانُ قالَ القَوْلَ إِذْ قالَ أَمْ حُلُمْ

يعنى بقوله آية : رسالة منى وخبرا عنى ، فيكون معنى الآيات : القصص ، قصة تتلو قصة ، بفصول ووصول .

القول فى تأويل أسماء فاتحة الكتاب

قال أبو جعفر :

صحّ الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرنى ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « هِىَ أُمُّ القُرْآنِ ، وهِىَ فاتِحَةُ الكِتابِ ، وهِى السَّبْعُ المَثانِى » .

فهذه أسماء فاتحة الكتاب . وسميت فاتحة الكتاب ، لأنها يفتتح بكتابتها المصاحف ، ويقرأ بها فى الصلوات فهى فواتح لِمَا يتلوها من سور القرآن فى الكتابة والقراءة .

وسميت أمّ القرآن ، لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخر ما سواها خلفها ، فى القراءة والكتابة . وذلك من معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب ، وإنما قيل لها لكونها كذلك ، أمّ القرآن ، لتسمية العرب كل جامع أمرا أو مقدما لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه ، هو لها إمام جامع أمًّا ، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ أم الرأس ؛ وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها للجيش أمًّا ، ومن ذلك قول ذى الرمّة يصف راية معقودة ، على قناة يجتمع تحتها هو وصحبه :

وأَسْمَرَ قَوَّامٍ إِذَا نامَ صُحْبَتِى خَفِيفُ الثِّيابِ لا تُوَارِى لَهُ أُزْرَا

عَلَى رَأْسِهِ أُمٌّ لَنَا نَقْتَدِي بِهَا جِمَاعُ أُمُورٍ لَا نُعَاصِي لَهَا أَمْرَا
إِذَا نَزَلَتْ قِيلَ انْزِلُوا وَإِذَا غَدَتْ غَدَتْ ذَاتَ تَرْزِيقٍ نَنَالُ بِهَا فَخْرَا

يعنى بقوله « على رأسه أمٌّ لنا » أى على رأس الرمح راية يجتمعون لها فى النزول والرحيل وعند لقاء العدوّ.

وقد قيل : إن مكة سميت أمَّ القُرَى ، لتقدمها أمام جميعها ، وجمعها ماسواها ، وقيل إنما سميت بذلك ، لأن الأرض دحيت منها ، فصارت لجميعها أمًّا ، ومن ذلك قول حميد بن ثور الهلالى :

إِذَا كَانَتِ الخَمْسُونَ أُمَّكَ لَمْ يَكُنْ لِدَائِكَ إِلَّا أَنْ تَمُوتَ طَبِيبُ

لأن الخمسين جامعة ما دونها من العدد ، فسماها أُمًّا للذى قد بلغها .

وأما تأويل اسمها ، أنها السبع ، فإنها سبع آيات ، لاخلاف بين الجميع من القراء والعلماء فى ذلك ، وإنما اختلفوا فى الآى التى صارت بها سبع آيات .

فقال أعظم أهل الكوفة : صارت سبع آيات ، ببسم الله الرحمن الرحيم ؛ وروى ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين .

وقال آخرون : هى سبع آيات ، وليس منهن بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن السابعة ، أنعمتَ عليهم ؛ وذلك قول أعظم قراء أهل المدينة ومتفقهيهم .

قال أبو جعفر :

وقد بينا الصواب من القول عندنا فى ذلك ، فى كتابنا اللطيف فى أحكام شرائع الإسلام ، بوجيز من القول ، وسنستقصى بيان ذلك ، بحكاية أقوال المختلفين فيه ، من الصحابة ، والتابعين ، والمتقدمين ، والمتأخرين فى كتابنا الأكبر فى أحكام شرائع الإسلام ، إن شاء الله ذلك .

وأما وصف النبى صلى الله عليه وسلم ، آياتها السبع بأنهن مثان ، فلأنها تثنى قراءتها ، فى كل صلاة تطوع ومكتوبة ، وكذلك كان الحسن البصرى يتأوّل ذلك .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن أبى رجاء ، قال : سألت الحسن عن قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ) قال : هى فاتحة الكتاب ، ثم سئل عنها ، وأنا أسمع ، فقرأها الحمد لله ربّ العالمين ، حتى أتى على آخرها ، فقال : تثنى فى كل قراءة ، أو قال فى كل صلاة — الشكّ من أبى جعفر — والمعنى الذى قلنا فى ذلك ، قصد أبو النجم العجلى ، بقوله :

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي وَكُلَّ خَيْرٍ بَعْدَهُ أَعْطَانِي
مِنَ القُرْآنِ وَمِنَ المَثَانِي

وكذلك قول الراجز الآخر :

نَشَدْتُكُمْ بِمُنْزِلِ الفُرْقَانِ أُمِّ الكِتَابِ السَّبْعِ مِنْ مَثَانِي
ثُنِّيْنَ مِنْ آيٍ مِنَ القُرْآنِ وَالسَّبْعِ سَبْعِ الطُّوَلِ الدَّوَانِي

وليس فى وجود اسم السبع المثانى لفاتحة الكتاب ، ما يدفع صحة وجود اسم المثانى للقرآن كله ،

ولما يثنى من السور ، لأن لكل ذلك وجها ومعنى مفهوما ، لايفسد بتسمية بعض ذلك بالمثانى ، تسمية غيره بها . فأما وجه تسمية ماثنى المئين ، من سور القرآن ، بالمثانى ، فقد بينا صحته ، وسندل على صحة وجه تسمية جميع القرآن به ، عند انتهائنا إليه ، فى سورة الزمر إن شاء الله .

القول فى تأويل الاستعاذة

تأويل قوله : (أَعُوذُ) . قال أبو جعفر :

والاستعاذة : الاستجارة ، وتأويل قول القائل : أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ ، أستجير بالله دون غيره ، من سائر خلقه ، من الشيطان ، أن يضرّنى فى دينى ، أو يصدنى عن حقّ يلزمنى لربى .

تأويل قوله : (مِنَ الشَّيْطانِ) . قال أبو جعفر :

والشيطان فى كلام العرب ، كلّ متمرّد من الجنّ والإنس والدوابّ وكلّ شىء ، وكذلك قال ربنا جلّ ثناؤه : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ) فجعل من الإنس شياطين ، مثل الذى جعل من الجنّ ؛ وقال عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ، وركب برذونا ، فجعل يتبختر به ، فجعل يضربه ، فلا يزداد إلا تبخترا ، فنزل عنه ، وقال : ماحملتمونى إلا على شيطان ! مانزلت عنه حتى أنكرت نفسى !

حدثنا بذلك يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : خبرنى هشام بن سعد ، عن زيد ابن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر .

قال أبو جعفر : وإنما سمى المتمرّد من كل شىء شيطانا ، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله ، وبُعده من الخير ؛ وقد قيل إنه أخذ من قول القائل : شطنت دارى من دارك ، يريد بذلك بعدت ، ومن ذلك قول نابغة بنى ذبيان :

نَأَتْ بِسُعادَ عَنْكَ نَوًى شَطُونُ   فبانَتْ والفُؤادُ بِهَا رَهِينُ

والنوى : الوجه الذى نوته وقصدته ، والشطون : البعيد ، فكأنّ الشيطان على هذا التأويل ، فيعال من شطن ؛ ومما يدلّ على أن ذلك كذلك ، قول أمية بن أبى الصلت :

أَيُّمَا شاطِنٍ عَصَاهُ عَكاهُ   ثُمَّ يُلْقَى فى السِّجْنِ والأَكْبالِ

ولو كان فعلان ، من شاط يشيط ، لقال أيما شائط ، ولكنه قال أيما شاطن ، لأنه من شطن يشطن ، فهو شاطن .

تأويل قوله الرجيم . وأما الرجيم فهو فعيل ، بمعنى مفعول ، كقول القائل : كفٌّ خضيب ؛ ولحية دهين ، ورجل لعين ، يريد بذلك : مخضوبة ، ومدهونة ، وملعون ؛ وتأويل الرجيم : الملعون ، المشتوم . وكل مشتوم بقول ردىء أو سبّ ، فهو مرجوم ، وأصل الرجم : الرمى بقول كان أو بفعل ، ومن

الرجم بالقول قول أبي إبراهيم، لإبراهيم صلوات الله عليه: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ).وقد يجوز أن يكون قيل للشيطان رجيم، لأن الله جل ثناؤه، طرده من سمواته، ورجمه بالشهب الثواقب.

وقد روى عن ابن عباس، أن أوّل ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، علمه الاستعاذة.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أوّل مانزل جبريل على محمد، قال: يا محمد، قل أستعيذ بالسميع العليم، من الشيطان الرجيم. ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) قال عبد الله: وهى أول سورة أنزلها الله على محمد، بلسان جبريل، فأمره أن يتعوّذ بالله دون خلقه.

القول فى تأويل بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

القول فى تأويل (بِسْمِ). قال أبو جعفر:

إن الله تعالى ذكره، وتقدست أسماؤه، أدّب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله، وتقدم إليه فى وصفه بها، قبل جميع مهماته، وجعل ما أدبه به من ذلك، وعلمه إياه منه لجميع خلقه، سنة يستنّون بها، وسبيلا يتبعونه عليها، فى افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ماظهر، من قول القائل: بسم الله، على ما بطن من مراده، الذى هو محذوف، وذلك أن الباء من بسم الله، مقتضية فعلا، يكون لها جالبا، ولا فعل معها ظاهر، فأغنت سامع القائل بسم الله معرفته بمراد قائله، من إظهار قائل ذلك مراده قولا، إذ كان كل ناطق به، عند افتتاحه أمرا قد أحضر منطقه به، إما معه، وإما قبله، بلا فصل ما قد أغنى سامعه من دلالة شاهدة، على الذى من أجله افتتح قيله به، فصار استغناء سامع ذلك منه، عن إظهار ماحذف منه، نظير استغنائه إذا سمع قائلا قيل له: ما أكلت اليوم؟ فقال: طعاما، عن أن يكرّر المسئول مع قوله طعاما أكلت، لما قد ظهر لديه من الدلالة، على أن ذلك معناه بتقدم مسئلة السائل إياه عما أكل، فمعقول إذًا أن قول القائل، إذا قال «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم افتتح تاليا سورة، أن إتباعه «بسم الله الرحمن الرحيم» تلاوة السورة، ينبئ عن معنى قوله «بسم الله الرحمن الرحيم» ومفهوم به أنه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم.

وكذلك قوله بسم الله عند نهوضه للقيام، أو عند قعوده، وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده، بقوله بسم الله، وأنه أراد بقيله بسم الله، أقوم بسم الله، وأقعد بسم الله، وكذلك سائر الأفعال.

وهذا الذى قلنا فى تأويل ذلك، هو معنى قول ابن عباس، الذى حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس،

قال : إن أول ما نزل به جبريل على محمد ، قال : يامحمد ، قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ ثم قال : قل: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قال : قال له جبريل: قل بسم الله يا محمد . يقول اقرأ بذكر الله ربك ، وقم واقعد بذكر الله .

قال أبو جعفر : فإن قال لناقائل : فإن كان تأويل قول بسم الله ما وصفت ، والجالب الباء فى بسم الله ما ذكرت ، فكيف قيل بسم الله ، بمعنى أقرأ بسم الله ، أو أقوم أو أقعد بسم الله؟ وقد علمت أن كل قارئ كتاب الله ، فبعون الله وتوفيقه قراءته ، وأن كل قائم أو قاعد أو فاعل فعلا ، فبالله قيامه وقعوده وفعله ، وهلا إذ كان ذلك كذلك ، قيل : بالله الرحمن الرحيم ، ولم يقل بسم الله ، فإن قول القائل : أقوم وأقعد بالله الرحمن الرحيم ، أو أقرأ بالله ، أوضح معنى لسامعه ، من قوله بسم الله ، إذ كان قوله أقوم وأقعد بسم الله ، يوهم سامعه ، أن قيامه وقعوده بمعنى غير الله ؟ .

قيل له : إن المقصود إليه من معنى ذلك ، غير ما توهمته فى نفسك ، وإنما معنى قوله بسم الله : أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شىء ، أو أقرأ بتسمية الله ، أو أقوم وأقعد بتسمية الله وذكره ، لاأنه يعنى بقيله بسم الله : أقوم بالله ، أو أقرأ بالله ، فيكون قول القائل أقرأ بالله ، وأقوم وأقعد بالله ، أولى بوجه الصواب فى ذلك ، من قوله بسم الله .

فإن قال : فإن كان الأمر فى ذلك على ما وصفت ، فكيف قيل بسم الله وقد علمت أن الاسم اسم ، وأن التسمية مصدر من قولك سميت ؟ .

قيل : إن العرب قد تخرج المصادر مبهمة ، على أسماء مختلفة ، كقولهم : أكرمت فلانا كرامة ، وإنما بناء مصدر أفعلت ، إذا أخرج على فعله الإفعال ، وكقولهم : أهنت فلانا هوانا ، وكلمته كلاما ، وبناء مصدر فعلت التفعيل ، ومن ذلك قول الشاعر :

أَكُفْرًا بَعْدَ رَدِّ المَوْتِ عَنِّى ... وبَعْدَ عَطائِكَ المِائَةَ الرِّتاعا

يريد : إعطائك ، ومنه قول الآخر :

وَإنْ كانَ هَذا البُخْلُ مِنْكَ سَجِيَّةً ... لَقَدْ كُنْتُ فى طَوْلى رَجاءَكَ أشْعَبا

يريد : فى إطالتى رجاءك ، ومنه قول الآخر :

أظَلُومُ إنَّ مُصابَكُمْ رَجُلا ... أهْدَى السَّلامَ تَحِيَّةً ظُلْمُ

يريد : إصابتكم .

والشواهد فى هذا المعنى تكثر ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه ، فإذا كان الأمر على ما وصفنا ، من إخراج العرب مصادر الأفعال ، على غير بناء أفعالها كثيرا ، وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجودا فاشيا ، تبين بذلك صواب ما قلنا من التأويل ، فى قول القائل بسم الله ، أن معناه فى ذلك ، عند ابتدائه فى فعل أو قول : أبدأ بتسمية الله ، قبل فعلى ، أو قبل قولى .

وكذلك معنى قول القائل ، عند ابتدائه بتلاوة القرآن « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » إنما معناه : أقرأ

مبتدئا بتسمية الله ، أو أبتدئ قراءتي بتسمية الله ؛ فجعل الاسم مكان التسمية ، كما جعل الكلام مكان التكليم ، والعطاء مكان الإعطاء .

وبمثل الذى قلنا من التأويل فى ذلك ، روى الخبر ، عن عبد الله بن عباس .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : يا محمد ، قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم .

قال ابن عباس : بسم الله ، يقول له جبريل : يا محمد اقرأ بذكر الله ربك ، وقم واقعد بذكر الله .

وهذا التأويل من ابن عباس ينبى عن صحة ما قلنا ، من أنه يراد بقول القائل ، مفتتحا قراءته ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى . وفساد قول من زعم ، أن معنى ذلك من قائله ، بالله الرحمن الرحيم ، فى كل شىء ، مع أن العباد إنما أمروا أن يبتدئوا عند فواتح أمورهم بتسمية الله ، لا بالخبر عن عظمته وصفاته ، كالذى أمروا به من التسمية على الذبائح والصيد ، وعند المطعم والمشرب ، وسائر أفعالهم ، وكذلك الذى أمروا به من تسميته عند افتتاح تلاوة تنزيل الله ، وصدور رسائلهم وكتبهم .

ولا خلاف بين الجميع من علماء الأمة ، أن قائلا لو قال ، عند تذكيته بعض بهائم الأنعام « بالله » ولم يقل بسم الله ، أنه مخالف بتركه قيل بسم الله ، ما سنّ له عند التذكية من القول ، وقد علم بذلك ، أنه لم يرد بقوله بسم الله ، بالله كما قال الزاعم ، إن اسم الله ، فى قول الله بسم الله الرحمن الرحيم ، هو الله ، لأن ذلك لو كان كما زعم ، لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبيحته بالله ، قائلا ما سن له من القول على الذبيحة . وفى إجماع الجميع على أن قائل ذلك ، تارك ماسنّ له ، من القول على ذبيحته ، إذا لم يقل بسم الله ، دليل واضح على فساد ما ادعى من التأويل فى قول القائل بسم الله ، أنه مراد به بالله ، وأن اسم الله هو الله .

وليس هذا الموضع من مواضع الإكثار فى الإبانة عن الاسم ، أهو المسمى أم غيره ؟ أم هو صفة له فنطيل الكتاب به ، وإنما هذا موضع من مواضع الإبانة عن الاسم المضاف إلى الله ، أهو اسم أم مصدر بمعنى التسمية ؟ فإن قال قائل : فما أنت قائل فى بيت لبيد بن ربيعة :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُما وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

فقد تأوّله مقدم فى العلم بلغة العرب ، أنه معنىّ به ثم السلام عليكما ، وأن اسم السلام ، هو السلام .

قيل له : لو جاز ذلك وصحّ تأويله فيه على ما تأوّل ، لجاز أن يقال : رأيت اسم زيد ، وأكلت اسم الطعام ، وشربت اسم الشراب . وفى إجماع جميع العرب ، على إحالة ذلك ، ما ينبئ عن فساد تأويل من تأوّل قول لبيد : ثم اسم السلام عليكما ، أنه أراد ثم السلام عليكما ، وادعائه أن إدخال الاسم فى ذلك ، وإضافته إلى السلام ، إنما جاز إذ كان اسم المسمى هو المسمى بعينه .

ويسأل القائلون قول من حكينا قوله هذا ، فيقال لهم أتستجيزون فى العربية ، أن يقال أكلت اسم العسل ، يعنى بذلك أكلت العسل ، كما جاز عندكم اسم السلام عليك ، وأنتم تريدون السلام عليك ؟ فإن قالوا : نعم ! خرجوا من لسان العرب ، وأجازوا فى لغتها ، ما تخطئه جميع العرب فى لغتها . وإن قالوا : لا ! سئلوا الفرق بينهما ، فلن يقولوا فى أحدهما قولا ، إلا ألزموا فى الآخر مثله .

فإن قال لنا قائل : فما معنى قول لبيد هذا عندك ؟ قيل له : يحتمل ذلك وجهين ، كلاهما غير الذى قاله من حكينا قوله : أحدهما أن السلام ، اسم من أسماء الله ، فجائز أن يكون لبيد عنى بقوله ، ثم اسم السلام عليكما : ثم الزَمَا اسم الله وذكره بعد ذلك ، ودعا ذكرى والبكاء علىّ ، على وجه الإغراء ، فرفع الاسم إذًا وأخر الحرف الذى يأتى بمعنى الإغراء ، وقد تفعل العرب ذلك ، إذا أخرت الإغراء ، وقدمت المغرى به ، وإن كانت قد تنصب به وهو مؤخر ، ومن ذلك قول الشاعر :

يا أَيُّها المَائِحُ دَلْوِى دُونَكا إِنِّى رأيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكا

فأغرى بدونك ، وهى مؤخرة ، وإنما معناه : دونك دلوى . فكذلك قول لبيد : إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ، يعنى عليكما اسم السلام ، أى الزما ذكر الله ، ودعا ذكرى والوجد بى ، لأن من بكى حولا على امرئ ميت فقد اعتذر ، فهذا أحد وجهيه .

والوجه الآخر منهما : ثم تسميتى الله عليكما ، كما يقول القائل للشىء يراه فيعجبه : اسم الله عليك : يعوِّذه بذلك من السوء ، فكأنه قال : ثم اسم الله عليكما من السوء ، وكأنّ الوجه الأول أشبه المعنيين بقول لبيد.

ويقال لمن وَجَّه بيت لبيد هذا إلى أن معناه ثم السلام عليكما ، أترى ماقلنا من هذين الوجهين جائزا ، أو أحدهما ، أو غير ماقلت فيه ؟ فإن قال : لا ! أبان مقداره من العلم ، بتصاريف وجوه كلام العرب ، وأغنى خصمه عن مناظرته . وإن قال : بلى ! قيل له : فما برهانك على صحة ما ادّعيت من التأويل أنه الصواب دون الذى ذكرت ، أنه محتمله من الوجه الذى يلزمنا تسليمه لك ، ولا سبيل إلى ذلك ؟

وأما الخبر الذى حدثنا به إسمعيل بن الفضل ، قال : حدثنا إبراهيم بن العلاء بن الضحاك ، قال : حدثنا إسمعيل بن عياش ، عن إسمعيل بن يحيى ، عن ابن أبى مليكة ، عمن حدثه عن ابن مسعود ، ومسعر بن كدام ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، أَسْلَمَتْهُ أُمُّهُ إلى الكُتَّابِ لِيُعَلِّمَهُ ، فَقَالَ لَهُ المُعَلِّمُ : اكْتُبْ بِسْمِ ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى : وَما بِسْمِ ؟ فَقَالَ لَهُ المُعَلِّمُ : ما أَدْرِى ! فقالَ عِيسَى : الباءُ : بَهاءُ اللهِ ، والسِّينُ : سَنَاؤُهُ ، والمِيمُ : مَمْلَكَتُهُ » .

فأخشى أن يكون غلطا من المحدث ، وأن يكون أراد ، ب س م ، على سبيل ما يعلم المبتدئ من الصبيان فى الكتاب ، حروف أبى جاد ، فغلط بذلك فوصله ، فقال بسم ، لأنه لامعنى لهذا التأويل ، إذا تلى بسم الله الرحمن الرحيم ، على ما يتلوه القارئ فى كتاب الله ، لاستحالة معناه عن المفهوم به ، عند جميع العرب وأهل لسانها ، إذا حمل تأويله على ذلك .

القول فى تأويل قول الله : اللهَ . قال أبو جعفر :

وأما تأويل قول الله : الله ، فإنه على معنى ماروى لنا ، عن عبد الله بن عباس : هو الذى يألهه كل شىء ، ويعبده كل خلق . وذلك أن أبا كريب حدثنا ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر ابن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : الله ذو الألوهية والمعبودية ، على خلقه أجمعين .

فإن قال لنا قائل : فهل لذلك فى فَعَلَ ويَفْعَل أصل ، كان منه بناء هذا الاسم ؟ قيل : أما سماعا من العرب فلا ، ولكن استدلالا .

فإن قال : وما دلّ على أن الألوهية هى العبادة ، وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلا فى فعل ويفعل ؟ قيل لاتمانع بين العرب فى الحكم ، لقول القائل ، يصف رجلا بعبادة ، ويطلب مما عند الله جل ذكره : تأله فلان بالصحة ولا خلاف ، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج :

لِلهِ دَرُّ الغانياتِ المُــدَّهِ سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِى

يعنى من تعبدى وطلبى الله بعمل ، ولا شك أن التأله التفعل ، من أله يأله ، وأن معنى أله : إذا نطق به عَبَدَ الله ، وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعل بغير زيادة .

وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع ، قال حدثنا أبى ، عن نافع بن عمر ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس ، أنه قرأ (وَيَذَرَكَ وَإِلاهتَكَ) قال : عبادتك ، ويقول : إنه كان يُعْبَد ولايَعْبُد .

وحدثنا سفيان ، قال : حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن محمد بن عمرو بن الحسن ، عن ابن عباس (وَيَذَرَكَ وَإِلاهتَكَ) قال : إنما كان فرعون يُعْبَد ولا يَعْبُد ، وكذلك كان عبدالله يقرؤها ومجاهد .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : أخبرنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قوله (وَيَذَرَكَ وَإِلاهتَكَ) قال : وعبادتك . ولا شك أن الإلاهة على ما فسره ابن عباس ومجاهد ، مصدر من قول القائل أَلَهَ اللهَ فلانٌ إلاهةً ، كما يقال عبد الله فلانٌ عبادة ، وعبر الرؤيا عبارةً ؛ فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا أن أله : عبد ، وأن الإلاهة مصدره .

فإن قال : فإن كان جائزا أن يقال لمن عبد الله ، أَلَهه ، على تأويل قول ابن عباس ومجاهد ، فكيف الواجب فى ذلك أن يقال ، إذا أراد المخبر الخبر ، عن استيجاب الله ذلك على عبده ؟ قيل : أما الرواية ، فلا رواية عندنا ، ولكن الواجب على قياس ما جاء به الخبر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى حدثنا به إسمعيل بن الفضل ، قال : حدثنا إبراهيم بن العلاء ، قال : حدثنا إسمعيل بن عياش ، عن إسمعيل ابن يحيى ، عن ابن أبى مليكة ، عمن حدثه ، عن ابن مسعود ، ومسعر بن كدام ، عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إنَّ عِيسَى أَسْلَمَتْهُ أُمُّهُ إلى الكُتَّابِ لِيُعَلِّمَهُ ، فَقَالَ لَهُ المُعَلِّمُ : اكْتُبْ اللهُ ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى : أَتَدْرِى ما اللهُ ؟ اللهُ إلَهُ الآلِهَةِ » أن يقال : الله جل جلاله أله العبد ، والعبد ألهه ، وأن يكون قول القائل ، الله من كلام العرب أصله الإله ،

فإن قال : وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك ، مع اختلاف لفظيهما ؟ قيل : كما جاز أن يكون قوله « لكنّ هو الله ربى » أصله « لكن أنا هو الله ربى » كما قال الشاعر :

وتَرْمِينِنِى بالطَّرْفِ أىْ أنْتَ مُذْنِبٌ ... وتَقْلِينَنِى لكِنَّ إيَّاكِ لاأقْلِى

يريد «لكنْ أنا إياكِ لاأقلى» فحذف الهمزة من أنا، فالتقت نون أنا ونون لكن ، وهى ساكنة ، فأدغمت فى نون أنا ، فصارتا نونا مشددة ، فكذلك الله ، أصله الإله ، أسقطت الهمزة ، التى هى فاء الاسم ، فالتقت اللام التى هى عين الاسم ، واللام الزائدة التى دخلت مع الألف الزائدة ، وهى ساكنة ، فأدغمت فى الأخرى ، التى هى عين الاسم، فصارتا فى اللفظ لاما واحدة مشددة ، كما وصفنا من قول الله « لكنّ هو الله ربى » .

القول فى تأويل قوله : الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

قال أبو جعفر :

أما الرحمن ، فهو فعلان ، من رحم ، والرحيم فعيل منه ، والعرب كثيرا ما تبنى الأسماء من فعل يفعل على فعلان ، كقولهم من غضب غضبان ، ومن سكر سكران ، ومن عطش عطشان ، فكذلك قولهم رحمن من رحم ، لأن فعل منه رحم يرحم .

وقيل رحيم وإن كانت عين فعل منها مكسورة ، لأنه مدح ، ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء إذا كان فيها مدح أو ذمّ على فعيل ، وإن كانت عين فَعِلَ منها مكسورة أو مفتوحة ، كما قالوا من عَلِمَ عالم وعليم ، ومن قدَرَ قادر وقدير ، وليس ذلك منها بناء على أفعالها ، لأن البناء من فعل يفعل وفعل يفعل فاعل ، فلو كان الرحمن والرحيم خارجين عن بناء أفعالهما لكانت صورتهما الراحم .

فإن قال قائل : فإذا كان الرحمن والرحيم ، اسمين مشتقين من الرحمة ، فما وجه تكرير ذلك ،وأحدهما مؤدّ عن معنى الآخر ؟

قيل له : ليس الأمر فى ذلك على ما ظننت ، بل لكل كلمة منهما معنى ، لاتؤدى الأخرى منهما عنها .

فإن قال : وما المعنى الذى انفردت به كل واحدة منهما ، فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى ؟ قيل : أما من جهة العربية ، فلا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب ، أن قول القائل الرحمن عن أبنية الأسماء من فعل ويفعل أشد عدولا من قوله الرحيم ، ولا خلاف مع ذلك بينهم ، أن كل اسم كان له أصل فى فعل ويفعل ، ثم كان عن أصله من فعل ويفعل أشدّ عدولا ، أن الموصوف به مفضل على الموصوف بالاسم المبنى على أصله ، من فعل ويفعل ، إذا كانت التسمية به مدحا أو ذما ، فهذا ما فى قول القائل : الرحمن من زيادة المعنى على قوله الرحيم فى اللغة .

وأما من جهة الأثر والخبر ، ففيه بين أهل التأويل اختلاف ؛ فحدثنى السرىّ بن يحيى التميمى ، قال : حدثنا عثمان بن زفر ، قال : سمعت العزرمى يقول : الرحمن الرحيم قال : الرحمن بجميع الخلق ؛ الرحيم ، قال : بالمؤمنين .

وحدثنا إسمعيل بن الفضل ، قال : حدثنا إبراهيم بن العلاء ، قال : حدثنا إسمعيل بن عياش ، عن إسمعيل بن يحيى ، عن ابن أبي مليكة ، عمن حدثه ، عن ابن مسعود ، ومسعر بن كدام ، عن عطية العوفى ، عن أبي سعيد ، يعنى الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ عيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، قالَ : الرَّحْمَنُ : رَحْمَنُ الآخِرَةِ والدُّنْيا ، والرَّحِيمُ : رَحِيمُ الآخِرَةِ » .

فهذان الخبران ، قد أنبآ عن فرق ما بين تسمية الله جل ثناؤه باسمه ، الذى هو رحمن ، وتسميته باسمه الذى هو رحيم ، واختلاف معنى الكلمتين وإن اختلفا فى معنى ذلك الفرق ، فدل أحدهما على أن ذلك فى الدنيا ، ودل الآخر على أنه فى الآخرة .

فإن قال : فأىّ هذين التأويلين أولى عندك بالصحة ؟ قيل : لجميعهما عندنا فى الصحة مخرج ، فلا وجه لقول قائل : أيهما أولى بالصحة ، وذلك أن المعنى الذى فى تسمية الله بالرحمن ، دون الذى فى تسميته بالرحيم ، هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه ، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه ، إما فى كل الأحوال ، وإما فى بعض الأحوال ، فلا شكّ إذا كان ذلك كذلك ، أن ذلك الخصوص ، الذى فى وصفه بالرحيم ، لايستحيل عن معناه ، فى الدنيا كان ذلك أو فى الآخرة ، أو فيهما جميعا . فإذا كان صحيحا ما قلنا من ذلك . وكان الله جل ثناؤه ، قد خص عباده المؤمنين فى عاجل الدنيا ، بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته ، والإيمان به وبرسله ، واتباع أمره واجتناب معاصيه ، مما خذل عنه من أشرك به فكفر ، وخالف ما أمره به وركب معاصيه ، وكان مع ذلك قد جعل جل ثناؤه ما أعد فى آجل الآخرة ، فى جناته من النعيم المقيم ، والفوز المبين ، لمن آمن به وصدّق رسله ، وعمل بطاعته خالصا ، دون من أشرك وكفر به ، كان بيِّنا أن الله قد خص المؤمنين من رحمته فى الدنيا والآخرة ، مع ما قد عمهم به والكفار فى الدنيا ، من الإفضال والإحسان إلى جميعهم ، فى البسط فى الرزق ، وتسخير السحاب بالغيث ، وإخراج النبات من الأرض ، وصحة الأجسام والعقول ، وسائر النعم التى لاتحصى ، التى يشترك فيها المؤمنون والكافرون ، فربنا جل ثناؤه ، رحمن جميع خلقه فى الدنيا والآخرة ، ورحيم المؤمنين خاصة ، فى الدنيا والآخرة .

فأما الذى عمّ جميعهم به فى الدنيا من رحمته ، فكان رحمانا لهم به ، فما ذكرنا مع نظائره ، التى لاسبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه ، كما قال جل ثناؤه : (وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها) وأما فى الآخرة ، فالذى عم جميعهم به فيها من رحمته ، فكان لهم رحمانا ، تسويته بين جميعهم ، جل ذكره ، فى عدله وقضائه ، فلا يظلم أحدا منهم : (مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْرًا عَظِيمًا) ويوفى كل نفس ما كسبت ، فذلك معنى عمومه فى الآخرة جميعهم برحمته ، الذى كان به رحمانا فى الآخرة .

وأما ما خص به المؤمنين فى عاجل الدنيا من رحمته ، الذى كان به رحيما لهم فيها ، كما قال جل ذكره : (وكانَ بالمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فما وصفنا من اللطف لهم فى دينهم ، فخصهم به دون من خذله من أهل الكفر به .

وأما ما خصهم به فى الآخرة ، فكان به رحيما لهم دون الكافرين ، فما وصفنا آنفا مما أعدّ لهم دون غيرهم ، من النعيم والكرامة ، التى تقصر عنها الأمانى .

وأما القول الآخر فى تأويله ، فهو ما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : الرحمن : الفعلان من الرحمة ، وهو من كلام العرب . قال : الرحمن الرحيم : الرقيق الرفيق بمن أحبّ أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحبّ أن يعنف عليه ، وكذلك أسماؤه كلها .

وهذا التأويل من ابن عباس ، يدل على أن الذى به ربنا رحمن ، هو الذى به رحيم ، وإن كان لقوله الرحمن من المعنى ، ما ليس لقوله الرحيم ، لأنه جعل معنى الرحمن بمعنى الرقيق ، على من رقّ عليه ، ومعنى الرحيم بمعنى الرفيق بمن رفق به .

والقول الذى رويناه ، فى تأويل ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكرناه عن العزرمى ، أشبه بتأويله من هذا القول الذى رويناه عن ابن عباس ، وإن كان هذا القول موافقا معناه معنى ذلك ، فى أن للرحمن من المعنى ما ليس للرحيم ، وأن للرحيم تأويلا غير تأويل الرحمن .

والقول الثالث فى تأويل ذلك ، ما حدثنى به عمران بن بكار الكلاعى ، قال : حدثنا يحيى بن صالح ، قال : حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمرو اللخمى من أهل فلسطين ، قال : سمعت عطاء الخراسانى ، يقول : كان الرحمن ، فلما اختزل الرحمن من اسمه ، كان الرحمن الرحيم .

والذى أراد ـ إن شاء الله ـ عطاء بقوله هذا ، أن الرحمن كان من أسماء الله التى لايتسمى بها أحد من خلقه، فلما تسمى به الكذّاب مسيلمة ، وهو اختزاله إياه ، يعنى اقتطاعه من أسمائه لنفسه ، أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه الرحمن الرحيم ، ليفصل بذلك لعباده اسمه من اسم من قد تسمى بأسمائه ، إذ كان لايسمى أحد الرحمن الرحيم ، فيجمع له هذان الاسمان غيره جل ذكره .

وإنما تسمى بعض خلقه ، إما رحيما ، أو يتسمى رحمن ، فأما رحمن رحيم ، فلم يجتمعا قط لأحد سواه ، ولا يجمعان لأحد غيره ، فكأن معنى قول عطاء هذا : أن الله جل ثناؤه إنما فصل بتكرير الرحيم على الرحمن ، بين اسمه واسم غيره من خلقه ، اختلف معناهما أو اتفقا .

والذى قال عطاء من ذلك ، غير فاسد المعنى ، بل جائز أن يكون جلّ ثناؤه ، خص نفسه بالتسمية بهما معا مجتمعين ، إبانة لها من خلقه ، ليعرّف عباده بذكرهما مجموعين أنه المقصود بذكرهما ، دون من سواه من خلقه ، مع ما فى تأويل كل واحد منهما من المعنى ، الذى ليس فى الآخر منهما .

وقد زعم بعض أهل الغبا ، أن العرب كانت لاتعرف الرحمن ، ولم يكن ذلك فى لغتها ، ولذلك قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : « وما الرَّحْمنُ ؟ أنسْجُدُ لِمَا تَأمُرُنا » ؟ إنكارا منهم لهذا الاسم ، كأنه كان محالا عنده ، أن ينكر أهل الشرك ، ما كانوا عالمين بصحته ، أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله : (الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ ـ يعنى محمدا ـ كَما يَعْرِفُونَ أبْناءَهُمْ) وهم مع ذلك

به مكذبون ، ولنبوّته جاحدون ، فيعلم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته ، واستحكمت لديهم معرفته ، وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء :

أَلاَ ضَرَبَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ هَجِينَهَا أَلاَ قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وقال سلامة بن جندل الطهوى :

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمُ وَمَا يَشَأِ الرَّحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ

وقد زعم أيضا بعض من ضعفت معرفته بتأويل أهل التأويل ، وقلت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير : أن الرحمن مجازه ذو الرحمة ، والرحيم مجازه الراحم ! ثم قال : قد يقدّرون اللفظين من لفظ والمعنى واحد ، وذلك لاتساع الكلام عندهم ! قال : وقد فعلوا مثل ذلك ، فقالوا : ندمان ونديم ، ثم استشهد بقول برج بن مسهر الطائى :

وَنَدْمَانَ يَزِيدُ الكَأْسَ طِيبًا سَقَيْتُ وَقَدْ تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ

واستشهد بأبيات نظائر له فى النديم والندمان ، ففرق بين معنى الرحمن والرحيم فى التأويل ، لقوله : الرحمن : ذو الرحمة ، والرحيم : الراحم ! وإن كان قد ترك بيان تأويل معنيهما على صحته ، ثم مثل ذلك باللفظين يأتيان بمعنى واحد ، فعاد إلى ما قد جعله بمعنيين ، فجعله مثال ما هو بمعنى واحد مع اختلاف الألفاظ ، ولا شك أن ذا الرحمة هو الذى ثبت أن له الرحمة ، وصح أنها له صفة ، وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم ، أو قد رحم ، فانقضى ذلك منه ، أو هو فيه ، ولا دلالة له فيه حينئذ أن الرحمة له صفة ، كالدلالة على أنها له صفة إذا وصفه بأنه ذو الرحمة .

فأين معنى الرحمن الرحيم ـ على تأويله ـ من معنى الكلمتين ، يأتيان مقدرتين من لفظ واحد باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى ؟ ولكن القول إذا كان على غير أصل معتمد عليه كان واضحا عواره .

وإن قال لنا قائل : ولم قدّم اسم الله الذى هو الله ، على اسمه الذى هو الرحمن ، واسمه الذى هو الرحمن ، على اسمه الذى هو الرحيم ؟ .

قيل : لأن من شأن العرب ، إذا أرادوا الخبر عن مخبر عنه ، أن يقدموا اسمه ، ثم يتبعوه صفاته ونعوته ، وهذا هو الواجب فى الحكم ، أن يكون الاسم مقدما قبل نعته وصفته ، ليعلم السامع الخبر عمن الخبر ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان لله جل ذكره أسماء ، قد حرّم على خلقه أن يتسموا بها ، خص بها نفسه دونهم ، وذلك مثل : الله ، والرحمن ، والخالق ، وأسماء أباح لهم أن يسمى بعضهم بعضا بها ، وذلك كالرحيم ، والسميع ، والبصير ، والكريم ، وما أشبه ذلك من الأسماء ، كان الواجب أن يقدم أسماءه التى هى له خاصة دون جميع خلقه ، ليعرف السامع ذلك من توجه إليه الحمد والتمجيد ثم يتبع ذلك بأسمائه التى قد تسمى بها غيره ، بعد علم المخاطب أو السامع ، من توجه إليه ما يتلو ذلك من المعانى .

فبدأ الله جل ذكره باسمه ، الذى هو الله ، لأن الألوهية ليست لغيره جل ثناؤه بوجه من الوجوه ،

لا من جهة التسمى به ولا من جهة المعنى ، وذلك أنا قد بينا أن معنى الله هو المعبود ، ولا معبود غيره جل جلاله ، وأن التسمى به قد حرمه الله جل ثناؤه ، وإن قصد المتسمى به ما يقصد المتسمى بسعيد وهو شقىّ ، وبحسن وهو قبيح .

أولا ترى أن الله جل جلاله قال فى غير آية من كتابه (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ) فاستكبر ذلك من المقرّ به ، وقال تعالى فى خصوصية نفسه بالله وبالرحمن : (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) ثم ثَنَّى باسمه ، الذى هو الرحمن ، إذ كان قد منع أيضا خلقه التسمى به وإن كان من خلقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه ، وذلك أنه قد يجوز وصف كثير ممن هو دون الله من خلقه ببعض صفات الرحمة ، وغير جائز أن يستحق بعض الألوهية أحد دونه ، فلذلك جاء الرحمن ثانيا لاسمه الذى هو الله .

وأما اسمه الذى هو الرحيم ، فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصف غيره به ، والرحمة من صفاته جل ذكره ، فكان ـ إذ كان الأمر على ما وصفنا ـ واقعا مواقع نعوت الأسماء اللواتى هن توابعها ، بعد تقدم الأسماء عليها ، فهذا وجه تقديم اسم الله الذى هو الله ، على اسمه الذى هو الرحمن ، واسمه الذى هو الرحمن ، على اسمه الذى هو الرحيم .

وقد كان الحسن البصرى ، يقول فى الرحمن ، مثل ما قلنا : إنه من أسماء الله ، التى منع التسمى بها لعباده .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا حماد بن مسعدة ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : الرحمن اسم ممنوع .

مع أن فى إجماع الأمة ، مِن منع التسمى به جميع الناس ، ما يغنى عن الاستشهاد على صحة ما قلنا فى ذلك بقول الحسن وغيره .

القول فى تأويل فاتحة الكتاب

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

قال أبو جعفر :

معنى (الْحَمْدُ لِلَّهِ) الشكر خالصا لله ، جل ثناؤه دون سائر ما يُعْبَد من دونه ، ودون كل ما بَرَى من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم لذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام ، فى النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا .

وبما ذكرنا من تأويل قول ربنا ، جل ذكره ، وتقدست أسماؤه (الْحَمْدُ لِلَّهِ) جاء الخبر عن ابن عباس ، وغيره .

حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد : قل يا محمد : الحمد لله .

قال ابن عباس : الحمد لله : هو الشكر ، والاستخذاء لله ، والإقرار بنعمته ، وهدايته ، وابتدائه ، وغير ذلك .

وحدثني سعيد بن عمرو السكوني ، قال : حدثنا بقية بن الوليد ، قال : حدثني عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن الحكم بن عمير ـ وكانت له صحبة ـ قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذَا قُلْتَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ فَقَدْ شَكَرْتَ اللهَ فَزَادَكَ » .

قال : وقد قيل إن قول القائل : (الحَمْدُ لِلهِ) ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسنى ، وقوله : (الشكر لله) ثناء عليه بنعمه وأياديه .

وقد رُوى عن كعب الأحبار أنه قال : الحمد لله ثناء على الله ؛ ولم يبين فى الرواية عنه من أى معنى الثناء الذى ذكرنا ذلك .

حدثنا يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : حدثنى عمر بن محمد ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، قال : أخبرنى السلولى ، عن كعب ، قال : من قال الحمد لله فذلك ثناء على الله .

وحدثني علىّ بن الحسن الخراز ، قال : حدثنا مسلم بن عبد الرحمن الحرمى ، قال : حدثنا محمد بن مصعب القرقسانى ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأسود بن سريع : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَيْسَ شَيْءٌ أحَبَّ إلَيْهِ الحَمْدُ مِنَ اللهِ تَعالى ، ولِذَلِكَ أثْنَى على نَفْسِهِ ، فَقالَ الحَمْدُ للهِ » .

قال أبو جعفر :

ولا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب ، من الحكم لقول القائل : (الحَمْدُ لِلهِ) شكرا بالصحة ، فقد تبين ، إذ كان ذلك عند جميعهم صحيحا ، أن الحمد لله قد يُنْطَق به فى موضع الشكر ، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد ، لأن ذلك لو لم يكن كذلك ، لما جاز أن يقال الحمد لله شكرا ، فيخرج من قول القائل الحمد لله مصدر أشكر ، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد ، كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه .

فإن قال لنا قائل : وما وجه إدخال الألف واللام فى الحمد ؟ وهلا قيل : حمدا لله ربِّ العالمين ؟ قيل : إن لدخول الألف واللام فى الحمد ، معنى لايؤديه قول القائل حمدا ، بإسقاط الألف واللام ، وذلك أن دخولهما فى الحمد مبنى على أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله ، ولو أسقطتا منه مادل إلا على أن حمد قائل ذلك لله ، دون المحامد كلها ، إذ كان معنى قول القائل :حمداً لله أوحَمْدُ الله : أحمد الله حمدا ، وليس التأويل فى قول القائل (الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ) تاليا سورة أم القرآن أحمد الله ،

بل التأويل فى ذلك ما وصفنا قبل ، من أن جميع المحامد لله بألوهيته وإنعامه على خلقه ، بما أنعم به عليهم من النعم ، التى لا كفء لها فى الدين والدنيا ، والعاجل والآجل .

ولذلك من المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة ، على رفع الحمد من (الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ) دون نصبها الذى يؤدى إلى الدلالة على أن معنى تاليه كذلك : أحمد الله حمدا . ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب ، لكان عندى محيلا معناه ، ومستحقا العقوبة على قراءته إياه كذلك ، إذا تعمد قراءته كذلك، وهو عالم بخطئه وفساد تأويله .

فإن قال لنا قائل : وما معنى قوله الحمد لله ؟ أحَمِدَ اللهُ نفسَه جل ثناؤه فأثنى عليها ، ثم علَّمناه لنقول ذلك كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك ، فما وجه قوله تعالى ذكره إذًا (إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ؟ وهو ـ عز ذكره ـ معبود لاعابد، أم ذلك من قيل جبريل ، أو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقد بطل أن يكون ذلك لله كلاما .

قيل : بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ، ولكنه ـ جل ذكره ـ ، حمد نفسه وأثنى عليها ، بما هو له أهل ، ثم علَّم ذلك عباده ، وفرض عليهم تلاوته ، اختبارا منه لهم وابتلاء ، فقال لهم : قولوا الحمد لله ربِّ العالمين ، وقولوا : إياك نعبد وإياك نستعين ، فقوله إياك نعبد ، مما علَّمهم جل ذكره ، أن يقولوه ويدينوا له بمعناه ، وذلك موصول بقوله الحمد لله ربِّ العالمين ، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا .

فإن قال : وأين قوله « قولوا » فيكون تأويل ذلك ما ادَّعيت ؟ قيل : قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها إذا عرفت مكان الكلمة ، ولم تشكَّ أن سامعها يعرف بما أظهرت من منطقها ما حذفت ، حذف ما كفى منه الظاهر من منطقها ، ولا سيما إن كانت تلك الكلمة التى حذفت قولا أو تأويل قول ، كما قال الشاعر :

وأعْلَمُ أنَّنِى سَأكُونُ رَمْسًا ... إذَا سارَ النَّوَاعِجُ لا يَسِيرُ
فَقَالَ السَّائِلُونَ لِمَنْ حَفَرْتُمْ ... فَقالَ المُخْبِرُونَ لَهُمْ وَزِيرُ

قال أبو جعفر : يريد بذلك : فقال المخبرون لهم : الميت وزير ، فأسقط الميت ، إذ كان قد أتى من الكلام بما يدل على ذلك ، وكذلك قول الآخر :

ورَأيْتِ زَوْجَكِ فى الوَغَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

وقد علم أن الرمح لايتقلد ، وإنما أراد : وحاملا رمحا ، ولكن لما كان معلوما معناه اكتفى بما قد ظهر من كلامه ، عن إظهار ماحذف منه ، وقد يقولون للمسافر ، إذا ودَّعوه : مُصَاحَبًا مُعافًى ، يحذفون سِرْ واخرُجْ ، إذ كان معلوما معناه ، وإن أسقط ذكره ، فكذلك ما حُذِف من قول الله تعالى ذكره (الحمدُ لِلهِ ربِّ العالَمِينَ) لَمَّا عَلِم بقوله جل وعزَّ (إيَّاكَ نَعْبُدُ) ما أراد بقوله الحمد لله رب العالمين ، من معنى أمره عباده ، أغنت دلالة ما ظهر عليه من القول عن إبداء ما حذف .

وقد روينا الخبر الذى قدمنا ذكره مبتدأ فى تنزيل قول الله (الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ) عن ابن

عباس ، وأنه كان يقول : إن جبريل قال لمحمد : قل يا محمد : الحمد لله ربّ العالمين ، وبيّنّا أن جبريل إنما علّم مُحمّداً صلى الله عليه وسلم ما أُمِر بتعليمه إياه ، وهذا الخبر ينبئ عن صحة ما قلنا فى تأويل ذلك.

القول فى تأويل قول الله : رَبِّ .

قال أبو جعفر : قد مضى البيان عن تأويل اسم الله ، الذى هو الله ، فى بسم الله ، فلا حاجة بنا إلى تكراره فى هذا الموضع ؛ وأما تأويل قوله رَبّ ، فإن الربّ فى كلام العرب ، متصرف على معان ؛ فالسيد المطاع فيها يُدعى ربّاً ، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة :

وأَهْلَكْنَ يَوْماً رَبَّ كِنْدَةَ وابنَه ... ورَبَّ مَعَدٍّ بينَ خَبْتٍ وعَرْعَرِ

يعنى ربّ كندة : سيدَ كندة . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

تَخُبُّ إلى النُّعْمانِ حتّى تَنالَه ... فِدًى لكَ مِنْ رَبٍّ طَرِيفِى وتالِدِى

والرجل المصلح للشىء يدعى ربا ، ومنه قول الفرزدق بن غالب :

كانُوا كَسالِئَةٍ حَمْقاءَ إذْ حَقَنَتْ ... سِلاءَها فى أدِيمٍ غَيْرَ مَرْبُوبِ

يعنى بذلك فى أديم غير مصلح . ومن ذلك قيل : إن فلانا يرب صنيعته عند فلان ، إذا كان يحاول إصلاحها وإدامتها . ومن ذلك قول علقمة بن عبدة :

فكُنْتَ امْرَأً أَفْضَتْ إلَيْكَ رَبابَتِى ... وقَبْلَكَ رَبَّتْنِى فَضِعْتُ رُبُوبُ

يعنى بقوله أفضت إليك : أى أوصلتُ إليك ربابتى ، فصرتَ أنت الذى ترب أمرى فتصلحه ، لما خرجت من ربابة غيرك من الملوك ، الذين كانوا قبلك علىّ ، فضيعوا أمرى وتركوا تفقده ، وهم الربوب واحدهم رب ؛ والمالك للشىء يدعى ربه . وقد يتصرّف أيضا معنى الرب ، فى وجوه غير ذلك ، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة .

فربنا جل ثناؤه ، السيد الذى لاشبه له ، ولا مثل فى سؤدده ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذى له الخلق والأمر .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل قوله جل ثناؤه (رَبِّ العالَمِينَ) جاءت الرواية عن ابن عباس .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد : يا محمد قل الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ . قال ابن عباس : يقول قل الحمد لله الذى له الخلق كله ، السموات كلهن ومن فيهن ، والأرض كلهن ومن فيهن وما بينهن ، مما يُعلم ومما لايعلم . يقول : اعلم يا محمد أن ربك هذا لايشبهه شىء .

القول فى تأويل قوله : العالَمِينَ .

قال أبو جعفر : والعالمون جمع عالم ، والعالَم جمع لاواحد له من لفظه ، كالأنامِ والرهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء ، التى هى موضوعات على جماع لاواحد له من لفظه . والعالَم اسم لأصناف الأمم ، وكل صنف منها عالَم ، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالَم ذلك القرن وذلك الزمان ؛ فالإنس عالم ،

وكل أهل زمان منهم عالَم ذلك الزمان ، والجن عالَم ، وكذلك سائر أجناس الخلق ، كل جنس منها عالم زمانه ، ولذلك جُمِع فقيل عالَمون ، وواحده جمع ، لكون عالَم كل زمان من ذلك عالَم ذلك الزمان ، ومن ذلك قول العجاج :

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هذَا العالَمِ

فجعلهم عالم زمانه ، وهذا القول الذى قلناه قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وهو معنى قول عامة المفسرين .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذى له الخلق كله ، السموات والأرض ومن فيهن وما بينهن ، مما يُعلم ولا يُعلم .

وحدثنى محمد بن سنان القزاز ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ربّ العالمين : الجنّ والإنس .

وحدثنى علىّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم بن عبد الرحمن ، قال : حدثنا مصعب ، عن قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قول الله جل وعزّ « ربّ العالمين » قال : ربّ الجن والإنس .

وحدثنا أحمد بن إسحق بن عيسى الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا قيس ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، قوله « رب العالمين » قال : الجن والإنس .

وحدثنى أحمد بن عبد الرحيم البرقى ، قال : حدثنى ابن أبى مريم ، عن ابن لهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، قوله (رَبِّ العالَمِينَ) قال : ابن آدم ، والجن والإنس كل أمة منهم عالَم على حدته .

وحدثنى محمد بن حميد ، قال : حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن مجاهد : (الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ) قال : الإنس والجنّ .

وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد : بمثله .

وحدثنا بشر بن معاذ العقدى ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة (رَبِّ العالَمِينَ) قال : كل صنف : عالَم .

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، قال : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى جعفر ، عن ربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، فى قوله (رَبِّ العالَمِينَ) قال : الإنس عالَم ، والجن عالَم ، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم ، أو أربعة عشر ألف عالم هو يشك ، من الملائكة على الأرض ، وللأرض أربع زوايا ، فى كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته .

وحدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، فى قوله (رَبِّ العَالَمِينَ) قال : الجن والإنس .

القول فى تأويل قوله :

الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٣)

قال أبو جعفر : قد مضى البيان عن تأويل قوله الرحمن الرحيم . فى تأويل بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع ، ولم يحتج إلى الإبانة عن وجه تكرير الله ذلك فى هذا الموضع ، إذ كنا لانرى أن بسم الله الرحمن الرحيم من فاتحة الكتاب آية . فيكون علينا اسائل مسئلة بأن يقول : ما وجه تكرير ذلك فى هذا الموضع ، وقد مضى وصف الله عزّ وجلّ به نفسه فى قوله بسم الله الرحمن الرحيم ، مع قرب مكان إحدى الآيتين من الأخرى ومجاورتها لصاحبتها . بل ذلك لنا حجة على خطأ دعوى من ادعى أن بسم الله الرحمن الرحيم من فاتحة الكتاب آية ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لكان ذلك إعادة آية بمعنى واحد ولفظ واحد مرتين من غير فصل يفصل بينهما وغير موجود فى شىء من كتاب الله آيتان متجاورتان مكرّرتان بلفظ واحد ومعنى واحد ، لافصل بينهما من كلام يخالف معناه معناهما ، وإنما يأتى بتكرير آية بكمالها فى السورة الواحدة ، مع فصول تفصل بين ذلك ، وكلام يعترض به بغير معنى الآيات المكرّرات أو غير ألفاظها ، ولا فاصل بين قول الله تبارك وتعالى اسمه الرحمن الرحيم ، من بسم الله الرحمن الرحيم ، وقول الله : الرحمن الرحيم ، من الحمد لله رب العالمين .

فإن قال قائل : فإن الحمد لله رب العالمين فاصل بين ذلك ، قيل قد أنكر ذلك جماعةٌ من أهل التأويل ، وقالوا : إن ذلك من المؤخَّر الذى معناه التقديم ، وإنما هو الحمد لله الرحمن الرحيم رب العالمين ملك يوم الدين ، واستشهدوا على صحة ما ادّعوا من ذلك بقوله (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فقالوا : إن قوله ملك يوم الدين ، تعليم من الله عبده أن يصفه بالمُلْك فى قراءة من قرأ مَلِك ، وبالمِلْك فى قراءة من قرأ مالك .

قالوا : فالذى هو أولى أن يكون مجاور وَصْفه بالمُلْك أو المِلْك ماكان نظير ذلك من الوصف ، وذلك هو قوله رَبّ العالمين ، الذى هو خبر عن ملكه جميع أجناس الخلق ، وأن يكون مجاور وصفه بالعظمة والألوهة ما كان له نظيرا فى المعنى من الثناء عليه ، وذلك قوله (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فزعموا أن ذلك لهم دليل على أن قوله الرحمن الرحيم بمعنى التقديم قبل رب العالمين وإن كان فى الظاهر مؤخرا ، وقالوا فى نظائر ذلك من التقديم الذى هو بمعنى التأخير ، والمؤخر الذى هو بمعنى التقديم ، فى كلام العرب أفشى وفى منطقها أكثر من أن يحصى ، من ذلك قول جرير بن عطية :

طافَ الخَيالُ وأيْنَ مِنْكَ لِماما فارْجِعْ لِزَوْرِكَ بِالسَّلامِ سَلاما

بمعنى طاف الخيال لماما وأين هو منك . وكما قال جل ثناؤه فى كتابه (الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً) المعنى : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيما ؛

يجعل له عوجا . وما أشبه ذلك . فى ذلك دليل شاهد على صحة قول من أنكر أن تكون بسم الله الرحمن الرحيم من فاتحة الكتاب آية

القول فى تأويل :

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) .

قال أبو جعفر : القراء مختلفون فى تلاوة ملك يوم الدين ، فبعضهم يتلوه مَلِكِ يوم الدين ، وبعضهم يتلوه مالِكِ يوم الدين ، وبعضهم يتلوه مالكَ يوم الدين بنصب الكاف . وقد استقصينا حكاية الرواية عمن روى عنه فى ذلك قراءة فى كتاب القراءات ، وأخبرنا بالذى نختار من القراءة فيه ، والعلة الموجبة صحة ما اخترنا من القراءة فيه ، فكرهنا إعادة ذلك فى هذا الموضع ، إذ كان الذى قصدنا له فى كتابنا هذا ، البيانَ عن وجوه تأويل آى القرآن دون وجوه قراءتها .

ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب : أن المَلِك من المُلْك مشتق ، وأن المالك من المِلْك مأخوذ ، فتأويل قراءة من قرأ ذلك (مَلِكِ يَوْمِ الدِّين) أن لله المُلْكَ يوم الدين خالصا دون جميع خلقه ، الذين كانوا قبل ذلك فى الدنيا ملوكا جبابرة ، ينازعونه المُلْك ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا ـ بلقاء الله يوم الدين ـ أنهم الصغرة الأذلة ، وأن له دونهم ودون غيرهم المُلْكَ والكبرياء والعزّة والبهاء ، كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه فى تنزيله : (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ ؟ لِلهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ) فأخبر تعالى أنه المنفرد يومئذ بالمُلْك دون ملوك الدنيا ، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار ، ومن دنياهم فى المعاد إلى خسار .

وأما تأويل قراءة من قرأ (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ، فما حدثنا به أبو كريب ، قال حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) يقول : لا يملك أحد فى ذلك اليوم معه حكما كملكهم فى الدنيا ، ثم قال : (لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وقالَ صَوَاباً) ، وقال : (وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ) ، وقال : (وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالآية وأصحّ القراءتين فى التلاوة عندى ، التأويل الأول ، وهى قراءة من قرأ مَلِك بمعنى المُلْك ، لأن فى الإقرار له بالانفراد بالمُلْك إيجابا لانفراده بالمِلْك ، وفضيلة زيادة المَلِك على المالك ، إذ كان معلوما أن لا مَلِك إلا وهو مالك ، وقد يكون المالك لا مَلِكا .

وبعد : فإن الله جل ذكره قد أخبر عباده فى الآية التى قبل قول (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أنه مالك جميع العالمين ، وسيدهم ، ومصلحهم والناظر لهم ، والرحيم بهم فى الدنيا والآخرة بقوله (الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) .

فإذا كان جل ذكره قد أنبأهم عن مُلْكه إياهم ، كذلك بقوله : (رَبِّ العالَمِينَ) فأولى الصفات من

صفاته جل ذكره ، أن يتبع ذلك ما لم يحوه قوله (رَبِّ العالَمِينَ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ) مع قرب ما بين الآيتين من المواصلة والمجاورة ، إذ كانت حكمته الحكمة التي لاتشبهها حكمة .

وكان في إعادة وصفه جل ذكره بأنه مالك يوم الدين إعادة ما قد مضى من وصفه به في قوله (رَبِّ العالَمِينَ) مع تقارب الآيتين وتجاور الصفتين ، وكان في إعادة ذلك تكرار ألفاظ مختلفة بمعان متفقة ، لاتفيد سامع ما كرّر منه فائدة به إليها حاجة . والذى لم يحوه من صفاته جل ذكره ما قبل قوله (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) المعنى الذى في قوله : ملك يوم الدين ، وهو وصفه بأنه المَلِك . فبين إذًا أن أولى القراءتين بالصواب ، وأحق التأويلين بالكتاب قراءة من قرأه : مَلِك يوم الدين ، بمعنى إخلاص المُلْك له يوم الدين ، دون قراءة من قرأ : مالك يوم الدين ، بمعنى : أنه يملك الحكم بينهم وفصل القضاء متفرّدا به دون سائر خلقه .

فإن ظنّ ظانّ أن قوله (رَبِّ العالَمِينَ) نبأ عن ملكه إياهم في الدنيا دون الآخرة ، يوجب وصله بالنبأ عن نفسه أنه قد ملكهم في الآخرة على نحو ملكه إياهم في الدنيا بقوله : مالك يوم الدين ، فقد أغفل وظنّ خطأ ، وذلك أنه لو جاز لظانّ أن يظنّ أن قوله : رب العالمين ، محصور معناه على الخبر عن ربوبية عالم الدنيا دون عالم الآخرة ، مع عدم الدلالة على أن معنى ذلك كذلك في ظاهر التنزيل ، أو في خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، به منقول ، أو بحجة موجودة في المعقول ، لجاز لآخر أن يظن أن ذلك محصور على عالم الزمان ، الذى فيه نزل قوله : (رَبِّ العالَمِينَ) دون سائر ما يحدث بعده في الأزمنة الحادثة من العالمين ، إذ كان صحيحا بما قد قدمنا من البيان ، أن عالم كل زمان غير عالم الزمان الذى بعده . فإن غبي عن علم صحة ذلك بما قد قدمنا ذو غباء ، فإن في قول الله جل ثناؤه : (ولَقَدْ آتَيْنا بَنِي إسْرائِيلَ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ على العالَمِينَ) دلالة واضحة على أن عالَم كل زمان غير عالم الزمان الذى كان قبله ، وعالَم الزمان الذى بعده ، إذ كان الله جل ثناؤه ، قد فضَّل أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم الخالية ، وأخبرهم بذلك في قوله : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ) الآية . فمعلوم بذلك أن بنى إسرائيل في عصر نبينا ، لم يكونوا مع تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين ، بل كان أفضل العالمين في ذلك العصر وبعده إلى قيام الساعة ، المؤمنون به المتبعون منهاجه ، دون مَنْ سواهم من الأمم المكذِّبة الضالَّة عن منهاجه . فإذ كان بينا فساد تأويل متأوّل لو تأوّل قوله : رب العالمين ، أنه معنيّ به : أن الله رب عالَمى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، دون عالمى سائر الأزمنة غيره ، كان واضحا فساد قول من زعم أن تأويله : رب عالم الدنيا ، دون عالم الآخرة ، وأن مالك يوم الدين استحق الوصل به ليعلم أنه ، في الآخرة من ملكهم وربوبيتهم بمثل الذى كان عليه في الدنيا . وَيُسْئَلُ زاعم ذلك الفرق بينه وبين متحكم مثله في تأويل قوله : رب العالمين تحكم ، فقال : إنه إنما عنى بذلك أنه رب عالَمى زمان محمد دون عالمى غيره من الأزمان الماضية قبله ، والحادثة بعده ، كالذى زعم هذا القول أنه عنى به عالَم الدنيا دون عالَم الآخرة ، من أصل أو دلالة ، فلن يقول في أحدهما شيئا إلا ألزم في الآخر مثله .

وأما الزاعم أن تأويل قوله: (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أنه الذى يملك إقامة يوم الدين، فإن الذى ألزمنا قائل هذا القول الذى قبله له لازم ، إذ كانت إقامة القيامة إنما هى إعادة الخلق الذين قد بادوا لهيئاتهم التى كانوا عليها قبل الهلاك فى الدار التى أعد الله لهم فيها ما أعدّ ، وهم العالمون الذين قد أخبر جل ذكره ، عنهم أنه ربهم فى قوله (رَبِّ العالَمِينَ) .

وأما تأويل ذلك فى قراءة من قرأ: (مالِكَ يَوْمِ الدِّينِ) فإنه أراد: يا مالك يوم الدين ، فنصبه بنية النداء والدعاء ، كما قال جل ثناؤه : (يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هَذَا) بتأويل : يا يوسف أعرض عن هذا ، وكما قال الشاعر من بنى أسد ، وهو شعر فيما يقال جاهلى :

إنْ كُنْتَ أزْنَنْتَنِي بِها كَذِبًا ... جَزْءُ فَلاقَيْتَ مِثْلَها عَجِلا

يريد يا جزء ، وكما قال الآخر :

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ اللهِ لاتَنْكِحونَها ... بَنِى شابَ قَرْناها تَصُرُّ وتَحْلُبُ

يريد بنى شاب قرناها .

وإنما أورطه فى قراءة ذلك بنصب الكاف من « مالك » على المعنى الذى وصفت ، حيرته فى توجيه قوله : (إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وجهته مع جرّ (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وخفضه ، فظن أنه لا يصح معنى ذلك بعد جره (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فنصب (مالِكَ يَوْمِ الدِّينِ) ليكون إيَّاكَ نعبد له خطابا ، كأنه أراد: يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين. ولو كان علِمَ تأويل أول السورة وأن الحمد لله ربّ العالمين ، أمر من الله عبده بقيل ذلك كما ذكرنا قبل من الخبر عن ابن عباس: أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، عن الله ، قل يا محمد : الحمد لله ربّ العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وقل أيضا يا محمد : إياك نعبد وإياك نستعين . وكان عقل عن العرب أن من شأنها إذا حكت أو أمرت بحكاية خبر يتلو القول أن تخاطب ، ثم تخبر عن غائب ، وتخبر عن الغائب ، ثم تعود إلى الخطاب : لما فى الحكاية بالقول من معنى الغائب ، والمخاطب كقولهم للرجل : قد قلت لأخيك : لو قمت لقمت ، وقد قلت لأخيك : لو قام لقمت ، لسهل عليه مخرج ما استصعب عليه وجهته من جر (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ومن نظير مالك يوم الدين مجرورا، ثم عوده إلى الخطاب بإياك نعبد ، لما ذكرنا قبل البيت السائر من شعر أبى كبير الهذلى :

يا لَهْفَ نَفْسِي كانَ جِلْدَةُ خالِدٍ ... وبَياضُ وَجْهِكَ لِلتُّرابِ الأعْفَرِ

فرجع إلى الخطاب بقوله : وبياض وجهك ، بعد ما قد مضى الخبر عن خالد على معنى الخبر عن الغائب .

ومنه قول لبيد بن ربيعة :

باتَتْ تَشَكَّى إلَيَّ النَّفْسَ مُجْهِشَةً ... وقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينا

فرجع إلى مخاطبة نفسه ، وقد تقدم الخبر عنها على وجه الخبر عن الغائب . ومنه قول الله وهو أصدق قيل وأثبت حجة : (حَتَّى إذا كُنْتُمْ فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) فخاطب ثم رجع

إلى الخبر عن الغائب ، ولم يقل : وجرين بكم ؛ والشواهد من الشعر وكلام العرب فى ذلك أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه . فقراءة (مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ) محظورة غير جائزة ، لإجماع جميع الحجة من القرّاء وعلماء الأمة ، على رفض القراءة بها .

القول فى تأويل قوله : (يَوْمِ الدِّينِ) .

قال أبو جعفر : والدين فى هذا الموضع بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال ، كما قال كعب بن جعيل :

إذَا ما رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمُ ... وَدِنَّاهُمْ مِثْلَ ما يُقْرِضُونا

وكما قال الآخر :

واعْلَمْ وأَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ ... واعْلَمْ بأَنَّكَ ما تَدِينُ تُدَانُ

يعنى ما تجزى تجازى . ومن ذلك قول الله جل ثناؤه : (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدِّينِ) يعنى بالجزاء (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ) يحصون ما تعملون من الأعمال . وقوله تعالى : (فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) يعنى غير مجزيين بأعمالكم ولا محاسبين . وللدين معان فى كلام العرب ، غير معنى الحساب والجزاء سنذكرها فى أماكنها ، إن شاء الله .

وبما قلنا فى تأويل قوله (يَوْمِ الدِّينِ) جاءت الآثار عن السلف من المفسرين ، مع تصحيح الشواهد لتأويلهم الذى تأولوه فى ذلك .

حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس : (يَوْمِ الدِّينِ) قال : يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر ، إلا من عفا عنه ، فالأمر أمره . ثم قال : (أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ) .

وحدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد القناد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر الهمدانى ، عن إسمعيل بن عبد الرحمن السدى ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) هو يوم الحساب .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قال : يوم يدين الله العباد بأعمالهم .

وحدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قال : يوم يدان الناس بالحساب .

القول فى تأويل قوله :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) .

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) : لك اللهم نخشع ، ونذلّ ، ونستكين ، إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لالغيرك .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد : إياك نعبد ، إياك نوحد ونخاف ، ونرجو ياربنا لاغيرك ؛ وذلك من قول ابن عباس بمعنى ماقلنا ، وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع ، ونذل ، ونستكين ، دون البيان عنه ، بأنه بمعنى نرجو ، ونخاف ، وإن كان الرجاء والخوف لايكونان إلا مع ذلة ، لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمى الطريق المذلل الذى قد وطئته الأقدام وذللته السابلة : معبدا . ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

تُبارِي عِتَاقاً ناجياتٍ وأتْبَعَتْ وَظِيفاً وَظِيفاً فَوْقَ مُورٍ مُعَبَّدِ

يعنى بالمور : الطريق ، وبالمعبد : المذلل الموطوء . ومن ذلك قيل للبعير المذلل بالركوب فى الحوائج : معبد ، ومنه سمى العبد عبدا لذلته لمولاه . والشواهد من أشعار العرب وكلامها على ذلك أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية لمن وفق لفهمه ، إن شاء الله تعالى .

القول فى تأويل قوله : وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

قال أبو جعفر : ومعنى قوله (وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ) : وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك ، وطاعتنا لك ، وفى أمورنا كلها لا لأحد سواك ، إذ كان من يكفر بك يستعين فى أموره معبوده الذى يعبده من الأوثان دونك ، ونحن بك نستعين فى جميع أمورنا ، مخلصين لك العبادة ؛ كالذى حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنى بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس (وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال : إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها .

فإن قال قائل : وما معنى أمر الله عباده بأن يسألوه المعونة على طاعته ، أوَ جائز وقد أمرهم بطاعته أن لايعينهم عليها ؟ أم هل يقول قائل لربه : إياك نستعين على طاعتك ، إلا وهو على قوله ذلك مُعان ، وذلك هو الطاعة ؟ فما وجه مسئلة العبد ربه ما قد أعطاه إياه ؟ قيل : إن تأويل ذلك على غير الوجه الذى ذهبت إليه ؛ وإنما الداعى ربه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه ، داع أن يعينه فيما بقى من عمره على ما كلفه من طاعته ، دون ما قد تقضى ومضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره . وجازت مسئلة

العبد ربه ذلك . لأن إعطاء الله عبده ذلك مع تمكينه جوارحه لأداء ما كلفه من طاعته ، وافترض عليه من فرائضه ، فضل منه جل ثناؤه ، تفضل به عليه ، ولطف منه لطف له فيه ، وليس فى تركه التفضل على بعض عبيده بالتوفيق مع اشتغال عبده بمعصيته ، وانصرافه عن محبته ، ولا فى بسطه فضله على بعضهم مع إجهاد العبد نفسه فى محبته ، ومسارعته إلى طاعته ، فساد فى تدبير ولاجور فى حكم . فيجوز أن يجهل جاهل موضع حكم الله ، وأمره عبده بمسئلته عونه على طاعته . وفى أمر الله جل ثناوه عباده أن يقولوا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) بمعنى مسألتهم إياه المعونة على العبادة أدلُّ الدليل على فساد قول القائلين بالتفويض من أهل القدر ، الذين أحالوا أن يأمر الله أحدا من عبيده بأمر أو يكلفه فرض عمل ، إلا بعد إعطائه المعونة على فعله وعلى تركه .

ولو كان الذى قالوا من ذلك كما قالوا ، لبطلت الرغبة إلى الله فى المعونة على طاعته ، إذ كان على قولهم مع وجود الأمر والنهى والتكليف ، حقا واجبا على الله للعبد إعطاؤه المعونة عليه ، سأله عبده ذلك أو ترك مسألة ذلك ، بل تَرْكُ إعطائه ذلك عندهم منه جور ، ولو كان الأمر فى ذلك على ما قالوا ، لكان القائل (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إنما يسأل ربه أن لايجور ! ! وفى إجماع أهل الإسلام جميعا على تصويب قول القائل : اللهم إنا نستعينك ؛ وتخطئتهم قول القائل : اللهم لاتجر علينا ، دليل واضح على خطأ ما قال الذين وصفت قولهم ، إذ كان تأويل قول القائل عندهم : اللهم إنا نستعينك : اللهم لاتترك معونتنا التى تركها جور منك ! !

فإن قال قائل : وكيف قيل (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فقدم الخبر عن العبادة ، وأخرت مسئلة المعونة عليها بعدها ، وإنما تكون العبادة بالمعونة . فمسئلة المعونة كانت أحق بالتقديم قبل المعان عليه من العمل والعبادة بها ؟ قيل : لَمَّا كان معلوما أن العبادة لاسبيل للعبد إليها إلا بمعونة من الله جل ثناؤه ، وكان محالا أن يكون العبد عابدا إلا وهو على العبادة مُعان ، وأن يكون معانا عليها إلا وهو لها فاعل ، كان سواء تقديم ماقدم منهما على صاحبه ، كما سواء قولك للرجل إذا قضى حاجتك ، فأحسن إليك فى قضائها : قضيت حاجتى فأحسنت إلىّ ، فقدمت ذكر قضائه حاجتك ، أو قلت : أحسنت إلىّ فقضيت حاجتى ، فقدمت ذكر الإحسان على ذكر قضاء الحاجة ، لأنه لايكون قاضيا حاجتك إلا وهو إليك محسن ، ولا محسنا إليك ، إلا وهو لحاجتك قاض . فكذلك سواء قول القائل : اللهم إنا إياك نعبد ، فأعنا على عبادتك ، وقوله : اللهم أعنا على عبادتك فإنا إياك نعبد .

قال أبو جعفر : وقد ظن بعض أهل الغفلة ، أن ذلك من المقدم الذى معناه التأخير ، كما قال امرؤ القيس :

وَلَوْ أَنَّ ما أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

يريد بذلك : كفانى قليل من المال ولم أطلب كثيرا ، وذلك من معنى التقديم والتأخير ، ومن مشابهة بيت امرئ القيس بمعزل من أجل أنه قد يكفيه القليل من المال ويطلب الكثير ، فليس وجود ما يكفيه منه بموجب له ترك طلب الكثير ، فيكون نظير العبادة التى بوجودها وجود المعونة عليها ، وبوجود المعونة

عليها وجودها ، ويكون ذكر أحدهما دالا على الآخر فيعتدل فى صحة الكلام تقديم ما قدم منهما قبل صاحبه أن يكون موضوعا فى درجته ومرتبا فى مرتبته . فإن قال : فما وجه تكراره (إِيَّاكَ) مع قوله (نَسْتَعِينُ) وقد تقدم ذلك قبل نعبد ؟ وهلا قيل : إياك نعبد ونستعين ، إذا كان المخبر عنه أنه المعبود هو المخبر عنه أنه المستعان ؟ قيل له : إن الكاف التى مع إيّا ، هى الكاف التى كانت تتصل بالفعل ، أعنى بقوله" (نَعْبُدُ) لو كانت مؤخرة بعد الفعل ، وهى كناية اسم المخاطب المنصوب بالفعل ، فكثُرت بإيا متقدمة ، إذ كانت الأسماء إذا انفردت بأنفسها ، لاتكون فى كلام العرب على حرف واحد ، فلما كانت الكاف من إياك هى كناية اسم المخاطب التى كانت تكون كافا وحدها متصلة بالفعل ، إذا كانت بعد الفعل ، ثم كان حظها أن تعاد مع كل فعل اتصلت به ، فيقال : اللهم إنا نعبدك ونستعينك ، ونحمدك ، ونشكرك . وكان ذلك أفصح فى كلام العرب من أن يقال : اللهم إنا نعبدك ونستعين ونحمد ، كان كذلك إذا قدمت كناية اسم المخاطب قبل الفعل موصولة بإيا ، كان الأفصح إعادتها مع كل فعل ، كما كان الفصيح من الكلام إعادتها مع كل فِعْل ، إذ كانت بعد الفعل متصلة به ، وإن كان ترك إعادتها جائزا . وقد ظن بعض من لم يمعن النظر أن إعادة إياك مع نستعين بعد تقدمها فى قوله (إياكَ نَعْبُدُ) بمعنى قول عدىّ بن زيد العبادى :

وجاعِلُ الشَّمْسِ مِصْرًا لاخَفاءَ بِهِ ... بينَ النَّهارِ وبينَ اللَّيْلِ قَدْ فُصِلا

وكقول أعشى همدان :

بينَ الأَشَجِّ وبينَ قَيْسٍ باذِخٍ ... بَخٍ بَخٍ لوَالِدِهِ وللمَوْلُودِ

وذلك جهل من قائله ، من أجل أن حظ إياك أن تكون مكرَّرة مع كل فعل لما وصفنا آنفا من العلة ، وليس ذلك حكم « بين » لأنها لاتكون إذا اقتضت اثنين إلا تكريرا إذا أعيدت ، إذ كانت لاتنفرد بالواحد ، وإنها لو أفردت بأحد الاسمين فى حال اقتضائها اثنين ، كان الكلام كالمستحيل . وذلك أن قائلا لو قال : الشمس قد فصلت بين النهار ، لكان من الكلام خلفا لنقصان الكلام عما به الحاجة إليه من تمامه الذى يقتضيه بين . ولو قال القائل : اللهم إياك نعبد لكان ذلك كلاما تاما . فكان معلوما بذلك أن حاجة كل كلمة كانت نظيرة إياك نعبد إلى إياك كحاجة نعبد إليها . وأن الصواب أن تكرّر معها إياك ، إذ كانت كل كلمة منها جملة خبر مبتدأ ، وبينا حكم مخالفة ذلك حكمَ « بين » فيما وفق بينهما الذى وصفنا قوله .

القول فى تأويل قوله :

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) .

قال أبو جعفر : ومعنى قوله (اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيم) فى هذا الموضع عندنا : وَفِّقْنا للثبات عليه ، كما روى ذلك عن ابن عباس .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا

أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس قال : قال جبريل لمحمد : قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم ، يقول : ألهمنا الطريق الهادى . وإلهامه إياه ذلك ، هو توفيقه له ، كالذى قلنا فى تأويله . ومعناه نظير معنى قوله (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فى أنه مسئلة العبد ربه التوفيق للثبات على العمل بطاعته ، وإصابة الحقّ والصواب فيما أمره به ونهاه عنه فيما يستقبل من عمره ، دون ما قد مضى من أعماله ، وتقضّى فيما سلف من عمره . كما فى قوله (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) مسئلة منه ربه المعونة على أداء ما قد كلفه من طاعته ، فيما بقى من عمره . فكان معنى الكلام : اللهم إياك نعبد وحدك لاشريك لك ، مخلصين لك العبادة ، دون ما سواك من الآلهة والأوثان ، فأعنا على عبادتك ، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليه من أنبيائك ، وأهل طاعتك من السبيل والمنهاج .

فإن قال قائل : وأنى وجدت الهداية فى كلام العرب بمعنى التوفيق ؟ قيل له : ذلك فى كلامها أكثر وأظهر من أن يحصى عدد ما جاء عنهم فى ذلك من الشواهد ، فمن ذلك قول الشاعر :

لا تَحْرِمَنِّى هَدَاكَ اللهُ مَسْأَلَتِى ... ولا أكُونَنَّ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ السَّفَرُ

يعنى به : وفقك الله لقضاء حاجتى ، ومنه قول الآخر :

وَلا تُعْجِلَنِّى هَدَاكَ المَلِيكُ ... فإنَّ لكلٍّ مقام مقَالاَ

فمعلوم أنه إنما أراد: وفقك الله لإصابة الحقّ فى أمرى . ومنه قول الله جل ثناؤه:(واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ) فى غير آيةٍ من تنزيله . وقد علم بذلك أنه لم يعن أنه لايبين للظالمين الواجب عليهم من فرائضه ، وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه ، وقد عمّ بالبيان جميع المكلفين من خلقه ؟! ولكنه عنى جلّ وعز : أنه لايوفقهم ، ولا يشرح للحق والإيمان صدورهم .

وقد زعم بعضهم أن تأويل قوله (اهْدِنا) : زدنا هداية ، وليس يخلو هذا القول من أحد أمرين : إما أن يكون قائله قد ظنّ أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بمسئلة ربه الزيادة فى البيان ، أو الزيادة فى المعونة والتوفيق ؛ فإن كان ظن أنه أمر بمسئلة الزيادة فى البيان ، فذلك مالاوجه له ، لأن الله جل ثناؤه ، لايكلف عبدا فرضا من فرائضه إلا بعد تبيينه له ، وإقامة الحجة عليه به ، ولو كان معنى ذلك معنى مسئلته البيان ، لكان قد أمر أن يدعو ربه أن يبين له مافرض عليه ، وذلك من الدعاء خُلْف ؛ لأنه لايفرض فرضا إلا مبيَّنا لمن فرضه عليه ، أو يكون أمر أن يدعو ربه أن يفرض عليه الفرائض التى لم يفرضها . وفى فساد وجه مسئلة العبد ربه ذلك ما يوضح عن أن معنى (اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ) غير معنى بيِّن لنا فرائضك وحدودك ؛ أو يكون ظن أنه أمر بمسئلة ربه الزيادة فى المعونة والتوفيق . فإن كان ذلك كذلك ، فلن تخلو مسئلته تلك الزيادة من أن تكون مسئلة للزيادة فى المعونة على ما قد مضى من عمله ، أو على ما يحدث ، وفى ارتفاع حاجة العبد إلى المعونة على ما قد تقضى من عمله ، ما يعلم أن معنى مسئلة تلك الزيادة ، إنما هو مسئلته الزيادة لما يحدث من عمله ، وإذا كان ذلك كذلك ، صار الأمر إلى ما وصفنا وقلنا فى ذلك ، من أنه مسئلة العبد

ربه التوفيق لأداء ما كلف من فرائضه فيما يستقبل من عمره . وفى صحة ذلك فساد قول أهل القدَر ، الزاعمين أن كل مأمور بأمر أو مكلف فرضا فقد أعطى من المعونة عليه، ما قد ارتفعت معه فى ذلك الفرض حاجته إلى ربه ؛ لأنه لو كان الأمر على ما قالوا فى ذلك ، لبطل معنى قول الله جل ثناؤه : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ) وفى صحة معنى ذلك على ما بينا فساد قولهم .

وقد زعم بعضهم أن معنى قوله : (اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمِ) : اسلكنا طريق الجنة فى المعاد، أى قدمنا له ، وامض بنا إليه ، كما قال جل ثناؤه : (فاهْدُوهُمْ إلى صِرَاطِ الجَحِيمِ) أى أدخلوهم النار كما تُهدى المرأة إلى زوجها ، يعنى بذلك أنها تدخل إليه ، وكما تُهدى الهدية إلى الرجل ، وكما تَهدى الساق القدم ، نظير قول طرفة بن العبد :

لَعِبَتْ بَعْدِى السُّيُولُ بِهِ وجَرَى فى رَوْنَقٍ رَهْمَـهْ
لِلفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ حَيْثُ تَهْدِى ساقَهُ قَدَمُهْ

أى ترد به الموارد ، وفى قول الله جل ثناؤه : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ما ينبئ عن خطأ هذا التأويل ، مع شهادة الحجة من المفسرين على تخطئته . وذلك أن جميع المفسرين من الصحابة والتابعين ، مجمعون على أن معنى الصراط فى هذا الموضع ، غير المعنى الذى تأوله قائل هذا القول ، وأن قوله (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) مسئلة العبد ربه المعونة على عبادته ، فكذلك قوله اهدنا ، إنما هو مسئلة الثبات على الهدى فيما بقى من عمره .

والعرب تقول : هديت فلانا الطريق ، وهديته للطريق ، وهديته إلى الطريق ، إذا أرشدته إليه ، وسددته له . وبكل ذلك جاء القرآن ، قال الله جل ثناؤه : (وقالُوا الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى هَدَانا لِهَذَا) وقال فى موضع آخر : (اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقال : (اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ) وكل ذلك فاش فى منطقها موجود فى كلامها ، من ذلك قول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ العِبادِ إِلَيْهِ الوَجْهُ والعَمَلُ

يريد أستغفر الله لذنب ، كما قال جل ثناؤه : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

فَيَصِيدُنا العَيْرَ المُدِلَّ بِحُضْرِهِ قَبْلَ الوَنا والأَشْعَبَ النَّبَّاحا

يريد : فيصيد لنا ، وذلك كثير فى أشعارهم وكلامهم ، وفيما ذكرنا منه كفاية .

القول فى تأويل قوله : الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ .

قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم : هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه . وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب ؛ فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى :

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ على صِرَاطٍ إذَا اعْوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ

يريد على طريق الحقّ . ومنه قول الهذلى أبى ذؤيب :

صَبَحْنا أرْضَهُمْ بالخَيْلِ حَتَّى تَرَكْناها أدَقَّ مِنَ الصِّرَاطِ

ومنه قول الراجز :

فَصَدَّ عَنْ مَنْهَجِ الصِّرَاطِ القاصِدِ

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرنا غنى عما تركنا ؛ ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل وُصِف باستقامة أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوجّ باعوجاجه .

والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى ، أعنى : (اهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) أن يكون معنيا به : وفّقنا للثبات على ما ارتضيته ، ووفقتَ له من أنعمتَ عليه من عبادك من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصدّيقين والشهداء ، فقد وفق للإسلام ، وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمر الله به ، والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهج النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهاج أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، وكل عبد لله صالح ، وكل ذلك من الصراط المستقيم .

وقد اختلفت تراجمة القرآن فى المعنىّ بالصراط المستقيم ، يشمل معانى جميعهم فى ذلك ما اخترنا[١] من التأويل فيه .

ومما قالته فى ذلك ، ما روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال وذكر القرآن ، فقال : « هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ » .

حدثنا بذلك موسى بن عبد الرحمن المسروق قال : حدثنا حسين الجعفى ، عن حمزة الزيات ، عن أبى المختار الطائى ، عن ابن أخى الحرث ، عن الحرث ، عن علىّ ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وحدثنا عن إسمعيل بن أبى كريمة ، قال : حدثنا محمد بن سلمة ، عن أبى سنان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البخترى ، عن الحرث ، عن علىّ ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مثله .

وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا حمزة الزيات ، عن أبى المختار الطائى ، عن ابن أخى الحرث الأعور ، عن الحرث ، عن علىّ ، قال : الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ : كِتابُ اللهِ تَعالى .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ح .

وحدثنا محمد بن حميد الرازى ، قال : حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن منصور ، عن أبى وائل ، قال : قال عبدالله : الصراط المستقيم : كتاب الله .

وحدثنى محمود بن خداش الطالقانى ، قال : حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسى ، قال : حدثنا علىّ والحسن ابنا صالح جميعا ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله : اهدنا الصراط المستقيم ، قال : الإسلام ، قال : هو أوسع مما بين السماء والأرض .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمار ، قال : حدثنا أبو روق عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد : قل يا محمد : اهدنا الصراط المستقيم ، يقول ألهمنا الطريق الهادى ، وهو دين الله الذى لاعوج له .

(١) فى م : أخبرنا .

وحدثنا موسى بن سهل الرازى ، قال : حدثنا يحيى بن عوف ، عن الفرات بن السائب ، عن ميمون ابن مهران ، عن ابن عباس فى قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال : ذلك الإسلام .

وحدثنى محمود بن خداش ، قال : حدثنا محمد بن ربيعة الكلابى ، عن إسمعيل الأزرق ، عن أبى عمر البزار ، عن ابن الحنفية ، فى قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال : هو دين الله الذى لايقبل من العباد غيره .

وحدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدثنا عمرو بن طلحة القناد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال : هو الإسلام .

وحدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال : قال ابن عباس فى قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال : الطريق .

حدثنا عبد الله بن كثير أبو صديف الآملى ، قال : حدثنا هاشم بن القاسم ، قال : حدثنا حمزة بن أبى المغيرة ، عن عاصم ، عن أبى العالية فى قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده : أبو بكر وعمر ، قال : فذكرت ذلك للحسن ، فقال : صدق أبو العالية ونصح .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال : الإسلام .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح : أن عبد الرحمن بن جبير حدثه عن أبيه ، عن نواس بن سمعان الأنصارى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ، وَالصِّرَاطُ : الإسْلامُ .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا الليث ، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن نواس بن سمعان الأنصارى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بمثله .

قال أبو جعفر : وإنما وصفه الله بالاستقامة ، لأنه صواب لاخطأ فيه ؛ وقد زعم بعض أهل الغباء أنه سماه مستقيما لاستقامته بأهله إلى الجنة ، وذلك تأويل التأويل ، جميع أهل التفسير خلاف ، وكفى بإجماع جميعهم على خلافه دليلا على خطئه .

القول فى تأويل قوله :

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧) .

وقوله : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) إبانة عن الصراط المستقيم أىّ الصراط هو ، إذ كان كل طريق من طرق الحقّ صراطا مستقيما ، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : قل يامحمد : اهدنا ياربنا

الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، بطاعتك وعبادتك ، من ملائكتك ، وأنبيائك ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ؛ وذلك نظير ما قال ربنا جل ثناؤه فى تنزيله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتًا ، وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) .

قال أبو جعفر : فالذى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يسألوه ربهم من الهداية للطريق المستقيم ، هى الهداية للطريق الذى وصف الله جل ثناؤه صفته ، وذلك الطريق هو طريق الذى وصفهم الله بما وصفهم به فى تنزيله ، ووعد من سلكه فاستقام فيه طائعا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يورده مواردهم ، والله لايخلف الميعاد . وبنحو ما قلنا فى ذلك روى الخبر عن ابن عباس وغيره .

حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمار ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) يقول طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك .

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، قال : أخبرنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى جعفر ، عن ربيع (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) قال : النبيون .

وحدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) قال : المؤمنين .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : قال وكيع (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) : المسلمين .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد فى قول الله (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) قال : النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه .

قال أبو جعفر : وفى هذه الآية دليل واضح على أن طاعة الله جل ثناؤه ، لاينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها . أولا يسمعونه يقول : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم ؟

فإن قال قائل : وأين تمام هذا الخبر ، وقد علمت أن قول القائل لآخر : أنعمتُ عليك ، مقتض الخبر عما أنعم به عليه ، فأين ذلك الخبر فى قوله (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) وما تلك النعمة التى أنعمها عليهم ؟ قيل له : قد قدمنا البيان فيما مضى من كتابنا هذا عن اجتزاء العرب فى منطقها ببعض من بعض ، إذا كان البعض الظاهر دالا على البعض الباطن وكافيا منه . فقوله (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) من ذلك ، لأن أمر الله جل ثناؤه عباده بمسئلته المعونة ، وطلبهم منه الهداية للصراط المستقيم لما كان متقدما قوله (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) الذى هو إبانة عن الصراط المستقيم وإبدال منه ، كان معلوما أن النعمة التى أنعم الله بها على من أمرنا بمسئلته الهداية لطريقهم هو المنهاج القويم ، والصراط المستقيم

الذى قد قدمنا البيان عن تأويله آنفا ، فكان ظاهر ما ظهر من ذلك مع قرب تجاور الكلمتين ، مغنيا عن تكراره ، كما قال نابغة بنى ذبيان :

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ　　يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ

يريد كأنك من جمال بنى أقيش جمل يقعقع خلف رجليه بشن ، فاكتفى بما ظهر من ذكر الجمال الدال على المحذوف من إظهار ما حذف ، وكما قال الفرزدق بن غالب :

تَرَى أَرْبَاقَهُمْ مُتَقَلِّدِيهَا　　إِذَا صَدِئَ الحَدِيدُ على الكُمَاةِ

يريد متقلديها هم ، فحذف هم إذ كان الظاهر من قوله : أرباقهم دالا عليها .

والشواهد على ذلك من شعر العرب وكلامها أكثر من أن تحصى ، فكذلك ذلك فى قوله : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) .

القول فى تأويل قوله : (غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

قال أبو جعفر : والقراء مجمعة على قراءة غير بجرّ الراء منها ، والخفض يأتيها من وجهين : أحدهما أن يكون غير صفة للذين ونعتا لهم فتخفضها ، إذ كان الذين خفضا وهى لهم نعت وصفة ، وإنما جاز أن يكون غير نعتا للذين ، والذين معرفة وغير نكرة ، لأن الذين بصلتها ليست بالمعرفة المؤقتة كالأسماء التى هى أمارات بين الناس ، مثل : زيد وعمرو ، وما أشبه ذلك ، وإنما هى كالنكرات المجهولات ، مثل : الرجل والبعير ، وما أشبه ذلك ؛ فلما كان الذين كذلك صفتها ، وكانت غير مضافة إلى مجهول من الأسماء نظير الذين فى أنه معرفة غير مؤقتة ، كما الذين معرفة غير مؤقتة . جاز من أجل ذلك أن يكون (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) نعتا للذين أنعمت عليهم ، كما يقال : لاأجلس إلا إلى العالم غير الجاهل ، يراد : لاأجلس إلا إلى من يعلم لاإلى من يجهل ؛ ولو كان الذين أنعمت عليهم معرفة مؤقتة ، كان غير جائز أن يكون (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) لها نعتا ، وذلك أنه خطأ فى كلام العرب ، إذا وصفت معرفة مؤقتة بنكرة ، أن تلزم نعتها النكرة إعراب المعرفة المنعوت بها ، إلا على نية تكرير ما أعرب المنعوت بها . خطأ فى كلامهم أن يقال : مررت بعبد الله غير العالم ، فتخفض غير إلا على نية تكرير الباء التى أعربت عبد الله ، فكان معنى ذلك لو قيل كذلك : مررت بعبد الله ، مررت بغير العالم ، فهذا أحد وجهى الخفض فى (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) .

والوجه الآخر من وجهى الخفض فيها ، أن يكون الذين بمعنى المعرفة المؤقتة ، وإذا وجه إلى ذلك كانت غير مخفوضة بنية تكرير الصراط الذى خفض الذين عليها ، فكأنك قلت : صراط الذين أنعمت عليهم صراط غير المغضوب عليهم .

وهذان التأويلان فى غير المغضوب عليهم ، وإن اختلفا باختلاف معربيهما ، فإنهما يتقارب معناهما من أجل أن من أنعم الله عليه فهداه لدينه الحق ، فقد سلم من غضب ربه ، ونجا من الضلال فى دينه . فسواء إذ

كان سامع قوله (اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) غير جائز أن يرتاب مع سماعه ذلك من تاليه، فى أن الذين أنعم الله عليهم بالهداية للصراط، غير غاضب ربهم عليهم مع النعمة التى قد عظمت منته بها عليهم فى دينهم ، ولا أن يكونوا ضُلّالا وقد هداهم للحق ربهم ، إذ كان مستحيلا فى فطرهم، اجتماع الرضا من الله جل ثناؤه عن شخص، والغضب عليه فى حال واحدة، واجتماع الهدى والضلال له فى وقت واحد ، وصف القوم مع وصف الله إياهم بما وصفهم به من توفيقه إياهم ، وهدايته لهم ، وإنعامه عليهم بما أنعم الله به عليهم فى دينهم ، بأنهم غير مغضوب عليهم ولا هم ضالون ، أم لم يوصفوا بذلك، لأن الصفة الظاهرة التى وصفوا بها، قد أنبأت عنهم أنهم كذلك، وإن لم يصرِّح وصفهم به. هذا إذا وجهنا « غير » إلى أنها مخفوضة على نية تكرير الصراط الخافض الذين ، ولم نجعل غير المغضوب عليهم ولا الضالين من صفة الذين أنعمت عليهم ، بل إذا جعلناهم غيرهم ، وإن كان الفريقان لاشك منعما عليهما فى أديانهما؛ فأما إذا وجهنا (غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) إلى أنها من نعت الذين أنعمت عليهم ، فلا حاجة بسامعه إلى الاستدلال ، إذ كان الصريح من معناه قد أغنى عن الدليل.

وقد يجوز نصب غير فى غير المغضوب عليهم، وإن كنت للقراءة بها كارها لشذوذها عن قراءة القراء، وأن ما شذ من القراءات عما جاءت به الأمة نقلا ظاهرا مستفيضا، فرأى للحق مخالف، وعن سبيل الله وسبيل رسوله صلى الله عليه وسلم وسبيل المسلمين متجانف، وإن كان له - لو كانت القراءة جائزة به - فى الصواب مخرج.

وتأويل وجه صوابه إذا نصبت، أن يوجه إلى أن يكون صفة للهاء والميم اللتين فى عليهم ، العائدة على الذين ، لأنها وإن كانت مخفوضة بعلى فهى فى محل نصب بقوله أنعمت ، فكأن تأويل الكلام إذا نصبت غير التى مع المغضوب عليهم : صراط الذين هديتهم إنعاما منك عليهم غير مغضوب عليهم ، أى لا مغضوبا عليهم ولا ضالين ، فيكون النصب فى ذلك حينئذ كالنصب فى غير فى قولك : مررت بعبد الله غير الكريم ولا الرشيد، فتقطع غير الكريم من عبد الله ، إذ كان عبد الله معرفة موقتة وغير الكريم نكرة مجهولة.

وقد كان بعض نحويى البصريين يزعم أن قراءة من نصب غير فى غير المغضوب عليهم، على وجه استثناء غير المغضوب عليهم من معانى صفة الذين أنعمت عليهم ، كأنه كان يرى أن معنى الذين قرءوا ذلك نصباً: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم إلا المغضوب عليهم الذين لم تنعم عليهم فى أديانهم ، ولم تهدهم للحق ، فلا تجعلنا منهم ؛ كما قال نابغة بنى ذبيان :

وَقَفْتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائِلُها   أَعْيَتْ جَوَاباً وَما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ
إلاَّ أُوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها   والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

والأوارىّ معلوم أنها ليست من عداد أحد فى شىء ، فكذلك عنده استثنى غير المغضوب عليهم من الذين أنعمت عليهم ، وإن لم يكونوا من معانيهم فى الدين فى شىء.

وأما نحويو الكوفيين، فأنكروا هذا التأويل واستخطئوه، وزعموا أن ذلك لو كان كما قاله الزاعم من أهل

البصرة لكان خطأ أن يقال : ولا الضالين ، لأن « لا » نفى وجحد ، ولا يعطف بجحد إلا على جحد ؛ وقالوا : لم نجد فى شىء من كلام العرب استثناء يعطف عليه بجحد . وإنما وجدناهم يعطفون على الاستثناء بالاستثناء ، وبالجحد على الجحد ، فيقولون فى الاستثناء : قام القوم إلا أخاك وإلا أباك ؛ وفى الجحد : ما قام أخوك ، ولا أبوك ؛ وأما قام القوم إلا أباك ولا أخاك ، فلم نجده فى كلام العرب ؛ قالوا : فلما كان ذلك معدوما فى كلام العرب وكان القرآن بأفصح لسان العرب نزوله ، علمنا إذ كان قوله ولا الضالين معطوفا على قوله غير المغضوب عليهم ، أن غير بمعنى الجحد لا بمعنى الاستثناء ، وأن تأويل من وجهها إلى الاستثناء خطأ . فهذه أوجه تأويل غير المغضوب عليهم ، باختلاف أوجه إعراب ذلك .

وإنما اعترضنا بما اعترضنا فى ذلك : من بيان وجوه إعرابه ، وإن كان قصدنا فى هذا الكتاب الكشف عن تأويل آى القرآن ، لما فى اختلاف وجوه إعراب ذلك من اختلاف وجوه تأويله ، فاضطرّتنا الحاجة إلى كشف وجوه إعرابه ، لتنكشف لطالب تأويله وجوه تأويله على قدر اختلاف المختلفة فى تأويله وقراءته .

والصواب من القول فى تأويله وقراءته عندنا القول الأول ، وهو قراءة (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) بخفض الراء من غير بتأويل أنها صفة للذين أنعمت عليهم ، ونعت لهم لما قد قدمنا من البيان إن شئت . وإن شئت فبتأويل تكرير صراط ، كل ذلك صواب حسن .

فإن قال لنا قائل : فمَنْ هؤلاء المغضوب عليهم الذين أمرنا الله جل ثناؤه بمسئلته أن لا يجعلنا منهم ؟ قيل : هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه فى تنزيله فقال : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكاناً وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) فأعلمنا جل ذكره بمنه ما أحلّ بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه ، ثم علّمنا منة منه علينا ، وجه السبيل إلى النجاة ، من أن يحل بنا مثل الذى حلّ بهم من المثلات ، ورأفة منه بنا .

فإن قال : وما الدليل على أنهم أولاء الذين وصفهم الله وذكر نبأهم فى تنزيله على ما وصفت ؟ قيل : حدثنى أحمد بن الوليد الرملى ، قال : حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن الشعبى ، عن عدىّ بن حاتم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ : اليَهُودُ .

وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب ، قال : سمعت عباد بن حبيش يحدّث عن عدىّ بن حاتم قال : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ المَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ : اليَهُودُ » .

وحدثنى علىّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم بن عبد الرحمن ، قال : حدثنا محمد بن مصعب ، عن حماد بن سلمة ، عن سماك بن حرب ، عن مرّى بن قطرى ، عن عدى بن حاتم قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله جل وعز (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) قال : هُمُ اليَهُودُ .

وحدثنا حميد بن مسعدة الشامى، قال: حدثنا بشر بن المفضل، قال: حدثنا الجريرى، عن عبد الله بن شقيق: أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصر وادى القرى فقال: من هؤلاء الذين تحاصر يا رسول الله؟ قال: هَؤُلاءِ المَغْضُوب عَلَيْهِمْ: اليَهُودُ.

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن علية، عن سعيد الجريرى، عن عروة، عن عبد الله ابن شقيق، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر نحوه.

وحدثنا الحسن بن يحيى، قال: أنبأنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن بديل العقيلى، قال: أخبرنى عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو بوادى القرى وهو على فرسه وسأله رجل من بنى القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: المَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، وأشار إلى اليهود.

وحدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا خالد الواسطى، عن خالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم، فذكر نحوه.

وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمار، قال: حدثنا أبو روق عن الضحاك، عن ابن عباس (غيرِ المَغْضُوب عَلَيْهِمْ) يعنى اليهود الذين غضب الله عليهم.

وحدثنى موسى بن هرون الهمدانى، قال: حدثنا عمرو بن طلحة، قال: حدثنا أسباط بن نصر، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) هم اليهود.

وحدثنا ابن حميد الرازى، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن مجاهد، قال (غير المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) قال: هم اليهود.

حدثنا أحمد بن حازم الغفارى، قال: حدثنا عبد الله، عن أبى جعفر، عن ربيع (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) قال: اليهود.

وحدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنى حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) قال: اليهود.

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب. قال: قال ابن زيد (غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) اليهود.

وحدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: حدثنى ابن زيد، عن أبيه، قال: (المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) اليهود.

قال أبو جعفر:

واختلف فى صفة الغضب من الله جل ذكره، فقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من خلقه، إحلال عقوبته بمن غضب عليه، إما فى دنياه، وإما فى آخرته، كما وصف به نفسه جل ذكره

فى كتابه فقال : (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فأَغْرَقْناهُمْ أجمَعِينَ) ، وكما قال : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِنْ ذلكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ) . وقال بعضهم : غضبُ الله على من غضب عليه من عباده : ذمّ منه لهم ولأفعالهم ، وشتم منه لهم بالقول . وقال بعضهم : الغضب منه معنى مفهوم ، كالذى يعرف من معانى الغضب ، غير أنه وإن كان كذلك من جهة الإثبات ، فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشقّ عليهم ويؤذيهم ، لأن الله جل ثناؤه ، لاتحل ذاته الآفات ، ولكنه له صفة ، كما العلم له صفة ، والقدرة له صفة على ما يعقل من جهة الإثبات ، وإن خالفت معانى ذلك معانى علوم العباد التى هى معارف القلوب وقواهم ، التى توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها .

القول فى تأويل قوله : (وَلا الضَّالِّينَ) .

قال أبوجعفر : كان بعض أهل البصرة يزعم أن « لا » مع الضالين ، أدخلت تتميما للكلام ، والمعنى إلغاؤها ، ويستشهد على قيله ذلك ببيت العجاج :

فى بِئْرِ لاحُورٍ سَرَى وَما شَعَرْ

ويتأوله بمعنى فى بئر حور سرى ، أى فى بئر هلكة ، وأن « لا » بمعنى الإلغاء والصلة ، ويعتل أيضا لذلك بقول أبى النجم :

فَما أَلُومُ البِيضَ أنْ لاتَسْخَرَا		لَمَّا رأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا

وهو يريد : فما ألوم البيض أن تسخر . وبقول الأحوص :

ويُلْحِينَنِى فى اللَّهْوِ أنْ لاأُحِبَّهُ		وللَّهْوِ داعٍ دائِبٍ غيرِ غافِلِ

يريد : ويلحيننى فى اللهو أن أحبه ، وبقوله تعالى : (مامَنَعَكَ أَنْ لاتَسْجُدَ) يريد أن تسجد . وحكى عن قائل هذه المقالة ، أنه كان يتأول « غير » التى مع المغضوب عليهم أنها بمعنى سرى ، فكأنّ معنى الكلام كان عنده : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم الذين هم سوى المغضوب عليهم والضالين .

وكان بعض نحويى الكوفة يستنكر ذلك من قوله ، ويزعم أن « غير » التى مع المغضوب عليهم لو كانت بمعنى سوى ، لكان خطأ أن يعطف عليها بلا ، إذ كانت « لا » لايعطف بها إلا على جحد قد تقدمها ، كما كان خطأ قول القائل : عندى سوى أخيك ولا أبيك ، لأن سوى ليست من حروف النفى والجحود ؛ ويقول لما كان ذلك خطأ فى كلام العرب ، وكان القرآن بأفصح اللغات من لغات العرب ، كان معلوما أن الذى زعمه القائل أن « غير » مع المغضوب عليهم بمعنى : سوى المغضوب عليهم خطأ ، إذ كان قد كرّ عليه الكلام بلا ، وكان يزعم أن « غير » هنالك إنما هى بمعنى الجحد ، إذ كان صحيحا فى كلام العرب وفاشيا ظاهرا فى منطقها ، توجيه « غير » إلى معنى النفى ، ومستعملا فيهم : أخوك غير محسن ولا مجمل ، يراد بذلك

أخوك لا محسن ولا مجمل ، ويستنكر أن تأتى « لا » بمعنى الحذف فى الكلام مبتدأ ، ولما يتقدمها جحد ، ويقول : لو جاز مجيئها بمعنى الحذف مبتدأ ، قبل دلالة تدل على ذلك من جحد سابق ، لصح قول قائل قال : أردت أن لا أكرم أخاك ، بمعنى : أردت أن أكرم أخاك . وكان يقول : ففى شهادة أهل المعرفة بلسان العرب ، على تخطئة قائل ذلك ، دلالة واضحة على أن « لا » لا تأتى مبتدأة بمعنى الحذف ولما يتقدمها جحد ، وكان يتأول فى « لا » التى فى بيت العجاج الذى ذكرنا ، أن البصرى استشهد به بقوله : إنها جحد صحيح ، وأن معنى البيت : سرى فى بئر لا تحير عليه خيرا ، ولا يتبين له فيها أثر عمل ، وهو لا يشعر بذلك ولا يدرى به ، من قولهم : طحنت الطاحنة فما أحارت شيئا ، أى لم يتبين لها أثر عمل ، ويقول فى سائر الأبيات الأخر ، أعنى مثل بيت أبى النجم :

فَمَا أَلُومُ الْبِيضَ أَنْ لاتَسْخَرَا

إنما جاز أن تكون « لا » بمعنى الحذف ، لأن الجحد قد تقدمها فى أول الكلام ، فكان الكلام الآخر مواصلا للأول ، كما قال الشاعر :

ما كانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ فِعْلَهُمُ وَالطَّيِّبانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ

فجاز ذلك ، إذ كان قد تقدم الجحد فى أول الكلام .

قال أبو جعفر : وهذا القول الآخر أولى بالصواب من الأول ، إذ كان غير موجود فى كلام العرب ، ابتداء الكلام من غير جحد تقدمه بلا التى معناها الحذف ، ولا جائز العطف بها على سوى ، ولا على حرف الاستثناء . وإنما لغير فى كلام العرب معان ثلاثة : أحدها الاستثناء ، والآخر الجحد ، والثالث سوى ، فإذا بطل حظ « لا » أن يكون بمعنى الإلغاء مبتدأ ، وفسد أن يكون عطفا على « غير » التى مع المغضوب عليهم لو كانت بمعنى إلا التى هى استثناء ، ولم يجز أيضا أن يكون عطفا عليها لو كانت بمعنى سوى ، وكانت « لا » موجودة عطفا بالواو التى هى عاطفة لها على ما قبلها ، صحّ وثبت أن لا وجه لغير التى مع المغضوب عليهم ، يجوز توجيهها إليه على صحة ، إلا بمعنى الجحد والنفى ، وأن لا وجه لقوله : ولا الضالين ، إلا العطف على غير المغضوب عليهم ، فتأويل الكلام إذاً إذ كان صحيحا ما قلنا بالذى عليه استشهدنا : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، لا المغضوب عليهم ولا الضالين .

فإن قال لنا قائل : ومَنْ هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم ، أو نضل ضلالهم ؟ قيل : هم الذين وصفهم الله فى تنزيله ، فقال : (يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً وضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ)

فإن قال : وما برهانك على أنهم أولاء ؟ قيل :

حدثنا أحمد بن الوليد الرملى ، قال : حدثنا عبد الله بن جعفر ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن الشعبى ، عن عدىّ بن حاتم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَلا الضَّالِّينَ) قال : النَّصارى .

حدثنا محمد بن المثنى ، أنبأنا محمد بن جعفر ، أنبأنا شعبة ، عن سماك ، قال : سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدىّ بن حاتم ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الضَّالِّينَ : النَّصَارَى .

وحدثنى علىّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم وعبد الرحمن ، قال : حدثنا محمد بن مصعب ، عن حماد بن سلمة ، عن سماك بن حرب ، عن مرى بن قطرى ، عن عدىّ بن حاتم ، قال : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قول الله (وَلا الضَّالِّينَ) قال : النَّصَارَى هُمُ الضَّالُّونَ .

وحدثنا حميد بن مسعدة الشامى ، قال : حدثنا بشر بن المفضل ، قال : حدثنا الجريرى ، عن عبد الله ابن شقيق : أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو محاصر وادى القرى ، قال : قلت من هؤلاء ؟ قال : هَؤُلاءِ الضَّالُّونَ : النَّصَارَى .

وحدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن سعيد الجريرى ، عن عروة ، يعنى ابن عبد الله بن قيس ، عن عبد الله بن شقيق ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن بديل العقيلى ، قال : أخبرنى عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو بوادى القرى وهو على فرسه ، وسأله رجل من بنى القين فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ قال : هَؤُلاءِ الضَّالُّونَ ، يَعْنِى النَّصَارَى .

وحدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا خالد الواسطى ، عن خالد الحذاء ، عن عبد الله ابن شقيق أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، وهومحاصر وادى القرى وهو على فرس : من هؤلاء ؟ قال : الضَّالُّونَ ، يَعْنِى النَّصَارَى .

وحدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن مجاهد : ولا الضالين ،قال : النصارى .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمار ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ،عن ابن عباس : ولا الضالين؟ قال : وغير طريق النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه ؟ قال : يقول : فألهمنا دينك الحقّ ، وهو لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، حتى لاتغضب علينا كما غضبت على اليهود، ولا تضلنا كما أضللت النصارى ، فتعذّبنا بما تعذبهم به ؛ يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك وقدرتك .

وحدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الضالين : النصارى .

وحدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل السدى ، فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم : ولا الضالين : هم النصارى .

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، قال : أخبرنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى جعفر ، عن ربيع : ولا الضالين : النصارى .

وحدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد : ولا الضالين : النصارى .

وحدثنا يونس قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه ، قال : ولا الضالين : النصارى .

قال أبو جعفر : وكل حائد عن قصد السبيل ، وسالك غير المنهج القويم ، فضالٌّ عند العرب لإضلاله وجه الطريق ، فلذلك سمى الله جل ذكره النصارى ضُلالا لخطئهم فى الحق منهج السبيل ، وأخذهم من الدين فى غير الطريق المستقيم .

فإن قال قائل : أو ليس ذلك أيضا من صفة اليهود ؟ قيل : بلى . فإن قال : كيف خصّ النصارى بهذه الصفة ، وخص اليهود بما وصفهم به من أنهم مغضوب عليهم ؟ قيل : إن كلا الفريقين ضُلَّالٌ مغضوب عليهم ، غير أن الله جل ثناؤه ، وَسَمَ كل فريق منهم من صفته لعباده ، بما يعرفونه به إذا ذكره لهم أو أخبرهم عنه ، ولم يسم واحدا من الفريقين إلا بما هو له صفة على حقيقته ، وإن كان له من صفات الذم زيادات عليه . وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن فى وصف الله جل ثناؤه ، النصارى بالضلال بقوله : (وَلَا الضَّالِّينَ) وإضافته الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه ، وتركه وصفهم بأنهم المضللون ، كالذى وصف به اليهود أنهم المغضوب عليهم ، دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية ، جهلا منه بسعة كلام العرب ، وتصاريف وجوهه ، ولو كان الأمر على ما ظنه الغبىّ الذى وصفنا شأنه ، لوجب أن يكون شأن كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل ، لايجوز أن يكون فيه سبب لغيره ، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك لغيره سبب ، فالحق فيه أن يكون مضافا إلى مسببه ، ولو وجب ذلك لوجب أن يكون خطأ قول القائل : تحركت الشجرة إذا حركتها الرياح ، واضطربت الأرض إذا حركتها الزلزلة ، وما أشبه ذلك ، من الكلام الذى يطول بإحصائه الكتاب .

وفى قول الله جل ثناؤه : (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) بإضافته الجرى إلى الفلك ، وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها ، ما يدل على خطأ التأويل الذى تأوله من وصفنا قوله فى قوله : (وَلَا الضَّالِّينَ) وادعائه أن فى نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلى من نسبها إليه من النصارى ، تصحيحا لما ادعى المنكرون أن يكون لله جل ثناؤه ، فى أفعال خلقه سبب من أجله وجدت أفعالهم ، مع إبانة الله عزّ ذكره ، نصا فى آى كثيرة من تنزيله أنه المضلّ الهادى ؛ فمن ذلك قوله جل ثناؤه : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فأنبأ جل ذكره ، أنه المضلّ الهادى دون غيره .

ولكن القرآن نزل بلسان العرب ، على ما قد قدمنا البيان عنه فى أول الكتاب ، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه ، وإن كان مسببه غير الذى وجد منه أحيانا ، وأحيانا إلى مسببه وإن كان الذى وجد منه الفعل غيره ، فكيف بالفعل الذى يكتسبه العبد كسبا ، ويوجده الله جل ثناؤه عينا منشأة :

بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبا له بالقوة منه عليه والاختيار منه له ، وإلى الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيرا .

مسئلة يسأل عنها أهل الإلحاد الطاعنون فى القرآن

إن سألنا منهم سائل فقال : إنك قد قدمت فى أول كتابك هذا ، فى وصف البيان ، بأن أعلاه درجة وأشرفه مرتبة ، أبلغه فى الإبانة عن حاجة المبين به عن نفسه ، وأبينه عن مراد قائله ، وأقربه من فهم سامعه ، وقلت مع ذلك : إن أولى البيان بأن يكون كذلك ، كلام الله جل ثناؤه ، بفضله على سائر الكلام وبارتفاع درجته على أعلى درجات البيان . فما الوجه إذ كان الأمر على ماوصفت ، فى إطالة الكلام بمثل سورة أمّ القرآن بسبع آيات ، وقد حوت معانى جميعها منها آيتان ، وذلك قوله : (مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إذ كان لاشك أن من عرف ملك يوم الدّين ، فقد عرفه بأسمائه الحسنى ، وصفاته المثلى ، وأن من كان لله مطيعا ، فلا شك أنه لسبيل من أنعم الله عليه فى دينه متبع ، وعن سبيل من غضب عليه وضل منعدل ، فما فى زيادة الآيات الخمس الباقية من الحكمة ، التى لم تحوها الآيتان اللتان ذكرنا ؟

قيل له : إن الله تعالى ذكره جمع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأمته بما أنزل إليه من كتابه ، معانى لم يجمعهن بكتاب أنزله إلى نبى قبله ، ولا لأمة من الأمم قبلهم . وذلك أن كل كتاب أنزله جل ذكره ، على نبى من أنبيائه قبله ، فإنما أنزله ببعض المعانى التى يحوى جميعها كتابه الذى أنزله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كالتوراة التى هى مواعظ وتفصيل ، والزبور الذى هو تحميد وتمجيد ، والإنجيل الذى هو مواعظ وتذكير ، لا معجزة فى واحد منها تشهد لمن أنزل إليه بالتصديق ؛ والكتاب الذى أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، يحوى معانى ذلك كله ، ويزيد عليه كثيرا من المعانى التى سائر الكتب غيره منها خال ، وقد قدمنا ذكرها فيما مضى من هذا الكتاب ؛ ومن أشرف تلك المعانى التى فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله : نظمه العجيب ، ووصفه الغريب ، وتأليفه البديع ، الذى عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء ، وكلّت عن وصف شكل بعضه البلغاء ، وتحيرت فى تأليفه الشعراء ، وتبلّدت قصورا عن أن تأتى بمثله لديه أفهام الفهماء ، فلم يجدوا له إلا التسليم ، والإقرار بأنه من عند الواحد القهار ، مع مايحوى مع ذلك من المعانى التى هى : ترغيب ، وترهيب ، وأمر ، وزجر ، وقصص ، وجدل ، ومثل ، وما أشبه ذلك من المعانى التى لم تجتمع فى كتاب أنزل إلى الأرض من السماء .

فمهما يكن فيه من إطالة على نحو ما فى أمّ القرآن ، فلما وصفت قبل من أن الله جل ذكره ، أراد أن يجمع بوصفه العجيب ، ونظمه الغريب ، المنعدل عن أوزان الأشعار ، وسجع الكهان ، وخطب الخطباء ، ورسائل البلغاء ، العاجز عن وصف مثله جميع الأنام ، وعن نظم نظيره كل العباد ، الدلالة على نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما فيه من تحميد وتمجيد وثناء عليه ، تنبيه للعباد على عظمته وسلطانه وقدرته وعظم مملكته ، ليذكروه بآلائه ، ويحمدوه على نعمائه ، فيستحقوا به منه المزيد ، ويستوجبوا

عليه الثواب الجزيل، وبما فيه من نعت من أنعم عليه بمعرفته، وتفضل عليه بتوفيقه لطاعته، تعريف عباده أن كل ما بهم من نعمة فى دينهم ودنياهم فمنه ، ليصرفوا رغبتهم إليه ، ويبتغوا حاجاتهم من عنده دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وبما فيه من ذكره ما أحلّ بمن عصاه من مَثُلاته، وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته ، ترهيب عباده عن ركوب معاصيه ، والتعرّض لما لا قِبَل لهم به من سخطه ، فيسلك بهم فى النكال والنقمات سبيل من ركب ذلك من الهلاك. فذلك وجه إطالة البيان فى سورة أم القرآن، وفيما كان نظيرا لها من سائر سور الفرقان ، وذلك هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا المحاربى ، عن محمد بن إسحق ، قال : حدثنى العلاء بن عبد الرحمن ابن يعقوب ، عن أبى السائب مولى زهرة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذَا قالَ العَبْدُ : الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ ، قالَ اللهُ : حَمِدَنِى عَبْدِى ، وَإذَا قالَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، قال : أثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى ، وَإذَا قالَ : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، قالَ : مَجَّدَنِى عَبْدِى ، فَهذَا لى ، وَإذَا قالَ : إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ إلى أنْ يَخْتِمَ السُّورَةَ ، قالَ : فَذَاكَ لَهُ .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عبدة ، عن ابن إسحق ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبى السائب ، عن أبى هريرة ، قال : إذا قال العبد : الحمد لله ، فذكر نحوه ، ولم يرفعه .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو أسامة ، قال : حدثنا الوليد بن كثير ، قال : حدثنى العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة ، عن أبى السائب ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثله .

حدثنى صالح بن مسمار المروزى ، قال : حدثنا زيد بن الحباب ، قال : حدثنا عنبسة بن سعيد ، عن مطرف بن طريف ، عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة ، عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عزَّ وَجَلَّ قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِى وبينَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ ولَهُ ما سألَ ، فإذَا قالَ العَبْدُ : الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ، قالَ الله : حَمِدَنِى عَبْدِى ، وَإذَا قالَ : الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، قالَ : أثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى ، وَإذَا قالَ : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، قالَ : مَجَّدَنِى عَبْدِى ، قالَ : هذَا لى وَلَهُ ما بَقِىَ » .آخر تفسير سورة فاتحة الكتاب .

القول فى تفسير السورة التى يذكر فيها البقرة

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه :

الم (١)

قال أبو جعفر : اختلفت تراجمة القرآن فى تأويل قول الله تعالى ذكره (الم) فقال بعضهم : هو اسم من أسماء القرآن . ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيي ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (الٓمٓ) قال : اسم من أسماء القرآن .

حدثنى المثنى بن إبراهيم الآملى ، قال: حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود ، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : (الٓمٓ) اسم من أسماء القرآن .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال: حدثنا الحسين بن داود ، قال: حدثنى حجاج ، عن ابن جريج، قال : (الٓمٓ) اسم من أسماء القران .

وقال بعضهم : هو فواتح يفتح الله بها القرآن . ذكر من قال ذلك :

حدثنى هرون بن إدريس الأصم الكوفى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن ابن جريج، عن مجاهد ، قال : (الٓمٓ) فواتح يفتح الله بها القرآن .

حدثنا أحمد بن حازم الغفارى ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا سفيان ، عن مجاهد ، قال : (الٓمٓ) فواتح .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن يحيى بن آدم ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : (الٓمٓ) و (حمٓ) و(المصٓ) و (صٓ) فواتح افتتح الله بها .

حدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد، مثل حديث هرون بن إدريس .

وقال بعضهم : هو اسم للسورة . ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا عبد الله بن وهب ، قال : سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن قول الله (الٓمٓ ذٰلِكَ الكِتابُ) و (الٓمٓ تَنْزِيلُ) و (الٓمٓرٰ تِلْكَ) فقال : قال أبى : إنما هى أسماء السور .

وقال بعضهم : هو اسم الله الأعظم . ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا شعبة ، قال : سألت السدّى عن (حمٓ) و (طسمٓ) و (الٓمٓ) فقال : قال ابن عباس : هو اسم الله الأعظم .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنى أبوالنعمان ، قال : حدثنا شعبة عن إسمعيل السدى ، عن مرة الهمدانى ، قال : قال عبد الله : فذكر نحوه .

حدثنى المثنى قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبيد الله بن موسى ، عن إسمعيل ، عن الشعبى قال: فواتح السور من أسماء الله .

وقال بعضهم : هو قَسَم أقسم الله به ، وهى من أسمائه . ذكر من قال ذلك :

حدثنى يحيى بن عثمان بن صالح السهمى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية ابن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قال : هو قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، قال : (الم) قسم .

وقال بعضهم : هو حروف مقطعة من أسماء وأفعال ، كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر . ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، وحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا ابن أبي شريك ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس (الم) قال : أنا الله أعلم ،

وحدثت عن أبي عبيد قال : حدثنا أبو اليقظان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير . قال قوله (الم) قال : أنا الله أعلم .

حدثني موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد القناد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل السدى ، فى خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (الم) قال : أما (الم) فهو حرف اشتق من حروف هجاء أسماء الله جل ثناؤه .

حدثنا محمد بن معمر ، قال : حدثنا عباس بن زياد الباهلى ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله (الم) و (حم) و (ن) قال : اسم مقطع .

وقال بعضهم : هى حروف هجاء موضوع . ذكر من قال ذلك :

حدثت عن منصور بن أبي نويرة ، قال : حدثنا أبو سعيد المؤدب ، عن خصيف ، عن مجاهد ، قال : فواتح السور كلها (ق) و (ص) و (حم) و (طسم) و (الر) وغير ذلك : هجاء موضوع .

وقال بعضهم : هى حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة . ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى بن إبراهيم الطبرى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي جعفر الرازى ، قال : حدثنى أبي ، عن الربيع بن أنس ، فى قول الله تعالى ذكره (الم) قال : هذه الأحرف من التسعة والعشرين حرفا ، دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو فى آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو مدة قوم وآجالهم .

وقال عيسى بن مريم : وعجيب ينطقون فى أسمائه ، ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون ؟ قال : الألف : مفتاح اسمه الله ، واللام : مفتاح اسمه لطيف ، والميم : مفتاح اسمه مجيد ، والألف : آلاء الله ، واللام : لطفه ، والميم : مجده ، الألف : سنة ، واللام ثلاثون سنة ، والميم : أربعون سنة .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، عن أبي جعفر ، عن الربيع ، بنحوه .

وقال بعضهم : هى حروف من حساب الجمل ، كرهنا ذكر الذى حكى ذلك عنه ، إذ كان الذى رواه ممن لا يعتمد على روايته ونقله ، وقد مضت الرواية بنظير ذلك من القول عن الربيع بن أنس .

وقال بعضهم : لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه .

وأما أهل العربية ، فإنهم اختلفوا فى معنى ذلك ، فقال بعضهم : هى حروف من حروف المعجم استغنى

بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور ، عن ذكر بواقيها التى هى تتمة الثمانية والعشرين حرفا ، كما استغنى المخبر عمن أخبر عنه أنه فى حروف المعجم الثمانية والعشرين ، بذكر ا ب ت ث عن ذكر بواقى حروفها التى هى تتمة الثمانية والعشرين . قال : ولذلك رفع (ذَلِكَ الكِتَابُ) ، لأن معنى الكلام : الألف واللام والميم من الحروف المقطعة (ذَلِكَ الكِتَابُ) الذى أنزلته إليك مجموعا (لارَيْبَ فِيهِ . . . .) .

فإن قال قائل : فإن ألف با تا ثا قد صارت كالاسم فى حروف الهجاء ، كما صارت الحمد اسما لفاتحة الكتاب ؟ قيل له : لما كان جائزا أن يقول القائل : ابنى فى ط ظ ، وكان معلوما بقيله ذلك لو قاله ، أنه يريد الخبر عن ابنه أنه فى الحروف المقطعة ، علم بذلك أن ا ب ت ث ليس لها باسم ، وإن كان ذلك يؤثر فى الذكر من سائرها .

قال : وإنما خولف بين ذكر حروف المعجم فى فواتح السور ، فذكرت فى أوائلها مختلفة ، وذكرها إذا ذكرت بأوائلها التى هى ا ب ت ث مؤتلفة ، ليفصل بين الخبر عنها إذا أريد بذكر ما ذكر منها مختلفا الدلالة على الكلام المتصل ، وإذا أريد بذكر ما ذكر منها مؤتلفا الدلالة على الحروف المقطعة بأعيانها ، واستشهدوا لإجازة قول القائل : ابنى فى ط ظ ، وما أشبه ذلك من الخبر عنه أنه فى حروف المعجم ، وأن ذلك من قيله فى البيان يقوم مقام قوله : ابنى فى ا ب ت ث ، برجز بعض الرجاز من بنى أسد :

لَمَّا رأيْتُ أمْرَها فى حَطّى		وفَنَكَتْ فى كَذِبٍ ولَطّ
أخَذْتُ مِنْها بِقُرُونٍ شُمْطِ		فلَمْ يزَلْ بِها ضَرْبى ومَعْطِى
حَتّى علا الرأسَ دَمٌ يُغَطّى

فزعم أنه أراد بذلك الخبر عن المرأة أنها فى أبى جاد ، فأقام قوله : لما رأيت أمرها فى حطى ، مقام خبره عنها أنها فى أبى جاد ، إذ كان ذاك من قوله يدل سامعه على مايدله عليه قوله : لما رأيت أمرها فى أبى جاد .

وقال آخرون : بل ابتدئت بذلك أوائل السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين ، إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن ، حتى إذا استمعوا له ، تلى عليهم المؤلف منه .

وقال بعضهم : الحروف التى هى فواتح السور : حروف يستفتح الله بها كلامه .

فإن قيل : هل يكون من القرآن ما ليس له معنى ؟ فإن معنى هذا أنه افتتح بها ليعلم أن السورة التى قبلها قد انقضت ، وأنه قد أخذ فى أخرى ، فجعل هذا علامة انقطاع ما بينهما ، وذلك فى كلام العرب ، ينشد الرجل منهم الشعر ، فيقول : بل . . .

وَبَلْدَةٍ ما الأُنْسُ مِنْ آهالِهَا

ويقول : لابَلْ . . . . . ما هاجَ أحزَاناً وَشَجْواً قَدْ شَجا

وبل ليست من البيت ولا تعدّ فى وزنه ، ولكن يقطع بها كلاما ويستأنف الآخر .

قال أبو جعفر :

ولكل قول من الأقوال التى قالها الذين وصفنا قولهم فى ذلك وجه معروف ، فأما الذين قالوا (الم)

اسم من أسماء القرآن . فلقولهم ذلك وجهان : أحدهما أن يكونوا أرادوا أن (الٓمٓ) اسم للقرآن كما الفرقان اسم له ، وإذا كان معنى قائل ذلك كذلك ، كان تأويل قوله (الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) على معنى القسم كأنه قال : والقرآن ! هذا الكتاب لاريب فيه . والآخر منهما أن يكونوا أرادوا أنه اسم من أسماء السورة التى تعرف به ، كما تعرف سائر الأشياء بأسمائها التى هى لها أمارات تعرف بها ، فيفهم السامع من القائل يقول : قرأت اليوم (المصٓ) و (نٓ) أى السورة التى قرأها من سور القرآن ، كما يفهم عنه إذا قال : لقيت اليوم عمرا وزيدا ، وهما بزيد وعمرو عارفان من الذى لقى من الناس ، وإن أشكل معنى ذلك على امرئ فقال : وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك ، ونظائر (الٓمٓ ، الٓمٓرٓ) فى القرآن جماعة من السور ، وإنما تكون الأسماء أمارات ، إذا كانت مميزة بين الأشخاص ، فأما إذا كانت غير مميزة فليست أمارات؟ قيل : إن الأسماء وإن كانت قد صارت - لاشتراك كثير من الناس فى الواحد منها - غير مميزة إلا بمعان أخر معها ، من ضم نسبة المسمى بها إليها أو نعته أو صفته ، بما يفرق بينه وبين غيره من أشكالها ، فإنها وضعت ابتداء للتمييز لاشك ، ثم احتيج عند الاشتراك إلى المعانى المفرّقة بين المسمى بها ، فكذلك ذلك فى أسماء السور ، جعل كل اسم فى قول قائل هذه المقالة ، أمارة للمسمى به من السور ، فلما شارك المسمى به فيه غيره من سور القرآن ، احتاج المخبر عن سورة منها أن يضم إلى اسمها المسمى به من ذلك ما يفرق به للسامع بين الخبر عنها وعن غيرها من نعت وصفة أو غير ذلك ، فيقول المخبر عن نفسه إنه تلا سورة البقرة إذا سماها باسمها الذى هو (الٓمٓ) قرأت (الٓمٓ) البقرة ، وفى آل عمران قرأت (الٓمٓ) آل عمران و (الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) و (الٓمٓ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) كما لو أراد الخبر عن رجلين اسم كل واحد منهما عمرو ، غير أن أحدهما تميمى والآخر أزدى ، للزمه أن يقول لمن أراد إخباره عنهما ، لقيت عمرا التميمى وعمرا الأزدى ، إذ كان لافرق بينهما وبين غيرهما ممن يشاركهما فى أسمائهما إلا بنسبتهما كذلك ، فكذلك ذلك فى قول من تأوّل فى الحروف المقطعة ، أنها أسماء للسور .

وأما الذين قالوا : ذلك فواتح يفتتح الله عز وجل بها كلامه ، فإنهم وجهوا ذلك إلى نحو المعنى الذى حكيناه عمن حكينا عنه من أهل العربية أنه قال : ذلك أدلة على انقضاء سورة وابتداء فى أخرى ، وعلامة لانقطاع ما بينهما ، كما جعلت « بل » فى ابتداء قصيدة دلالة على ابتداء فيها وانقضاء أخرى قبلها ، كما ذكرنا عن العرب إذا أرادوا الابتداء فى إنشاد قصيدة ، قالوا : بَلْ . . .

ماهاجَ أحزَانا وشَجْوًا قَدْ شَجا

وبل ليست من البيت ولا داخلة فى وزنه ، ولكن ليدل به على قطع كلام وابتداء آخر .

وأما الذين قالوا : ذلك حروف مقطعة بعضها من أسماء الله عزّ وجل ، وبعضها من صفاته ، ولكل حرف من ذلك معنى غير معنى الحرف الآخر ، فإنهم نحوا بتأويلهم ذلك نحو قول الشاعر :

قُلْنا لَها قِفِى قالَتْ لَنا قافْ لا تَحْسِبِى أنَّا نَسِينا الإيجافْ

يعنى بقوله : قالت قاف : قالت قد وقفت ، فدلت بإظهار القاف من وقفت على مرادها من تمام الكلمة

التى هى وقفت ، فصرفوا قوله (الم) وما أشبه ذلك إلى نحو هذا المعنى ، فقال بعضهم : الألف : ألف أنا ، واللام : لام الله ، والميم : ميم أعلم ، وكل حرف منها دال على كلمة تامة ، قالوا : فجملة هذه الحروف المقطعة إذا ظهر مع كل حرف منهن تمام حروف الكلمة : أنا الله أعلم . قالوا : وكذلك سائر جميع ما فى أوائل سور القرآن من ذلك فعلى هذا المعنى ، وبهذا التأويل قالوا ؛ ومستفيض ظاهر فى كلام العرب أن ينقص المتكلم منهم من الكلمة الأحرف ، إذا كان فيما بقى دلالة على ما حذف منها ، ويزيد فيها ما ليس منها إذا لم تكن الزيادة ملبسة معناها على سامعها ، كحذفهم فى النقص فى الترخيم من حارث الثاء ، فيقولون : ياحار ، ومن مالك الكاف فيقولون : يا مال ، وما أشبه ذلك . وكقول راجزهم :

ما للظَّلِيمِ عالٍ كَيْفَ لاَ يا　　يَنْقَدُّ عَنْهُ جِلْدُهُ إذَا يا

كأنه أراد أن يقول : إذا يفعل كذا وكذا ، فاكتفى بالياء من يفعل ، وكما قال آخر منهم :

بالخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإِنْ شَرًّا فا

يريد : فشرا

ولا أُرِيدُ الشَّرَّ إلاَّ أنْ تا

يريد : إلا أن تشاء ، فاكتفى بالتاء والفاء فى الكلمتين جميعا من سائر حروفهما ، وما أشبه ذلك من الشواهد التى يطول الكتاب باستيعابه .

وكما حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن أيوب وابن عون ، عن محمد ، قال : لما مات يزيد بن معاوية ، قال لى عبدة : إنى لاأراها إلا كائنة فتنة فافزع من ضيعتك ، والحق بأهلك ، قلت : فما تأمرنى ؟ قال : أحبّ إلى لك أن تا — قال أيوب وابن عون : بيده تحت خده الأيمن يصف الاضطجاع — حتى ترى أمرا تعرفه .

قال أبو جعفر : يعنى بتا تضطجع ، فاجتزأ بالتاء من تضطجع . وكما قال الآخر ، فى الزيادة فى الكلام على النحو الذى وصفت :

أقولُ إذْ خرِرْتُ على الكَلْكَالِ　　يا ناقَتِى ما جُلْتِ مِنْ مَجَالِ

يريد : الكلكل . وكما قال الآخر :

إنَّ شَكْلِى وَإنَّ شَكْلَكِ شَتَّى　　فالزَمِى الخُصَّ وَاخفِضِى تَبْيَضِضِى

فزاد ضادا وليست فى الكلمة .

قالوا : فكذلك ما نقص من تمام حروف كل كلمة من هذه الكلمات التى ذكرنا أنها تتمة حروف (الم) ونظائرها نظير مانقص من الكلام ، الذى حكيناه عن العرب فى أشعارها وكلامها .

وأما الذين قالوا : كل حرف من (الم) ونظائرها دال على معان شتى ، نحو الذى ذكرنا عن الربيع بن أنس ، فإنهم وجهوا ذلك إلى مثل الذى وجهه إليه من قال هو بتأويل : أنا الله أعلم ، فى أن كل حرف منه بعض حروف كلمة تامة ، استغنى بدلالته على تمامه عن ذكر تمامه ، وإن كانوا له مخالفين فى كل حرف من ذلك ، أهو من الكلمة التى ادعى أنه منها قائلو القول الأول أم من غيرها ؟ فقالوا : بل الألف من

(الم) من كلمات شتى ، هي دالة على معانى جميع ذلك وعلى تمامه ، قالوا : وإنما أفرد كل حرف من ذلك وقصربه عن تمام حروف الكلمة ، أن جميع حروف الكلمة لو أظهرت لم تدل الكلمة التى تظهر بعض هذه الحروف المقطعة بعض لها ، إلا على معنى واحد لا على معنيين وأكثر منهما ، قالوا : وإذا كان لا دلالة فى ذلك لو أظهر جميعها إلا على معناها الذى هو معنى واحد ، وكان الله جل ثناؤه ، قد أراد الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لشىء واحد ، لم يجز إلا أن يفرد الحرف الدالّ على تلك المعانى ، ليعلم المخاطبون به ، أن الله عز وجل ، لم يقصد قصد معنى واحد ، ودلالة على شىء واحد بما خاطبهم به ؛ وأنه إنما قصد الدلالة على أشياء كثيرة ، قالوا : فالألف من (الم) مقتضية معانى كثيرة : منها إتمام اسم الرب الذى هو الله ، وتمام اسم نعماء الله التى هى آلاء الله ، والدلالة على أجل قوم أنه سنة ، إذا كانت الألف فى حساب الجمل واحدا ، واللام مقتضية تمام اسم الله الذى هو لطيف ، وتمام اسم فضله الذى هو لطف ، والدلالة على أجل قوم أنه ثلاثون سنة ، والميم مقتضية تمام اسم الله الذى هو مجيد ، وتمام اسم عظمته التى هى مجد ، والدلالة على أجل قوم أنه أربعون سنة . فكان معنى الكلام فى تأويل قائل القول الأول : أن الله جل ثناؤه ، افتتح كلامه بوصف نفسه بأنه العالم الذى لا يخفى عليه شىء ، وجعل ذلك لعباده منهجا يسلكونه فى مفتتح خطبهم ورسائلهم ومهمّ أمورهم ، وابتلاء منه لهم ليستوجبوا به عظيم الثواب فى دار الجزاء ، كما افتتح بالحمد لله رب العالمين ، و (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) وما أشبه ذلك من السور التى جعل مفاتحها الحمد لنفسه ، وكما جعل مفاتح بعضها تعظيم نفسه وإجلالها بالتسبيح ، كما قال جل ثناؤه (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) وما أشبه ذلك من سائر سور القرآن التى جعل مفاتح بعضها تحميد نفسه ، ومفاتح بعضها تمجيدها ، ومفاتح بعضها تعظيمها وتنزيهها ، فكذلك جعل مفاتح السور الأخر التى أوائلها بعض حروف المعجم مدائح نفسه أحيانا بالعلم ، وأحيانا بالعدل والإنصاف ، وأحيانا بالإفضال والإحسان بإيجاز واختصار ، ثم اقتصاص الأمور بعد ذلك ، وعلى هذا التأويل يجب أن يكون الألف واللام والميم فى أماكن الرفع مرفوعا بعضها ببعض ، دون قوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ) ويكون ذلك الكتاب خبر مبتدأ ، منقطعا عن معنى (الم) ، وكذلك ذلك فى تأويل قول قائل هذا القول الثانى مرفوع بعضه ببعض ، وإن كان مخالفا معناه معنى قول قائل القول الأول .

وأما الذين قالوا : هن حروف من حروف حساب الجمل ، دون ما خالف ذلك من المعانى ، فإنهم قالوا لا نعرف للحروف المقطعة معنى يفهم سوى حساب الجمل ، وسوى تهجى قول القائل (الم) ، وقالوا : غير جائز أن يخاطب الله جل ثناؤه عباده ، إلا بما يفهمونه ويعقلونه عنه ، فلما كان ذلك كذلك ، وكان قوله (الم) لا يعقل لها وجه توجه إليه إلا أحد الوجهين اللذين ذكرنا ، فبطل أحد وجهيه ، وهو أن يكون مرادا بها تهجى (الم) صح وثبت أنه مراد به الوجه الثانى وهو حساب الجمل ، لأن قول القائل (الم) لا يجوز أن يليه من الكلام (ذَلِكَ الْكِتَابُ) لاستحالة معنى الكلام وخروجه عن المعقول ، إذا ولى (الم) ذلك الكتاب ، واحتجوا لقولهم ذلك أيضا بما حدثنا به محمد بن حميد الرازى ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ،

قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله بن رباب ، قال : مرّ أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة (الم ذَلِكَ الكِتابُ لارَيْبَ فِيهِ) فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من يهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله عز وجل عليه (الم ذَلِكَ الكِتابُ) فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم ! فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يامحمد ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك (الم ذَلِكَ الكِتابُ) فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم : بَلَى ، فقالوا : أجاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نَعَمْ ، قالوا : لقد بعث الله جل ثناؤه ، قبلك أنبياء مانعلمه بيّن لنبىّ منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك . فقال حيى بن أخطب : وأقبل على من كان معه ، فقال لهم : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، قال : فقال لهم : أتدخلون فى دين نبى ، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ قال : ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد هل مع هذا غيره ؟ قال : نَعَمْ ، قال : ماذا ؟ قال : (المص) قال : هذه أثقل وأطول : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه مائة وإحدى وستون سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نَعَمْ ، قال : ماذا ؟ قال : (الر) ، قال : هذه أثقل وأطول : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة ، فقال : هل مع هذا غيره يا محمد ، قال: نَعَمْ (المر) ،قال : فهذه أثقل وأطول : الألف واحدة، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ،حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا . ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيى بن أخطب ولمن معه من الأحبار : مايدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد : إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة ، ومائتا وإحدى وثلاثون ، ومائتان وإحدى وسبعون ، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون ، فقالوا : لقد تشابه علينا أمره. ويزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم : (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ) فقالوا : قد صرّح هذا الخبر بصحة ماقلنا فى ذلك من التأويل ، وفساد ماقاله مخالفونا فيه .

والصواب من القول عندى فى تأويل مفاتح السور التى هى حروف المعجم ،أن الله جل ثناؤه،جعلها حروفا مقطعة ، ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف ، لأنه عز ذكره أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منه على معان كثيرة لاعلى معنى واحد ، كما قال الربيع بن أنس، وإن كان الربيع قد اقتصر به على معان ثلاثة دون مازاد عليها . والصواب فى تأويل ذلك عندى أن كل حرف منه يحوى ماقاله الربيع وما قاله سائر المفسرين غيره فيه ، سوى ما ذكرت من القول عمن ذكرت عنه من أهل العربية ، أنه كان يوجه تأويل ذلك إلى أنه حروف هجاء استغنى بذكر ماذكر منه فى مفاتح السور عن ذكر تتمة الثمانية والعشرين حرفا من حروف المعجم ، بتأويل أن هذه الحروف : ذلك الكتاب مجموعة

لاريب فيه ، فإنه قول خطأ فاسد لخروجه عن أقوال جميع الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الخالفين من أهل التفسير والتأويل ، فكفى دلالة على خطئه شهادة الحجة عليه بالخطأ، مع إبطال قائل ذلك قوله الذى حكيناه عنه ، إذ صار إلى البيان عن رفع (ذَلِكَ الْكِتَابُ) بقوله مرة إنه مرفوع كل واحد منهما بصاحبه ،ومرة أخرى أنه مرفوع بالراجع من ذكره فى قوله (لارَيْبَ فيه) ومرة بقوله (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) وذلك ترك منه لقوله إن (الم) رافعة (ذَلِكَ الْكِتَابُ) .وخروج من القول الذى ادّعاه فى تأويل (الم ذلكَ الكِتَابُ) وأن تأويل ذلك : هذه الحروف ذلك الكتاب .

فإن قال لنا قائل : وكيف يجوز أن يكون حرف واحد شاملا الدلالة على معان كثيرة مختلفة ؟ قيل : كما جاز أن تكون كلمة واحدة تشتمل على معان كثيرة مختلفة كقولهم للجماعة من الناس أمة ، وللحين من الزمان أمة ، وللرجل المتعبد المطيع لله أمة ، وللدين والملة أمة ، وكقولهم للجزاء والقصاص دين ، وللسلطان والطاعة دين ، وللتذلل دين ، وللحساب دين، فى أشباه لذلك كثيرة يطول الكتاب بإحصائها، مما يكون من الكلام بلفظ واحد، وهو مشتمل على معان كثيرة، وكذلك قول الله جل ثناوه (الم ، والمر ، والمص) وما أشبه ذلك من حروف المعجم التى هى فواتح أوائل السور ، كل حرف منها دال على معان شتى ، شامل جميعها من أسماء الله عز وجل وصفاته ما قاله المفسرون من الأقوال التى ذكرناها عنهم ، وهن مع ذلك فواتح السور كما قاله من قال ذلك ، وليس كون ذلك من حروف أسماء الله جل ثناؤه وصفاته بمانعها أن تكون للسور فواتح ، لأن الله جل ثناؤه ، قد افتتح كثيرا من سور القرآن بالحمد لنفسه ، والثناء عليها،وكثيرا منها بتمجيدها ، وتعظيمها ، فغير مستحيل أن يبتدئ بعض ذلك بالقسم بها ، فالتى ابتدئ أوائلها بحروف المعجم،أحد معانى أوائلها أنهن فواتح ما افتتح بهن من سور القرآن ، وهن مما أقسم بهن ، لأن أحد معانيهن أنهن من حروف أسماء الله تعالى ذكره وصفاته على ما قدمنا البيان عنها ، ولا شك فى صحة معنى القسم بالله وأسمائه وصفاته ، وهن من حروف حساب الجمل ، وهن للسور التى افتتحت بهن شعار وأسماء ، فذلك يحوى معانى جميع ما وصفنا مما بينا من وجوهه ، لأن الله جل ثناؤه ، لو أراد بذلك أو بشىء منه الدلالة على معنى واحد، مما لايحتمله ذلك دون سائر المعانى غيره، لأبان ذلك لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إبانة غير مشكلة ، إذ كان جل ثناؤه ، إنما أنزل كتابه على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وفى تركه صلى الله عليه وسلم إبانة ذلك،أنه مراد به من وجوه تأويله البعض دون البعض،أوضح الدليل على أنه مراد به جميع وجوهه التى هو لها محتمل ، إذ لم يكن مستحيلا فى العقل وجه منها أن يكون من تأويله ومعناه ، كما كان غير مستحيل اجتماع المعانى الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد فى كلام واحد .

ومن أبى ماقلناه فى ذلك، سئل الفرق بين ذلك وبين سائر الحروف التى تأتى بلفظ واحد مع اشتمالها على المعانى الكثيرة المختلفة ، كالأمة والدين وما أشبه ذلك من الأسماء والأفعال ، فلن يقول فى أحد ذلك قولا إلا ألزم فى الآخر مثله . وكذلك يسئل كل من تأوّل شيئا من ذلك على وجه دون الأوجه الأخر التى وصفنا،

عن البرهان على دعواه من الوجه الذى يجب التسليم له ، ثم يعارض بقوله يخالفه فى ذلك. ويسئل الفرق بينه وبينه من أصل، أو مما يدل عليه أصل. فلن يقول فى أحدهما قولا إلا ألزم فى الآخر مثله . وأما الذى زعم من النحويين أن ذلك نظير « بل » فى قول المنشد شعرا : بَلْ . . .

ما هاجَ أحزَاناً وَشَجْوًا قَدْ شَجا

وأنه لامعنى له ، وإنما هو زيادة فى الكلام معناه الطرح ، فإنه أخطأ من وجوه شتى :

أحدها أنه وصف الله تعالى ذكره، بأنه خاطب العرب بغير ما هومن لغتها ، وغير ماهو فى لغة أحد من الآدميين ، إذ كانت العرب، وإن كانت قد كانت تفتتح أوائل إنشادها ما أنشدت من الشعر « ببل » فإنه معلوم منها أنها لم تكن تبتدئ شيئا من الكلام بالم ، والر ، والمص بمعنى ابتدائها ذلك « ببل » وإذ كان ذلك ليس من ابتدائها ، وكان الله جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم من القرآن بما يعرفون من لغاتهم ، ويستعملون بينهم من منطقهم فى جميع آيه ، فلا شك أن سبيل ما وصفنا من حروف المعجم التى افتتحت بها أوائل السور، التى هن لها فواتح، سبيل سائر القرآن فى أنه لم يعدل بها عن لغاتهم التى كانوا بها عارفين ولها بينهم فى منطقهم مستعملين، لأن ذلك لو كان معدولا به عن سبيل لغاتهم ومنطقهم ، كان خارجا عن معنى الإبانة التى وصف الله عز وجل بها القرآن ، فقال تعالى ذكره: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينِ بِلِسانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ) وأنى يكون مبينا مالا يعقله ولا يفقهه أحد من العالمين فى قول قائل هذه المقالة ، ولا يعرف فى منطق أحد من المخلوقين فى قوله ، وفى إخبار الله جل ثناؤه عنه أنه عربىّ مبين ما يكذّب هذه المقالة ، وينبئ عنه أن العرب كانوا به عالمين وهو لها مستبين ، فذلك أحد أوجه خطئه .

والوجه الثانى من خطئه فى ذلك . إضافته إلى الله جل ثناؤه أنه خاطب عباده بما لافائدة لهم فيه ولامعنى له من الكلام، الذى سواء الخطاب به وترك الخطاب به، وذلك إضافة العبث ــ الذى هو منفى فى قول جميع الموحدين عن الله ــ إلى الله تعالى ذكره .

والوجه الثالث من خطئه، أن « بل » فى كلام العرب مفهوم تأويلها ومعناها ، وأنها تدخلها فى كلامها رجوعا عن كلام لها قد تقضى كقولهم : ما جاءنى أخوك بل أبوك ؛ وما رأيت عمرا بل عبد الله ، وما أشبه ذلك من الكلام كما قال أعشى بنى ثعلبة . :

وَلأَشْرَبَنَّ ثَمانياً وثَمانياً　　وَثَلاثَ عَشْرَةَ واثْنَتَيْنِ وأرْبَعاً

ومضى فى كلمته ، حتى بلغ قوله :

بالجُلُّسانِ وَطيبٍ أرْدَانِهِ　　بالوَنِّ يَضْرِبُ لى يَكِدُّ الأصْبُعا

ثم قال :

بَلْ عُدَّ هذَا فى قَرِيضٍ غَيْرِهِ　　وَاذْكُرْ فَتًى سَمْحَ الخَلِيقَةِ أرْوَعا

فكأنه قال : دع هذا وخذ فى قريض غيره . فبل إنما يأتى فى كلام العرب على هذا النحو من الكلام ،

فأما افتتاحا لكلامها مبتدأ بمعنى التطويل والحذف، من غير أن يدل على معنى، فذلك مما لا نعلم أحدا ادعاه من أهل المعرفة بلسان العرب ومنطقها، سوى الذى ذكرت قوله، فيكون ذلك أصلا يشبه به حروف المعجم، التى هى فواتح سور القرآن التى افتتحت بها لو كان له مشبهة. فكيف وهى من الشبه به بعيدة!؟

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)

قال عامة المفسرين : تأويل قول الله تعالى (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) : هذا الكتاب . ذكر من قال ذلك :

حدثنى هرون بن إدريس الأصم الكوفى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : ذلك الكتاب ، قال : هو هذا الكتاب .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، قال : أخبرنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، قال : ذلك الكتاب : هذا الكتاب .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا الحكم بن ظهير ، عن السدّى فى قوله : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) قال : هذا الكتاب .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال: حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قوله : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) : هذا الكتاب . قال: قال ابن عباس (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) : هذا الكتاب .

فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يكون ذلك بمعنى هذا ، وهذا لاشك إشارة إلى حاضر معاين ، وذلك إشارة إلى غائب غير حاضر ولا معاين ؟ قيل : جاز ذلك لأن كل ما تقضى وقرب تقضيه من الأخبار ، فهو وإن صار بمعنى غير الحاضر ، فكالحاضر عند المخاطب ، وذلك كالرجل يحدّث الرجل الحديث ، فيقول السامع : إن ذلك والله لكما قلت ، وهذا والله كما قلت ، وهو والله كما ذكرت . فيخبر عنه مرة بمعنى الغائب إذ كان قد تقضى ومضى ، ومرة بمعنى الحاضر لقرب جوابه من كلام مخبره كأنه غير منقض . فكذلك ذلك فى قوله (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) لأنه جل ذكره لما قدم قبل (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) (الم) التى ذكرنا تصرّفها فى وجوهها من المعانى على ما وصفنا ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: يا محمد هذا الذى ذكرته وبينته لك الكتاب ، ولذلك حسن وضع ذلك فى مكان هذا ، لأنه أشير به إلى الخبر عما تضمنه قوله (الم) من المعانى بعد تقضى الخبر عنه بالم ، فصار لقرب الخبر عنه من تقضيه كالحاضر المشار إليه ، فأخبر عنه بذلك لانقضائه ومصير الخبر عنه كالخبر عن الغائب . وترجمه المفسرون أنه بمعنى هذا لقرب الخبر عنه من انقضائه ، فكان كالمشاهد المشار إليه بهذا نحو الذى وصفنا من الكلام الجارى بين الناس فى محاوراتهم ، وكما قال جل ذكره : (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَٰذَا ذِكْرٌ) فهذا ما فى ذلك إذا عنى بها هذا ، وقد يحتمل قوله جل ذكره (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) أن يكون معنيا به السور التى نزلت قبل سورة البقرة بمكة والمدينة ، فكأنه قال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه

وسلم : يا محمد، اعلم أن ما تضمنته سور الكتاب التى قد أنزلتها إليك، هو الكتاب الذى لاريب فيه . ثم ترجمه المفسرون بأن معنى ذلك : هذا الكتاب ، إذ كانت تلك السور التى نزلت قبل سورة البقرة من جملة جميع كتابنا هذا الذى أنزله الله عز وجل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التأويل الأول أولى بما قاله المفسرون ، لأن ذلك أظهر معانى قولهم الذى قالوه فى ذلك ؛ وقد وجه معنى ذلك بعضهم ، إلى نظير معنى بيت خفاف بن ندبة السلمى :

فإنْ تَكُ خَيْلِى قَدْ أُصِيبَ صَمِيمُها		فَعَمْدًا على عَيْنٍ تَيَمَّمْتُ مالِكا
أقُولُ لَهُ والرُّمْحُ يَأطِرُ مَتْنَهُ		تَأمَّلْ خِفافاً أنَّنِى أنا ذَلِكا

كأنه أراد : تأملنى أنا ذلك ، فرأى أن ذلك الكتاب بمعنى هذا نظير ما أظهر خفاف من اسمه على وجه الخبر عن الغائب وهو مخبر عن نفسه ، فلذلك أظهر ذلك بمعنى الخبر عن الغائب ، والمعنى فيه الإشارة إلى الحاضر المشاهد . والقول الأول أولى بتأويل الكتاب لما ذكرنا من العلل .

وقد قال بعضهم : (ذَلِكَ الكِتابُ) : يعنى به التوراة والإنجيل ، وإذا وجه تأويل ذلك إلى هذا الوجه ، فلا مؤنة فيه على متأوله كذلك ، لأن ذلك يكون حينئذ إخبارا عن غائب على صحة .

القول فى تأويل قوله : (لارَيْبَ فِيهِ)

وتأويل قوله: (لارَيْبَ فِيهِ) : لاشك فيه ، كما حدثنى هرون بن إدريس الأصم ، قال : حدثنا عبد الرحمن المحاربى ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : (لارَيْبَ فِيهِ) ، قال : لاشك فيه .

حدثنى سلام بن سالم الخزاعى ، قال: حدثنا خلف بن ياسين[1] الكوفى ، عن عبد العزيز بن أبى روّاد عن عطاء : (لارَيْبَ فِيهِ) قال : لاشك فيه .

حدثنى أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا الحكم بن ظهير ، عن السدّى ، قال : (لارَيْبَ فِيهِ) : لاشك فيه .

حدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : (لارَيْبَ فِيهِ) : لاشك فيه .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: (لارَيْبَ فِيهِ) قال : لاشك فيه .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : (لارَيْبَ فِيهِ) يقول : لاشك فيه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ،عن قتادة: (لارَيْبَ فِيهِ) يقول : لاشك فيه .

(١) فى م إدريس .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس قوله : (لارَيْبَ فِيهِ) يقول : لاشك فيه . وهو مصدر من قولك : رابنى الشىء يريبنى ريبا ، ومن ذلك قول ساعدة بن جؤية الهذلى :

فَقَالُوا تَرَكْنَا الحَىَّ قَدْ حَصِرُوا بِهِ فَلا رَيْبَ أَنْ قَدْ كَانَ ثَمَّ لَحِيمُ [1]

ويروى : حصَروا ، وحصِروا . والفتح أكثر . والكسر جائز . يعنى بقوله أحصروا به : أطافوا به ، ويعنى بقوله (لارَيْبَ فِيهِ) لاشك فيه ، وبقوله : أن قد كان ثم لحيم ، يعنى قتيلا ؛ يقال : قد لحم إذا قتل . والهاء التى فى « فيه » عائدة على الكتاب ، كأنه قال : لاشك فى ذلك الكتاب أنه من عند الله هدى للمتقين .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (هُدًى) .

حدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا سفيان ، عن بيان ، عن الشعبى : هدى ، قال : هدى من الضلالة .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل السدى ، فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) يقول : نور للمتقين . والهدى فى هذا الموضع مصدر ، من قولك : هديت فلانا الطريق : إذا أرشدته إليه ، ودللته عليه ، وبينته له ، أهديه هدى وهداية .

فإن قال لنا قائل : أوَ ما كتاب الله نورا إلا للمتقين ولا رشادا إلا للمؤمنين ؟ قيل : ذلك كما وصفه ربنا عز وجل ، ولو كان نورا لغير المتقين ورشادا لغير المؤمنين ، لم يخصص الله عز وجل المتقين بأنه لهم هدى . بل كان يعم به جميع المنذَرين ، ولكنه هدى للمتقين ، وشفاء لما فى صدور المؤمنين ، ووقر فى آذان المكذّبين ، وعمى لأبصار الجاحدين ، وحجة لله بالغة على الكافرين ؛ فالمؤمن به مهتد ، والكافر به محجوج .

وقوله (هُدًى) يحتمل أوجها من المعانى : أحدها أن يكون نصبا لمعنى القطع من الكتاب ؛ لأنه نكرة والكتاب معرفة ، فيكون التأويل حينئذ : الم ذلك الكتاب هاديا للمتقين ، وذلك مرفوع بالم ، والم به ، والكتاب نعت لذلك ؛ وقد يحتمل أن يكون نصبا على القطع من راجع ذكر الكتاب الذى فى فيه ، فيكون معنى ذلك حينئذ : الم الذى لاريب فيه هاديا ؛ وقد يحتمل أن يكون أيضا نصبا على هذين الوجهين ، أعنى على وجه القطع من الهاء التى فى « فيه » ، ومن الكتاب على أن (الم) كلام تام ، كما قال ابن عباس : إن معناه : أنا الله أعلم ، ثم يكون « ذَلِكَ الْكِتَابُ » خبرا مستأنفا ، ويرفع حينئذ الكتاب بذلك وذلك بالكتاب ، ويكون هدى قطعا من الكتاب ، وعلى أن يرفع ذلك بالهاء العائدة عليه التى فى « فيه » ، والكتاب

(١) جاء هذا البيت فى اللسان ، بثلاث روايات مختلفة ، ليس فى واحدة منها « فلاريب » وإنما « فلا شك » و « ولا غرو » وهو موضع شاهد المؤلف رحمه الله . كما أن فى م ، وفى إحدى روايات اللسان ، عن الجوهرى : حضروا بدل حصروا وفى رواية أخرى : عصبوا ... وهى رواية ابن سيده (راجع اللسان ، بابى : ح ص ر ، ل ح م) .

نعت له، والهدى قطع من الهاء التى فى « فيه » وإن جعل الهدى فى موضع رفع ،لم يجز أن يكون ذلك الكتاب إلا خبرا مستأنفا، (الم) كلاما تاما مكتفيا بنفسه إلا من وجه واحد ، وهو أن يُرفع حينئذ هدى بمعنى المدح كما قال الله جل وعز : (الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ) فى قراءة من قرأ رحمة بالرفع على المدح للآيات .

والرفع فى هدى حينئذ يجوز من ثلاثة أوجه : أحدها ما ذكرنا من أنه مدح مستأنف ، والآخر على أن يجعل رافع ذلك ، والكتاب نعت لذلك . والثالث أن يجعل تابعا لموضع لاريب فيه ، ويكون ذلك الكتاب مرفوعا بالعائد فى فيه ، فيكون كما قال تعالى ذكره : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) .

وقد زعم بعض المتقدمين فى العلم بالعربية من الكوفيين: أن (الم) رافع ذلك الكتاب، بمعنى هذه الحروف من حروف المعجم ، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك . ثم نقض ذلك من قوله فأسرع نقضه، وهدم مابنى فأسرع هدمه ، فزعم أن الرفع فى هدى من وجهين ، والنصب من وجهين ؛ وأن أحد وجهى الرفع أن يكون الكتاب نعتا لذلك ، والهدى فى موضع رفع خبر لذلك ، كأنك قلت : ذلك لا شك فيه ، قال : وإن جعلت لا ريب فيه خبره ، رفعت أيضا هدى بجعله تابعا لموضع لاريب فيه ، كما قال الله جل ثناؤه : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) كأنه قال : وهذا كتاب هدى من صفته كذا وكذا . قال : وأما أحد وجهى النصب ، فأن تجعل الكتاب خبرا لذلك وتنصب هدى على القطع ، لأن هدى نكرة اتصلت بمعرفة وقد تمّ خبرها فتنصبها ، لأن النكرة لاتكون دليلا على معرفة ، وإن شئت نصبت هدى على القطع من الهاء التى فى فيه ، كأنك قلت لاشكّ فيه هاديا .

قال أبو جعفر : فترك الأصل الذى أصله فى (الم) وأنها مرفوعة بذلك الكتاب ونبذه وراء ظهره ، واللازم له على الأصل الذى كان أصله أن لايجيز الرفع فى هدى بحال إلا من وجه واحد ، وذلك من قبل الاستئناف إذ كان مدحا ، فأما على وجه الخبر لذلك ، أو على وجه الإتباع لموضع لاريب فيه ، فكان اللازم له على قوله أن يكون خطأ ، وذلك أن (الم) إذا رفعت ذلك الكتاب ، فلا شك أن هدى غير جائز حينئذ أن يكون خبرا لذلك بمعنى الرافع له ، أو تابعا لموضع لاريب فيه ، لأن موضعه حينئذ نصب لتمام الخبر قبله وانقطاعه بمخالفته إياه عنه .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (لِلْمُتَّقِينَ) .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى عن سفيان ، عن رجل ، عن الحسن ، قوله :(لِلْمُتَّقِينَ) قال : اتقوْا ما حرم عليهم وأدَّوْا ما افترض عليهم .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (لِلْمُتَّقِينَ) أى الذين يحذرون من الله عز وجل عقوبته ، فى ترك مايعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به .

حدثنى موسى بن هرون قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر

ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) قال : هم المؤمنون .

حدثنا أبو كريب، قال : حدثنا أبو بكر بن عياش ، قال : سألني الأعمش عن المتقين ، قال : فأجبته ، فقال لي : سل عنها الكلبي ، فسألته ، فقال : الذين يجتنبون كبائر الإثم ، قال : فرجعت إلى الأعمش ، فقال : نرى أنه كذلك ؛ ولم ينكره .

حدثني المثنى بن إبراهيم الطبري ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، قال : حدثنا عمر أبو حفص، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة : (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) مَنْ هم نعتهم ووصفهم؟ فأثبت صفتهم فقال : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : (لِلْمُتَّقِينَ) قال : المؤمنين الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعتي .

وأولى التأويلات بقول الله جل ثناؤه : (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) تأويل من وصف القوم بأنهم الذين اتقوا الله تبارك وتعالى في ركوب مانهاهم عن ركوبه، فتجنبوا معاصيه واتقوه فيما أمرهم به من فرائضه فأطاعوه بأدائها ، وذلك أن الله عز وجل، إنما وصفهم بالتقوى ، فلم يحصر تقواهم إياه على بعضها من أهل منهم دون بعض ، فليس لأحد من الناس أن يحصر معنى ذلك على وصفهم بشيء من تقوى الله عز وجل دون شيء ، إلا بحجة يجب التسليم لها ، لأن ذلك من صفة القوم لو كان محصورا على خاصٍّ من معاني التقوى دون العام منها ، لم يدع الله جل ثناؤه بيان ذلك لعباده ، إما في كتابه ، وإما على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن في العقل دليل على استحالة وصفهم بعموم التقوى ، فقد تبين إذًا بذلك فساد قول من زعم أن تأويل ذلك إنما هو الذين اتقوا الشرك وبرءوا من النفاق ، لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق غير مستحق أن يكون من المتقين ، إلا أن يكون عند قائل هذا القول معنى النفاق ركوب الفواحش التي حرمها الله جل ثناؤه وتضييع فرائضه التي فرضها عليه ، فإن جماعة من أهل العلم قد كانت تسمى من كان يفعل ذلك منافقا ، فيكون وإن كان مخالفا في تسميته من كان كذلك بهذا الاسم مصيبا تأويل قول الله عز وجل للمتقين .

القول في تأويل قوله جل ثناؤه :

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)

حدثنا محمد بن حميد الرازي ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) قال : يصدّقون .

حدثني يحيى بن عثمان بن صالح السهمي ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عن عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (يُؤْمِنُونَ) : يصدّقون .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : (يُؤْمِنُونَ): يخشون .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، قال : قال الزهرى : الإيمان : العمل .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن العلاء بن المسيب بن رافع ، عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، قال : الإيمان : التصديق .

ومعنى الإيمان عند العرب : التصديق . فيُدْعى المصدِّق بالشىء « قولا » مؤمنا به . ويدعى المصدِّق قوله بفعله مؤمنا . ومن ذلك قول الله جل ثناؤه : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) يعنى : وما أنت بمصدق لنا فى قولنا . وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل . والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل . وإذا كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بتأويل الآية وأشبه بصفة القوم ، أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب ، قولا ، واعتقادا ، وعملا ، إذ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى ، بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شىء من معانيه ، أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل .

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه : (بِالْغَيْبِ)

حدثنا محمد بن حميد الرازى ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (بالغيب) ، قال : بما جاء منه ، يعنى من الله جل ثناؤه .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، [أ] وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : (بالغيب) ، أما الغيب : فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار ، وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن لم يكن تصديقهم بذلك — يعنى المؤمنين من العرب — من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ ، قال : الغيب : القرآن .

حدثنا بشر بن معاذ العقدى ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، فى قوله : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) قال : آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة ، وكل هذا غيب .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) : آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ،

وآمنوا بالحياة بعد الموت ، فهذا كله غيب . وأصل الغيب : كل ماغاب عنك من شيء ، وهو من قولك : غاب فلان يغيب غيبا .

وقد اختلف أهل التأويل فى أعيان القوم ، الذين أنزل الله جل ثناؤه هاتين الآيتين من أول هذه السورة فيهم ، وفى نعتهم وصفتهم التى وصفهم بها من إيمانهم بالغيب ، وسائر المعانى التى حوتها الآيتان من صفاتهم غيره ، فقال بعضهم : هم مؤمنو العرب خاصة دون غيرهم من مؤمنى أهل الكتاب ، واستدلوا على صحة قولهم ذلك ، وحقيقة تأويلهم بالآية التى تتلوها تين الآيتين ، وهو قول الله عز وجل : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) قالوا : فلم يكن للعرب كتاب قبل الكتاب الذى أنزله الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم ، تدين بتصديقه والإقرار والعمل به ، وإنما كان الكتاب لأهل الكتابين غيرها . قالوا : فلما قص الله عز وجل ، نبأ الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد ، وما أنزل من قبله بعد اقتصاصه نبأ المؤمنين بالغيب ، علمنا أن كل صنف منهم غير الصنف الآخر ، وأن المؤمنين بالغيب نوع غير النوع المصدّق بالكتابين اللذين أحدهما منزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والآخر منهما على مَنْ قبله من رسل الله تعالى ذكره ، قالوا : وإذا كان ذلك كذلك ، صح ماقلنا من أن تأويل قول الله تعالى : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) إنما هم الذين يؤمنون بما غاب عنهم ، من الجنة والنار والثواب والعقاب والبعث والتصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وجميع ما كانت العرب لاتدين به فى جاهليتها : بما أوجب الله جل ثناؤه على عباده الدينونة به دون غيرهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) : فهم المؤمنون من العرب ، (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) أما الغيب : فما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار ، وما ذكر الله فى القرآن ، لم يكن تصديقهم بذلك من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب .

وقال بعضهم : بل نزلت هذه الآيات الأربع فى مؤمنى أهل الكتاب خاصة ، لإيمانهم بالقرآن عند إخبار الله جل ثناؤه إياهم فيه عن الغيوب التى كانوا يخفونها بينهم ويسرّونها ، فعلموا عند إظهار الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك منهم فى تنزيله ، أنه من عند الله جل وعز ، فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وصدّقوا بالقرآن وما فيه من الإخبار عن الغيوب ، التى لاعلم لهم بها ، لما استقرّ عندهم بالحجة التى احتجّ الله تبارك وتعالى بها عليهم فى كتابه ، من الإخبار فيه عما كانوا يكتمونه من ضمائرهم ، أن جميع ذلك من عند الله .

وقال بعضهم: بل الآيات الأربع من أول هذه السورة، أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم بوصف جميع المؤمنين الذين ذلك صفتهم، من العرب والعجم وأهل الكتابين سواهم، وإنما هذه صفة صنف من الناس، والمؤمن بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من قبله، هو المؤمن بالغيب. قالوا: وإنما وصفهم الله بالإيمان بما أنزل إلى محمد، وبما أنزل إلى من قبله، بعد تقضى وصفه إياهم بالإيمان بالغيب، لأن وصفه إياهم بما وصفهم به من الإيمان بالغيب، كان معنيا به أنهم يؤمنون بالجنة والنار والبعث، وسائر الأمور التى كلفهم الله جل ثناؤه الإيمان بها، مما لم يروه ولم يأت بعد مما هو آت، دون الإخبار عنهم أنهم يؤمنون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قبله من الرسل والكتب. قالوا: فلما كان معنى قوله: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) غير موجود فى قوله: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) كانت الحاجة من العباد إلى معرفة صفتهم بذلك ليعرفوهم نظير حاجتهم إلى معرفتهم بالصفة التى وصفوا بها من إيمانهم بالغيب، ليعلموا ما يرضى الله من أفعال عباده ويحبه من صفاتهم، فيكونوا به إن وفقهم له ربهم.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن عمرو بن العباس الباهلى، قال: حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، قال: حدثنا عيسى بن ميمون المكى، قال: حدثنا عبد الله بن أبى نجيح، عن مجاهد، قال: أربع آيات من سورة البقرة فى نعت المؤمنين، وآيتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين.

حدثنا سفيان بن وكيع، قال: حدثنا أبى، عن سفيان، عن رجل، عن مجاهد، بمثله.

وحدثنى المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا موسى بن مسعود، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، مثله.

وحدثت عن عمار بن الحسن، قال: حدثنا عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، قال: أربع آيات من فاتحة هذه السورة - يعنى سورة البقرة - فى الذين آمنوا، وآيتان فى قادة الأحزاب.

وأولى القولين عندى بالصواب وأشبههما بتأويل الكتاب، القول الأول، وهو أن الذين وصفهم الله تعالى ذكره بالإيمان بالغيب، وما وصفهم به جل ثناؤه فى الآيتين الأولتين، غير الذين وصفهم بالإيمان بالذى أنزل على محمد، والذى أنزل إلى من قبله من الرسل، لما ذكرت من العلل قبل، لمن قال ذلك.

ومما يدل أيضا مع ذلك على صحة هذا القول، أنه جنَّسَ - بعد وصف المؤمنين بالصفتين اللتين وصف وبعد تصنيفه كل صنف منهما على ما صنف - الكفار جنسين، فجعل أحدهما مطبوعا على قلبه مختوما عليه، مأيوسا من إيمانه، والآخر منافقا يرائى بإظهار الإيمان فى الظاهر ويستسر النفاق فى الباطن، فصير الكفار جنسين كما صير المؤمنين - فى أول السورة - جنسين، ثم عرّف عباده، نعت كل صنف منهم وصفتهم، وما أعدّ لكل فريق منهم من ثواب أو عقاب، وذمّ أهل الذمّ منهم، وشكر سعى أهل الطاعة منهم.

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه: (وَيُقِيمُونَ)

إقامتها : أداؤها بحدودها وفروضها ، والواجب فيها على مَنْ فرضت عليه ، كما يقال : أقام القوم سوقهم : إذا لم يعطلوها من البيع والشراء فيها ، وكما قال الشاعر :

أقَمْنا لِأهْلِ العِرَاقَيْنِ سُوقَ الـضِّرَابِ فَخاسُوا وَوَلَّوْا جَمِيعاً

وكما حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ) قال : الذين يقيمون الصلاة بفروضها .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمار ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : (وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ) قال : إقامة الصلاة : تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (الصَّلاةَ)

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا جويبر ، عن الضحاك ، فى قوله : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ) يعنى الصلاة المفروضة . وأما الصلاة فى كلام العرب فإنها الدعاء ، كما قال الأعشى :

لَهَا حارِسٌ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَها وَإنْ ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْها وَزَمْزَمَا

يعنى بذلك دعا لها ، وكقول الآخر أيضا :

وَقابَلَها الرِّيحُ فى دَنِّها وَصَلَّى على دَنِّها وَارْتَسَمْ

وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة ، لأن المصلى متعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته ، تعرّض الداعى بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤله .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

اختلف المفسرون فى تأويل ذلك ؛ فقال بعضهم ، بما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) قال : يؤتون الزكاة احتسابا بها .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) قال : زكاة أموالهم .

حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : حدثنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر عن الضحاك : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) قال : كانت النفقات قربات يتقرّبون بها إلى الله على قدر ميسورهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات فى سورة براءة ، مما يذكر فيهن الصدقات ، هن المثبتات الناسخات .

وقال بعضهم : بما حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن

مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) هى نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة .

وأولى التأويلات بالآية ، وأحقها بصفة القوم ، أن يكونوا كانوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم ، مؤدين زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل وعيال وغيرهم ، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ، لأن الله جل ثناؤه عمّ وصفهم ، إذ وصفهم بالإنفاق مما رزقهم ، فمدحهم بذلك من صفتهم ، فكان معلوما أنه إذ لم يخصص مدحهم ووصفهم ، بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها ، دون نوع بخبر ولا غيره ، أنهم موصوفون بجميع معانى النفقات المحمود عليها صاحبها ، من طيّب مارزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم ، وذلك الحلال منه الذى لم يَشُبْه حرام .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤)

قد مضى البيان عن المنعوتين بهذا النعت ، وأىّ أجناس الناس هم ، غير أنا نذكر ما روى فى ذلك عمن روى عنه فى تأويله قول . فحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) أى يصدقونك بما جئت به من الله جل وعز ، وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لايفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من عند ربهم .

حدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه : (وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

قال أبو جعفر : أما الآخرة ، فإنها صفة للدار ، كما قال جل ثناؤه : « وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى كانت قبلها ، كما تقول للرجل : أنعمت عليك مرة بعد أخرى ، فلم تشكر لى الأولى ولا الآخرة ؛ وإنما صارت الآخرة آخرة للأولى ، لتقدم الأولى أمامها ، فكذلك الدار الآخرة ، سميت آخرة لتقدم الدار الأولى أمامها ، فصارت التالية لها آخرة . وقد يجوز أن تكون سميت آخرة لتأخرها عن الخلق ، كما سميت الدنيا دنيا ، لدنوّها من الخلق .

وأما الذى وصف الله جل ثناؤه به المؤمنين بما أنزل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل إلى من قبله من المرسلين ، من إيقانهم به من أمر الآخرة ، فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين ، من البعث والنشر والثواب والعقاب والحساب والميزان ، وغير ذلك مما أعدّ الله لخلقه يوم القيامة .

كما حدثنا به محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (وبالآخرة هم يوقنون) أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، أى لاهؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك، ويكفرون بما جاءك من ربك.

وهذا التأويل من ابن عباس، قد صرّح عن أن السورة من أولها — وإن كانت الآيات التى فى أولها من نعت المؤمنين — تعريض من الله عز وجل، بذم الكفار أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم بما جاءت به رسل الله عز وجل، الذين كانوا قبل محمد صلوات الله عليهم وعليه، مصدقون، وهم بمحمد عليه السلام مكذبون، ولمّا جاء به من التنزيل جاحدون، ويدّعون مع جحودهم ذلك أنهم مهتدون، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، فأكذب الله جل ثناؤه ذلك من قيلهم، بقوله: (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) وأخبر جل ثناؤه عباده أن هذا الكتاب هدى لأهل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، المصدقين بما أنزل إليه، وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى خاصة، دون من كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، وادعى أنه مصدق بمن قبل محمد عليه السلام من الرسل، وبما جاء به من الكتب. ثم أكد جل ثناؤه أمر المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب، المصدقين بمحمد عليه السلام، وبما أنزل إليه وإلى من قبله من الرسل، بقوله: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فأخبر أنهم هم أهل الهدى والفلاح، خاصة دون غيرهم، وأن غيرهم هم أهل الضلال والخسار.

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه:

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله جل ثناؤه بقوله (أولئك على هدى من ربهم) فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الصفتين المتقدمتين، أعنى المؤمنين بالغيب من العرب، والمؤمنين بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى من قبله من الرسل، وإياهم جميعا وصف بأنهم على هدى منه وأنهم هم المفلحون.

ذكر من قال ذلك من أهل التأويل:

حدثنى موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم: أما الذين يؤمنون بالغيب: فهم المؤمنون من العرب؛ والذين يؤمنون بما أنزل إليك: المؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون).

وقال بعضهم : بل عنى بذلك المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، وهم الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد ، وبما أنزل إلى من قبله من الرسل .

وقال آخرون : بل عنى بذلك الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما أنزل إلى من قبله ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ، الذين صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وكانوا مؤمنين من قبل بسائر الأنبياء والكتب .

وعلى هذا التأويل الآخر ، يحتمل أن يكون (ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ) فى محل خفض ، ومحل رفع ؛ فأما الرفع فيه فإنه يأتيها من وجهين : أحدهما من قبل العطف على ما فى (يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ) من ذكر الذين . والثانى أن يكون خبر مبتدأ . ويكون (أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) رافعها . وأما الخفض فعلى العطف على (ٱلْمُتَّقِينَ) وإذا كانت معطوفة على الذين اتجه لها وجهان من المعنى : أحدهما أن تكون هى والذين الأولى من صفة المتقين ، وذلك على تأويل مَنْ رأى أن الآيات الأربع بعد (الٓمٓ) نزلت فى صنف واحد من أصناف المؤمنين . والوجه الثانى أن تكون الذين الثانية معطوفة فى الإعراب على المتقين بمعنى الخفض ، وهم فى المعنى صنف غير الصنف الأول ، وذلك على مذهب من رأى أن الذين نزلت فيهم الآيتان الأولتان من المؤمنين بعد قوله (الٓمٓ) غير الذين نزلت فيهم الآيتان الآخرتان اللتان تليان الأولتين ، وقد يحتمل أن تكون الذين الثانية مرفوعة فى هذا الوجه بمعنى الاستئناف إذ كانت مبتدأ بها بعد تمام آية وانقضاء قصة ، وقد يجوز الرفع فيها أيضا بنية الاستئناف إذ كانت فى مبتدأ آية وإن كانت من صفة المتقين . فالرفع إذا يصح فيها من أربعة أوجه ، والخفض من وجهين .

وأولى التأويلات عندى بقوله : (أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) ما ذكرت من قول ابن مسعود ، وابن عباس . وأن تكون « أولئك » إشارة إلى الفريقين ، أعنى المتقين (وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ) وتكون « أولئك » مرفوعة بالعائد من ذكرهم فى قوله (على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) وأن تكون الذين الثانية معطوفة على ما قبل من الكلام على ما قد بيناه .

وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية ، لأن الله جل ثناؤه نعت الفريقين بنعتهم المحمود ، ثم أثنى عليهم ، فلم يكن عزّ وجل ليخص أحد الفريقين بالثناء ، مع تساويهما فيما استحقا به الثناء من الصفات ، كما غير جائز فى عدله أن يتساويا فيما يستحقان به الجزاء من الأعمال ، فيخص أحدهما بالجزاء دون الآخر ، ويحرم الآخر جزاء عمله . فكذلك سبيل الثناء بالأعمال ؛ لأن الثناء أحد أقسام الجزاء . وأما معنى قوله : (أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) فإن معنى ذلك أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد ، بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم .

كما حدثنى ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) أى على نور من ربهم ، واستقامة على ماجاءهم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) .

وتأويل قوله: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى أولئك هم المنجحون المدركون ماطلبوا عند الله تعالى ذكره ، بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله ، من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنان ، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا ابن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد ابن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى الذين أدركوا ماطلبوا ، ونجوا من شرّ مامنه هربوا .

ومن الدلالة على أن أحد معانى الفلاح إدراك الطلبة والظفر بالحاجة ، قول لبيد بن ربيعة :

اعْقِلِى إنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْقِلِى ... وَلَقَدْ أفْلَحَ مَنْ كانَ عَقَلْ

يعنى ظفر بحاجته وأصاب خيرا ، ومنه قول الراجز :

عَدِمْتُ أُمًّا وَلَدَتْ رَباحاً ... جاءَتْ بِهِ مُفَرْكَحا فِرْكاحا

تَحْسِبُ أنْ قَدْ وَلَدَتْ نَجاحا ... أشْهَدُ لايَزِيدُها فَلاحا

يعنى خيرا وقربا من حاجتها ، والفلاح : مصدر من قولك : أفلح فلان يفلح إفلاحا ، وفلاحا ، وفلحا ؛ والفلاح أيضا البقاء ، ومنه قول لبيد :

نَحِلُّ بلاداً كُلُّها حِلَّ قَبْلَنا ... وَنَرْجُو الفَلاحَ بَعْدَ عادٍ وحِمْيَرِ

يريد البقاء ، ومنه أيضا قول عبيد :

أفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْفِ ... وَقَدْ يُخْدَعُ الأرِيبُ

يريد عش وابق بما شئت ، وكذلك قول نابغة بنى ذبيان :

وكُلُّ فَتًى سَتُشْعِبُهُ شَعُوبُ ... وَإنْ أثْرَى وَإنْ لاقَى فَلاحا

أى نجاحا بحاجته وبقاء .

القول فى تأويل قوله :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)

اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، وفيمن نزلت ؛ فكان ابن عباس يقول : كما حدثنا به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ،عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى بما أنزل إليك من ربك ، وإن قالوا إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك .

وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية ، نزلت فى اليهود الذين كانوا بنواحى المدينة ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توبيخا لهم فى جحودهم نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبهم به ، مع علمهم به ، ومعرفتهم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وإلى الناس كافة .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أوعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، نزل فى رجال سماهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار اليهود ، ومن المنافقين من الأوس والخزرج ، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم .

وقد روى عن ابن عباس ، فى تأويل ذلك قول آخر ، وهو ما حدثنا به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحرص على أن يؤمن جميع الناس ، ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله جل ثناؤه ، أنه لايؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الأول .

وقال آخرون : بما حدثت به عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : آيتان فى قادة الأحزاب (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) إلى قوله (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) قال : وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) قال : فهم الذين قتلوا يوم بدر .

وأولى هذه التأويلات بالآية ، تأويل ابن عباس الذى ذكره محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير عنه ، وإن كان لكل قول مما قاله الذين ذكرنا قولهم فى ذلك مذهب . فأما مذهب من تأول فى ذلك ماقاله الربيع بن أنس ، فهو أن الله تعالى ذكره ، لما أخبر عن قوم من أهل الكفر بأنهم لايؤمنون ، وأن الإنذار غير نافعهم ، ثم كان من الكفار من قد نفعه الله بإنذار النبى صلى الله عليه وسلم إياه ، لإيمانه بالله وبالنبى صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله بعد نزول هذه السورة ، لم يجز أن تكون الآية نزلت إلا فى خاص من الكفار . وإذ كان ذلك كذلك ، وكانت قادة الأحزاب لاشك أنهم ممن لم ينفعه الله عز وجل بإنذار النبى صلى الله عليه وسلم إياه ، حتى قتلهم الله تبارك وتعالى بأيدى المؤمنين يوم بدر ، علم أنهم ممن عنى الله جل ثناؤه بهذه الآية .

وأما علتنا فى اختيارنا ما اخترنا من التأويل فى ذلك ، فهى أن قول الله جل ثناؤه : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) عقيب خبر الله جل ثناؤه عن مؤمنى أهل الكتاب ، وعقيب نعتهم وصفتهم ، وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله ؛ فأولى الأمور بحكمة الله ، أن يتلى ذلك الخبر عن كفارهم ونعوتهم وذمّ أسبابهم وأحوالهم وإظهار شتمهم والبراءة منهم ، لأن مؤمنيهم ومشركيهم ، وإن اختلفت أحوالهم باختلاف أديانهم ، فإن الجنس يجمع جميعهم بأنهم بنو إسرائيل

وإنما احتج الله جل ثناؤه بأول هذه السورة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، على مشركى اليهود من أحبار بنى إسرائيل ، الذين كانوا مع علمهم بنبوّته منكرين نبوّته ، بإظهار نبيه صلى الله عليه وسلم على ما كانت

تُسِرّه الأحبار منهم وتكتمه ، فيجهله عظيم اليهود وتعلمه الأحبار منهم ، ليعلموا أن الذى أطلعه على علم ذلك ، هو الذى أنزل الكتاب على موسى ، إذ كان ذلك من الأمور التى لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم، ولا قومه ولا عشيرته يعلمونه. ولا يعرفونه من قبل نزول الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم ، فيمكنهم ادعاء اللبس فى أمره عليه السلام أنه نبى ، وأن ما جاء به من عند الله ، وأنى يمكنهم ادعاء اللبس فى صدق أمىّ نشأ بين أميين ، لايكتب ولا يقرأ ولا يحسب ، فيقال قرأ الكتب فعلم ، أو حسب فنجم ، وانبعث على أخبار قرّاء كتب ، قد درسوا الكتب ورأسوا الأمم ، يخبرهم عن مستور عيوبهم ، ومصون علومهم ، ومكتوم أخبارهم ، وخفيات أمورهم التى جهلها من هو دونهم من أحبارهم ؟! إن أمر من كان كذلك لغير مشكل ، وإنّ صدقه ـ والحمد لله ـ لبين .

ومما ينبئ عن صحة ما قلنا من أن الذين عنى الله تعالى ذكره بقوله : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) هم أحبار اليهود الذين قُتلوا على الكفر وماتوا عليه ، اقتصاص الله تعالى ذكره نبأهم ، وتذكيره إياهم ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق ، فى أمر محمد عليه السلام ، بعد اقتصاصه تعالى ذكره ما اقتصّ من أمر المنافقين ، واعتراضه بين ذلك بما اعترض به من الخبر عن إبليس وآدم فى قوله : (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) الآيات ، واحتجاجه لنبيه عليهم بما احتجّ به عليهم فيها بعد جحودهم نبوّته ، فإذا كان الخبر أولا عن مؤمنى أهل الكتاب ، وآخرا عن مشركيهم ، فأولى أن يكون وسطا عنهم ، إذ كان الكلام بعضه لبعض تبع ، إلا أن تأتيهم دلالة واضحة بعدول بعض ذلك عما ابتدئ به من معانيه ، فيكون معروفا حينئذ انصرافه عنه .

وأما معنى الكفر فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) فإنه الجحود ، وذلك أن الأحبار من يهود المدينة جحدوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ،وستروه عن الناس وكتموا أمره، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ وأصل الكفر عند العرب تغطية الشيء ،ولذلك سموا الليل كافرا لتغطية ظلمته ما لبسته ، كما قال الشاعر :

فَتَذَكَّرَا ثِقْلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فى كافِرِ

وقال لبيد بن ربيعة :

فى لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

يعنى غطاها . فكذلك الأحبار من اليهود، غطوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتموه الناس ، مع علمهم بنبوّته ووجودهم صفته فى كتبهم ، فقال الله جل ثناؤه فيهم :(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فى الكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ) وهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ)

وتأويل سواء: معتدل، مأخوذ من التساوى، كقولك: متساو هذان الأمران عندى، وهما عندى سواء: أى هما متعادلان عندى. ومنه قول الله جل ثناؤه: «فانبِذْ إليهم على سَواءٍ» يعنى أعلمهم وآذِنْهم بالحرب، حتى يستوى علمك وعلمهم بما عليه كل فريق منهم للفريق الآخر، فكذلك قوله (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ) معتدل عندهم أىّ الأمرين كان منك إليهم، الإنذار أم ترك الإنذار، لأنهم كانوا لايؤمنون، وقد ختمت على قلوبهم وسمعهم، ومن ذلك قول عبد الله بن قيس الرقيات:

تَغِذُّ بِيَ الشَّهْبَاءُ نَحْوَ ابْنِ جَعْفَرٍ ... سَوَاءٌ عَلَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا

يعنى بذلك معتدل عندها السير فى الليل والنهار، لأنه لافتور فيه. ومنه قول الآخر:

وَلَيْلٍ يَقُولُ المَرْءُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ ... سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ العُيُونِ وَعُورُهَا

لأن الصحيح لايبصر فيه إلا بصرا ضعيفا من ظلمته.

وأما قوله: (أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) فإنه ظهر به الكلام ظهور الاستفهام وهو خبر، لأنه وقع موقع أى، كما تقول: لاتبالى أقمت أم قعدت، وأنت مخبر لامستفهم. لوقوع ذلك موقع أى. وذلك أن معناه إذا قلت ذلك: مانبالى أىّ هذين كان منك، فكذلك ذلك فى قوله (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ) لما كان معنى الكلام سواء عليهم أىّ هذين كان منك إليهم، حسن فى موضعه مع سواء أفعلت أم لم تفعل.

وقد كان بعض نحويى أهل البصرة، يزعم أن حرف الاستفهام إنما دخل مع سواء وليس باستفهام، لأن المستفهم إذا استفهم غيره، فقال: أزيد عندك أم عمرو، مستثبت صاحبه أيهما عنده، فليس أحدهما أحق بالاستفهام من الآخر، فلما كان قوله (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ) بمعنى التسوية، أشبه ذلك الاستفهام إذ أشبهه فى التسوية، وقد بينا الصواب فى ذلك. فتأويل الكلام إذا: معتدل يامحمد على هؤلاء الذين جحدوا نبوّتك من أحبار يهود المدينة بعد علمهم بها، وكتموا بيان أمرك للناس بأنك رسولى إلى خلقى، وقد أخذتُ عليهم العهد والميثاق أن لايكتموا ذلك، وأن يبينوه للناس ويخبروهم أنهم يجدون صفتك فى كتبهم، أأنذرتهم أم لم تنذرهم فإنهم لا يؤمنون، ولا يرجعون إلى الحقّ، ولا يصدقون بك وبما جئتهم به.

كما حدثنا محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) أى أنهم قد كفروا بما عندهم من العلم من ذكر وجحد. وما أخذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك؟

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾

وأصل الختم : الطبع ، والخاتم : هو الطابع ؛ يقال منه ختمت الكتاب : إذا طبعته .

فإن قال لنا قائل : وكيف يختم على القلوب ، وإنما الختم طبع على الأوعية والظروف والغلف ؟ قيل : فإن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم ، وظروف لما جعل فيها من المعارف بالأمور ؛ فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع التى بها تدرك المسموعات ، ومن قِبَلها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المغيبات ، نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف .

فإن قال : فهل لذلك من صفة تصفها لنا فنفهمها ؟ أهى مثل الختم الذى يعرف لما ظهر للأبصار ، أم هى بخلاف ذلك ؟ قيل : قد اختلف أهل التأويل فى صفة ذلك ، وسنخبر بصفته بعد ذكرنا قولهم .

فحدثنى عيسى بن عثمان بن عيسى الرملى ، قال : حدثنا يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، قال : أرانا مجاهدٌ بيده ، فقال : كانوا يرون أن القلب فى مثل هذا - يعنى الكف - فإذا أذنب العبد ذنبا ضم منه - وقال بأصبعه الخنصر هكذا - فإذا أذنب ضم - وقال بأصبع أخرى - فإذا أذنب ضم - وقال بأصبع أخرى هكذا - حتى ضم أصابعه كلها . قال : ثم يطبع عليه بطابع . قال مجاهد : وكانوا يرون أن ذلك الرَّيْن .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، قال : القلب مثل الكف ، فإذا أذنب ذنبا قبض أصبعا ، حتى يقبض أصابعه كلها ، وكان أصحابنا يرون أنه الران .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، قال : حدثنا ابن جريج ، قال : قال مجاهد : نبئت أن الذنوب على القلب ، تحف به من نواحيه حتى تلتقى عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع : الختم . قال ابن جريج : الختم : ختم على القلب والسمع .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : حدثنى عبد الله ابن كثير ، أنه سمع مجاهدا يقول : الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الإقفال ، والإقفال أشد ذلك كله .

وقال بعضهم : إنما معنى قوله (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ) إخبار من الله جل ثناؤه عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال إن فلانا لأصم عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا .

والحق فى ذلك عندى ، ماصحّ بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهوما حدثنا به محمد ابن بشار ، قال : حدثنا صفوان بن عيسى ، قال : حدثنا ابن عجلان ، عن القعقاع ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ المُؤْمِنَ إذَا أذْنَبَ ذَنْبًا كانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فى قَلْبِهِ ، فإنْ تابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبَهُ . فإنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَغْلَفَ قَلْبَهُ ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِى قالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : (كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانُوا

يَكْسِبُونَ) . فأخبر صلى الله عليه وسلم، أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر منها مخلص ، فذلك هو الطبع والختم الذى ذكره الله تبارك وتعالى فى قوله : (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَعلى سَمْعِهِمْ) نظير الطبع والختم على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف ، التى لايوصل إلى مافيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لايصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم ، إلا بعد فضه خاتمه ، وحله رباطه عنها .

ويقال لقائلى القول الثانى ، الزاعمين أن معنى قوله جل ثناؤه (خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وَعلى سَمْعِهِمْ) هو وصفهم بالاستكبار والإعراض عن الذى دعوا إليه من الإقرار بالحق تكبرا : أخبرونا عن استكبار الذين وصفهم الله جل ثناؤه بهذه الصفة ، وإعراضهم عن الإقرار بما دعوا إليه من الإيمان وسائر المعانى اللواحق به ، أفعلٌ منهم ، أم فعل من الله تعالى ذكره بهم ؟ فإن زعموا أن ذلك فعل منهم وذلك قولهم ، قيل لهم : فإن الله تبارك وتعالى قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وسمعهم ، وكيف يجوز أن يكون إعراض الكافر عن الإيمان وتكبره عن الإقرار به — وهو فعله عندكم — ختما من الله على قلبه وسمعه، وختمه على قلبه وسمعه ؟ فعل الله عز وجل دون فعل الكافر ؟ فإن زعموا أن ذلك جائز أن يكون كذلك ، لأن تكبره وإعراضه كانا عن ختم الله على قلبه وسمعه، فلما كان الختم سببا لذلك جاز أن يسمى مسببه به ، تركوا قولهم، وأوجبوا أن الختم من الله على قلوب الكفار وأسماعهم، معنى غير كفر الكافر، وغير تكبره وإعراضه عن قبول الإيمان والإقرار به ، وذلك دخول فيما أنكروه .

وهذه الآية من أوضح الأدلة على فساد قول المنكرين تكليف مالا يطاق إلا بمعونة الله ، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه ختم على قلوب صنف من كفار عباده وأسماعهم، ثم لم يسقط التكليف عنهم، ولم يضع عن أحد منهم فرائضه ، ولم يعذره فى شيء مما كان منه من خلاف طاعته، بسبب مافعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه ، بل أخبر أن لجميعهم منه عذابا عظيما ، على تركهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه، مع حتمه القضاء عليهم مع ذلك بأنهم لايؤمنون .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

وقوله (وَعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) خبر مبتدأ بعد تمام الخبر عما ختم الله جل ثناؤه عليه من جوارح الكفار الذين مضت قصصهم ، وذلك أن (غِشَاوَةٌ) مرفوعة بقوله (وَعلى أَبْصَارِهِمْ) فذلك دليل على أنه خبر مبتدأ، وأن قوله (خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ) قد تناهى عند قوله (وَعلى سَمْعِهِمْ) وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا لمعنيين : أحدهما اتفاق الحجة من القراء والعلماء على الشهادة بتصحيحها ، وانفراد المخالف لهم فى ذلك وشذوذه عما هم على تخطئته مجمعون ، وكفى بإجماع الحجة على تخطئة قراءته شاهدا على خطئها . والثانى أن الختم غير موصوفة به العيون فى شيء من كتاب الله ، ولا فى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا موجود فى لغة أحد من العرب ، وقد قال تبارك وتعالى فى سورة أخرى : (وَخَتَمَ على

سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) ثم قال: (وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً) فلم يدخل البصر فى معنى الختم ، وذلك هو المعروف فى كلام العرب ؛ فلم يجز لنا ولا لأحد من الناس القراءة بنصب الغشاوة لما وصفت من العلتين اللتين ذكرت ، وإن كان لنصبها مخرج معروف فى العربية . وبما قلنا فى ذلك من القول والتأويل ، روى الخبر عن ابن عباس .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى الحسين بن الحسن ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، والغشاوة على أبصارهم .

فإن قال قائل: وما وجه مخرج النصب فيها ؟ قيل له : إن نصبها بإضمار « جعل » كأنه قال: وجعل على أبصارهم غشاوة ثم أسقط « جعل » إذ كان فى أول الكلام مايدل عليه، وقد يحتمل نصبها على إتباعها موضع السمع إذ كان موضعه نصبا، وإن لم يكن حسنا إعادة العامل فيه على غشاوة ، ولكن على إتباع الكلام بعضه بعضا ، كما قال تعالى ذكره : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وأباريقَ) ثم قال : (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٍ عِينٍ) فخفض اللحم والحور على العطف به على الفاكهة إتباعا لآخر الكلام أوله ، ومعلوم أن اللحم لايطاف به ولا بالحور ، ولكن ذلك كما قال الشاعر يصف فرسه :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

ومعلوم أن الماء يشرب ولا يعلف به ، ولكنه نصب ذلك على ماوصفت قبل ، وكما قال الآخر :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ فى الوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً

وكان ابن جريج يقول فى انتهاء الخبر عن الختم، إلى قوله (وَعَلَى سَمْعِهِمْ) وابتداء الخبر بعده. بمثل الذى قلنا فيه . ويتأول فيه من كتاب الله (فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ) .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : حدثنا ابن جريج ، قال : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى ذكره : (فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ) وقال: (وخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً) والغشاوة فى كلام العرب: الغطاء ، ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص :

تَبِعْتُكَ إِذْ عَيْنِى عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِى أَلُومُهَا

ومنه يقال : تغشاه الهمّ : إذا تجلله وركبه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

هَلَّا سَأَلْتِ بَنِى ذُبْيَانَ مَا حَسَبِى إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَرِمَا

يعنى بذلك إذا تجلله وخالطه .

وإنما أخبر الله تعالى ذكره ، نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، عن الذين كفروا به من أحبار اليهود ، أنه قد ختم على قلوبهم وطبع عليها ، فلا يعقلون لله تبارك وتعالى موعظة وعظهم بها فيما آتاهم من علم

ماعندهم من كتبه ، وفيما حدّد فى كتابه الذى أوحاه وأنزله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى سمعهم فلا يسمعون من محمد صلى الله عليه وسلم نبيّ الله تحذيرا ولا تذكيرا ، ولا حجة أقامها عليهم بنبوّته ، فيتذكروا ويحذروا عقاب الله عز وجل ، فى تكذيبهم إياه ، مع علمهم بصدقه وصحة أمره ، وأعلمه مع ذلك أن على أبصارهم غشاوة ، عن أن يبصروا سبيل الهدى ، فيعلموا قبح ماهم عليه من الضلالة والردى .

وبنحو ما قلنا فى ذلك روى الخبر عن جماعة من أهل التأويل .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أبْصَارِهِمْ غِشاوَةٌ) أى عن الهدى أن يصيبوه أبدا بغير ماكذبوك به من الحقّ الذى جاءك من ربك ، حتى يؤمنوا به ، وإن آمنوا بكل ما كان قبلك .

حدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ) يقول : فلا يعقلون ، ولا يسمعون ، ويقول : وجعل على أبصارهم غشاوة ، يقول : على أعينهم فلا يبصرون .

وأما آخرون فإنهم كانوا يتأوّلون أن الذين أخبر الله عنهم من الكفار أنه فعل ذلك بهم ، هم قادة الأحزاب الذين قتلوا يوم بدر .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : هاتان الآيتان إلى (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) هم (الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وأحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ) وهم الذين قتلوا يوم بدر ، فلم يدخل من القادة أحد فى الإسلام إلا رجلان : أبو سفيان بن حرب ، والحكم بن أبى العاص .

وحُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، قال : أما القادة فليس فيهم مجيب ، ولا ناج ، ولا مهتد ؛ وقد دللنا فيما مضى على أولى هذين التأويلين بالصواب كرهنا إعادته .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وتأويل ذلك عندى كما قاله ابن عباس وتأوّله .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ولهم — بما هم عليه من خلافك — عذاب عظيم ، قال : فهذا فى الأحبار من يهود ، فيما كذّبوك به من الحق الذى جاءك من ربك بعد معرفتهم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)

قال أبو جعفر : أما قوله (وَمِنَ النَّاسِ) فإن فى « الناس » وجهين : أحدهما أن يكون جمعا لا واحد له من لفظه ، وإنما واحده إنسان وواحدته إنسانة . والوجه الآخر : أن يكون أصله أناس أسقطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها ، ثم دخلتها الألف واللام المعرّفتان ، فأدغمت اللام التى دخلت مع الألف فيها للتعريف فى النون ، كما قيل فى (لكنَّ هُوَ اللهُ رَبِّي) على ماقد بينا فى اسم الله الذى هو الله .

وقد زعم بعضهم ، أن الناس لغة غير أناس ، وأنه سمع العرب تصغره نويس من الناس ، وأن الأصل لو كان أناس لقيل فى التصغير : أنيس ، فرد إلى أصله .

وأجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت فى قوم من أهل النفاق ، وأن هذه الصفة صفتهم .

ذكر بعض من قال ذلك من أهل التأويل بأسمائهم :

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم . وقد سمى فى حديث ابن عباس هذا أسماؤهم ، عن أبى بن كعب ، غير أنى تركت تسميتهم كراهة إطالة الكتاب بذكرهم .

حدثنا الحسين بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) حتى بلغ (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) قال : هذه فى المنافقين .

حدثنا محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : هذه الآية إلى ثلاث عشرة فى نعت المنافقين .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا سفيان ، قال : حدثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط عن إسمعيل السدّى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرّة ، وعن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) هم المنافقون .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، فى قوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) إلى (فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قال : هؤلاء أهل النفاق .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج فى قوله : (وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) قال : هذا المنافق ، يخالف قوله فعله ، وسرّه علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه .

وتأويل ذلك أن الله جل ثناؤه لما جمع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمره فى دار هجرته، واستقرّ بها قراره، وأظهر الله بها كلمته ، وفشا فى دور أهلها الإسلام ، وقهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان ، وذلّ بها من فيها من أهل الكتاب ، أظهر أحبار يهودها لرسول الله صلى الله عليه وسلم الضغائن ، وأبدوا له العداوة والشنآن ، حسدا وبغيا ، إلا نفرا منهم ، هداهم الله للإسلام فأسلموا ، كما قال جل ثناؤه : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) وطابقهم سرّا على معاداة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وبغيهم الغوائل قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه، وكانوا قد عتوا فى شركهم وجاهليتهم ، قد سموا لنا بأسمائهم ، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم . وظاهروهم على ذلك فى خفاء غير جهار ، حذار القتل على أنفسهم ، والسباء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وركونا إلى اليهود ، لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام ، فكانوا إذا لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به من أصحابه ، قالوا لهم حذارا على أنفسهم : إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث ، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق ليدرءوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ماهم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ماهم معتقدوه من شركهم ، وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، فخلوا بهم ، قالوا : (إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) فإياهم عنى جل ذكره، بقوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) يعنى بقوله تعالى خبرا عنهم : آمنا بالله وصدقنا بالله . وقد دللنا على أن معنى الإيمان التصديق فيما مضى قبل من كتابنا هذا . وقوله (وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) يعنى بالبعث يوم القيامة ، وإنما سمى يوم القيامة اليوم الآخر : لأنه آخر يوم ، لايوم بعده سواه .

فإن قال قائل : وكيف لايكون بعده يوم ، ولا انقطاع للآخرة ولا فناء ولا زوال ؟ .

قيل إن اليوم عند العرب ، إنما سمى يوما بليلته التى قبله ، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يسمّ يوما ، فيوم القيامة يوم لاليل له بعده سوى الليلة التى قامت فى صبيحتها القيامة ، فذلك اليوم هو آخر الأيام ، ولذلك سماه الله جل ثناؤه اليوم الآخر ، ونعته بالعقيم ، ووصفه بأنه يوم عقيم لأنه لاليل بعده .

وأما تأويل قوله: (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) ونفيه عنهم جل ذكره اسم الإيمان، وقد أخبر عنهم أنهم قد قالوا بألسنتهم آمنا بالله وباليوم الآخر . فإن ذلك من الله جل وعز تكذيب لهم فيما أخبروا عن اعتقادهم من الإيمان ، والإقرار بالبعث ، وإعلام منه نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن الذى يبدونه له بأفواههم خلاف ما فى ضمائر قلوبهم ، وضد ما فى عزائم نفوسهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على بطول مازعمته الجهمية من أن الإيمان هو التصديق بالقول دون سائر المعانى غيره ، وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم

فى كتابه من أهل النفاق أنهم قالوا بألسنتهم (آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) ثم نفى عنهم أن يكونوا مؤمنين ، إذ كان اعتقادهم غير مصدق قيلهم ذلك ، وقوله (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) يعنى بمصدقين فيما يزعمون أنهم به مصدقون .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)

قال أبو جعفر : وخداع المنافق ربه والمؤمنين ، إظهاره بلسانه من القول والتصديق ، خلاف الذى فى قلبه من الشك والتكذيب ليدرأ عن نفسه ـ بما أظهر بلسانه ـ حكم الله عز وجل ، اللازم من كان بمثل حاله من التكذيب ، لو لم يظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار من القتل والسباء ، فذلك خداعه ربه وأهل الإيمان بالله .

فإن قال قائل : وكيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعا ، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية ؟ قيل : لا تمتنع العرب أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى هو فى ضميره تقية ، لينجو مما هو له خائف ، فنجا بذلك مما خافه ، مخادعا لمن تخلص منه بالذى أظهر له من التقية ، فكذلك المنافق سمى مخادعا لله وللمؤمنين ، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية مما تخلص به من القتل والسباء والعذاب العاجل ، وهو لغير ما أظهر مستبطن ، وذلك من فعله ـ وإن كان خداعا للمؤمنين فى عاجل الدنيا ـ فهو لنفسه بذلك من فعله خادع ، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو موردها به حياض عطبها ، ومجرّعها به كأس عذابها ، ومذيقها من غضب الله وأليم عقابه مالاقبل لها به ، فذلك خديعته نفسه ظنا منه ـ مع إساءته إليها فى أمر معادها ـ أنه إليها محسن ، كما قال جل ثناؤه : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) إعلاما منه عباده المؤمنين ، أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسخاطهم ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم ، غير شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون .

وبنحو ماقلنا فى تأويل ذلك كان ابن زيد يقول : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت عبد الرحمن بن زيد ، عن قول الله جل ذكره : (يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) إلى آخر الآية . قال : هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا ، أنهم مؤمنون بما أظهروا .

وهذه الآية من أوضح الدليل على تكذيب الله جل ثناؤه ، قول الزاعمين : إن الله لا يعذب من عباده إلا من كفر به عنادا بعد علمه بوحدانيته ، وبعد تقرّر صحة ماعاند ربه تبارك وتعالى عليه من توحيده والإقرار بكتبه ورسله عنده ، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عن الذين وصفهم بما وصفهم به من النفاق وخداعهم إياه والمؤمنين ، أنهم لا يشعرون أنهم مبطلون فيما هم عليه من الباطل مقيمون ، وأنهم بخداعهم الذى يحسبون أنهم به يخادعون ربهم وأهل الإيمان به مخدوعون . ثم أخبر تعالى ذكره أن لهم عذابا أليما بتكذيبهم بما كانوا يكذبون من نبوّة نبيه واعتقاد الكفر به ، وبما كانوا يكذبون فى زعمهم أنهم مؤمنون ، وهم على الكفر مصرّون .

فإن قال لنا قائل : قد علمت أن المفاعلة لاتكون إلا من فاعلين ، كقولك : ضاربت أخاك ، وجالست أباك،إذا كان كل واحد مجالس صاحبه ومضاربه . فأما إذا كان الفعل من أحدهما فإنما يقال ضربت أخاك وجلست إلى أبيك ؛ فمن خادع المنافق فجاز أن يقال فيه خادع الله والمؤمنين ؟ . قيل : قد قال بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب · إن ذلك حرف جاء بهذه الصورة،أعنى يخادع بصورة يفاعل، وهو بمعنى يفعل فى حروف أمثالها شاذّة من منطق العرب ، نظير قولهم : قاتلك الله ، بمعنى قتلك الله .

وليس القول فى ذلك عندى كالذى قال ، بل ذلك من التفاعل الذى لايكون إلا من اثنين ، كسائر مايعرف من معنى يفاعل ومفاعل فى كل كلام العرب ،وذلك أن المنافق يخادع الله جل ثناؤه ،بكذبه بلسانه على ماقد تقدم وصفه، والله تبارك اسمه ،خادعه بخذلانه عن حسن البصيرة ،بما فيه نجاة نفسه فى آجل معاده كالذىأخبر فى قوله :(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) وبالمعنى الذى أخبر أنه فاعل به فى الآخرة بقوله :(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) الآية ، فذلك نظير سائر ما يأتى من معانى الكلام بيفاعل ومفاعل . وقد كان بعض أهل النحو من أهل البصرة يقول : لاتكون المفاعلة إلا من شيئين ، ولكنه إنما قيل : يخادعون الله عند أنفسهم بظنهم أن لايعاقبوا ، فقد علموا خلاف ذلك فى أنفسهم بحجة الله تبارك اسمه الواقعة على خلقه بمعرفته (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) قال : وقد قال بعضهم : وما يخدعون ، يقول : يخدعون أنفسهم بالتخلية بها ، وقد تكون المفاعلة من واحد فى أشياء كثيرة .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)

إن قال لنا قائل : أوليس المنافقون قد خدعوا المؤمنين بما أظهروا بألسنتهم من قيل الحقّ ، عن أنفسهم وأموالهم وذراريهم ،حتى سلمت لهم دنياهم ،وإن كانوا قدكانوا مخدوعين فى أمر آخرتهم؟ قيل:خطأ أن يقال إنهم خدعوا المؤمنين ، لأنا إذا قلنا ذلك أوجبنا لهم حقيقة خدعة جاءت لهم على المؤمنين ، كما أنا لو قلنا : قتل فلان فلانا ، أوجبنا له حقيقة قتل كان منه لفلان ، ولكنا نقول: خادع المنافقون ربهم والمؤمنين ، ولم يخدعوهم بل خدعوا أنفسهم كما قال جل ثناؤه دون غيرها ، نظير ما تقول فى رجل قاتل آخر فقتل نفسه ولم يقتل صاحبه : قاتل فلان فلانا ولم يقتل إلا نفسه ، فتوجب له مقاتلة صاحبه ، وتنفى عنه قتله صاحبه ، وتوجب له قتل نفسه . فكذلك تقول : خادع المنافق ربه والمؤمنين ، ولم يخدع إلا نفسه ، فتثبت منه مخادعة ربه والمؤمنين ، وتنفى عنه أن يكون خدع غير نفسه ، لأن الخادع هو الذى قد صحت له الخديعة ووقع منه فعلها . فالمنافقون لم يخدعوا غير أنفسهم ، لأن ما كان لهم من مال وأهل، فلم يكن المسلمون ملكوه عليهم فى حال خداعهم إياه عنه بنفاقهم ولا قبلها ، فيستنقذوه بخداعهم منهم ، وإنما دافعوا عنه بكذبهم ، وإظهارهم بألسنتهم غير الذى فى ضمائرهم ، ويحكم الله لهم فى أموالهم وأنفسهم وذراريهم فى ظاهر أمورهم بحكم ما انتسبوا إليه من الملة ، والله بما يخفون من أمورهم عالم ؛ وإنما الخادع من ختل غيره عن شيئه ، والمخدوع غير عالم بموضع خديعة خادعه . فأما والمخادَعُ عارف بخداع صاحبه إياه ، وغير لاحقه

من خداعه إياه مكروه ، بل إنما يتجافى للظان به أنه له مخادع ، استدراجا ليبلغ غاية يتكامل له عليه الحجة للعقوبة التى هو بها موقع عند بلوغه إياها . والمستدرَج غير عالم بحال نفسه عند مستدرِجه ، ولا عارف باطلاعه على ضميره . وأن إمهال مستدرِجه وتركه إياه معاقبته على جرمه ليبلغ المخاتل المخادع من استحقاقه عقوبة مستدرجه بكثرة إساءته وطول عصيانه إياه وكثرة صفح المستدرِج وطول عفوه عنه أقصى غاية ، فإنما هو خادع نفسه لاشك دون من حدثته نفسه أنه له مخادع ، ولذلك نفى الله جل ثناؤه عن المنافق أن يكون خدع غير نفسه ، إذ كانت الصفة التى وصفنا صفته ، وإذ كان الأمر على ماوصفنا من خداع المنافق ربه وأهل الإيمان به ، وأنه غير صائر بخداعه ذلك إلى خديعة صحيحة إلا لنفسه دون غيرها ، لما يورّطها بفعله من الهلاك والعطب . فالواجب إذا أن يكون الصحيح من القراءة (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ) دون : وما يخادعون . لأن لفظ المخادع غير موجب تثبيت خديعة على صحة ، ولفظ خادع موجب تثبيت خديعة على صحة . ولا شك أن المنافق قد أوجب خديعة الله عز وجل لنفسه ، بما ركب من خداعه ربه ورسوله والمؤمنين بنفاقه . فلذلك وجبت الصحة لقراءة من قرأ (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ) .

ومن الدلالة أيضا على أن قراءة من قرأ (وَمَا يَخْدَعُونَ) أولى بالصحة من قراءة من قرأ وما يخادعون ، أن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يخادعون الله والمؤمنين فى أول الآية ، فمحال أن ينفى عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه ، لأن ذلك تضادٌّ فى المعنى ، وذلك غير جائز من الله جل وعز .

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه : (وَمَا يَشْعُرُونَ)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَمَا يَشْعُرُونَ) : وما يدرون ، يقال : ماشعر فلان بهذا الأمر ، وهو لايشعر به ، إذا لم يدر ولم يعلم ، شعرا وشعورا ، كما قال الشاعر :

عَقّوا بِسَهْمٍ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ ... ثُمَّ اسْتَفَاءُوا وَقَالُوا حَبَّذَا الْوَضَحُ

يعنى بقوله : لم يشعر به : لم يدر به أحد ولم يعلم . فأخبر الله تعالى ذكره عن المنافقين ، أنهم لايشعرون بأن الله خادعهم بإملائه لهم واستدراجه إياهم الذى هو من الله جل ثناؤه إبلاغ إليهم فى الحجة والمعذرة ، ومنهم لأنفسهم خديعة ، ولها فى الآجل مضرّة .

كالذى حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت ابن زيد عن قوله : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) قال : ما يشعرون أنهم ضرّوا أنفسهم بما أسرّوا من الكفر والنفاق ، وقرأ قول الله (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً) قال : هم المنافقون ، حتى بلغ (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ) قد كان الإيمان ينفعهم عندكم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

وأصل المرض : السقم ، ثم يقال ذلك فى الأجساد والأديان ، فأخبر الله جل ثناؤه ، أن فى قلوب المنافقين

مرضا ؛ وإنما عنى تبارك وتعالى بخبره عن مرض قلوبهم ، الخبر عن مرض ما فى قلوبهم من الاعتقاد .

ولكن لما كان معلوما بالخبر عن مرض القلب، أنه معنىٌّ به مرض ماهم معتقدوه من الاعتقاد. استغنى بالخبر عن القلب بذلك ، والكناية عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم ، كما قال عمر بن لجأ :

وَسَبَّحَتِ المَدِينَةُ لاتَلُمْها　　رأتْ قَمَرًا بِسُوقِهِمُ نَهارَا

يريد وسبح أهل المدينة ، فاستغنى بمعرفة السامعين خبره ، بالخبر عن المدينة عن الخبر عن أهلها . ومثله قول عنترة العبسىّ :

هَلاَّ سأَلْتِ الخَيْلَ يا ابْنَةَ مالكٍ　　إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِى

يريد : هلا سألت أصحاب الخيل ؟ ومنه قولهم : يا خيل الله اركبى ، يراد يا أصحاب خيل الله اركبوا .

والشواهد على ذلك أكثر من أن يحصيها كتاب ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه . فكذلك معنى قول الله جل ثناؤه (فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) إنما يعنى : فى اعتقاد قلوبهم الذى يعتقدونه فى الدين، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله ، مرض وسقم، فاجتزأ بدلالة الخبر عن قلوبهم، على معناه عن تصريح الخبر عن اعتقادهم . والمرض الذى ذكر الله جل ثناؤه أنه فى اعتقاد قلوبهم الذى وصفناه . هو شكهم فى أمر محمد ، وما جاء به من عند الله وتحيرهم فيه ، فلاهم به موقنون إيقان إيمان، ولاهم له منكرون إنكار إشراك ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل ، مذبذبون بين ذلك ، لاإلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، كما يقال : فلان تمرَّضَ فى هذا الأمر : أى يضعف العزم ولا يصحح الروية فيه . وبمثل الذى قلنا فى تأويل ذلك ظاهر القرل فى تفسيره من المفسرين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن حميد، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أى شكٌّ .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس، قال : المرض : النفاق .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) يقول : فى قلوبهم شك .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : قال عبد الرحمن بن زيد ، فى قوله (فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) قال : هذا مرض فى الدين وليس مرضا فى الأجساد ، قال : هم المنافقون .

حدثنى المثنى بن إبراهيم قال : حدثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك قراءة عن سعيد ، عن قتادة ، فى قوله (فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ) قال : فى قلوبهم ريبة وشك فى أمر الله جل ثناؤه .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (فِى قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ) قال : هؤلاء أهل النفاق ، والمرض الذى فى قلوبهم : الشكّ فى أمر الله تعالى ذكره .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) حتى بلغ (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) قال : المرض : الشك الذى دخلهم فى الإسلام .

القول فى تأويل قوله جلّ ثناؤه : (فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا)

قد دللنا آنفا على أن تأويل المرض الذى وصف الله جل ثناؤه أنه فى قلوب المنافقين ، هو الشكّ فى اعتقادات قلوبهم وأديانهم ، وما هم عليه فى أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر نبوّته وما جاء به ، مقيمون .

فالمرض الذى أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنه زادهم على مرضهم ، هو نظير ما كان فى قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة ، فزاد الله بما أحدث من حدوده وفرائضه ، التى لم يكن فرضها قبل الزيادة التى زادها ، المنافقين من الشك والحيرة ، إذ شكوا وارتابوا فى الذى أحدث لهم من ذلك ، إلى المرض والشك الذى كان فى قلوبهم فى السالف من حدوده وفرائضه التى كان فرضها قبل ذلك ، كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذى كانوا عليه قبل ذلك ، بالذى أحدث لهم من الفرائض والحدود ، إذ آمنوا به إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه . إيمانا كالذى قال جل ثناؤه فى تنزيله : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) فالزيادة التى زيدها المنافقون من الرجاسة إلى رجاستهم هو ما وصفنا ، والزيادة التى زيدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينا ، وذلك هو التأويل المجمع عليه .

ذكر بعض من قال ذلك من أهل التأويل :

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا) قال : شكا .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : أخبرنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا) يقول : فزادهم الله ريبة وشكا .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك قراءة عن سعيد ، عن قتادة (فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا) يقول : فزادهم الله ريبة وشكا فى أمر الله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا) قال : زادهم رجسا ، وقرأ قول الله عز وجلّ : (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ

إيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وأمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ) قال شرّاً إلى شرّهم ، وضلالة إلى ضلالتهم .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا) قال : زادهم الله شكا .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

قال أبو جعفر : والأليم : هو الموجع ، ومعناه : ولهم عذاب مؤلم ، فصرف مؤلم إلى أليم ، كما يقال ضرب وجيع بمعنى موجع ؛ والله بديع السموات والأرض، بمعنى مبدع . ومنه قول عمرو بن معديكرب الزبيدى :

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِى السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِى وأَصْحَابِى هُجُوعُ

بمعنى المسمع ، ومنه قول ذى الرمة :

وَيَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَرْدَلاتٍ ... يَصُدُّ وُجُوهَهَا وَهَجٌ أَلِيمُ

ويروى يصك، وإنما الأليم صفة للعذاب كأنه قال: ولهم عذاب مؤلم،وهو مأخوذ من الألم، والألم: الوجع .

كما حدثنى المثنى ، قال: حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ،عن الربيع ، قال: الأليم : الموجع .

حدثنا يعقوب ، قال : حدثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك ، قال : الأليم : الموجع .

وحدثت عن المنجاب بن الحارث ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك فى قوله (أَلِيمٌ) قال : هو العذاب الموجع ، وكل شىء فى القرآن من الأليم فهو الموجع .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم : (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) مخففة الذال مفتوحة الياء ، وهى قراءة معظم أهل الكوفة ؛ وقرأه آخرون (يُكَذِّبُونَ) بضم الياء وتشديد الذال ، وهى قراءة معظم أهل المدينة والحجاز والبصرة . وكأنّ الذين قرءوا ذلك بتشديد الذال وضم الياء ، رأوا أن الله جل ثناؤه إنما أوجب للمنافقين العذاب الأليم ، بتكذيبهم نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وأن الكذب لولا التكذيب، لايوجب لأحد اليسير من العذاب، فكيف بالأليم منه ؟

وليس الأمر فى ذلك عندى كالذى قالوا ، وذلك أن الله عزّ وجلّ أنبأ عن المنافقين فى أول النبأ عنهم فى هذه السورة ، بأنهم يَكْذِبون بدعواهم الإيمان ،وإظهارهم ذلك بألسنتهم خداعا لله عزّ وجل ولرسوله وللمؤمنين ، فقال : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) بذلك من قيلهم مع استسرارهم الشك والريبة ، وما يخدعون بصنيعهم ذلك إلا أنفسهم، دون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وما يشعرون بموضع خديعتهم أنفسهم، واستدراج الله عزّ وجل إياهم بإملائه لهم ، فى قلوبهم شك : أى نفاق وريبة ، والله زائدهم شكا وريبة ،

بما كانوا يَكْذِبون الله ورسوله والمؤمنين بقولهم بألسنتهم: (آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) وهم فى قيلهم ذلك كذبة، لاستسرارهم الشك والمرض فى اعتقادات قلوبهم، فى أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

فأولى فى حكمة الله جل جلاله أن يكون الوعيد منه لهم على ما افتتح به الخبر عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم، دون مالم يجز له ذكر من أفعالهم؛ إذ كان سائر آيات تنزيله بذلك نزل، وهو أن يفتتح ذكر محاسن أفعال قوم، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذكره من أفعالهم، ويفتتح ذكر مساوى أفعال آخرين، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما ابتدأ به ذكره من أفعالهم، فكذلك الصحيح من القول فى الآيات التى افتتح فيها ذكر بعض مساوى أفعال المنافقين أن يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذكره من قبائح أفعالهم، فهذا مع دلالة الآية الأخرى على صحة ما قلنا، وشهادتها بأن الواجب من القراءة ما اخترنا، وأن الصواب من التأويل ما تأولنا، من أن وعيد الله المنافقين فى هذه الآية العذاب الأليم، على الكذب الجامع معنى الشك والتكذيب، وذلك قول الله تبارك وتعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) والآية الأخرى فى المجادلة: (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) فأخبر جل ثناؤه، أن المنافقين - بقيلهم ماقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مع اعتقادهم فيه ماهم معتقدون - كاذبون، ثم أخبر تعالى ذكره أن العذاب المهين لهم على ذلك من كذبهم؛ ولو كان الصحيح من القراءة على ماقرأه القارئون فى سورة البقرة (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ) لكانت القراءة فى السورة الأخرى: والله يشهد إن المنافقين لمكذّبون، ليكون الوعيد لهم الذى هو عقيب ذلك وعيدا على التكذيب، لا على الكذب.

وفى إجماع المسلمين على أن الصواب من القراءة فى قوله (وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) بمعنى الكذب، وأن إيعاد الله تبارك وتعالى فيه المنافقين العذاب الأليم على ذلك من كذبهم، أوضح الدلالة على أن الصحيح من القراءة فى سورة البقرة (بما كانوا يَكْذِبون) بمعنى الكذب، وأن الوعيد من الله تعالى ذكره للمنافقين فيها على الكذب حق، لا على التكذيب الذى لم يجر له ذكر، نظير الذى فى سورة المنافقين سواء.

وقد زعم بعض نحويى البصرة، أن «ما» من قول الله تبارك اسمه (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) اسم للمصدر، كما أن «أنْ» والفعل اسمان للمصدر فى قولك: أحبّ أن تأتينى، وأن المعنى إنما هو بكذبهم وتكذيبهم. قال: وأدخل «كان» ليخبر أنه كان فيما مضى، كما يقال: ما أحسن ما كان عبد الله، فأنت تعجب من عبد الله لامن كونه، وإنما وقع التعجب فى اللفظ على كونه. وكان بعض نحويى الكوفة ينكر ذلك من قوله ويستخطئه ويقول: إنما ألغيت «كان» فى التعجب، لأن الفعل قد تقدمها، فكأنه قال: حسنا كان زيد، وحسن كان زيد يبطل كان، ويعمل مع الأسماء والصفات التى بألفاظ الأسماء. إذا جاءت قبل كان، ووقعت كان بينها وبين الأسماء.

وأما العلة فى إبطالها إذا أبطلت فى هذه الحال فشبه الصفات والأسماء بفَعَل ويَفْعَلُ اللتين لا يظهر عمل كان فيهما ، ألا ترى أنك تقول : يقوم كان زيد ، ولا يظهر عمل كان فى يقوم ، وكذلك قام كان زيد ، فلذلك أبطل عملها مع فاعل تمثيلا بفعل ويفعل ، وأعملت مع فاعل أحيانا لأنه اسم كما تعمل فى الأسماء ، فأما إذا تقدمت « كان » الأسماء والأفعال ، وكان الاسم والفعل بعدها ، فخطأ عنده أن تكون كان مبطلة . فلذلك أحال قول البصرى الذى حكيناه ، وتأوّل قول الله عزّ وجل (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) أنه بمعنى الذى يكذبونه .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)

اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية ، فروى عن سلمان الفارسى أنه كان يقول : لم يجىء هؤلاء بعد .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثام بن علىّ ، قال : حدثنا الأعمش ، قال : سمعت المنهال بن عمرو . يحدّث عن عباد بن عبد الله ، عن سلمان ، قال : ماجاء هؤلاء بعد ، الذين إذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فى الأرْضِ ، قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ .

حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن شريك ، قال حدثنى أبى ، قال : حدثنى الأعمش ، عن زيد بن وهب وغيره ، عن سلمان ، أنه قال فى هذه الآية (وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فى الأرْضِ قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) قال : ما جاء هؤلاء بعدُ .

وقال آخرون بما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فى الأرْضِ قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) هم المنافقون . أما لاتفسدوا فى الأرض ، فإن الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فى الأرْضِ) يقول : لاتعصوا فى الأرض . قال : فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جل ثناؤه ، لأن من عصى الله فى الأرض ، أو أمر بمعصيته ، فقد أفسد فى الأرض ، لأن إصلاح الأرض والسماء بالطاعة .

وأولى التأويلين بالآية تأويل من قال : إن قول الله تبارك اسمه (وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فى الأرْضِ قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) نزلت فى المنافقين الذين ، كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان معنيًّا بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة . وقد يحتمل قول سلمان عند تلاوة هذه الآية : ما جاء هؤلاء بعد ، أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهذه الصفة على

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبرا منه عمن جاء منهم بعدهم ، ولما يجيء بعد ، لأنه غنى أنه لم يمض ممن هذه صفته أحد .

وإنما قلنا أولى التأويلين بالآية ماذكرنا ، لإجماع الحجة من أهل التأويل، على أن ذلك صفة من كان بين ظهرانى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، من المنافقين، وأن هذه الآيات فيهم نزلت . والتأويل المجمع عليه أولى بتأويل القرآن، من قول لادلالة على صحته من أصل ولا نظير . والإفساد فى الأرض ، العمل فيها بما نهى الله جل ثناؤه عنه ، وتضييع ما أمر الله بحفظه ، فذلك جملة الإفساد ، كما قال جل ثناؤه فى كتابه مخبرا عن قيل ملائكته: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) يعنون بذلك : أتجعل فى الأرض من يعصيك ، ويخالف أمرك ؟ فكذلك صفة أهل النفاق، مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه، وشكهم فى دين الله الذى لايُقبَل من أحد عملا إلابالتصديق به ، والإيقان بحقيته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ماهم عليه مقيمون من الشك والريب ، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله ، على أولياء الله ، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا .

فذلك إفساد المنافقين فى أرض الله، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها، فلم يُسقِط الله جل ثناؤه عنهم عقوبته، ولا خفف عنهم أليم ما أعدّ من عقابه لأهل معصيته، بحسبانهم أنهم فيما أتوا من معاصى الله مصلحون . بل أوجب لهم الدرك الأسفل من ناره ، والأليم من عذابه ، والعار العاجل بسبّ الله إياهم وشتمه لهم ، فقال تعالى : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) وذلك من حكم الله جل ثناؤه فيهم، أدلّ الدليل على تكذيبه تعالى قول القائلين: إن عقوبات الله لايستحقها إلا المعاند ربه، فيما لزمه من حقوقه وفروضه ، بعد علمه وثبوت الحجة عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

وتأويل ذلك كالذى قاله ابن عباس الذى حدثنا به محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) أى قالوا : إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب . وخالفه فى ذلك غيره .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ) قال : إذا ركبوا معصية الله ، فقيل لهم : لاتفعلوا كذا وكذا ، قالوا : إنما نحن على الهدى مصلحون .

قال أبو جعفر : وأىّ الأمرين كان منهم فى ذلك ، أعنى فى دعواهم أنهم مصلحون ، فهم لاشك أنهم كانوا يحسبون أنهم فيما أتوا من ذلك مصلحون، فسواء بين اليهود والمسلمين كانت دعواهم الإصلاح، أو فى أديانهم وفيما ركبوا من معصية الله ، وكذبهم المؤمنين فيما أظهروا لهم من القول ، وهم لغير ما أظهروا

مستبطنون ؛ لأنهم كانوا فى جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم محسنين ، وهم عند الله مسيئون ، ولأمر الله مخالفون ، لأن الله جل ثناؤه قد كان فرض عليهم عداوة اليهود وحربهم مع المسلمين ، وألزمهم التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله ، كالذى ألزم من ذلك المؤمنين . فكان لقاؤهم اليهود على وجه الولاية منهم لهم ، وشكهم فى نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به أنه من عند الله ، أعظم الفساد ، وإن كان ذلك كان عندهم إصلاحا وهدى فى أديانهم ، أو فيما بين المؤمنين واليهود ، فقال جل ثناؤه فيهم : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) دون الذين ينهونهم من المؤمنين عن الإفساد فى الأرض وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)

وهذا القول من الله جل ثناؤه ، تكذيب للمنافقين فى دعواهم ، إذا أمروا بطاعة الله فيما أمرهم الله به ، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه . قالوا : إنما نحن مصلحون لامفسدون ، ونحن على رشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لاضالون ، فكذبهم الله عزّ وجلّ فى ذلك من قيلهم ، فقال : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) المخالفون أمر الله عزّ وجل ، المتعدّون حدوده الراكبون معصيته ، التاركون فروضه ، وهم لايشعرون ولا يدرون أنهم كذلك ، لاالذين يأمرونهم بالقسط من المؤمنين وينهونهم عن معاصى الله فى أرضه من المسلمين .

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) يعنى وإذا قيل لهؤلاء الذين وصفهم الله ، ونعتهم بأنهم يقولون (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) صدّقوا بمحمد وبما جاء به من عند الله ، كما صدّق به الناس ؛ ويعنى بالناس : المؤمنين الذين آمنوا بمحمد ونبوّته وما جاء به من عند الله .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمار ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) يقول : وإذا قيل لهم صدّقوا كما صدّق أصحاب محمد ، قالوا إنه نبى ورسول ، وإن ما أنزل عليه حق ، وصدقوا بالآخرة ، وأنكم مبعوثون من بعد الموت . وإنما أدخلت الألف واللام فى الناس ، وهم بعض الناس لاجميعهم ، لأنهم كانوا معروفين عند الذين خوطبوا بهذه الآية بأعيانهم ، وإنما معناه : آمنوا كما آمن الناس الذين تعرفونهم من أهل اليقين

والتصديق بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر ، فلذلك أدخلت الألف واللام فيه كما أدخلتا فى قوله (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) لأنه أشير بدخولها إلى ناس معروفين عند من خوطب بذلك .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)

قال أبو جعفر : والسفهاء جمع سفيه ، كالعلماء جمع عليم ، والحكماء جمع حكيم ، والسفيه : الجاهل الضعيف الرأى ، القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ ، ولذلك سمى الله عزّ وجل النساء والصبيان سفهاء ، فقال تعالى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) فقال عامة أهل التأويل : هم النساء والصبيان لضعف آرائهم ، وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضارّ ، التى تصرف إليها الأموال . وإنما عنى المنافقون بقيلهم: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ إذ دعوا إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله ، والإقرار بالبعث ، فقال لهم : آمنوا كما آمن أصحاب محمد وأتباعه من المؤمنين المصدقين به ، أهل الإيمان واليقين والتصديق بالله وبما افترض عليهم ، على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى كتابه ، وباليوم الآخر ، فقالوا : إجابة لقائل ذلك لهم : أنؤمن كما آمن أهل الجهل ، ونصدّق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما صدق به هؤلاء الذين لاعقول لهم ولا أفهام ؟

كالذى حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قالوا (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) يعنون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) يعنون : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (قالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) قال : هذا قول المنافقين ، يريدون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمار ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) يقولون : أنقول كما تقول السفهاء ؟ يعنون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لخلافهم لدينهم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله تعالى عن المنافقين الذين تقدم نعته لهم ، ووصفه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب ، أنهم هم الجهال فى أديانهم ، الضعفاء الآراء فى اعتقاداتهم واختياراتهم التى اختاروها لأنفسهم من الشك والريب ، فى أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوته ، وفيما جاء به من عند الله ، وأمر

البعث، لإساءتهم إلى أنفسهم بما أتوا من ذلك، وهم يحسبون أنهم إليها يحسنون، وذلك هو عين السفه، لأن السفيه إنما يفسد من حيث يرى أنه يصلح، ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ. فكذلك المنافق يعصى ربه من حيث يرى أنه يطيعه، ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به، ويسىء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جل ذكره، فقال: (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ) وقال: (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ) دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه وبرسوله وثوابه وعقابه، (وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) وكذلك كان ابن عباس يتأوّل هذه الآية.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، يقول الله جل ثناؤه: (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ) يقول: الجهال (وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) يقول: ولكن لايعقلون. وأما وجه دخول الألف واللام فى السفهاء، فشبيه بوجه دخولهما فى الناس فى قوله: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) وقد بينا العلة فى دخولهما هنالك، والعلة فى دخولهما فى السفهاء نظيرتها فى دخولهما فى «الناس» هنالك سواء. والدلالة التى تدل عليه هذه الآية من خطأ قول من زعم أن العقوبة من الله، لايستحقها إلا المعاند ربه مع علمه بصحة ماعانده فيه، نظير دلالة الآيات الأخر التى قد تقدّم ذكرنا تأويلها فى قوله (وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ) ونظير ذلك.

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه:

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤)

قال أبو جعفر: وهذه الآية نظير الآية الأخرى، التى أخبر الله جل ثناؤه فيها عن المنافقين، بخداعهم الله ورسوله والمؤمنين، فقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) ثم أكذبهم تعالى ذكره بقوله (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) وأنهم بقيلهم ذلك يخادعون الله والذين آمنوا. وكذلك أخبر عنهم فى هذه الآية أنهم يقولون للمؤمنين المصدّقين بالله وكتابه ورسوله بألسنتهم: آمنا وصدّقنا بمحمد وبما جاء به من عند الله، خداعا عن دمائهم وأموالهم وذراريهم، ودرءا لهم عنها، وأنهم إذا خلوا إلى مردتهم، وأهل العتوّ والشرّ والخبث منهم ومن سائر أهل الشرك، الذين هم على مثل الذى هم عليه من الكفر بالله وبكتابه ورسوله، وهم شياطينهم - وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن شياطين كل شىء مردته - قالوا لهم: (إِنَّا مَعَكُمْ) أى إنا معكم على دينكم، وظهراؤكم على من خالفكم فيه، وأولياؤكم دون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، إنما نحن مستهزئون بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه.

كالذى حدثنا محمد بن العلاء، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) قال: كان رجال

من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو بعضهم ، قالوا : إنا على دينكم ، وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) قال : إذا خلوا إلى شياطينهم من يهود، الذين يأمرونهم بالتكذيب، وخلاف ما جاء به الرسول (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) أى إنا على مثل ما أنتم عليه (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)

حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أما شياطينهم : فهم رءوسهم فى الكفر .

حدثنا بشر بن معاذ العقدى ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أى رؤسائهم وقادتهم فى الشر (قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) قال : المشركون .

حدثني محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عز وجل (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) قال : إذا خلا المنافقون إلى أصحابهم من الكفار .

حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، عن شبل بن عباد ، عن عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) قال : أصحابهم من المنافقين والمشركين .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) قال : إخوانهم من المشركين (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثني حجاج ، قال : قال ابن جريج فى قوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) قال: إذا أصاب المؤمنين رخاء ، قالوا: إنا نحن معكم إنما نحن إخوانكم ، (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) استهزءوا بالمؤمنين .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد : شياطينهم : أصحابهم من المنافقين والمشركين .

فإن قال لنا قائل : أرأيت قوله (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) فكيف قيل خلوا إلى شياطينهم ولم يقل: خلوا بشياطينهم ؟ فقد علمت أن الجارى بين الناس فى كلامهم، خلوت بفلان أكثر وأفشى من خلوت

إلى فلان ، ومن قولك إن القرآن أفصح البيان ؟ قيل: قد اختلف فى ذلك أهل العلم بلغة العرب ، فكان بعض نحويي البصرة يقول : يقال خلوت إلى فلان ، إذا أريد به : خلوت إليه فى حاجة خاصة ، لايحتمل إذا قيل كذلك إلا الخلاء إليه فى قضاء الحاجة . فأما إذا قيل : خلوت به احتمل معنيين : أحدهما الخلاء به فى الحاجة ، والآخر فى السخرية به ، فعلى هذا القول (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) لاشك أفصح منه لو قيل: وإذا خلوا بشياطينهم لما فى قول القائل: إذا خلوا بشياطينهم من التباس المعنى على سامعيه ،الذى هو منتف عن قوله (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) فهذا أحد الأقوال . والقول الآخر أن توجيه معنى قوله (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أى إذا خلوا مع شياطينهم ، إذ كانت حروف الصفات يعاقب بعضها بعضا، كما قال الله مخبرا عن عيسى بن مريم أنه قال للحواريين: (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) يريد مع الله، وكما توضع على فى موضع من وفى وعن والباء ، كما قال الشاعر :

إِذَا رَضِيَتْ عَلَىَّ بَنُو قُشَيْرٍ　　لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِى رِضَاهَا

بمعنى : عنى .

وأما بعض نحويي أهل الكوفة فإنه كان يتأول أن ذلك بمعنى : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وإذا صرفوا خلاءهم إلى شياطينهم، فيزعم أن الجالب لإلى المعنى الذى دل عليه الكلام من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم ، لاقوله خلوا . وعلى هذا التأويل لايصلح فى موضع إلى غيرها ، لتغير الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها .

وهذا القول عندى أولى بالصواب، لأن لكل حرف من حروف المعانى وجها هو به أولى من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها . ولإلى فى كل موضع دخلت من الكلام حكم، وغير جائز سلبها معانيها فى أماكنها .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)

أجمع أهل التأويل جميعا لاخلاف بينهم، على أن معنى قوله (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ): إنما نحن ساخرون . فمعنى الكلام إذاً : وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مردتهم من المنافقين والمشركين، قالوا: إنا معكم على ما أنتم عليه من التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، ومعاداته ومعاداة أتباعه ، إنما نحن ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فى قيلنا لهم إذا لقيناهم ، آمنا بالله وباليوم الآخر .

كما حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمار ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) : ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) : أى إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم .

حدثنا بشر بن معاذ العقدى ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) : إنما نستهزئ بهؤلاء القوم ونسخر بهم .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) : أى نستهزئ بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

قال أبو جعفر : اختلف فى صفة استهزاء الله جل جلاله ، الذى ذكر أنه فاعله بالمنافقين ، الذين وصف صفتهم . فقال بعضهم : استهزاؤه بهم ، كالذى أخبرنا تبارك اسمه ، أنه فاعل بهم يوم القيامة ، فى قوله تعالى : (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى) الآية ، وكالذى أخبرنا أنه فعل بالكفار بقوله : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) . فهذا وما أشبهه من استهزاء الله جلّ وعز ، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به ، عند قائلى هذا القول ومتأوّلى هذا التأويل . وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم ، توبيخه إياهم ولومه لهم على ماركبوا من معاصى الله والكفر به ، كما يقال : إن فلانا ليهزأ منه اليوم ويسخر منه ، يراد به توبيخ الناس إياه ولومهم له . أو إهلاكه إياهم وتدميره بهم ، كما قال عبيد بن الأبرص :

سَائِلْ بِنَا حُجْرَ ابْنَ أُمِّ قَطَامِ إِذْ ظَلَّتْ بِهِ السُّمْرُ النَّوَاهِلُ تَلْعَبُ

فزعموا أن السمر ـ وهى القنا ـ لا لعب منها ، ولكنها لما قتلتهم وشردتهم ، جعل ذلك من فعلها لعبا بمن فعلت ذلك به . قالوا : فكذلك استهزاء الله جل ثناؤه ، بمن استهزأ به من أهل النفاق والكفر به ، إما إهلاكه إياهم وتدميره بهم ، وإما إملاؤه لهم ليأخذهم فى حال أمنهم عند أنفسهم بغتة ، أو توبيخه لهم ولائمته إياهم . قالوا : وكذلك معنى المكر منه والخديعة والسخرية .

وقال آخرون : قوله (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) على الجواب كقول الرجل لمن كان يخدعه إذا ظفر به : أنا الذى خدعتك . ولم تكن منه خديعة ، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه . قالوا : وكذلك قوله (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) والله يستهزئ بهم على الجواب ، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء . والمعنى : أن المكر والهزء حاق بهم .

وقال آخرون : قوله (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) وقوله (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) وقوله (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ . وَنَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) وما أشبه ذلك ، إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج خبره عن جزائه

إياهم وعقابه لهم، مخرج خبره عن فعلهم الذى عليه استحقوا العقاب فى اللفظ وإن اختلف المعنيان، كما قال جل ثناؤه (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) ومعلوم أن الأولى من صاحبها سيئة، إذ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية، وأن الأخرى عدل، لأنها من الله جزاء للعاصى على المعصية. فهما وإن اتفق لفظاهما، مختلفا المعنى. وكذلك قوله (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) فالعدوان الأول ظلم، والثانى جزاء لا ظلم، بل هو عدل، لأنه عقوبة للظالم على ظلمه وإن وافق لفظه لفظ الأول. وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك، مما هو خبر عن مكر الله جلّ وعزّ بقوم، وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: إن معنى ذلك أن الله جل وعز، أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا: إنا معكم على دينكم، فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وإنما نحن - بما نظهر لهم من قولنا لهم صدّقنا بمحمد عليه السلام وما جاء به - مستهزءون، يعنون أنا نظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حق ولا هدى. قالوا: وذلك هو معنى من معانى الاستهزاء، فأخبر الله أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا، خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة، كما أظهروا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى الدين، ماهم على خلافه فى سرائرهم.

والصواب فى ذلك من القول والتأويل عندنا، أن معنى الاستهزاء فى كلام العرب: إظهار المستهزئ للمستهزَأ به من القول والفعل مايرضيه ويوافقه ظاهرا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنا، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر، وإذ كان ذلك كذلك، وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق فى الدنيا من الأحكام، بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند الله، المدخل لهم فى عداد من يشمله اسم الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين من أحكام المسلمين، المصدقين إقرارهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبهم وصحائح عزائمهم وحميد أفعالهم المحققة لهم صحة إيمانهم، مع علم الله عز وجل بكذبهم، واطلاعه على خبث اعتقادهم، وشكهم فيما ادعوا بألسنتهم أنهم مصدقون، حتى ظنوا فى الآخرة، إذ حشروا فى عداد من كانوا فى عدادهم فى الدنيا، أنهم واردون موردهم وداخلون مدخلهم. والله جلّ جلاله، مع إظهاره ماقد أظهر لهم من الأحكام، الملحقهم فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة، إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقه بينهم وبينهم، معدّ لهم من أليم عقابه ونكال عذابه، ما أعدّ منه لأعدى أعدائه وأشرّ عباده، حتى ميز بينهم وبين أوليائه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل، كان معلوما أنه جل ثناؤه، بذلك من فعله بهم، وإن كان جزاء لهم على أفعالهم، وعدلا مافعل من ذلك بهم، لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له، كان بهم بما أظهر لهم من الأمور التى أظهرها لهم، من إلحاقه أحكامهم فى الدنيا بأحكام أوليائه وهم له أعداء، وحشره إياهم فى الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذّبين، إلى أن ميز بينهم وبينهم، مستهزئا وساخرا، ولهم خادعا، وبهم ماكرا، إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل، دون أن يكون ذلك معناه فى حال فيها المستهزئ بصاحبه، له ظالم أو عليه فيها غير عادل. بل ذلك معناه فى كل

أحواله إذا وجدت الصفات التى قدمنا ذكرها، فى معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره. وبنحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمار، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس فى قوله (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وأما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله استهزاء، ولا مكر، ولا خديعة، فنافون عن الله عز وجل ما قد أثبته الله عز وجل لنفسه وأوجبه لها. وسواء قال قائل: لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية، بمن أخبر أنه يستهزئ ويسخر ويمكر به، أو قال: لم يخسف الله بمن أخبر أنه خسف به من الأمم، ولم يغرق من أخبر أنه أغرقه منهم. ويقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه، أخبرنا أنه مكر بقوم مضوا قبلنا لم نرهم، وأخبر عن آخرين أنه خسف بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصدّقنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نفرّق بين شىء منه، فما برهانك على تفريقك مافرقت بينه، بزعمك أنه قد أغرق وخسف بمن أخبر أنه أغرق وخسف به، ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به؟ ثم نعكس القول عليه فى ذلك، فلن يقول فى أحدهما شيئا إلا ألزم فى الآخر مثله. فإن لجأ إلى أن يقول إن الاستهزاء عبث ولعب، وذلك عن الله عزّ وجلّ منفىّ، قيل له: إن كان الأمر عندك على ماوصفت من معنى الاستهزاء، أفلست تقول: الله يستهزئ بهم، وسخر الله منهم، ومكر الله بهم، وإن لم يكن من الله عندك هزء ولا سخرية؟ فإن قال: لا! كذب بالقرآن، وخرج عن ملة الإسلام. وإن قال: بلى! قيل له: أفتقول من الوجه الذى قلت الله يستهزئ بهم وسخر الله منهم، يلعب الله بهم ويعبث، ولا لعب من الله ولا عبث؟ فإن قال: نعم، وصف الله بما قد أجمع المسلمون على نفيه عنه، وعلى تخطئة واصفه به، وأضاف إليه ما قد قامت الحجة من العقول على ضلال مضيفه إليه. وإن قال: لا أقول يلعب الله بهم ولا يعبث، وقد أقول يستهزئ بهم ويسخر منهم؛ قيل: فقد فرقت بين معنى اللعب، والعبث، والهزء، والسخرية، والمكر، والخديعة، ومن الوجه الذى جاز قيل هذا، ولم يجز قيل هذا افترق معنياهما، فعلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر.

وللكلام فى هذا النوع موضع غير هذا، كرهنا إطالة الكتاب باستقصائه، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه.

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه: (وَيَمُدُّهُمْ)

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (وَيَمُدُّهُمْ) فقال بعضهم بما حدثنى به موسى ابن هرون، قال: حدثنا عمرو، قال: حدثنا أسباط، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (يَمُدُّهُمْ): يملى لهم.

وقال آخرون بما حدثني به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن ابن جريج ، قراءة عن مجاهد (يَمُدُّهُمْ) قال : يزيدهم .

وكان بعض نحويي البصرة يتأول ذلك أنه بمعنى يمدّ لهم ، ويزعم أن ذلك نظير قول العرب : الغلام يلعب الكعاب ، يراد به يلعب بالكعاب ، قال : وذلك أنهم قد يقولون : قد مددت له وأمددت له فى غير هذا المعنى ، وهو قول الله (وأَمْدَدْناهُمْ) وهذا من أمددناهم ، قال : ويقال قد مدّ البحر فهو مادّ ، وأمدّ الجرح فهو ممدّ .

وحكى عن يونس الجرمى أنه كان يقول : ما كان من الشرّ فهو مددت ، وما كان من الخير فهو أمددت . ثم قال : وهو كما فسرت لك إذا أردت أنك تركته فهو مددت له ، وإذا أردت أنك أعطيته قلت : أمددت .

وأما بعض نحويي الكوفة فإنه كان يقول : كل زيادة حدثت فى الشىء من نفسه ، فهو مددت بغير ألف ، كما تقول : مدّ النهر ، ومدّه نهر آخر غيره ، إذا اتصل به فصار منه ، وكل زيادة أحدثت فى الشىء من غيره فهو بألف ، كقولك : أمدّ الجرح ، لأن المدة من غير الجرح ، وأمددت الجيش بمدد .

وأولى هذه الأقوال بالصواب فى قوله (ويَمُدُّهُمْ) أن يكون بمعنى يزيدهم ، على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوّهم وتمرّدهم ، كما وصف ربنا أنه فعل بنظرائهم فى قوله (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) يعنى نذرهم ونتركهم فيه ونملى لهم ، ليزدادوا إثما إلى إثمهم . ولا وجه لقول من قال ذلك بمعنى يمدّ لهم ، لأنه لا تدافع بين العرب وأهل المعرفة بلغتها ، أن يستجيزوا قول القائل مدّ النهرَ نهر آخر ، بمعنى اتصل به ، فصار زائدا ماء المتصل به بماء المتصل ، من غير تأوّل منهم ، ذلك أن معناه مدّ النهرَ نهر آخر ، فكذلك ذلك فى قول الله (ويَمُدُّهُمْ فى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

القول فى تأويل قوله : (فى طُغْيانِهِمْ)

قال أبو جعفر : والطغيان الفعلان ، من قولك : طغى فلان يطغى طغيانا ، إذا تجاوز فى الأمر حده ، فبغى . ومنه قول الله : (كَلَّا إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) : أى يتجاوز حدّه . ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

ودَعا اللهَ دَعْوَةَ لاتَ هَنّا بَعْدَ طُغْيانِهِ فَظَلَّ مُشِيرَا

وإنما عنى الله جل ثناؤه بقوله : (ويَمُدُّهُمْ فى طُغْيانِهِمْ) أنه يملى لهم ، ويذرهم يبغون فى ضلالهم وكفرهم ، حيارى يترددون .

كما حدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (فى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) قال : فى كفرهم يترددون .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ،

عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (فى طُغْيَانِهِمْ) : فى كفرهم .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد، عن قتادة (فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) أى فى ضلالتهم يعمهون .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فى طُغْيَانِهِمْ) فى ضلالتهم .

وحدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : (فى طُغْيَانِهِمْ) قال : طغيانهم : كفرهم وضلالتهم .

القول فى تأويل قوله : (يَعْمَهُونَ)

قال أبو جعفر : والعمه نفسه : الضلال ، يقال منه عمه فلان يعمه عمهانا وعموها : إذا ضل . ومنه قول رؤبة بن العجاج ، يصف مضلة من المهامه :

وَمُخْفَقٍ مِنْ لُهْلُهٍ وَلُهْلُهِ مِنْ مَهْمَهٍ يَجْتَبْنَهُ فى مَهْمَهِ

أَعْمَى الْهُدَى بِالْجَاهِلِينَ الْعُمَّهِ

والعُمَّه : جمع عامِه ، وهم الذين يضلون فيه فيتحيرون ؛ فمعنى قوله جل ثناؤه : (وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فى ضلالهم وكفرهم ، الذى قد غمرهم دنسه ، وعلاهم رجسه ، يترددون حيارى ضلالا ، لايجدون إلى المخرج منه سبيلا ، لأن الله قد طبع على قلوبهم ، وختم عليها فأعمى أبصارهم عن الهدى ، وأغشاها فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا . وبنحو ما قلنا فى العمه جاء تأويل المتأولين .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (يَعْمَهُونَ) : يتمادون فى كفرهم .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (يَعْمَهُونَ) قال : يتمادون .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : فى قوله (يَعْمَهُونَ) قال : يترددون .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (يَعْمَهُونَ) : المتلدِّد [1] .

وحدثنا محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : حدثنا ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) قال : يترددون .

وحدثنى المثنى ، قال حدثنا أبو حذيفة ، قال حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

التلدد : التلفت يمينا وشمالا تحيرا . (راجع اللسان مادة لدد) .

وحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن ابن جريج قراءة عن مجاهد ، مثله .

وحدثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (يَعْمَهُونَ) قال : يترددون .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

قال أبو جعفر : إن قال قائل : وكيف اشترى هؤلاء القوم الضلالة بالهدى ، وإنما كانوا منافقين لم يتقدم نفاقهم إيمان ، فيقال فيهم باعوا هداهم الذى كانوا عليه بضلالتهم حتى استبدلوها منه ؟ وقد علمت أن معنى الشراء المفهوم : اعتياض شىء ببذل شىء مكانه عوضا منه ، والمنافقون الذين وصفهم الله بهذه الصفة لم يكونوا قط على هدى فيتركوه ، ويعتاضوا منه كفرا ونفاقا ؟ قيل : قد اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك ، فنذكر ما قالوا فيه ، ثم نبين الصحيح من التأويل فى ذلك ، إن شاء الله .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) أى الكفر بالإيمان .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) يقول : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) : استحبوا الضلالة على الهدى .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) : آمنوا ثم كفروا .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

قال أبو جعفر : فكان الذين قالوا فى تأويل ذلك أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، وجهوا معنى الشراء إلى أنه أخذ المشترَى مكان الثمن المشترَى به ، فقالوا كذلك المنافق والكافر قد أخذا مكان الإيمان الكفر ، فكان ذلك منهما شراء للكفر والضلالة ، اللذين أخذاهما بتركهما ماتركا من الهدى ، وكان الهدى الذى تركاه هو الثمن الذى جعلاه عوضا من الضلالة التى أخذاها .

وأما الذين تأولوا أن معنى قوله (اشتروا) استحبوا ، فإنهم لما وجدوا الله جل ثناؤه ، قد وصف الكفار فى موضع آخر ، فنسبهم إلى استحبابهم الكفر على الهدى ، فقال : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) صرفوا قوله (اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) إلى ذلك ، وقالوا : قد تدخل

الباء مكان على، وعلى مكان الباء . كما يقال : مررت بفلان ، ومررت على فلان بمعنى واحد . وكقول الله جل ثناؤه : (وَمِنْ أَهْلِ الكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) أى على قنطار . فكان تأويل الآية ، على معنى هؤلاء : أولئك الذين اختاروا الضلالة على الهدى ، وأراهم وَجَّهوا معنى قول الله جل ثناؤه (اشْتَرَوا) إلى معنى اختاروا ، لأن العرب تقول : اشتريت كذا على كذا ، واشتريته ، يعنون اخترته عليه . ومن الاشتراء قول أعشى بنى ثعلبة :

فقدْ أخرِجُ الكاعِبَ المُشْتَرا ة[1] من خِدْرِها وأُشيعُ القِمارا

يعنى بالمشتراة : المختارة . وقال ذو الرمة فى الاشتراء بمعنى الاختيار :

يَذُبُّ القَصَايا عنْ شَراةٍ كأنّها جماهيرُ تحتَ المُدْجِناتِ الهَوَاضِبِ[2]

يعنى بالشراة : المختارة . وقال آخر فى مثل ذلك :

إنَّ الشَّرَاةَ رُوقَةُ الأَمْوالِ وحَزْرَةُ القَلْبِ خِيارُ المَالِ

قال أبو جعفر : وهذا وإن كان وجها من التأويل ، فلست له بمختار ، لأن الله جل ثناؤه ، قال : (فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ) فدل بذلك على أن معنى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى) معنى الشراء الذى يتعارفه الناس ، من استبدال شىء مكان شىء ، وأخذ عوض على عوض .

وأما الذين قالوا : إن القوم كانوا مؤمنين وكفروا ، فإنه لامؤنة عليهم لو كان الأمر على ماوصفوا به القوم ، لأن الأمر إذا كان كذلك فقد تركوا الإيمان ، واستبدلوا به الكفر عوضا من الهدى . وذلك هو المعنى المفهوم من معانى الشراء والبيع ، ولكن دلائل أول الآيات فى نعوتهم إلى آخرها ، دالة على أن القوم لم يكونوا قط استضاءوا بنور الإيمان ، ولادخلوا فى ملة الإسلام ، أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه من لدن ابتدأ فى نعتهم ، إلى أن أتى على صفتهم ، إنما وصفهم بإظهار الكذب بألسنتهم ، بدعواهم التصديق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به ، خداعا لله ولرسوله وللمؤمنين عند أنفسهم ، واستهزاء فى نفوسهم بالمؤمنين ، وهم لغير ماكانوا يظهرون مستبطنون ؟ لقول الله جل جلاله : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) ثم اقتصَّ قصصهم إلى قوله : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى) فأين الدلالة على أنهم كانوا مؤمنين فكفروا ؟ !

فان كان قائل هذه المقالة ظنّ أن قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى) هو الدليل على أن القوم قد كانوا على الإيمان فانتقلوا عنه إلى الكفر ، فلذلك قيل لهم اشتروا . فإن ذلك تأويل غير مسلم له ، إذ كان الاشتراء عند مخالفيه قد يكون أخذ شىء بترك آخر غيره ، وقد يكون بمعنى الاختيار ، وبغير ذلك من المعانى .

والكلمة إذا احتملت وجوها ، لم يكن لأحد صرف معناها إلى بعض وجوهها دون بعض ، إلا بحجة يجب التسليم لها .

قال أبو جعفر : والذى هو أولى عندى بتأويل الآية ، ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود ، من تأويلهما

(١) ورد فى ديوان الأعشى الكبير : المستراة مكان المشتراة وهى بمعناها (٢) لم يرد هذا البيت فى م . وجاء فى اللسان القضايا مكان القصايا

قوله (اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وذلك أن كل كافر بالله، فإنه مستبدل بالإيمان كفرا، باكتسابه الكفر الذى وجد منه بدلا من الإيمان الذى أمر به ، أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفرا به مكان الإيمان به وبرسوله: (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) ؟ وذلك هو معنى الشراء، لأن كل مشتر شيئا، فإنما يستبدل مكان الذى يؤخذ منه من البدل آخر بدلا منه ، فكذلك المنافق والكافر استبدلا بالهدى الضلالة والنفاق، فأضلهما الله، وسلبهما نور الهدى، فترك جميعهم فى ظلمات لايبصرون .

القول فى تأويل قوله (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) .

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى ، خسروا ولم يربحوا ، لأن الرابح من التجار ، المستبدل من سلعته المملوكة عليه بدلا هو أنفس من سلعته أو أفضل من ثمنها الذى يبتاعها به . فأما المستبدل من سلعته بدلا دونها ودون الثمن الذى يبتاعها به ، فهو الخاسر فى تجارته لاشك ، فكذلك الكافر والمنافق ، لأنهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى والخوف والرعب على الحفظ والأمن؛ فاستبدلا فى العاجل بالرشاد الحيرة ، وبالهدى الضلالة ، وبالحفظ الخوف ، وبالأمن الرعب ، مع ما قد أعدّ لهما فى الآجل من أليم العقاب وشديد العذاب ، فخابا وخسرا ، ذلك هو الخسران المبين .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك كان قتادة يقول : حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد، عن قتادة (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

قال أبو جعفر : فإن قال قائل: فما وجه قوله (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)وهل التجارة مما تربح أو تنقص، فيقال ربحت أو وضعت ؟ قيل : إن وجه ذلك على غير ما ظننت ، وإنما معنى ذلك فما ربحوا فى تجارتهم، لافيما اشتروا ولا فيما شروا، ولكن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عربا، فسلك فى خطابه إياهم وبيانه لهم، مسلك خطاب بعضهم بعضا وبيانهم المستعمل بينهم ، فلما كان فصيحا لديهم قول القائل لآخر : خاب سعيك ، ونام ليلك ، وخسر بيعك ، ونحو ذلك من الكلام الذى لايخفى على سامعه مايريد قائله ، خاطبهم بالذى هو فى منطقهم من الكلام، فقال: (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) إذ كان معقولا عندهم أن الربح إنما هو فى التجارة، كما النوم فى الليل ، فاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلك عن أن يقال : فما ربحوا فى تجارتهم ، وإن كان ذلك معناه كما قال الشاعر :

وَشَرُّ الْمَنَايَا مَيِّتٌ وَسْطَ أَهْلِهِ ... كَهُلْكِ الْفَتَاةِ أَسْلَمَ الْحَيَّ حَاضِرُهُ

يعنى بذلك : وشرّ المنايا منية ميت وسط أهله ، فاكتفى بفهم سامع قيله مراده من ذلك ، عن إظهار ما ترك إظهاره ، وكما قال رؤبة بن العجاج :

حَارِثُ قَدْ فَرَّجْتَ عَنِّى هَمِّى ... فَنَامَ لَيْلِى وَتَجَلَّى غَمِّى

فوصف بالنوم الليل ، ومعناه أنه هو الذى نام . وكما قال جرير بن الخطفى :

وأعْوَرَ مِنَ نَبْهانَ أما نَهارُهُ فأعْمَى وأمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ

فأضاف العمى والإبصار إلى الليل والنهار ، ومراده وصف النبهانى بذلك .

القول فى تأويل قوله : (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

يعنى بقوله جل ثناؤه : (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) : ماكانوا رشداء فى اختيارهم الضلالة على الهدى، واستبدالهم الكفر بالإيمان ، واشترائهم النفاق بالتصديق والإقرار .

القول فى تأويل قوله :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : وكيف قيل (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) وقد علمت أن الهاء والميم من قوله (مَثَلُهُمْ) كناية جماعة من الرجال أو الرجال والنساء ، والذى دلالة على واحد من الذكور ؟ فكيف جعل الخبر عن واحد مثلا لجماعة ؟ وهلا قيل : مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارا ؟ وإن جاز عندك أن تمثل الجماعة بالواحد، فتجيز لقائلٍ رأى جماعة من الرجال، فأعجبته صورهم وتمام خلقهم وأجسامهم ، أن يقول : كأن هولاء ، أوكأن أجسام هؤلاء نخلة ! !

قيل : أما فى الموضع الذى مثّل ربنا جل ثناؤه جماعة من المنافقين بالواحد، الذى جعله لأفعالهم مثلا، فجائز حسن، وفى نظائره كما قال جل ثناؤه فى نظير ذلك: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) يعنى كدوران عين الذى يغشى عليه من الموت ، وكقوله: (مَاخَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) بمعنى إلا كبعث نفس واحدة .

وأما فى تمثيل أجسام الجماعة من الرجال فى الطول وتمام الخلق ، بالواحدة من النخيل ، فغير جائز ولا فى نظائره ، لفرق بينهما .

فأما تمثيل الجماعة من المنافقين بالمستوقد الواحد ، فإنما جاز لأن المراد من الخبر عن مثل المنافقين الخبر عن مثل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار ، وهم لغيره مستبطنون من اعتقاداتهم الرديئة ، وخلطهم نفاقهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر ،والاستضاءة - وإن اختلفت أشخاص أهلها - معنى واحد لامعانٍ مختلفة. فالمثل لها فى معنى المثل للشخص الواحد من الأشياء المختلفة الأشخاص. وتأويل ذلك مثل استضاءة المنافقين بما أظهروه من الإقرار بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به قولا ، وهم به مكذّبون اعتقادا ، كمثل استضاءة الموقد نارا ، ثم أسقط ذكر الاستضاءة وأضيف المثل إليهم ، كما قال نابغة بنى جعدة :

وكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ خِلالَتُهُ كأبِي مَرْحَبِ

يريد كخلالة أبي مرحب ، فأسقط خلالة ، إذ كان فيما أظهر من الكلام دلالة لسامعيه على ماحذف منه .

فكذلك القول فى قوله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) لما كان معلوما عند سامعيه بما أظهر من الكلام ، أن المثل إنما ضرب لاستضاءة القوم بالإقرار دون أعيان أجسامهم ، حسن حذف ذكر الاستضاءة وإضافة المثل إلى أهله . والمقصود بالمثل ما ذكرنا . فلِما وصفنا جاز وحسن قوله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) ويشبه مثل الجماعة فى اللفظ بالواحد ، إذ كان المراد بالمثل الواحد فى المعنى . وأما إذا أريد تشبيه الجماعة من أعيان بنى آدم ، أو أعيان ذوى الصور والأجسام بشىء ، فالصواب من الكلام تشبيه الجماعة بالجماعة والواحد بالواحد ، لأن عين كل واحد منهم غير أعيان الآخرين ، ولذلك من المعنى ، افترق القول فى تشبيه الأفعال والأسماء ، فجاز تشبيه أفعال الجماعة من الناس وغيرهم ، إذا كانت بمعنى واحد بفعل الواحد ، ثم حذف أسماء الأفعال ، وإضافة المثل والتشبيه إلى الذين لهم الفعل . فيقال : ما أفعالكم إلا كفعل الكلب ، ثم يحذف فيقال : ما أفعالكم إلا كالكلب أو كالكلاب ، وأنت تعنى إلا كفعل الكلب وإلا كفعل الكلاب . ولم يجز أن تقول : ماهم إلا نخلة ، وأنت تريد تشبيه أجسامهم بالنخل فى الطول والتمام .

وأما قوله (اسْتَوْقَدَ نَارًا) فإنه فى تأويل أوقد ، كما قال الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى　　　فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

يريد فلم يجبه ، فكان معنى الكلام إذاً ، مثل استضاءة هؤلاء المنافقين ، فى إظهارهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بألسنتهم ، من قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر ، وصدقنا بمحمد وبما جاء به ، وهم للكفر مستبطنون فيما الله فاعل بهم ، مثل استضاءة موقد نار بناره ، حتى أضاءت له النار ما حوله ، يعنى ما حول المستوقد .

وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن الذى فى قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) بمعنى الذين ، كما قال جل ثناؤه : (وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) وكما قال الشاعر :

فَإِنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ　　　هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

قال أبو جعفر : والقول الأول هو القول لِما وصفنا من العلة ، وقد أغفل قائل ذلك فرق ما بين « الذى » فى الآيتين وفى البيت ، لأن الذى فى قوله (وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ) قد جاءت الدلالة على أن معناها الجمع ، وهو قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) وكذلك الذى فى البيت ، وهو قوله : دماؤهم . وليست هذه الدلالة فى قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) فذلك فرق ما بين الذى فى قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) وسائر شواهده التى استشهد بها على أن معنى « الذى » فى قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) بمعنى الجماعة ، وغير جائز لأحد نقل الكلمة التى هى الأغلب فى استعمال العرب ، على معنى إلى غيره ، إلا بحجة يجب التسليم لها .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فروى عن ابن عباس فيه أقوال :

أحدها ما حدثنا به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة

أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : ضرب الله للمنافقين مثلا فقال : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ماحَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لايُبْصِرُونَ) أى يبصرون الحق ويقولون به ، حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر ،أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه ، فتركهم فى ظلمات الكفر ، فهم لايبصرون هدى ولا يستقيمون على حق .

والآخر ما حدثنا به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنا معاوية بن صالح ، عن علىّ ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا) إلى آخر الآية : هذا مثل ضربه الله للمنافقين ، أنهم كانوا يعتزون بالإسلام ، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز ، كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم فى ظلمات ، يقول فى عذاب .

والثالث ما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لايُبْصِرُونَ) :زعم أن أناسا دخلوا فى الإسلام ،مقدَم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ،ثم إنهم نافقوا ، فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارا ، فأضاءت له ما حوله من قذى أو أذى ، فأبصره حتى عرف ما يتقى ، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره ،فأقبل لايدرى مايتقى من أذى ؛ فكذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم ، فعرف الحلال من الحرام ، والخير من الشرّ . فبينا هو كذلك إذ كفر ، فصار لايعرف الحلال من الحرام ، ولا الخير من الشر .

وأما النور : فالإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت الظلمة نفاقهم .

والآخر ما حدثنى به محمد بن سعيد ، قال : حدثنى أبى سعيدُ بن محمد ، قال : حدثنى عمى ، عن أبيه عن جده ، عن ابن عباس قوله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا) إلى (فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) ضربه الله مثلا للمنافق ، وقوله (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) قال : أما النور فهو إيمانهم الذى يتكلمون به ؛ وأما الظلمة : فهى ضلالتهم وكفرهم يتكلمون به ، وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم ،فعتوا بعد ذلك .

وقال آخرون بما حدثنى به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لايُبْصِرُونَ) وإن المنافق تكلم بلا إله إلا الله ،فأضاءت له فى الدنيا ،فناكح بها المسلمين وعادّ بها المسلمين ووارث بها المسلمين ، وحقن بها دمه وماله ، فلما كان عند الموت سلبها المنافق ،لأنه لم يكن لها أصل فى قلبه ، ولا حقيقة فى علمه .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ماحَوْلَهُ) هى لاإله إلا الله ،أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا ،

وأمنوا فى الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا بها دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون.

وحدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنى أبو نميلة، عن عبيد بن سليمان، عن الضحاك ابن مزاحم، قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ) قال: أما النور فهو إيمانهم الذى يتكلمون به؛ وأما الظلمات فهى ضلالتهم وكفرهم.

وقال آخرون: بما حدثنى به محمد بن عمرو الباهلى، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عيسى ابن ميمون، قال: حدثنا ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ) قال: أما إضاءة النار، فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى؛ وذهاب نورهم، إقبالهم إلى الكافرين والضلالة.

وحدثنى المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو حذيفة، عن شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ) أما إضاءة النار: فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى؛ وذهاب نورهم. إقبالهم إلى الكافرين والضلالة.

حدثنى القاسم، قال: حدثنى الحسين، قال: حدثنى حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، مثله.

وحدثنى المثنى، قال: حدثنا إسحق بن الحجاج، عن عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع ابن أنس، قال: ضرب مثل أهل النفاق فقال: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا) قال: إنما ضوء النهار ونورها ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، كذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له، فإذا شك وقع فى الظلمة.

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: حدثنى عبد الرحمن بن زيد، فى قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا) إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين، كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان فى قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفروا فذهب الله بنورهم، فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار، فتركهم فى ظلمات لايبصرون.

وأولى التأويلات بالآية ما قاله قتادة والضحاك، وما رواه علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وذلك أن الله جل ثناؤه، إنما ضرب هذا المثل للمنافقين الذين وصف صفتهم وقصّ قصصهم من لدن ابتدأ بذكرهم، بقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) أى لا المعلنين بالكفر، المجاهرين بالشرك.

ولو كان المثل لمن آمن إيمانا صحيحا ثم أعلن بالكفر إعلانا صحيحا، على ما ظنّ المتأول قول الله جلّ ثناؤه (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لايُبْصِرُونَ) أن ضوء النهار مثل لإيمانهم الذى كان منهم عنده على صحة، وأن ذهاب نورهم مثل لارتدادهم وإعلانهم الكفر على صحة، لم يكن هنالك من القوم خداع ولا استهزاء

عند أنفسهم ولا نفاق ، وأنّى يكون خداع ونفاق ممن لم يُبْدِ لك قولا ولا فعلا ، إلا ما أوجب لك العلم بحاله التى هو لك عليها ، وبعزيمة نفسه التى هو مقيم عليها ؟ ! إن هذا بغير شك من النفاق بعيد ومن الخداع برىء ؛ فإن كان القوم لم تكن لهم إلا حالتان : حال إيمان ظاهر ، وحال كفر ظاهر ، فقد سقط عن القوم اسم النفاق ، لأنهم فى حال إيمانهم الصحيح كانوا مؤمنين ، وفى حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين ، ولا حالة هناك ثالثة كانوا بها منافقين . وفى وصف الله جل ثناؤه إياهم بصفة النفاق ، ما ينبئ عن أن القول غير القول الذى زعمه من زعم أن القوم كانوا مؤمنين ثم ارتدوا إلى الكفر فأقاموا عليه ، إلا أن يكون قائل ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيمانهم الذى كانوا عليه إلى الكفر الذى هو نفاق ، وذلك قول إن قاله ، لم تدرك صحته إلا بخبر مستفيض ، أو ببعض المعانى الموجبة صحته . فأما فى ظاهر الكتاب فلا دلالة على صحته ، لاحتماله من التأويل ماهو أولى به منه ، فإذا كان الأمر على ماوصفنا فى ذلك ، فأولى تأويلات الآية بالآية مثل استضاءة المنافقين بما أظهروا بألسنتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإقرار به ، وقولهم له وللمؤمنين آمنا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، حتى حكم لهم بذلك فى عاجل الدنيا بحكم المسلمين ، فى حقن الدماء والأموال والأمن على الذرية من السباء ، وفى المناكحة والموارثة ، كمثل استضاءة الموقد النار بالنار ، حتى ارتفق بضيائها ، وأبصر ماحوله مستضيئا بنوره من الظلمة ، حتى خمدت النار وانطفأت ، فذهب نوره ، وعاد المستضىء به فى ظلمة وحيرة .

وذلك أن المنافق لم يزل مستضيئا بضوء القول الذى دافع عنه فى حياته القتل والسباء، مع استبطانه ما كان مستوجبا به القتل وسلب المال لو أظهره بلسانه ؛ تخيل إليه بذلك نفسه ، أنه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزئ مخادع ، حتى سولت له نفسه ، إذ ورد على ربه فى الآخرة ، أنه ناج منه بمثل الذى نجا به فى الدنيا من الكذب والنفاق . أوما تسمع الله جل ثناؤه يقول ، إذ نعتهم ثم أخبر هم عند ورودهم عليه : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ظنا من القوم أن نجاتهم من عذاب الله فى الآخرة ، فى مثل الذى كان به نجاتهم من القتل والسباء وسلب المال فى الدنيا ، من الكذب والإفك ، وأن خداعهم نافعهم هنالك نفعه إياهم فى الدنيا ، حتى عاينوا من أمر الله ما أيقنوا به أنهم كانوا من ظنونهم فى غرور وضلال ، واستهزاء بأنفسهم وخداع ، إذ أطفأ الله نورهم يوم القيامة ، فاستنظروا المؤمنين ليقتبسوا من نورهم ، فقيل لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، واصلوا سعيرا ، فذلك حين ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون ، كما انطفأت نار المستوقد النار بعد إضاءتها له ، فبقى فى ظلمته حيران تائها لقول الله جل ثناؤه : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

الأمانيُّ حتّى جاءَ أمرُ اللهِ وَغرّكُمْ باللهِ الغَرورُ. فاليَوْمَ لايُؤْخذُ منكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الّذينَ كَفَرُوا مأواكُمُ النّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ المَصيرُ) .

فإن قال لنا قائل : إنك ذكرت أن معنى قول الله تعالى ذكره (كَمَثَلِ الّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ) خمدت وانطفأت ، وليس ذلك بموجود فى القرآن ، فما دلالتك على أن ذلك معناه ؟ قيل : قد قلنا إن من شأن العرب الإيجاز والاختصار، إذا كان فيما نطقت به الدلالة الكافية على ماحذفت وتركت ، كما قال أبو ذؤيب الهذلى :

عَصَيْتُ إليْهَا القَلْبَ إنّى لأمْرِها[1]　　سَميعٌ فَمَا أدْرى أرُشْدٌ طِلابُها

يعنى بذلك : فما أدرى أرشد طلابها أم غىّ . فحذف ذكر أم غىّ ، إذ كان فيما نطق به الدلالة عليها ، وكما قال ذو الرمة فى نعت حمير :

فَلَمّا لَبِسْنَ اللّيْلَ أوْ حِينَ نَصَّبَتْ　　لَهُ مِنْ خَذا آذانِها وَهْوَ جانِحُ

يعنى أو حين أقبل الليل . فى نظائر لذلك كثيرة كرهنا إطالة الكتاب بذكرها ، فكذلك قوله (كَمَثَلِ الّذى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمّا أضاءَتْ ماحَوْلَهُ) لما كان فيه وفيما بعده من قوله (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لايُبْصِرُونَ) دلالة على المتروك كافية من ذكره ، اختصر الكلام طلب الإيجاز . وكذلك حذف ماحذف ، واختصار ما اختصر من الخبر ، عن مثل المنافقين بعده ، نظير ما اختصر من الخبر عن مثل المستوقد النار ، لأن معنى الكلام : فكذلك المنافقون ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . بعد الضياء الذى كانوا فيه فى الدنيا بما كانوا يظهرون بألسنتهم من الإقرار بالإسلام ، وهم لغيره مستبطنون كما ذهب ضوء نار هذا المستوقد بانطفاء ناره وخمودها ، فبقى فى ظلمة لايبصر . والهاء والميم فى قوله (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) عائدة على الهاء والميم فى قوله (مَثَلُهُمْ) .

القول فى تأويل قول الله :

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (١٨)

قال أبو جعفر : وإذ كان تأويل قول الله جل ثناؤه (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لايُبْصِرُونَ) هو ما وصفنا من أن ذلك خبر من الله جل ثناؤه ، عما هو فاعل بالمنافقين فى الآخرة ، عند هتك أستارهم ، وإظهاره فضائح أسرارهم ، وسلبه ضياء أنوارهم من تركهم فى ظلم أهوال يوم القيامة يترددون ، وفى حنادسها لايبصرون ، فبين أن قوله جلّ ثناؤه (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام « أولَئِكَ الّذينَ اشْتَرَوُا الضّلالَةَ بالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِى اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ

(١) الموجود فى كتب النحو دعانى إليها القلب إنى لأمره .

لايُبْصِرُونَ) أو كمثل صيب من السماء . وإذ كان ذلك معنى الكلام ، فمعلوم أن قوله (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ) يأتيه الرفع من وجهين ، والنصب من وجهين . فأما أحد وجهى الرفع ، فعلى الاستئناف لما فيه من الذم ، وقد تفعل العرب ذلك فى المدح والذم ، فتنصب وترفع ، وإن كان خبرا عن معرفة ، كما قال الشاعر :

لا يَبْعُدَنْ قَوْمِى الَّذِينَ هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزُرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ وَالطَّيِّبِينَ مَعاقِدَ الأُزُرِ

فيروى : النازلون ، والنازلين ؛ وكذلك الطيبون ، والطيبين ، على ماوصفت من المدح . والوجه الآخر على نية التكرير من « أولئك » فيكون المعنى حينئذ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ) أولئك (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) .

وأما أحد وجهى النصب، فأن يكون قطعا مما فى « مهتدين » من ذكر أولئك ، لأن الذى فيه من ذكرهم معرفة ، والصم نكرة . والآخر أن يكون قطعا من « الذين » لأن الذين ، معرفة والصم نكرة ، وقد يجوز النصب فيه أيضا على وجه الذم ، فيكون ذلك وجها من النصب ثالثا ، فأما على تأويل ما روينا عن ابن عباس من غير وجه رواية علىّ بن أبى طلحة عنه ، فإنه لايجوز فيه الرفع ، إلا من وجه واحد ، وهو الاستئناف .

وأما النصب فقد يجوز فيه من وجهين : أحدهما الذمّ ، والآخر القطع من الهاء والميم اللتين فى تركهم ، أو من ذكرهم فى « لايبصرون » وقد بينا القول الذى هو أولى بالصواب فى تأويل ذلك ، والقراءة التى هى قراءة الرفع ، دون النصب ، لأنه ليس لأحد خلاف رسوم مصاحف المسلمين ، وإذا قرئ نصبا ، كانت قراءة مخالفة رسم مصاحفهم .

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن المنافقين ، أنهم باشترائهم الضلالة بالهدى ، لم يكونوا للهدى والحق مهتدين ، بل هم صمّ عنهما ، فلا يسمعونهما لغلبة خذلان الله عليهم ، بكم عن القيل بهما ، فلا ينطقون بهما . والبُكم : الخرس ، وهو جمع أبكم ، عمى عن أن يبصروهما ، فيعقلوهما ، لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون . وبمثل ماقلنا فى ذلك ، قال علماء أهل التأويل .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ) : عن الخير .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ) يقول : لايسمعون الهدى ، ولايبصرونه ، ولايعقلونه .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (بُكْمٌ) : هم الخرس .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ) : صمٌ عن الحق فلا يسمعونه ، عمى عن الحق فلا يبصرونه ، بكم عن الحق فلا ينطقون به .

القول فى تأويل قوله : (فَهُمْ لايَرْجِعُونَ)

قال أبو جعفر : وقوله (فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) إخبار من الله جل ثناؤه ، عن هؤلاء المنافقين الذين نعتهم الله باشترائهم الضلالة بالهدى ، وصممهم عن سماع الخير والحق ؛ وبكمهم عن القيل بهما ، وعماهم عن إبصارهما ،أنهم لايرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم ، ولا يتوبون إلى الإنابة من نفاقهم ، فآيس المؤمنين من أن يبصر هؤلاء رشدا ، ويقولوا حقا ، أو يسمعوا داعيا إلى الهدى ، أو أن يذكروا فيتوبوا من ضلالتهم ، كما آيس من توبة قادة كفار أهل الكتاب والمشركين وأحبارهم ، الذين وصفهم بأنه قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم ؛ وبمثل الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد، عن قتادة (فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) : أى لايتوبون ولا يذكرون .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) إلى الإسلام .

وقد روى عن ابن عباس قول يخالف معناه معنى هذا الخبر ،وهو ما حدثنا به ابن حميد، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (فَهُمْ لايَرْجِعُونَ) : أى فلا يرجعون إلى الهدى ، ولا إلى خير ، فلا يصيبون نجاة ما كانوا على ماهم عليه . وهذا تأويل ظاهر التلاوة بخلافه ، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن القوم أنهم لايرجعون عن اشترائهم الضلالة بالهدى إلى ابتغاء الهدى وإبصار الحق ، من غير حصر منه جل ذكره ذلك من حالهم إلى وقت دون وقت ، وحال دون حال . وهذا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس ، ينبئ عن أن ذلك من صفتهم محصور على وقت، وهو ماكانوا على أمرهم مقيمين، وأن لهم السبيل إلى الرجوع عنه . وذلك من التأويل دعوى باطلة ، لادلالة عليها من ظاهر ولا من خبر ، تقوم بمثله الحجة فيسلم لها .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

قال أبو جعفر : والصيب : الفيْعَل،من قولك : صاب المطر يصوب صوبا ، إذا انحدر ونزل ، كما قال الشاعر :

فَلَسْتَ لإنسيّ وَلَكِنْ لِمَلأَكٍ تَنزَّلُ مِنْ جَوِّ السماءِ يَصُوبُ

وكما قال علقمة بن عَبَدَة :

كأنَّهُمُ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحابَةٌ صَوَاعِقُها لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

فَلا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ سُقِيتِ رَوَايا المُزْنِ حِينَ تَصُوبُ

يعني حين تنحدر ، وهو في الأصل : صيوب ، ولكن الواو لما سبقتها ياء ساكنة صيرتا جميعا ياء مشددة ، كما قيل : سيد من ساد يسود ، وجيد من جاد يجود ، وكذلك تفعل العرب بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة تصيرهما جميعا ياء مشددة . وبما قلنا من القول في ذلك ، قال أهل التأويل .

حدثني محمد بن إسمعيل الأحمسي ، قال : حدثنا محمد بن عبيد ، قال : حدثنا هرون بن عنترة ، عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله (أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ) قال : القطر .

وحدثني عباس بن محمد ، قال : حدثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال لي عطاء : الصيب : المطر .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عن علي ، عن ابن عباس . قال : الصيب : المطر .

وحدثني موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : الصيب : المطر .

وحدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي سعد ، قال : حدثني عمي الحسين ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس ، مثله .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : أو كصيب ، قال : المطر .

وحدثنا الحسن[1] بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

وحدثني محمد بن عمرو الباهلي ، وعمرو بن علي ، قالا : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : الصيب : المطر .

وحدثني المثنى قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : الصيب : المطر .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، عن ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : الصيب : المطر

(١) في م : الحسين بدل الحسن .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الصيب : المطر .

وحدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) قال : أو كغيث من السماء .

وحدثنا سوّار بن عبد الله العنبرى ، قال : قال سفيان : الصيب : الذى فيه المطر .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا ابن جريج ، عن عطاء فى قوله (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) قال : المطر .

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك مثل استضاءة المنافقين بضوء إقرارهم بالإسلام ، مع استسرارهم الكفر ، مثل إضاءة موقد النار بضوء ناره على ما وصف جل ثناؤه من صفته ، أو كمثل مطر مظلم ، وَدْقُهُ يحدر من السماء ، تحمله مزنة ظلماء فى ليلة مظلمة ، وذلك هو الظلمات التى أخبر الله جل ثناؤه أنها فيه .

فإن قال لنا قائل : أخبرنا عن هذين المثلين ، أهما مثلان للمنافقين ، أو أحدهما ؟ فإن يكونا مثلين للمنافقين ، فكيف قيل (أَوْ كَصَيِّبٍ) وأو تأتى بمعنى الشك فى الكلام ، ولم يقل وكصيب ، بالواو التى تُلحق المثل الثانى بالمثل الأول ؟ أو يكون مثل القوم أحدهما ، فما وجه ذكر الآخر بأو ؟ وقد علمت أن « أو » إذا كانت فى الكلام ، فإنما تدخل فيه على وجه الشك من المخبر فيما أخبر عنه ، كقول القائل : لقينى أخوك أو أبوك ، وإنما لقيه أحدهما ، ولكنه جهل عين الذى لقيه منهما ، مع علمه أن أحدهما قد لقيه ، وغير جائز فى الله جل ثناؤه ، أن يضاف إليه الشك فى شىء ، أو عزوب علم شىء عنه فيما أخبر ، أو ترك الخبر عنه ؟ قيل له : إن الأمر فى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه ، وأو وإن كانت فى بعض الكلام تأتى بمعنى الشك ، فإنها قد تأتى دالة على مثل ما تدلّ عليه الواو ، إما بسابق من الكلام قبلها ، وإما بما يأتى بعدها ، كقول توبة بن الحمير :

وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بِأَنِّيَ فَاجِرٌ		لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا

ومعلوم أن ذلك من توبة على غير وجه الشك فيما قال ، ولكن لما كانت أو فى هذا الموضع ، دالة على مثل الذى كانت تدل عليه الواو ، ولو كانت مكانها وضعها موضعها ، وكذلك قول جرير :

جَاءَ الخِلافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا		كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ

وكما قال الآخر :

فَلَوْ كَانَ البُكَاءُ يَرُدُّ شَيْئًا		بَكَيْتُ عَلَى جُبَيْرٍ أَوْ عَنَاقِ
عَلَى المَرْأَيْنِ إِذْ مَضَيَا جَمِيعًا		لِشَأْنِهِمَا بِحُزْنٍ وَاشْتِيَاقِ

فقد دلّ بقوله : على المرأين إذ مضيا جميعا : أن بكاءه الذى أراد أن يبكيه ، لم يرد أن يقصد به أحدهما دون الآخر ، بل أراد أن يبكيهما جميعا ، فكذلك ذلك فى قول الله جل ثناؤه (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) لما كان معلوما أن « أو » دالة فى ذلك على مثل الذى كانت تدل عليه الواو ، ولو كانت مكانها كان سواء نطق فيه بأو

أوبالواو ، وكذلك وجه حذف المثل من قوله (أَوْ كَصَيِّبٍ) لما كان قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) دالا على أن معناه كمثل صيب ، حذف المثل واكتفى بدلالة مامضى من الكلام فى قوله (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) على أن معناه : أو كمثل صيب من إعادة ذكر المثل طلب الإيجاز والاختصار .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) .

قال أبو جعفر : فأما الظلمات فجمع ، واحدها ظلمة ؛ وأما الرعد فإن أهل العلم اختلفوا فيه .

فقال بعضهم : هو ملك يزجر السحاب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، قال : الرعد : ملك يزجر السحاب بصوته .

وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى يحيى بن طلحة اليربوعى ، قال : حدثنا فضيل بن عياض ، عن ليث ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم قال : أنبأنا إسمعيل بن سالم ، عن أبى صالح ، قال : الرعد : ملك من الملائكة يسبح .

وحدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى ، قال : حدثنا محمد بن يعلى ، عن أبى الخطاب البصرى ، عن شهر بن حوشب قال : الرعد : ملك موكل بالسحاب ، يسوقه كما يسوق الحادى الإبل ، يسبح ، كلما خالفت سحابة سحابة صاح بها ، فإذا اشتد غضبه طارت النار من فيه ، فهى الصواعق التى رأيتم .

وحُدثت عن المنجاب بن الحارث ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الرعد : ملك من الملائكة اسمه الرعد ، وهو الذى تسمعون صوته .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبوأحمد ، قال : حدثنا عبد الملك بن حسين ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس ، قال : الرعد : ملك يزجر السحاب بالتسبيح والتكبير .

وحدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا علىّ بن عاصم ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : الرعد : اسم ملك ، وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتدّ زجره السحاب ، اضطرب السحاب واحتك ، فتخرج الصواعق من بينه .

حدثنا الحسن ، قال : حدثنا عفان ، قال : حدثنا أبوعوانة ، عن موسى البزار ، عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس ، قال : الرعد : ملك يسوق السحاب بالتسبيح ، كما يسوق الحادى الإبل بحدائه .

حدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا يحيى بن عباد وشبابة ، قالا : ثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، قال : الرعد : ملك يزجر السحاب .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا عتاب بن زياد ، عن عكرمة. قال : الرعد : ملك فى السحاب ، يجمع السحاب كما يجمع الراعى الإبل .

وحدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : : الرعد : خلق من خلق الله جل وعز ، سامع مطيع لله جل وعز .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، قال : إن الرعد ملك يؤمر بإزجاء السحاب فيؤلف بينه ، فذلك الصوت تسبيحه .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : الرعد : مَلَك .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا الحجاج بن المنهال ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن المغيرة بن سالم ، عن أبيه أو غيره ، أن على بن أبى طالب قال : الرعد : ملك .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا حجاج ، قال : حدثنا حماد ، قال : أخبرنا موسى بن سالم أبوجهضم مولى ابن عباس ، قال : كتب ابن عباس إلى أبى الجلد يسأله عن الرعد ، فقال : الرعد : ملك .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : حدثنا عمر بن الوليد الشنى ، عن عكرمة ، قال : الرعد : ملك يسوق السحاب ، كما يسوق الراعى الإبل .

حدثنى سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : حدثنا حفص بن عمر ، قال : حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، قال : كان ابن عباس إذا سمع الرعد ، قال : سبحان الذى سبحتَ له ؛ قال ، وكان يقول : إن الرعد ملك ينعق بالغيث ، كما ينعق الراعى بغنمه .

وقال آخرون : إن الرعد ريح تختنق تحت السحاب فتصاعد ، فيكون منه ذلك الصوت.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا بشر بن إسمعيل ، عن أبى كثير ، قال : كنت عند أبى الجلد ، إذ جاءه رسول ابن عباس بكتاب إليه ، فكتب إليه : كتبتَ تسألنى عن الرعد ، فالرعد : الريح .

حدثنى إبراهيم بن عبد الله ، قال : حدثنا عمران بن ميسرة ، قال : حدثنا ابن إدريس ، عن الحسن بن الفرات ، عن أبيه ، قال : كتب ابن عباس إلى أبى الجلد يسأله عن الرعد ، فقال : الرعد : ريح .

قال أبو جعفر : فإن كان الرعد ما ذكره ابن عباس ومجاهد ، فمعنى الآية : أو كصيب من السماء فيه ظلمات وصوت رعد ، لأن الرعد إن كان ملكا يسوق السحاب ، فغير كائن فى الصيب ؛ لأن الصيب إنما هو ما تحدَّر من صوب السحاب ؛ والرعد إنما هو فى جوّ السماء يسوق السحاب ، على أنه لو كان فيه يمر ، لم يكن له صوت مسموع ، فلم يكن هنالك رعب يرعب به أحد ، لأنه قد قيل : إن مع كل قطرة من قطر المطر ملكا ، فلا يعدو الملك الذى اسمه الرعد لو كان مع الصيب ، إذا لم يكن مسموعا صوته ، أن يكون كبعض

تلك الملائكة التى تنزل مع القطر إلى الأرض، فى أن لا رعب على أحد بكونه فيه . فقد علم إذ كان الأمر على ماوصفنا من قول ابن عباس، إن معنى الآية : أو كمثل غيث تحدر من السماء فيه ظلمات وصوت رعد، إن كان الرعد هو ما قاله ابن عباس، وأنه استغنى بدلالة ذكر الرعد باسمه ، على المراد فى الكلام من ذكر صوته . وإن كان الرعد ما قاله أبو الخلد ، فلا شىء فى قوله فيه ظلمات ورعد متروك ، لأن معنى الكلام حينئذ : فيه ظلمات ورعد ، الذى هو ماوصفنا صفته .

وأما البرق ، فإن أهل العلم اختلفوا فيه :

فقال بعضهم بما حدثنا مطر بن محمد الضبى ، قال : حدثنا أبو عاصم ح ، وحدثنى محمد بن بشار ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن مهدى ح ، وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى . قالوا جميعا : حدثنا سفيان الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن أشوع ، عن ربيعة بن الأبيض ، عن علىّ ، قال : البرق : مخاريق الملائكة .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا عبد الملك بن الحسين ، عن السدى عن أبى مالك ، عن ابن عباس : البرق : مخاريق بأيدى الملائكة ، يزجرون بها السحاب .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا الحجاج ، قال : حدثنا حماد ، عن المغيرة بن سالم ، عن أبيه أو غيره . أن علىّ بن أبى طالب قال : الرعد : الملك ، والبرق : ضربه السحاب بمخراق من حديد .

وقال آخرون : هو سوط من نور ، يزجر به الملك السحاب .

حُدثت عن المنجاب بن الحرث ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس بذلك .

وقال آخرون : هو ماء .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أحمد ابن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا بشر بن إسمعيل ، عن أبى كثير ، قال : كنت عند أبى الخلد إذ جاءه رسول ابن عباس بكتاب إليه . فكتب إليه : تسألنى عن البرق ، فالبرق : الماء .

حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، قال : حدثنا عمران بن ميسرة ، قال : حدثنا ابن إدريس ، عن الحسن ابن الفرات ، عن أبيه ، قال : كتب ابن عباس إلى أبى الخلد يسأله عن البرق ، فقال : البرق : ماء .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن رجل من أهل البصرة من قرائهم ، قال : كتب ابن عباس إلى أبى الخلد : رجل من أهل هجر يسأله عن البرق . فكتب إليه : كتبت إلىّ تسألنى عن البرق ، وإنه من الماء .

وقال آخرون : هو مَصْعُ[1] ملك .

(١) مصع البرق مصعا : أومض ولمع .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سفيان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد ، قال : البرق : مصع ملك .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا هشام ، عن محمد بن مسلم الطائفى ، قال : بلغنى أن البرق ملك له أربعة أوجه : وجه إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نسر ، ووجه أسد ، فإذا مصع بأجنحته فذلك البرق .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائى ،قال: فى كتاب الله :الملائكة حملة العرش، لكل ملك منهم وجه إنسان، وثور، وأسد، فإذا حركوا أجنحتهم فهو البرق . وقال أمية بن أبى الصلت :

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ للأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

حدثنا الحسين بن محمد، قال : حدثنا علىّ بن عاصم ، عن ابن جريج، عن مجاهد ، عن ابن عباس: البرق : ملك .

وقد حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : الصواعق ملك يضرب السحاب بالمخاريق يصيب منه من يشاء .

قال أبو جعفر : وقد يحتمل أن يكون ما قاله علىّ بن أبى طالب وابن عباس ومجاهد بمعنى واحد ، وذلك أن تكون المخاريق التى ذكر علىّ رضى الله عنه أنها هى البرق ، هى السياط التى هى من نور ، التى يزجى بها الملك السحاب ، كما قال ابن عباس ، ويكون إزجاء الملك السحاب : مصعه إياه بها ، وذلك أن المِصَاع عند العرب أصله المجالدة بالسيوف ، ثم تستعمله فى كل شىء جولد به فى حرب وغير حرب ، كما قال أعشى بنى ثعلبة ، وهو يصف جوارى يلعبن بحليهن ويجالدن به :

إذَا هُنَّ نَازَلْنَ أقْرَانَهُنَّ وكانَ المِصَاعُ بِمَا فى الجُوَنْ

يقال منه : ماصعه مصاعا ، وكأن مجاهد إنما قال : مصع ملك ، إذ كان السحاب لايماصع الملك ، وإنما الرعد هو المماصع له. فجعله مصدرا من مصعه يمصعه مصعا . وقد ذكرنا ما فى معنى الصاعقة ، ما قال شهر ابن حوشب فيما مضى .

وأما تأويل الآية ، فإن أهل التأويل مختلفون فيه ؛ فروى عن ابن عباس فى ذلك أقوال :

أحدها ما حدثنا به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ) أى هم من ظلمات ماهم فيه من الكفر ، والحذر من القتل ، على الذى هم عليه من الخلاف ، والتخوّف منكم ، على مثل ماوصف من الذى هو فى ظلمة الصيب ، فجعل أصابعه فى أذنيه من الصواعق حذر الموت (يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) أى لشدة ضوء الحق (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإذَا

أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) أى يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين .

والآخر ما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) إلى (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : أما الصيب والمطر ، كانا رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين . فأصابهما هذا المطر الذى ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق . فجعلا كلما أضاء لهما الصواعق ، جعلا أصابعهما فى آذانهما من الفرَق أن تدخل الصواعق فى مسامعهما فتقتلهما ، وإذا لمع البرق مشوا فى ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا ، قاما مكانهما لايمشيان ، فجعلا يقولان : ليتنا قد أصبحنا فنأتى محمدا فنضع أيدينا فى يده ، فأصبحا فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما فى يده وحسن إسلامهما . فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين ، مثلا للمنافقين الذين بالمدينة . وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم فرقا من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، أن ينزل فيهم شىء ، أو يذكروا بشىء فيقتلوا . كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما فى آذانهما ، وإذا أضاء لهم مشوا فيه ، فإذا كثرت أموالهم وولد لهم الغلمان ، وأصابوا غنيمة أو فتحا ، مشوا فيه ، وقالوا : إن دين محمد صلى الله عليه وسلم دين صدق ، فاستقاموا عليه ، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، فكانوا إذا هلكت أموالهم ، وولد لهم الجوارى ، وأصابهم البلاء ، قالوا : هذا من أجل دين محمد ، فارتدّوا كفارا ، كما قام ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما .

والثالث ما حدثنى به محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) كمطر فيه ظلمات ورعد وبرق إلى آخر الآية ، هو مثل المنافق فى ضوء ما تكلم بما معه من كتاب الله ، وعمل مراءاة للناس ، فإذا خلا وحده عمل بغيره ، فهو فى ظلمة ما أقام على ذلك ، وأما الظلمات فالضلالة ، وأما البرق فالإيمان . وهم أهل الكتاب ، وإذا أظلم عليهم ، فهو رجل يأخذ بطرف الحق لايستطيع أن يجاوزه .

والرابع ماحدثنى به المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) وهو المطر ، ضرب مثله فى القرآن ، يقول فيه ظلمات ، يقول : ابتلاء ورعد ، يقول فيه : تخويف وبرق (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) يقول : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) يقول : كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزّا اطمأنوا ، وإن أصاب الإسلام نكبة ، قالوا : ارجعوا إلى الكفر ، يقول : (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) كقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) إلى آخر الآية .

ثم اختلف سائر أهل التأويل بعد ذلك، فى نظير ما روى عن ابن عباس من الاختلاف؛ فحدثنى محمد ابن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبوعاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد ، قال : إضاءة البرق وإظلامه ، على نحو ذلك المثل .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال: حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، مثله .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال: حدثنا أبوعاصم، قال: حدثنا عيسى ،عن ابن أبى نجيح ،عن مجاهد، مثله .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة فى قول الله « فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » إلى قوله (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) : فالمنافق إذا رأى فى الإسلام رخاء أو طمأنينة أو سلوة من عيش، قال: أنا معكم وأنا منكم؛ وإذا أصابته شدة،حقحق والله عندها، فانقطع به فلم يصبر على بلائها ، ولم يحتسب أجرها ، ولم يرج عاقبتها .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) يقول : أخبر عن قوم لايسمعون شيئا إلا ظنوا أنهم هالكون فيه حذرا من الموت ، والله محيط بالكافرين . ثم ضرب لهم مثلا آخر فقال (يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) يقول هذا المنافق إذا كثر ماله وكثرت ماشيته ، وأصابته عافية ، قال : لم يصبنى منذ دخلت فى دينى هذا إلا خير (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) يقول : إذا ذهبت أموالهم ، وهلكت مواشيهم ، وأصابهم البلاء ، قاموا متحيرين .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ابن أنس (فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) قال : مثلهم كمثل قوم ساروا فى ليلة مظلمة ، ولها مطر ورعد وبرق على جادة ، فلما أبرقت أبصروا الجادّة فمضوا فيها ، وإذا ذهب البرق تحيروا ، وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له ، فإذا شك تحير ، ووقع فى الظلمة ، فكذلك قوله (كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) ثم قال: فى أسماعهم وأبصارهم التى عاشوا بها فى الناس (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ) .

قال أبو جعفر : وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا أبو نميلة ، عن عبيد بن سليمان الباهلى ، عن الضحاك بن مزاحم (فِيهِ ظُلُماتٌ) قال : أما الظلمات : فالضلالة ؛ والبرق : الإيمان .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن زيد فى قوله (فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) فقرأ حتى بلغ (إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قال : هذا أيضا مثل ضربه الله للمنافقين ، كانوا قد استناروا بالإسلام ، كما استنار هذا بنور هذا البرق .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : ليس شىء فى الأرض سمعه المنافق إلا ظنّ أنه يراد به ، وأنه الموت ، كراهية له، والمنافق أكره خلق الله للموت ، كما إذا كانوا بالبراز فى المطر ، فرّوا من الصواعق .

حدثنا عمرو بن على ، قال : حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا ابن جريج ، عن عطاء فى قوله (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) قال : مثل ضرب للكافر .

وهذه الأقوال التى ذكرنا عمن رويناها عنه ، فإنها وإن اختلفت فيها ألفاظ قائليها، متقاربات المعانى ، لأنها جميعا تنبئ عن أن الله ضرب الصيب لظاهر إيمان المنافق مثلا ، ومثل ما فيه من ظلمات بضلالته . وما فيه من ضياء برق بنور إيمانه ، واتقاءه من الصواعق بتصيير أصابعه فى أذنيه بضعف جنانه ، وتحير فؤاده ، من حلول عقوبة الله بساحته ، ومشيه فى ضوء البرق باستقامته على نور إيمانه ، وقيامه فى الظلام بحيرته فى ضلالته وارتكاسه فى عمهه .

فتأويل الآية إذاً ، إذا كان الأمر على ما وصفنا : أو مثل ما استضاء به المنافقون من قيلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، بألسنتهم : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وبمحمد وما جاء به ، حتى صار لهم بذلك فى الدنيا أحكام المؤمنين ، وهم مع إظهارهم بألسنتهم ما يظهرون بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر مكذّبون ، ولخلاف ما يظهرون بالألسن فى قلوبهم معتقدون ، على عمى منهم وجهالة بما هم عليه من الضلالة ، لا يدرون أىّ الأمرين اللذين قد شرعا لهم ، الهداية فى الكفر الذى كانوا عليه ، قبل إرسال الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، بما أرسله به إليهم ، أم فى الذى أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربهم ! ! فهم من وعيد الله إياهم ، على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وجلون ، وهم مع وجلهم من ذلك فى حقيقته شاكون (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) كمثل غيث سرى ليلا فى مزنة ظلماء ، وليل مظلمة يحدوها رعد ويستطير فى حافاتها برق شديد لمعانه كثير خطرانه (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه ، وينهبط منها تارات صواعق ، تكاد تدع النفوس من شدة أهوالها زواهق ، فالصيب مثل لظاهر ما أظهر المنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق ، والظلمات التى هى فيه لظلمات ما هم مستبطنون من الشك والتكذيب ومرض القلوب ؛ وأما الرعد والصواعق فلما هم عليه من الوجل من وعيد الله إياهم ، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فى آى كتابه ، إما فى العاجل ، وإما فى الآجل أن يحل بهم ، مع شكهم فى ذلك هل هو كائن ، أم غير كائن ؟ وهل له حقيقة أم ذلك كذب وباطل مثل ، فهم من وجلهم أن يكون ذلك حقا ، يتقونه بالإقرار بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بألسنتهم ، مخافة على أنفسهم من الهلاك ونزول النقمات ، وذلك تأويل قوله جل ثناؤه (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) يعنى بذلك : يتقون وعيد الله الذى أنزله فى كتابه ، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، بما يبدونه بألسنتهم من ظاهر الإقرار ، كما يتقى الخائف أصوات الصواعق بتغطية أذنيه ، وتصيير أصابعه فيها ، حذرا على نفسه منها .

وقد ذكرنا الخبر الذى روى عن ابن مسعود وابن عباس ، أنهما كانا يقولان : إن المنافقين كانوا إذا حضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أدخلوا أصابعهم فى آذانهم ، فرقا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن ينزل فيهم شىء ، أو يذكروا بشيء فيقتلوا ، فإن كان ذلك صحيحا ، ولست أعلمه صحيحا

إذ كنت بإسناده مرتابا ، فإن القول الذى روى عنهما هو القول وإن يكن غير صحيح . فأولى بتأويل الآية ماقلنا، لأن الله إنما قص علينا من خبرهم فى أول مبتدأ قصصهم، أنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين بقولهم: آمنا بالله ، وباليوم الآخر ، مع شك قلوبهم ومرض أفئدتهم فى حقيقة مازعموا أنهم به مؤمنون ، مما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند ربهم ، وبذلك وصفهم فى جميع آى القرآن التى ذكر فيها صفتهم، فكذلك ذلك فى هذه الآية .

وإنما جعل الله إدخالهم أصابعهم فى آذانهم ،مثلا لاتقائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، بما ذكرنا أنهم يتقونهم به ، كما يتقى سامع صوت الصاعقة بإدخال أصابعه فى أذنيه ، وذلك من المثل نظير تمثيل الله جل ثناؤه ،ما أنزل فيهم من الوعيد فى آى كتابه بأصوات الصواعق ، وكذلك قوله (حَذَرَ المَوْتِ) جعله جل ثناؤه مثلا لخوفهم وإشفاقهم من حلول عاجل العقاب المهلك الذى توعده بساحتهم ، كما يجعل سامع أصوات الصواعق أصابعه فى أذنيه ، حذر العطب والموت على نفسه أن تزهق من شدتها .

إنما نصب قوله (حَذَرَ المَوْتِ) ، على نحو ماتنصب به التكرمة فى قولك : زرتك تكرمة لك ، تريد بذلك من أجل تكرمتك ، وكما قال جل ثناؤه: (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) على التفسير للفعل . وقدروى عن قتادة أنه كان يتأول قوله (حَذَرَ المَوْتِ) : حذرا من الموت . حدثنا بذلك الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر عنه .

وذلك مذهب من التأويل ضعيف ، لأن القوم لم يجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذرا من الموت ، فيكون معناه ماقال إنه مراد بهحذرا من الموت ، وإنما جعلوها من حذار الموت فى آذانهم .

وكان قتادة وابن جريج يتأولان قوله (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ) أن ذلك من الله جل ثناؤه صفة للمنافقين بالهلع ، وضعف القلوب ، وكراهة الموت ، ويتأولان فى ذلك قوله (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) وليس الأمر فى ذلك عندى كالذى قالا ، وذلك أنه قد كان فيهم من لاتنكر شجاعته ولا تدفع بسالته ، كقزمان الذى لم يقم مقامه أحد من المؤمنين بأحد ودونه ؛ وإنما كانت كراهتهم شهود المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتركهم معاونته على أعدائه ، لأنهم لم يكونوا فى أديانهم مستبصرين ، ولا برسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين ، فكانوا للحضور معه مشاهده كارهين ، إلا بالتخذيل عنه ، ولكن ذلك وصف من الله جل ثناؤه لهم ، بالإشفاق من حلول عقوبة الله بهم على نفاقهم ، إما عاجلا وإما آجلا .

ثم أخبر جل ثناؤه : أن المنافقين الذين نعتهم النعت الذى ذكر ، وضرب لهم الأمثال التى وصف ، وإن اتقوا عقابه وأشفقوا عذابه إشفاق الجاعل فى أذنيه أصابعه ، حذار حلول الوعيد الذى توعدهم به فى آى كتابه ، غير منجيهم ذلك من نزوله بعقوبتهم ، وحلوله بساحتهم ، إما عاجلا فى الدنيا ، وإما آجلا فى الآخرة ، للذى فى قلوبهم من مرضها ، والشك فى اعتقادها ، فقال : (وَاللهُ مُحِيطٌ بالكافرِينَ) بمعنى جامعهم ، فمحلٌّ بهم عقوبته .

وكان مجاهد يتأوّل ذلك ، كما حدثني محمد بن عمرو الباهلي ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله (وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكافرين) قال : جامعهم في جهنم .

وأما ابن عباس ، فروى عنه في ذلك ماحدثني به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكافرينَ) يقول : الله منزل ذلك بهم من النقمة .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج عن ابن جريج ، عن مجاهد في قوله (وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكافرينَ) قال : جامعهم ، ثم عاد جل ذكره إلى نعت إقرار المنافقين بألسنتهم ، والخبر عنه وعنهم وعن نفاقهم ، وإتمام المثل الذى ابتدأ ضربه لهم ولشكهم ومرض قلوبهم ، فقال : (يَكَادُ البَرْقُ) يعني بالبرق : الإقرار الذى أظهروه بألسنتهم بالله وبرسوله ، وما جاء به من عند ربهم ، فجعل البرق له مثلا على ماقدمنا صفته (يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) يعني يذهب بها ويستلبها ويلتمعها ، من شدة ضيائه ونور شعاعه .

كما حدثت عن المنجاب بن الحرث ، قال : حدثنا بشر بن عمار ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله (يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) قال : يلتمع أبصارهم ولما يفعل .

قال أبو جعفر : والخطف : السلب ، ومنه الخبر الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه نهى عن الخطفة » يعني بها النهبة ؛ ومنه قيل للخطاف الذى يخرج به الدلو من البئر خطاف ، لاختطافه واستلابه ماعلق به . ومنه قول نابغة بني ذبيان :

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ   تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ

فجعل ضوء البرق وشدة شعاع نوره ، كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله واليوم الآخر وشعاع نوره مثلا .

ثم قال تعالى ذكره : (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ) يعني أن البرق كلما أضاء لهم ، وجعل البرق لإيمانهم مثلا ، وإنما أراد بذلك أنهم كلما أضاء لهم الإيمان ، وإضاءته لهم أن يروا فيه ما يعجبهم في عاجل دنياهم من النصرة على الأعداء ، وإصابة الغنائم في المغازى ، وكثرة الفتوح ومنافعها ، والثراء في الأموال ، والسلامة في الأبدان والأهل والأولاد . فذلك إضاءته لهم . لأنهم إنما يظهرون بألسنتهم مايظهرونه من الإقرار ابتغاء ذلك ، ومدافعة عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم . وهم كما وصفهم الله جل ثناؤه بقوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) .

ويعني بقوله (مَشَوْا فِيهِ) مشوا في ضوء البرق ، وإنما ذلك مثل لإقرارهم على ماوصفنا ، فمعناه كلما رأوا في الإيمان مايعجبهم في عاجل دنياهم على ماوصفنا ، ثبتوا عليه وأقاموا فيه ، كما يمشي السائر في ظلمة الليل ، وظلمة الصيب الذى وصفه جل ثناؤه ، إذا برقت فيها بارقة أبصر طريقه فيها (وَإِذَا أَظْلَمَ) يعني ذهب ضوء البرق عنهم . ويعني بقوله « عليهم » على السائرين في الصيب ، الذى وصف جل ذكره ، وذلك للمنافقين مثل . ومعنى إظلام ذلك : أن المنافقين كلما لم يروا في الإسلام مايعجبهم

فى دنياهم، عند ابتلاء الله مؤمنى عباده بالضرّاء ، وتمحيصه إياهم بالشدائد والبلاء ، من إخفاقهم فى مغزاهم وإنالة عدوّهم منهم ، أو إدبار من دنياهم عنهم ، قاموا على نفاقهم وثبتوا على ضلالتهم ، كما قام السائرون فى الصيّب الذى وصف جل ذكره ، إذا أظلم وخفت ضوء البرق ، فحار فى طريقه، فلم يعرف منهجه .

القول فى تأويل قوله : (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ)

قال أبو جعفر : وإنما خص جل ذكره السمع والأبصار ،بأنه لو شاء أذهبها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامهم ، للذى جرى من ذكرها فى الآيتين ، أعنى قوله (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ) وقوله (يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) فجرى ذكرها فى الآيتين على وجه المثل، ثم عقب جل ثناؤه ذكر ذلك بأنه لو شاء أذهبه من المنافقين، عقوبة لهم على نفاقهم وكفرهم ، وعيدا من الله لهم ، كما توعدهم فى الآية التى قبلها بقوله (وَاللهُ مُحِيطٌ بالكافِرِينَ) واصفا بذلك جل ذكره ، نفسه أنه المقتدر عليهم وعلى جمعهم ، لإحلال سخطه بهم ، وإنزال نقمته عليهم ، ومحذرهم بذلك سطوته ، ومخوّفهم به عقوبته ، ليتقوا بأسه ويسارعوا إليه بالتوبة .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ) لما تركوا من الحق بعد معرفته .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : ثم قال ـ يعنى قال الله فى أسماعهم ـ يعنى أسماع المنافقين وأبصارهم التى عاشوا بها فى الناس (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ) .

قال أبو جعفر : وإنما معنى قوله (لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ) لأذهب سمعهم وأبصارهم ، ولكن العرب إذا أدخلوا الباء فى مثل ذلك قالوا : ذهبت ببصره ، وإذا حذفوا الباء قالوا : أذهبت بصره كما قال جل ثناؤه : (آتِنا غَدَاءَنا) ولو أدخلت الباء فى الغداء لقيل ائتنا بغدائنا .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل ، وكيف قيل (لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ) فوحد ، وقال : (وأَبْصَارِهِمْ) فجمع ، وقد علمت أن الخبر فى السمع خبر عن سمع جماعة ، كما الخبر فى الأبصار خبر عن أبصار جماعة ؟ قيل : قد اختلف أهل العربية فى ذلك ؛ فقال بعض نحويى الكوفة : وحد السمع لأنه عنى به المصدر ، وقصد به الحرق ، وجمع الأبصار لأنه عنى به الأعين . وكان بعض نحويى البصرة يزعم أن السمع وإن كان فى لفظ واحد، فإنه بمعنى جماعة، ويحتج فى ذلك بقول الله (لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) يريد لاترتد إليهم أطرافهم ، وبقوله (وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) يراد به أدبارهم . وإنما جاز ذلك عندى ، لأن فى الكلام ما يدلّ على أنه مراد به الجمع ، فكان فيه دلالة على المراد منه ، وأدّى معنى الواحد من السمع عن معنى جماعة مغنيا عن جماعة، ولو فعل بالبصر نظير الذى فعل بالسمع ،أو فعل بالسمع نظير الذى فعل

بالأبصار ، من الجمع والتوحيد ، كان فصيحا صحيحا لِمَا ذكرنا من العلة ، كما قال الشاعر :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُو تَعِفُّوا فَإِنَّ زَمَانَنَا زَمَنٌ خَمِيصُ

فوحد البطن ، والمراد منه البطون لما وصفنا من العلة .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قال أبو جعفر : وإنما وصف الله نفسه جل ذكره بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع ، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ثم قال : فاتقونى أيها المنافقون ، واحذروا خداعى وخداع رسولى وأهل الإيمان بى ، لاأحلّ بكم نقمتى ، فإنى على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير . ومعنى قدير : قادر ، كما معنى عليم : عالم ، على ماوصفت فيما تقدم من نظائره ، من زيادة معنى فعيل على فاعل ، فى المدح والذم .

القول فى تأويل قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)

قال أبو جعفر : فأمر جل ثناؤه الفريقين ، اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه سواء عليهم أأنذروا أم لم ينذروا أنهم لايؤمنون ، لطبعه على قلوبهم ، وعلى سمعهم وأبصارهم ، وعن الآخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدى بلسانه من قيله آمنا بالله وباليوم الآخر ، مع استبطانه خلاف ذلك ، ومرض قلبه ، وشكه فى حقيقة مايبدى من ذلك ، وغيرهم من سائر خلقه ، المكلفين بالاستكانة والخضوع له بالطاعة ، وإفراد الربوبية له والعبادة ، دون الأوثان والأصنام والآلهة . لأنه جل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم ، وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم ، فقال لهم جل ذكره : فالذى خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم ، وهو يقدر على ضركم ونفعكم ، أولى بالطاعة ممن لايقدر لكم على نفع ولا ضر . وكان ابن عباس فيما روى لنا عنه ، يقول فى ذلك نظير ما قلنا فيه ، غير أنه ذكر عنه أنه كان يقول فى معنى (اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) وحّدوا ربكم ، وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة ، والذى أراد ابن عباس إن شاء الله بقوله فى تأويل قوله (اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) : وحدوه ، أى أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال الله : (يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين ، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، عن أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم (يا أيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) يقول : خلقكم وخلق الذين من قبلكم .

قال أبو جعفر : وهذه الآية من أدل دليل على فساد قول من زعم ، أن تكليف مالايطاق إلا بمعونة الله، غير جائز إلا بعد إعطاء الله المكلف المعونة على ما كلفه، وذلك أن الله أمر من وصفنا بعبادته، والتوبة من كفره بعد إخباره عنهم أنهم لايؤمنون ، وأنهم عن ضلالتهم لايرجعون .

القول فى تأويل قوله : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : لعلكم تتقون بعبادتكم ربكم الذى خلقكم ، وطاعتكم إياه فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، وإفرادكم له بالعبادة لتتقوا سخطه وغضبه أن يحل عليكم، وتكونوا من المتقين الذين رضى عنهم ربهم .

وكان مجاهد يقول فى تأويل قوله (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : تطيعون .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنى أبى عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) قال : لعلكم تطيعون .

قال أبو جعفر : والذى أظن أن مجاهدا أراد بقوله هذا، لعلكم أن تتقوا ربكم بطاعتكم إياه ،وإقلاعكم عن ضلالتكم .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : فكيف قال جل ثناؤه (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ؟ أو لم يكن عالما بما يصير إليه أمرهم ، إذا هم عبدوه وأطاعوه ، حتى قال لهم : لعلكم إذا فعلتم ذلك أن تتقوا ، فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم إياه مخرج الشك ؟ قيل له : ذلك على غير المعنى الذى توهمت ، وإنما معنى ذلك : اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم، لتتقوه بطاعته وتوحيده ، وإفراده بالربوبية والعبادة ، كما قال الشاعر :

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الحُرُوبَ لَعَلَّنَا ... نَكُفُّ وَوَثَّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ

فَلَمَّا كَفَفْنَا الحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ ... كَلَمْحِ سَرَابٍ فِي الفَلَا مُتَأَلِّقِ

يريد بذلك : قلتم لنا كفوا لنكفّ ؛ وذلك أن لعلّ فى هذا الموضع ، لو كان شكا ، لم يكونوا وثقوا لهم كل موثق .

القول فى تأويل قوله :

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

وقوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا) مردود على «الذى» الأولى فى قوله (اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) وهما جميعا من نعت ربكم، فكأنه قال : اعبدوا ربكم الخالقكم ، والخالق الذين من قبلكم ، الجاعل لكم الأرض فراشا ؛ يعنى بذلك أنه جعل لكم الأرض مهادا وموطئا وقرارا يستقرّ

عليها . يذكر ربنا جل ذكره بذلك من قبله، زيادة نعمه عندهم وآلائه لديهم ، ليذكروا أياديه عندهم فينيبوا إلى طاعته ، تعطفا منه بذلك عليهم ، ورأفة منه بهم ، ورحمة لهم من غير ماحاجة منه إلى عبادتهم ، ولكن ليتم نعمته عليهم ، ولعلهم يهتدون .

كما حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً) فهى فراش يمشى عليها ، وهى المهاد والقرار .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً) قال : مهادا لكم .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، عن عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً) : أى مهادا .

القول فى تأويل قوله (وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)

قال أبو جعفر : وإنما سميت السماء سماء ، لعلوّها على الأرض ، وعلى سكانها من خلقه ، وكل شىء كان فوق شىء آخر ، فهو لما تحته سماء . ولذلك قيل لسقف البيت سماوه ، لأنه فوقه مرتفع عليه . ولذلك قيل سما فلان لفلان ، إذا أشرف له وقصد نحوه عاليا عليه ، كما قال الفرزدق :

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ اليَمَانِي وأَهْلِهِ ... وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُه

وكما قال نابغة بنى ذبيان :

سَمَتْ لِى نَظْرَةٌ فَرَأَيْتُ مِنْهَا ... تُحَيْتَ الخِدْرِ وَاضِعَةَ القِرَامِ

يريد بذلك : أشرفت لى نظرة وبدت ، فكذلك السماء ، سميت للأرض سماء ، لعلوها وإشرافها عليها .

كما حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) فبناء السماء على الأرض كهيئة القبة ، وهى سقف على الأرض .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة فى قول الله (وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) قال : جعل السماء سقفا لك ، وإنما ذكر السماء والأرض جل ثناؤه ، فيما عدّد عليهم من نعمه التى أنعمها عليهم . لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم ، وبهما قوام دنياهم ؛ فأعلمهم أن الذى خلقهما ، وخلق جميع ما فيهما ، وما هم فيه من النعم هو المستحقّ عليهم الطاعة ، والمستوجب منهم الشكر والعبادة ، دون الأصنام والأوثان ، التى لاتضرّ ولا تنفع .

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه : (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) يعنى بذلك أنه أنزل من السماء مطرا ، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه فى الأرض ، من زرعهم

وغرسهم ثمرات رزقا لهم غذاء وأقواتا ، فنبههم بذلك على قدرته وسلطانه ، وذكرهم به آلاءه لديهم ، وأنه هو الذى خلقهم ، وهو الذى يرزقهم ويكفلهم ، دون من جعلوه له ندا وعدلا من الأوثان والآلهة ، ثم زجرهم عن أن يجعلوا له ندا ، مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم ، وأنه لاندّ له ولا عدل ، ولا لهم نافع ولا ضارّ ، ولا خالق ولا رازق سواه .

القول فى تأويل قوله تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) .

قال أبوجعفر : والأنداد ، جمع ندّ ، والندّ : العدل والمثل ، كما قال حسان بن ثابت :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

يعنى بقوله : ولست له بند : لست له بمثل ولاعدل ، وكل شىء كان نظيرا لشىء وشبيها ، فهو له ند .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) أى عدلاء .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنى أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) أى عدلاء .

وحدثنى موسى بن هارون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) قال : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن يزيد فى قول الله (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) قال : الأنداد : الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ماجعلوا له .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، فى قوله (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) قال : أشباها .

حدثنى محمد بن سنان ، قال حدثنا أبو عاصم عن شبيب عن عكرمة (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا) أى تقولوا : لولا كلبنا لدخل علينا اللصّ الدار ، لولا كلبنا صاح فى الدار ، ونحو ذلك ، فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئا ، وأن يعبدوا غيره ، أو يتخذوا له ندّا وعدلا فى الطاعة ، فقال : كما لاشريك لى فى خلقكم وفى رزقكم الذى أرزقكم ، وملكى إياكم ، ونعمتى التى أنعمتها عليكم ، فكذلك فأفردوا لى الطاعة ، وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكا وندّا من خلقى ، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم منى .

القول فى تأويل قوله : (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

اختلف أهل التأويل فى الذين عنوا بهذه الآية ، فقال بعضهم : عنى بها جميع المشركين ، من مشركى العرب وأهل الكتاب . وقال بعضهم : عنى بذلك أهل الكتابين : التوراة ، والإنجيل .

ذكر من قال عنى بها جميع عبدة الأوثان من العرب وكفار أهل الكتابين :

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد

مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : نزل ذلك فى الفريقين جميعا من الكفار والمنافقين ، وإنما عنى بقوله (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أى لاتشركوا بالله غيره من الأنداد التى لاتنفع ولا تضرّ ، وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده ، هو الحقّ لاشك فيه .

حدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد عن سعيد ، عن قتادة فى قوله (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أى تعلمون أن الله خلقكم وخلق السموات والأرض ، ثم تجعلون له أندادا ؟ .

ذكر من قال : عنى بذلك أهل الكتابين :

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا قبيصة ، قال : حدثنا سفيان عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يقول : وأنتم تعلمون أنه لاندّ له فى التوراة والإنجيل .

قال أبو جعفر : وأحسب أن الذى دعا مجاهدا إلى هذا التأويل ، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم ، الظنّ منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها ، بجحودها وحدانية ربها ، وإشراكها معه فى العبادة غيره ، وإن ذلك لقولٌ ، ولكن الله جل ثناؤه ، قد أخبر فى كتابه عنها أنها كانت تقرّ بوحدانيته ، غير أنها كانت تشرك فى عبادته ما كانت تشرك فيها ، فقال جل ثناؤه : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) ، وقال : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

فالذى هو أولى بتأويل قوله (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله ، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم ، نظير الذى كان من ذلك عند أهل الكتابين ، ولم يكن فى الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه ، عنى بقوله (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أحد الحزبين ، بل مخرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم ، لأنه تحدّى الناس كلهم بقوله (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) أن يكون تأويله ماقاله ابن عباس وقتادة ، من أنه يعنى بذلك كل مكلف عالم بوحدانية الله ، وأنه لاشريك له فى خلقه يشرك معه فى عبادته غيره ، كائنا من كان من الناس عربيا كان أو أعجميا ، كاتبا أو أميا ، وإن كان الخطاب لكفار أهل الكتاب ، الذين كانوا حوالى دار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل النفاق منهم ، وممن بين ظهرانيهم ممن كان مشركا ، فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

القول فى تأويل قوله :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)

قال أبو جعفر : وهذا من الله عزّ وجلّ ، احتجاج لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، على مشركى قومه من العرب ومنافقيهم ، وكفار أهل الكتاب وضلّالهم ، الذين افتتح بقصصهم قوله جلّ ثناؤه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ) وإياهم يخاطب بهذه الآيات . وأخبر بأهمّ نعوتها ، قال الله جل ثناؤه : وإن كنتم أيها المشركون من العرب ، والكفار من أهل الكتابين ، فى شكّ ، وهو الريب ، مما نزّلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندى ، وأنى الذى أنزلته إليه ، فلم تؤمنوا به ، ولم تصدّقوه فيما يقول ، فأتوا بحجة تدفع حجته ؛ لأنكم تعلمون أن حجة كل ذى نبوّة على صدقه فى دعواه النبوّة ، أن يأتى ببرهان يعجز عن أن يأتى بمثله جميع الخلق ، ومن حجة محمد صلى الله عليه وسلم على صدقه وبرهانه على نبوّته ، وأن ماجاء به من عندى ، عجز جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم ، عن أن تأتوا بسورة من مثله ، وإذا عجزتم عن ذلك وأنتم أهل البراعة فى الفصاحة والبلاغة والدراية ، فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز ، كما كان برهان من سلف من رسلى وأنبيائى على صدقه ، وحجته على نبوّته ، من الآيات ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقى ، فيتقرّر حينئذ عندكم أن محمدا لم يتقوّله ولم يختلقه ، لأن ذلك لو كان منه اختلاقا وتقوّلا ، لم يعجزوا وجميع خلقى عن الإتيان بمثله ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يعدُ أن يكون بشرا مثلكم ، وفى مثل حالكم فى الجسم ، وبسطة الخلق وذرابة اللسان ، فيمكن أن يظن به اقتدار على ماعجزتم عنه ؛ أو يتوهم منكم عجز عما اقتدر عليه .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) فحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) يعنى من مثل هذا القرآن حقا وصدقا ، لاباطل فيه ولا كذب .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) يقول : بسورة مثل هذا القرآن .

وحدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبوعاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) مثل القرآن .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) قال : مثله مثل القرآن .

فمعنى قول مجاهد وقتادة اللذين ذكرنا عنهما ، أن الله جل ذكره ، قال لمن حاجه فى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار : فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ، من كلامكم أيتها العرب ، كما أتى به محمد بلغاتكم ومعانى منطقكم .

وقد قال قوم آخرون : إن معنى قوله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) : من مثل محمد من البشر ، لأن محمدا بشر مثلكم .

قال أبو جعفر : والتأويل الأول الذى قاله مجاهد وقتادة هو التأويل الصحيح ، لأن الله جل ثناؤه قال فى سورة أخرى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيه ، فيجوز أن يقال : فأتوا بسورة مثل محمد .

فإن قال قائل : إنك ذكرت أن الله عنى بقوله (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) من مثل هذا القرآن ، فهل للقرآن من مثل ، فيقال : ائتوا بسورة من مثله ؟ قيل : إنه لم يعن به : ائتوا بسورة من مثله فى التأليف والمعانى التى باين بها سائر الكلام غيره . وإنما عنى : ائتوا بسورة من مثله فى البيان ، لأن القرآن أنزله الله بلسان عربى ، فكلام العرب لاشك له مثل فى معنى العربية ؛ فأما فى المعنى الذى باين به القرآن سائر كلام المخلوقين ، فلا مثل له من ذلك الوجه ولا نظير ولا شبيه . وإنما احتجّ الله جل ثناؤه عليهم لنبيه صلى الله عليه وسلم ، بما احتجّ له عليهم من القرآن ، إذ ظهر عجز القوم عن أن يأتوا بسورة من مثله فى البيان ، إذ كان القرآن بيانا مثل بيانهم ، وكلاما نزل بلسانهم ، فقال لهم جل ثناؤه : وإن كنتم فى ريب من أنّ ما أنزلت على عبدى من القرآن من عندى ، فأتوا بسورة من كلامكم ، الذى هو مثله فى العربية ، إذ كنتم عربا ، وهو بيان نظير بيانكم ، وكلام شبيه كلامكم ، فلم يكلفهم جل ثناؤه ، أن يأتوا بسورة من غير اللسان الذى هو نظير اللسان الذى نزل به القرآن ، فيقدروا أن يقولوا : كلفتنا ما لو أحسناه أتينا به ، وإنا لانقدر على الإتيان به ، لأنا لسنا من أهل اللسان الذى كلفتنا الإتيان به ، فليس لك علينا حجة بهذا ، لأنا وإن عجزنا عن أن نأتى بمثله من غير ألسنتنا ، لأنا لسنا بأهله ، ففى الناس خلق كثير من غير أهل لساننا ، يقدر على أن يأتى بمثله من اللسان الذى كلفتنا الإتيان به ، ولكنه جل ثناؤه قال لهم (ائْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) لأن مثله من الألسن ألسنتكم ، وأنتم - إن كان محمد اختلقه وافتراه - إذا اجتمعتم وتظاهرتم على الإتيان بمثل سورة منه من لسانكم وبيانكم ، أقدر على اختلاقه ووضعه وتأليفه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن لم تكونوا أقدر عليه منه ، فلن تعجزوا وأنتم جميع عما قدر عليه محمد من ذلك وهو وحده ، إن كنتم صادقين فى دعواكم وزعمكم ، أن محمدا افتراه واختلقه ، وأنه من عند غيرى .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

فقال ابن عباس بما حدثنا به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ، عن ابن عباس (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) يعنى أعوانكم على ما أنتم عليه (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ) ناس يشهدون .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، قال : قوم يشهدون لكم .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ) قال : ناس يشهدون . قال ابن جريج : شهداءكم عليها إذا أتيتم بها أنها مثله مثل القرآن ، وذلك قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وقوله (فادْعُوا) يعنى استنصروا واستعينوا ، كما قال الشاعر :

فَلَمَّا الْتَقَتْ فُرْسَانُنا وَرِجالُهُمْ		دَعَوْا يالَكَعْبٍ واعْتَزَيْنا لِعامِرِ

يعنى بقوله : دعوا يالكعب : استنصروا كعبا واستعانوا بهم .

وأما الشهداء فإنها جمع شهيد ، كالشركاء جمع شريك ، والخطباء جمع خطيب . والشهيد يسمى به الشاهد على الشىء لغيره بما يحقق دعواه ، وقد يسمى به المشاهد للشىء ، كما يقال فلان جليس فلان ، يعنى به مجالسه ، ونديمه يعنى به منادمه ، وكذلك يقال : شهيده يعنى به مشاهده ، فإذ كانت الشهداء محتملة أن تكون جمع الشهيد الذى هو منصرف للمعنيين اللذين وصفت .

فأولى وجهيه بتأويل الآية ، ما قاله ابن عباس ، وهو أن يكون معناه : واستنصروا على أن تأتوا بسورة من مثله ، أعوانكم وشهداءكم ، الذين يشاهدونكم ويعاونونكم على تكذيبكم الله ورسوله ، ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم ، إن كنتم محقين فى جحودكم أن ما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم اختلاق وافتراء ، لتمتحنوا أنفسكم وغيركم ، هل تقدرون على أن تأتوا بسورة من مثله ، فيقدر محمد على أن يأتى بجميعه من قبل نفسه اختلاقا .

وأما ماقاله مجاهد وابن جريج ، فى تأويل ذلك فلا وجه له . لأن القوم كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصنافا ثلاثة : أهل إيمان صحيح ، وأهل كفر صحيح ، وأهل نفاق بين ذلك ، فأهل الإيمان كانوا بالله وبرسوله مؤمنين ، فكان من المحال أن يدعى الكفار أن لهم شهداء على حقيقة ما كانوا يأتون به ، لوأتوا باختلاق من الرسالة ، ثم ادعوا أنه للقرآن نظير من المؤمنين . فأما أهل النفاق والكفر ، فلا شك أنهم لو دعوا إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق ، لسارعوا إليه مع كفرهم وضلالهم ، فمن أى الفريقين كانت تكون شهداؤهم لو ادّعوا أنهم قد أتوا بسورة من مثل القرآن ؟ ؟ ولكن ذلك كما قال جل ثناؤه : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لايأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) فأخبر جل ثناؤه فى هذه الآية ، أن مثل القرآن لايأتى به الجن والإنس ، ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان به ، وتحدّاهم بمعنى التوبيخ لهم فى سورة البقرة ، فقال تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ) يعنى بذلك : إن كنتم فى شك فى صدق محمد فيما جاءكم به من عندى ، أنه من عندى ، فأتوا بسورة من مثله ، وليستنصر بعضكم بعضا على ذلك إن كنتم صادقين فى زعمكم ، حتى تعلموا أنكم إذا عجزتم عن ذلك ، أنه لايقدر على أن يأتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا من البشر أحد ، ويصح عندكم أنه تنزيلى ووحيى إلى عبدى .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه :

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

قال أبو جعفر : يعنى تعالى بقوله (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا) : إن لم تأتوا بسورة من مثله ، وقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم ، فتبين لكم بامتحانكم ، واختبار عجزكم ، وعجز جميع خلقى عنه ، وعلمتم أنه من عندى ، ثم أقمتم على التكذيب به ، وقوله (وَلَنْ تَفْعَلُوا) : أى لن تأتوا بسورة من مثله أبدا .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) : أى لاتقدرون على ذلك ولا تطيقونه .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) فقد بين لكم الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى : (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

قال أبو جعفر : يعنى جلّ ثناؤه بقوله (فَاتَّقُوا النَّارَ) يقول : فاتقوا أن تصلوا النار بتكذيبكم رسولى ، بما جاءكم به من عندى أنه من وحيى وتنزيلى ، بعد تبينكم أنه كتابى ومن عندى ، وقيام الحجة عليكم بأنه كلامى ووحيى ، بعجزكم وعجز جميع خلقى عن أن يأتوا بمثله ؛ ثم وصف جل ثناؤه النار التى حذرهم صليها ، فأخبرهم أن الناس وقودها ، وأن الحجارة وقودها ، فقال : (الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) يعنى بقوله وقودها : حطبها ، والعرب تجعله مصدرا ، وهو اسم إذا فتحت الواو بمنزلة الحطب ، فإذا ضمت الواو من الوقود كان مصدرا من قول القائل : وقدت النار فهى تقد وقودا ، وقدة ووقدانا ووقدا ، يراد بذلك أنها التهبت .

فإن قال قائل : وكيف خصت الحجارة فقرنت بالناس ، حتى جعلت لنار جهنم حطبا ؟ قيل : إنها حجارة الكبريت ، وهى أشدّ الحجارة فيما بلغنا حرًّا إذا أحميت .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن مسعر ، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله فى قوله (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) قال : هى حجارة من كبريت ، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا ، يعدّها للكافرين .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا ابن عيينة ، عن مسعر ، عن عبد الملك

الزرّاد ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن مسعود ، فى قوله (وَقُودُها النَّاسُ والحجارَةُ) قال : حجارة الكبريت جعلها الله كما شاء .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (اتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجارَةُ) أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود ، يعذّبون به مع النار .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج فى قوله (وَقُودُها النَّاسُ والحجارَةُ) قال : حجارة من كبريت أسود فى النار ، قال : وقال لى عمرو بن دينار : حجارة أصلب من هذه وأعظم .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن مسعر ، عن عبد الملك بن ميسرة ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : حجارة من الكبريت ، خلقها الله عنده كيف شاء وكما شاء .

القول فى تأويل قوله : (أُعِدَّتْ للكافِرِينَ) .

قد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على أن الكافر فى كلام العرب ، هو الساتر شيئا بغطاء ، وأن الله جل ثناؤه ، إنما سمى الكافر كافرا لجحوده آلاءه عنده ، وتغطيته نعماءه قبله ، فمعنى قوله إذًا (أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ) : أعدّت النار للجاحدين أن الله ربهم المتوحد بخلقهم وخلق الذين من قبلهم ، الذى جعل لهم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لهم ، المشركين معه فى عبادته الأنداد والآلهة ، وهو المتفرّد لهم بالإنشاء ، والمتوحد بالأقوات والأرزاق .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ، عن ابن عباس (أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ) : أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر .

القول فى تأويل قوله :

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

أما قوله تعالى (وَبَشِّر) فإنه يعنى أخبرهم ، والبشارة أصلها الخبر بما يسر المخبر به ، إذا كان سابقا به كل مخبر سواه ، وهذا أمر من الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، بإبلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به

وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند ربه وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم ، بأعمالهم الصالحة . فقال له : يامحمد بشر من صدقك أنك رسولى ، وأن ماجئت به من الهدى والنور فمن عندى ، وحقق تصديقه ذلك قولا بأداء الصالح من الأعمال التى افترضتها عليه ، وأوجبتها فى كتابى على لسانك عليه ، أن له جنات تجرى من تحتها الأنهار خاصة ، دون من كذّب بك ، وأنكر ماجئت به من الهدى من عندى وعاندك ، ودون من أظهر تصديقك وأقرّ بأن ماجئته به فمن عندى قولا ، وجحده اعتقادا ولم يحققه عملا . فإن لأولئك النار التى وقودها الناس والحجارة معدة عندى . والجنات جمع جنة ، والجنة : البستان . وإنما عنى جل ذكره بذكر الجنة ما فى الجنة ، من أشجارها وثمارها وغروسها ، دون أرضها ، فلذلك قال عزّ ذكره (تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) لأنه معلوم أنه إنما أرادَ جل ثناؤه الخبر عن ماء أنهارها أنه جار تحت أشجارها وغروسها وثمارها ، لا أنه جار تحت أرضها ، لأن الماء إذا كان جاريا تحت الأرض ، فلاحظ فيها لعيون من فوقها ، إلا بكشف الساتر بينها وبينه .

على أن الذى توصف به أنهار الجنة أنها جارية فى غير أخاديد ، كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا الأشجعى ، عن سفيان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن مسروق ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال القلال ، كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وماؤها يجرى فى غير أخدود .

وحدثنا مجاهد ، قال : حدثنا يزيد ، قال : أخبرنا مسعر بن كدام ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، بنحوه .

وحدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا ابن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، قال : سمعت عمرو بن مرة يحدث عن أبى عبيدة ، فذكر مثله ، قال : فقلت لأبى عبيدة : من حدثك ؟ فغضب وقال : مسروق .

فإذا كان الأمر كذلك فى أن أنهارها جارية فى غير أخاديد ، فلا شك أن الذى أريد بالجنات أشجار الجنات ، وغروسها وثمارها دون أرضها ، إذ كانت أنهارها تجرى فوق أرضها وتحت غروسها وأشجارها ، على ماذكره مسروق ، وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جارية تحت أرضها . وإنما رغّب الله جل ثناؤه بهذه الآية عباده فى الإيمان وحضهم على عبادته ، بما أخبرهم أنه أعدّه لأهل طاعته والإيمان به عنده ، كما حذرهم فى الآية التى قبلها بما أخبر من إعداده ما أعدّ لأهل الكفر به ، الجاعلين معه الآلهة والأنداد ، من عقابه عن إشراك غيره معه ، والتعرّض لعقوبته بركوب معصيته وترك طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى : (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا) من الجنات والهاء راجعة على الجنات ، وإنما المعنى أشجارها ، فكأنه قال : كلما رزقوا من أشجار البساتين ، التى أعدّها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جناته ، من ثمرة من ثمارها رزقا ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : (هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) فقال بعضهم : تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من قبل هذا فى الدنيا . ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) قال : إنهم أُتوا بالثمرة فى الجنة ، فلما نظروا إليها ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل : أى فى الدنيا .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قالوا (هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) يقولون : ما أشبهه به .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، (قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) فى الدنيا ، قال (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) يعرفونه .

قال أبو جعفر : وقال آخرون بل تأويل ذلك : هذا الذى رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا ، لشدة مشابهة بعض ذلك فى اللون والطعم بعضا ، ومن علة قائل هذا القول ، أن ثمار الجنة كلما نزع منها شىء عاد مكانه آخر مثله .

كما حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا ابن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، قال : سمعت عمرو بن مرة يحدث عن أبى عبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها مثل القلال ، كلما نزعت منها ثمرة عادت مكانها أخرى ، قالوا : فإنما اشتبهت عند أهل الجنة ، لأن التى عادت نظيرة التى نزعت فأكلت فى كل معانيها . قالوا : ولذلك قال الله جل ثناؤه : (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) لاشتباه جميعه فى كل معانيه .

وقال بعضهم : بل قالوا (هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) لمشابهته الذى قبله فى اللون ، وإن خالفه فى الطعم . ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم بن الحسين ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنا شيخ من المصيصة ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول : هذا الذى أتينا به من قبل ، فيقول الملك : كل ، فاللون واحد والطعم مختلف .

وهذا التأويل مذهب من تأوّل الآية ، غير أنه يدفع صحته ظاهر التلاوة ، والذى يدل على صحته ظاهر الآية ، ويحقق صحته قول القائلين إن معنى ذلك : هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا ، وذلك أن الله جل ثناؤه قال : (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً) فأخبر جل ثناؤه أن من قيل أهل الجنة كلما رزقوا من ثمر الجنة رزقا ، أن يقولوا : هذا الذى رُزقنا قبل ، ولم يخصص بأن ذلك من قيلهم

فى بعض ذلك دون بعض ؛ فإذ كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم فى كل ما رزقوا من ثمرها ، فلا شك أن ذلك من قيلهم فى أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة ، واستقرارهم فيها الذى لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة ، فإذ كان لاشك أن ذلك من قيلهم فى أوله ، كما هو من قيلهم فى وسطه وما يتلوه ، فمعلوم أنه محال أن يكون من قيلهم لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة (هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) هذا من ثمار الجنة ؛ وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيره : هذا هو الذى رزقناه من قبل ؟ إلا أن ينسبهم ذو غرّة وضلال إلى قيل الكذب ، الذى قد طهرهم الله منه ، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق رزقوه منها من ثمارها ، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته بقوله : (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً) من غير نَصْب ، دلالة على أنه معنىً به حال من أحوالهم دون حال ، فقد تبين بما بينا أن معنى الآية : كلما رزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ثمرة من ثمار الجنة فى الجنة رزقا ، قالوا : (هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) هذا فى الدنيا .

فإن سألنا سائل فقال : وكيف قال القوم (هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) والذى رزقوه من قبل قد عدم بأكلهم إياه ؟ وكيف يجوز أن يقول أهل الجنة قولا لا حقيقة له ؟ قيل : إن الأمر على غير ماذهبت إليه فى ذلك ، وإنما معناه : هذا من النوع الذى رزقناه من قبل هذا من الثمار والرزق ، كالرجل يقول لآخر : قد أعدّ لك فلان من الطعام كذا وكذا من ألوان الطبيخ والشواء والحلوى ، فيقول المقول له ذلك : هذا طعامى فى منزلى ، يعنى بذلك أن النوع الذى ذكر له صاحبه أنه أعده له من الطعام هو طعامه ، لا أن أعيان ما أخبره صاحبه أنه قد أعدّه له هو طعامه ، بل ذلك مما لايجوز لسامع سمعه يقول ذلك أن يتوهم أنه أراده أو قصده ، لأن ذلك خلاف مخرج كلام المتكلم ، وإنما يوجه كلام كل متكلم إلى المعروف فى الناس من مخارجه دون المجهول من معانيه ، فكذلك ذلك فى قوله : (قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) إذ كان ماكانوا رزقوه من قبل قد فنى وعدم ؛ فمعلوم أنهم عنوا بذلك : هذا من النوع الذى رزقناه من قبل ، ومن جنسه فى التسميات والألوان : على ما قد بينا من القول فى ذلك فى كتابنا هذا .

وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى قوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) أنه متشابه فى الفضل : أى كل واحد منه له من الفضل فى نحوه ، مثل الذى للآخر فى نحوه .

قال أبو جعفر : وليس هذا قولا نستجيز التشاغل بالدلالة على فساده ، لخروجه عن قول جميع علماء أهل التأويل ، وحسب قول بخروجه عن قول أهل العلم دلالة على خطئه .

القول فى تأويل قوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً)

قال أبو جعفر : والهاء فى قوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) عائدة على الرزق ، فتأويله : وأتوا بالذى رزقوا من ثمارها متشابها .

وقد اختلف أهل التأويل فى تأويل المتشابه فى ذلك ، فقال بعضهم : تشابهه أن كله خيار لارذل فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال : أخبرنا النضر بن شميل ، قال : أخبرنا أبو عامر ، عن الحسن فى قوله : (مُتَشَابِهاً) قال : خيارا كلها لارذل فيها .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن علية، عن أبى رجاء، قرأ الحسن آيات من البقرة ، فأتى على هذه الآية (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) قال: ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه ، وإن ذلك ليس فيه رذل ! !

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال الحسن : (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) قال : يشبه بعضه بعضا ليس فيه مرذول .

حدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) : أى خيارا لارذل فيه ، وأن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها ، وثمار الجنة خيار كله لايرذل منه شىء .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : ثمر الدنيا منه مايرذل ومنه نقاوة ، وثمر الجنة نقاوة كله ، يشبه بعضه بعضا فى الطيب ، ليس منه مرذول .

وقال بعضهم : تشابهه فى اللون ، وهو مختلف فى الطعم . ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) فى اللون والمرأى ، وليس يشبه الطعم .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) مثل الخيار .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) لونه ، مختلفا طعمه ، مثل الخيار من القثاء .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) يشبه بعضه بعضا ويختلف الطعم .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا الثورى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (مُتَشَابِهاً) قال : مشتبها فى اللون ومختلفا فى الطعم .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، عن مجاهد (وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) مثل الخيار .

وقال بعضهم : تشابهه فى اللون والطعم . ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد قوله : (مُتَشَابِهاً) قال : اللون والطعم .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ويحيى بن سعيد (مُتَشَابِهاً) قالا : فى اللون والطعم .

وقال بعضهم : تشابهه تشابه ثمر الجنة وثمر الدنيا فى اللون ، وإن اختلف طعومهما . ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) قال : يشبه ثمر الدنيا ، غير أن ثمر الجنة أطيب .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : قال حفص بن عمر ، قال : حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، فى قوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) قال : يشبه ثمر الدنيا ، غير أن ثمر الجنة أطيب .

وقال بعضهم : لا يشبه شىء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا الأسماء . ذكر من قال ذلك :

حدثنى أبو كريب ، قال : حدثنا الأشجعى ح ، وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا مؤمل ، قالا جميعا : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس . قال أبو كريب فى حديثه عن الأشجعى : لا يشبه شىء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا الأسماء . وقال ابن بشار فى حديثه عن مؤمل ، قال : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء .

حدثنا عباس بن محمد ، قال : حدثنا محمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس ، قال : ليس فى الدنيا من الجنة شىء إلا الأسماء .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد فى قوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) قال : يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان ، قالوا فى الجنة : (هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) فى الدنيا (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) يعرفونه ، وليس هو مثله فى الطعم .

قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية ، تأويل من قال : (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) فى اللون والمنظر ، والطعم مختلف ، يعنى بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا فى المنظر واللون ، مختلفا فى الطعم والذوق لما قدمنا من العلة فى تأويل قوله (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) وأن معناه : كلما رزقوا من الجنان من ثمرة من ثمارها رزقا (قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) هذا فى الدنيا ، فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك من أجل أنهم أتوا بما أتوا به من ذلك فى الجنة متشابها ، يعنى بذلك تشابه ما أتوا به فى الجنة منه ، والذى كانوا رزقوه فى الدنيا فى اللون والمرأى والمنظر ، وإن اختلفا فى الطعم والذوق فتباينا ، فلم يكن لشىء مما فى الجنة من ذلك نظير فى الدنيا .

وقد دللنا على فساد قول من زعم أن معنى قوله (قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) إنما هو قول من أهل الجنة فى تشبيههم بعض ثمر الجنة ببعض ، وتلك الدلالة على فساد ذلك القول ، هى الدلالة على فساد قول من خالف قولنا فى تأويل قوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) لأن الله جل ثناؤه ، إنما أخبر عن المعنى الذى من أجله قال القوم (هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) بقوله (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً) .

وسئل من أنكر ذلك ، فزعم أنه غير جائز أن يكون شىء مما فى الجنة نظير الشىء مما فى الدنيا بوجه من الوجوه ، فيقال له : أيجوز أن يكون أسماء ما فى الجنة من ثمارها وأطعمتها وأشربتها نظائر أسماء ما فى الدنيا

منها ؟ فإن أنكر ذلك خالف نص كتاب الله ، لأن الله جل ثناؤه ، إنما عرّف عباده فى الدنيا ما هو عنده فى الجنة بالأسماء التى يسمى بها ما فى الدنيا من ذلك . وإن قال : ذلك جائز ، بل هو كذلك ؟ قيل : فما أنكرت أن يكون ألوان مافيها من ذلك نظائر ألوان ما فى الدنيا منه ، بمعنى البياض والحمرة والصفرة وسائر صنوف الألوان ، وإن تباينت فتفاضلت بفضل حسن المرآة والمنظر ، فكان لما فى الجنة من ذلك من البهاء والجمال وحسن المرآة والمنظر خلاف الذى لما فى الدنيا منه ، كما كان جائزا ذلك فى الأسماء مع اختلاف المسميات بالفضل فى أجسامها ، ثم يعكس عليه القول فى ذلك ، فلن يقول فى أحدهما شيئا إلا ألزم فى الآخر مثله .

وكان أبو موسى الأشعرى يقول فى ذلك بما حدثنى به ابن بشار ، قال : حدثنا ابن أبى عدىّ وعبد الوهاب ، ومحمد بن جعفر ، عن عوف ، عن قسامة ، عن الأشعرى ، قال : إن الله لما أخرج آدم من الجنة ، زوّده من ثمار الجنة ، وعلمه صنعة كل شىء ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تغير ، وتلك لاتغير .

القول فى تأويل قوله : (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) .

قال أبو جعفر : والهاء والميم اللتان فى «لهم» عائدتان على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والهاء والألف اللتان فى «فيها» عائدتان على الجنات ؛ وتأويل ذلك : وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أن لهم جنات فيها أزواج مطهرة ؛ والأزواج جمع زوج ، وهى امرأة الرجل ، يقال : فلانة زوج فلان وزوجته . وأما قوله (مُطَهَّرَةٌ) فإن تأويله أنهن طهرن من كل أذى وقذى وريبة ، مما يكون فى نساء أهل الدنيا ، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق والمنىّ ، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره .

كما حدثنا به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما (أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) فإنهن لايحضن ولا يحدثن ولا يتنخمن .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) يقول : مطهرة من القذر والأذى .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا يحيى القطان ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : لايبلن ولا يتغوّطن ولا يمذين .

وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، نحوه ، إلا أنه زاد فيه : ولا يمنين ولا يحضن .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : مطهرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنىّ والولد .

وحدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، قال : حدثنا ابن المبارك ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : لايبلن ، ولايتغوّطن ، ولا يحضن ، ولا يلدن ، ولا يمنين ، ولا يبزقن .

أخبرنا المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، نحو حديث محمد بن عمرو عن أبي عاصم .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة (وَلَهُمْ فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) إى والله من الإثم والأذى .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : طهرهن الله من كل بول وغائط وقذر ، ومن كل مأثم .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، قال : مطهرة من الحيض ، والحبل ، والأذى .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنى ابن أبي جعفر عن أبيه ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : المطهرة من الحيض والحبل .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : المطهرة التى لاتحيض ، قال : وأزواج الدنيا ليست بمطهرة ، ألا تراهن يدمين ، ويتركن الصلاة والصيام ؟ قال ابن زيد : وكذلك خلقت حوّاء حتى عصت ، فلما عصت ، قال الله : إنى خلقتك مطهرة وسأدميك ، كما أدميت هذه الشجرة .

وحدثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن الحسن فى قوله (وَلَهُمْ فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : يقول : مطهرة من الحيض .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : حدثنا خالد بن يزيد ، قال : حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن فى قوله (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : من الحيض .

وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا ابن جريج ، عن عطاء قوله (لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) قال : من الولد والحيض والغائط والبول ، وذكر أشياء من هذا النحو .

القول فى تأويل قوله : (وَهُمْ فيها خالِدُونَ) .

قال أبو جعفر : يعنى تعالى ذكره بذلك : والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنات خالدون ، فالهاء والميم من قوله « وَهُمْ » عائدة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والهاء والألف فى « فيها » على الجنات ، وخلودهم فيها : دوام بقائهم فيها ، على ما أعطاهم الله فيها من الحبرة والنعيم المقيم .

القول فى تأويل قوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أنزل الله جل ثناؤه فيه هذه الآية وفى تأويلها .

فقال بعضهم : بما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعنى قوله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) وقوله : (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) الآيات الثلاث ، قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً) إلى قوله : (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

وقال آخرون : بما حدثنى به أحمد بن إبراهيم ، قال : حدثنا قراد[1] ، عن أبى جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، فى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) قال : هذا مثل ضربه الله للدنيا : أن البعوضة تحيا ماجاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل فى القرآن ، إذا امتلئوا من الدنيا ريا ، أخذهم الله عند ذلك ، قال : ثم تلا (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) الآية .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس بنحوه ، إلا أنه قال : فإذا خلى آجالهم ، وانقطعت مدتهم ، صاروا كالبعوضة : تحيا ماجاعت وتموت إذا رويت ، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل ، إذا امتلئوا من الدنيا ريا أخذهم الله فأهلكهم ، فذلك قوله (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) .

وقال آخرون بما حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) أى إن الله لا يستحى من الحق أن يذكر منه شيئا ما ، قلّ منه أو كثر ، إن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت ، قال أهل الضلالة : ما أراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) .

وحدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : لما ذكر

---

(١) قوله قراد ، بالقاف المضمومة آخره دال مهملة : اسمه عبد الرحمن بن غزوان ، وكنيته أبو نوح ، كما فى شرح القاموس والخلاصة .

الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : مابال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) .

وقد ذهب كل قائل ممن ذكرنا قوله فى هذه الآية وفى المعنى الذى نزلت فيه مذهبا ، غير أن أَوْلى ذلك بالصواب وأشبهه بالحقّ ، ما ذكرنا من قول ابن مسعود وابن عباس ، وذلك أن الله جل ذكره ، أخبر عباده أنه لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها عقيب أمثال قد تقدمت فى هذه السورة ، ضربها للمنافقين دون الأمثال التى ضربها فى سائر السور غيرها . فلأن يكون هذا القول ، أعنى قوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا) جوابا لنكير الكفار والمنافقين ما ضُرِب لهم من الأمثال فى هذه السورة ، أحقّ وأولى من أن يكون ذلك جوابا لنكيرهم ماضرب لهم من الأمثال فى غيرها من السور .

فإن قال قائل : إنما أوجب أن يكون ذلك جوابا لنكيرهم ماضرب من الأمثال فى سائر السور ، لأن الأمثال التى ضربها الله لهم ولآلهتهم فى سائر السور أمثالٌ موافقة المعنى لما أخبر عنه أنه لا يستحى أن يضربه مثلا ، إذ كان بعضها تمثيلا لآلهتهم بالعنكبوت ، وبعضها تشبيها لها فى الضعف والمهانة بالذباب . وليس ذكر شىء من ذلك بموجود فى هذه السورة ، فيجوز أن يقال : إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما .

فإن ذلك بخلاف ماظن ، وذلك أن قول الله جل ثناؤه : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) إنما هو خبر منه جل ذكره أنه لايستحى أن يضرب فى الحقّ من الأمثال صغيرها وكبيرها ، ابتلاء بذلك عباده ، واختبارا منه لهم ، ليميز به أهل الإيمان والتصديق به ، من أهل الضلال والكفر به ، إضلالا منه به لقوم ، وهداية منه به لآخرين .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (مَثَلًا مَا بَعُوضَةً) يعنى الأمثال صغيرها وكبيرها ، يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحقّ من ربهم ، ويهديهم الله بها ، ويضلّ بها الفاسقين ، يقول : يعرفه المؤمنون فيؤمنون به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به .

وحدثنى المثنى ، قال حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، بمثله .

وحدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

قال أبو جعفر : لا أنه جل ذكره قصد الخبر عن عين البعوضة ، أنه لايستحى من ضرب المثل بها ، ولكن البعوضة لما كانت أضعف الخلق ـ كما حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا أبوسفيان ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : البعوضة أضعف ماخلق الله . وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج بنحوه ـ خصها الله بالذكر فى القلة ، فأخبر أنه لايستحى أن يضرب أقلّ الأمثال فى الحقّ وأحقرها ، وأعلاها إلى غير نهاية فى الارتفاع ، جوابا منه جل ذكره لمن أنكر من منافقى خلقه ماضرب لهم من المثل بموقد النار ، والصيب من السماء على مانعتهما به من نعتهما .

فإن قال لنا قائل : وأين ذكر نكير المنافقين الأمثال التى وصفت ، الذى هذا الخبر جوابه ، فنعلم أن

القول فى ذلك ما قلت ؟ قيل : الدلالة على ذلك بيَّنها جل ذكره فى قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً) وأن القوم الذين ضرب لهم الأمثال فى الآيتين المقدمتين، اللتين مثل ماعليه المنافقون ، مقيمون فيهما بموقد النار، وبالصيب من السماء ،على ماوصف من ذلك قبل قوله (إِنَّ اللَّهَ لَايَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً) قد أنكروا المثل، وقالوا (مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً) ، فأوضح خطأ قيلهم ذلك، وقبّح لهم مانطقوا به، وأخبرهم بحكمهم فى قيلهم ماقالوا منه ، وأنه ضلال وفسوق ، وأن الصواب والهدى ماقاله المؤمنون دون ما قالوه .

وأما تأويل قوله (إِنَّ اللَّهَ لَايَسْتَحْيِي) فإن بعض المنسوبين إلى المعرفة بلغة العرب ، كان يتأول معنى (إِنَّ اللَّهَ لَايَسْتَحْيِي) إن الله لايخشى أن يضرب مثلا، ويستشهد على ذلك من قوله ،بقول الله تعالى (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ويزعم أن معنى ذلك : وتستحى الناس والله أحق أن تستحيه ، فيقول : الاستحياء بمعنى الخشية ، والخشية بمعنى الاستحياء .

وأما معنى قوله (أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً) فهو أن يبين ويصف كما قال جل ثناؤه (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ) بمعنى وصف لكم ، وكما قال الكُمَيْت :

وذَلِكَ ضَرْبُ أَخْماسٍ أُرِيدَتْ لِأَسْدَاسٍ عَسَى أَلاَّ تَكُونَا

بمعنى وصف أخماس ، والمثل : الشبه ، يقال : هذا مثل هذا ومثله ، كما يقال : شبهه وشبهه ، ومنه قول كعب بن زهير :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلاَّ الأَبَاطِيلُ

يعنى شبها .

فمعنى قوله إذاً (إِنَّ اللَّهَ لَايَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً) إن الله لايخشى أن يصف شبها لما شبه به ، وأما «ما» التى مع مثل فإنها بمعنى الذى ، لأن معنى الكلام : إن الله لايستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة فى الصغر والقلة فما فوقها مثلا .

فإن قال لنا قائل : فإن كان القول فى ذلك كما قلت فما وجه نصب البعوضة ، وقد علمت أن تأويل الكلام على ما تأولت (إِنَّ اللَّهَ لَايَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً) الذى هو بعوضة ، فالبعوضة على قولك فى محل الرفع ، فأنى أتاها النصب ؟ قيل: أتاها النصب من وجهين :أحدهما أن «ما» لمَّا كانت فى محل نصب بقوله (يَضْرِبُ) وكانت البعوضة ، لها صلة أعربت بتعريبها ، فألزمت إعرابها ، كما قال حسان بن ثابت :

وكَفَى بِنا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

فعربت « غير » بإعراب مَنْ ، فالعرب تفعل ذلك خاصة فى مَن وما ، تعرب صلاتهما بإعرابهما ، لأنهما يكونان معرفة أحيانا ونكرة أحيانا .

وأما الوجه الآخر ، فأن يكون معنى الكلام : إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى

مافوقها ، ثم حذف ذكر بين وإلى ، إذ كان فى نصب البعوضة ودخول الفاء فى ما الثانية ، دلالة عليهما كما قالت العرب : مطرنا ما زُبالة فالثعلبية ، وله عشرون ما ناقة فجملا ، وهى أحسن الناس ماقرنا فقدَما : يعنون ما بين قرنها إلى قدمها ، وكذلك يقولون فى كل ماحسن فيه من الكلام دخول « ما » بين كذا إلى كذا . ينصبون الأول والثانى ، ليدلّ النصب فيهما على المحذوف من الكلام . فكذلك ذلك فى قوله : ما بعوضة فما فوقها .

وقد زعم بعض أهل العربية ، أن « ما » التى مع المثل صلة فى الكلام بمعنى التطوّل ، وأن معنى الكلام : إن الله لايستحيى أن يضرب بعوضة مثلا فما فوقها . فعلى هذا التأويل يجب أن تكون بعوضة منصوبة بيضرب ، وأن تكون « ما » الثانية التى فى « فما فوقها » معطوفة على البعوضة لاعلى « ما » .

وأما تأويل قوله (فَمَا فَوْقَهَا) : فما هو أعظم منها عندى ، لما ذكرنا قبل من قول قتادة وابن جريج أن البعوضة أضعف خلق الله ، فإذا كانت أضعف خلق الله ، فهى نهاية فى القلة والضعف ، وإذ كانت كذلك ، فلا شك أن ما فوق أضعف الأشياء لايكون إلا أقوى منه ، فقد يجب أن يكون المعنى على ماقالاه فما فوقها فى العظم والكبر ، إذ كانت البعوضة نهاية فى الضعف والقلة .

وقيل فى تأويل قوله (فَمَا فَوْقَهَا) فى الصغر والقلة ، كما يقال فى الرجل يذكره الذاكر فيصفه باللؤم والشحّ ، فيقول السامع : نعم ، وفوق ذاك ، يعنى فوق الذى وصف فى الشحّ واللؤم . وهذا قول خلاف تأويل أهل العلم ،الذين ترتضى معرفتهم بتأويل القرآن ، فقد تبين إذا بما وصفنا أن معنى الكلام : إن الله لايستحيى أن يصف شبها لما شبه به ،الذى هو ما بين بعوضة إلى ما فوق البعوضة . فأما تأويل الكلام لو رفعت البعوضة ، فغير جائز فى ما إلا ماقلنا من أن تكون اسما لاصلة بمعنى التطول .

القول فى تأويل قوله : (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ذكره (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا) فأما الذين صدّقوا الله ورسوله وقوله (فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) يعنى : فيعرفون أن المثل الذى ضربه الله لما ضربه له مثل . كما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) أن هذا المثل الحق من ربهم ، أنه كلام الله ومن عنده .

وكما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) : أى يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه الحق من الله (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً) .

قال أبو جعفر : وقوله : (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) يعنى الذين جحدوا آيات الله ، وأنكروا ماعرفوا ، وستروا ماعلموا أنه حقّ ، وذلك صفة المنافقين ، وإياهم عنى الله جل وعزّ ومن كان من نظرائهم

وشركائهم من المشركين ، من أهل الكتاب وغيرهم بهذه الآية ، فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كما قد ذكرنا قبل من الخبر الذى رويناه عن مجاهد الذى حدثنا به محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (فأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) الآية ، قال : يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحقّ من ربهم ، ويهديهم الله بها ، ويضلّ بها الفاسقون . يقول : يعرفه المؤمنون فيؤمنون به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به .

وتأويل قوله (ماذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً) ما الذى أراد الله بهذا المثل مثلا ، فذا مع ما فى معنى الذى ، وأراد صلته ، و« هذا » إشارة إلى المثل .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (يُضِلُّ به كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل وعزّ (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا) يضلّ الله به كثيرا من خلقه ، والهاء فى به من ذكر المثل ، وهذا خبر من الله جل ثناؤه مبتدأ ، ومعنى الكلام : أن الله يضلّ بالمثل الذى يضربه ، كثيرا من أهل النفاق والكفر .

كما حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا) يعنى المنافقين (وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا) يعنى المؤمنين ، فيزيد هؤلاء ضلالا إلى ضلالهم ، لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا من المثل الذى ضربه الله لما ضربه له ، وأنه لما ضربه له موافق ، فذلك إضلال الله إياهم به . (وَيَهْدِى بِهِ) ، يعنى بالمثل كثيرا من أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيمانا إلى إيمانهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا ، أنه موافق ماضربه الله له مثلا ، وإقرارهم به ، وذلك هداية من الله لهم به .

وقد زعم بعضهم أن ذلك خبر عن المنافقين ، كأنهم قالوا : ماذا أراد الله بمثل لايعرفه كل أحد ، يضلّ به هذا ويهدى به هذا . ثم استؤنف الكلام والخبر عن الله فقال الله : (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ) وفيما فى سورة المدثر من قول الله (وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُونَ ماذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشاءُ) ما ينبئ عن أنه فى سورة البقرة كذلك مبتدأ ، أعنى قوله (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا) .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ)

وتأويل ذلك ماحدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أ[بى] صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ) : هم المنافقون .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ) فسقوا فأضلهم الله على فسقهم .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الفَاسِقِينَ) : هم أهل النفاق .

قال أبو جعفر : وأصل الفسق فى كلام العرب : الخروج عن الشىء ، يقال : منه فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرها ؛ ومن ذلك سميت الفأرة فُويسقة ، لخروجها عن جحرها ؛ فكذلك المنافق والكافر سميا فاسقين لخروجهما عن طاعة ربهما ، ولذلك قال جل ذكره فى صفة إبليس : (إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) يعنى به : خرج عن طاعته واتباع أمره .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس فى قوله (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) : أى بما بعدوا عن أمرى .

فمعنى قوله (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ) : وما يضلّ الله بالمثل الذى يضربه لأهل الضلال والنفاق ، إلا الخارجين عن طاعته والتاركين اتباع أمره ، من أهل الكفر به من أهل الكتاب ، وأهل الضلال من أهل النفاق .

القول فى تأويل قوله :

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

قال أبو جعفر : وهذا وصف من الله جل ذكره الفاسقين ، الذين أخبر أنه لايضلّ بالمثل الذى ضربه لأهل النفاق غيرهم ، فقال (وَمَا يُضِلُّ اللهُ) بالمثل الذى يضربه على ماوصف قبل فى الآيات المتقدمة ، إلا الفاسقين (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) .

ثم اختلف أهل المعرفة فى معنى العهد الذى وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونقضهم ذلك : تركهم العمل به .

وقال آخرون : إنما نزلت هذه الآيات فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وإياهم عنى الله جل ذكره بقوله : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ) وبقوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) ، فكل ما فى هذه الآيات فعذل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم . قالوا : فعهد الله الذى نقضوه بعد ميثاقه : هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بُعث ، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك ، وكتمانهم علم ذلك عن الناس ، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فأخبر الله جل ثناوه أنهم نبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا .

وقال بعضهم : إن الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق ، وعهده إلى جميعهم فى توحيده ،

ماوضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته ، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات ، التى لايقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم . قالوا : ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق .

وقال آخرون : العهد الذى ذكره الله جل ذكره ، هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ، الذى وصفه فى قوله : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ) الآيتين ، ونقضهم ذلك : تركهم الوفاء به .

وأولى الأقوال عندى بالصواب فى ذلك، قول من قال: إن هذه الآيات نزلت فى كفار أحبار اليهود، الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قرب منها من بقايا بنى إسرائيل، ومن كان على شركه من أهل النفاق ، الذين قد بينا قصصهم فيما مضى من كتابنا هذا ، وقد دللنا على أن قول الله جل ثناؤه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ) وقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ) فيهم أنزلت ، وفيمن كان على مثل الذى هم عليه من الشرك بالله ، غير أن هذه الآيات عندى وإن كانت فيهم نزلت ، فإنه معنىٌّ بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال ، ومعنىٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصة جميع المنافقين، وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود،جميع من كان لهم نظيرا فى كفرهم ، وذلك أن الله جل ثناؤه يعمّ أحيانا جميعهم بالصفة ، لتقديمه ذكر جميعهم ، فى أول الآيات التى ذكرت قصصهم، ويخصّ أحيانا بالصفة بعضهم، لتفصيله فى أول الآيات بين فريقهم، أعنى فريق المنافقين من عبدة الأوثان ، وأهل الشرك بالله ، وفريق كفار أحبار اليهود ؛ فالذين ينقضون عهد الله : هم التاركون ما عهد الله إليهم ، من الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به وتبيين نبوّته للناس،الكاتمون بيان ذلك بعد علمهم به، وبما قد أخذ الله عليهم فى ذلك ، كما قال الله جل ذكره: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) ونبذهم ذلك وراء ظهورهم:هو نقضهم العهد الذى عهد إليهم فى التوراة الذى وصفناه، وتركهم العمل به .

وإنما قلت: إنه عنى بهذه الآيات من قلت إنه عُنى بها ، لأن الآيات من ابتداء الآيات الخمس والستّ من سورة البقرة ، فيهم نزلت إلى تمام قصصهم ، وفى الآية التى بعد الخبر عن خلق آدم وأبنائه فى قوله: (يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وخطابه إياهم جلّ ذكره بالوفاء فى ذلك خاصة دون سائر البشر ، ما يدلّ على أن قوله : (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) مقصود به كفارهم ومنافقوهم ، ومن كان من أشياعهم من مشركى عَبَدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب وإن كان لمن وصفت من الفريقين، فداخل فى أحكامهم وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذمّ والتوبيخ، كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهى . فمعنى الآية إذاً : وما يضلّ به إلا التاركين طاعة الله ، الخارجين عن اتباع

أمره ونهيه ، الناكثين عهود الله التى عهدها إليهم فى الكتب التى أنزلها إلى رسله وعلى ألسن أنبيائه ، باتباع أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وطاعة الله فيما افترض عليهم فى التوراة ، من تبيين أمره للناس ، وإخبارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوبا عندهم أنه رسول من عند الله مفترضة طاعته ؛ وترك كتمان ذلك لهم ونكثهم ذلك ، ونقضهم إياه . هو مخالفتهم الله فى عهده إليهم فيما وصفت أنه عهد إليهم ، بعد إعطائهم ربهم الميثاق بالوفاء بذلك ، كما وصفهم به جل ذكره بقوله : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يأخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى ويَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإنْ يأتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أنْ لايَقُولُوا على اللهِ إلاَّ الحَقَّ) .

وأما قوله (مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ) فإنه يعنى من بعد توثق الله منه بأخذ عهوده بالوفاء له ، بما عهد إليه فى ذلك ، غير أن التوثق مصدر من قولك : توثقت من فلان توثقا ، والميثاق اسم منه . والهاء فى الميثاق عائدة على اسم الله .

وقد يدخل فى حكم هذه الآية كل من كان بالصفة التى وصف الله بها هؤلاء الفاسقين من المنافقين والكفار فى نقض العهد ، وقطع الرحم ، والإفساد فى الأرض ، كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة قوله : (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ) فإياكم ونقض هذا الميثاق ، فإن الله قد كره نقضه ، وأوعد فيه وقدم فيه فى آى القرآن حجة وموعظة ونصيحة ، وإنا لا نعلم الله جل ذكره أوعد فى ذنب ما أوعد فى نقض الميثاق . فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه ، فليف به لله .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله : (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ ويَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ ويُفْسِدُونَ فى الأرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ) فهى ست خلال فى أهل النفاق ، إذا كانت لهم الظهرة أظهروا هذه الخلال الستّ جميعا : إذا حدّثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض . وإذا كانت عليهم الظهرة أظهروا الخلال الثلاث : إذا حدّثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا .

القول فى تأويل قوله تعالى : (ويَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ)

قال أبو جعفر : والذى رغب الله فى وصله ، وذمّ على قطعه فى هذه الآية : الرحم ، وقد بين ذلك فى كتابه فقال تعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدُوا فِى الأرْضِ وتُقَطِّعُوا أرْحامَكُمْ) وإنما عنى بالرحم : أهل الرجل الذين جمعتهم وإياه رحم والدة واحدة . وقطع ذلك : ظلمه فى ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها ، وأوجب من برّها ووصلها . أداء الواجب لها إليها : من حقوق الله التى أوجب لها . والتعطف عليها بما يحقّ التعطف به عليها . و « أن » التى مع « يوصل » فى محل خفض ، بمعنى ردّها على

موضع الهاء التى فى « به » ، وكان معنى الكلام : ويقطعون الذى أمر الله بأن يوصل ، والهاء التى فى « به » هى كناية عن ذكر أن يوصل .

وبما قلنا فى تأويل قوله (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) وأنه الرحم كان قتادة يقول ؛ حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) : فقطع ، والله ما أمر الله به أن يوصل بقطيعة الرحم والقرابة .

وقد تأوّل بعضهم ذلك ، أن الله ذمهم بقطعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به وأرحامهم ، واستشهد على ذلك بعموم ظاهر الآية ، وأن لادلالة على أنه معنىّ بها : بعض ما أمر الله بوصله دون بعض .

قال أبو جعفر : وهذا مذهب من تأويل الآية غير بعيد من الصواب ، ولكن الله جل ثناؤه ، قد ذكر المنافقين فى غير آية من كتابه ، فوصفهم بقطع الأرحام ، فهذه نظيرة تلك ، غير أنها وإن كانت كذلك ، فهى دالة على ذمّ الله كل قاطع قطع ما أمر الله بوصله ، رحما كانت أو غيرها .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ)

قال أبو جعفر : وفسادهم فى الأرض هو ما تقدم وصفناه قبل ، من معصيتهم ربهم وكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، وجحدهم نبوّته ، وإنكارهم ما أتاهم به من عند الله أنه حق من عنده .

القول فى تأويل قوله : (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قال أبو جعفر : والخاسرون جمع الخاسر ، والخاسرون : الناقصون أنفسهم حظوظها ، بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه ، فكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته ، التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كان إلى رحمته ، يقال منه : خسر الرجل يخسر خسرا وخسرانا وخسارا ، كما قال جرير بن عطية :

إِنَّ سَلِيطًا فِى الْخَسَارِ إِنَّهْ		أَوْلَادُ قَوْمٍ خُلِقُوا أَقِنَّهْ

يعنى بقوله فى الخسار : أى فيما يوكسهم حظوظهم من الشرف والكرم .

وقد قيل إن معنى (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) : أولئك هم الهالكون . وقد يجوز أن يكون قائل ذلك أراد ماقلنا ، من هلاك الذى وصف الله صفته بالصفة التى وصفه بها فى هذه الآية ، بحرمان الله إياه ماحرمه من رحمته بمعصيته إياه وكفره به ، فحمل تأويل الكلام على معناه ، دون البيان عن تأويل عين الكلمة بعينها ، فإن أهل التأويل ربما فعلوا ذلك لعلل كثيرة تدعوهم إليه .

وقال بعضهم فى ذلك بما حدثت به عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعنى به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذنب .

القول فى تأويل قول الله :

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك :

فقال بعضهم بما حدثنى به موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) يقول : لم تكونوا شيئا فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة .

وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله فى قوله : (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) قال : هى كالتى فى البقرة (كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) .

وحدثنى أبو حصين عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن يونس ، قال : حدثنا عبثر ، قال : حدثنا حصين عن أبى مالك فى قوله : (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) قال : خلقتنا ولم نكن شيئا ، ثم أمتنا ، ثم أحييتنا .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم ، عن حصين ، عن أبى مالك فى قوله : (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) قال : كانوا أمواتا فأحياهم الله ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم .

وحدثنا القاسم ، قال: حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد فى قوله : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) قال: لم تكونوا شيئا حين خلقكم ، ثم يميتكم الموتة الحق ، ثم يحييكم ، وقوله (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) مثلها .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، قال : حدثنى عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس قال: هو قوله (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) . وحُدِّثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : حدثنى أبو العالية فى قول الله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا) يقول : حين لم يكونوا شيئا ، ثم أحياهم حين خلقهم ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم ، يوم القيامة ، ثم رجعوا إليه بعد الحياة .

وحدثت عن المنجاب قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس

فى قوله : (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ) قال : كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه إحياءة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ، فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة ، فهذه إحياءة ، فهما ميتتان وحياتان ، فهو قوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وكُنْتُمْ أمْوَاتاً فأحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليْهِ تُرْجَعُونَ) .

وقال آخرون بما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن السدى ، عن أبى صالح : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وكُنْتُمْ أمْوَاتاً فأحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ) قال : يحييكم فى القبر ، ثم يميتكم .

وقال آخرون بما حدثنا به بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وكُنْتُمْ أمْوَاتاً) الآية . قال : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله وخلقهم ، ثم أماتهم الموتة التى لابد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ، فهما حياتان وموتتان .

وقال بعضهم بما حدثنى به يونس ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قول الله تعالى : (رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ) قال : خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق ، وقرأ (وَإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) حتى بلغ (أوْ تَقُولُوا إنَّمَا أشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أفَتُهْلِكُنا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ) قال : فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق ، قال : وانتزع ضلعا من أضلاع آدم القصيرى ، فخلق منه حواء . ذكره عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : وذلك قول الله تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً) قال : وبث فيهما بعد ذلك فى الأرحام خلقا كثيرا ، وقرأ (يَخْلُقُكُمْ فى بُطُونِ أمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ) قال : خلقا بعد ذلك . قال : فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم ، ثم خلقهم فى الأرحام ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم يوم القيامة ، فذلك قول الله : (رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا) وقرأ قول الله : (وأخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً) قال يومئذ . قال : وقرأ قول الله : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وأطَعْنا) .

قال أبو جعفر : ولكل قول من هذه الأقوال التى حكيناها عمن رويناها عنه وجه ومذهب من التأويل .

فأما وجه تأويل من تأوّل قوله : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وكُنْتُمْ أمْوَاتاً فأحْيَاكُمْ) أى لم تكونوا شيئا ، فإنه ذهب إلى نحو قول العرب للشىء الدارس والأمر الخامل الذكر : هذا شىء ميت ، وهذا أمر ميت ؛ يراد بوصفه بالموت خمول ذكره ودروس أثره من الناس ، وكذلك يقال فى ضد ذلك وخلافه هذا أمر حىّ ،وذكر حىّ ، يراد بوصفه بذلك أنه نابه متعالم فى الناس ، كما قال أبو نُخَيلة السعدى :

فأحْيَيْتَ لى ذِكْرِى وَمَا كُنْتُ خامِلاً ... وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أنْبَهُ مِنْ بَعْضِ

يريد بقوله : فأحييت لى ذكرى : أى رفعته وشهرته فى الناس ، حتى نبه فصار مذكورا حيا بعد أن كان خاملا ميتا .

فكذلك تأويل قول من قال فى قوله (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً) لم تكونوا شيئا : أى كنتم خمولا لا ذكر لكم ، وذلك كان موتكم ، فأحياكم فجعلكم بشرا أحياء تذكرون وتعرفون ، ثم يميتكم بقبض أرواحكم ، وإعادتكم كالذى كنتم قبل أن يحييكم من دروس ذكركم ، وتعفى آثاركم ، وخمول أموركم ، ثم يحييكم بإعادة أجسامكم إلى هيئاتها ، ونفخ الروح فيها ، وتصييركم بشرا كالذى كنتم قبل الإماتة ، لتعارفوا فى بعثكم وعند حشركم .

وأما وجه تأويل من تأوّل ذلك أنه الإماتة التى هى خروج الروح من الجسد ، فإنه ينبغى أن يكون ذهب بقوله (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً) إلى أنه خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم فى قبورهم ، وذلك معنى بعيد . لأن التوبيخ هنالك إنما هو توبيخ على ماسلف وفرط من إجرامهم لاستعتاب واسترجاع . وقوله جل ذكره (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً) توبيخ مستعتب عباده ، وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصى إلى الطاعة ، ومن الضلالة إلى الإنابة ، ولا إنابة فى القبور بعد الممات ، ولا توبة فيها بعد الوفاة .

وأما وجه تأويل قول قتادة : ذلك أنهم كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فإنه عنى بذلك أنهم كانوا نطفا لا أرواح فيها ، فكانت بمعنى سائر الأشياء الموات التى لا أرواح فيها ، وإحياؤه إياها تعالى ذكره : نفخه الأرواح فيها ، وإماتته إياهم بعد ذلك : قبضه أرواحهم ، وإحياؤه إياهم بعد ذلك : نفخ الأرواح فى أجسامهم ، يوم ينفخ فى الصور ويبعث الخلق للموعود .

وأما ابن زيد فقد أبان عن نفسه ماقصد بتأويله ذلك ، وأن الإماتة الأولى عند إعادة الله جل ثناؤه عباده فى أصلاب آبائهم بعد ما أخذهم من صلب آدم ، وأن الإحياء الآخر : هو نفخ الأرواح فيهم فى بطون أمهاتهم ، وأن الإماتة الثانية هى قبض أرواحهم للعود إلى التراب ، والمصير فى البرزخ إلى يوم البعث ، وأن الإحياء الثالث : هو نفخ الأرواح فيهم لبعث الساعة ، ونشر القيامة ، وهذا تأويل إذا تدبره المتدبر وجده خلافا لظاهر قول الله الذى زعم مفسره أن الذى وصفنا من قوله تفسيره ، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر فى كتابه عن الذين أخبر عنهم من خلقه أنهم قالوا : (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) وزعم ابن زيد فى تفسيره ، أن الله أحياهم ثلاث إحياءات ، وأماتهم ثلاث إماتات ، والأمر عندنا وإن كان فيما وصف من استخراج الله جل ذكره من صلب آدم ذريته ، وأخذه ميثاقه عليهم كما وصف ، فليس ذلك من تأويل هاتين الآيتين ، أعنى قوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً) الآية ، وقوله (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) فى شىء ، لأن أحدا لم يدّع أن الله أمات من ذرأ يومئذ غير الإماتة التى صار بها فى البرزخ إلى يوم البعث ، فيكون جائزا أن يوجه تأويل الآية إلى ماوجهه إليه ابن زيد .

وقال بعضهم : الموتة الأولى : مفارقة نطفة الرجل جسده إلى رحم المرأة . فهى ميتة من لدن فراقها جسده إلى نفخ الروح فيها، ثم يحييها الله بنفخ الروح فيها، فيجعلها بشرا سويا بعد تارات تأتى عليها، ثم يميته الميتة الثانية بقبض الروح منه، فهو فى البرزخ ميت إلى يوم ينفخ فى الصور ، فيردّ فى جسده روحه ، فيعود حيا سويا لبعث القيامة، فذلك موتتان وحياتان؛ وإنما دعا هؤلاء إلى هذا القول لأنهم قالوا : موت ذى الروح مفارقة الروح إياه ، فزعموا أن كل شىء من ابن آدم حىّ ما لم يفارق جسده الحىّ ذا الروح ، فكل مافارق جسده الحىّ ذا الروح فارقته الحياة فصار ميتا ، كالعضو من أعضائه مثل اليد من يديه ، والرجل من رجليه لو قطعت وأبينت والمقطوع ذلك منه حىّ ، كان الذى بان من جسده ميتا لاروح فيه بفراقه سائر جسده الذى فيه الروح ، قالوا : فكذلك نطفته حية بحياته ، مالم تفارق جسده ذا الروح ، فإذا فارقته مباينة له صارت ميتة ، نظير ماوصفنا من حكم اليد والرجل وسائر أعضائه . وهذا قول ووجه من التأويل لو كان به قائل من أهل القدوة الذين يرتضى للقرآن تأويلهم .

وأولى ماذكرنا من الأقوال التى بينا بتأويل قول الله جل ذكره (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) الآية القول الذى ذكرناه عن ابن مسعود ، وعن ابن عباس ، من أن معنى قوله (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً) : أموات الذكر خمولا فى أصلاب آبائكم نطفا لا تعرفون ولا تذكرون ، فأحياكم بإنشائكم بشرا سويا ، حتى ذُكرتم وعرفتم وحييتم ، ثم يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رفاتا لاتعرفون ولا تذكرون فى البرزخ إلى يوم تبعثون ، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصيحة القيامة، ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك، كما قال (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) لأن الله جل ثناؤه يحييهم فى قبورهم قبل حشرهم ، ثم يحشرهم لموقف الحساب ، كما قال جل ذكره (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) وقال : (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

والعلة التى من أجلها اخترنا هذا التأويل، ماقد قدمنا ذكره للقائلين به، وفساد ماخالفه بما قد أوضحناه قبل . وهذه الآية توبيخ من الله جل ثناؤه ، للقائلين (آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) الذين أخبر الله عنهم ، أنهم مع قيلهم ذلك بأفواههم غير مؤمنين به ، وأنهم إنما يقولون ذلك خداعا لله وللمؤمنين ، فعذلهم الله بقوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) ووبخهم واحتج عليهم فى نكيرهم ما أنكروا من ذلك ، وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة ، فقال : كيف تكفرون بالله فتجحدون قدرته ، على إحيائكم بعد إماتتكم ، وإعادتكم بعد إفنائكم ، وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم ، ثم عدد ربنا عليهم ، وعلى أوليائهم من أحبار اليهود الذين جمع بين قصصهم وقصص المنافقين فى كثير من آى هذه السورة ، التى افتتح الخبر عنهم فيها بقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) نعمه التى سلفت منه إليهم وإلى آبائهم التى عظمت منهم مواقعها ، ثم سلب كثيرا منهم كثيرا منها بما ركبوا من الآثام ، واجترموا من الإجرام ، وخالفوا من الطاعة إلى المعصية ،

يحذّرهم بذلك تعجيل العقوبة لهم كالتي عجلها للأسلاف والأفراط قبلهم ، ويخوّفهم حلول مَثُلاته بساحتهم كالذى أحلّ بأوّليهم ، ويعرّفهم مالهم من النجاة فى سرعة الأوبة إليه ، وتعجيل التوبة من الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب ، فبدأ بعد تعديده عليهم ما عدّد من نعمه التى هم فيها مقيمون ، بذكر أبينا وأبيهم آدم أبى البشر ، صلوات الله عليه ، وما سلف منه من كرامته إليه وآلائه لديه ، وما أحلّ به وبعدوّه إبليس من عاجل عقوبته بمعصيتهما التى كانت منهما ، ومخالفتهما أمره الذى أمرهما به ، وما كان من تغمده آدم برحمته ، إذ تاب وأناب إليه ، وما كان من إحلاله بإبليس من لعنته فى العاجل ، وإعداده له ما أعدّ له من العذاب المقيم فى الآجل إذ استكبر وأبى التوبة إليه والإنابة ، منبها لهم على حكمه فى المنيبين إليه بالتوبة ، وقضائه فى المستكبرين عن الإنابة ، إعذارا من الله بذلك إليهم ، وإنذارا لهم ، ليتدبروا آياته ، وليتذكر منهم أولو الألباب ، وخاصا أهل الكتاب بما ذكر من قصص آدم وسائر القصص التى ذكرها معها وبعدها مما علمه أهل الكتاب ، وجهلته الأمة الأمية من مشركى عبدة الأوثان ، بالاحتجاج عليهم دون غيرهم من سائر أصناف الأمم ، الذين لاعلم عندهم بذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ليعلموا بإخباره إياهم بذلك ، أنه لله رسول مبعوث ، وأن ما جاءهم به فمن عنده ، إذ كان ما اقتصّ عليهم من هذه القصص من مكنون علومهم ، ومصون ما فى كتبهم ، وخفىّ أمورهم التى لم يكن يدّعى معرفة علمها غيرهم ، وغير من أخذ عنهم وقرأ كتبهم ؛ وكان معلوما من محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن قط كاتبا ولا لأسفارهم تاليا ، ولا لأحد منهم مصاحبا ولا مجالسا ، فيمكنهم أن يدّعوا أنه أخذ ذلك من كتبهم ، أو عن بعضهم ، فقال جل ذكره ، فى تعديده عليهم ما هم فيه مقيمون من نعمه مع كفرهم به ، وتركهم شكره عليها مما يجب له عليهم من طاعته (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) فأخبرهم جل ذكره ، أنه خلق لهم ما فى الأرض جميعا ، لأن الأرض وجميع ما فيها لبنى آدم منافع ؛ أما فى الدين فدليل على وحدانية ربهم ، وأما فى الدنيا فمعاش وبلاغ لهم إلى طاعته ، وأداء فرائضه ؛ فلذلك قال جل ذكره (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً)

وقوله : هو مكنىّ من اسم الله جل ذكره ، عائد على اسمه فى قوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ) ؛ ومعنى خلقه ما خلق جل ثناؤه : إنشاؤه عينه ، وإخراجه من حال العدم إلى الوجود ، وما بمعنى الذى . فمعنى الكلام إذاً : كيف تكفرون بالله وقد كنتم نطفا فى أصلاب آبائكم ، فجعلكم بشرا أحياء ، ثم يميتكم ، ثم هو محييكم بعد ذلك ، وباعثكم يوم الحشر للثواب والعقاب ، وهو المنعم عليكم بما خلق لكم فى الأرض ، من معايشكم وأدلتكم على وحدانية ربكم . وكيف بمعنى التعجب والتوبيخ ، لا بمعنى الاستفهام ، كأنه قال : ويحكم كيف تكفرون بالله ، كما قال : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) وحل قوله (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) محلّ الحال ، وفيه إضمار قد ، ولكنها حذفت لما فى الكلام من الدليل عليها ، وذلك أن « فعل » إذا حلت محلّ الحال كان معلوما أنها مقتضية قد ، كما قال جل ثناؤه (أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) بمعنى قد حصرت صدورهم ، وكما تقول للرجل : أصبحت كثرت ماشيتك ، تريد قد كثرت ماشيتك ؛ وبنحو

الذى قلنا فى قوله : (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الأَرْضِ جَمِيعاً) كان قتادة يقول : حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الأَرْضِ جَمِيعاً) نعم والله سخر لكم ما فى الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ)

قال أبو جعفر : اختلف فى تأويل قوله : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السماءِ) فقال بعضهم : معنى استوى إلى السماء : أقبل عليها كما تقول : كان فلان مقبلا على فلان ، ثم استوى علىّ يشاتمنى واستوى إلىّ يشاتمنى ، بمعنى أقبل علىّ وإلىّ يشاتمنى . واستشهد على أن الاستواء بمعنى الإقبال بقول الشاعر :

أَقُولُ وَقَدْ قَطَعْنَ بِنا شَرَوْرَى　　سَوَامِدَ وَاسْتَوَيْنَ مِنَ الضَّجُوعِ

فزعم أنه عنى به أنهن خرجن من الضجوع ، وكان ذلك عندهم بمعنى أقبلن ، وهذا من التأويل فى هذا البيت خطأ ، وإنما معنى قوله : واستوين من الضجوع عندى : استوين على الطريق من الضجوع خارجات ، بمعنى استقمن عليه .

وقال بعضهم : لم يكن ذلك من الله جل ذكره بتحوّل ، ولكنه بمعنى فعله ، كما تقول : كان الخليفة فى أهل العراق يواليهم ثم تحوّل إلى الشام ، إنما يريد تحوّل فعله .

وقال بعضهم : قوله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّماءِ) يعنى به : استوت ، كما قال الشاعر :

أَقُولُ لَهُ لَمَّا اسْتَوَى فى تُرابِهِ　　على أَىِّ دِينٍ قَبَّلَ الرَّأْسَ مُصْعَبُ

وقال بعضهم : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّماءِ) : عمد إليها ، وقال : بل كل تارك عملا كان فيه إلى آخره فهو مستو لما عمد له ومستو إليه .

وقال بعضهم : الاستواء : هو العلوّ ، والعلوّ : هو الارتفاع .

وممن قال ذلك الربيع بن أنس ، حدثت بذلك عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّماءِ) يقول : ارتفع إلى السماء .

ثم اختلف متأوّلو الاستواء بمعنى العلوّ والارتفاع فى الذى استوى إلى السماء ، فقال بعضهم : الذى استوى إلى السماء وعلا عليها : هو خالقها ومنشئها .

وقال بعضهم : بل العالى إليها الدخان الذى جعله الله للأرض سماء .

قال أبو جعفر : الاستواء فى كلام العرب منصرف على وجوه : منها انتهاء شباب الرجل وقوّته ، فيقال إذا صار كذلك : قد استوى الرجل . ومنها استقامة ما كان فيه أَوَدٌ من الأمور والأسباب ، يقال : منه استوى لفلان أمره : إذا استقام له بعد أَوَدٍ . ومنه قول الطرماح بن حكيم :

طالَ عَلى رَسْمِ مَهْدَدٍ أَبَدُهْ　　وعَفا واسْتَوَى بِهِ بَلَدُهْ

يعنى استقام به .

ومنها الإقبال على الشيء بالفعل ، كما يقال : استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه . ومنها الاحتياز والاستيلاء كقولهم : استوى فلان على المملكة ، بمعنى احتوى عليها وحازها . ومنها العلوّ والارتفاع ، كقول القائل : استوى فلان على سريره ، يعني به علوّه عليه .

وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ) علا عليهنّ وارتفع ، فدبرهن بقدرته ، وخلقهنّ سبع سموات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) الذي هو بمعنى العلوّ والارتفاع هربا عند نفسه من أن يلزمه بزعمه إذا تأوله بمعناه المفهوم ، كذلك أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر . ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله (اسْتَوَى) : أقبل ، أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ولكنه إقبال تدبير ، قيل له : فكذلك فقل : علا عليها علوّ ملك وسلطان لا علوّ انتقال وزوال . ثم لن يقول في شيء من ذلك قولا إلا ألزم في الآخر مثله . ولولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال في ذلك قولا لقول أهل الحقّ فيه مخالفا . وفيما بينا منه مايشرف بذي الفهم على ما فيه له الكفاية إن شاء الله تعالى .

قال أبو جعفر : وإن قال لنا قائل : أخبرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلى السماء كان قبل خلق السماء أم بعده ؟ قيل : بعده ، وقبل أن يسوّيهنّ سبع سموات ، كما قال جل ثناؤه : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) والاستواء كان بعد أن خلقها دخانا ، وقبل أن يسوّيها سبع سموات .

وقال بعضهم: إنما قال استوى إلى السماء ولا سماء ، كقول الرجل لآخر: اعمل هذا الثوب وإنما معه غزل . وأما قوله (فَسَوَّاهُنَّ) فإنه يعني هيأهنّ وخلقهنّ ودبرهنّ وقوّمهنّ . والتسوية في كلام العرب: التقويم والإصلاح والتوطئة ، كما يقال : سوّى فلان لفلان هذا الأمر : إذا قوّمه وأصلحه ووطأه له . فكذلك تسوية الله جل ثناؤه سمواته : تقويمه إياهن على مشيئته ، وتدبيره لهن على إرادته ، وتفتيقهن بعد إرتاقهن .

كما حدثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) يقول : سوى خلقهن (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

وقال جل ذكره: (فَسَوَّاهُنَّ) : فأخرج مكنيهن مخرج مكنّي الجمع ، وقد قال قبل (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) فأخرجها على تقدير الواحد ، وإنما أخرج مكنيهن مخرج مكنّي الجمع ، لأن السماء جمع واحدها سماوة ، فتقدير واحدتها وجمعها إذاً تقدير بقرة وبقر ، ونخلة ونخل وما أشبه ذلك . ولذلك أنث السماء مرة ، فقيل : هذه سماء ، وذكر أخرى فقيل : (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ) كما يفعل ذلك بالجمع الذي لا فرق بينه وبين واحده غير دخول الهاء وخروجها ، فيقال : هذا بقر وهذه بقر ، وهذا نخل ، وهذه نخل وما أشبه

ذلك . وكان بعض أهل العربية يزعم أن السماء واحدة ، غير أنها تدلّ على السموات ، فقيل (فَسَوَّاهُنَّ) يراد بذلك التى ذكرت ، وما دلت عليه من سائر السموات التى لم تذكر معها ، قال : وإنما تذكر إذا ذكرت وهى مؤنثة ، فيقال : السماء منفطر به ، كما يذكر المؤنث ، وكما قال الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا وَلَا أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا

وكما قال أعشى بنى ثعلبة :

فإمَّا تَرَىْ لِمَّتِي بُدِّلَتْ فإنَّ الحَوَادِثَ أَزْرَى بِهَا

وقال بعضهم : السماء وإن كانت سماء فوق سماء ، وأرضا فوق أرض ، فهى فى التأويل واحدة إن شئت ، ثم تكون تلك الواحدة جماعا ، كما يقال : ثوب أخلاق وأسمال ، وبرمة أعشار للمتكسرة ، وبرمة أكسار وأجبار وأخلاق : أى أن نواحيه أخلاق .

فإن قال لنا قائل : فإنك قد قلت : إن الله جل ثناؤه ، استوى إلى السماء وهى دخان ، قبل أن يسوّيها سبع سموات ، ثم سوّاها سبعا بعد استوائه إليها ، فكيف زعمت أنها جماع ؟ قيل : إنهن كنّ سبعا غير مستويات ، فلذلك قال جلّ ذكره : فسوّاهنّ سبعا .

كما حدثنى محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، قال : قال محمد بن إسحق : كان أوّل ماخلق الله تبارك وتعالى : النور والظلمة ، ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما ، وجعل النور نهارا مضيئا مبصرا ، ثم سمك السموات السبع من دخان ، يقال والله أعلم من دخان الماء ، حتى استقللن ولم يحبكهن ، وقد أغطش فى السماء الدنيا ليلها ، وأخرج ضحاها ، فجرى فيها الليل والنهار ، وليس فيها شمس ولا قمر ولا نجوم ، ثم دحى الأرض ، وأرساها بالجبال ، وقدّر فيها الأقوات ، وبثّ فيها ما أراد من الخلق ، ففرغ من الأرض ، وما قدّر فيها من أقواتها فى أربعة أيام ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان كما قال فحبكهن ، وجعل فى السماء الدنيا شمسها وقمرها ونجومها ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، فأكمل خلقهنّ فى يومين ، ففرغ من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى فى اليوم السابع فوق سمواته ، ثم قال للسموات والأرض (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) لما أردتُ بكما ، فاطمئنا عليه طوعا أوكرها (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ، فقد أخبر ابن إسحق أن الله جل ثناؤه ، استوى إلى السماء بعد خلقه الأرض وما فيها ، وهنّ سبع من دخان ، فسوّاهنّ كما وصف . وإنما استشهدنا لقولنا الذى قلنا فى ذلك بقول ابن إسحق ، لأنه أوضح بيانا عن خبر السموات أنهنّ كنّ سبعا من دخان قبل استواء ربنا إليها بتسويتها من غيره ، وأحسن شرحا لما أردنا الاستدلال به ، من أن معنى السماء التى قال الله فيها : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) بمعنى الجمع على ماوصفنا ، وأنه إنما قال جل ثناؤه : فسوّاهنّ إذ كانت السماء بمعنى الجمع على ما بينا .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : فما صفة تسوية الله جل ثناؤه السموات التى ذكرها فى قوله : (فَسَوَّاهُنَّ) إذ كنّ قد خلقن سبعا قبل تسويته إياهن . وما وجه ذكر خلقهن بعد ذكر خلق الأرض ، ألأنها خلقت قبلها ، أم بمعنى غير ذلك ؟ قيل قد ذكرنا ذلك فى الخبر الذى رويناه عن ابن إسحق ، ونزيد ذلك توكيدا بما نضمّ إليه من أخبار بعض السلف المتقدمين وأقوالهم .

فحدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط عن السدى فى خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) قال : إنّ الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا ، فارتفع فوق الماء فسما عليه ، فسماه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعل سبع أرضين فى يومين ، فى الأحد والاثنين ، فخلق الأرض على حوت ، والحوت هو النون الذى ذكره الله فى القرآن (نٓ وَالْقَلَمِ) والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة فى الريح ؛ وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض ، فتحرّك الحوت فاضطرب ، فتزلزلت الأرض ، فأرسى عليها الجبال فقرّت ، فالجبال تفخر على الأرض ، فذلك قوله : (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) ، وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين ، فى الثلاثاء والأربعاء ، وذلك حين يقول (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا) يقول : أنبت شجرها (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) يقول أقواتها لأهلها (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) يقول : قل لمن يسألك هكذا الأمر (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ، فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة ، وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ، وأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها ، من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينة وحفظا تحفظ من الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحبّ استوى على العرش ، فذلك حين يقول : خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، يقول (كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا) .

وحدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) قال : خلق الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان ، فذلك حين يقول : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) قال : بعضهنّ فوق بعض ، وسبع أرضين بعضهنّ تحت بعض .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) قال : بعضهنّ فوق بعض ، بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء ، ثم ذكر السماء قبل الأرض ، وذلك أن الله

خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) ثم دحا الأرض بعد ذلك ، فذلك قوله : (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى أبو معشر ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن عبد الله بن سلام أنه قال : إن الله بدأ الخلق يوم الأحد ، فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات فى الخميس والجمعة ، وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة .

قال أبو جعفر : فمعنى الكلام إذاً : هو الذى أنعم عليكم ، فخلق لكم ما فى الأرض جميعا ، وسخره لكم تفضلا منه بذلك عليكم ، ليكون لكم بلاغا فى دنياكم ، ومتاعا إلى موافاة آجالكم ، ودليلا لكم على وحدانية ربكم ، ثم علا إلى السموات السبع وهى دخان ، فسوّاهن وحبكهن ، وأجرى فى بعضهن شمسه وقمره ونجومه ، وقدّر فى كل واحدة منهن ماقدّر من خلقه .

القول فى تأويل قوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

يعنى بقوله جلّ جلاله وهو نفسه ، وبقوله : (بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) : أن الذى خلقكم وخلق لكم ما فى الأرض جميعا ، وسوّى السموات السبع بما فيهن ، فأحكمهن من دخان الماء وأتقن صنعهن ، لايخفى عليه أيها المنافقون والملحدون الكافرُونَ به من أهل الكتاب ، ما تبدون وما تكتمون فى أنفسكم ، وإن أبدى منافقوكم بألسنتهم قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وهم على التكذيب به منطوون ، وكذّبت أحباركم بما أتاهم به رسولى من الهدى والنور وهم بصحته عارفون ، وجحدوا وكتموا ما قد أخذت عليهم ببيانه لخلقى من أمر محمد ونبوته المواثيق ، وهم به عالمون ؛ بل أنا عالم بذلك وغيره من أموركم ، وأمور غيركم ، إنى بكلّ شىء عليم ، وقوله (عَلِيمٌ) بمعنى عالم . وروى عن ابن عباس أنه كان يقول : هو الذى قد كمل فى علمه .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا معاوية بن صالح ، قال : حدثنى علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : العالم الذى قد كمل فى علمه .

القول فى تأويل قوله :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

قال أبو جعفر : زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويل قوله : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) وقال ربك ، وأنّ إذ من الحروف الزوائد ، وأن معناها الحذف ، واعتلّ لقوله الذى وصفنا عنه فى ذلك ببيت الأسود بن يعفر :

فإذا وذَلِكَ لامَهاهَ لِذِكْرِهِ ... والدَّهْرُ يُعْقِبُ صالحا بِفَسادِ

ثم قال : ومعناها : وذلك لامهاه لذكره . وببيت عبد مناف بن ربع الهذلىّ :

حَتَّى إذَا أَسْلَكُوهُمْ فِى قُتَائِدَةٍ شَلًّا كَمَا تَطْرُدُ الجَمَّالَةُ الشُّرُدَا

وقال : معناه : حتى أسلكوهم .

قال أبو جعفر : والأمر فى ذلك بخلاف ماقال ؛ وذلك أن إذ حرف يأتى بمعنى الجزاء ، ويدل على مجهول من الوقت ، وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام ؛ إذ سواء قيلُ قائلٍ هو بمعنى التطوّل ، وهو فى الكلام دليل على معنى مفهوم . وقيلُ آخر فى جميع الكلام الذى نطق به دليلا على ما أريد به ، هو بمعنى التطول ، وليس لمدّعى الذى وصفنا قوله فى بيت الأسود بن يعفر أن إذا بمعنى التطوّل ، وجه مفهوم ؛ بل ذلك لو حذف من الكلام لبطل المعنى الذى أراده الأسود بن يعفر من قوله :

فإذَا وَذَلِكَ لامَهَاهَ لِذِكْرِهِ

وذلك أنه أراد بقوله : فاذا الذى نحن فيه ، وما مضى من عيشنا ، وأشار بقوله ذلك إلى ماتقدم وصفه من عيشه الذى كان فيه لامَهاه لذكره ، يعنى لاطعم له ولا فضل ، لإعقاب الدهر صالح ذلك بفساد ، وكذلك معنى قول عبد مناف بن ربع :

حَتَّى إذَا أَسْلَكُوهُمْ فِى قُتَائِدَةٍ شَلًّا . . . .

لو أسقط منه « إذا » بطل معنى الكلام ؛ لأن معناه : حتى إذا أسلكوهم فى قتائدة سلكو شلا ، فدل قوله : أسلكوهم شلا ، على معنى المحذوف ، فاستغنى عن ذكره بدلالة إذا عليه فحذف ، كما قد ذكرنا فيما مضى من كتابنا على ماتفعل العرب فى نظائر ذلك ، وكما قال النمر بن تولب :

فإنَّ المَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَهَا فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا

وهو يريد : أينما ذهب ، وكما تقول العرب : أتيتك من قبلُ ومن بعدُ : تريد من قبل ذلك ومن بعد ذلك ، فكذلك ذلك فى إذا كما يقول القائل : إذا أكرمك أخوك فأكرمه ، وإذا لا فلا : يريد وإذا لم يكرمك فلا تكرمه ؛ ومن ذلك قول الآخر :

فإذَا وَذَلِكَ لا يَضُرُّكَ ضُرُّهُ فى يَوْمِ أَسْأَلُ نائِلاً أَوْ أَنْكَدَا

نظير ما ذكرنا من المعنى فى بيت الأسود بن يعفر . وكذلك معنى قول الله جل ثناؤه (وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ) لو أبطلت إذ وحذفت من الكلام ، لاستحال عن معناه الذى هو به وفيه إذ .

فإن قال قائل : فما معنى ذلك ، وما الجالب لإذ ، إذ لم يكن فى الكلام قبله مايعطف به عليه ؟ قيل له : قد ذكرنا فيما مضى أن الله جل ثناؤه ، خاطب الذين خاطبهم بقوله : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْياكُمْ) بهذه الآيات والتى بعدها موبخهم مقبحا إليهم سوء فعالهم ومقامهم على ضلالهم مع النعم التى أنعمها عليهم وعلى أسلافهم ، ومذكرهم بتعديد نعمه عليهم وعلى أسلافهم بأسه أن يسلكوا سبيل من هلك من أسلافهم فى معصية الله ، فيسلك بهم سبيلهم فى عقوبته ، ومعرّفهم ما كان منه من تعطفه على التائب منهم استعتابا منه لهم . فكان مما عدّد من نعمه عليهم ، أنه خلق لهم ما فى الأرض

جميعا ، وسخر لهم ما فى السموات ، من شمسها وقمرها ونجومها وغير ذلك من منافعها التى جعلها لهم ولسائر بنى آدم معهم منافع ، فكان فى قوله : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) معنى : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئا ، وخلقت لكم ما فى الأرض جميعا ، وسويت لكم ما فى السماء ، ثم عطف بقوله : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ) على المعنى المقتضى بقوله : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ) إذ كان مقتضيا ماوصفت من قوله (اذْكُرُوا نِعْمَتِي) إذ فعلت بكم وفعلت ، واذكروا فعلى بأبيكم آدم ، إذ قلت للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة . فان قال قائل : فهل لذلك من نظير فى كلام العرب نعلم به صحة ماقلت ؟ قيل : نعم ، أكثر من أن يحصى ، من ذلك قول الشاعر :

أَجِدَّكَ لَنْ تَرَى بِثُعَيْلِبَاتٍ ... وَلَا بَيْدَانَ نَاجِيَةً ذَمُولَا
وَلَا مُتَدَارِكٍ [1] وَالشَّمْسُ طِفْلٌ ... بِبَعْضِ نَوَاشِغِ الوَادِى حُمُولَا

فقال : ولا متدارك ، ولم يتقدمه فعل بلفظه يعطف عليه ، ولا حرف معرب إعرابه فيرد متدارك عليه فى إعرابه ، ولكنه لما تقدمه فعل مجحود بلن يدل على المعنى المطلوب فى الكلام ، وعلى المحذوف استغنى بدلالة ماظهر منه عن إظهار ما حذف ، وعامل الكلام فى المعنى والإعراب معاملته أن لو كان ماهو محذوف منه ظاهرا ، لأن قوله :

أَجِدَّكَ لَنْ تَرَى بِثُعَيْلِبَاتٍ

بمعنى أجدك لست براء ، فرد متداركا على موضع ترى ، كأن لست والباء موجودتان فى الكلام ، فكذلك قوله : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) لما سلف قبله ، تذكير الله المخاطبين به ماسلف قبلهم ، وقبل آبائهم من أياديه وآلائه ، وكان قوله (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ) مع مابعده من النعم التى عددها عليهم ، ونبههم على مواقعها رد إذ على موضع (وَكُنْتُمْ أَمواتاً فأَحْيَاكُمْ) لأن معنى ذلك : اذكروا هذه من نعمى ، وهذه التى قلت فيها للملائكة ، فلما كانت الأولى مقتضية إذ عطف وإذ ، على موضعها فى الأولى كما وصفنا من قول الشاعر فى : ولا متدارك .

القول فى تأويل قوله : (لِلْمَلَائِكَةِ)

قال أبو جعفر : والملائكة جمع مَلَك ، غير أن واحدهم بغير الهمز أكثر وأشهر فى كلام العرب منه بالهمز ، وذلك أنهم يقولون فى واحدهم مَلَك من الملائكة ، فيحذفون الهمز منه ، ويحركون اللام التى كانت مسكنة لو همز الاسم ، وإنما يحركونها بالفتح ، لأنهم ينقلون حركة الهمزة التى فيه بسقوطها إلى الحرف الساكن قبلها ، فإذا جمعوا واحدهم ردوا الجمع إلى الأصل وهمزوا ، فقالوا : ملائكة ، وقد تفعل العرب نحو ذلك كثيرا فى كلامها ، فتترك الهمز فى الكلمة التى هى مهموزة ، فيجرى كلامهم بترك همزها فى حال ، ويهمزها فى أخرى ، كقولهم : رأيت فلانا ، فجرى كلامهم بهمز رأيت ، ثم قالوا : نرى

(١) رواية هذا الشطر فى اللسان : « ولا متلافيا والشمس طفل » . ونسبه للمرار بن سعيد .

وترى ويرى ، فجرى كلامهم فى يفعل ونظائرها بترك الهمز ، حتى صار الهمز معها شاذا ، مع كون الهمز فيها أصلا . فكذلك ذلك فى ملك وملائكة ، جرى كلامهم بترك الهمز من واحدهم ، وبالهمز فى جميعهم ، وربما جاء الواحد مهموزا كما قال الشاعر :

فَلَسْتَ لِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلْأَكٍ تَحَدَّرَ مِنْ جَوِّ السَّماءِ يَصُوبُ

وقد يقال فى واحدهم : مأْلَك ، فيكون ذلك مثل قولهم : جبذ ، وجذب ، وشأمل وشمأل ، وما أشبه ذلك من الحروف المقلوبة . غير أن الذى يجب إذا سمى واحدهم مألك ، أن يجمع إذا جمع على ذلك مآلك ، ولست أحفظ جمعهم كذلك سماعا ، ولكنهم قد يجمعون ملائك وملائكة ، كما يجمع أشعث : أشاعث وأشاعثة ، ومسمع مسامع ومسامعة . قال أمية بن أبى الصلت فى جمعهم كذلك :

وَفِيها مِنْ عِبادِ اللهِ قَوْمٌ مَلائِكُ ذُلِّلُوا وَهُمُ صِعابُ

وأصل الملأك : الرسالة ، كما قال عدىّ بن زيد العبادى :

أَبْلِغِ النُّعْمانَ عَنِّى مَلْأَكاً أَنَّهُ قَدْ طالَ حَبْسِي وَانْتِظارْ

وقد ينشد مَأْلَكا على اللغة الأخرى . فمن قال : ملأكا ، فهو مَفْعَل من لأك إليه يلئك : إذا أرسل إليه رسالة ملأكة ، ومن قال : مألكا ، فهو مفعل من ألكت إليه آلك : إذا أرسلت إليه مألكة وألوكا كما قال لبيد بن أبى ربيعة :

وَغُلامٍ أَرْسَلَتْهُ أُمُّهُ بِأَلُوكٍ فَبَذَلْنا ما سَأَلْ

فهذا من ألكت . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

أَلِكْنِي يا عُيَيْنُ إِلَيْكَ قَوْلاً سَتَهْدِيهِ الرُّواةُ إِلَيْكَ عَنِّى

وقال عبد بنى الحسحاس :

أَلِكْنِى إِلَيْها عَمْرَكَ اللهَ يا فَتًى بِآيَةِ ما جاءَتْ إِلَيْنا تَهادِيا

يعنى بذلك : أبلغها رسالتى ، فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة ، لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ومن أرسلت إليه من عباده .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : (إِنِّى جاعِلٌ فى الأَرْضِ)

اختلف أهل التأويل فى قوله : (إِنِّى جاعِلٌ) ، فقال بعضهم : إنى فاعل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن جرير بن حازم ، ومبارك عن الحسن ، وأبى بكر ، يعنى الهذلى عن الحسن وقتادة ، قالوا : قال الله للملائكة : « إِنِّى جاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً ») قال لهم : إنى فاعل .

وقال آخرون : إنى خالق .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن المنجاب بن الحارث قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، قال : كل شيء في القرآن جعل فهو خلق .

قال أبو جعفر : والصواب في تأويل قوله : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) أي مستخلف في الأرض خليفة ومصير فيها خلفا ، وذلك أشبه بتأويل قول الحسن وقتادة . وقيل إن الأرض التي ذكرها الله في هذه الآية هي مكة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن ابن سابط : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دُحِيَتِ الأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ » وكانت الملائكة تطوف بالبيت ، فهي أول من طاف به ، وهي الأرض التي قال الله : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، وكان النبي إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون أتى هو ومن معه فعبدوا الله بها حتى يموتوا ، فإن قبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام .

القول في تأويل قوله (خَلِيفَةً)

والخليفة الفعيلة ، من قولك : خلف فلان فلانا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده ، كما قال جل ثناؤه : (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) يعني بذلك : أنه أبدلكم في الأرض منهم ، فجعلكم خلفاء بعدهم ؛ ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم : خليفة ، لأنه خلف الذي كان قبله ، فقام بالأمر مقامه ، فكان منه خلفا . يقال منه : خلف الخليفة يخلف خلافة وخليفا . وكان ابن إسحق يقول بما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) يقول : ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها ، خلقا ليس منكم . وليس الذي قال ابن إسحق في معنى الخليفة بتأويلها ، وإن كان الله جل ثناؤه ، إنما أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة يسكنها ، ولكن معناها ما وصفت قبل .

فإن قال لنا قائل : فما الذي كان في الأرض قبل بني آدم لها عامرا ، فكان بنو آدم بدلا منه ، وفيها منه خلفا ؟ قيل : قد اختلف أهل التأويل في ذلك .

فحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : أوّل من سكن الأرض الجنّ ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا فيها الدماء ، وقتل بعضهم بعضا ، قال : فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة ، فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ؛ ثم خلق آدم فأسكنه إياها ، فلذلك قال : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فعلى هذا القول إني جاعل في الأرض خليفة من الجنّ يخلفونهم فيها ، فيسكنونها ويعمرونها .

وحدثني المثنى قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس في قوله : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) الآية ، قال : إن الله خلق الملائكة يوم الأربعاء ،

وخلق الجن يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة . فكفر قوم من الجن . فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ، فكانت الدماء وكان الفساد فى الأرض .

وقال آخرون فى تأويل قوله : (إنى جاعِلٌ فى الأرْضِ خَلِيفَةً) أى خلفا يخلف بعضهم بعضا. وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم ، ويخلف كل قرن منهم القرن الذى سلف قبله .

وهذا قول حكى عن الحسن البصرى ، ونظير له ما حدثنى به محمد بن بشار ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب ، عن ابن سابط فى قوله : (إنى جاعلٌ فى الأرْضِ خليفَةً قالُوا أتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) قال : يعنون به بنى آدم .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، قال الله للملائكة : إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقا ، وأجعل فيها خليفة ، وليس لله يومئذ خلق إلا الملائكة والأرض. ليس فيها خلق.

وهذا القول يحتمل ما حكى عن الحسن ، ويحتمل أن يكون أرا د ابن زيد أن الله أخبر الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة له ، يحكم فيها بين خلقه بحكمه ، نظير ماحدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ابن حماد ، قال: حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، أن الله جل ثناؤه قال للملائكة (إنى جاعِلٌ فى الأرْضِ خَلِيفَةً) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضا، فكان تأويل الآية على هذه الرواية التى ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس : إنى جاعل فى الأرض خليفة منى .يخلفنى فى الحكم بين خلقى. وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه .

وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه ، ومن غير آدم ، ومن قام مقامه فى عباد الله. لأنهما أخبرا أن الله جل ثناؤه قال لملائكته إذ سألوه : ماذاك الخليفة إنه خليفة يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا ، فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خليفته دونه ، وأخرج منه خليفته .

وهذا التأويل وإن كان مخالفا فى معنى الخليفة ما حكى عن الحسن من وجه. فموافق له من وجه، فأما موافقته إياه فصرف متأوّليه إضافة الإفساد فى الأرض. وسفك الدماء فيها إلى غير الخليفة . وأما مخالفته إياه. فاضافتهم الخلافة إلى آدم بمعنى استخلاف الله إياه فيها، وإضافة الحسن الخلافة إلى ولده بمعنى خلافة بعضهم بعضا ، وقيام قرن منهم مقام قرن قبلهم ، وإضافة الإفساد فى الأرض وسفك الدماء إلى الخليفة . والذى دعا المتأوّلين قوله (إنّى جاعِلٌ فِى الأرْضِ خَلِيفَةً) فى التأويل الذى ذكر عن الحسن إلى ماقالوا فى ذلك أنهم قالوا إن الملائكة إنما قالت لربها إذ قال لهم ربهم (إنى جاعِلٌ فى الأرْضِ خَلِيفَةً أتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) إخبارا منها بذلك عن الخليفة الذى أخبر الله جل ثناؤه أنه جاعله فى الأرض لاغيره. لأن المحاورة بين الملائكة وبين ربها عنه جرت . قالوا : فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله قد برأ آدم من الإفساد فى الأرض وسفك الدماء ، وطهره من ذلك ، علم أن الذى عنى به غيره من ذرّيته ، فثبت أن

الخليفة الذى يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، هو غير آدم ، وأنهم ولده الذين فعلوا ذلك ، وأن معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرنا غيرهم لما وصفنا ، وأغفل قائلو هذه المقالة ومتأولو الآية هذا التأويل سبيل التأويل ، وذلك أن الملائكة إذ قال لها ربها : « إنى جاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً » لم تضف الإفساد وسفك الدماء فى جوابها ربها إلى خليفته فى أرضه ، بل قالت : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) ، وغير منكر أن يكون ربها أعلمها أنه يكون لخليفته ذلك ذرية يكون منهم الإفساد وسفك الدماء ، فقالت : يا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ كما قال ابن مسعود وابن عباس ومن حكينا ذلك عنه من أهل التأويل .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه خبرا عن ملائكته : (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) ؟

قال أبو جعفر : إن قال قائل : وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل فى الأرض خليفة : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) ولم يكن آدم بعد مخلوقا ولا ذرّيته ، فيعلموا مايفعلون عيانا ؟ أعلمت الغيب فقالت ذلك ، أم قالت ماقالت من ذلك ظنا ، فذلك شهادة منها بالظن ، وقول بما لاتعلم ، وذلك ليس من صفتها ، فما وجه قيلها ذلك لربها ؟ قيل : قد قالت العلماء من أهل التأويل فى ذلك أقوالا ونحن ذاكرو أقوالهم فى ذلك ، ثم مخبرون بأصحها برهانا وأوضحها حجة .

فروى عن ابن عباس فى ذلك ما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة ، يقال لهم الجن ، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ، قال : وكان اسمه الحرث ، قال : وكان خازنا من خزان الجنة . قال : وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحىّ ، قال : وخلقت الجنّ الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار ، وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت ، قال : وخلق الإنسان من طين . فأوّل من سكن الأرض الجنّ ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، وقتل بعضهم بعضا ؛ قال : فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة ، وهم هذا الحىّ الذين يقال لهم الجنّ ، فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ فى نفسه ، وقال : قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد ، قال : فاطّلع الله على ذلك من قلبه ، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه ، فقال الله للملائكة الذين معه : (إنى جاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً) فقالت الملائكة مجيبين له : (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) كما أفسدت الجن وسفكت الدماء ، وإنما بعثنا عليهم لذلك ، فقال : (إنى أَعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) . يقول : إنى قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره . قال : ثم أمر بتربة آدم فرفعت ، فخلق الله آدم من طين لازب ، واللازب : اللزج الصلب ، من حمأ مسنون : منتن ، قال : وإنما كان حمأ مسنونا بعد التراب ، قال : فخلق منه آدم بيده ، قال فمكث أربعين ليلة جسدا ملقى ، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل : أى فيصوّت ، قال : فهو

قول الله : (مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ) يقول : كالشيء المنفوخ الذى ليس بمصمت ، قال : ثم يدخل فى فيه ، ويخرج من دبره ، ويدخل من دبره ويخرج من فيه ، ثم يقول : لست شيئا للصلصلة ، ولشيء ما خلقت ، لئن سلطت عليك لأهلكنك ، ولئن سلطت علىّ لأعصينك ، قال : فلما نفخ الله فيه من روحه ، أتت النفخة من قبل رأسه ، فجعل لايجرى شيء منها فى جسده إلا صار لحما ودما ، فلما انتهت النفخة إلى سرّته نظر إلى جسده ، فأعجبه مارأى من حسنه ، فذهب لينهض فلم يقدر ، فهو قول الله (وكانَ الإنْسانُ عَجُولاً) قال : ضجرا لاصبر له على سرّاء ولا ضرّاء . قال : فلما تمت النفخة فى جسده عطس ، فقال : الحمد لله ربّ العالمين ، بإلهام من الله تعالى ، فقال الله له : يرحمك الله يا آدم ، قال : ثم قال الله للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات : اسجدوا لآدم ، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر ، لما كان حدّث به نفسه من كبره واغتراره ، فقال : لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنا وأقوى خلقا ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ، يقول : إن النار أقوى من الطين ، قال : فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله ، وآيسه من الخير كله ، وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته ، ثم علّم آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة ، يعنى الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموم ، وقال لهم (أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ) يقول : أخبرونى بأسماء هؤلاء (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أنكم تعلمون أنى أجعل فى الأرض خليفة ، قال : فلما علمت الملائكة مؤاخذة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذى لايعلمه غيره الذى ليس لهم به علم ، قالوا : سبحانك تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره ، تبنا إليك (لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ ما عَلَّمْتَنَا) تبريا منهم من علم الغيب ، إلا ما علمتنا كما علمت آدم ، فقال : (يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) يقول : أخبرهم بأسمائهم (فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ) أيها الملائكة خاصة (إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ) ولا يعلمه غيرى (وأَعْلَمُ ماتُبْدُونَ) يقول : ماتظهرون (وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) يقول : أعلم السرّ كما أعلم العلانية ، يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار .

وهذه الرواية عن ابن عباس تنبئ عن أن قول الله جل ثناؤه (وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً) خطاب من الله جلّ ثناؤه لخاصّ من الملائكة دون الجميع ، وأن الذين قيل لهم ذلك من الملائكة كانوا قبيلة إبليس خاصة ، الذين قاتلوا معه جنّ الأرض قبل خلق آدم ، وأن الله إنما خصهم بقيل ذلك امتحانا منه لهم وابتلاء ، ليعرّفهم قصور علمهم ، وفضل كثير ممن هو أضعف خلقا منهم من خلقه عليهم ، وأن كرامته لاتنال بقوى الأبدان وشدة الأجسام كما ظنه إبليس عدوّ الله ، ويصرّح بأن قيلهم لربهم (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) كانت هفوة منهم ورجما بالغيب ، وأن الله جل ثناؤه ، أطلعهم على مكروه مانطقوا به من ذلك ، ووقفهم عليه ، حتى تابوا وأنابوا

إليه مما قالوا ، ونطقوا من رجم الغيب بالظنون ، وتبرءوا إليه أن يعلم الغيب غيره ، وأظهر لهم من إبليس ما كان منطويا عليه من الكبر الذى قد كان عنهم مستخفيا .

وقد روى عن ابن عباس خلاف هذه الرواية ، وهو ما حدثنى به موسى بن هرون قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : لما فرغ الله من خلق ما أحبّ استوى على العرش ، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ ؛ وإنما سموا الجنّ لأنهم خزّان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازنا ، فوقع فى صدره كبر وقال : ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى ، هكذا قال موسى بن هرون ، وقد حدثنى به غيره ، وقال : لمزية لى على الملائكة ؛ فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه ، اطلع الله على ذلك منه ، فقال الله للملائكة : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا (قَالُوا) ربنا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يعنى من شأن إبليس ، فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : إنى أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى ، فرجع ولم يأخذ وقال : ربّ إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث الله ميكائيل ، فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت ، فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ، فلم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به فبلّ التراب حتى عاد طينا لازبا ، واللازب : هو الذى يلتزق بعضه ببعض ، ثم ترك حتى أنتن وتغير ، وذلك حين يقول (مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) قال : منتن ، ثم قال للملائكة (إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ، فخلقه الله بيديه لكيلا يتكبر إبليس عنه ، ليقول له تتكبر عما عملت بيدىّ ، ولم أتكبر أنا عنه ؟ فخلقه بشرا ، فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدّهم منه فزعا إبليس ، فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار وتكون له صلصلة ، فذلك حين يقول (مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) ويقول لأمر مّا خلقت ، ودخل فيه فخرج من دبره ، فقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذى يريد الله جل ثناؤه ، أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح ، فدخل الروح فى رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : رحمك ربك ، فلما دخل الروح فى عينيه ، نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) . (أَبَى

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) قال الله له (مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ) إذ أمرتك (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين ، قال الله له (اخْرُجْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ) يعنى ما ينبغى لك (أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) والصغار هو الذل ، قال : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ثم عرض الخلق على الملائكة فقال : (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ، أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا له (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، قال) الله (يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) . قال : قولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) فهذا الذى أبدوا ، وأعلم ما كنتم تكتمون ، يعنى ما أسرَّ إبليس فى نفسه من الكبر .

قال أبو جعفر : فهذا الخبر أوله مخالف معناه معنى الرواية التى رويت عن ابن عباس من رواية الضحاك التى قد قدمنا ذكرها قبل ، وموافق معنى آخره معناها ، وذلك أنه ذكر فى أوله أن الملائكة سألت ربها : ما ذاك الخليفة حين قال لها (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فأجابها أنه تكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا ، فقالت الملائكة حينئذ : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) فكان قول الملائكة ماقالت من ذلك لربها بعد إعلام الله إياها أن ذلك كائن من ذرية الخليفة الذى يجعله فى الأرض ، فذلك معنى خلاف أوله معنى خبر الضحاك الذى ذكرناه .

وأما موافقته إياه فى آخره ، فهو قولهم فى تأويل قوله (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ، وأن الملائكة قالت إذ قال لها ربها ذلك ، تبريا من علم الغيب (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) وهذا إذا تدبره ذو الفهم ، علم أن أوله يفسد آخره ، وأن آخره يبطل معنى أوله ، وذلك أن الله جل ثناؤه ، إن كان أخبر الملائكة أن ذرية الخليفة الذى يجعله فى الأرض تفسد فيها ، وتسفك الدماء ، فقالت الملائكة لربها : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) فلا وجه لتوبيخها على أن أخبرت عمن أخبرها الله عنه أنه يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، بمثل الذى أخبرها عنهم ربها ، فيجوز أن يقال لها فيما طوى عنها من العلوم إن كنتم صادقين ، فيما علمتم بخبر الله إياكم أنه كائن من الأمور فأخبرتم به ، فأخبرونا بالذى قد طوى الله عنكم علمه ، كما قد أخبرتمونا بالذى قد أطلعكم الله عليه ، بل ذلك خلف من التأويل ، ودعوى على الله مالايجوز أن يكون له صفة ، وأخشى أن يكون بعض نقلة هذا الخبر هو الذى غلط على من رواه عنه من الصحابة ، وأن يكون التأويل منهم كان على ذلك : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما ظننتم أنكم أدركتموه من العلم بخبرى إياكم أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، حتى استجزتم أن تقولوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) فيكون التوبيخ حينئذ واقعا على ما ظنوا أنهم قد أدركوا بقول الله لهم : إنه يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، لا على

خبارهم بما أخبرهم الله به أنه كائن ، وذلك أن الله جل ثناؤه وإن كان أخبرهم عما يكون من بعض ذرية خليفته فى الأرض ، ما يكون منه فيها من الفساد وسفك الدماء ، فقد كان طوى عنهم الخبر عما يكون من كثير منهم ما يكون من طاعتهم ربهم ، وإصلاحهم فى أرضه وحقن الدماء ، ورفعه منزلتهم وكرامتهم عليه، فلم يخبرهم بذلك ، فقالت الملائكة (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) على ظنٍّ منها على تأويل هذين الخبرين اللذين ذكرت ، وظاهرهما أن جميع ذرية الخليفة الذى يجعله فى الأرض يفسدون فيها ، ويسفكون فيها الدماء، فقال الله لهم إذ علم آدم الأسماء كلها: (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أنكم تعلمون أن جميع بنى آدم يفسدون فى الأرض،ويسفكون الدماء،على ما ظننتم فى أنفسكم، إنكارا منه جل ثناؤه لقيلهم ماقالوا من ذلك على الجميع والعموم ، وهو من صفة خاصٍّ ذرية الخليفة منهم، وهذا الذى ذكرناه هو صفة منا لتأويل الخبر لاالقول الذى نختاره فى تأويل الآية .

ومما يدل على ما ذكرنا من توجيه خبر الملائكة عن إفساد ذرية الخليفة وسفكها الدماء على العموم ، ما حدثنا به ابن أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبوأحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عطاء ابن السائب ، عن عبد الرحمن بن سابط ، قوله : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) قال : يعنون الناس .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فاستخار الملائكة فى خلق آدم ، فقالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لاشىء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَاتَعْلَمُونَ) فكان فى علم الله جل ثناؤه أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل ، وقوم صالحون ، وساكنو الجنة . قال : وذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : إن الله لما أخذ فى خلق آدم قالت الملائكة : ما الله خالق خلقا أكرم عليه منا ، ولا أعلم منا ، فابتلوا بخلق آدم وكل خلق مبتلى ، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة ، فقال الله : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ، وهذا الخبر عن قتادة يدل على أن قتادة كان يرى أن الملائكة قالت ماقالت من قولها (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) على غير يقين علم تقدم منها بأن ذلك كائن ، ولكن على الرأى منها والظن ، وأن الله جل ثناؤه ، أنكر ذلك من قيلها ، وردَّ عليها مارأت بقوله (إِنِّي أَعْلَمُ مَالَاتَعْلَمُونَ) من أنه يكون من ذرّية ذلك الخليفة الأنبياء والرسل ، والمجتهد فى طاعة الله .

وقد روى عن قتادة خلاف هذا التأويل ، وهو ما حدثنا به الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) قال : كان الله أعلمهم إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك قوله (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) وبمثل قول قتادة قال جماعة من أهل التأويل ، منهم الحسن البصرى .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن جرير بن حازم ، ومبارك عن الحسن ، وأبي بكر عن الحسن ، وقتادة قالا : قال الله للملائكة (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) قال لهم إني فاعل ، فعرضوا برأيهم ، فعلمهم علما وطوى عنهم علما علمه لا يعلمونه ، فقالوا بالعلم الذي علمهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) وقد كانت الملائكة علمت من علم الله أنه لا ذنب أعظم عند الله من سفك الدماء (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فلما أخذ في خلق آدم ، همست الملائكة فيما بينها ، فقالوا : ليخلق ربنا ماشاء أن يخلق ، فلن يخلق خلقا إلا كنا أعلم منه ، وأكرم عليه منه ؛ فلما خلقه ونفخ فيه من روحه ، أمرهم أن يسجدوا له لما قالوا ، ففضله عليهم ، فعلموا أنهم ليسوا بخير منه ، فقالوا : إن لم نكن خيرا منه ، فنحن أعلم منه ، لأنا كنا قبله ، وخلقت الأمم قبله ؛ فلما أعجبوا بعلمهم ابتلوا ، فـ (عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أني لا أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه ، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؛ قال : ففزع القوم إلى التوبة ، وإليها يفزع كل مؤمن ، فقالوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) لقولهم ليخلق ربنا ماشاء، فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا، ولا أعلم منا.

قال : علمه اسم كل شيء ، هذه الجبال ، وهذه البغال ، والإبل ، والجنّ ، والوحش ، وجعل يسمى كل شيء باسمه ، وعرضت عليه كل أمة فـ (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) . قال : أما ما أبدوا فقولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) . وأما ما كتموا فقول بعضهم لبعض : نحن خير منه وأعلم .

وحدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس في قوله (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) الآية ، قال : إن الله خلق الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجن يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة . قال : فكفر قوم من الجن ، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم ، فكانت الدماء ، وكان الفساد في الأرض ، فمن ثم (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) . . . الآية .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : أخبرنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، بمثله (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إلى قوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) قال : وذلك حين قالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) قال : فلما عرفوا أنه جاعل في الأرض خليفة قالوا بينهم : لن يخلق الله خلقا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم ، فأراد الله أن يخبرهم أنه قد فضل عليهم آدم ، وعلم آدم الأسماء كلها . فقال للملائكة (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إلى قوله (وَأَعْلَمُ

ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) وكان الذى أبدوا حين (قالوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) وكان الذى كتموا بينهم قولهم : لن يخلق الله خلقا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم ، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم .

وقال ابن زيد بما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعرا شديدا ، وقالوا : ربنا لم خلقت هذه النار ، ولأىّ شىء خلقتها ؟[1] قال : لمن عصانى من خلقى ، قال : ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة ، والأرض ليس فيها خلق ، إنما خلق آدم بعد ذلك ، وقرأ قول الله (هَلْ أَتَى على الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ليت ذلك الحين ، ثم قال : قالت الملائكة : يا رب أو يأتى علينا دهر نعصيك فيه ؟ لايرون له خلقا غيرهم ، قال : لا إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقا ، وأجعل فيها خليفة يسفكون الدماء ، ويفسدون فى الأرض ، فقالت الملائكة (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) وقد اخترتنا ، فاجعلنا نحن فيها فنحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، ونعمل فيها بطاعتك ؛ وأعظمت الملائكة أن يجعل الله فى الأرض من يعصيه ، فقال : إنى أعلم مالاتعلمون ، يا آدم أنبئهم بأسمائهم فقال : فلان ، وفلان ، قال : فلما رأوا ما أعطاه الله من العلم ، أقرّوا لآدم بالفضل عليهم ، وأبى الخبيث إبليس أن يقرّ له ، (قالَ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها) .

وقال ابن إسحق بما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، قال : لما أراد الله أن يخلق آدم بقدرته ليبتليه ، ويبتلى به لعلمه بما فى ملائكته ، وجميع خلقه ، وكان أول بلاء ابتليت به الملائكة مما لها فيه ما تحبّ وما تكره للبلاء ، والتمحيص لما فيهم مما لم يعلموا ، وأحاط به علم الله منهم جمع الملائكة من سكان السموات والأرض ، ثم قال (إِنِّى جاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً) يقول : عامر أو ساكن يسكنها ويعمرها خلقا ليس منكم ؛ ثم أخبرهم بعلمه فيهم ، فقال يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ويعملون بالمعاصى ، فقالوا جميعا (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) لا نعصى ولا نأتى شيئا كرهته ، قال (إِنِّى أَعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) قال : إنى أعلم فيكم ومنكم ، ولم يبدها لهم ، من المعصية والفساد وسفك الدماء وإتيان ما أكره منهم ، مما يكون فى الأرض ، مما ذكرت فى بنى آدم .

قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم (ما كانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَى إِلَىَّ إِلا أَنَّما أَنا نَذِيرٌ مُبِينٌ) إلى قوله (فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ) فذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم الذى كان من ذكره آدم حين أراد خلقه ومراجعة الملائكة إياه فيما ذكر لهم منه ؛ فلما عزم الله تعالى ذكره على خلق آدم قال للملائكة (إِنِّى خالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) بيدىَ تكرمة له ،

(١) كذا فى النسخ ، بتكرير الاستفهام ؛ والذى فى الدر المنثور الاقتصار على الأول ، وحرره . كتبه مصححه .

وتعظيما لأمره ، وتشريفا له ، حفظت الملائكة عهده ، ووعوا قوله ، وأجمعوا الطاعة ، إلا ما كان من عدوّ الله إبليس ، فإنه صمت على ما كان فى نفسه ، من الحسد والبغى والتكبر والمعصية . وخلق الله آدم من أدمة الأرض ، من طين لازب من حمأ مسنون ، بيديه تكرمة له ، وتعظيما لأمره وتشريفا له على سائر خلقه .

قال ابن إسحق : فيقال والله أعلم : خلق الله آدم ، ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاما قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالا كالفخار ، ولم تمسسه نار . قال : فيقال والله أعلم : إنه لما انتهى الروح إلى رأسه عطس ، فقال : الحمد لله ، فقال له ربه : يرحمك ربك ، ووقع الملائكة حين استوى سجودا له حفظا لعهد الله الذى عهد إليهم ، وطاعة لأمره الذى أمرهم به ، وقام عدوّ الله إبليس من بينهم ، فلم يسجد مكابرا متعظما بغيا وحسدا ، فقال له (يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) إلى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) . قال : فلما فرغ الله من إبليس ومعاتبته ، وأبى إلا المعصية ، أوقع عليه اللعنة ، وأخرجه من الجنة . ثم أقبل على آدم ، وقد علمه الأسماء كلها ، فقال (يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . قالُوا سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لَنا إِلا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) أى إنما أجبناك فيما علمتنا . فأما ما لم تعلمنا فأنت أعلم به ، فكان ما سمى آدم من شىء كان اسمه الذى هو عليه إلى يوم القيامة .

وقال ابن جريج بما حدثنا به القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، قال : إنما تكلموا بما أعلمهم أنه كائن من خلق آدم ، فقالوا : (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) .

وقال بعضهم : إنما قالت الملائكة ما قالت (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) لأن الله أذن لها فى السؤال عن ذلك ، بعد ما أخبرها أن ذلك كائن من بنى آدم ، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها : وكيف يعصونك يارب ، وأنت خالقهم ؟ فأجابهم ربهم (إِنِّى أَعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) يعنى أن ذلك كائن منهم ، وإن لم تعلموه أنتم ، ومن بعض[1] من ترونه لى طائعا ، يعرّفهم بذلك قصور علمهم عن علمه .

وقال بعض أهل العربية : قول الملائكة (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها) على غير وجه الإنكار منهم على ربهم ، وإنما سألوه ليعلموا ، وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون ، وقال : قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يعصى الله ، لأن الجنّ قد كانت أمرت قبل ذلك فعصت

وقال بعضهم : ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك ، فكأنهم قالوا : يارب خبرنا ، مسئلة استخبار منهم لله لاعلى وجه مسئلة التوبيخ .

قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بقول الله جل ثناؤه مخبرا عن ملائكته قيلها له (أَتَجْعَلُ فِيها

---

(١) « قوله ومن بعض من الخ » معطوف على منهم : أى كائن منهم ومن بعض الخ وإن لم تعلموه أنتم ، تأمل

مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) تأويل من قال إن ذلك منها استخبار لربها ، بمعنى : أعلمنا يا ربنا ، أجاعل أنت فى الأرض من هذه صفته ، وتارك أن تجعل خلفاءك منا ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدّس لك ؟ لا إنكار منها لما أعلمها ربها أنه فاعل ، وإن كانت قد استعظمت — لما أخبرت بذلك — أن يكون لله خلق يعصيه .

وأما دعوى من زعم أن الله جل ثناؤه كان أذن لها بالسؤال عن ذلك ، فسألته على وجه التعجب ، فدعوى لادلالة عليها فى ظاهر التنزيل ، ولا خبر بها من الحجة يقطع العذر ، وغير جائز أن يقال فى تأويل كتاب الله ، بما لادلالة عليه من بعض الوجوه التى تقوم بها الحجة .

وأما وصف الملائكة من وصفت فى استخبارها ربها عنه بالفساد فى الأرض ، وسفك الدماء ، فغير مستحيل فيه ماروى عن ابن عباس وابن مسعود ، من القول الذى رواه السدّى ، ووافقهما عليه قتادة من التأويل ، وهو أن الله جل ثناؤه ، أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة ، تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا ، فقالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) على ما وصفت من الاستخبار .

فإن قال لنا قائل : وما وجه استخبارها والأمر على ماوصفت من أنها قد أخبرت أن ذلك كائن ؟ قيل : وجه استخبارها حينئذ ، يكون عن حالهم عند وقوع ذلك ، وهل ذلك منهم ؟ ومسئلتهم ربهم ، أن يجعلهم الخلفاء فى الأرض حتى لايعصوه .

وغير فاسد أيضا مارواه الضحاك ، عن ابن عباس ، وتابعه عليه الربيع بن أنس ، من أن الملائكة قالت ذلك لما كان عندها من علم سكان الأرض قبل آدم من الجن ، فقالت لربها : أجاعل فيها أنت مثلهم من الخلق ، يفعلون مثل الذى كانوا يفعلون ؟ على وجه الاستعلام منهم لربهم ، لاعلى وجه الإيجاب أن ذلك كائن كذلك ، فيكون ذلك منها إخبارا عما لم تطلع عليه من علم الغيب .

وغير خطأ أيضا ما قاله ابن زيد ، من أن يكون قيل الملائكة ما قالت من ذلك ، على وجه التعجب منها من أن يكون لله خلق يعصى خالقه .

وإنما تركنا القول بالذى رواه الضحاك عن ابن عباس ، ووافقه عليه الربيع بن أنس ، وبالذى قاله ابن زيد فى تأويل ذلك ، لأنه لاخبر عندنا بالذى قالوه من وجه يقطع مجيئه العذر ، ويلزم سامعه به الحجة ، والخبر عما مضى وما قد سلف ، لايدرك علم صحته إلا بمجيئه مجيئا يمتنع منه التشاغب والتواطؤ ، ويستحيل منه الكذب والخطأ والسهو ، وليس ذلك بموجود كذلك فيما حكاه الضحاك عن ابن عباس ، ووافقه عليه الربيع ، ولا فيما قاله ابن زيد . فأولى التأويلات إذ كان الأمر كذلك بالآية ، ما كان عليه من ظاهر التنزيل دلالة مما يصحّ مخرجه فى المفهوم .

فإن قال قائل : فإن كان أولى التأويلات بالآية هو ما ذكرت ، من أن الله أخبر الملائكة بأن ذرية خليفته فى الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء ، فمن أجل ذلك قالت الملائكة (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) فأين ذكر إخبار الله إياهم فى كتابه بذلك ؟ قيل له : اكتفى بدلالة ما قد ظهر من الكلام عليه عنه ، كما قال الشاعر :

فَلَا تَدْفِنُونِي إِنَّ دَفْنِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ خَامِرِي أُمَّ عَامِرِ

فحذف قوله دعوني للتي يقال لها عند صيدها خامري أم عامر ، إذ كان فيما أظهر من كلامه دلالة على معنى مراده ، فكذلك ذلك في قوله (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) لما كان فيه دلالة على ماترك ذكره بعد قوله (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) من الخبر عما يكون من إفساد ذريته في الأرض اكتفى بدلالته وحذف فترك ذكره ، كما ذكرنا من قول الشاعر ؛ ونظائر ذلك في القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أن يحصى ، فلما ذكرنا من ذلك اخترنا ما اخترنا من القول في تأويل قوله (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) .

القول في تأويل قوله تعالى (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)

قال أبو جعفر : أما قوله (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) فإنه يعني إنا نعظمك بالحمد لك والشكر ، كما قال جلّ ثناؤه (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وكما قال (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة ، يقول الرجل منهم : قضيت سبحتي من الذكر والصلاة . وقد قيل إن التسبيح صلاة الملائكة .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يعقوب القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فمرّ رجل من المسلمين على رجل من المنافقين ، فقال له : النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأنت جالس ؟ فقال له : امض إلى عملك إن كان لك عمل ، فقال : ما أظنّ إلا سيمرّ عليك من ينكر عليك . فمرّ عليه عمر بن الخطاب ، فقال له : يافلان ! النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأنت جالس ؟ فقال له مثلها ، فقال : هذا من عملي ! فوثب عليه فضربه حتى انتهى ، ثم دخل المسجد فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انفتل النبي صلى الله عليه وسلم قام إليه عمر ، فقال : يا نبيّ الله مررت آنفا على فلان وأنت تصلي ، فقلت له : النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأنت جالس ؟ فقال : سر إلى عملك إن كان لك عمل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، فَهَلاَّ ضَرَبْتَ عُنُقَهُ ، فقام عمر مسرعا ، فقال : يا عُمَرُ ارْجِعْ فإنَّ غَضَبَكَ عِزٌّ وَرِضَاكَ حكم[1] ، إنَّ لِلهِ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَلَائِكَةً يُصَلُّونَ لَهُ ، غَنِيٌّ عَنْ صَلَاةِ فُلَانٍ . فقال عمر : يا نبي الله وما صلاتهم ؟ فلم يردّ عليه شيئا ، فأتاه جبريل ، فقال : يا نبي الله سألك عمر عن صلاة أهل السماء ؟ قال نعم . فقال : اقرأ على عمر السلام ، وأخبره أن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة ، يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون : سبحان ذي العزة والجبروت ، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون : سبحان الحيّ الذي لايموت .

قال أبو جعفرا : وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، وسهل بن موسى الرازي ، قالا : حدثنا ابن علية ، قال : أخبرنا الجريري ، عن أبي عبد الله الجسري ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذرّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده ، أو أن أبا ذرّ عاد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله بأبي أنت ،

(١) ق م حلم بدل حكم .

أىّ الكلام أحبّ إلى الله ؟ فقال : ما اصْطَفَى اللهُ لِمَلائكتِهِ ، سُبْحَانَ رَبى وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحانَ رَبى وَبِحَمْدِهِ ، فى أشكال لما ذكرنا من الأخبار ، كرهنا إطالة الكتاب باستقصائها . وأصل التسبيح لله عند العرب ، التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرئة له من ذلك ، كما قال أعشى بنى ثعلبة :

أقُولُ لَمَّا جاءَنِى فَخْرُهُ　　سُبْحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفاخِرِ

يريد : سبحان الله من فخر علقمة ، أى تنزيها لله مما أتى علقمة من الافتخار على وجه النكير منه لذلك .

وقد اختلف أهل التأويل فى معنى التسبيح والتقديس ، فى هذا الموضع .

فقال بعضهم : قولهم نسبح بحمدك : نصلّى لك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) قال : يقولون نصلى لك .

وقال آخرون : نسبح لك : التسبيح المعلوم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) قال : التسبيح التسبيح .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَنُقَدِّسُ لَكَ)

قال أبو جعفر : والتقديس هو التطهير والتعظيم ؛ ومنه قولهم : سُبُّوح قدّوس ، يعنى بقولهم سبوح تنزيه لله ؛ وبقولهم قدوس : طهارة له وتعظيم . ولذلك قيل للأرض أرض مقدسة ، يعنى بذلك المطهرة ؛ فمعنى قول الملائكة إذاً (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) ننزّهك ونبرّئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ، ونصلى لك . ونقدس لك : ننسبك إلى ماهو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ، وما أضاف إليك أهل الكفر بك .

وقد قيل : إن تقديس الملائكة لربها صلاتها له ؛ كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَنُقَدِّسُ لَكَ) قال : التقديس : الصلاة .

وقال بعضهم : نقدّس لك : نعظمك ونمجدك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هاشم بن القاسم ، قال : حدثنا أبوسعيد المؤدّب ، قال : حدثنا إسمعيل ، عن أبى صالح فى قوله (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) قال : نعظمك ونمجدك .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثنى عيسى .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل جميعا ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَنُقَدِّسُ لَكَ) قال : نعظمك ونكبرك .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن ابن إسحق (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) لانعصى ولا نأتى شيئا تكرهه .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك فى قوله (وَنُقَدِّسُ لَكَ) قال : التقديس : التطهير .

وأما قول من قال : إن التقديس الصلاة أو التعظيم ، فإن معنى قوله ذلك راجع إلى المعنى الذى ذكرناه من التطهير ، من أجل أن صلاتها لربها تعظيم منها له ، وتطهير مما ينسبه إليه أهل الكفر به .

ولو قال مكان ونقدس لك، ونقدسك، كان فصيحا من الكلام، وذلك أن العرب تقول: فلان يسبح الله ويقدسه، ويسبح لله ويقدس له بمعنى واحد، وقد جاء بذلك القرآن، قال الله جل ثناؤه (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) وقال فى موضع آخر (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

القول فى تأويل قوله تعالى (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك .

فقال بعضهم : يعنى بقوله (أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) مما اطلع عليه من إبليس ، وإضماره المعصية لله وإخفائه الكبر ، مما اطلع عليه تبارك وتعالى منه ، وخفى على ملائكته .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة [١] عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يقول : إنى قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره .

وحدثنى موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يعنى من شأن إبليس .

وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد ، وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا مؤمل ، قالا جميعا : حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قال : علم من إبليس المعصية ، وخلقه لها .

وحدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، قال : حدثنا محمد بن بشر ، قال : حدثنا سفيان ، عن علىّ ابن بذيمة ، عن مجاهد ، بمثله .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن علىّ بن بذيمة ، عن مجاهد ، مثله [٢] .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزة [٣] ، عن مجاهد فى قوله (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها .

(١) قوله بشر بن عمارة كذا فى النسخ بالتاء وتكرر بها فيها كلها ، وهو فى الخلاصة بدون تاء ، وكذلك ورد بالتاء فى م .
(٢) هذا الإسناد لم يرد فى م .
(٣) فى م ابن أبى برزه .

وحدثني جعفر بن محمد البزوري ، قال : حدثنا حسن بن بشر ، عن حمزة الزيات ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله (إني أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ) قال : علم من إبْلِيسَ كِتمانه الكبر ، أن لا يسجد لآدم .

وحدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : وحدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل جميعا عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله (إني أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) قال : علم من إبليس المعصية .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا سويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان ، قال : قال مجاهد في قوله (إني أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها . وقال مرة : آدم .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا حجاج بن المنهال ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت عبد الوهاب بن مجاهد ، يحدّث عن أبيه في قوله (إنّي أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها ، وعلم من آدم الطاعة وخلقه لها .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، والثوري عن عليّ بن بذيمة ، عن مجاهد في قوله (إني أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق (إني أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) أي فيكم ومنكم ، ولم يبدها لهم من المعصية والفساد وسفك الدماء .

وقال آخرون ، معنى ذلك : إني أعلم ما لاتعلمون ، من أنه يكون من ذلك الخليفة ، أهل الطاعة والولاية لله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال (إني أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) فكان في علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة ، وهذا الخبر من الله جل ثناؤه ، ينبئ عن أن الملائكة التي قالت (أتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدّماءَ) استفظعت أن يكون لله خلق يعصيه ، وعجبتْ منه إذْ أخبرت أن ذلك كائن . فلذلك قال لهم ربهم (إني أعْلَمُ ما لاتَعْلَمُونَ) يعني بذلك والله أعلم : إنكم لتعجبون من أمر الله وتستفظعونه ، وأنا أعلم أنه في بعضكم ، وتصفون أنفسكم بصفة أعلم خلافها من بعضكم ، وتعرّضون بأمر قد جعلته لغيركم . وذلك أن الملائكة لما أخبرها ربها بما هو كائن من ذرية خليفته من الفساد وسفك الدماء ، قالت لربها : يارب أجاعل أنت في الأرض خليفة من غيرنا ، يكون من ذريته من يعصيك ، أم منا ؟ فإنا نعظمك ونصلي لك ونطيعك ولا نعصيك ، ولم يكن عندها علم بما قد انطوى عليه كشحا إبليس من استكباره على ربه ، فقال لهم ربهم : إني أعلم غير الذي تقولون من بعضكم ، وذلك هو ما كان مستورا عنهم من أمر إبليس وانطوائه على ما قد كان انطوى عليه من الكبر . وعلى قيلهم ذلك ووصفهم أنفسهم بالعموم من الوصف عوتبوا .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)

قال أبو جعفر : حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : بعث ربّ العزّة ملك الموت ، فأخذ من أديم الأرض ، من عذبها ومالحها ، فخلق منه آدم ، ومن ثَمّ سمى آدم ، لأنه خلق من أديم الأرض .

وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا عمرو بن ثابت ، عن أبيه ، عن جده ، عن علىّ ، قال : إن آدم خلق من أديم الأرض ، فيه الطيب والصالح والردىء ، فكل ذلك أنت راء فى ولده ، الصالح والردىء .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد ، قال : حدثنا مسعر ، عن أبى حصين ، عن سعيد بن جبير ، قال : خلق آدم من أديم الأرض فسمى آدم .

وحدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا أبو داود ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبى حصين ، عن سعيد بن جبير قال : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : إن ملك الموت لما بعث ليأخذ من الأرض تربة آدم ، أخذ من وجه الأرض وخلط ، فلم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، ولذلك سمى آدم ، لأنه أخذ من أديم الأرض .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر يحقق ما قال من حكينا قوله فى معنى آدم ، وذلك ماحدثنى به يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، عن عوف ، وحدثنا محمد بن بشار وعمر بن شبة ، قالا : حدثنا يحيى بن سعيد ، قال : حدثنا عوف ، وحدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ومحمد ابن جعفر وعبد الوهاب الثقفى قالوا : حدثنا عوف ؛ وحدثنى محمد بن عمارة الأسدى ، قال : حدثنا إسمعيل ابن أبان ، قال : حدثنا عنبسة ، عن عوف الأعرابى ، عن قسامة بن زهير ، عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ على قَدْرِ الأَرْضِ ، جاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ والأَسْوَدُ والأَبْيَضُ وبَيْنَ ذلكَ ، والسَّهْلُ والحَزْنُ والخَبِيثُ والطَّيِّبُ » .

فعلى التأويل الذى تأول آدم من تأوله بمعنى أنه خُلِق من أديم الأرض ، يجب أن يكون أصل آدم فعلا

سمي به أبو البشر ، كما سمي أحمد بالفعل من الإحماد ، وأسعد من الإسعاد ، فلذلك لم يجرّ ؛ ويكون تأويله حينئذ : آدم الملك الأرض ، يعني به بلغ أدمتها ، وأدمتها وجهها الظاهر لرأى العين ، كما أن جلدة كل ذى جلدة له أدمة ، ومن ذلك سمي الإدام إداما ، لأنه صار كالجلدة العليا مما هي منه ، ثم نقل من الفعل فجعل اسما للشخص بعينه .

القول فى تأويل قوله تعالى (الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى الأسماء التى علمها آدم ثم عرضها على الملائكة .

فقال ابن عباس ما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وحدثنا محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثني عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ؛ وحدثني المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : علمه اسم كل شيء .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن مجاهد (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : علمه اسم كل شيء .

وحدثنا عليّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم الجرمى ، عن محمد بن مصعب ، عن قيس بن الربيع ، عن خصيف ، عن مجاهد ، قال : علمه اسم الغراب ، والحمامة ، واسم كل شيء .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال : علمه اسم كل شيء ، حتى البعير والبقرة والشاة .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن شريك ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن معبد ، عن ابن عباس ، قال : علمه اسم القصعة والفسوة والفسية .

وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبوأحمد ، قال : حدثنا شريك ، عن عاصم بن كليب ، عن الحسن بن سعد ، عن ابن عباس (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : حتى الفسوة والفسية .

حدثنا عليّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم ، قال : حدثنا محمد بن مصعب ، عن قيس ، عن عاصم ابن كليب ، عن سعيد بن معبد ، عن ابن عباس فى قول الله (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : علمه اسم كل شيء ، حتى الهنة والهنية والفسوة والضرطة .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا عليّ بن مسهر ، عن عاصم بن كليب ، قال : قال ابن عباس : علمه القصعة من القصيعة ، والفسوة من الفسية .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (وَعَلَّمَ آدَمَ

الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) حتى بلغ (إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فأنبأ كل صنف من الخلق باسمه ، وألجأه إلى جنسه .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : علمه اسم كل شىء : هذا جبل ، وهذا بحر ، وهذا كذا وهذا كذا ، لكل شىء ، ثم عرض تلك الأشياء على الملائكة (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن جرير بن حازم ومبارك ، عن الحسن وأبى بكر ، عن الحسن وقتادة قالا : علمه اسم كل شىء : هذه الخيل ، وهذه البغال ، والإبل ، والجنّ ، والوحش ، وجعل يسمى كل شىء باسمه .

وحدثت عن عمار ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : اسم كل شىء .

وقال آخرون (عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) : أسماء الملائكة .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن عمار ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : أسماء الملائكة .

وقال آخرون : إنما علمه أسماء ذريته كلها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) قال : أسماء ذرّيته أجمعين .

وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة ، قول من قال فى قوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا) أنها أسماء ذرّيته وأسماء الملائكة ، دون أسماء سائر أجناس الخلق . وذلك أن الله جل ثناؤه قال (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ) يعنى بذلك أعيان المسمين بالأسماء التى علمها آدم ، ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم إلا عن أسماء بنى آدم والملائكة ؛ وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفنا ، فإنها تكنى عنها بالهاء والألف ، أو بالهاء والنون ، فقالت : عرضهن ، أو عرضها . وكذلك تفعل إذا كنت عن أصناف من الخلق ، كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم ، وفيها أسماء بنى آدم والملائكة ، فإنها تكنى عنها بما وصفنا من الهاء والنون ، أو الهاء والألف ؛ وربما كنت عنها إذ كان كذلك بالهاء والميم ، كما قال جل ثناؤه (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) فكنى عنها بالهاء والميم ، وهى أصناف مختلفة ، فيها الآدمىّ وغيره . وذلك وإن كان جائزا ، فإن الغالب المستفيض فى كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية أسماء أجناس الأمم إذا اختلطت بالهاء والألف ، أو الهاء والنون ، فلذلك قلت : أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التى علمها آدم أسماء أعيان بنى آدم ، وأسماء الملائكة . وإن كان ما قال ابن عباس

جائزا على مثال ما جاء فى كتاب الله من قوله (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي على بَطْنِهِ) الآية . وقد ذكر أنها فى حرف ابن مسعود : ثم عرضهن ، وأنها فى حرف أبىّ : ثم عرضها .

ولعلّ ابن عباس تأوّل ما تأوّل من قوله : عَلَّمه اسم كل شىء حتى الفسوة والفسية، على قراءة أبىّ ، فإنه فيما بلغنا كان يقرأ قراءة أبىّ . وتأويل ابن عباس على ما حكى عن أبىّ من قراءته غير مستنكر ، بل هو صحيح مستفيض فى كلام العرب ، على نحو ما تقدم وصفى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى (ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ)

قال أبو جعفر : قد تقدم ذكرنا التأويل الذى هو أولى بالآية على قراءتنا ورسم مصحفنا ، وأن قوله (ثُمَّ عَرَضَهُمْ) بالدلالة على بنى آدم والملائكة ، أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها ، وإن كان غير فاسد أن يكون دالا على جميع أصناف الأمم ، للعلل التى وصفنا .

ويعنى جل ثناؤه بقوله (ثُمَّ عَرَضَهُمْ) ثم عرض أهل الأسماء على الملائكة .

وقد اختلف المفسرون فى تأويل قوله (ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ) نحو اختلافهم فى قوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها) وسأذكر قول من انتهى إلينا عنه فيه قول .

حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق عن الضحاك ، عن ابن عباس (ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ) ثم عرض هذه الأسماء ، يعنى أسماء جميع الأشياء التى علمها آدم من أصناف جميع الخلق .

وحدثنى موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (ثُمَّ عَرَضَهُمْ) ثم عرض الخلق على الملائكة .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : أسماء ذريته كلها أخذهم من ظهره ، قال : ثم عرضهم على الملائكة .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن قتادة (ثُمَّ عَرَضَهُمْ) قال : عَلَّمه اسم كل شىء ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (ثُمَّ عَرَضَهُمْ) عرض أصحاب الأسماء على الملائكة .

وحدثنا علىّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم ، قال : حدثنا محمد بن مصعب ، عن قيس ، عن خصيف ، عن مجاهد (ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ) يعنى عرض الأسماء ، الحمامة والغراب . . . .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن جرير بن حازم ، ومبارك عن الحسن ، وأبى بكر عن الحسن ، وقتادة قالا : علمه اسم كل شىء : هذه الخيل ، وهذه البغال ، وما أشبه ذلك ، وجعل يسمى كل شىء باسمه ، وعرضت عليه أمة أمة .

القول فى تأويل قوله (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (أَنْبِئُونِي) أخبرونى ، كما حدثنا أبو كريب قال : حدثنا عثمان ، قال : حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (أَنْبِئُونِي) يقول : أخبرونى بأسماء هؤلاء . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

وأَنْبَأَهُ المُنَبِّئُ أَنَّ حَيًّا حُلُولٌ مِنْ حَرَامٍ أَوْ جُذَامِ

يعنى بقوله أنبأه : أخبره وأعلمه .

القول فى تأويل قوله جل ذكره (بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ)

قال أبو جعفر : حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ؛ وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) قال : بأسماء هذه التى حدثت بها آدم .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يقول : بأسماء هؤلاء التى حدثت بها آدم .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى ذلك ، فحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل فى الأرض خليفة .

وحدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن جرير بن حازم ، ومبارك ، عن الحسن وأبى بكر ، عن الحسن وقتادة ، قالا (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أنى لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه ، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية تأويل ابن عباس ، ومن قال بقوله .

ومعنى ذلك فقال : أنبئونى بأسماء من عرضته عليكم ، أيها الملائكة القائلون (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) من غيرنا ، أم منا ؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، إن كنتم صادقين فى قيلكم أنى إن جعلت خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى ذريته ، وأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتمونى ، واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس ، فإنكم إن كنتم لاتعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليكم من خلقى ، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم ، وعلمه غيركم بتعليمى إياه ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد بعد ، وبما هو مستتر من الأمور التى هى موجودة عن أعينكم

أحرى أن تكونوا غير عالمين . فلا تسألونى ما ليس لكم به علم ، فإنى أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقى .

وهذا الفعل من الله جل ثناوه بملائكته الذين قالوا له (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) من جهة عتابه جل ذكره إياهم، نظير قوله جل جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه، إذ قال (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فكذلك الملائكة سألت ربها أن تكون خلفاءه فى الأرض، يسبحوه ويقدّسوه فيها، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعله فى الأرض خليفة ، يفسدون فيها ويسفكون الدماء. فقال لهم جل ذكره (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يعنى بذلك أنى أعلم أنّ بعضكم فاتح المعاصى وخاتمها ، وهو إبليس، منكرا بذلك تعالى ذكره قولهم؛ ثم عرّفهم موضع هفوتهم ، فى قيلهم ما قالوا من ذلك ، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عيانا ، فكيف بما لم يروه ولم يخبروا عنه، بعرضه ماعرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ، وقيله لهم (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أنكم إن استخلفتكم فى أرضى سبحتمونى وقدستمونى، وإن استخلفت فيها غيركم عصانى ذريته، وأفسدوا وسفكوا الدماء، فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم ، وبدت لهم هفوة زلتهم أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا: (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فسارعوا الرجعة من الهفوة، وبادروا الإنابة من الزلة، كما قال نوح حين عوتب فى مسئلته فقيل له (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ رَبِّ ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وكذلك فعل كل مسدد للحق موفق له ، سريعة إلى الحقّ إنابته ، قريبة إليه أوبته .

وقد زعم بعض نحويى أهل البصرة أن قوله (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) لم يكن ذلك لأن الملائكة ادّعوا شيئا، إنما أخبر الله عن جهلهم بعلم الغيب، وعلمه بذلك وفضله، فقال: أنبئونى إن كنتم صادقين، كما يقول الرجل للرجل: أنبئنى بهذا إن كنت تعلم، وهو يعلم أنه لايعلم، يريد أنه جاهل .

وهذا قول إذا تدبره متدبر علم أن بعضه مفسد بعضا ، وذلك أن قائله زعم أن الله جل ثناؤه ، قال للملائكة ، إذ عرض عليهم أهل الأسماء (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) وهو يعلم أنهم لايعلمون . ولا هم ادّعوا علم شيء يوجب أن يوبخوا بهذا القول ، وزعم أن قوله (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) نظير قول الرجل للرجل : أنبئنى بهذا إن كنت تعلم ، وهو يعلم أنه لايعلم ، يريد أنه جاهل ؛ ولا شك أن معنى قوله (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إنما هو إن كنتم صادقين ، إما فى قولكم ، وإما فى فعلكم ، لأن الصدق فى كلام العرب إنما هو صدق فى الخبر لافى العلم ، وذلك أنه غير معقول فى لغة من اللغات، أن يقال صدق الرجل بمعنى علم . فإذا كان ذلك كذلك ، فقد وجب أن يكون الله جل ثناؤه قال للملائكة على تأويل قول هذا الذى حكينا قوله فى هذه الآية (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وهو يعلم أنهم غير صادقين ، يريد بذلك أنهم كاذبون ، وذلك هو عين ما أنكره ، لأنه زعم أن الملائكة لم تدّع شيئا ، فكيف جاز أن

يقال لهم : إن كنتم صادقين فأنبئونى بأسماء هؤلاء ! ! هذا مع خروج هذا القول الذى حكيناه عن صاحبه ، من أقوال جميع المتقدمين والمتأخرين من أهل التأويل والتفسير .

وقد حكى عن بعض أهل التفسير أنه كان يتأوّل قوله (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) بمعنى إذ كنتم صادقين . ولو كانت إن بمعنى إذ فى هذا الموضع ، لوجب أن تكون قراءتها بفتح ألفها ؛ لأن إذ إذا تقدمها فعل مستقبل صارت علة للفعل وسببا له . وذلك كقول القائل : أقوم إذ قمت ، فمعناه : أقوم من أجل أنك قمت ، والأمر بمعنى الاستقبال ؛ فمعنى الكلام لو كانت إن بمعنى إذ : أنبئونى بأسماء هؤلاء من أجل أنكم صادقون . فإذا وضعت إن مكان ذلك ، قيل : أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين ، مفتوحة الألف . وفى إجماع جميع قرّاء أهل الإسلام على كسر الألف من إن ، دليل واضح على خطأ تأويل من تأوّل إنْ بمعنى إذ فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ذكره عن ملائكته بالأوبة إليه ، وتسليم علم ما لم يعلموه له ، وتبريهم من أن يعلموا أو يعلم أحد شيئا ، إلا ما علمه تعالى ذكره .

وفى هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن ادّكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله جل ثناؤه آى هذا القرآن من لطائف الحكم ، التى تعجز عن أوصافها الألسن . وذلك أن الله جل ثناؤه احتجّ فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم ، على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التى لم يكن جل ثناؤه أطلع عليها من خلقه إلا خاصا ، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ، لتتقرّر عندهم صحة نبوّته ، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده ، ودلّ فيها على أن كل مخبر خبرا عما قد كان ، أو عما هو كائن ، مما لم يكن ولم يأته به خبر ولم يوضع له على صحته برهان ، فمتقوّل ما يستوجب به من ربه العقوبة .

ألا ترى أن الله جل ذكره ردّ على ملائكته قيلهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وعرّفهم أن قيل ذلك لم يكن جائزا لهم ، بما عرّفهم من قصور علمهم عند عرضه ماعرض عليهم من أهل الأسماء ، فقال (أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فلم يكن لهم مفزع إلا الإقرار بالعجز والتبرّى إليه أن يعلموا إلا ماعلمهم بقولهم (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فكان فى ذلك أوضح الدلالة وأبين الحجة ، على كذب مقالة كل من ادّعى شيئا من علوم الغيب ، من الحزاة والكهنة والقافة والمنجمة . وذكر بها الذين وصفنا أمرهم من أهل الكتاب سوالف نعمه على آبائهم ، وأياديه عند أسلافهم ، عند إنابتهم إليه ، وإقبالهم إلى طاعته ، مستعطفهم بذلك إلى الرشاد ، ومستعتبهم به إلى النجاة ، وحذّرهم بالإصرار والتمادى

فى البغى والضلال حلول العقاب بهم ، نظير ما أحلّ بعدوّه إبليس ، إذ تمادى فى البغى والخسار .

قال : وأما تأويل قوله (سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا) فهو كما حدثنا به أبو كريب ، قال حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قالوا (سُبْحانَكَ) تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره ، تبنا إليك ، لاعلم لنا إلا ماعلمتنا : تبرّؤا منهم من علم الغيب ، إلا ما علمتنا كما علمت آدم . وسبحان مصدر لاتصرّف له ؛ ومعناه : نسبحك ، كأنهم قالوا : نسبحك تسبيحا ، وننزّهك تنزيها ، ونبرّئك من أن نعلم شيئا غير ما علمتنا .

القول فى تأويل قوله (إنَّكَ أنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ)

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : أنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم ، بجميع ما قد كان ، وما هو كائن ، والعالم للغيوب دون جميع خلقك ؛ وذلك أنهم نفوا عن أنفسهم بقولهم (لاعِلْمَ لَنا إلاّ ماعَلَّمْتَنا) أن يكون لهم علم إلا ما علّمهم ربهم ، وأثبتوا ما نفوا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم (إنَّكَ أنْتَ العَلِيمُ) يعنون بذلك العالم من غير تعليم ، إذ كان من سواك لايعلم شيئا إلا بتعليم غيره إياه . والحكيم : هو ذو الحكمة ، كما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية ، عن علىّ ، عن ابن عباس : العليم : الذى قد كمل فى علمه ؛ والحكيم : الذى قد كمل فى حكمه . وقد قيل : إن معنى الحكيم : الحاكم ، كما أن العليم بمعنى العالم ، والخبير بمعنى الخابر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

قال أبو جعفر : إن الله جل ثناؤه ، عرّف ملائكته الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء فى الأرض ، ووصفوا أنفسهم بطاعته ، والخضوع لأمره دون غيرهم الذين يفسدون فيها ويسفكون الدماء ، أنهم من الجهل بمواقع تدبيره ومحل قضائه ، قبل إطلاعه إياهم عليه ، على نحو جهلهم بأسماء الذين عرضهم عليهم ، إذ كان ذلك مما لم يعلمهم فيعلموه ، وأنهم وغيرهم من العباد لايعلمون من العلم إلا ما علمهم إياه ربهم ، وأنه يخصّ بما شاء من العلم من شاء من الخلق ، ويمنعه منهم من شاء ، كما علم آدم أسماء ماعرض على الملائكة ، ومنعهم من علمها ، إلا بعد تعليمه إياهم .

فأما تأويل قوله (قالَ يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ) يقول : أخبر الملائكة . والهاء والميم فى قوله (أنْبِئْهُمْ) عائدتان على الملائكة ، وقوله (بِأسْمائِهِمْ) يعنى بأسماء الذين عرضهم على الملائكة ، والهاء والميم اللتان فى أسمائهم كناية عن ذكر هؤلاء التى فى قوله (أنْبِئُونِى بِأسْماءِ هٰؤُلاءِ فَلَمَّا أنْبَأهُمْ) يقول : فلما أخبر آدم الملائكة بأسماء الذين عرضهم عليهم ، فلم يعرفوا أسماءهم ، وأيقنوا خطأ قيلهم (أتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) وأنهم قد هفوا فى ذلك

وقالوا ما لا يعلمون ، كيفية وقوع قضاء ربهم فى ذلك ، لو وقع على ما نطقوا به ، قال لهم ربهم (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) والغيب : هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه ، توبيخا من الله جل ثناؤه لهم بذلك ، على ما سلف من قيلهم وفرط منهم من خطأ مسئلتهم ، كما حدثنا به محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) يقول : أخبرهم بأسمائهم (فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ) أيها الملائكة خاصة (إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ولا يعلمه غيرى .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قصة الملائكة وآدم : فقال الله للملائكة كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم ، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها ، هذا عندى قد علمته ، فكذلك أخفيت عنكم أنى أجعل فيها من يعصينى ومن يطيعنى ، قال : وسبق من الله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) قال : ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه ، قال فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم ، أقرّوا لآدم بالفضل .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فروى عن ابن عباس فى ذلك ما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ) يقول : ما تظهرون (وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) يقول : أعلم السرّ كما أعلم العلانية ، يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) قال قولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) فهذا الذى أبدوا (وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) يعنى ما أسرّ إبليس فى نفسه من الكبر .

وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا عمرو بن ثابت ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير قوله (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) قال : ما أسرّ إبليس فى نفسه .

وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان فى قوله (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) قال : ما أسرّ إبليس فى نفسه من الكبر أن لا يسجد لآدم .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : أخبرنا الحجاج الأنماطى ، قال : حدثنا مهدى بن ميمون ، قال : سمعت الحسن بن دينار ، قال للحسن ونحن جلوس عنده فى منزله : يا أبا سعيد أرأيت قول الله للملائكة : (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) ما الذى كتمت الملائكة ؟ فقال الحسن : إن الله لما خلق

آدم رأت الملائكة خلقا عجيبا ، فكأنهم دخلهم من ذلك شىء ، فأقبل بعضهم إلى بعض ، وأسرّوا ذلك بينهم ، فقالوا : وما يهمكم من هذا المخلوق ؟ إن الله لم يخلق خلقا إلا كنا أكرم عليه منه .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) قال : أسرّوا بينهم فقالوا : يخلق الله ما يشاء أن يخلق ، فلن يخلق خلقا إلا ونحن أكرم عليه منه .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) فكان الذى أبدوا حين قالوا (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها) وكان الذى كتموا بينهم قولهم : لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم . فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أن معنى قوله (وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ) وأعلم مع علمى غيب السموات والأرض ما تظهرون بألسنتكم (وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) وما كنتم تخفونه فى أنفسكم ، فلا يخفى علىّ شىء ، سواء عندى سرائركم وعلانيتكم . والذى أظهروه بألسنتهم ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه ، وهو قولهم (أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) والذى كانوا يكتمونه ما كان منطويا عليه إبليس من الخلاف على الله فى أمره ، والتكبر عن طاعته ، لأنه لاخلاف بين جميع أهل التأويل ، أن تأويل ذلك غير خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت ، وهو ما قلنا . والآخر ما ذكرنا من قول الحسن وقتادة .

ومن قال إن معنى ذلك كتمان الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقا إلا كنا أكرم عليه منه ، فإذ كان لاقول فى تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت ، ثم كان أحدهما غير موجودة على صحته الدلالة من الوجه الذى يجب التسليم له ، صحّ الوجه الآخر .

فالذى حكى عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما فى تأويل ذلك ، غير موجودة الدلالة على صحته من الكتاب ، ولا من خبر يجب به حجة . والذى قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبر الله جل ثناؤه عن إبليس ، وعصيانه إياه إذ دعاه إلى السجود لآدم فأبى واستكبر ، وإظهاره لسائر الملائكة من معصيته وكبره ، ما كان له كاتما قبل ذلك .

فإن ظنّ ظانّ أن الخبر عن كتمان الملائكة ما كانوا يكتمونه ، لما كان خارجا مخرج الخبر عن الجميع ، كان غير جائز أن يكون ما روى فى تأويل ذلك عن ابن عباس ، ومن قال بقوله من أن ذلك خبر عن كتمان إبليس الكبر والمعصية صحيحا ، فقد ظنّ غير الصواب . وذلك أن من شأن العرب إذا أخبرت خبرا عن بعض جماعة ، بغير تسمية شخص بعينه ، أن تخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن جميعهم . وذلك كقولهم : قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض منهم ، وهزم الواحد أو البعض ، فتخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول ، مخرج الخبر عن جميعهم ، كما قال جلّ ثناؤه (إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

أكثرهم لايعقلون) ذكر أن الذى نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية فيه ، كان رجلا من جماعة بنى تميم، كانوا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن الجماعة ، فكذلك قوله (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أخرج الخبر مخرج الخبر عن الجميع ، والمراد به الواحد منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

قال أبو جعفر : أما قوله (وإذ قلنا) فعطوف على قوله (وإذ قال ربك للملائكة) كأنه قال جل ذكره، لليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل، معددا عليهم نعمه ، ومذكرهم آلاءه ، على نحو الذى وصفنا فيما مضى قبل: اذكروا فعلى بكم إذ أنعمت عليكم، فخلقت لكم ما فى الأرض جميعا ، وإذ قلت للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، فكرمت أباكم آدم بما آتيته من علمى وفضلى وكرامتى ، وإذ أسجدت له ملائكتى فسجدوا له ، ثم استثنى من جميعهم إبليس ، فدل باستثنائه إياه منهم على أنه منهم ، وأنه ممن قد أمر بالسجود معهم ، كما قال جل ثناؤه (إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمره من الملائكة بالسجود لآدم ، ثم استثناه جل ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم ، فأخرجه من الصفة التى وصفهم بها من الطاعة لأمره ونفى عنه ما أثبته لملائكته من السجود لعبده آدم .

ثم اختلف أهل التأويل فيه ، هل هو من الملائكة أم هو من غيرهم ؟

فقال بعضهم بما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : كان إبليس من حى من أحياء الملائكة ، يقال لهم الجن ، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ؛ قال : فكان اسمه الحارث ، قال : وكان خازنا من خزان الجنة . قال : وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحى . قال : وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار . وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس ، عن ابن عباس، قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا ، وأكثرهم علما ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حى يسمون جنا .

وحدثنا به ابن حميد مرة أخرى ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس، أو مجاهد أبى الحجاج ، عن ابن عباس وغيره بنحوه ، إلا أنه قال : كان ملكا من الملائكة اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض وعمارها ، وكان سكان الأرض فيهم يسمون الجن من بين الملائكة .

وحدثنى موسى بن هرون قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : جعل إبليس على ملك سماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ ، وإنما سموا الجن لأنهم خزّان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازنا .

وحدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا حسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض ، قال : قال ابن عباس : وقوله (كَانَ مِنَ الجِنِّ) إنما يسمى بالجنان أنه كان خازنا عليها ، كما يقال للرجل : مكى ، ومدنى ، وكوفى ، وبصرى .

قال ابن جريج وقال آخرون : هم سبط من الملائكة قبيلة ، فكان اسم قبيلته الجن .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن صالح مولى التوأمة ، وشريك بن أبى نمر ، أحدهما أو كلاهما ، عن ابن عباس ، قال : إن من الملائكة قبيلة من الجن ، وكان إبليس منها ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض .

وحدثت عن الحسن بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك بن مزاحم ، يقول فى قوله (فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ) قال : كان ابن عباس يقول : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبية ، ثم ذكر مثل حديث ابن جريج الأول سواء .

وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنى شيبان ، قال : حدثنا سلام بن مسكين ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد . عن قتادة قوله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ) كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن . وكان ابن عباس يقول : لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود ، وكان على خزانة سماء الدنيا . قال : وكان قتادة يقول : جنّ عن طاعة ربه .

وحدثنا الحسين بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ) قال : كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجنّ .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا محمد بن إسحق ، قال : أما العرب فيقولون ما الجنّ إلا كلّ من اجتنّ فلم ير . وأما قوله (إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ) أى كان من الملائكة ،وذلك أن الملائكة اجتنوا فلم يروا ، وقد قال الله جل ثناؤه (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) وذلك لقول قريش : إن الملائكة بنات الله، فيقول الله : إن تكن الملائكة بناتى

فإبليس منها ، وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذرّيته نسبا . قال : وقد قال الأعشى ، أعشى بني قيس بن ثعلبة البكري ، وهو يذكر سليمان بن داود وما أعطاه الله :

وَلَوْ كانَ شَيْءٌ خالِداً أوْ مُعَمَّراً لَكانَ سُلَيْمانُ الْبَرِيَّ مِنَ الدَّهْرِ
بَرَاهُ إلَهي واصْطَفاهُ عِبادَهُ وَمَلَّكَهُ ما بَيْنَ ثُرْيَا إلى مِصْرِ
وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ المَلائِكِ تِسْعَةً قِياماً لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلا أجْرِ

قال : فأبت العرب في لغتها إلا أن الجنّ كل ما اجتنّ ، يقول : ماسمى الله الجن إلا أنهم اجتنوا ، فلم يروا ، وما سمى بني آدم الإنس إلا أنهم ظهروا فلم يجتنوا ، فما ظهر فهو إنس ، وما اجتنّ فلم ير فهو جنّ .

وقال آخرون بما حدثنا به محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن أبي عديّ ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول في قوله (إلاَّ إبْلِيسَ كانَ مِنَ الجِنِّ) : إلجاء إلى نسبه ، فقال الله (أفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أوْلِياءَ مِنْ دُونِي) الآية . . . وهم يتوالدون كما يتوالد بنوآدم .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا أبوسعيد اليحمدى ، حدثنا إسمعيل ابن إبراهيم ، قال : حدثنا سوار بن الجعد اليحمدى ، عن شهر بن حوشب قوله (مِنَ الجِنِّ) قال : كان إبليس من الجنّ الذين طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة ، فذهب به إلى السماء .

وحدثني عليّ بن الحسين ، قال : حدثني أبو نصر أحمد بن محمد الخلال ، قال : حدثني سنيد بن داود ، قال : حدثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الرحمن بن يحيى ، عن موسى بن نمير ، وعثمان بن سعيد بن كامل ، عن سعد بن مسعود ، قال : كانت الملائكة تقاتل الجنّ ، فسبى إبليس وكان صغيرا ، فكان مع الملائكة فتعبد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فأبى إبليس ، فلذلك قال الله (إلاَّ إبْلِيسَ كانَ مِنَ الجِنِّ) .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، قال : حدثنا المبارك بن مجاهد أبو الأزهر ، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس ، قال : إن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجنّ ، فكان إبليس منهم ، وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض فعصى ، فمسخه الله شيطانا رجيما .

قال : وحدثنا يونس ، عن ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : إبليس أبو الجنّ ، كما آدم أبو الإنس .

وعلة من قال هذه المقالة ، أن الله جل ثناؤه ، أخبر في كتابه أنه خلق إبليس من نار السموم ، ومن مارج من نار ، ولم يخبر عن الملائكة أنه خلقها من شيء من ذلك ، وأن الله جل ثناؤه ، أخبر أنه من الجن

فقالوا : فغير جائز أن ينسب إلى غير ما نسبه الله إليه . قالوا : ولإبليس نسل وذرّية ، والملائكة لاتتناسل ولا تتوالد .

حدثنا محمد بن سنان القزاز ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن شريك ، عن رجل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : إن الله خلق خلقا ، فقال : اسجدوا لآدم ، فقالوا : لانفعل ، فبعث الله عليهم نارا تحرقهم ؛ ثم خلق خلقا آخر ، فقال : إنى خالق بشرا من طين ، اسجدوا لآدم ، فأبوا ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ؛ قال : ثم خلق هؤلاء ، فقال : اسجدوا لآدم ، فقالوا نعم . وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم .

قال أبو جعفر : وهذه علل تنبئ عن ضعف معرفة أهلها ، وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خلق أصناف ملائكته من أصناف من خلقه شتى ، فخلق بعضا من نور ، وبعضا من نار ، وبعضا مما شاء من غير ذلك ، وليس فيما نزل الله جل ثناؤه الخبر عما خلق منه ملائكته ؛ وإخباره عما خلق منه إبليس ما يوجب أن يكون إبليس خارجا عن معناهم ، إذ كان جائزا أن يكون خلق صنفا من ملائكته من نار كان منهم إبليس ، وأن يكون أفرد إبليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته . وكذلك غير مخرجه أن يكون كان من الملائكة ، بأن كان له نسل وذرية ، لما ركب فيه من الشهوة واللذّة التى نزعت من سائر الملائكة ، لما أراد الله به من المعصية .

وأما خبر الله عنه أنه من الجن ، فغير مدفوع أن يسمى ما اجتنّ من الأشياء عن الأبصار كلها جنا ، كما قد ذكرنا قبل فى شعر الأعشى ، فيكون إبليس والملائكة منهم لاجتنانهم عن أبصار بنى آدم .

القول فى معنى إبليس .

قال أبو جعفر : وإبليس إفعيل من الإبلاس : وهو الإياس من الخير ، والندم ، والحزن .

كما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : إبليس أبلسه الله من الخير كله ، وجعله شيطانا رجيما ، عقوبة لمعصيته .

وحدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط عن السدى ، قال : كان اسم إبليس الحارث ، وإنما سمى إبليس حين أبلس فغيرّ ، كما قال الله جل ثناؤه (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) يعنى به أنهم آيسون من الخير ، نادمون حزنا ، كما قال العجاج :

يَاصَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكرَسا قالَ نَعَمْ أعْرِفُهُ وأبْلَسا

وقال رؤبة :

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الخَمِيسِ الأخْماس وَفِى الوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإبْلاسُ

يعنى به اكتئابا وكسوفا .

فإن قال لنا قائل : فإن كان إبليس كما قلت إفعيل من الإبلاس ، فهلا صرف وأجرى ؟ قيل : ترك إجراؤه استثقالا ، إذ كان اسما لانظير له من أسماء العرب ، فشبهته العرب إذ كان كذلك ، بأسماء العجم التى

لانجرى ، وقد قالوا : مررت بإسحق ، فلم يجروه ، وهو من أسحقه الله إسحاقا ، إذ كان وقع مبتدأ اسما لغير العرب ثم تسمت به العرب فجرى مجراه ، وهو من أسماء العجم فى الإعراب ، فلم يصرف . وكذلك أيوب إنما هو فيعول من آب يئوب .

وتأويل قوله (أَبَى) يعنى جل ثناؤه بذلك إبليس أنه امتنع من السجود لآدم ، فلم يسجد له واستكبر . يعنى بذلك أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله فى السجود لآدم . وهذا وإن كان من الله جل ثناؤه خبرا عن إبليس ، فإنه تقريع لضربائه من خلق الله ، الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله والانقياد لطاعته ، فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه ، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحقّ . وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر الله والتذلل لطاعته والتسليم لقضائه ، فيما ألزمهم من حقوق غيرهم، اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبارهم الذين كانوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته عارفين ، وبأنه لله رسول عالمين ، ثم استكبروا مع علمهم بذلك عن الإقرار بنبوّته ، والإذعان لطاعته ، بغيا منهم له وحسدا ، فقرّعهم الله بخبره عن إبليس ، الذى فعل فى استكباره عن السجود لآدم حسدا له وبغيا، نظير فعلهم فى التكبر عن الإذعان لمحمد نبى الله صلى الله عليه وسلم ونبوّته، إذ جاءهم بالحقّ من عند ربهم حسدا وبغيا . ثم وصف إبليس بمثل الذى وصف به الذين ضربه لهم مثلا فى الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمره الله بالخضوع له ، فقال جل ثناؤه : (وكَانَ - يعنى إبليس - مِنَ الكَافِرِينَ) من الجاحدين نعم الله عليه، وأياديه عنده، بخلافه عليه فيما أمره به من السجود لآدم، كما كفرت اليهود نعم ربها التى آتاها وآباءها قبل: من إطعام الله أسلافهم المنّ والسلوى، وإظلال الغمام عليهم، وما لايحصى من نعمه التى كانت لهم ، خصوصا ماخصّ الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم بإدراكهم إياه ، ومشاهدتهم حجة الله عليهم ، فجحدت نبوّته بعد علمهم به ومعرفتهم بنبوّته ، حسدا وبغيا ، فنسبه الله جل ثناؤه إلى الكافرين ، فجعله من عدادهم فى الدين والملة ، وإن خالفهم فى الجنس والنسبة ، كما جعل أهل النفاق بعضهم من بعض لاجتماعهم على النفاق ، وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم ، فقال (المُنَافِقُونَ والمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) يعنى بذلك أن بعضهم من بعض فى النفاق والضلال ، فكذلك قوله فى إبليس (كَانَ مِنَ الكافِرِينَ) كان منهم فى الكفر بالله ومخالفته أمره ، وإن كان مخالفا جنسه أجناسهم ونسبه نسبهم . ومعنى قوله (وكَانَ مِنَ الكافِرِينَ) أنه كان حين أبى عن السجود من الكافرين حينئذ .

وقد روى عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، أنه كان يقول فى تأويل قوله (وكَانَ مِنَ الكافِرِينَ) فى هذا الموضع : وكان من العاصين .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وكَانَ مِنَ الكافِرِينَ) يعنى : العاصين .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، بمثله .
وذلك شبيه بمعنى قولنا فيه : وكان سجود الملائكة لآدم ، تكرمة لآدم وطاعة لله ، لاعبادة لآدم .

كما حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)

قال أبو جعفر : وفى هذه الآية دلالة واضحة على صحة قول من قال ، إن إبليس أخرج من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم ، وأسكنها آدم قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض ، ألا تسمعون الله جل ثناؤه يقول : (وَقُلْنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وكُلا مِنْها رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ . فأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنْها فأخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ) فقد تبين أن إبليس إنما أزلهما عن طاعة الله ، بعد أن لعن وأظهر التكبر ، لأن سجود الملائكة لآدم ، كان بعد أن نفخ فيه الروح ، وحينئذ كان امتناع إبليس من السجود له ، وعند الامتناع من ذلك حلت عليه اللعنة .

كما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، أن عدوّ الله إبليس أقسم بعزّة الله ليغوينّ آدم وذريته وزوجه ، إلا عباده المخلصين منهم ، بعد أن لعنه الله ، وبعد أن أخرج من الجنة ، وقبل أن يهبط إلى الأرض، وعلّم الله آدم الأسماء كلها .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : لما فرغ الله من إبليس ومعاتبته ، وأبى إلا المعصية ، وأوقع عليه اللعنة ، ثم أخرجه من الجنة ، أقبل على آدم وقد علمه الأسماء كلها ، فقال (يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ) إلى قوله (إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) .

ثم اختلف أهل التأويل فى الحال التى خلقت لآدم زوجته ، والوقت الذى جعلت له سكنا .

فقال ابن عباس : بما حدثنى به موسى بن هرون، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فأخرج إبليس من الجنة حين لعن ، وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه ، فسألها من أنت ؟ فقالت : امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ قالت : تسكن إلىّ . قالت له الملائكة ، ينظرون مابلغ علمه : ما اسمها يا آدم؟ قال حوّاء ، قالوا : ولم سميت حوّاء ؟ ، قال : لأنها خلقت من شىء حىّ ، فقال الله له (يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وكُلا مِنْها رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُما) فهذا الخبر ينبئ عن أن حوّاء خلقت بعد أن سكن آدم الجنة ، فجعلت له سكنا .

وقال آخرون : بل خلقت قبل أن يسكن آدم الجنة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحق ، قال : لما فرغ الله من معاتبة إبليس ، أقبل على آدم وقد علمه الأسماء كلها ، فقال (يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) إلى قوله (إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) قال : ثم ألقى السِّنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم ، عن عبد الله ابن عباس وغيره ، ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحما ، وآدم نائم لم يهبّ من نومته ، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حوّاء ، فسوّاها امرأة ليسكن إليها ، فلما كشف عنه السنة وهبّ من نومته رآها إلى جنبه ، فقال فيما يزعمون والله أعلم : لحمي ودمي وزوجتي ، فسكن إليها ، فلما زوّجه الله تبارك وتعالى ، وجعل له سكنا من نفسه ، قال له فتلا (يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) .

قال أبو جعفر : ويقال لامرأة الرجل زوجه وزوجته ، والزوجة بالهاء أكثر فى كلام العرب منها بغير الهاء ، والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزدشنوءة ؛ فأما الزوج الذى لااختلاف فيه بين العرب ، فهو زوج المرأة .

القول فى تأويل قوله (وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)

قال أبو جعفر : أما الرغد ، فإنه الواسع من العيش الهنىء ، الذى لايعنى صاحبه ، يقال : أرغد فلان : إذا أصاب واسعا من العيش الهنىء ، كما قال امرؤالقيس بن حجر :

بَيْنَما المَـرْءُ تَرَاهُ نَاعِماً يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ فِى عَيْشٍ رَغَدْ

وكما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا) قال : الرغد : الهنىء .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (رَغَدًا) قال : لاحساب عليهم .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزة ، عن مجاهد (وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا) أى لاحساب عليهم .

وحدثت عن المنجاب بن الحرث ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) قال : الرغد : سعة المعيشة . فمعنى الآية : وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا من الجنة رزقا واسعا هنيئا من العيش حيث شئتما .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد عن قتادة قوله (يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) ثم إن البلاء الذى كتب على الخلق

كتب على آدم كما ابتلى الخلق قبله ، إن الله جل ثناؤه أحلّ له ما فى الجنة أن يأكل منها رغدا حيث شاء، غير شجرة واحدة نهى عنها ، وقدّم إليه فيها ، فما زال به البلاء حتى وقع بالذى نهى عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ)

قال أبو جعفر : والشجر فى كلام العرب : كل ماقام على ساق ، ومنه قول الله جل ثناؤه (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) يعنى بالنجم : ما نجم من الأرض من نبت ، وبالشجر : ما استقلّ على ساق .

ثم اختلف أهل التأويل فى عين الشجرة التى نهى عن أكل ثمرها آدم ، فقال بعضهم هى السنبلة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن إسمعيل الأحمسى ، قال : حدثنا عبد الحميد الحمانى ، عن النضر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الشجرة التى نهى عن أكل ثمرها آدم ، هى السنبلة .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمران بن عتيبة جميعا ، عن حصين ، عن أبى مالك فى قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) قال : هى السنبلة .

وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن مهدى ، وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قالا جميعا : حدثنا سفيان ، عن حصين ، عن أبى مالك ، مثله .

وحدثنا أبو كريب وابن وكيع ، قالا : حدثنا ابن إدريس ، قال : سمعت أبى ، عن عطية فى قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) قال : السنبلة .

وحدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة، قال: الشجرة التى نهى عنها آدم هى السنبلة .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : حدثنا القاسم ، قال : حدثنى رجل من بنى تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبى الخلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم ، والشجرة التى تاب عندها ؟ فكتب إليه أبو الخلد: سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم ، وهى السنبلة ، وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم ، وهى الزيتونة .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن رجل من أهل العلم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، أنه كان يقول : الشجرة التى نهى عنها آدم : البرّ .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، وابن المبارك ، عن الحسن بن عمارة ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته ، السنبلة .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن بعض أهل اليمن ، عن وهب بن منبه اليمانى ، أنه كان يقول: هى البرّ، ولكن الحبة منها فى الجنة ككلى البقر ، ألين من الزبد وأحلى من العسل . وأهل التوراة يقولون : هى البرّ .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، عن يعقوب بن عتبة ، أنه حدث أنها الشجرة التى تحتكّ بها الملائكة للخلد .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا ابن يمان، عن جابر بن يزيد بن رفاعة ، عن محارب بن دثار ، قال : هي السنبلة .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبو أسامة ، عن يزيد بن إبراهيم ، عن الحسن ، قال : هي السنبلة التي جعلها الله رزقا لولده في الدنيا .

قال أبو جعفر : وقال آخرون هي الكرمة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عبد الله ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عمن حدثه ، عن ابن عباس ، قال : هي الكرمة .

حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ان عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) قال: هي الكرمة . وتزعم اليهود أنها الحنطة .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط . عن السدى . قال : الشجرة هي الكرم .

وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن جعدة بن هبيرة . قال : هو العنب في قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثني أبي ، عن خلاد الصفار ، عن بيان . عن الشعبي . عن جعدة بن هبيرة (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) قال : الكرم .

وحدثنا ابن المثنى ، قال : حدثني الحسين ، قال : حدثنا خالد الواسطي ، عن بيان ، عن الشعبي . عن جعدة بن هبيرة (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) قال : الكرم .

وحدثنا ابن حميد وابن وكيع ، قالا : حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن جعدة بن هبيرة ، قال : الشجرة التي نهي عنها آدم : شجرة الخمر .

وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيري ، قال : حدثنا عباد بن العوام ، قال : حدثنا سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) قال: الكرم .

وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان ، عن السدى ، قال : العنب .

وحدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن أبي معشر ، عن محمد بن قيس ، قال : عنب .

وقال آخرون : هي التينة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : تينة .

قال أبو جعفر : والقول فى ذلك عندنا ، أن الله جل ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجه أكلا من الشجرة التى نهاهما ربهما عن الأكل منها ، فأتيا الخطيئة التى نهاهما عن إتيانها بأكلهما ما أكلا منها ، بعد أن بين الله جل ثناؤه لهما عين الشجرة التى نهاهما عن الأكل منها ، وأشار لهما إليها بقوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) ولم يضع الله جل ثناؤه لعباده المخاطبين بالقرآن دلالة على أىّ أشجار الجنة كان نهيه آدم أن يقربها ، بنصّ عليها باسمها ، ولا بدلالة عليها ، ولو كان لله فى العلم بأىّ ذلك من أىّ رضا ، لم يخل عباده من نصب دلالة لهم عليها ، يصلون بها إلى معرفة عينها ، ليطيعوه بعلمهم بها ، كما فعل ذلك فى كل ما بالعلم به له رضا ؛ فالصواب فى ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه فأكلا منها ، كما وصفهما الله جل ثناؤه به ، ولا علم عندنا بأىّ شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ، ولا فى السنة الصحيحة ، فأنى يأتى ذلك من أتى !؟

وقد قيل : كانت شجرة البرّ ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها ، وذلك إن علمه عالم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضرّه جهله به .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) .

قال أبوجعفر : اختلف أهل العربية فى تأويل قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ).

فقال بعض نحويى الكوفيين : تأويل ذلك (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) فإنكما إن قربتماها كنتما من الظالمين ، فصار الثانى فى موضع جواب الجزاء ، وجواب الجزاء يعمل فيه أوّله كقولك : إن تقم أقم ، فتجزم الثانى بجزم الأول ، فكذلك قوله : فتكونا ، لما وقعت الفاء فى موضع شرط الأول نصب بها ، وصيرت بمنزلة كى فى نصبها الأفعال المستقبلة للزومها الاستقبال ، إذ كان أصل الجزاء الاستقبال .

وقال بعض نحويى أهل البصرة : تأويل ذلك لايكن منكما قرب هذه الشجرة ، فأن تكونا من الظالمين ، غير أنه زعم أنّ أن غير جائز إظهارها مع لا ، ولكنها مضمرة لابد منها ليصح الكلام بعطف اسم وهى أن على الاسم ، كما غير جائز فى قولهم : عسى أن يفعل عسى الفعل ، ولا فى قولك : ما كان ليفعل ، ما كان لأن يفعل .

وهذا القول الثانى يفسده إجماع جميعهم على تخطئة قول القائل : سرّنى تقوم يا هذا ، وهو يريد سرّنى قيامك . فكذلك الواجب أن يكون خطأ على هذا المذهب قول القائل : لاتقم ، إذا كان المعنى لا يكن منك قيام . وفى إجماع جميعهم على صحة قول القائل : لاتقم ، وفساد قول القائل سرّنى تقوم بمعنى سرّنى قيامك ، الدليل الواضح على فساد دعوى المدعى أن مع لا التى فى قوله (وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ) ضمير أن ، وصحة القول الآخر .

وفى قوله (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون فتكونا فى نية العطف على قوله (وَلَا تَقْرَبَا) فيكون تأويله حينئذ : ولا تقربا هذه الشجرة ، ولاتكونا من الظالمين ، فيكون فتكونا حينئذ فى معنى الجزم مجزوم بما جزم به (وَلَا تَقْرَبَا) كما يقول القائل : لاتكلم عمرا ولا تؤذه ، وكما قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ صَوِّبْ وَلَا تَجْهَدَنَّهُ فَيُذْرِكَ مِنْ أُخْرَى القَطَاةِ فَتَزْلَقِ

فجزم فيذرك بما جزم به لا تجهدنه ، كأنه كرر النهى .

والثانى أن يكون (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) بمعنى جواب النهى ، فيكون تأويله حينئذ : لاتقربا هذه الشجرة، فإنكما إن قربتماها كنتما من الظالمين، كما تقول : لاتشتم عمرا فيشتمك مجازاة ، فيكون فتكونا حينئذ فى موضع نصب ، إذ كان حرفا عطف على غير شكله لما كان فى (ولَا تَقْرَبَا) حرف عامل فيه ، ولا يصلح إعادته فى (فتكونا) فنصب على ماقد بينت فى أول هذه المسئلة .

وأما تأويل قوله (فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ) فإنه يعنى به : فتكونا من المتعدّين إلى غير ما أذن لهم وأبيح لهم فيه، وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة ، كنتما على منهاج من تعدّى حدودى ، وعصى أمرى، واستحلّ محارمى ، لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولىّ المتقين .

وأصل الظلم فى كلام العرب وضع الشىء فى غير موضعه ، ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

إلاَّ الأَوَارِيَّ لَأْياً ما أُبَيِّنُها وَالنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة ، لأن الذى حفر فيها النؤى حفر فى غير موضع الحفر ، فجعلها مظلومة لوضع الحفرة منها فى غير موضعها . ومن ذلك قول ابن قميئة فى صفة غيث :

ظَلَمَ البِطَاحَ بِهَا انْهِلَالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المَقْلَعِ

وظلمه إياه : مجيئه فى غير أوانه ، وانصبابه فى غير مصبه . ومنه ظلم الرجل جزوره ، وهو نحره إياه لغير علة ؛ وذلك عند العرب ، وضع النحر فى غير موضعه .

وقد يتفرّع الظلم فى معان يطول باحصائها الكتاب، وسنبينها فى أماكنها إذا أتينا عليها إن شاء الله تعالى. وأصل ذلك كله ماوصفنا من وضع الشىء فى غير موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)

قال أبو جعفر : اختلف القرّاء فى قراءة ذلك؛ فقرأته عامتهم : فأزلّهما ، بتشديد اللام ، بمعنى استزلهما من قولك : زلّ الرجل فى دينه : إذا هفا فيه وأخطأ فأتى ما ليس له إتيانه فيه ، وأزله غيره : إذا سبب له ما يزلّ من أجله فى دينه أو دنياه ، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليس. خروج آدم وزوجته من الجنة ، فقال (فأخْرَجَهُما) يعنى إبليس (مِمَّا كانا فيه) لأنه كان الذى سبب لهما الخطيئة التى عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة .

وقرأه آخرون : فأزالهما ، بمعنى إزالة الشىء عن الشىء ، وذلك تنحيته عنه .

وقد روى عن ابن عباس فى تأويل قوله (فأزَلَّهما) ما حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال :

حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس فى تأويل قوله تعالى (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ) قال : أغواهما.

وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ (فَأَزَلَّهُمَا) لأن الله جل ثناؤه ، قد أخبر فى الحرف الذى يتلوه ، بأن إبليس أخرجهما مما كانا فيه ، وذلك هو معنى قوله فأزالهما ، فلا وجه إذ كان معنى الإزالة معنى التنحية والإخراج ، أن يقال : فأزالهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، فيكون كقوله : فأزالهما الشيطان عنها ، فأزالهما مما كانا فيه ، ولكن المعنى المفهوم أن يقال : فاستزلهما إبليس عن طاعة الله ، كما قال جل ثناؤه (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ) وقرأت به القراء ، فأخرجهما ، باستزلاله إياهما من الجنة .

فإن قال لنا قائل : وكيف كان استزلال إبليس آدم وزوجته حتى أضيف إليه إخراجهما من الجنة ؟ قيل : قد قالت العلماء فى ذلك أقوالا سنذكر بعضها .

فحكى عن وهب بن منبه فى ذلك ما حدثنا به الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا عمرو بن عبد الرحمن بن مهرب ، قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لما أسكن الله آدم وذريته ، أو زوجته — الشك من أبى جعفر ، وهو فى أصل كتابه : وذريته — ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم ، وهى الثمرة التى نهى الله آدم عنها وزوجته ، فلما أراد إبليس أن يستزلهما ، دخل فى جوف الحية ، وكانت للحية أربع قوائم، كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة ، خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته ، فجاء به إلى حوّاء ، فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ! ! فأخذت حوّاء فأكلت منها ، ثم ذهبت بها إلى آدم ، فقالت : انظر إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ! ! فأكل منها آدم ، فبدت لهما سوآتهما ، فدخل آدم فى جوف الشجرة ، فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ قال : أنا هنا يارب ، قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحيى منك يارب ، قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها، لعنة يتحوّل ثمرها شوكا . قال : ولم يكن فى الجنة ولا فى الأرض شجرة كان أفضل من الطلح والسدر ؛ ثم قال : يا حوّاء أنت التى غررت عبدى ، فإنك لاتحملين حملا إلا حملته كرها ، فإذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت على الموت مرارا ، وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى جوفك ، حتى غرّ عبدى ، ملعونة أنت لعنة تتحوّل قوائمك فى بطنك ، ولا يكن لك رزق إلا التراب ، أنت عدوّة بنى آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك .

قال عمرو : قيل لوهب : وما كانت الملائكة تأكل ؟ قال : يفعل الله ما يشاء .

وروى عن ابن عباس نحو هذه القصة .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : لما قال الله لآدم (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة ، فمنعته الخزنة ، فأتى الحية وهى دابة لها أربع قوائم كأنها البعير ، وهى كأحسن الدواب ، فكلمها أن تدخله فى فمها، حتى تدخل به إلى آدم ، فأدخلته فى فمها ، فمرّت الحية على الخزنة فدخلت ، ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر ، فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه ، فخرج إليه فقال يا آدم (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) يقول : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها كنت ملكا مثل الله عزّ وجل ، أو تكونا من الخالدين فلا تموتان أبدا ؟! وحلف لهما بالله (إنى لكما لمن الناصحين) وإنما أراد بذلك ليبدى لهما ماتوارى عنهما من سوآتهما بهتك لباسهما ، وكان قد علم أن لهما سوأة ، لما كان يقرأ من كتب الملائكة ، ولم يكن آدم يعلم ذلك ، وكان لباسهما الظفر ، فأبى آدم أن يأكل منها ، فتقدمت حوّاء فأكلت ، ثم قالت : يا آدم كل ، فإنى قد أكلت فلم يضرّنى ، فلما أكل آدم (بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : حدثنى محدّث : أن الشيطان دخل الجنة فى صورة دابة ذات قوائم ، فكان يرى أنه البعير ، قال : فلعن فسقطت قوائمه فصار حية .

وحدثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : وحدثنى أبو العالية : أن من الإبل ما كان أولها من الجنّ ، قال : فأبيحت له الجنة كلها إلا الشجرة ، وقيل لهما (لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) قال : فأتى الشيطان حوّاء فبدأ بها فقال : أنهيتما عن شىء ؟ قالت : نعم ! عن هذه الشجرة ، فقال (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) قال : فبدأت حوّاء فأكلت منها ، ثم أمرت آدم فأكل منها ، قال : وكانت شجرة من أكل منها أحدث ، قال : ولا ينبغى أن يكون فى الجنة حدث . قال (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) قال : فأخرج آدم من الجنة .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا ابن إسحق ، عن بعض أهل العلم : أن آدم حين دخل الجنة ورأى ما فيها من الكرامة ، وما أعطاه الله منها ، قال : لو أن خلدا كان ! فاغتنمها منه الشيطان لما سمعها منه ، فأتاه من قبل الخلد .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : حدثت أن أوّل ما ابتدأهما به من كيده إياهما ، أنه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها ، فقالا له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى عليكما ، تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة . فوقع ذلك فى أنفسهما ، ثم أتاهما فوسوس إليهما ، فقال (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) أى تكونا ملكين ، أو تخلدا إن لم تكونا ملكين ، فى نعمة الجنة فلا تموتان ، يقول الله جل ثناوه (فدلاهما بغرور) .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : وسوس الشيطان إلى حوّاء فى الشجرة حتى أتى بها إليها ، ثم حسنها فى عين آدم . قال : فدعاها آدم لحاجته ، قالت : لا ! إلا أن تأتى ههنا . فلما أتى ، قالت : لا ! إلا أن تأكل من هذه الشجرة . قال : فأكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما . قال : وذهب آدم هاربا فى الجنة ، فناداه ربه : يا آدم أمنى تفرّ ؟ قال : لا يارب ، ولكن حياء منك ، قال : يا آدم أنّى أُتيت ؟ قال : من قبل حوّاء أى ربّ ! فقال الله : فإن لها علىّ أن أدميها فى كل شهر مرة ، كما أدميت هذه الشجرة ، وأن أجعلها سفيهة ، فقد كنت خلقتها حليمة ، وأن أجعلها تحمل كرها وتضع كرها ، فقد كنت جعلتها تحمل يسرا وتضع يسرا .

قال ابن زيد : ولولا البلية التى أصابت حوّاء ، لكان نساء الدنيا لايحضن ، ولكنّ حليمات ، وكنّ يحملن يسرا ، ويضعن يسرا .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن سعيد بن المسيب ، قال : سمعته يحلف بالله مايستثنى ، ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حوّاء سقته الخمر ، حتى إذا سكر قادته إليها فأكل .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن ليث بن أبى سليم ، عن طاوس اليمانى ، عن ابن عباس ، قال : إن عدوّ الله إبليس عرض نفسه على دوابّ الأرض أنها تحمله حتى يدخل الجنة معها ، ويكلم آدم وزوجته ، فكل الدوابّ أبى ذلك عليه ، حتى كلم الحية فقال لها : أمنعك من ابن آدم ، فأنت فى ذمتى إن أنت أدخلتنى الجنة ، فجعلته بين نابين من أنيابها ، ثم دخلت به ، فكلمهما من فيها ، وكانت كاسية تمشى على أربع قوائم ، فأعراها الله ، وجعلها تمشى على بطنها ، قال : يقول ابن عباس : اقتلوها حيث وجدتموها ، اخفروا ذمة عدوّ الله فيها .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : قال ابن إسحق : وأهل التوراة يدرسون إنما كلم آدم الحية ، ولم يفسروا كتفسير ابن عباس .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن قيس ، قال : نهى الله آدم وحوّاء أن يأكلا من شجرة واحدة فى الجنة ، ويأكلا منها رغدا حيث شاءا ، فجاء الشيطان فدخل فى جوف الحية ، فكلم حوّاء ، ووسوس الشيطان إلى آدم ، فقال : (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) قال : فعضت حوّاء الشجرة ، فدميت الشجرة ، وسقط عنهما رياشهما الذى كان عليهما (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) لم أكلتها وقد نهيتك عنها ؟ قال : يا ربّ أطعمتنى حوّاء ، قال لحوّاء : لم أطعمته ؟ قالت : أمرتنى الحية ، قال للحية : لم أمرتها ؟ قالت : أمرنى إبليس ، قال : ملعون مدحور ؛ أما أنت يا حوّاء فكما أدميت الشجرة ، فتدمين فى كل هلال ، وأما أنت ياحية فأقطع قوائمك

فتمشين جريا على وجهك . وسيشدخ رأسك من لقيك بالحجر (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) .

قال أبو جعفر: وقد رويت هذه الأخبار عمن رويناها عنه من الصحابة والتابعين وغيرهم ، فى صفة استزلال إبليس عدوّ الله آدم وزوجته ، حتى أخرجهما من الجنة .

وأولى ذلك بالحقّ عندنا ، ما كان لكتاب الله موافقا ، وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس ، أنه وسوس لآدم وزوجته ، ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما ، وأنه قال لهما (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) وأنه قاسمهما: إنى لكما لمن الناصحين ، مدليا لهما بغرور . ففى إخباره جل ثناؤه عن عدوّ الله أنه قاسم آدم وزوجته بقيله لهما (إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) الدليل الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه ، إما ظاهرا لأعينهما ، وإما مستجنا فى غيره . وذلك أنه غير معقول فى كلام العرب أن يقال : قاسم فلان فلانا فى كذا وكذا إذا سبب له سببا وصل به إليه دون أن يحلف له . والحلف لايكون بتسبب السبب ، فكذلك قوله : فوسوس إليه الشيطان ، لو كان ذلك كان منه إلى آدم ، على نحو الذى منه إلى ذريته ، من تزيين أكل مانهى الله آدم عن أكله من الشجرة ، بغير مباشرة خطابه إياه بما استزله به من القول والحيل ، لما قال جل ثناؤه (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) كما غير جائز أن يقول اليوم قائل ممن أتى معصية : قاسمنى إبليس إنه لى ناصح فيما زين لى من المعصية التى أتيتها . فكذلك الذى كان من آدم وزوجته ، لو كان على النحو الذى يكون فيما بين إبليس اليوم وذرية آدم ، لما قال جل ثناؤه (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) ولكن ذلك كان إن شاء الله على نحو ما قال ابن عباس ومن قال بقوله .

فأما سبب وصوله إلى الجنة حتى كلم آدم ، بعد أن أخرجه الله منها وطرده عنها ، فليس فيما روى عن ابن عباس ووهب بن منبه فى ذلك معنى يجوز لذى فهم مدافعته ، إذ كان ذلك قولا لايدفعه عقل ، ولا خبر يلزم تصديقه من حجة بخلافه ، وهو من الأمور الممكنة . والقول فى ذلك أنه قد وصل إلى خطابهما على ما أخبرنا الله جل ثناؤه ، وممكن أن يكون وصل إلى ذلك بنحو الذى قاله المتأوّلون ، بل ذلك إن شاء الله كذلك ، لتتابع أقوال أهل التأويل على تصحيح ذلك . وإن كان ابن إسحق قد قال فى ذلك ماحدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : قال ابن إسحق فى ذلك ، والله أعلم ، كما قال ابن عباس وأهل التوراة : إنه خلص إلى آدم وزوجته بسلطانه ، الذى جعل الله له ليبتلى به آدم وذريته ، وأنه يأتى ابن آدم فى نومته وفى يقظته ، وفى كل حال من أحواله ، حتى يخلص إلى ما أراد منه ، حتى يدعوه إلى المعصية ، ويوقع فى نفسه الشهوة وهو لايراه ، وقد قال الله (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) وقال (يَا بَنِي آدَمَ لاَيَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَتَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ) وقد قال الله لنبيه عليه الصلاة السلام (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ) إلى آخر السورة ، ثم ذكر الأخبار التى رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ

مَجْرَى الدَّمِ . قال ابن إسحق : وإنما أمر ابن آدم فيما بينه وبين عدوّ الله ، كأمره فيما بينه وبين آدم ، فقال الله (اهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) ثم خلص إلى آدم وزوجته حتى كلمهما ، كما قصّ الله علينا من خبرهما ، قال (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) فخلص إليهما بما خلص إلى ذريته من حيث لايريانه ، والله أعلم أىّ ذلك كان . فتابا إلى ربهما .

قال أبوجعفر : وليس فى يقين ابن إسحق - لو كان قد أيقن فى نفسه - أن إبليس لم يخلص إلى آدم وزوجته بالمخاطبة ، بما أخبر الله عنه أنه قال لهما وخاطبهما به ، مايجوز لذى فهم الاعتراض به على ماورد من القول مستفيضا من أهل العلم ، مع دلالة الكتاب على صحة ما استفاض من ذلك بينهم ، فكيف بشكه ؟ والله نسأل التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)

قال أبو جعفر : وأما تأويل قوله (فَأَخْرَجَهُمَا) فإنه يعنى : فأخرج الشيطان آدم وزوجته مما كانا ، يعنى مما كان فيه آدم وزوجته من رغد العيش فى الجنة ، وسعة نعيمها الذى كانا فيه .

وقد بينا أن الله جلّ ثناؤه ، إنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان ، وإن كان الله هو المخرج لهما ، لأن خروجهما منها كان عن سبب من الشيطان ، وأضيف ذلك إليه لتسبيبه إياه ، كما يقول القائل لرجل وصل إليه منه أذى ،حتى تحوّل من أجله عن موضع كان يسكنه : ماحوّلنى من موضعى الذى كنت فيه إلا أنت! ولم يكن منه له تحويل ، ولكنه لما كان تحوّله عن سبب منه جاز له إضافة تحويله إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

قال أبو جعفر : يقال : هبط فلان أرض كذا ، ووادى كذا : إذا حلّ ذلك ، كما قال الشاعر :

ما زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتَّى إِذَا هَبَطَتْ ... أَيْدِى الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا

وقد أبان هذا القول من الله جل ثناؤه عن صحة ما قلنا ، من أن المخرج آدم من الجنة هو الله جلّ ثناؤه ، وأن إضافة الله إلى إبليس ما أضاف إليه من إخراجهما ، كان على ماوصفنا . ودلّ بذلك أيضا على أن هبوط آدم وزوجته وعدوّهما إبليس كان فى وقت واحد ، بجمع الله إياهم فى الخبر عن إهباطهم ، بعد الذى كان من خطيئة آدم وزوجته ، وتسبب إبليس ذلك لهما ، على ما وصفه ربنا جل ذكره عنهم .

وقد اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بقوله (اهْبِطُوا) مع إجماعهم على أن آدم وزوجته ممن عنى به .

فحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبوأسامة ، عن أبى عوانة ، عن إسمعيل بن سالم ، عن أبى صالح (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : آدم ، وحوّاء ، وإبليس ، والحية .

حدثنا ابن وكيع وموسى بن هرون ، قالا : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : فلعن الحية وقطع قوائمها وتركها تمشى على بطنها ، وجعل رزقها من التراب ، وأهبط إلى الأرض آدم وحوّاء وإبليس والحية .

وحدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : آدم ، وإبليس ، والحية .

وحدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) آدم ، وإبليس ، والحية ، ذرية بعضهم أعداء لبعض .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : آدم وذريته ، وإبليس وذريته .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا آدم بن أبي إياس ، قال : حدثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : يعني إبليس ، وآدم .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدي ، عمن حدثه عن ابن عباس في قوله (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : بعضهم لبعض عدوّ : آدم ، وحوّاء ، وإبليس ، والحية .

وحدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : حدثني عبد الرحمن بن مهديّ ، عن إسرائيل ، عن إسمعيل السدي ، قال : حدثني من سمع ابن عباس يقول (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : آدم ، وحوّاء ، وإبليس ، والحية .

وحدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : لهما ولذرّيتهما .

قال أبو جعفر : فإن قال قائل : وما كانت عداوة ما بين آدم وزوجته ، وإبليس ، والحية ؟ قيل : أما عداوة إبليس آدم وذرّيته ، فحسده إياه ، واستكباره عن طاعة الله في السجود له ، حين قال لربه (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . وأما عداوة آدم وذرّيته إبليس ، فعداوة المؤمنين إياه ، لكفره بالله وعصيانه لربه في تكبره عليه ومخالفته أمره ، وذلك من آدم ومؤمني ذرّيته ، إيمان بالله . وأما عداوة إبليس آدم ، فكفر بالله . وأما عداوة ما بين آدم وذرّيته ، والحية ، فقد ذكرنا ماروى في ذلك عن ابن عباس ووهب بن منبه ، وذلك هي العداوة التي بيننا وبينها ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ فَمَنْ تَرَكَهُنَّ خَشْيَةَ ثَأْرِهِنَّ فَلَيْسَ مِنَّا .

حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : حدثني حجاج بن رشد ، قال : حدثنا حيوة بن شريح ، عن ابن عجلان ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ما سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ ، فَمَنْ تَرَكَ شَيْئاً مِنْهُنَّ خِيفَةً ، فَلَيْسَ مِنَّا » .

قال أبو جعفر : وأحسب أن الحرب التي بيننا ، كان أصله ما ذكره علماؤنا الذين قدمنا الرواية عنهم

فى إدخالها إبليس الجنة . بعد أن أخرجه الله منها حتى استزله عن طاعة ربه ، فى أكله مانهى عن أكله من الشجرة .

وحدثنا أبو كريب ، قال حدثنا معاوية بن هشام . وحدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، قال : حدثنى آدم جميعا ، عن شيبان ، عن جابر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الحيات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خُلِقَتْ هِيَ وَالإنسانُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُما عَدُوٌّ لِصَاحِبِهِ ، إنْ رآها أفْزَعَتْهُ ، وإنْ لَدَغَتْهُ أوْجَعَتْهُ ، فاقْتُلُوها حَيْثُ وَجَدْتَها .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك :

فقال بعضهم بما حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) قال : هو قوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً) .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) قال : هو قوله (جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً) .

وقال آخرون : معنى ذلك : ولكم فى الأرض قرار فى القبور .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) يعنى القبور .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن إسمعيل السدى ، قال : حدثنى من سمع ابن عباس قال (وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) قال : القبور .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) قال : مقامهم فيها .

قال أبو جعفر : والمستقرّ فى كلام العرب : هو موضع الاستقرار ؛ فإذا كان ذلك كذلك ، فحيث كان من فى الأرض موجودا حالا ، فذلك المكان من الأرض مستقرّه .

إنما عنى الله جل ثناؤه بذلك : أن لهم فى الأرض مستقرا ومنزلا بأماكنهم ، ومستقرّهم من الجنة والسماء ، وكذلك قوله (وَمَتاعٌ) يعنى به أن لهم فيها متاعا بمتاعهم فى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَمَتاعٌ إلى حِينٍ)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فقال بعضهم : ولكم فيها بلاغ إلى الموت .

ذكر من قال ذلك :

حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى قوله (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) قال يقول : بلاغ إلى الموت .

وحدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن إسمعيل السدى ، قال : حدثنى من سمع ابن عباس (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) قال : الحياة .

وقال آخرون : يعنى بقوله (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) : إلى قيام الساعة .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) قال : إلى يوم القيامة ، إلى انقطاع الدنيا .

وقال آخرون إلى حين ، قال : إلى أجل .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) قال : إلى أجل .

والمتاع فى كلام العرب : كل ما استمتع به من شىء ، من معاش استمتع به أو رياش أو زينة أو لذة أو غير ذلك ، فإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله جل ثناؤه قد جعل حياة كل حىّ متاعا له ، يستمتع بها أيام حياته ، وجعل الأرض للإنسان متاعا أيام حياته بقراره عليها ، واغتذائه بما أخرج الله منها من الأقوات والثمار ، والتذاذه بما خلق فيها من الملاذ ، وجعلها من بعد وفاته لجثته كفاتا ، ولجسمه منزلا وقرارا ؛ وكان اسم المتاع يشمل جميع ذلك ، كان أولى التأويلات بالآية إن لم يكن الله جل ثناؤه وضع دلالة دالة على أنه قصد بقوله (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) بعضا دون بعض ، وخاصا دون عام ، فى عقل ولا خبر ، أن يكون ذلك فى معنى العامّ ، وأن يكون الخبر أيضا كذلك إلى وقت يطول استمتاع بنى آدم وبنى إبليس بها ، وذلك إلى أن تبدّل الأرض غير الأرض . فإذ كان ذلك أولى التأويلات بالآية لما وصفنا ، فالواجب إذًا أن يكون تأويل الآية : ولكم فى الأرض منازل ومساكن تستقرّون فيها ، استقراركم كان فى السموات ، وفى الجنات فى منازلكم منها ، واستمتاع منكم بها وبما أخرجت لكم منها ، وبما جعلت لكم فيها من المعاش والرياش والزين والملاذّ ، وبما أعطيتكم على ظهرها أيام حياتكم ومن بعد وفاتكم لأرماسكم وأجداثكم ، تدفنون فيها وتبلغون باستمتاعكم بها إلى أن أبدّلكم بها غيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)

قال أبو جعفر : أما تأويل قوله (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ) فقيل إنه أخذ ، وقيل أصله التفعل من اللقاء ، كما يتلقى

الرجل الرجل ، يستقبله عند قدومه من غيبة أو سفر ، فكذلك ذلك فى قوله (فَتَلَقَّى) كأنه استقبله فتلقاه بالقبول ، حين أوحى إليه ، أو أخبر به ، فمعنى ذلك إذاً : فلقى الله آدم كلمات توبة ، فتلقاها آدم من ربه وأخذها عنه تائبا ، فتاب الله عليه بقيله إياها ، وقبوله إياها من ربه .

كما حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) الآية، قال : لقاهما هذه الآية (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) وقد قرأ بعضهم (فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ) فجعل الكلمات هى المتلقية آدم ، وذلك وإن كان من وجهة العربية جائزا، إذ كان كل ماتلقاه الرجل فهو له متلق وما لقيه فقد لقيه ، فصار للمتكلم أن يوجه الفعل إلى أيهما شاء ، ويخرج من الفعل أيهما أحبّ ، فغير جائز عندى فى القراءة إلا رفع آدم ، على أنه المتلقى الكلمات ، لإجماع الحجة من القراء وأهل التأويل من علماء السلف والخلف ، على توجيه التلقى إلى آدم دون الكلمات ، وغير جائز الاعتراض عليها فيما كانت عليه مجمعة بقول من يجوز عليه السهو والخطأ .

واختلف أهل التأويل فى أعيان الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

فقال بعضهم بما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا ابن عطية ، عن قيس ، عن ابن أبى ليلى ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) قال : أى ربّ ! ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى ، قال : أى ربّ ! ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ قال : بلى ، قال : أى ربّ ! ألم تسكنى جنتك ؟ قال : بلى ، قال : أى ربّ ! ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى ، قال : أرأيت إن أنا تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم . قال : فهو قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) .

وحدثنى علىّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم ، قال : حدثنا محمد بن مصعب ، عن قيس بن الربيع ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، نحوه .

وحدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) قال : إن آدم قال لربه إذ عصاه : ربّ ! أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ؟ فقال له ربه : إنى راجعك إلى الجنة .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) ذكر لنا أنه قال : يا ربّ ! أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ؟ قال : إنى إذاً راجعك إلى الجنة . قال : وقال الحسن إنهما قالا (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر : عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) قال : إن آدم لما أصاب الخطيئة ، قال : ياربّ ! أرأيت

إن تبت وأصلحت ؟ فقال الله : إذًا أرجعك إلى الجنة . فهى من الكلمات ، ومن الكلمات أيضا (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) قال : ربِّ ! ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له : بلى ، قال : ونفختَ فىَّ من روحك ؟ قيل له : بلى ، قال : وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له : بلى ، قال : ربِّ ! هل كنت كتبت هذا علىَّ ؟ قيل له : نعم ، قال : ربِّ ! إن تبت وأصلحت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قيل له : نعم . قال الله تعالى (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) .

وقال آخرون بما حدثنا به محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رفيع ، قال : حدثنى من سمع عبيد بن عمير ، يقول : قال آدم : يا ربِّ ! خطيئتى التى أخطأتها ، أشىء كتبته علىَّ قبل أن تخلقنى ؟ أو شىء ابتدعته من قبل نفسى ؟ قال : بلى ، شىء كتبته عليك قبل أن أخلقك ، قال : فكما كتبته علىَّ فاغفره لى . قال : فهو قول الله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ)

وحدثنا ابن سنان ، قال : حدثنا مؤمل ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رفيع ، قال : أخبرنى من سمع عبيد بن عمير ، بمثله .

وحدثنا ابن سنان ، قال : حدثنا وكيع بن الجراح ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رفيع ، عمن سمع عبيد بن عمير يقول : قال آدم ، فذكر نحوه .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبونعيم ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رفيع ، قال : أخبرنى من سمع عبيد بن عمير ، بنحوه .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن عبد العزيز ، عن عبيد بن عمير ، بمثله .

وقال آخرون بما حدثنى به أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن شريك ، قال : حدثنا أبى ، قال : حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، عن حميد بن نبهان ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية أنه قال : قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) قال آدم : اللهمَّ لاإله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، تب علىَّ إنك أنت التوّاب الرحيم .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو غسان ، قال : أنبأنا أبو زهير . وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : أخبرنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان وقيس جميعا ، عن خصيف ، عن مجاهد فى قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) قال قوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا) حتى فرغ منها .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنى شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، كان يقول فى قول الله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) الكلمات : اللهمَّ لاإله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك

ربّ إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي إنك خير الغافرين ، اللهمّ لاإله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب ! إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين . اللهمّ لاإله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، ربّ ! إني ظلمت نفسي ، فتب عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم .

وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن النضر بن عربي ، عن مجاهد (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) قال : هوقوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا) الآية .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) قال : أي ربّ ! أتتوب عليّ إن تبت ؟ قال : نعم . فتاب آدم ، فتاب عليه ربه .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) قال : هو قوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : هو قوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) .

وهذه الأقوال التي حكيناها عمن حكيناها عنه، وإن كانت مختلفة الألفاظ ، فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقّى آدم كلمات ، فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن ، وعمل بهن ، وتاب بقيله إياهن ، وعمله بهن إلى الله من خطيئته ، معترفا بذنبه ، متنصلا إلى ربه من خطيئته ، نادما على ما سلف منه من خلاف أمره ، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه ، وندمه على سالف الذنب منه .

والذي يدلّ عليه كتاب الله ، أن الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه هنّ الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها ، متنصلا بقيلها إلى ربه ، معترفا بذنبه ، وهوقوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) وليس ماقاله من خالف قولنا هذا من الأقوال التي حكيناها بمدفوع قوله ، ولكنه قول لاشاهد عليه من حجة يجب التسليم لها ، فيجوز لنا إضافته إلى آدم ، وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه .

وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم من قيله الذي لقاه إياه ، فقاله تائبا إليه من خطيئته ، تعريف منه جل ذكره جميع المخاطبين بكتابه ، كيفية التوبة إليه من الذنوب ، وتنبيه للمخاطبين بقوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) على موضع التوبة مما هم عليه من الكفر بالله ، وأن خلاصهم مما هم عليه مقيمون من الضلالة ، نظير خلاص أبيهم آدم من خطيئته ، مع تذكيره إياهم به السالف إليهم من النعم ، التي خصّ بها أباهم آدم وغيره من آبائهم .

القول في تأويل قوله تعالى (فَتَابَ عَلَيْهِ)

قال أبو جعفر : وقوله (فَتَابَ عَلَيْهِ) يعني على آدم . والهاء التي في عليه عائدة على آدم ، وقوله

(فتَابَ عَلَيْهِ) يعنى رزقه التوبة من خطيئته ، والتوبة معناها الإنابة إلى الله ، والأوبة إلى طاعته مما يكره من معصيته .

القول فى تأويل قوله تعالى (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) أن الله جل ثناؤه هو التواب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه ، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه .

وقد ذكرنا أن معنى التوبة من العبد إلى ربه : إنابته إلى طاعته ، وأوبته إلى مايرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور ، التى كان عليها مقيما مما يكرهه ربه ، فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك ، ويئوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه ، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه .

وأما قوله (الرَّحِيمُ) فإنه يعنى أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة ، ورحمته إياه : إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه .

وقد ذكرنا القول فى تأويل قوله (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً) فيما مضى فلا حاجة بنا إلى إعادته ، إذ كان معناه فى هذا الموضع ، هو معناه فى ذلك الموضع .

وقد حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسمعيل بن سالم ، عن أبى صالح فى قوله (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً) قال : آدم ، وحواء ، والحية ، وإبليس .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ) فإن يأتكم ، وما التى مع إن توكيد للكلام ، ولدخولها مع إن أدخلت النون المشددة فى يأتينكم ، تفرقة بدخولها بين ما التى تأتى بمعنى توكيد الكلام التى تسميها أهل العربية صلة وحشوا ، وبين ما التى تأتى بمعنى الذى ، فتؤذن بدخولها فى الفعل أنّ ما التى مع إن التى بمعنى الجزاء توكيد ، وليست ما التى بمعنى الذى .

وقد قال بعض نحويى البصريين : إنّ إما إن زيدت معها ما ، وصار الفعل الذى بعده بالنون الخفيفة أو الثقيلة ، وقد يكون بغير نون ، وإنما حسنت فيه النون لما دخلته ما ، لأن ما نفىٌ ، فهى مما ليس بواجب ، وهى الحرف الذى ينفى الواجب ، فحسنت فيه النون ، نحو قولهم : بعين ما أرينك ، حين أدخلت فيها ما ، حسنت النون فيما هاهنا . وقد أنكر جماعة من أهل العربية دعوى قائلى هذه المقالة أن ما التى مع : بعين ما أرينك بمعنى الجحد ، وزعموا أن ذلك بمعنى التوكيد للكلام .

وقال آخرون : بل هو حشو فى الكلام ، ومعناها الحذف ، وإنما معنى الكلام : بعين أراك ، وغير جائز أن يجعل مع الاختلاف فيه أصلا يقاس عليه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قال أبو جعفر : والهدى فى هذا الموضع : البيان والرشاد ، كما حدثنا المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا

آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى) قال : الهدى : الأنبياء والرسل والبيان .

فإن كان ما قال أبو العالية فى ذلك كما قال ، فالخطاب بقوله (اهْبِطُوا) وإن كان لآدم وزوجته ، فيجب أن يكون مرادا به آدم وزوجته وذريتهما ، فيكون ذلك حينئذ نظير قوله (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) بمعنى أتينا بما فينا من الخلق طائعين ، ونظير قوله فى قراءة ابن مسعود (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ) فجمع قبل أن تكون ذرية ، وهو فى قراءتنا (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) وكما يقول القائل لآخر : كأنك قد تزوجت وولد لك وكثرتم وعززتم ، ونحو ذلك من الكلام .

وإنما قلنا إن ذلك هو الواجب على التأويل الذى ذكرناه عن أبى العالية ، لأن آدم كان هو النبى صلى الله عليه وسلم أيام حياته ، بعد أن أهبط إلى الأرض ، والرسول من الله جل ثناؤه إلى ولده ؛ فغير جائز أن يكون معنيا ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، بقوله (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى) خطابا له ولزوجته (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى) أنبياء ورسل ، إلا على ما وصفت من التأويل .

وقول أبى العالية فى ذلك وإن كان وجها من التأويل تحتمله الآية ، فأقرب إلى الصواب منه عندى وأشبه بظاهر التلاوة أن يكون تأويلها : فإما يأتينكم منى يا معشر من أهبطته إلى الأرض من سمائى ، وهو آدم وزوجته وإبليس — كما قد ذكرنا قبل فى تأويل الآية التى قبلها — إما يأتينكم منى بيان من أمرى وطاعتى ورشاد إلى سبيلى ودينى ، فمن اتبعه منكم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإن كان قد سلف منهم قبل ذلك إلىّ معصية ، وخلاف لأمرى وطاعتى . يعرّفهم بذلك جل ثناؤه أنه التائب على من تاب إليه من ذنوبه ، والرحيم لمن أناب إليه ، كما وصف نفسه بقوله (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) وذلك أن ظاهر الخطاب بذلك ، إنما هو للذين قال لهم جل ثناؤه (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً) والذين خوطبوا به هم من سمّينا فى قول الحجة من الصحابة والتابعين ، الذين قد قدمنا الرواية عنهم . وذلك وإن كان خطابا من الله جل ذكره لمن أهبط حينئذ من السماء إلى الأرض ، فهو سنة الله فى جميع خلقه ، وتعريف منه بذلك للذين أخبر عنهم فى أول هذه السورة بما أخبر عنهم فى قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وفى قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) وأن حكمه فيهم إن تابوا إليه وأنابوا ، واتبعوا ما أتاهم من البيان من عند الله ، على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، أنهم عنده فى الآخرة ، ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأنهم إن هلكوا على كفرهم وضلالتهم قبل الإنابة والتوبة ، كانوا من أهل النار المخلدين فيها .

وقوله (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ) يعنى فمن اتبع بيانى الذى أبينه على ألسن رسلى أو مع رسلى ، كما حدثنا به المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ) يعنى بيانى .

وقوله (فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم) يعنى فهم آمنون فى أهوال القيامة من عقاب الله ، غير خائفين عذابه ، بما أطاعوا الله فى الدنيا ، واتبعوا أمره وهداه وسبيله (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) يومئذ على ما خلّفوا بعد وفاتهم فى الدنيا . كما حدثنى يونس بن عبد الأعلى . قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (لاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ) يقول : لاخوف عليكم أمامكم ، وليس شيء أعظم فى صدر الذى يموت مما بعد الموت ، فأمنهم منه وسلاهم عن الدنيا . فقال : (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وقوله :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

يعنى : والذين جحدوا آياتى وكذّبوا رسلى . وآيات الله : حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته ، وما جاءت به الرسل من الأعلام والشواهد على ذلك ، وعلى صدقها فيما أنبأت عن ربها . وقد بينا أن معنى الكفر : التغطية على الشيء (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) يعنى أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم ، المخلدون فيها أبدا إلى غير أمد ولا نهاية ؛ كما حدثنا به عقبة بن سنان البصرى . قال : حدثنا غسان بن مضر ، قال : حدثنا سعيد بن يزيد . وحدثنا سوار بن عبد الله العنبرى ، قال : حدثنا بشر بن المفضل ، قال : حدثنا أبو مسلمة سعيد بن يزيد . وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، وأبو بكر بن عون . قالا : حدثنا إسمعيل بن علية ، عن سعيد بن يزيد ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَّا أهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أهْلُها ، فإنَّهُمْ لا يَمُوتونَ فيها وَلا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنَّ أقْوَاما أصابَتْهُمُ النَّارُ بِخَطاياهُمْ أوْ بِذُنُوبِهِمْ ، فأماتَتْهُمْ إماتَةً حَتَّى إذَا صارُوا فَحْماً أُذِنَ فى الشَّفاعَةِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ) : يا ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن ، وكان يعقوب يدعى إسرائيل ، بمعنى عبد الله وصفوته من خلقه ، وإيل : هو الله ، وإسرا : هو العبد ، كما قيل جبريل بمعنى عبد الله .

وكما حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن إسمعيل بن رجاء ، عن عمير مولى ابن عباس ، عن ابن عباس : إن إسرائيل كقولك عبد الله .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحرث ، قال : إيل : الله بالعبرانية . وإنما خاطب الله جل ثناؤه بقوله (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ) أحبار اليهود من بنى إسرائيل ، الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنسبهم جلّ ذكره إلى يعقوب ، كما نسب

ذرية آدم إلى آدم ، فقال (يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) وما أشبه ذلك ، وإنما خصهم بالخطاب فى هذه الآية والتى بعدها من الآى التى ذكرهم فيها نعمه ، وإن كان قد تقدم ما أنزل فيهم وفى غيرهم فى أول هذه السورة ، ما قد تقدم أن الذى احتجّ به من الحجج والآيات ، التى فيها أنباء أسلافهم ، وأخبار أوائلهم ، وقصص الأمور التى هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم ، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته ، مثل الذى لهم من العلم به إلا لمن اقتبس علم ذلك منهم ، فعرّفهم باطلاع محمد على علمها مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها ، وقلة مزاولة محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الكتب التى فيها أنباء ذلك ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم ذلك إلا بوحى من الله ، وتنزيل منه ذلك إليه ، لأنهم من علم صحة ذلك بمحل ليس به من الأمم غيرهم .

فلذلك جل ثناؤه خصّ بقوله (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ) خطابهم كما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ) قال : يا أهل الكتاب للأحبار من يهود .

القول فى تأويل قوله (اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ)

قال أبو جعفر : ونعمته التى أنعم بها على بنى إسرائيل جل ذكره ، اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضرّاء من فرعون وقومه ، إلى التمكين لهم فى الأرض ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المنّ والسلوى ، فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ماسلف منه إلى آبائهم على ذكر ، وأن لاينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحلّ بهم من النقم ما أحلّ بمن نسى نعمه عنده منهم وكفرها وجحد صنائعه عنده .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) أى آلائى عندكم وعند آبائكم ، لما كان نجاهم به من فرعون وقومه .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ) قال : نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) يعنى نعمته التى أنعم على بنى إسرائيل فيا سمى ، وفيما سوى ذلك ، فجّر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وأنجاهم من عبودية آل فرعون .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) قال : نعمه عامة ، ولا نعمة أفضل من الإسلام ، والنعم بعد تبع لها ، وقرأ قول الله (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ) الآية . وتذكير الله الذين ذكرهم جل ثناؤه بهذه الآية من نعمه ، على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، نظير تذكير موسى صلوات الله

عليه أسلافهم على عهده، الذى أخبر الله عنه أنه قال لهم ، وذلك قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)

قال أبو جعفر : قد تقدم بياننا معنى العهد فيما مضى من كتابنا هذا، واختلاف المختلفين فى تأويله . والصواب عندنا من القول فيه، وهو فى هذا الموضع ، عهد الله ووصيته التى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ، أن يبينوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول ، وأنهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة أنه نبى الله ، وأن يؤمنوا به ، وبما جاء به من عند الله (أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وعهده إياهم : أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة ، كما قال جل ثناؤه (وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً) الآية ، وكما قال (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ) الآية .

وكما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي) الذى أخذت فى أعناقكم للنبى صلى الله عليه وسلم إذا جاءكم (أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) : أى أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال، التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم .

وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) قال : عهده إلى عباده : دين الإسلام أن يتبعوه (أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) يعنى الجنة .

وحدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) أما أوفوا بعهدى : فما عهدت إليكم فى الكتاب ، وأما أوف بعهدكم : فالجنة ، عهدت إليكم أنكم إن عملتم بطاعتى أدخلتكم الجنة .

وحدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج فى قوله (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) قال : ذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى المائدة (وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً) إلى آخر الآية ، فهذا عهد الله الذى عهد إليهم ، وهو عهد الله فينا ، فمن أوفى بعهد الله وفى الله له بعهده .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) يقول : أوفوا بما أمرتكم به من طاعتى ، ونهيتكم عنه من معصيتى فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى غيره ، أوف بعهدكم ، يقول : أرض عنكم وأدخلكم الجنة .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) قال : أوفوا بأمرى ، أوف بالذى وعدتكم ، وقرأ (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) حتى بلغ (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) قال : هذا عهده الذى عهده لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) وإياى فاخشوا واتقوا ، أيها المضيعون عهدى من بنى إسرائيل ، والمكذّبون رسولى ، الذى أخذت ميثاقكم فيما أنزلت من الكتب على أنبيائى ، أن تؤمنوا به وتتبعوه ، أن أحلّ بكم من عقوبتى ، إن لم تنيبوا وتتوبوا إلىّ باتباعه ، والإقرار بما أنزلت إليه ، ما أحللت بمن خالف أمرى وكذّب رسلى من أسلافكم ؛ كما حدثنى به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم ، من النقمات التى قد عرفتم ، من المسخ وغيره .

وحدثنا المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنى آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) يقول : فاخشون .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) يقول : وإياى فاخشون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (آمِنُوا) : صدّقوا ، كما قد قدمنا البيان عنه قبل . ويعنى بقوله (بِمَا أَنْزَلْتُ) : ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن ، ويعنى بقوله (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) أن القرآن مصدّق لما مع اليهود من بنى إسرائيل من التوراة ، فأمرهم بالتصديق بالقرآن ، وأخبرهم جل ثناؤه أن فى تصديقهم بالقرآن تصديقا منهم للتوراة ، لأن الذى فى القرآن من الأمر بالإقرار بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه واتباعه ، نظير الذى من ذلك فى الإنجيل والتوراة ، ففى تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهم من التوراة ، وفى تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة . وقوله (مُصَدِّقًا) قطع من الهاء المتروكة فى (أَنْزَلْتُهُ) من ذكرما . ومعنى الكلام : وآمنوا بالذى أنزلته مصدّقا لما معكم أيها اليهود ، والذى معهم هو التوراة والإنجيل ؛ كما حدثنا به محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) يقول : إنما أنزلت القرآن ، مصدقا لما معكم ، التوراة والإنجيل .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : أخبرنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ) يقول : يا معشر أهل الكتاب ، آمنوا بما أنزلت على محمد مصدّقا لما معكم ، يقول : لأنهم يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ)

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : كيف قيل (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) والخطاب فيه لجمع وكافر واحد ، وهل نجيز إن كان ذلك جائزا أن يقول قائل : لاتكونوا أوّل رجل قام ؟ قيل له : إنما يجوز توحيد ما أضيف له أفعل ، وهو خبر لجمع إذا كان اسما مشتقا من فَعَلَ ويَفْعَلُ ، لأنه يؤدى عن المراد معه المحذوف من الكلام ، وهو من ، ويقوم مقامه فى الأداء عن معنى ما كان يؤدى عنه من ، من الجمع والتأنيث ، وهو فى لفظ واحد . ألا ترى أنك تقول : ولا تكونوا أوّل من يكفر به ، فمن بمعنى جمع وهو غير متصرّف تصرّف الأسماء للتثنية والجمع والتأنيث ، فإذا أقيم الاسم المشتق من فعل ويفعل مقامه ، جرى وهو موحد مجراه فى الأداء عما كان يؤدّى عنه من معنى الجمع والتأنيث ، كقولك : الجيش ينهزم ، والجند يقبل ؛ فتوحد الفعل لتوحيد لفظ الجيش والجند ، وغير جائز أن يقال : الجيش رجل ، والجند غلام ، حتى تقول : الجند غلمان ، والجيش رجال ، لأن الواحد من عدد الأسماء التى هى غير مشتقة من فعل ويفعل ، لايؤدى عن معنى الجماعة منهم ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإِذَا هُمُو طَعِمُوا فَأَلْأَمُ طَاعِمٍ ... وَإِذَا هُمُو جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعِ

فوحد مرّة على ما وصفت من نية من ، وإقامة الظاهر من الاسم الذى هو مشتقّ من فعل ويفعل مقامه ، وجمع أخرى على الإخراج على عدد أسماء المخبر عنهم ، ولو وحد حيث جمع أو جمع حيث وحد كان صوابا جائزا . فأما تأويل ذلك فإنه يعنى به : يا معشر أحبار أهل الكتاب ، صدّقوا بما أنزلت على رسولى محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن المصدِّق كتابكم ، والذى عندكم من التوراة والإنجيل المعهود إليكم فيهما أنه رسولى ونبيى المبعوث بالحقّ ، ولا تكونوا أوّل من كذّب به وجحد أنه من عندى ، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم ، وكفرهم به : جحودهم أنه من عند الله ، والهاء التى فى به من ذكر ما التى مع قوله (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ) .

كما حدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج فى قوله (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) بالقرآن .

قال أبو جعفر : وروى عن أبى العالية فى ذلك ما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) يقول : لاتكونوا أوّل من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) يعنى بكتابكم، ويتأول أن فى تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، تكذيبا منهم بكتابهم، لأن فى كتابهم الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذان القولان من ظاهر ما تدلّ عليه التلاوة بعيدان، وذلك أن الله جل ثناؤه، أمر المخاطبين بهذه الآية فى أولها بالإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فقال جل ذكره (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) ومعقول أن الذى أنزله الله فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم، هو القرآن لا محمد، لأن محمدا صلوات الله عليه رسول مرسل لاتنزيل منزل، والمنزل هو الكتاب. ثم نهاهم أن يكونوا أول من يكفر بالذى أمرهم بالإيمان به فى أول الآية من أهل الكتاب، فذلك هو الظاهر المفهوم، ولم يجر لمحمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية ذكر ظاهر، فيعاد عليه بذكره مكنيا فى قوله (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) وإن كان غير محال فى الكلام، أن يذكر مكنى اسم لم يجر له ذكر ظاهر فى الكلام. وكذلك لامعنى لقول من زعم أن العائد من الذكر فى به على ما التى فى قوله (لِمَا مَعَكُمْ) لأنّ ذلك وإن كان محتمل ظاهر الكلام، فإنه بعيد مما يدلّ عليه ظاهر التلاوة والتنزيل، لما وصفنا قبل من أن المأمور بالإيمان به فى أول الآية هو القرآن، فكذلك الواجب أن يكون المنهى عن الكفر به فى آخرها هو القرآن. وأما أن يكون المأمور بالإيمان به غير المنهى عن الكفر به فى كلام واحد وآية واحدة، فذلك غير الأشهر الأظهر فى الكلام، هذا مع بعد معناه فى التأويل.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا)

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك.

فحدثنى المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا آدم، قال: حدثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) يقول: لا تأخذوا عليه أجرا، قال: وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول: يا ابن آدم علّم مجانا، كما عُلِّمْتَ مجانا.

وقال آخرون بما حدثنى به موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدى (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) يقول: لاتأخذوا طمعا قليلا، وتكتموا اسم الله، فذلك الطمع هو الثمن. فتأويل الآية إذًا: لاتبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابى وآياته، بثمن خسيس وعرض من الدنيا قليل؛ وبيعهم إياه: تركهم إبانة ما فى كتابهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم للناس، وأنه مكتوب فيه أنه النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، بثمن قليل. وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم، وأخذهم الأجر ممن بينوا له ذلك على ما بينوا له منه.

وإنما قلنا معنى ذلك: لاتبيعوا، لأن مشترى الثمن القليل بآيات الله، بائع الآيات بالثمن، فكل واحد من

الثمن والمثمن مبيع لصاحبه ، وصاحبه به مشتر . وإنما معناه على ما تأوّله أبو العالية : بينوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تبتغوا عليه منهم أجرا ، فيكون حينئذ نهيه عن أخذ الأجر على تبيينه ، هو النهى عن شراء الثمن القليل بآياته .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

قال أبو جعفر: يقول : فاتقون فى بيعكم آياتى بالخسيس من الثمن ، وشرائكم بها القليل من العرض، وكفركم بما أنزلت على رسولى ، وجحودكم نبوّة نبيى ، إن أحلّ بكم ما أحللت بأسلافكم الذين سلكوا سبيلكم من المثلات والنقمات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (وَلَا تَلْبِسُوا) : لاتخلطوا ، واللبس : هو الخلط ، يقال منه : لبست عليهم الأمر ألبسه لبسا : إذا خلطته عليهم .

كما حدثت عن المنجاب ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) يقول : لخلطنا عليهم ما يخلطون ؛ ومنه قول العجاج :

لَمَّا لَبِسْنَ الحَقَّ بِالتَّجَنِّى   غَنِيْنَ وَاسْتَبْدَلْنَ زَيْدًا مِنِّى

يعنى بقوله : لبسن : خلطن . وأما اللبس فإنه يقال منه لبسته ألبسه لبسا وملبسا ، وذلك فى الكسوة يكتسيها فيلبسها ، ومن اللبس قول الأخطل :

لَقَدْ لَبِسْتُ لِهَذَا الدَّهْرِ أَعْصُرَهُ   حَتَّى تَجَلَّلَ رَأْسِي الشَّيْبُ وَاشْتَعَلَا

ومن اللبس قول الله جل ثناؤه (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) .

إن قال لنا قائل : وكيف كانوا يلبسون الحق بالباطل وهم كفار ، وأىّ حقّ كانوا عليه مع كفرهم بالله؟ قيل: إنه كان فيهم منافقون منهم، يظهرون التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويستبطنون الكفر به، وكان أعظمهم يقولون محمد نبى مبعوث، إلا أنه مبعوث إلى غيرنا، فكان لبس المنافق منهم الحقّ بالباطل إظهاره الحقّ بلسانه وإقراره لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به جهارا ، وخلطه ذلك الظاهر من الحقّ بالباطل الذى يستبطنه . وكان لبس المقرّ منهم بأنه مبعوث إلى غيرهم، الجاحد أنه مبعوث إليهم، إقراره بأنه مبعوث إلى غيرهم وهو الحقّ ، وجحوده أنه مبعوث إليهم وهو الباطل . وقد بعثه الله إلى الخلق كافة . فذلك خلطهم الحق بالباطل ، ولبسهم إياه به .

كما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قوله (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) قال : لاتخلطوا الصدق بالكذب .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَلَا

تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطِلِ) يقول : لا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدّوا النصيحة لعباد الله ، فى أمر محمد عليه السلام .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال مجاهد (وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطِلِ) اليهودية والنصرانية بالإسلام .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطِلِ) قال الحقّ : التوراة الذى أنزل الله على موسى ، والباطل : الذى كتبوه بأيديهم

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وتَكْتُمُوا الحَقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

قال أبو جعفر : وفى قوله (وتَكْتُمُوا الحَقَّ) وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون الله جل ثناؤه نهاهم عن أن يكتموا الحقّ ، كما نهاهم أن يلبسوا الحقّ بالباطل ، فيكون تأويل ذلك حينئذ : ولا تلبسوا الحقّ بالباطل ، ولا تكتموا الحقّ . ويكون قوله (وتَكْتُمُوا) عند ذلك مجزوما بما جزم به تلبسوا عطفا عليه . والوجه الآخر منهما : أن يكون النهى من الله جل ثناؤه لهم عن أن يلبسوا الحق بالباطل . ويكون قوله (وتَكْتُمُوا الحَقَّ) خبرا منه عنهم بكتمانهم الحقّ الذى يعلمونه . فيكون قوله : وتكتموا حينئذ منصوبا ، لانصرافه عن معنى قوله (وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطِلِ) إذ كان قوله : (وَلا تَلْبِسُوا) نهيا ، وقوله (وتَكْتُمُوا الحَقَّ) خبرا معطوفا عليه ، غير جائز أن يعاد عليه ما عمل فى قوله (تَلْبِسُوا) من الحرف الجازم . وذلك هو المعنى الذى يسميه النحويون صرفا . ونظير ذلك فى المعنى والإعراب قول الشاعر :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأتِيَ مِثْلَهُ	عارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فنصب تأتى على التأويل الذى قلنا فى قوله (وتَكْتُمُوا) الآية ، لأنه لم يرد : لاتنه عن خلق ولا تأت مثله ، وإنما معناه : لاتنه عن خلق وأنت تأتى مثله ، فكان الأوّل نهيا ، والثانى خبرا ، فنصب الخبر إذ عطفه على غير شكله .

فأما الوجه الأول من هذين الوجهين اللذين ذكرنا أن الآية تحتملهما ، فهو على مذهب ابن عباس الذى حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قوله (وتَكْتُمُوا الحَقَّ) يقول : ولا تكتموا الحقّ ، وأنتم تعلمون .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وتَكْتُمُوا الحَقَّ) : أى ولا تكتموا الحق .

وأما الوجه الثانى منهما ، فهو على مذهب أبى العالية ومجاهد .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وتَكْتُمُوا الحقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ) قال : كتموا بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وحدثنا محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، نحوه .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، نحوه .

وأما تأويل الحقّ الذى كتموه وهم يعلمونه ، فهو ما حدثنا به ابن حميد، قال : حدثنا سلمة، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَتَكْتُمُوا الحَقَّ) يقول: لاتكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى، وما جاء به ، وأنتم تجدونه عندكم، فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم .

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَتَكْتُمُوا الحَقَّ) يقول : إنكم قد علمتم أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن ذلك .

وحدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمُونَ) قال : يكتم أهل الكتاب محمدا ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

وحدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثني موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ،عن السدى (وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) قال : الحقّ هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية (وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) قال : كتموا بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يجدونه مكتوبا عندهم .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : تكتمون محمدا وأنتم تعلمون ، وأنتم تجدونه عندكم فى التوراة والإنجيل .

فتأويل الآية إذاً: ولا تخلطوا على الناس أيها الأحبار من أهل الكتاب، فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوث إلى بعض أجناس الأمم دون بعض، أو تنافقوا فى أمره ، وقد علمتم أنه مبعوث إلى جميعكم ، وجميع الأمم غيركم ، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب ، وتكتموا به ماتجدونه فى كتابكم من نعته وصفته ، وأنه رسولى إلى الناس كافة ، وأنتم تعلمون أنه رسولى ، وأن ما جاء به إليكم فمن عندى ، وتعرفون أن من عهدى الذى أخذت عليكم فى كتابكم ، الإيمان به وبما جاء به والتصديق به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

قال أبو جعفر : ذكر أن أحبار اليهود والمنافقين، كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه ، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدّقين بمحمد ، وبما جاء به ، وإيتاء زكاة أموالهم معهم ، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا .

كما حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة في قوله (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) قال : فريضتان واجبتان ، فأدّوهما إلى الله . وقد بينا معنى إقامة الصلاة فيما مضى من كتابنا هذا ، فكرهنا إعادته .

أما إيتاء الزكاة : فهو أداء الصدقة المفروضة ؛ وأصل الزكاة : نماء المال وتثميره وزيادته . ومن ذلك قيل : زكا الزرع : إذا كثُر ما أخرج الله منه ؛ وزكت النفقة : إذا كثرت . وقيل زكا الفرد : إذا صار زوجا ، بزيادة الزائد عليه حتى صار به شفعا ، كما قال الشاعر :

كَانُوا خَساً أَوْ زَكاً مِنْ دُونِ أَرْبَعَةٍ لَمْ يَخْلَقُوا وَجُدُودُ النَّاسِ تَعْتَلِجُ [1]

وقال آخر :

فَلا خَسا عَدِيدُهُ وَلا زَكا كَمَا شِرَارُ البَقْلِ أَطْرَافُ السَّفَا

قال أبو جعفر : السفا : شوك البهمى ، والبهمى : الذى يكون مدوّرا فى السلّ ، يعنى بقوله : ولا زكا : لم يصيرهم شفعا من وتر بحدوثه فيهم .

وإنما قيل للزكاة زكاة ،وهى مال يخرج من مال، لتثمير الله بإخراجها مما أخرجت منه ،ما بقى عند ربّ المال من ماله . وقد يحتمل أن تكون سميت زكاة لأنها تطهير لما بقى من مال الرجل ، وتخليص له من أن تكون فيه مظلمة لأهل السهمان ، كما قال جل ثناؤه مخبرا عن نبيه موسى صلوات الله عليه (أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً) يعنى بريئة من الذنوب طاهرة ، وكما يقال للرجل : هو عدل زكيّ ، بذلك المعنى .

وهذا الوجه أعجبُ إلىّ فى تأويل زكاة المال من الوجه الأوّل ، وإن كان الأوّل مقبولا فى تأويلها ، وإيتاؤها : إعطاؤها أهلها .

وأما تأويل الركوع ، فهو الخضوع لله بالطاعة ، يقال منه : ركع فلان لكذا وكذا : إذا خضع له ، ومنه قول الشاعر :

بِيعَتْ بِكَسْرٍ لَئِيمٍ واسْتَغَاثَ بِهَا مِنَ الهُزَالِ أَبُوهَا بَعْدَ مَا رَكَعَا

يعنى : بعد ما خضع من شدّة الجهد والحاجة . وهذا أمر من الله جل ثناؤه لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والدخول مع المسلمين فى الإسلام ، والخضوع له بالطاعة ، ونهى منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد تظاهر حججه عليهم ، بما قد وصفنا قبل فيما مضى من كتابنا هذا ، وبعد الإعذار إليهم والإنذار ، وبعد تذكيرهم نعمه إليهم وإلى أسلافهم ، تعطفا منه بذلك عليهم ، وإبلاغا إليهم فى المعذرة .

(١) جاء فى اللسان : العرب تقول للزوج زكا وللفرد خسا . ويقال هو يخسى ويزكى أى يلعب ، فيقول : أزوج أم فرد؟ وتقول خاسيت فلانا ، إذا لاعبته بالجوز ، فردا أو زوجا . والبيت أنشدته الدبيرية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى معنى البرّ الذى كان المخاطبون بهذه الآية يأمرون الناس به ، وينسون أنفسهم ، بعد إجماع جميعهم على أن كل طاعة لله فهى تسمى برًّا .

فروى عن ابن عباس ما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُونَ) أى تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوّة والعهد من التوراة ، وتتركون أنفسكم ؟ أى وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى ، وتنقضون ميثاقى ، وتجحدون ما تعلمون من كتابى ؟

وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ) يقول : أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة (وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) .

وقال آخرون بما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنى عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) قال : كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه ، وهم يعصونه .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبرّ ، ويخالفون ، فعيّرهم الله .

وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا الحجاج ، قال : قال ابن جريج (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ) : أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس ، فعيرهم الله بذلك ، فمن أمر بخير فليكن أشدّ الناس فيه مسارعة .

وقال آخرون بما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شىء ، أمروه بالحقّ ، فقال الله لهم (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُونَ) .

وحدثنى علىّ بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم الحرمى ، قال : حدثنا مخلد بن الحسين ، عن أيوب السختيانى ، عن أبى قلابة فى قول الله (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ) قال : قال أبو الدرداء : لايفقه الرجل كل الفقه ، حتى يمقت الناس فى ذات الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدّ مقتا .

قال أبو جعفر : وجميع الذى قال فى تأويل هذه الآية من ذكرنا قوله متقارب المعنى ، لأنهم وإن اختلفوا فى صفة البرّ الذى كان القوم يأمرون به غيرهم الذين وصفهم الله بما وصفهم به ، فهم متفقون فى أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أو العمل ، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم .

فالتأويل الذى يدلّ على صحته ظاهر التلاوة إذًا : أتأمرون الناس بطاعة الله ، وتتركون أنفسكم تعصيه ؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم؟ معيرهم بذلك ومقبحا إليهم ما أتوا به ، ومعنى نسيانهم أنفسهم فى هذا الموضع نظير النسيان الذى قال جل ثناؤه (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) بمعنى : تركوا طاعة الله ، فتركهم الله من ثوابه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (تَتْلُونَ) : تدرسون وتقرءون .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك عن ابن عباس (وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ) يقول : تدرسون الكتاب بذلك ، ويعنى بالكتاب : التوراة .

القول فى تأويل قول تعالى (أفَلَا تَعْقِلُونَ)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (أفَلَا تَعْقِلُونَ) : أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم ، التى تأمرون الناس بخلافها ، وتنهونهم عن ركوبها ؟ وأنتم راكبوها وأنتم تعلمون أن الذى عليكم من حقّ الله وطاعته ، فى اتباع محمد والإيمان به وبما جاء به ، مثل الذى على من تأمرونه باتباعه ؟

كما حدثنا به محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق عن الضحاك ، عن ابن عباس (أفَلَا تَعْقِلُونَ) يقول : أفلا تفهمون ؟ فنهاهم عن هذا الخلق القبيح ، وهذا يدل على صحة ما قلنا من أمر أحبار يهود بنى إسرائيل غيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يقولون : هو مبعوث إلى غيرنا ، كما ذكرنا قبل .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ) : استعينوا على الوفاء بعهدى ، الذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتباع أمرى ، وترك ما تهوونه من الرياسة وحبّ الدنيا ، إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى ، واتباع رسولى محمد صلى الله عليه وسلم ، بالصبر عليه والصلاة .

وقد قيل : إن معنى الصبر فى هذا الموضع : الصوم ، والصوم بعض معانى الصبر عندنا ، بل تأويل ذلك عندنا أن الله تعالى ذكره أمرهم بالصبر على ما كرهته نفوسهم من طاعة الله ، وترك معاصيه ؛ وأصل الصبر : منع النفس محابها وكفها عن هواها ؛ ولذلك قيل للصابر على المصيبة صابر ، لكفه نفسه عن

الجزع ؛ وقيل لشهر رمضان : شهر الصبر ، لصبر صائمه عن المطاعم والمشارب نهارا ، وصبره إياهم عن ذلك : حبسه لهم ، وكفه إياهم عنه ، كما يصبر الرجل المسيء للقتل ، فتحبسه عليه حتى يقتله . ولذلك قيل : قتل فلا ن فلانا صبرا ، يعنى به حبسه عليه حتى قتله . فالمقتول مصبور ، والقاتل صابر . وأما الصلاة فقد ذكرنا معناها فيما مضى .

فإن قال لنا قائل : قد علمنا معنى الأمر بالاستعانة بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة ، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله ، وترك معاصيه ، والتعرّى عن الرياسة ، وترك الدنيا ؟ قيل : إن الصلاة فيها تلاوة كتاب الله ، الداعية آياته إلى رفض الدنيا ، وهجر نعيمها ، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها ، المذكرة الآخرة ، وما أعدّ الله فيها لأهلها ، ففى الاعتبار بها المعونة لأهل طاعة الله على الجدّ فيها ، كما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

حدثنى بذلك إسمعيل بن موسى الفزارى ، قال : حدثنا الحسين بن رتاق الهمدانى ، عن ابن جريج ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبيد بن أبى قدامة ، عن عبد العزيز بن اليمان ، عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

وحدثنى سليمان بن عبد الجبار ، قال : حدثنا خلف بن الوليد الأزدى ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد الله الدولى ، قال : قال عبد العزيز أخو حذيفة ، قال حذيفة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمرٌ صلى . وكذلك روى عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه رأى أبا هريرة منبطحا على بطنه ، فقال له : اشكنب درد [١] ؟ قال : نعم ، قال : قُمْ فَصَلِّ ، فإنَّ فى الصَّلاةِ شِفاءً . فأمر الله جل ثناؤه الذين وصف أمرهم من أحبار بنى إسرائيل ، أن يجعلوا مفزعهم فى الوفاء بعهد الله الذى عاهدوه ، إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، كما أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له (فَاصْبِرْ) يا محمد (على ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) فأمره جل ثناؤه فى نوائبه بالفزع إلى الصبر والصلاة .

وقد حدثنا محمد بن العلاء ، ويعقوب بن إبراهيم قالا : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، : أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو فى سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق ، فأناخ فصلى ركعتين ، أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ على الخاشِعِينَ) .

وأما أبو العالية فإنه كان يقول ، بما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ) قال يقول : استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله ، واعلموا أنهما من طاعة الله .

---

(١) يعنى : أتشكى بطنك ؟ بالفارسية .

وقال ابن جريج بما حدثنا به القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، قال : : قال ابن جريج في قوله (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ) قال : إنهما معونتان على رحمة الله .

وحدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ) الآية ، قال : قال المشركون : والله يا محمد إنك لتدعونا إلى أمر كبير ، قال : إلى الصلاة والإيمان بالله .

القول في تأويل قوله تعالى ذكره (وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ على الخاشِعِينَ)

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه (وإنَّها) وإن الصلاة ، فالهاء والألف في وإنها عائدتان على الصلاة . وقد قال بعضهم : إن قوله (وإنَّها) بمعنى إن إجابة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يجر لذلك بلفظ الإجابة ذكر ، فتجعل الهاء والألف كناية عنه ، وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لادلالة على صحته ، ويعني بقوله (لَكَبِيرَةٌ) : لشديدة ثقيلة .

كما حدثني يحيى بن أبي طالب ، قال : أخبرنا ابن زيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك في قوله (وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ على الخاشِعِينَ) قال : إنها لثقيلة ، ويعني بقوله (إلاَّ على الخاشِعِينَ) : إلا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطواته ، المصدّقين بوعده ووعيده .

كما حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عن عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (إلاَّ على الخاشِعِينَ) يعني المصدّقين بما أنزل الله .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا آدم العسقلاني ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله (إلاَّ على الخاشِعِينَ) قال : يعني الخائفين .

وحدثني محمد بن جعفر ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال: حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن مجاهد (إلاَّ على الخاشِعِينَ) قال : المؤمنين حقا .

وحدثني المثنى قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الخشوع : الخوف والخشية لله ، وقرأ قول الله (خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ) قال : قد أذلهم الخوف الذى نزل بهم ، وخشعوا له .

وأصل الخشوع : التواضع والتذلل والاستكانة ، ومنه قول الشاعر :

لَمَّا أتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ		سُورُ المَدِينَةِ وَالجِبالُ الخُشَّعُ

يعني : والجبال خشع متذللة لعظم المصيبة بفقده .

فمعنى الآية : واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وكفها عن معاصي الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقرّبة من مراضي الله ، العظيمة إقامتها ، إلا على المتواضعين لله ، المستكينين لطاعته ، المتذللين من مخافته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (٤٦) ﴾

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظنّ أنه ملاقيه ، والظنّ : شكّ ، والشاكّ فى لقاء الله عندك بالله كافر ؟ قيل له : إن العرب قد تسمى اليقين ظنا ، والشك ظنا ، نظير تسميتهم الظلمة سدفة ، والضياء سدفة ، والمغيث صارخا ، والمستغيث صارخا ، وما أشبه ذلك من الأسماء التى تسمى بها الشىء وضده . ومما يدل على أنه يسمى به اليقين ، قول دريد بن الصمة :

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَىْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ فِى الفَارِسِىِّ المُسَرَّدِ

يعنى بذلك تيقنوا ألفى مدجج تأتيكم . وقول عميرة بن طارق :

بِأَنْ يَعْتَزُوا[1] قَوْمِى وأَقْعُدُ فِيكُمُ وأَجْعَلَ مِنِّى الظَّنَّ غَيْبًا مُرَجَّمَا

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجما . والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظنّ فى معنى اليقين أكثر من أن تحصى . وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية .

ومنه قول الله جل ثناؤه (ورأى المُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) وبمثل الذى قلنا فى ذلك جاء تفسير المفسرين .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) قال : إن الظنّ ههنا يقين .

وحدثنا محمد بن بشار : قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن مجاهد ، قال : كل ظنّ فى القرآن يقين ، إنى ظننت وظنوا .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا أبو داود الحفرى ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : كل ظنّ فى القرآن فهو علم .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) أما يظنون فيستيقنون .

وحدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) علموا أنهم ملاقو ربهم ، هى كقوله (إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) يقول علمت .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) قال : لأنهم لم يعاينوا ، فكان ظنهم يقينا ، وليس ظنا فى شك ، وقرأ (إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) .

---

(١) اعتزى وتعزى : انتسب صدقا كان أو كذبا . وفى الحديث : من لم يتعز بعزاء الله فليس منا . أى من لم يدع بدعوى الإسلام ، فيقول : يالله أو يا للإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى (أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ)

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وكيف قيل إنهم ملاقو ربهم ، فأضيف الملاقون إلى الربّ جل ثناؤه ، وقد علمت أن معناه : الذين يظنون أنهم يلقون ربهم ؟ وإذا كان المعنى كذلك ، فمن كلام العرب ترك الإضافة ، وإثبات النون ، وإنما تسقط النون ، وتضيف فى الأسماء المبنية من الأفعال إذا كانت بمعنى فَعَلَ ، فأما إذا كانت بمعنى يَفعَل ، وفاعل ، فشأنها إثبات النون ، وترك الإضافة ؟ قيل : لاتدافع بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب وألسنها ، فى إجازة إضافة الاسم المبنى من فعل ويفعل ، وإسقاط النون وهو بمعنى يفعل وفاعل ، أعنى بمعنى الاستقبال ، وحال الفعل ولما ينقض ، فلا وجه لمسئلة السائل عن ذلك لم قيل .

وإنما اختلف أهل العربية فى السبب الذى من أجله أضيف وأسقطت النون .

فقال نحويو البصرة : أسقطت النون من (مُلاقو رَبِّهِمْ) وما أشبهه من الأفعال التى فى لفظ الأسماء وهى فى معنى يفعل ، وفى معنى مالم ينقض ، استثقالا لها ، وهى مرادة ، كما قال جل ثناؤه (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ) وكما قال (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ) ولما يرسلها بعد ، وكما قال الشاعر :

هَلْ أَنْتَ باعِثُ دِينارٍ لِحاجَتِنا　　أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخا عَوْنِ بْنِ مِخْرَاقِ

فأضاف باعثا إلى الدينار ، ولما يبعث ، ونصب عبد ربّ عطفا على موضع دينار ، لأنه فى موضع نصب وإن خفض ، وكما قال الآخر :

الحافِظُو عَوْرَةَ العَشِيرَةِ لا　　يَأْتِيهِمُ مِنْ وَرائِهِمْ نَطَفُ

بنصب العورة وخفضها ، فالخفض على الإضافة ، والنصب على حذف النون استثقالا ، وهى مرادة . وهذا قول نحويى البصرة .

وأما نحويو الكوفة فإنهم قالوا : جائز فى (مُلاقُو) الإضافة ، وهو فى معنى يلقون ، وإسقاط النون منه ، لأنه فى لفظ الأسماء ، فله فى الإضافة إلى الأسماء حظّ الأسماء ، وكذلك حكم كل اسم له كان نظيرا . قالوا : وإذا أثبت فى شىء من ذلك النون وتركت الإضافة ، فإنما تفعل ذلك به ، لأن له معنى يفعل الذى لم يكن ولم يجب بعد . قالوا : فالإضافة فيه للفظ ، وترك الإضافة للمعنى .

فتأويل الآية إذًا : واستعينوا على الوفاء بعهدى بالصبر عليه والصلاة ، وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخائفين عقابى ، المتواضعين لأمرى ، الموقنين بلقائى ، والرجوع إلىّ بعد مماتهم .

وإنما أخبر الله جل ثناؤه أن الصلاة كبيرة إلا على من هذه صفته ، لأن من كان غير موقن بمعاد ، ولا مصدّق بمرجع ، ولا ثواب ولا عقاب ، فالصلاة عنده عناء وضلال ، لأنه لايرجو بإقامتها إدراك نفع ، ولا دفع ضرّ ، وحقّ لمن كانت هذه الصفة صفته ، أن تكون الصلاة عليه كبيرة ، وإقامتها عليه ثقيلة ، وله فادحة .

وإنما خفّت على المؤمنين المصدّقين بلقاء الله ، الراجين عليها جزيل ثوابه ، الخائفين بتضييعها أليم عقابه ، لما يرجون بإقامتها فى معادهم من الوصول إلى ما وعد الله عليها أهلها ، ولما يحذرون بتضييعها

ما أوعد مضيعها ، فأمر الله جلّ ثناؤه أحبار بنى إسرائيل الذين خاطبهم بهذه الآيات ، أن يكونوا من مقيميها ، الراجين ثوابها ، إذا كانوا أهل يقين بأنهم إلى الله راجعون وإياه فى القيامة ملاقون .

القول فى تأويل قوله تعالى (وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

قال أبو جعفر : والهاء والميم اللتان فى قوله (وأَنَّهُمْ) من ذكر الخاشعين . والهاء فى إليه من ذكر الربّ تعالى ذكره فى قوله (مُلاقُو رَبِّهِمْ) فتأويل الكلمة : وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الموقنين أنهم إلى ربهم راجعون .

ثم اختلف فى تأويل الرجوع الذى فى قوله (وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

فقال بعضهم بما حدثنى به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) قال : يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة .

وقال آخرون : معنى ذلك أنهم إليه يرجعون بموتهم .

وأولى التأويلين بالآية القول الذى قاله أبو العالية ؛ لأن الله تعالى ذكره ، قال فى الآية التى قبلها (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[1] فأخبر جل ثناؤه ، أن مرجعهم إليه بعد نشرهم ، وإحيائهم من مماتهم ، وذلك لاشكّ يوم القيامة . فكذلك تأويل قوله (وأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك فى هذه الآية ، نظير تأويله فى التى قبلها فى قوله (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَوْفُوا بِعَهْدِى) وقد ذكرته هنالك .

القول فى تأويل قوله (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ على العَالَمِينَ)

قال أبو جعفر : وهذا أيضا مما ذكرهم جل ثناؤه ، من آلائه ونعمه عندهم ، ويعنى بقوله (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ على العَالَمِينَ) أنى فضلت أسلافكم . فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم ، إلى أنها نعم منه عليهم ، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء ، والنعم عند الآباء نعما عند الأبناء ، لكون الأبناء من الآباء .

وأخرج جلّ ذكره قوله (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ على العَالَمِينَ) مخرج العموم ، وهو يريد به خصوصا ، لأن المعنى : وأنى فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفى زمانه ، كالذى حدثنا به محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ) قال : فضلهم على عالم ذلك الزمان .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ) قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب، على عالم من كان فى ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالما .

(١) هى الآية ٢٨ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها ص ١٨٦ .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد فى قوله (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ) قال : على من هم بين ظهرانيه .

وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : على من هم بين ظهرانيه .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت ابن زيد عن قول الله (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ) قال : عالم أهل ذلك الزمان ، وقرأ قول الله (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ) قال : هذه لمن أطاعه واتبع أمره ، وقد كان فيهم القردة وهم أبغض خلقه إليه ، وقال لهذه الأمة (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال : هذه لمن أطاع الله واتبع أمره واجتنب محارمه .

قال أبو جعفر : والدليل على صحة ما قلنا ، من أن تأويل ذلك على الخصوص الذى وصفنا ، ما حدثنى به يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر جميعا ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا إنَّكُمْ وَفَيْتُمْ سَبْعِينَ أُمَّةً . قال يعقوب فى حديثه : أنْتُمْ آخِرُهَا . وقال الحسن : أنْتُمْ خَيْرُهَا وأكْرَمُهَا عَلَى اللهِ . فقد أنبأ هذا الخبر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أن بنى إسرائيل لم يكونوا مفضلين على أمة محمد عليه السلام ، وأن معنى قوله (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ) وقوله (وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ) على ما بينا من تأويله ، وقد أتينا على بيان تأويل قوله (العَالَمِينَ) بما فيه الكفاية فى غير هذا الموضع ، فأغنى ذلك عن إعادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله (وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) : واتقوا يوما لاتجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، وجائز أيضا أن يكون تأويله : واتقوا يوما لاتجزيه نفس عن نفس شيئا ، كما قال الراجز :

قَدْ صَبَّحَتْ صَبَّحَهَا السَّلَامُ		بِكَبِدٍ خَالَطَهَا سَنَامُ
فِى سَاعَةٍ يُحَبُّهَا الطَّعَامُ

وهو يعنى : يحبّ فيها الطعام ، فحذفت الهاء الراجعة على اليوم ، إذ فيه اجتزاء بما ظهر من قوله (وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ) الدالّ على المحذوف منه عما حذف ، إذ كان معلوما معناه .

وقد زعم قوم من أهل العربية ، أنه لايجوز أن يكون المحذوف فى هذا الموضع إلا الهاء .

وقال آخرون : لايجوز أن يكون المحذوف إلا فيه . وقد دللنا فيما مضى على جواز حذف كل مادل الظاهر عليه .

وأما المعنى فى قوله (وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) فإنه تحذير من الله تعالى ذكره، عباده الذين خاطبهم بهذه الآية عقوبته أن تحل بهم يوم القيامة ، وهو اليوم الذى لاتجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، ولا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا .

وأما تأويل قوله (لا تَجْزِى نَفْسٌ) فإنه يعنى : لاتغنى . كما حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (وَاتَّقُوا يَوْما لاَ تَجْزِى نَفْسٌ) أما تجزى : فتغنى ؛ وأصل الجزاء فى كلام العرب : القضاء والتعويض ، يقال : جزيته قرضه ودينه أجزيه جزاء ، بمعنى : قضيته دينه ، ومن ذلك قيل : جزى الله فلانا عنى خيرا أو شرًا ، بمعنى : أثابه عنى وقضاه عنى ، ما لزمنى له بفعله الذى سلف منه إلىّ . وقد قال قوم من أهل العلم بلغة العرب . يقال : أجزيت عنه كذا : إذا أعنته عليه ، وجزيت عنك فلانا : إذا كافأته . وقال آخرون منهم : بل جزيت عنك : قضيت عنك ، وأجزيت : كفيت . وقال آخرون منهم : بل هما بمعنى واحد ، يقال : جزت عنك شاة وأجزت ، وجزى عنك درهم وأجزى ، ولا تُجزى عنك شاة ولا تَجزى بمعنى واحد ، إلا أنهم ذكروا أن جزت عنك ولا تجزى عنك من لغة أهل الحجاز ، وأن أجزأ وتجزئ من لغة غيرهم . وزعموا أن تميما خاصة من بين قبائل العرب ، تقول : أجزأت عنك شاة ، وهى تجزئ عنك . وزعم آخرون أن جزى بلا همز : قضى ، وأجزأ بالهمز : كافأ ، فمعنى الكلام إذًا : واتقوا يوما لاتقضى نفس عن نفس شيئا ولا تغنى عنها غنى .

فإن قال لنا قائل : وما معنى : لاتقضى نفس عن نفس ، ولا تغنى عنها غنى ؟ قيل : هو أن أحدنا اليوم ربما قضى عن ولده أو والده أو ذى الصداقة والقرابة دينه ؛ وأما فى الآخرة فإنه فيما أتتنا به الأخبار عنها ، يسرّ الرجل أن يبرد له على ولده أو والده حقّ ، وذلك أن قضاء الحقوق فى القيامة من الحسنات والسيئات .

كما حدثنا أبو كريب ، ونصر بن عبد الرحمن الأودى ، قال : حدثنا المحاربى ، عن أبى خالد الدولابى يزيد بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أبى أنيسة ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَحِمَ اللهُ عَبْداً كَانَتْ عِنْدَهُ لأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِى عِرْضٍ - قال أبو بكر فى حديثه : أَوْ مالٍ أَوْ جاه - فاسْتَحَلَّهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ وَلَيْسَ ثَمَّ دِينارٌ وَلا دِرْهَمٌ ، فإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذُوا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ حَمَلُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ » .

حدثنا أبو عثمان المقدمى ، قال : حدثنا القروى ، قال : حدثنا مالك ، عن المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنا خلاد بن أسلم ، قال : حدثنا أبو همام الأهوازى ، قال : أخبرنا عبد الله بن سعيد ، عن سعيد ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

حدثنى موسى بن سهل الرملى ، قال : حدثنا نعيم بن حماد ، قال : حدثنا عبد العزيز الدراوردى ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُمْ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، فَإنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ دِينارٌ وَلا دِرْهَمٌ ، إنَّمَا يَقْتَسِمُونَ هُنَالِكَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ . وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يمينا وشمالا .

حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنا سالم بن قادم ، قال : حدثنا أبو معاوية هاشم بن عيسى ، قال : أخبرنى الحرث بن مسلم ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحو حديث أبى هريرة .

قال أبو جعفر : فذلك معنى قوله جل ثناؤه (لاَتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) يعنى أنها لاتقضى عنها شيئا لزمها لغيرها ، لأن القضاء هنالك من الحسنات والسيئات على ما وصفنا . وكيف يقضى عن غيره ما لزمه ، من كان يسرّه أن يثبت له على ولده أو والده حقّ ، فيأخذه منه ولا يتجافى له عنه ؟؟

وقد زعم بعض نحويى البصرة أن معنى قوله (لاَتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) : لاتجزى منها أن تكون مكانها . وهذا قول يشهد ظاهر القرآن على فساده ، وذلك أنه غير معقول فى كلام العرب ، أن يقول القائل : ما أغنيت عنى شيئا ، بمعنى : ما أغنيت منى أن تكون مكانى ، بل إذا أرادوا الخبر عن شىء أنه لايجزى من شىء ، قالوا : لايجزى هذا من هذا ، ولا يستجيزون أن يقولوا : لايجزى هذا من هذا شيئا . فلو كان تأويل قوله (لاَتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) ما قاله من حكينا قوله لقال (وَاتَّقُوا يَوْماً لاَتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ) كما يقال : لاتجزى نفس من نفس، ولم يقل لاتجزى نفس عن نفس شيئا . وفى صحة التنزيل بقوله (لاَتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا) أوضح الدلالة على صحة ما قلنا ، وفساد قول من ذكرنا قوله فى ذلك .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (وَلا تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) .

قال أبو جعفر : والشفاعة مصدر من قول الرجل : شفع لى فلان إلى فلان شفاعة ، وهو طلبه إليه فى قضاء حاجته ، وإنما قيل للشفيع شفيع وشافع ، لأنه ثنى المستشفع له ، فصار له شفعا ، فكان ذو الحاجة قبل استشفاعه به فى حاجته فردا ، فصار صاحبه له فيها شافعا ، وطلبه فيه وفى حاجته شفاعة ؛ ولذلك سمى الشفيع فى الدار وفى الأرض ، شفيعا لمصير البائع به شفعا .

فتأويل الآية إذاً : واتقوا يوما لاتقضى نفس عن نفس حقا ، لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره ، ولا يقبل الله منها شفاعة شافع ، فيترك لها ما لزمها من حق ؛ وقيل : إن الله عزّ وجلّ خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها ، لأنهم كانوا من يهود بنى إسرائيل ، وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه ، وسيشفع لنا عنده آباؤنا ، فأخبرهم الله جل وعزّ ، أن نفسا لاتجزى عن نفس شيئا فى القيامة ، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها ، حتى يستوفى لكل ذى حقّ منها حقه .

كما حدثنى عباس بن أبى طالب ، قال : حدثنا حجاج بن نصير ، عن شعبة ، عن العوام بن مزاحم

رجل من قيس بن ثعلبة ، عن أبي عثمان النهدى ، عن عثمان بن عفان ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ الجَمَّاءَ لتَقْتَصُّ مِنَ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيامَةِ ، كما قال الله عزَّ وجلَّ (وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) الآية ... فآيسهم الله جل ذكره مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم ، من النجاة من عذاب الله مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق ، وخلافهم أمر الله فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاءهم به من عنده ، بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم ، وأخبرهم أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم ، والإنابة من ضلالهم ، وجعل ما سنَّ فيهم من ذلك إماما لكل من كان على مثل منهاجهم ، لئلا يطمع ذو إلحاد فى رحمة الله .

وهذه الآية وإن كان مخرجها عاما فى التلاوة ، فإن المراد بها خاص فى التأويل ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : شَفَاعَتِى لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِى . وأنه قال : لَيْسَ مِنْ نَبِىٍّ إلاَّ وَقَدْ أُعْطِىَ دَعْوَةً ، وَإِنِّى خَبَأْتُ دَعْوَتِى شَفَاعَةً لِأُمَّتِى ، وَهِىَ نَائِلَةٌ إِنْ شاء اللهُ مِنْهُمْ مَنْ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً . فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين ، بشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لهم ، عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم ، وأن قوله (وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) إنما هى لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عزَّ وجلَّ ، وليس هذا من مواضع الإطالة فى القول فى الشفاعة والوعد والوعيد ، فنستقصى الحجاج فى ذلك ، وسنأتى على ما فيه الكفاية فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ)

قال أبو جعفر : والعدل فى كلام العرب بفتح العين : الفدية .

كما حدثنا به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) قال : يعنى فداء .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى (وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) أما عدل فيعدلها من العدل ، يقول : لو جاءت بملء الأرض ذهبا تفتدى به ، ما تُقُبِّل منها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) قال : لو جاءت بكل شىء لم يقبل منها .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا حسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد : قال ابن عباس (وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) قال : بدل ، والبدل : الفدية .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) قال : لو أن لها ملء الأرض ذهبا لم يقبل منها فداء . قال : ولو جاءت بكل شىء لم يقبل منها .

وحدثنى نجيح بن إبراهيم ، قال : حدثنا علىُّ بن حكيم ، قال : حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ،

عن عمرو بن قيس الملائى ، عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء ، قال : قيل يا رسول الله ما العدل ؟ قال : العَدْلُ : الفِدْيَةُ . وإنما قيل للفدية من الشىء والبدل منه عدل ، لمعادلته إياه ، وهو من غير جنسه ومصيره له مثلا من وجه الجزاء ، لامن وجه المشابهة فى الصورة والخلقة ، كما قال جل ثناؤه (وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لايُؤْخَذْ مِنْهَا) بمعنى : وإن تفد كل فدية لايؤخذ منها ، يقال : منه : هذا عدله وعديله . وأما العِدل بكسر العين ، فهو مثل الحمل المحمول على الظهر ؛ يقال من ذلك : عندى غلام عِدل غلامك ، وشاة عدل شاتك ، بكسر العين ، إذا كان غلام يعدل غلاما ، وشاة تعدل شاة ، وكذلك ذلك فى كل مثل للشىء من جنسه . فإذا أريد أن عنده قيمته من غير جنسه نصبت العين ، فقيل : عندى عدل شاتك من الدراهم . وقد ذكر عن بعض العرب ، أنه يكسر العين من العدل الذى هو بمعنى الفدية ، لمعادلة ماعادله من جهة الجزاء ، وذلك لتقارب معنى العَدل والعِدل عندهم ، فأما واحد الأعدال فلم يسمع فيه إلا عِدل بكسر العين .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)

وتأويل قوله (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) يعنى أنهم يومئذ لاينصرهم ناصر ، كما لايشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ؛ بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر ، وصار الحكم إلى العدل الجبار ، الذى لاينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها ، وذلك نظير قوله جل ثناؤه (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لاتَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) .

وكان ابن عباس يقول فى معنى (لاتَنَاصَرُونَ) ما حدثت به عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (ما لَكُمْ لاتَنَاصَرُونَ) ما لكم لاتمانعون منا ، هيهات ليس ذلك لكم اليوم !

وقد قال بعضهم فى معنى قوله (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) وليس لهم من الله يومئذ نصير ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم . وقد قيل : ولا هم ينصرون بالطلب فيهم والشفاعة والفدية .

قال أبو جعفر : والقول الأول أولى بتأويل الآية ، لما وصفنا من أن الله جل ثناؤه إنما أعلم المخاطبين بهذه الآية ، أن يوم القيامة يوم لا فدية لمن استحق من خلقه عقوبته ، ولا شفاعة فيه ، ولا ناصر له ، وذلك أن ذلك قد كان لهم فى الدنيا ، فأخبر أن ذلك يوم القيامة معدوم لاسبيل لهم إليه .

القول فى تأويل قوله :

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

أما تأويل قوله (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ) فإنه عطف على قوله (يا بَنِى إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ)

فكأنه قال : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، واذكروا إنعامنا عليكم ،إذ نجيناكم من آل فرعون بإنجائنا لكم منهم .

وأما آل فرعون فإنهم أهل دينه وقومه وأشياعه ؛ وأصل آل :أهل ، أبدلت الهاء همزة ، كما قالوا ماه ، فأبدلوا الهاء همزة ، فإذا صغروه قالوا مويه ، فردّوا الهاء فى التصغير ، وأخرجوه على أصله ، وكذلك إذا صغروا آل ، قالوا : أهيل . وقد حكى سماعا من العرب فى تصغير آل : أويل ، وقد يقال : فلان من آل النساء ، يراد به أنه منهن خلق ، ويقال ذلك أيضا بمعنى أنه يريدهنّ ويهواهن ، كما قال الشاعر :

فإنَّكَ مِنْ آلِ النِّساءِ وَإِنَّمَا يَكُنَّ لأَدْنَى لاوِصَالَ لِغَائِبِ

وأحسن أماكن آل ، أن ينطق به مع الأسماء المشهورة ، مثل قولهم : آل النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل علىّ ، وآل عباس ، وآل عقيل ، وغير مستحسن استعماله مع المجهول ، وفى أسماء الأرضين وما أشبه ذلك ، غير حسن عند أهل العلم بلسان العرب أن يقال : رأيت آل الرجل ، ورآنى آل المرأة ، ولا رأيت آل البصرة ، وآل الكوفة . وقد ذكر عن بعض العرب سماعا أنها تقول : رأيت آل مكة وآل المدينة ، وليس ذلك فى كلامهم بالمستعمل الفاشى . وأما فرعون فإنه يقال : إنه اسم كانت ملوك العمالقة بمصر تسمى به ، كما كانت ملوك الروم يسمى بعضهم قيصر ، وبعضهم هرقل ، وكما كانت ملوك فارس تسمى الأكاسرة واحدهم كسرى ، وملوك اليمن تسمى التبابعة واحدهم تبع ، وأما فرعون موسى الذى أخبر الله تعالى عن بنى إسرائيل أنه نجاهم منه فإنه يقال : إن اسمه الوليد بن مصعب بن الريان ، وكذلك ذكر محمد بن إسحق أنه بلغه عن اسمه .

حدثنا بذلك محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق : أن اسمه الوليد بن مصعب بن الريان ، وإنما جاز أن يقال (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) والخطاب به لمن لم يدرك فرعون ولا المنجين منه ، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناء من نجاهم من فرعون وقومه ، فأضاف ما كان من نعمه على آبائهم إليهم ، وكذلك ما كان من كفران آبائهم على وجه الإضافة ، كما يقول القائل لآخر : فعلنا بكم كذا ، وفعلنا بكم كذا ، وقتلناكم وسبيناكم ، والمخبر إما أن يكون يعنى قومه وعشيرته بذلك أو أهل بلده ووطنه ، كان المقول له ذلك أدرك ما فعل بهم من ذلك أو لم يدركه ، كما قال الأخطل يهاجى جرير بن عطية :

وَلَقَدْ سَمَا لَكُمُ الهُذَيْلُ فنالَكُمْ بإِرَابَ حَيْثُ يُقَسِّمُ الأَنْفالا
فى فَيْلَقٍ يَدْعو الأَراقِمَ لَمْ تكُنْ فُرْسانُهُ عُـزْلاً وَلا أكْفالا

ولم يلق جرير هذيلا ولا أدركه ، ولا أدرك إراب ولا شهده ، ولكنه لما كان يوما من أيام قوم الأخطل على قوم جرير ، أضاف الخطاب إليه وإلى قومه ، فكذلك خطاب الله عزّ وجلّ من خاطبه بقوله (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) لما كان فعله ما فعل من ذلك بقوم من خاطبه بالآية وآبائهم ، أضاف فعله ذلك الذى فعله بآبائهم ، إلى المخاطبين بالآية وقومهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ)

وفى قوله (يَسُومُونَكُمْ) وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون خبرا مستأنفا عن فعل فرعون ببنى إسرائيل ، فيكون معناه حينئذ : واذكروا نعمتى عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون ، وكانوا من قبل يسومونكم سوء العذاب ، وإذا كان ذلك تأويله كان موضع يسومونكم رفعا . والوجه الثانى أن يكون يسومونكم حالا ، فيكون تأويله حينئذ : وإذ نجيناكم من آل فرعون سائميكم سوء العذاب ، فيكون حالا من آل فرعون .

وأما تأويل قوله (يَسُومُونَكُمْ) فإنه يوردونكم ، ويذيقونكم ، ويولونكم ، يقال منه : سامه خطة ضيم : إذا أولاه ذلك وأذاقه ، كما قال الشاعر :

إنْ سِيمَ خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا

فأما تأويل قوله (سُوءَ العَذَابِ) فإنه يعنى : ما ساءهم من العذاب . وقد قال بعضهم : أشدّ العذاب ، ولو كان ذلك معناه لقيل : أسوأ العذاب .

فإن قال لنا قائل : وما ذلك العذاب الذى كانوا يسومونهم الذى كان يسوءهم ؟ قيل : هو ما وصفه الله تعالى فى كتابه فقال (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) .

وقد قال محمد بن إسحق فى ذلك ما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : أخبرنا ابن إسحق ، قال : كان فرعون يعذّب بنى إسرائيل ، فيجعلهم خدما وخوَلا ، وصنفهم فى أعماله ، فصنف يبنون ، وصنف يزرعون له ، فهم فى أعماله ، ومن لم يكن منهم فى صنعة من عمله فعليه الجزية ، فسامهم كما قال الله عزّ وجل (سُوءَ العَذَابِ) .

وقال السدى : جعلهم فى الأعمال القذرة ، وجعل يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، حدثنى بذلك موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى .

القول فى تأويل قوله تعالى (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ)

قال أبو جعفر : وأضاف الله جل ثناؤه ما كان من فعل آل فرعون ببنى إسرائيل ، من سومهم إياهم سوء العذاب ، وذبحهم أبناءهم ، واستحيائهم نساءهم ، إليهم دون فرعون ، وإن كان فعلهم مافعلوا من ذلك كان بقوّة فرعون وعن أمره ، لمباشرتهم ذلك بأنفسهم ، فبين بذلك أن كل مباشر قتل نفس أو تعذيب حىّ بنفسه ، وإن كان عن أمر غيره ، ففاعله المتولى ذلك هو المستحق إضافة ذلك إليه ، وإن كان الآمر قاهرا الفاعل المأمور بذلك ، سلطانا كان الآمر أو لصا خاربا أو متغلبا فاجرا ، كما أضاف جل ثناؤه ذبح أبناء بنى إسرائيل واستحياء نسائهم إلى آل فرعون دون فرعون ، وإن كانوا بقوّة فرعون وأمره إياهم بذلك فعلوا مافعلوا ، مع غلبته إياهم وقهره لهم ، فكذلك كل قاتل نفسا بأمر غيره ظلما ، فهو المقتول عندنا به قصاصا ، وإن كان قتله إياه بإكراه غيره له على قتله .

وأما تأويل ذبح أبناء بنى إسرائيل ، واستحيائهم نساءهم ، فإنه كان فيما ذكر لنا عن ابن عباس وغيره ، كالذى حدثنا به العباس بن الوليد الآملى وتميم بن المنتصر الواسطى ، قالا : حدثنا يزيد بن هرون ، قال :

أخبرنا الأصبغ بن زيد ، قال : حدثنا القاسم بن أيوب ، قال : حدثنا سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله، أن يجعل فى ذرّيته أنبياء وملوكا ، وائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار ، يطوفون فى بنى إسرائيل ، فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ، ففعلوا ، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، وأن الصغار يذبحون ، قال : توشكون أن تفنوا بنى إسرائيل ، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر ، فتقلّ أبناؤهم ودعوا عاما ، فحملت أمّ موسى بهارون فى العام الذى لايذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية أمه ، حتى إذا كان القابل حملت بموسى .

وقد حدثنا عبد الكريم بن الهيثم ، قال : حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، قال : حدثنا أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قالت الكهنة لفرعون : إنه يولد فى هذا العام مولود يذهب بملكك ، قال : فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل ، وعلى كل مائة عشرة ، وعلى كل عشرة رجلا ، فقال : انظروا كل امرأة حامل فى المدينة ، فإذا وضعت حملها فانظروا إليه ، فإن كان ذكرا فاذبحوه ، وإن كان أنثى فخلوا عنها ، وذلك قوله (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) قال : إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة ، فقالت الكهنة: إنه سيولد العام بمصر غلام، يكون هلاكك على يديه ، فبعث فى أهل مصر نساء قوابل ، فإذا ولدت امرأة غلاما ، أتى به فرعون فقتله ، ويستحيي الجوارى .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس، فى قوله (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) الآية ، قال : إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة ، وإنه أتاه آت ، فقال : إنه سينشأ فى مصر غلام من بنى إسرائيل، فيظهر عليك ويكون هلاكك على يديه ، فبعث فى مصر نساء ، فذكر نحو حديث آدم .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر، عن السدى ، قال : كان من شأن فرعون أنه رأى فى منامه ، أن نارا أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر ، فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل ، وأخربت بيوت مصر ، فدعا السحرة والكهنة والعافة والقافة والحازة ، فسألهم عن رؤياه ، فقالوا له : يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه — يعنون بيت المقدس — رجل يكون على وجهه هلاك مصر ، فأمر ببنى إسرائيل أن لايولد لهم غلام إلا ذبحوه ، ولا تولد لهم جارية إلا تركت ، وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم ، واجعلوا بنى إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة ، فجعل بنى إسرائيل فى أعمال غلمانهم ، وأدخلوا غلمانهم ، فذلك حين يقول الله تبارك وتعالى (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) يقول : تجبر فى الأرض ، وجعل أهلها

شيعا ، يعنى بنى إسرائيل ، حين جعلهم فى الأعمال القذرة ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، فجعل لايولد لبنى إسرائيل مولود إلا ذبح فلا يكبر الصغير ، وقذف الله فى مشيخة بنى إسرائيل الموت ، فأسرع فيهم ، فدخل رءوس القبط على فرعون ، فكلموه ، فقالوا : إن هؤلاء قد وقع فيهم الموت ، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم ، فلا تبلغ الصغار وتفنى الكبار ، فلو أنك كنت تبقى من أولادهم !! فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة ، فلما كان فى السنة التى لايذبحون فيها ولد هارون فترك ؛ فلما كان فى السنة التى يذبحون فيها حملت بموسى .

حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : ذكر لى أنه لما تقارب زمان موسى ، أتى منجمو فرعون وأحزابه إليه ، فقالوا له : نعم إنا نجد فى علمنا أن مولودا من بنى إسرائيل ، قد أظلك زمانه الذى يولد فيه ، يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك من أرضك ، ويبدّل دينك. فلما قالوا له ذلك ، أمر بقتل كل مولود يولد من بنى إسرائيل من الغلمان ، وأمر بالنساء يستحيين ، فجمع القوابل من نساء مملكته ، فقال لهن لايسقطن على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلا قتلتنه ، فكنّ يفعلن ذلك ، وكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان ، ويأمر بالحبالى فيعذّبن حتى يطرحن ما فى بطونهن .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : لقد ذكر أنه كان ليأمر بالقصب فيشقّ حتى يجعل أمثال الشفار ، ثم يصفّ بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبالى من بنى إسرائيل ، فيوقفن عليه ، فيحزّ أقدامهن ، حتى إن المرأة منهن لتمصع بولدها ، فيقع من بين رجليها ، فتظلّ تطؤه تتقى به حدّ القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها ، حتى أسرف فى ذلك وكاد يفنيهم ، فقيل له : أفنيت الناس وقطعت النسل ، وإنهم خولك وعمالك ، فأمر أن يقتل الغلمان عاما ويستحيوا عاما ، فولد هارون فى السنة التى يستحيا فيها الغلمان ، وولد موسى فى السنة التى فيها يقتلون .

قال أبو جعفر : والذى قاله من ذكرنا قوله من أهل العلم ، كان ذبح آل فرعون أبناء بنى إسرائيل ، واستحياؤهم نساءهم ، فتأويل قوله إذًا على ما تأوله الذين ذكرنا قولهم : ويستحيون نساءهم : يستبقونهن فلا يقتلونهن .

وقد يجب على تأويل من قال بالقول الذى ذكرنا عن ابن عباس وأبى العالية ، والربيع بن أنس والسدى فى تأويل قوله (وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) : إنه تركهم الإناث من القتل عند ولادتهن إياهن ، أن يكون جائزا أن تسمى الطفلة من الإناث فى حال صباها وبعد ولادها امرأة ، والصبايا : الصغار ، وهن أطفال : نساء ، لأنهم تأولوا قول الله جل وعزّ (وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) : يستبقون الإناث من الولدان عند الولادة ، فلا يقتلونهن .

وقد أنكر ذلك من قولهم ابن جريج ، فقال : بما حدثنا به القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله (وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) قال : يسترقون نساءكم . فحاد ابن جريج بقوله هذا عما قاله من ذكرنا قوله فى قوله (وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) إنه استحياء

الصبايا الأطفال ، قال : إذ لم نجدهن يلزمهن اسم نساء ، ثم دخل فيما هو أعظم مما أنكر بتأويله ، ويستحيون : يسترقون ، وذلك تأويل غير موجود فى لغة عربية ولا عجمية ، وذلك أن الاستحياء إنما هو الاستفعال من الحياة ، نظير الاستبقاء من البقاء ، والاستسقاء من السقى ، وهو من معنى الاسترقاق بمعزل .

وقد قال آخرون : قوله (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) بمعنى يذبحون رجالكم آباء أبنائكم ، وأنكروا أن يكون المذبوحون الأطفال، وقد قرن بهم النساء فقالوا فى إخبار الله جل ثناؤه إن المستحيين هم النساء ، الدلالة الواضحة على أن الذين كانوا يذبحون هم الرجال دون الصبيان ، لأن المذبحين لو كانوا هم الأطفال ، لوجب أن يكون المستحيون هم الصبايا .

قالوا : وفى إخبار الله عز وجل أنهم النساء ما يبين أن المذبحين هم الرجال ، وقد أغفل قائلو هذه المقالة ـ مع خروجهم من تأويل أهل التأويل من الصحابة والتابعين ـ موضع الصواب . وذلك أن الله جل ثناؤه قد أخبر عن وحيه إلى أم موسى أنه أمرها أن ترضع موسى ، فإذا خافت عليه أن تلقيه فى التابوت ، ثم تلقيه فى اليم ، فمعلوم بذلك أن القوم لو كانوا إنما كانوا يقتلون الرجال ويتركون النساء ، لم يكن بأم موسى حاجة إلى إلقاء موسى فى اليم ، أو لو أن موسى كان رجلا لم تجعله أمه فى التابوت ، ولكن ذلك عندنا على ما تأوله ابن عباس ومن حكينا قوله قبل ، من ذبح آل فرعون الصبيان وتركهم من القتل الصبايا .

وإنما قيل (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) إذ كان الصبايا داخلات مع أمهاتهن ، وأمهاتهن لا شك نساء فى الاستحياء ، لأنهم لم يكونوا يقتلون صغار النساء ولا كبارهن ، فقيل (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) يعنى بذلك الوالدات والمولودات كما يقال : قد أقبل الرجال وإن كان فيهم صبيان ، فكذلك قوله (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) . وأما من الذكور فإنه لما لم يكن يذبح إلا المولودون قيل (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) ولم يقل يذبحون رجالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

أما قوله (وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) فإنه يعنى : وفى الذى فعلنا بكم ، من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم على ما وصفت ، بلاء لكم من ربكم عظيم . ويعنى بقوله بلاء : نعمة .

كما حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) قال : نعمة .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى قوله (وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) أما البلاء : فالنعمة .

وحدثنا سفيان ، قال : حدثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد (وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) قال : نعمة من ربكم عظيمة .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثل حديث سفيان .

حدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَفِى ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) قال : نعمة عظيمة . وأصل البلاء فى كلام العرب : الاختبار والامتحان ، ثم يستعمل فى الخير والشرّ ، لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشرّ ، كما قال الله جل ثناؤه (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) يقول : اختبرناهم ، وكما قال جل ذكره (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . ثم تسمى العرب الخير بلاء ، والشرّ بلاء ، غير أن الأكثر فى الشرّ أن يقال : بلوته أبلوه بلاء ، وفى الخير : أبليته أبليه إبلاء وبلاء ؛ ومن ذلك قول زهير بن أبى سلمى :

جَزَى اللهُ بِالإِحْسَانِ مافَعَلاَ بِكُمْ　　　وأبلاهُما خَيْرَ البَلاءِ الَّذِى يَبْلُو

فجمع بين اللغتين لأنه أراد : فأنعم الله عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)

أما تأويل قوله (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ) فإنه عطف على (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ) بمعنى : واذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ، وإذ فرقنا بكم البحر . ومعنى قوله (فَرَقْنَا بِكُمْ): فصلنا بكم البحر ، لأنهم كانوا اثنى عشر سبطا ، فرق البحر اثنى عشر طريقا ، فسلك كل سبط منهم طريقا منها ، فذلك فرق الله بهم - جل ثناؤه - البحر ، وفصله بهم ، بتفريقهم فى طرقه الاثنى عشر .

كما حدثنى موسى بن هرون قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : لما أتى موسى البحر ، كناه أباخالد، وضربه فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، فدخلت بنوإسرائيل، وكان فى البحر اثنا عشر طريقا ، فى كل طريق سبط .

وقد قال بعض نحويى البصرة : معنى قوله (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) فرقنا بينكم وبين الماء ، يريد بذلك فصلنا بينكم وبينه ، وحجزناه حيث مررتم به . وذلك خلاف ما فى ظاهر التلاوة ، لأن الله جل ثناؤه إنما أخبر أنه فرق البحر بالقوم، ولم يخبر أنه فرق بين القوم وبين البحر ، فيكون التأويل ماقاله قائلو هذه المقالة . وفرقه البحر بالقوم ، إنما هو تفريقه البحر بهم على ما وصفنا من افتراق سبيله بهم، على ما جاءت به الآثار .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وكيف غرّق الله جل ثناؤه آل فرعون ، ونجى بنى إسرائيل ؟ قيل له كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن عبد الله ابن شداد بن الهاد ، قال: لقد ذكر لى أنه خرج فرعون فى طلب موسى على سبعين ألفا من دُهم الخيل، سوى ما فى جنده من شية الخيل ؛ وخرج موسى حتى إذا قابله البحر ، ولم يكن له عنه منصرف ، طلع فرعون فى جنده من خلفهم ، (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ) موسى : (كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ) أى للنجاة ، وقد وعدنى ذلك ولا خلف لوعده .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : أوحى الله إلى البحر - فيما ذكر - إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له ، قال : فثاب البحر يضرب بعضه بعضا فرقا من الله وانتظار أمره ، فأوحى الله جل وعزّ إلى موسى (أنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ) فضربه بها وفيها سلطان الله الذى أعطاه (فانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ) أى كالجبل على يبس من الأرض ، يقول الله لموسى (اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقا فى البَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكا وَلا تَخْشَى) فلما استقرّ لهم البحر على طريق قائمة يبس ، سلك فيه موسى ببنى إسرائيل ، وأتبعه فرعون بجنوده .

وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثى ، قال : حدثت أنه لما دخل بنو إسرائيل البحر ، فلم يبق منهم أحد ، أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل ، حتى وقف على شفير البحر ، وهو قائم على حاله ؛ فهاب الحصان أن ينفذ ، فعرض له جبريل على فرس أنثى وديق ، فقرّبها منه فشمها الفحل ، فلما شمها تبعها ، فتقدم معها الحصان عليه فرعون ، فلما رأى جند فرعون فرعون قد دخل ، دخلوا معه وجبريل أمامه ، وهم يتبعون فرعون ، وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم ، يقول : الحقوا بصاحبكم ، حتى إذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد ، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى وليس خلفه أحد ، طبق عليهم البحر ، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله عزّ وجلّ وقدرته ما رأى وعرف ذلته وخذلته نفسه (آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنا مِنَ المُسْلِمِينَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أبى إسحق الهمدانى ، عن عمرو بن ميمون الأودى فى قوله (وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) قال : لما خرج موسى ببنى إسرائيل ، بلغ ذلك فرعون ، فقال : لاتتبعوهم حتى يصيح الديك ، قال : فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا ، فدعا بشاة فذبحت ، ثم قال : لاأفرغ من كبدها حتى يجتمع إلىّ ستمائة ألف من القبط ، فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ، ثم سار ، فلما أتى موسى البحر ، قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون : أين أمَرَك ربك يا موسى؟ قال : أمامك ، يشير إلى البحر ، فأقحم يوشع فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر ، فذهب به ثم رجع ، فقال : أين أمرك ربك يا موسى ، فوالله ما كذبت ولا كذبت ؟ ففعل ذلك ثلاث مرات ، ثم أوحى الله جل ثناؤه إلى موسى (أنِ اضْرِب بِعَصاكَ البَحْرَ فانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ) يقول : مثل جبل . قال : ثم سار موسى ومن معه ، وأتبعهم فرعون فى طريقهم ، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم ، فلذلك قال (وأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) قال معمر ، قال قتادة : كان مع موسى ستمائة ألف ، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومائة ألف حصان .

وحدثنى عبد الكريم بن الهيثم ، قال : حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى ، قال : حدثنا سفيان ، قال : حدثنا أبوسعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أوحى الله جل وعز إلى موسى (أنْ أَسْرِ بعِبادِى

لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) قال : فسرى موسى ببني إسرائيل ليلا ، فأتبعهم فرعون فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وكان موسى فى ستمائة ألف ، فلما عاينهم فرعون ، قال (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ) فسرى موسى ببنى إسرائيل حتى هجموا على البحر ، فالتفتوا فإذا هم برهج دوابّ فرعون فـ (قالُوا) ياموسى (أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) هذا البحر أمامنا ، وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه (قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) قال : فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) وأوحى إلى البحر : أن اسمع لموسى ، وأطع إذا ضربك ، قال : فثاب البحر له أفكل ـ يعنى له رعدة ـ لايدرى من أىّ جوانبه يضربه ، قال : فقال يوشع لموسى : بماذا أمرت ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر ، قال : فاضربه . قال : فضرب موسى البحر بعصاه ، فانفلق فكان فيه اثنا عشر طريقا ، كل طريق كالطود العظيم ، فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فيه ، فلما أخذوا فى الطريق ، قال بعضهم لبعض : مالنا لانرى أصحابنا ؟ قالوا لموسى : أين أصحابنا لانراهم ؟ قال : سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم ، قالوا : لانرضى حتى نراهم . قال سفيان ، قال عمار الدهنى : قال موسى : اللهمّ أعنى على أخلاقهم السيئة ! قال : فأوحى الله إليه : أن قل بعصاك هكذا ـ وأومأ إبراهيم بيده يديرها على البحر ـ قال موسى بعصاه على الحيطان هكذا ، فصار فيها كوى ينظر بعضهم إلى بعض . قال سفيان : قال أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : فساروا حتى خرجوا من البحر ، فلما جاز آخر قوم موسى ، هجم فرعون على البحر هو وأصحابه ، وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب حصان ، فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم فى البحر ، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وديق ، فلما رآها الحصان تقحم خلفها ، وقيل لموسى : اترك البحر رهوا ـ قال : طرقا على حاله ـ قال : ودخل فرعون وقومه فى البحر ، فلما دخل آخر قوم فرعون ، وجاز آخر قوم موسى ، أطبق البحر على فرعون وقومه فأغرقوا .

حدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : أن الله أمر موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ، فقال (أَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) فخرج موسى وهرون فى قومهما ، وألقى على القبط الموت فمات كل بكر رجل ، فأصبحوا يدفنونهم ، فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس ، فذلك حين يقول الله جل ثناؤه (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) فكان موسى على ساقة بنى إسرائيل ، وكان هرون أمامهم يقدمهم ، فقال المؤمن لموسى : يا نبىّ الله ! أين أمرت ؟ قال : البحر . فأراد أن يقتحم ، فمنعه موسى ، وخرج موسى فى ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، لايعدّون ابن العشرين لصغره ، ولا ابن الستين لكبره ، وإنما عدّوا ما بين ذلك سوى الذرية ، وتبعهم فرعون ، وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماذيانة ، يعنى الأنثى ، وذلك حين يقول الله جل ثناؤه (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) يعنى بنى إسرائيل فتقدم هرون ، فضرب البحر ، فأبى البحر أن ينفتح ، وقال : من هذا الجبار الذى يضربنى ؟ حتى أتاه

موسى ، فكناه أبا خالد، وضربه فانفلق (فكَانَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ) يقول : كالجبل العظيم ، فدخلت بنو إسرائيل ، وكان فى البحر اثنا عشر طريقا ، فى كل طريق سبط ، وكانت الطرق انفلقت بجدران ، فقال كل سبط : قد قتل أصحابنا ! ! فلما رأى ذلك موسى ، دعا الله ، فجعلها لهم قناطر كهيئة الطيقان ، فنظر آخرهم إلى أولهم ، حتى خرجوا جميعا ، ثم دنا فرعون وأصحابه ، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقا ، قال : ألا ترون البحر فرق منى ـ قد انفتح لى ـ حتى أدرك أعدائى فأقتلهم؟ ! فذلك حين يقول الله جل ثناؤه (وأَزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرِينَ) يقول : قرّبنا ثم الآخرين : يعنى آل فرعون . فلما قام فرعون على أفواه الطرق أبت خيله أن تقتحم ، فنزل جبريل على ماذيانة ، فشام الحصان ريح الماذيانة ، فاقتحم فى أثرها ، حتى إذا همّ أولهم أن يخرج ودخل آخرهم ، أمر البحر أن يأخذهم ، فالتطم عليهم .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : لما أخذ عليهم فرعون الأرض إلى البحر ، قال لهم فرعون : قولوا لهم يدخلون البحر إن كانوا صادقين . فلما رآهم أصحاب موسى ، قالوا (إنَّا لَمُدْرَكُونَ . قال كَلاَّ إنَّ مَعِى رَبِّى سَيَهْدِينِ) فقال موسى للبحر : ألست تعلم أنى رسول الله ؟ قال بلى ! قال : وتعلم أن هؤلاء عباد من عباد الله أمرنى أن آتى بهم ؟ قال : بلى ! قال : أتعلم أن هذا عدوّ الله ؟ قال : بلى ! قال : فانفرق لى طريقا ولمن معى ، قال : يا موسى ، إنما أنا عبد مملوك، ليس لى أمر إلا أن يأمرنى الله تعالى ، فأوحى الله عزّ وجل إلى البحر : إذا ضربك موسى بعصاه فانفرق ، وأوحى إلى موسى أن يضرب البحر ، وقرأ قول الله تعالى (فاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فى البَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى) وقرأ قوله (وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً) سهلا ليس فيه تعدّ ، فانفرق اثنتى عشرة فرقة ، فسلك كل سبط فى طريق . قال : فقالوا لفرعون : إنهم قد دخلوا البحر ، قال : ادخلوا عليهم ، قال : وجبريل فى آخر بنى إسرائيل ، يقول لهم : ليلحق آخركم أولكم ، وفى أول آل فرعون ، يقول لهم : رويدا يلحق آخركم أولكم ، فجعل كل سبط فى البحر يقولون للسبط الذين دخلوا قبلهم قد هلكوا ، فلما دخل ذلك قلوبهم ، أوحى الله جلّ وعزّ إلى البحر ، فجعل لهم قناطر ينظر هؤلاء إلى هؤلاء، حتى إذا خرج آخر هؤلاء ودخل آخر هؤلاء ، أمر الله البحر فأطبق على هؤلاء .

ويعنى بقوله (وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) أى تنظرون إلى فرق الله لكم البحر ، وإهلاكه آل فرعون فى الموضع الذى نجاكم فيه ، وإلى عظيم سلطانه فى الذى أراكم من طاعة البحر إياه، من مصيره ركاما فرقا كهيئة الأطواد الشامخة ، غير زائل عن حدّه انقيادا لأمر الله ، وإذعانا لطاعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك، يوقفهم بذلك جل ذكره على موضع حججه عليهم ، ويذكرهم آلاءه عند أوائلهم ، ويحذرهم فى تكذيبهم نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، أن يحلّ بهم ما حلّ بفرعون وآله ، فى تكذيبهم موسى صلى الله عليه وسلم .

وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى قوله (وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) كمعنى قول القائل : ضربت وأهلك ينظرون ، فما أتوك ولا أعانوك، بمعنى وهم قريب بمرأى ومسمع ، وكقول الله تعالى (أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) وليس هناك رؤية ، إنما هو علم ؛ والذى دعاه إلى هذا التأويل أنه وجه قوله (وأَنْتُمْ

تَنْظُرُونَ) : أى وأنتم تنظرون إلى غرق فرعون ، فقال : قد كانوا فى شغل من أن ينظروا مما اكتنفهم من البحر إلى فرعون وغرقه . وليس التأويل الذى تأوله تأويل الكلام . إنما التأويل : وأنتم تنظرون إلى فرق الله البحر لكم على ما قد وصفنا آنفا ، والتطام أمواج البحر بآل فرعون ، فى الموضع الذى صير لكم فى البحر طريقا يبسا ، وذلك كان لاشك نظر عيان لانظر علم ، كما ظنه قائل هذا القول الذى حكينا قوله.

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأ بعضهم (وَاعَدْنَا) بمعنى أن الله تعالى واعد موسى ملاقاة الطور لمناجاته ، فكانت المواعدة من الله لموسى ، ومن موسى لربه ، وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة (وَاعَدْنَا) على وعدنا أن قالوا : كل إيعاد كان بين اثنين للالتقاء أو الاجتماع ، فكل واحد منهما مواعد صاحبه ذلك ، فلذلك زعموا أنه وجب أن يقضى لقراءة من قرأ (وَاعَدْنَا) بالاختيار على قراءة من قرأ (وَعَدْنَا) .

وقرأه بعضهم (وَعَدْنَا) بمعنى أن الله الواعد موسى ، والمنفرد بالوعد دونه ، وكان من حجتهم فى اختيارهم ذلك ، أن قالوا : إنما تكون المواعدة بين البشر ، فأما الله جل ثناؤه فإنه المنفرد بالوعد والوعيد فى كل خير وشرّ ، قالوا : وبذلك جاء التنزيل فى القرآن كله ، فقال جل ثناؤه (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) وقال (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) قالوا : فكذلك الواجب أن يكون هو المنفرد بالوعد فى قوله (وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى)

والصواب عندنا فى ذلك من القول ، أنهما قراءتان قد جاءت بهما الأمة ، وقرأت بهما القراء ، وليس فى القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى ، وإن كان فى إحداهما زيادة معنى على الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة ؛ فأما من جهة المفهوم بهما ، فهما متفقتان ، وذلك أن من أخبر عن شخص أنه وعد غيره اللقاء بموضع من المواضع ، فمعلوم أن الموعود ذلك واعد صاحبه من لقائه بذلك المكان ، مثل الذى وعده من ذلك صاحبه ، إذا كان وعده ما وعده إياه من ذلك عن اتفاق منهما عليه ، ومعلوم أن موسى صلوات الله عليه ، لم يعده ربه الطور إلا عن رضا موسى بذلك ، إذ كان موسى غير مشكوك فيه أنه كان بكل ما أمر الله به راضيا ، وإلى محبته فيه مسارعا ، ومعقول أن الله تعالى لم يعد موسى ذلك ، إلا وموسى إليه مستجيب. وإذ كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الله عزّ ذكره قد كان وعد موسى الطور ، ووعده موسى اللقاء ، وكان الله عزّ ذكره لموسى واعدا ومواعدا له المناجاة على الطور ، وكان موسى واعدا لربه مواعدا له اللقاء ؛ فبأىّ القراءتين من وعد وواعد قرأ القارئ ، فهو الحقّ فى ذلك من جهة التأويل واللغة ، مصيب لما وصفنا من العلل قبل ، ولا معنى لقول القائل : إنما تكون المواعدة بين البشر ، وأن الله بالوعد والوعيد منفرد فى كل خير وشرّ ، وذلك أن انفراد الله بالوعد والوعيد فى الثواب والعقاب والخير والشرّ والنفع والضرّ الذى هو بيده ، وإليه دون سائر خلقه ، لايحيل الكلام الجارى بين الناس فى استعمالهم إياه ، عن وجوهه ولا يغيره عن معانيه ، والجارى بين الناس من الكلام المفهوم ما وصفنا ، من أن كل إيعاد كان بين اثنين فهو

وعد من كل واحد منهما صاحبه ومواعدة بينهما ، وأن كل واحد منهما واعد صاحبه مواعد ، وأن الوعد الذى يكون به الانفراد من الواعد دون الموعود ، إنما هو ما كان بمعنى الوعد الذى هو خلاف الوعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (مُوسَى)

وموسى فيما بلغنا بالقبطية كلمتان ، يعنى بهما : ماء وشجر ، فمو : هو الماء ، وسا : هو الشجر ، وإنما سمى بذلك فيما بلغنا ، لأن أمه لما جعلته فى التابوت ،حين خافت عليه من فرعون ، وألقته فى اليم ، كما أوحى الله إليها - وقيل: إن اليم الذى ألقته فيه هو النيل - دفعته أمواج اليم ، حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن ، فوجدن التابوت ، فأخذنه ، فسمى باسم المكان الذى أصيب فيه ، وكان ذلك المكان فيه ماء وشجر ، فقيل موسى ماء وشجر .

كذلك حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، عن أسباط بن نصر ، عن السدى : وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ، فيما زعم ابن إسحق ، حدثنى بذلك ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل عنه .

القول فى تأويل قوله عز وجل (أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

ومعنى ذلك (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) بتمامها ، فالأربعون ليلة كلها داخلة فى الميعاد .

وقد زعم بعض نحويى البصرة أن معناه : وإذا واعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة ، أى رأس الأربعين ومثل ذلك بقوله (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) وبقولهم : اليوم أربعون منذ خرج فلان ، واليوم : يومان ، أى اليوم تمام يومين وتمام أربعين ، وذلك خلاف ما جاءت به الرواية عن أهل التأويل وخلاف ظاهر التلاوة . فأما ظاهر التلاوة ، فإن الله جل ثناؤه قد أخبر أنه واعد موسى أربعين ليلة ، فليس لأحد إحالة ظاهر خبره إلى باطن ، بغير برهان دالّ على صحته .

وأما أهل التأويل فإنهم قالوا فى ذلك ما أنا ذاكره ، وهو ما حدثنى به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبوجعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية قوله (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) قال : يعنى ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة ، وذلك حين خلف موسى أصحابه ، واستخلف عليهم هرون ، فمكث على الطور أربعين ليلة ، وأنزل عليه التوراة فى الألواح ، وكانت الألواح من زبرجد ، فقرّبه الربّ إليه نجيا ، وكلمه ، وسمع صريف القلم ، وبلغنا أنه لم يحدث حدثا فى الأربعين ليلة ، حتى هبط من الطور .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، بنحوه .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن ابن إسحق ، قال : وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه ، ونجاه وقومه ، ثلاثين ليلة ، ثم أتمها بعشر ، فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة ، تلقاه ربه فيها بما شاء ، واستخلف موسى هرون على بنى إسرائيل ، وقال : إنى متعجل إلى ربى ، فاخلفنى فى قومى ، ولا تتبع

سبيل المفسدين ، فخرج موسى إلى ربه متعجلا للقائه شوقا إليه ، وأقام هرون فى بنى إسرائيل ومعه السامرىّ ، يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط عن السدى ، قال : انطلق موسى واستخلف هرون على بنى إسرائيل ، وواعدهم ثلاثين ليلة ، وأتمها الله بعشر .

القول فى تأويل قوله تعالى (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنْتُمْ ظالِمُونَ)

وتأويل قوله (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ) ثم اتخذتم فى أيام مواعدة موسى العجل إلها ، من بعد أن فارقكم موسى متوجها إلى الموعد ، والهاء فى قوله « من بعده » عائدة على ذكر موسى ، فأخبر جل ثناؤه المخالفين نبينا صلى الله عليه وسلم ، من يهود بنى إسرائيل المكذّبين به ، المخاطبين بهذه الآية ، عن فعل آبائهم وأسلافهم ، وتكذيبهم رسلهم ، وخلافهم أنبياءهم ، مع تتابع نعمه عليهم ، وسبوغ آلائه لديهم ، معرّفهم بذلك أنهم من خلافهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبهم به ، وجحودهم لرسالته ، مع علمهم بصدقه ، على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم ، ومحذّرهم من نزول سطوته بهم ، بمقامهم على ذلك من تكذيبهم ، ما نزل بأوائلهم المكذّبين بالرسل ، من المسخ واللعن وأنواع النقمات .

وكان سبب اتخاذهم العجل ، ما حدثنى به عبد الكريم بن الهيثم ، قال : حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، قال : حدثنا أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه ، وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب حصان ؛ فلما هجم على البحر ، هاب الحصان أن يقتحم فى البحر ، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وديق ، فلما رآها الحصان تقحم خلفها . قال : وعرف السامرىّ جبريل ، لأن أمه حين خافت أن يذبح ، خلفته فى غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه ، فيجد فى بعض أصابعه لبنا ، وفى الأخرى عسلا ، وفى الأخرى سمنا ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ ، فلما عاينه فى البحر عرفه ، فقبض قبضة من أثر فرسه . قال : أخذ من تحت الحافر قبضة . قال سفيان : فكان ابن مسعود يقرؤها : فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول . قال أبو سعيد : قال عكرمة عن ابن عباس : وألقى فى روع السامرى أنك لاتلقيها على شىء ، فتقول كن كذا وكذا إلا كان ، فلم تزل القبضة معه فى يده حتى جاوز البحر ، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر ، وأغرق الله آل فرعون (قَالَ مُوسى لِأَخِيهِ هرونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ) ، ومضى موسى لموعد ربه . قال : وكان مع بنى إسرائيل حلىّ من حلىّ آل فرعون قد تعوّروه ، فكأنهم تأثموا منه ، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله ، فلما جمعوه ، قال السامرى بالقبضة التى كانت فى يده هكذا ، فقذفها فيه ، وأومأ ابن إسحق بيده هكذا ، وقال : كن عجلا جسدا له خوار ، فصار عجلا جسدا له خوار ، وكان يدخل الريح فى دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت ، فقال : هذا إلهكم وإله موسى ، فعكفوا على العجل يعبدونه ، فقال هرون (يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وأَطِيعُوا أَمْرِي ، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) .

حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدي : لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ، يعني من أرض مصر ، أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا ، وأمرهم أن يستعيروا الحليّ من القبط ، فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر ، وغرق آل فرعون ، أتى جبريل إلى موسى يذهب به إلى الله ، فأقبل على فرس ، فرآه السامري ، فأنكره ، وقال : إنه فرس الحياة ، فقال حين رآه : إن لهذا لشأنا ! فأخذ من تربة الحافر ، حافر الفرس ، فانطلق موسى ، واستخلف هرون على بني إسرائيل ، وواعدهم ثلاثين ليلة ، وأتمها الله بعشر ، فقال لهم هرون : يا بني إسرائيل ، إن الغنيمة لاتحل لكم ، وإن حليّ القبط إنما هو غنيمة ، فاجمعوها جميعا ، واحفروا لها حفرة فادفنوها ، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها ، وإلا كان شيئا لم تأكلوه ، فجمعوا ذلك الحليّ في تلك الحفرة ، وجاء السامريّ بتلك القبضة فقذفها ، فأخرج الله من الحليّ عجلا جسدا له خوار ، وعدّت بنو إسرائيل موعد موسى ، فعدّوا الليلة يوما واليوم يوما ، فلما كان تمام العشرين خرج لهم العجل ؛ فلما رأوه قال لهم السامري (هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ) يقول : ترك موسى إلهه ههنا وذهب يطلبه ، فعكفوا عليه يعبدونه ، وكان يخور ويمشي ، فقال لهم هرون : يا بني إسرائيل (إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ) يقول : إنما ابتليتم به ، يقول بالعجل ، وإن ربكم الرحمن . فأقام هرون ومن معه من بني إسرائيل لا يقاتلونهم ، وانطلق موسى إلى إلهه يكلمه ، فلما كلمه قال له (ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسَىٰ قالَ هُمْ أُولاءِ على أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ . قال فإنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) فأخبره خبرهم ، قال موسى : يارب ، هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل ، أرأيت الروح مَن نفخها فيه ؟ قال الرب : أنا . قال : ربّ ! أنت إذاً أضللتهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحق ، قال : كان فيما ذكر لي أن موسى قال لبني إسرائيل ، فيما أمره الله عزّ وجلّ به : استعيروا منهم - يعني من آل فرعون - الأمتعة والحليّ والثياب ، فإني منفلكم أموالهم مع هلاكهم ؛ فلما أذّن فرعون في الناس ، كان مما يحرّض به على بني إسرائيل ، أن قال حين ساروا : لم يرضوا أن يخرجوا بأنفسهم ، حتى ذهبوا بأموالكم معهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثني محمد بن إسحق ، عن حكيم بن جبير ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان السامري رجلا من أهل باجرْما ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حبّ عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل ؛ فلما فصل هرون في بني إسرائيل وفصّل موسى إلى ربه ، قال لهم هرون : أنتم قد حملتم أوزارا من زينة القوم - آل فرعون - وأمتعة وحليا ، فتطهروا منها ، فإنها نجس ، وأوقد لهم نارا . فقال : اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها . قالوا : نعم ، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة وذلك الحليّ ، فيقذفون به فيها ، حتى إذا تكسر الحليّ فيها ، ورأى السامريّ أثر فرس جبريل ، أخذ ترابا من أثر حافره ، ثم أقبل إلى النار ، فقال لهرون : يانبيّ الله ، ألقي ما في يدي ؟ قال نعم . ولا يظنّ هرون إلا أنه كبعض ماجاء به غيره من ذلك الحليّ والأمتعة ، فقذفه

فيها فقال : كن عجلا جسدا له خوار ، فكان للبلاء والفتنة ، فقال (هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ) فعكفوا عليه ، وأحبوه حبا لم يحبوا مثله شيئا قط ، يقول الله عز وجل (فَنَسِيَ) أى ترك ما كان عليه من الإسلام ، يعنى السامرى (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) وكان اسم السامرى موسى بن ظفر ، وقع فى أرض مصر ، فدخل فى بنى إسرائيل ؛ فلما رأى هرون ما وقعوا فيه (قَالَ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) فأقام هرون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن ، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل ، وتخوّف هرون إن سار بمن معه من المسلمين ، أن يقول له موسى « فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) وكان له هائبا مطيعا .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : لما أنجى الله عز وجل بنى إسرائيل من فرعون ، وأغرق فرعون ومن معه ، قال موسى لأخيه هرون (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) قال : لما خرج موسى وأمر هرون بما أمره به ، وخرج موسى متعجلا مسرورا إلى الله ، قد عرف موسى أن المرء إذا نجح فى حاجة سيده كان يسرّه أن يتعجل إليه ، قال : وكان حين خرجوا استعاروا حليا وثيابا من آل فرعون ، فقال لهم هرون : إن هذه الثياب والحلىّ لاتحلّ لكم ، فاجمعوا نارا ، فألقوه فيها فأحرقوه ، قال : فجمعوا نارا ، قال : وكان السامرى قد نظر إلى أثر دابة جبريل ، وكان جبريل على فرس أنثى ، وكان السامرى فى قوم موسى ، قال : فنظر إلى أثره فقبض منه قبضة ، فيبست عليها يده ؛ فلما ألقى قوم موسى الحلىّ فى النار ، وألقى السامرى معهم القبضة ، صوّر الله جل وعز ذلك لهم عجلا ذهبا ، فدخلته الريح ، فكان له خوار ، فقالوا : ما هذا ؟ فقال : السامرى الخبيث (هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ) ... الآية إلى قوله (حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) قال : حتى إذا أتى موسى الموعد ، قال الله (مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ؟ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي) فقرأ حتى بلغ (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد فى قوله (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ) قال : العجل : حُسَيْل البقرة ، قال : حلىّ استعاروه من آل فرعون ، فقال لهم هرون : أخرجوه فتطهروا منه وأحرقوه ، وكان السامرى قد أخذ قبضة من أثر فرس جبريل ، فطرحه فيه فانسبك ، وكان له كالجوف تهوى فيه الرياح .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : إنما سمى العجل ، لأنهم عجلوا ، فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى .

حدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنى عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد بنحو حديث القاسم ، عن الحسن .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، بنحوه .

وتأويل قوله (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) يعنى وأنتم واضعو العبادة فى غير موضعها ، لأن العبادة لاتنبغى إلا لله عزّ وجل ، وعبدتم أنتم العجل ظلما منكم ، ووضعا للعبادة فى غير موضعها .

وقد دللنا فى غير هذا الموضع مما مضى من كتابنا أن أصل كل ظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

وتأويل قوله (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلكَ) يقول : تركنا معاجلتكم بالعقوبة من بعد ذلك ، أى من بعد اتخاذكم العجل إلها . كما حدثنى به المثنى بن إبراهيم قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية ، (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلكَ) يعنى من بعد ما اتخذتم العجل .

وأما تأويل قوله (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فإنه يعنى به لتشكروا ، ومعنى لعل فى هذا الموضع معنى كى ، وقد بينت فيما مضى قبل ، أن أحد معانى لعل كى ، بما فيه الكفاية عن إعادته فى هذا الموضع ، فمعنى الكلام إذًا : ثم عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجل إلها لتشكرونى على عفوى عنكم ، إذ كان العفو يوجب الشكر على أهل اللبّ والعقل .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

يعنى بقوله (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتابَ) واذكروا أيضا إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان ، ويعنى بالكتاب : التوراة ، وبالفرقان : الفصل بين الحقّ والباطل .

كما حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، فى قوله (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتابَ والفُرْقَانَ) قال : فرق به بين الحقّ والباطل .

حدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتابَ وَالفُرْقَانَ) قال : الكتاب : هو الفرقان ، فرقان بين الحق والباطل .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتابَ وَالفُرْقَانَ) قال : الكتاب : هو الفرقان، فرق بين الحقّ والباطل .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : وقال ابن عباس الفرقان : جماع اسم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

وقال ابن زيد فى ذلك ، بما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألته ، يعنى ابن زيد ، عن قول الله عز وجل (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ) فقال : أما الفرقان الذى قال الله جل وعز (يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) فذلك يوم بدر ، يوم فرق الله بين الحق والباطل ، والقضاء الذى فرق به بين الحق والباطل . قال : فكذلك أعطى الله موسى الفرقان ، فرق الله بينهم ، وسلمه الله وأنجاه ، فرق بينهم بالنصر ؛ فكما جعل الله ذلك بين محمد والمشركين ، فكذلك جعله بين موسى وفرعون .

قال أبو جعفر : وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية ، ما روى عن ابن عباس ، وأبى العالية ، ومجاهد : من أن الفرقان الذى ذكر الله أنه آتاه موسى فى هذا الموضع ، هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل ، وهو نعت للتوراة وصفة لها ، فيكون تأويل الآية حينئذ : وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح ، وفرقنا بها بين الحق والباطل ، فيكون الكتاب نعتا للتوراة ، أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة ، ثم عطف عليه بالفرقان ، إذ كان من نعتها ، وقد بينا معنى الكتاب فيما مضى من كتابنا هذا ، وأنه بمعنى المكتوب . وإنما قلنا هذا التأويل أولى بالآية ، وإن كان محتملا غيره من التأويل ، لأن الذى قبله ذكر الكتاب ، وأن معنى الفرقان الفصل ، وقد دللنا على ذلك فيما مضى من كتابنا هذا ، فإلحاقه إذ كان كذلك بصفة ما وليه ، أولى من إلحاقه بصفة ما بعد منه .

وأما تأويل قوله (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) فنظير تأويل قوله تعالى (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ومعناه لتهتدوا ، وكأنه قال : واذكروا أيضا إذ آتينا موسى التوراة التى تفرق بين الحق والباطل ، لتهتدوا بها وتتبعوا الحق الذى فيها ، لأنى جعلتها كذلك هدى لمن اهتدى بها واتبع ما فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

وتأويل ذلك : واذكروا أيضا إذ قال موسى لقومه من بنى إسرائيل : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ، وظلمهم إياها كان فعلهم بها مالم يكن لهم أن يفعلوه بها ، مما أوجب لهم العقوبة من الله تعالى ، وكذلك كل فاعل فعلا يستوجب به العقوبة من الله تعالى ، فهو ظالم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من الله تعالى ، وكان الفعل الذى فعلوه فظلموا به أنفسهم . هو ما أخبر الله عنهم من ارتدادهم ، باتخاذهم العجل ربا بعد فراق موسى إياهم ، ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم ، والإنابة إلى الله من ردتهم بالتوبة إليه ، والتسليم لطاعته فيما

أمرهم به ، وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذى ركبوه قتلهم أنفسهم ، وقد دللنا فيما مضى على أن معنى التوبة : الأوبة مما يكرهه الله إلى ما يرضاه من طاعته . فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى من التوبة ، مما ركبوا من ذنوبهم إلى ربهم على ما أمرهم به .

كما حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبى إسحق ، عن أبى عبد الرحمن ، أنه قال فى هذه الآية (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) قال : عمدوا إلى الخناجر ، فجعل يطعن بعضهم بعضا .

حدثنى عباس بن محمد ، قال : حدثنا حجاج بن محمد ، قال ابن جريج ، أخبرنى القاسم بن أبى بزة ، أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهدا قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر ، يقتل بعضهم بعضا ، لايحنّ رجل على رجل ، قريب ولا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه ، فطرحوا ما بأيديهم ، فتكشف عن سبعين ألف قتيل ، وإن الله أوحى إلى موسى : أن حسبى قد اكتفيت . فذلك حين ألوى بثوبه .

حدثنى عبد الكريم بن الهيثم ، قال : حدثنا إبراهيم بن بشار ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، قال : قال أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال موسى لقومه (تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) قال : أمر موسى قومه - عن أمر ربه عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم ، قال : فاحتبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل ، وأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فانجلت الظلمة عنهم ، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقى كانت له توبة .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، قال : لما رجع موسى إلى قومه (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) إلى قوله (فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) فـ (أَلْقَى) موسى (الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) ، (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) فترك هرون ، ومال إلى السامرى ، فـ (قَالَ مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) إلى قوله (ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) ثم أخذه فذبحه ، ثم حرقه بالمبرد ، ثم ذراه فى اليم ، فلم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شىء منه ، ثم قال لهم موسى : اشربوا منه ، فشربوا ، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب ، فذلك حين يقول (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) فلما سقط فى أيدى بنى إسرائيل حين جاء موسى (وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فأبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال التى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل ، فقال لهم موسى (يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) قال : فصفوا صفين ثم اجتلدوا بالسيوف ، فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قتل من الفريقين شهيدا ، حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا ، حتى قتل بينهم سبعون ألفا ،

وحتى دعا موسى وهرون : ربنا هلكت بنو إسرائيل ، ربنا البقية البقية !! فأمرهم أن يضعوا السلاح ، وتاب عليهم ، فكان من قتل شهيدا ، ومن بقى كان مكفرا عنه ، فذلك قوله (فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

حدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله تعالى (بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ) قال : كان موسى أمر قومه - عن أمر ربه - أن يقتل بعضهم بعضا بالخناجر ، فجعل الرجل يقتل أباه ويقتل ولده ، فتاب الله عليهم .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية . قال : فصاروا صفين ، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فبلغ القتلى ماشاء الله ، ثم قيل لهم : قد تيب على القاتل والمقتول .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنى الليث ، قال : حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها ، برزوا ومعهم موسى ، فتضاربوا بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه ، حتى إذا فتر أتاه بعضهم ، قالوا : يا نبىّ الله ! ادع الله لنا . وأخذوا بعضديه يشدون يديه ، فلم يزل أمرهم على ذلك ، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدى بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح ، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم ، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى : لايحزنك ، أما من قتل منكم فحىّ عندى يرزق ، وأما من بقى فقد قبلت توبته . فسرّ بذلك موسى وبنو إسرائيل .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرى وقتادة فى قوله (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) قال : قاموا صفين فقتل بعضهم بعضا ، حتى قيل لهم كفوا . قال قتادة : كانت شهادة للمقتول وتوبة للحىّ .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال لى عطاء : سمعت عبيد بن عمير يقول : قام بعضهم إلى بعض يقتل بعضهم بعضا ، ما يتوقى الرجل أخاه ولا أباه ولا ابنه ولا أحدا ، حتى نزلت التوبة .

قال ابن جريج ، وقال ابن عباس : بلغ قتلاهم سبعين ألفا ، ثم رفع الله عزّ وجل عنهم القتل ، وتاب عليهم . قال ابن جريج : قاموا صفين ، فاقتتلوا بينهم ، فجعل الله القتل لمن قتل منهم شهادة ، وكانت توبة لمن بقى ، وكان قتل بعضهم بعضا ، أن الله علم أن ناسا منهم علموا أن العجل باطل ، فلم يمنعهم أن ينكروا عليهم إلا مخافة القتال ، فلذلك أمر أن يقتل بعضهم بعضا .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : لما رجع موسى إلى قومه ، وأحرق العجل وذرّاه فى اليم ، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه ، فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا ، سأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا ، إلا أن يقتلوا أنفسهم . قال : فبلغنى أنهم قالوا لموسى : نصبر لأمر الله . فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده ، فجلسوا بالأفنية وسلّت عليهم القوم

السيوف ، فجعلوا يقتلونهم ، وبكى موسى ، وبهش إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب عليهم وعفا عنهم ، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : لما رجع موسى إلى قومه ، وكان سبعون رجلا ، قد اعتزلوا مع هرون العجل لم يعبدوه ، فقال لهم موسى : انطلقوا إلى موعد ربكم ، فقالوا : يا موسى ، أما من توبة ؟ قال : بل (اقْتُلُوا أنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) الآية ... فاخترطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين ، قال : وبعث عليهم ضبابة ، قال : فجعلوا يتلامسون بالأيدى ، ويقتل بعضهم بعضا ، قال : ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدرى ، ويتنادون فيها : رحم الله عبدا صبر حتى يبلغ الله رضاه ، وقرأ قول الله جل ثناؤه (وآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآياتِ ما فيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ) قال : فقتلاهم شهداء ، وتيب على أحيائهم ، وقرأ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فالذى ذكرنا عمن روينا عنه الأخبار التى رويناها، كان توبة القوم من الذنب الذى أتوه فيما بينهم وبين ربهم بعبادتهم العجل، مع ندمهم على ما سلف منهم من ذلك .

وأما معنى قوله (فَتُوبُوا إلى بارِئِكُمْ) فإنه يعنى به: ارجعوا إلى طاعة خالقكم، وإلى مايرضيه عنكم، كما حدثنى به المثنى بن إبراهيم قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر، عن الربيع ، عن أبى العالية (فَتُوبُوا إلى بارِئِكُمْ) أى إلى خالقكم ، وهو من برأ الله الخلق يبرؤه فهو بارئٌ . والبرية : الخلق ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة ، غير أنها لاتهمز كما لايهمز ملك ، وهو من لأك ، لكنه جرى بترك الهمز ، كذلك قال نابغة بنى ذبيان :

إلاَّ سُلَيْمانَ إذْ قالَ المَلِيكُ لَهُ قُمْ فى البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عَنِ الفَنَدِ

وقد قيل إن البرية إنما لم تهمز لأنها فعيلة من البَرَى، والبرى: التراب،فكان تأويله على قول من تأوله كذلك أنه مخلوق من التراب . وقال بعضهم : إنما أخذت البرية من قولك بريت العود ، فلذلك لم يهمز .

قال أبو جعفر: وترك الهمز من بارئكم جائز ، والإبدال منها جائز ، فإذ كان ذلك جائزا فى باريكم ، فغير مستنكر أن تكون البرية من برى الله الخلق بترك الهمزة .

وأما قوله (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ) فإنه يعنى بذلك توبتكم بقتلكم أنفسكم، وطاعتكم ربكم خير لكم عند بارئكم ، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله فى الآخرة على ذنبكم ، وتستوجبون به الثواب منه . وقوله (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى بما فعلتم مما أمركم به من قتل بعضكم بعضا ، وهذا من المحذوف الذى استغنى بالظاهر منه عن المتروك ، لأن معنى الكلام : فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ؛ ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتبتم فتاب عليكم ، فترك ذكر قوله فتبتم ، إذ كان فى قوله (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) دلالة بينة على اقتضاء الكلام فتبتم ، ويعنى بقوله (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) رجع لكم ربكم إلى ما أحببتم من العفو عن ذنوبكم ، وعظيم ما ركبتم ، والصفح عن جرمكم (إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) يعنى الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحبّ من العفو عنه ، ويعنى بالرحيم : العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)

وتأويل ذلك : واذكروا أيضا إذ قلتم : ياموسى لن نصدقك ، ولن نقرّ بما جئتنا به ، حتى نرى الله جهرة عيانا ، برفع الساتر بيننا وبينه ، وكشف الغطاء دوننا ودونه ، حتى ننظر إليه بأبصارنا ، كما تجهر الركية ، وذلك إذا كان ماؤها قد غطاه الطين ، فنفى ماقد غطاه ، حتى ظهر الماء وصفا ، يقال منه : قد جهرت الركية أجهرها جهرا وجهرة ؛ ولذلك قيل : قد جهر فلان بهذا الأمر مجاهرة وجهارا : إذا أظهره لرأى العين وأعلنه ، كما قال الفرزدق بن غالب :

مِنَ اللَّائِى يَضِلُّ الأَلْفُ مِنْهُ مِسَحًّا[1] مِنْ مَخَافَتِهِ جِهَارًا

وكما حدثنا به القاسم بن الحسن ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) قال : علانية ،

وحدثت ، عن عمار بن الحسن قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) يقول : عيانا .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) : حتى يطلع إلينا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) : أى عيانا . فذكّرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم ، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم ، مع كثرة معاينتهم من آيات الله جل وعزّ وعبره ، ما تثلج بأقلها الصدور ، وتطمئنّ بالتصديق معها النفوس ، وذلك مع تتابع الحجج عليهم ، وسبوغ النعم من الله لديهم ، وهم مع ذلك مرّة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله ، ومرة يعبدون العجل من دون الله ، ومرة يقولون لانصدقك حتى نرى الله جهرة ، وأخرى يقولون له ، إذا دعوا إلى القتال : (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ) ومرة يقال لهم (قُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ) فيقولون حنطة فى شعيرة ، ويدخلون الباب من قبل أستاههم ، مع غير ذلك من أفعالهم التى آذوا بها نبيهم عليه السلام ، التى يكثر إحصاؤها ، فأعلم ربنا تبارك وتعالى ذكره ، الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنهم لن يعدوا أن يكونوا فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجحودهم نبوّته ،

---

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى ب ، م ورأينا البيت فى بعض نسخ الديوان على هذا النحو :

من اللائى يظل الألف منه ينخا من مخافته نهارا

وشاهد المؤلف – رحمه الله – جاء فى بيت آخر من نفس القصيدة :

ولكن اللئام إذا هجونى غضبت فكان نصرتى الجهارا

وتركهم الإقرار به وبما جاء به ، مع علمهم به ، ومعرفتهم بحقيقة أمره، كأسلافهم وآبائهم الذين فصل عليهم قصصهم فى ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتوثبهم على نبيهم موسى صلوات الله وسلامه عليه، تارة بعد أخرى ، مع عظيم بلاء الله جل وعزّ عندهم ، وسبوغ آلائه عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى : (فأخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

اختلف أهل التأويل فى صفة الصاعقة التى أخذتهم .

فقال بعضهم بما حدثنا به الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) قال : ماتوا .

وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فأخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) قال : سمعوا صوتا فصعقوا . يقول : فماتوا .

وقال آخرون : بما حدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فأخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) ، والصاعقة : نار .

وقال آخرون بما حدثنا به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : أخذتهم الرجفة ، وهى الصاعقة، فماتوا جميعا ؛ وأصل الصاعقة : كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب ، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم ، أوفقد بعض آلات الجسم ، صوتا كان ذلك أو نارا ، أو زلزلة ، أو رجفا . ومما يدل على أنه قد يكون مصعوقا وهو حىّ غير ميت ، قول الله عزّ وجل (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً) يعنى مغشيا عليه ، ومنه قول جرير بن عطية :

وَهلْ كانَ الفَرَزْدَقُ غيرَ قِرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فاسْتَدَارَا

فقد علم أن موسى لم يكن حين غشى عليه وصعق ميتا ، لأن الله جل وعزّ أخبر عنه أنه لما أفاق، قال: (تُبْتُ إلَيْكَ) ولا شبه جرير الفرزدق وهو حىّ بالقرد ميتا ، ولكن معنى ذلك ما وصفنا .

ويعنى بقوله (وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) : وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التى أصابتكم ، يقول : أخذتكم الصاعقة عيانا جهارا وأنتم تنظرون إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

يعنى بقوله (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ) ثم أحييناكم ، وأصل البعث : إثارة الشىء من محله ، ومنه قيل : بعث فلان راحلته : إذا أثارها من مبركها للسير ، كما قال الشاعر :

فأبْعَثُها وَهِيَ صَنِيعُ حَوْلٍ كَرُكْنِ الرَّعْنِ ذِعْلِبَةً وَقَاحا

والرعن : منقطع أنف الجبل، والذعلبة : الخفيفة ، والوقاح : الشديدة الحافر أو الخفّ ، ومن ذلك قيل : بعثت فلانا لحاجتى : إذا أقمته من مكانه الذى هو فيه للتوجه فيها ، ومن ذلك قيل ليوم القيامة يوم البعث ، لأنه يوم يثار الناس فيه من قبورهم لموقف الحساب .

ويعنى بقوله (مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) : من بعد موتكم بالصاعقة التى أهلكتكم .

وقوله (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يقول : فعلنا بكم ذلك لتشكرونى على ما أوليتكم من نعمتى عليكم، بإحيائى إياكم استبقاء منى لكم، لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم، بعد إحلالى العقوبة بكم بالصاعقة، التى أحللتها بكم ، فأماتتكم بعظيم خطئكم الذى كان منكم فيما بينكم وبين ربكم . وهذا القول على تأويل من تأوّل قوله (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ) : ثم أحييناكم .

وقال آخرون : معنى قوله (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ) أى بعثناكم أنبياء . حدثنى بذلك موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى .

قال أبو جعفر : وتأويل الكلام على ما تأوله السدى : فأخذتكم الصاعقة ، ثم أحييناكم من بعد موتكم، وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم ، ثم بعثناكم أنبياء لعلكم تشكرون . وزعم السدى أن ذلك من المقدم الذى معناه التأخير ، والمؤخر الذى معناه التقديم .

حدثنا بذلك موسى ، قال : ثنا عمرو بن حماد، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، وهذا تأويل يدلّ ظاهر التلاوة على خلافه ، مع إجماع أهل التأويل على تخطئته . والواجب على تأويل السدى الذى حكيناه عنه ، أن يكون معنى قوله (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : تشكرونى على تصييرى إياكم أنبياء .

وكان سبب قيلهم لموسى ما أخبر الله جل وعزّ عنهم أنهم قالوا له من قولهم (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) ما حدثنا به محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، قال : لما رجع موسى إلى قومه ، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامرى ما قال ، وحرّق العجل وذرّاه فى اليم ، اختار موسى منهم سبعين رجلا ، الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله عزّ وجل ، فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ؛ فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم . فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا للقاء الله : يا موسى اطلب لنا إلى ربك لنسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل ! فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله . ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا ؛ وكان موسى إذا كلمه ربه ، وقع على جبهته نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم ، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ولا تفعل . فلما فرغ من أمره وانكشف عن موسى الغمام ، فأقبل إليهم ، فقالوا لموسى (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعا . وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ) قد سفهوا ، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما تفعل السفهاء منا ؟ أى إنّ هذا لهم هلاك ، اخترت منهم سبعين رجلا ، الخير فالخير ، أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد ، فما الذى يصدّقونى به أو يأمنونى عليه بعد هذا ؟ (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ، ويطلب إليه ، حتى ردّ إليهم أرواحهم . فطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا ، إلا أن يقتلوا أنفسهم .

حدثنى موسى بن هرون ، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال : ثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل ، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به ، أمر الله تعالى موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا. فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان (قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) ، فإنك قد كلمته فأرناه ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكى ، ويدعو الله ويقول : ربِّ ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم ، وقد أهلكت خيارهم؟ (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) ؟ فأوحى الله إلى موسى : إن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل. فذلك حين يقول موسى (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ) (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) وذلك قوله (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) ثم إن الله جل ثناؤه أحياهم، فقاموا وعاشوا رجلا رجلا ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فقالوا : يا موسى أنت تدعو الله فلا تسأله شيئا إلا أعطاك ، فادعه يجعلنا أنبياء ، فدعا الله تعالى ، فجعلهم أنبياء ، فذلك قوله (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) ، ولكنه قدّم حرفا وأخر حرفا .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح ، قد كتب فيها التوراة ، فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ، ففعلوا ، فتاب الله عليهم. فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، فيه أمره الذى أمركم به ، ونهيه الذى نهاكم عنه . فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابى فخذوه ! فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ، فيقول : هذا كتابى فخذوه ؟ وقرأ قول الله تعالى (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) قال : فجاءت غضبة من الله عز وجل ، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة ، فصعقتهم فماتوا أجمعون . قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم ، وقرأ قول الله تعالى (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا: لا ، فقال: أىّ شىء أصابكم ؟ قالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا، قال: خذوا كتاب الله ، قالوا: لا، فبعث الله تعالى ملائكة ، فنتقت الجبل فوقهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) قال : أخذتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله تعالى ليكملوا بقية آجالهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، فى قوله (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، قال : فسمعوا كلاما، فقالوا (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) قال : فسمعوا صوتا فصعقوا ، يقول : ماتوا ، فذلك قوله (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) ، فبعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم ذاك كان

عقوبة لهم ، فبعثوا لبقية آجالهم ، فهذا ما روى فى السبب الذى من أجله قالوا لموسى (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) .

ولا خبر عندنا بصحة شىء مما قاله من ذكرنا قوله فى سبب قيلهم ذلك لموسى ، تقوم به حجة ، فنسلم لهم ، وجائز أن يكون ذلك بعض ماقالوه ، فإذ كان لاخبربذلك تقوم به حجة ، فالصواب من القول فيه أن يقال : إن الله جل ثناؤه قد أخبرعن قوم موسى أنهم قالوا له (يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً) كما أخبر عنهم أنهم قالوه، وإنما أخبر الله عزّ وجلّ بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات ، توبيخا لهم فى كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قامت حجته على من احتج به عليه . ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعى لهم إلى قيل ذلك ، وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التى ذكرناها ، وجائز أن يكون بعضها حقا كما قال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُم) عطف على قوله (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) فتأويل الآية : ثم بعثناكم من بعد موتكم ، وظللنا عليكم الغمام . وعدّد عليهم سائر ما أنعم به عليهم ، لعلكم تشكرون . والغمام جمع غمامة ، كما السحاب جمع سحابة ، والغمام : هو ما غمّ السماء فألبسها ، من سحاب وقتام وغير ذلك ، مما يسترها عن أعين الناظرين ، وكل مغطًّى فإن العرب تسميه مغموما . وقد قيل : إن الغمام التى ظللها الله على بنى إسرائيل لم تكن سحابا .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) قال : ليس بالسحاب .

وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذى يأتى الله فيه يوم القيامة، لم يكن إلا لهم .

وحدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله جل ثناؤه (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) قال : هو بمنزلة السحاب .

وحدثنى القاسم بن الحسن ، قال: حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) قال : هوغمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذى يأتى الله عز وجل فيه يوم القيامة ، فى قوله (فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ) ، وهوالذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر ؛ قال ابن عباس : وكان معهم فى التيه ، وإذ كان معنى الغمام ما وصفنا مما غمّ السماء من شىء ، فغطى وجهها عن الناظر إليها ، فليس

الذى ظلله الله عز وجل على بنى إسرائيل فوصفه بأنه كان غماما، بأولى بوصفه إياه بذلك أن يكون سحابا، منه بأن يكون غير ذلك مما ألبس وجه السماء من شىء ، وقد قيل : إنه ما ابيضّ من السحاب .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ)

اختلف أهل التأويل فى صفة المنّ .

فقال بعضهم بما حدثنى به محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عز وجل (وأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ) قال : المنّ صمغة .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله ،

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنا عبد الرزاق ، قال : أنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) يقول : كان المنّ ينزل عليهم مثل الثلج .

وقال آخرون : هو شراب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : المنّ : شراب كان ينزل عليهم مثل العسل ، فيمزجونه بالماء ، ثم يشربونه .

وقال آخرون : المن : عسل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : المنّ : عسل ، كان ينزل لهم من السماء .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبوأحمد ، قال : حدثنا إسرائيل ، عن جابر ، عن عامر ، قال : عسلكم هذا جزء من سبعين جزءا من المنّ .

وقال آخرون : المنّ : خبز الرقاق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم ، قال : حدثنى عبد الصمد ، قال : سمعت وهبا ، وسئل ما المنّ ؟ قال : خبز الرقاق ، مثل الذرة ، ومثل النَّقِىّ .

وقال آخرون : المنّ : الترنجبين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : المنّ كان يسقط على شجر الترنجبين .

وقال آخرون : المنّ هو الذى يسقط على الشجر الذى تأكله الناس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى القاسم، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس، كان المنّ ينزل على شجرهم ، فيغدون عليه ، فيأكلون منه ما شاءوا .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا الحمانى ، قال : حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر، فى قوله (وأنزلنا عليكم المَنّ) قال : المنّ : الذى يقع على الشجر .

وحدثت عن المنجاب بن الحرث ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (المَنّ) قال : المن : الذى يسقط من السماء على الشجر ، فتأكله الناس .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر ، قال : المنّ : هذا الذى يقع على الشجر . وقد قيل إن المنّ : هو الترنجبين .

وقال بعضهم : المنّ : هو الذى يسقط على الثمام والعُشَر ، وهو حلو كالعسل ، وإياه عنى الأعشى ميمون بن قيس بقوله :

لَوْ أُطْعِمُوا المَنَّ وَالسَّلْوَى مكانَهُمُ   ما أبْصَرَ النّاسُ طُعْماً فيهِمُ نَجَعا

وتظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكمأةُ مِنَ المَنّ ، وَماؤُها شِفاءٌ لِلْعَيْنِ » .

وقال بعضهم : المنّ : شراب حلو كانوا يطبخونه فيشربونه . وأما أمية بن أبى الصلت فإنه جعله فى شعره عسلا ، فقال يصف أمرهم فى التيه وما رزقوا فيه :

فَرَأى اللهُ أنَّهُمْ بِمَضِيعٍ   لابِذِى مَزْرَعٍ وَلا مَثْمُورَا
فَسَناها عَلَيْهِمُ غادِياتٍ   ومَرَى مُزْنَهُمْ خَلايا وخُورَا
عَسَلاً ناطِفاً وَماءً فُراتاً   وَحَلِيباً ذا بَهْجَةٍ مَمْرُورَا

الممرور : الصافى من اللبن ، فجعل المنّ الذى كان ينزل عليهم عسلا ناطفا ، والناطف : هو القاطر .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَالسَّلْوَى) والسلوى : اسم طائر يشبه السمانى ، واحده وجماعه بلفظ واحد ، كذلك السمانى لفظ جماعها وواحدها سواء . وقد قيل : إن واحدة السلوى سلواة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنى عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم : السلوى : طير يشبه السمانى .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، قال : كان طيرا أكبر من السمانى .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : السلوى : طائر كانت تحشرها عليهم الريح الجنوب .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : السلوى : طائر .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : السلوى : طير .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا إسمعيل بن عبد الكريم ، قال : حدثني عبد الصمد ، قال : سمعت وهبا وسئل : ما السلوى ؟ فقال : طير سمين مثل الحمام .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : السلوى : طير .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : السلوى كان طيرا يأتيهم مثل السمانى .

حدثني المثنى ، ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر ، قال : السلوى : السمانى .

حدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : السلوى : هو السمانى .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : أخبرنا أبوأحمد ، قال : ثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر ، قال : السلوى : السمانى .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبوعامر ، قال : ثنا قرة ، عن الضحاك ، قال : السمانى هو السلوى .

فإن قال قائل : وما سبب تظليل الله جل ثناؤه الغمام ، وإنزاله المنّ والسلوى على هؤلاء القوم ؟ قيل : قد اختلف أهل العلم فى ذلك ، ونحن ذاكرون ماحضرنا منه .

فحدثنا موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط بن نصر ، عن السدى لما تاب الله على قوم موسى ، وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى ، بعد ما أماتهم ، أمرهم الله بالمسير إلى أريحا ، وهى أرض بيت المقدس ، فساروا حتى إذا كانوا قريبا منها ، بعث موسى اثنى عشر نقيبا ، وكان من أمرهم وأمر الجبارين وأمر قوم موسى ، ما قد قصّ الله فى كتابه ، فقال قوم موسى لموسى (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قاعِدُونَ) فغضب موسى ، فدعا عليهم ، فقال (رَبِّ إِنِّي لاأَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وأخي فافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الفاسِقِينَ) فكانت عجلة من موسى عجلها ، فقال الله تعالى (إِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ) فلما ضرب عليهم التيه ندم موسى ، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه ، فقالوا له : ماصنعت بنا يا موسى ؟ (فلما) ندم أوحى الله إليه أن (لاتأسَ على القَوْمِ الفاسِقِينَ) : أى لاتحزن على القوم الذين سميتهم فاسقين ، فلم يحزن ، فقالوا : يا موسى ! كيف لنا بماء ههنا ، أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ ، فكان يسقط على شجر الترنجبين ، والسلوى : وهو طير يشبه السمانى ، فكان يأتى أحدهم ، فينظر إلى الطير إن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمن أتاه ، فقالوا : هذا الطعام ، فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فشرب

كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الطعام والشراب ، فأين الظلّ ؟ فظلل عليهم الغمام ، فقالوا : هذا الظلّ فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ، ولا يتخرّق لهم ثوب ، فذلك قوله (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) وقوله (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : لما تاب الله عز وجل على بنى إسرائيل ، وأمر موسى أن يرفع عنهم السيف من عبادة العجل ، أمر موسى أن يسير بهم إلى الأرض المقدسة ، وقال : إنى قد كتبتها لكم دارا وقرارا ومنزلا ، فاخرج إليها ، وجاهد من فيها من العدوّ ، فإنى ناصركم عليهم ؛ فسار بهم موسى إلى الأرض المقدسة ، بأمر الله عزّ وجل ، حتى إذا نزل التيه بين مصر والشام ، وهى أرض ليس فيها خمر [1] ولا ظلّ ، دعا موسى ربه حين آذاهم الحرّ ، فظلل عليهم بالغمام ، ودعا لهم با لرزق ، فأنزل الله لهم المنّ والسلوى .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، وحدثت عن عمار بن الحسن ، ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) قال : ظلل عليهم الغمام فى التيه ؛ تاهوا فى خمسة فراسخ أو ستة ، كلما أصبحوا ساروا غادين ، فأمسوا فإذا هم فى مكانهم الذى ارتحلوا منه ، فكانوا كذلك حتى مرّت أربعون سنة ، قال : وهم فى ذلك ينزل عليهم المنّ والسلوى ، ولا تبلى ثيابهم ، ومعهم حجر من حجارة الطور يحملونه معهم ، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا إسمعيل بن عبد الكريم ، قال : حدثنى عبد الصمد ، قال : سمعت وهبا يقول : إن بنى إسرائيل لما حرّم الله عليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، شكوا إلى موسى ، فقالوا : ما نأكل ؟ فقال : إن الله سيأتيكم بما تأكلون ، قالوا : من أين لنا إلا أن يمطر علينا خبزا ؟ قال : إن الله عز وجل سينزل عليكم خبزا مخبوزا . فكان ينزل عليهم المنّ .

سئل وهب : ما المنّ ؟ قال : خبز الرقاق ، مثل الذرة أو مثل النَّقِىّ ، قالوا : وما نأتدم ، وهل بدّ لنا من لحم ؟ قال : فإن الله يأتيكم به ، فقالوا : من أين لنا إلا أن تأتينا به الريح ؟ قال : فإن الريح تأتيكم به ، وكانت الريح تأتيهم بالسلوى . فسئل وهب ، ما السلوى ؟ قال : طير سمين مثل الحمام ، كانت تأتيهم ، فيأخذون منه من السبت إلى السبت ، قالوا : فما نلبس ؟ قال : لايخلق لأحد منكم ثوب أربعين سنة ، قالوا : فما نحتذى ؟ قال : لاينقطع لأحدكم شسع أربعين سنة ، قالوا : فإن فينا أولادا فما نكسوهم ؟ قال : ثوب الصغير يشبّ معه ، قالوا : فمن أين لنا الماء ؟ قال : يأتيكم به الله ، قالوا : فمن أين إلا أن يخرج لنا من الحجر ؟ فأمر الله تبارك وتعالى موسى أن يضرب بعصاه الحجر ، قالوا : فبم نبصر ؟ تغشانا الظلمة ،

---

(١) الخمر محركة : كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره .

فضرب لهم عمود من نور فى وسط عسكرهم أضاء عسكرهم كله ، قالوا : فيم نستظلّ ، فإن الشمس علينا شديدة ؟ قال : يظلكم الله بالغمام .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب : قال ابن زيد ، فذكر نحو حديث موسى ابن هرون ، عن عمرو بن حماد ، عن أسباط ، عن السدى .

حدثنى القاسم بن الحسن ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال عبد الله بن عباس : خلق لهم فى التيه ثياب لاتخلق ولا تدرن ، قال : وقال ابن جريج : إن أخذ الرجل من المنّ والسلوى فوق طعام يوم فسد ، إلا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت ، فلا يصبح فاسدا .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ) .

وهذا مما استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه ، وذلك أن تأويل الآية : وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، وقلنا لكم : كلوا من طيبات ما رزقناكم . فترك ذكر قوله : وقلنا لكم ... لما بينا من دلالة الظاهر فى الخطاب عليه . وعنى جل ذكره بقوله (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ) كلوا من مشتهيات رزقنا الذى رزقناكموه . وقد قيل عنى بقوله (مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ) من حلاله الذى أبحناه لكم ، فجعلناه لكم رزقا . والأول من القولين أولى بالتأويل ، لأنه وصف ما كان القوم فيه من هنىء العيش الذى أعطاهم ، فوصف ذلك بالطيب الذى هو بمعنى اللذّة ، أحرى من وصفه بأنه حلال مباح ، و« ما » التى مع رزقناكم بمعنى « الذى » كأنه قيل : كلوا من طيبات الرزق الذى رزقناكموه .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وهذا أيضا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه ، وذلك أن معنى الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم ، وما ظلمونا ، فاكتفى بما ظهر عما ترك . وقوله (وَمَا ظَلَمُونَا) يقول : وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ويعنى بقوله (وَمَا ظَلَمُونَا) : وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرّة علينا ، ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرّة عليها ومنقصة لها .

كما حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) قال : يضرّون . وقد دللنا فيما مضى على أن أصل الظلم وضع الشىء فى غير موضعه بما فيه الكفاية ، فأغنى ذلك عن إعادته . وكذلك ربنا جل ذكره لاتضرّه معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ، ولا تنفعه طاعة مطيع ، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل ، بل نفسه يظلم الظالم ، وحظها يبخس العاصى ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)

والقرية التى أمرهم الله جل ثناؤه أن يدخلوها ، فيأكلوا منها رغدا حيث شاءوا ، فيما ذكر لنا : بيت المقدس.

ذكر الرواية بذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر ، عن قتادة فى قوله (ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ) قال : بيت المقدس .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنى عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ) : أما القرية فقرية بيت المقدس .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ) : يعنى بيت المقدس .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألته ـ يعنى ابن زيد ـ عن قوله (ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا) قال : هى أريحا ، وهى قريبة من بيت المقدس .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا)

يعنى بذلك : فكلوا من هذه القرية حيث شئتم ، عيشا هنيا واسعا بغير حساب ، وقد بينا معنى الرغد فيما مضى من كتابنا ، وذكرنا أقوال أهل التأويل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا)

أما الباب الذى أمروا أن يدخلوه ، فإنه قيل : هو باب الحطة من بيت المقدس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) قال : باب الحطة من باب إيلياء من بيت المقدس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) : أما الباب فباب من أبواب بيت المقدس .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) : أنه أحد أبواب بيت المقدس ، وهو يدعى باب حطة .

وأما قوله (سُجَّدًا) فإن ابن عباس كان يتأوله بمعنى الركع .

حدثنى محمد بن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن

عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله (ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا) قال : ركعا من باب صغير .

حدثنا الحسن بن الزبرقان النخعى ، قال : ثنا أبو أسامة ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد ، عن ابن عباس فى قوله (ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا) قال : أمروا أن يدخلوا ركعا ، وأصل السجود : الانحناء لمن سجد له معظما بذلك ، فكل منحن لشىء تعظيما له فهو ساجد ، ومنه قول الشاعر :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ

يعنى بقوله : سجدا : خاشعة خاضعة ، ومن ذلك قول أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ المَلِيـكِ ... طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا

فذلك تأويل ابن عباس قوله (سُجَّدًا) ركعا ، لأن الراكع منحن ، وإن كان الساجد أشدّ انحناء منه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَقُولُوا حِطَّةٌ)

وتأويل قوله (حِطَّةٌ) فعلة من قول القائل : حطّ الله عنك خطاياك ، فهو يحطها حطة ، بمنزلة الردة والحدّة والمدة ، من حددت ومددت .

واختلف أهل التأويل فى تأويله ، فقال بعضهم بنحو الذى قلنا فى ذلك .

ذكر من قال ذلك منهم :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال أنا معمر (وَقُولُوا حِطَّةٌ) قال الحسن وقتادة : أى احطط عنا خطايانا .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَقُولُوا حِطَّةٌ) : يحطّ الله بها عنكم ذنبكم وخطاياكم .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال ابن عباس (قُولُوا حِطَّةٌ) قال : يحطّ عنكم خطاياكم .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قوله (حِطَّةٌ) : مغفرة .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (حِطَّةٌ) قال : يحطّ عنكم خطاياكم .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : أخبرنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال لى عطاء فى قوله (وَقُولُوا حِطَّةٌ) قال : سمعنا أنه يحطّ عنهم خطاياهم .

وقال آخرون : معنى ذلك : قولوا لاإله إلا الله ، كأنهم وجهوا تأويله : قولوا الذى يحطّ عنكم خطاياكم ، وهو قول لا إله إلا الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى وسعد بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى ، قالا : أخبرنا حفص بن عمر ، ثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة (وَقُولُوا حِطَّةٌ) قال : قولوا لاإله إلا الله .

وقال آخرون بمثل معنى قول عكرمة ، إلا أنهم جعلوا القول الذى أمروا بقيله الاستغفار .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن الزبرقان النخعي ، ثنا أبوأسامة ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس (وَقُولُوا حِطَّةٌ) قال : أمروا أن يستغفروا .

وقال آخرون نظير قول عكرمة ، إلا أنهم قالوا : القول الذى أمروا أن يقولوه هو أن يقولوا ، هذا الأمر حقٌ كما قيل لكم .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَقُولُوا حِطَّةٌ) قال : قولوا هذا الأمر حقٌ ، كما قيل لكم .

واختلف أهل العربية فى المعنى الذى من أجله رفعت الحطة ، فقال بعض نحويي البصرة : رفعت الحطة بمعنى : قولوا ليكن منك حطة لذنوبنا ، كما تقول للرجل سمعك .

وقال آخرون منهم : هى كلمة أمرهم الله أن يقولوها مرفوعة ، وفرض عليهم قيلها كذلك .

وقال بعض نحويي الكوفيين : رفعت الحطة بضمير « هذه » ، كأنه قال : وقولوا هذه حطة .

وقال آخرون منهم : هى مرفوعة بضمير معناه الخبر ، كأنه قال : قولوا ما هو حطة ، فتكون حطة حينئذ خبرا لما .

والذى هو أقرب عندى فى ذلك إلى الصواب ، وأشبه بظاهر الكتاب ، أن يكون رفع حطة بنية خبر محذوف قد دل عليه ظاهر التلاوة ، وهو دخولنا الباب سجدا حطة ، فكفى من تكريره بهذا اللفظ ما دلّ عليه الظاهر من التنزيل ، وهو قوله (وَادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا) كما قال جل ثناؤه (وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا قالُوا مَعْذِرَةٌ إلى رَبِّكُمْ) يعنى موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم ، فكذلك عندى تأويل قوله (وقُولُوا حِطَّةٌ) يعنى بذلك : (وَإِذْ قُلْنا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ ، وَادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا وَقُولُوا) دخولنا ذلك سجدا (حِطَّةٌ) لذنوبنا ، وهذا القول على نحو تأويل الربيع بن أنس وابن جريج وابن زيد الذى ذكرناه آنفا .

وأما على تأويل قول عكرمة ، فإن الواجب أن تكون القراءة بالنصب فى حطة ، لأن القوم إن كانوا أمروا أن يقولوا : لاإله إلا الله ، أو أن يقولوا : نستغفر الله ، فقد قيل لهم : قولوا هذا القول ، فقولوا واقع حينئذ على الحطة ، لأن الحطة على قول عكرمة هى قول لاإله إلا الله ، وإذ كانت هى قول لاإله إلا الله ، فالقول عليها واقع ، كما لو أمر رجل رجلا بقول الخير ، فقال له : قل خيرا نصبا ، ولم يكن صوابا أن يقول له قل خير إلا على استكراه شديد .

وفى إجماع القراء على رفع الحطة ، بيان واضح على خلاف الذى قاله عكرمة من التأويل فى قوله (وقُولُوا حِطَّةٌ) وكذلك الواجب على التأويل الذى رويناه عن الحسن وقتادة فى قوله (وَقُولُوا حِطَّةٌ) : أن تكون

القراءة فى حطة نصبا ، لأن من شأن العرب إذا وضعوا المصادر مواضع الأفعال وحذفوا الأفعال أن ينصبوا المصادر ، كما قال الشاعر :

أُبِيدوا بِأَيْدِي عُصْبَةٍ وَسُيُوفُهُمْ   على أُمَّهاتِ الهَامِ ضَرْبًا شآمِيا

وكقول القائل للرجل : سمعا وطاعة ، بمعنى أسمع سمعا وأطيع طاعة ، وكما قال جل ثناؤه : مَعَاذَ الله بمعنى نعوذ بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى (نَغْفِرْ لَكُمْ)

يعنى بقوله (نَغْفِرْ لَكُمْ) نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم ونسترها عليكم ، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها ، وأصل الغفر : التغطية والستر ، فكل ساتر شيئا فهو غافره . ومن ذلك قيل للبيضة من الحديد التى تتخذ جنة للرأس مغفر ، لأنها تغطى الرأس وتجنه ، ومنه غمد السيف ، وهو ما يغمده فيواريه ، ولذلك قيل : لزئبر الثوب غفر ، لتغطيته العورة ، وحوله بين الناظر والنظر إليها ، ومنه قول أوس بن حجر :

فَلا أَعْتِبُ ابنَ العَمِّ إنْ كانَ جاهِلا   وأغْفِرُ عَنْهُ الجَهْلَ إنْ كانَ أجْهَلا

يعنى بقوله : وأغفر عنه الجهل : أستر عليه جهله بحلمى عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى (خَطَايَاكُمْ) والخطايا جمع خطية بغير همز ، كما المطايا جمع مطية ، والحشايا جمع حشية ، وإنما ترك جمع الخطايا بالهمز ، لأن ترك الهمز فى خطيئة أكثر من الهمز ، فجمع على خطايا ، على أن واحدتها غير مهموزة ، ولو كانت الخطايا مجموعة على خطيئة بالهمز ، لقيل خطائى على مثل قبيلة وقبائل ، وصحيفة وصحائف ، وقد تجمع خطيئة بالتاء فيهمز فيقال خطيئات ، والخطيئة فعيلة من خطئ الرجل يخطأ خطأ ، وذلك إذا عدل عن سبيل الحق ، ومنه قول الشاعر :

وَإِنَّ مُهاجِرَيْنِ تَكَنَّفَاهُ   لَعَمْرُ اللهِ قَدْ خَطِئا وَخابا

يعنى أضلا الحقّ وأثما .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ)

وتأويل ذلك ما روى لنا عن ابن عباس ، وهو ما حدثنا به القاسم بن الحسن ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس (وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ) : من كان منكم محسنا زيد فى إحسانه ، ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته .

فتأويل الآية : وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ، مباحا لكم كل ما فيها من الطيبات ، موسعا عليكم بغير حساب ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا : سجودنا هذا لله حطة من ربنا لذنوبنا ، يحطّ به آثامنا ، نتغمد لكم ذنوب المذنب منكم ، فنسترها عليه ، ونحطّ أوزاره عنه ، وسنزيد المحسنين منكم إلى إحساننا السالف عنده إحسانا ، ثم أخبر الله جل ثناؤه عن عظيم جهالتهم ، وسوء طاعتهم ربهم ، وعصيانهم لأنبيائهم ، واستهزائهم برسله ، مع عظيم آلاء الله عز وجل عندهم ، وعجائب ما أراهم من آياته وعبره ، موبخا بذلك أبناءهم ، الذين خوطبوا بهذه الآيات ، ومعلمهم أنهم إن تعدّوا فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ،

وجحودهم نبوته، مع عظيم إحسان الله بمبعثه فيهم إليهم، وعجائب ما أظهر على يديه من الحجج بين أظهرهم، أن يكونوا كأسلافهم الذين وصف صفتهم، وقص علينا أنباءهم فى هذه الآيات، فقال جل ثناؤه: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيرَ الَّذى قيلَ لَهُمْ، فأنزلْنا على الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّماءِ) الآية . . .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

وتأويل قوله (فَبَدَّلَ) فغير، ويعنى بقوله (الَّذِينَ ظَلَمُوا): الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله. ويعنى بقوله (قَوْلاً غيرَ الَّذِى) قيل لهم: بدلوا قولا غير الذى أمروا أن يقولوه فقالوا خلافه. وذلك هو التبديل والتغيير الذى كان منهم.

وكان تبديلهم بالقول الذى أمروا أن يقولوه قولا غيره: ما حدثنا به الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قالَ اللهُ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ. فَبَدَّلُوا وَدَخَلُوا البابَ يَزْحَفُونَ على أَسْتاهِهِم، وَقالُوا: حَبَّةٌ فى شَعِيرَةٍ!

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة وعلىّ بن مجاهد، قالا: حدثنا محمد بن إسحق، عن صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوءمة، عن أبى هريرة، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم. قال: وحدثت عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير، أو عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: دَخَلُوا البابَ الَّذِى أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا مِنْهُ سُجَّدًا يَزْحَفُونَ على أَسْتاهِهِمْ، يَقُولُونَ: حِنْطَةٌ فى شَعِيرَةٍ.

وحدثنى محمد بن عبد الله المحاربى، قال: حدثنا عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (حِطَّةٌ) قال: بدلوا فقالوا: حبة.

حدثنا ابن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، قال: حدثنا سفيان، عن السدى، عن أبى سعيد عن أبى الكنود، عن عبد الله (ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ) قالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيرَ الَّذى قيلَ لَهُمْ).

حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، قال: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله (ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا) قال: ركوعا من باب صغير، فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم، ويقولون: حنطة، فذلك قوله (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيرَ الَّذى قيل لَهُمْ).

حدثنا الحسن بن الزبرقان النخعى، قال: حدثنا أبو أسامة، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال،

عن سعيد ، عن ابن عباس، قال : أمروا أن يدخلوا ركعا، ويقولوا حطة ، قال : أمروا أن يستغفروا، قال : فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم من باب صغير ، ويقولون : حنطة ، يستهزئون ، فذلك قوله (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر ، عن قتادة والحسن (ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) قالا : دخلوها على غير الجهة التى أمروا بها ، فدخلوها متزحفين على أوراكهم ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم ، فقالوا : حبة فى شعيرة .

حدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، قال : أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجدا، ويقولوا حطة، وطؤطئ لهم الباب ليسجدوا، فلم يسجدوا ، ودخلوا على أدبارهم ، وقالوا : حنطة !

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : أمر موسى قومه أن يدخلوا المسجد، ويقولوا حطة، وطؤطئ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم، فلم يسجدوا ودخلوا على أستاههم إلى الجبل ، وهو الجبل الذى تجلى له ربه وقالوا : حنطة ! فذلك التبديل الذى قال الله عز وجل (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) .

حدثنى موسى بن هرون الهمدانى [1] عن ابن مسعود أنه قال : إنهم قالوا : « هطى سمقا يا ازبة هزبا » ؛ وهو بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء ، فذلك قوله (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) قال : فدخلوا على أستاههم مقنعى رءوسهم .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى النضر بن عدىّ ، عن عكرمة (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) ، فدخلوا مقنعى رءوسهم (وَقُولُوا حِطَّةٌ) فقالوا : حنطة حمراء فيها شعيرة ، فذلك قوله (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ) قال : فكان سجود أحدهم على خده ، وقولوا حطة : نحطّ عنكم خطاياكم ، فقالوا : حنطة ، وقال بعضهم : حبة فى شعيرة (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ) يحط الله بها عنكم ذنبكم وخطيئاتكم ، قال : فاستهزءوا به ـ يعنى بموسى ـ وقالوا : ما يشاء موسى أن يلعب بنا إلا لعب بنا ! حطة حطة ، أى شىء حطة ؟! وقال بعضهم لبعض : حنطة .

---

(١) هكذا بالنسخ ، وفيه انقطاع ، إذ حذف مابين شيخه وبين ابن مسعود .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنى الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، وقال ابن عباس : لما دخلوا قالوا : حبة فى شعيرة .

حدثنى محمد بن سعيد ، قال : حدثنى أبى سعيد بن محمد بن الحسن ، قال : أخبرنى عمى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : لما دخلوا الباب قالوا حبة فى شعيرة ، فبدلوا قولا غير الذى قيل لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ)

يعنى بقوله (فأنزلنا على الذين ظلموا) على الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله، من تبديلهم القول الذى أمرهم الله جل وعزّ أن يقولوه قولا غيره، ومعصيتهم إياه فيما أمرهم به وبركوبهم ما قد نهاهم عن ركوبه (رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) والرجز فى لغة العرب : العذاب ، وهو غير الرجز ، وذلك أن الرجز : البثر ، ومنه الخبر الذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الطاعون أنه قال : « إِنَّهُ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ » .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ هَذَا الوَجَعَ أَوِ السَّقَمَ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ » .

وحدثنى أبوشيبة بن أبى بكر بن أبى شيبة ، قال : حدثنا عمر بن حفص ، قال : حدثنا أبى عن الشيبانى عن رباح بن عبيدة ، عن عامر بن سعد ، قال : شهدت أسامة بن زيد عند سعد بن مالك يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الطَّاعُونَ رِجْزٌ أُنْزِلَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَوْ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ». وبمثل الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنا عبد الرزاق ، قال : أنا معمر ، عن قتادة فى قوله (رِجْزًا) قال : عذابا .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء) قال : الرجز : الغضب .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : لما قيل لبنى إسرائيل (ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ) (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ) بعث الله جل وعز عليهم الطاعون ، فلم يبق منهم أحدا ، وقرأ (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) قال : وبقى الأبناء ، ففيهم الفضل والعبادة التى توصف فى بنى إسرائيل والخير وهلك الآباء كلهم ، أهلكهم الطاعون .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الرجز : العذاب ، وكل شىء فى القرآن رجز فهو عذاب .

حدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (رِجْزًا) قال : كل شيء فى كتاب الله من الرجز ، يعنى به العذاب .

وقد دللنا على أن تأويل الرجز : العذاب ، وعذاب الله جل ثناؤه أصناف مختلفة ، وقد أخبر الله جل ثناوه أنه أنزل على الذين وصفنا أمرهم الرجز من السماء ، وجائز أن يكون ذلك طاعونا ، وجائز أن يكون غيره ، ولا دلالة فى ظاهر القرآن ، ولا فى أثر عن الرسول ثابت أىّ أصناف ذلك كان .

فالصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله عزّ وجل (فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) بفسقهم ، غير أنه يغلب على النفس صحة ما قاله ابن زيد للخبر الذى ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إخباره عن الطاعون أنه رِجز ، وأنه عذّب به قوم قبلنا ، وإن كنت لاأقول إن ذلك كذلك يقينا ، لأن الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لابيان فيه ، أىّ أمة عذّبت بذلك ، وقد يجوز أن يكون الذين عذبوا به كانوا غير الذين وصف الله صفتهم فى قوله (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ)

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) .

وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى الفسق : الخروج من الشيء ، فتأويل قوله (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) إذًا بما كانوا يتركون طاعة الله عزّ وجلّ ، فيخرجون عنها إلى معصيته وخلاف أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

يعنى بقوله (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) : وإذ استسقانا موسى لقومه : أى سألنا أن نسقى قومه ماء ، فترك ذكر المسئول ذلك والمعنى الذى سأل موسى ، إذ كان فيما ذكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى ما ترك ، وكذلك قوله (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) مما استغنى بدلالة الظاهر على المتروك منه ، وذلك أن معنى الكلام ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فضربه فانفجرت ، فترك ذكر الخبر عن ضرب موسى الحجر ، إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه ، وكذلك قوله (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) إنما معناه : قد علم كل أناس منهم مشربهم ، فترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه . وقد دللنا فيما مضى على أن الناس جمع لاواحد له من لفظه ، وأن الإنسان لو جمع على لفظه لقيل : أناسى وأناسية ، وقوم موسىّ هم بنو إسرائيل الذين قصّ الله عز وجل قصصهم فى هذه الآيات ، وإنما استسقى لهم ربه الماء فى الحال التى تاهوا فيها فى التيه .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة : قوله (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) الآية قال : كان هذا إذ هم فى البرية اشتكوا إلى نبيهم الظمأ ، فأمروا

بحجر طورىّ، أى من الطور، أن يضربه موسى بعصاه ، فكانوا يحملونه معهم ، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، لكل سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم .

حدثني تميم بن المنتصر ، قال : حدثنا يزيد بن هرون ، قال : حدثنا أصبغ بن زيد ، عن القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : ذلك فى التيه؛ ظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وجعل لهم ثيابا لاتبلى ، ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع ، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية منه ثلاث عيون ، لكل سبط عين ، ولا يرتحلون منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان به معهم فى المنزل الأول .

حدثني عبد الكريم ، قال : أخبرنا إبراهيم بن بشار ، قال : حدثنا سفيان ، عن أبي سعيد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : ذلك فى التيه ، ضرب لهم موسى الحجر ، فصار فيه اثنتا عشرة عينا من ماء ، لكل سبط منهم عين يشربون منها .

وحدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) لكل سبط منهم عين ، كل ذلك كان فى تيههم حين تاهوا .

حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : قوله (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) قال : خافوا الظمأ فى تيههم حين تاهوا ، فانفجر لهم الحجر اثنتى عشرة عينا ضربه موسى . قال ابن جريج ، قال ابن عباس : الأسباط : بنو يعقوب كانوا اثنى عشر رجلا ، كل واحد منهم ولد سبطا وأمة من الناس .

وحدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : استسقى لهم موسى فى التيه ، فسقوا فى حجر مثل رأس الشاة ، قال : يلقونه فى جانب الجوالق إذا ارتحلوا ، ويقرعه موسى بالعصا إذا نزل ، فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط منهم عين ، فكان بنو إسرائيل يشربون منه ، حتى إذا كان الرحيل استمسكت العيون ، وقيل به فألقى فى جانب الجوالق ، فإذا نزل رمى به ، فقرعه بالعصا ، فتفجرت عين من كل ناحية مثل البحر .

حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثني أسباط ، عن السدى ، قال : كان ذلك فى التيه .

وأما قوله (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) فإنما أخبر الله عنهم بذلك ؛ لأن معناهم فى الذى أخرج الله جل وعز لهم من الحجر الذى وصف جل ذكره فى هذه الآية صفته من الشرب ، كان مخالفا معانى سائر الخلق فيما أخرج الله لهم من المياه من الجبال والأرضين التى لامالك لها سوى الله عزّ وجل ، وذلك أن الله كان جعل لكل سبط من الأسباط الاثنى عشر عينا من الحجر الذى وصف صفته فى هذه الآية، يشرب منها دون سائر الأسباط غيره ، لايدخل سبط منهم فى شرب سبط غيره، وكان مع ذلك لكل عين من تلك

العيون الاثنتى عشرة موضع من الحجر ، قد عرفه السبط الذى منه شربه ، فلذلك خصّ جل ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم ، أن كل أناس منهم كانوا عالمين بمشربهم ، دون غيرهم من الناس ، إذ كان غيرهم فى الماء الذى لايملكه أحد شركاء فى منابعه ومسايله ، وكان كل سبط من هؤلاء مفردا بشرب منبع من منابع الحجر دون سائر منابعه خاصّ ، لهم دون سائر الأسباط غيرهم ، فلذلك خصوا بالخبر عنهم أن كل أناس منهم قد علموا مشربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ) .

وهذا أيضا مما استغنى بذكر ما هو ظاهر منه عن ذكره ما ترك ذكره ، وذلك أن تأويل الكلام (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، فقيل لهم : كلوا واشربوا من رزق الله ؛ أخبر الله جل ثناؤه أنه أمرهم بأكل ما رزقهم فى التيه من المنّ والسلوى ، وبشرب ما فجر لهم فيه من الماء من الحجر المتعاوَر الذى لاقرار له فى الأرض ، ولا سبيل إليه لمالكية ، يتدفق بعيون الماء ، ويزخر بينابيع العذب الفرات ، بقدرة ذى الجلال والإكرام ، ثم تقدم جل ذكره إليهم مع إباحتهم ما أباح ، وإنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من العيش الهنىء ، بالنهى عن السعى فى الأرض فسادا ، والعثا فيها استكبارا ، فقال جل ثناؤه لهم (وَلا تَعْثَوْا فى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

يعنى بقوله (لاتَعْثَوْا) لاتطغوا ، ولا تسعوا فى الأرض مفسدين .

كما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) يقول : لاتسعوا فى الأرض فسادا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) لاتعث : لاتطغ .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة (وَلا تَعْثَوْا فى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى لاتسيروا فى الأرض مفسدين .

حُدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَلا تَعْثَوْا فى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : لاتسعوا فى الأرض ، وأصل العثا : شدّة الإفساد ، بل هو أشدّ الإفساد ، يقال منه : عَثِىَ فلان فى الأرض : إذا تجاوز فى الإفساد إلى غايته ، يَعْثَى عَثًا مقصور ، وللجماعة هم يعثون ، وفيه لغتان أخريان : إحداهما عثا يعثو عثوّا ، ومن قرأها بهذه اللغة ، فإنه ينبغى له أن يضم الثاء من يعثو ، ولا أعلم قارئا يقتدى بقراءته قرأ به ، ومن نطق بهذه اللغة مخبرا عن نفسه قال : عثوت أعثو ، ومن نطق باللغة الأولى ، قال : عثِيت أعثَى ، والأخرى منهما عاث يعيث عيثا وعيوثا وعيثانا ، كل ذلك بمعنى واحد ، ومن العيث قول رؤبة بن العجاج :

وَعاثَ فينا مُسْتَحِلٌ عائِثُ مُصَدِّقٌ أَوْ تاجِرٌ مُقاعِثُ

يعني بقوله عاث فينا : أفسد فينا .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذٰلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

قد دللنا فيما مضى قبل على معنى الصبر ، وأنه كفّ النفس وحبسها عن الشيء ، فإذا كان ذلك كذلك ؛ فمعنى الآية إذًا : واذكروا إذ قلتم يا معشر بنى إسرائيل لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد ، وذلك الطعام الواحد هو ما أخبر الله جل ثناؤه أنه أطعمهموه فى تيههم وهو السلوى فى قول بعض أهل التأويل ؛ وفى قول وهب بن منبه هو الخبز النقيّ مع اللحم ، فاسأل لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من البقل والقثاء ، وما سمّى الله مع ذلك ، وذكر أنهم سألوه موسى .

وكان سبب مسألتهم موسى ذلك فيما بلغنا ، ما حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ على طَعامٍ واحِدٍ) قال : كان القوم فى البرية قد ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، فملوا ذلك ، وذكروا عيشا كان لهم بمصر ، فسألوه موسى ، فقال الله تعالى (اهْبِطُوا مِصْرًا فإِنَّ لَكُمْ ما سأَلْتُمْ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لَنْ نَصْبِرَ على طَعامٍ واحِدٍ) قال : ملوا طعامهم ، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه قبل ذلك (قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها) . . . الآية .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ على طَعامٍ واحِدٍ) قال : كان طعامهم السلوى ، وشرابهم المنّ ، فسألوا ما ذكر ، فقيل لهم (اهْبِطُوا مِصْرًا فإِنَّ لَكُمْ ما سأَلْتُمْ)

قال أبو جعفر ، وقال قتادة : إنهم لما قدموا الشأم ، فقدوا أطعمتهم التى كانوا يأكلونها ، فقالوا : (ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها) وكانوا قد ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، فملوا ذلك ، وذكروا عيشا كانوا فيه بمصر .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، قال : سمعت ابن أبي نجيح في قوله عزّ وجلّ (لَنْ نَصْبِرَ على طَعامٍ واحِدٍ) : المنّ والسلوى ، فاستبدلوا به البقل وما ذكر معه .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد بمثله سواء .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد بمثله .

حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : أعطوا في التيه ما أعطوا ، فملوا ذلك وقالوا (يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ على طَعامٍ واحِدٍ فادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها) .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أنبأنا ابن زيد ، قال : كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدا ، وشرابهم واحدا ؛ كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له المنّ ، وطعامهم طير يقال له السلوى ، يأكلون الطير ، ويشربون العسل لم يكونوا يعرفون خبزا ولا غيره ، فقالوا يا موسى إنا لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ، فقرأ حتى بلغ (اهْبِطُوا مِصْرًا فإنَّ لَكُمْ ما سأَلْتُمْ) وإنما قال جل ذكره (يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ) ولم يذكر الذى سألوه أن يدعو ربه ليخرج لهم من الأرض ، فيقول : قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا كذا وكذا مما تنبته الأرض من بقلها وقثائها ، لأن من تأتى بمعنى التبعيض لما بعدها ، فاكتفى بها عن ذكر التبعيض ، إذ كان معلوما بدخولها معنى ما أريد بالكلام الذى هى فيه ، كقول القائل : أصبح اليوم عند فلان من الطعام يريد شيئا منه .

وقد قال بعضهم : من ههنا بمعنى الإلغاء والإسقاط ، كأنّ معنى الكلام عنده يخرج لنا ما تنبت الأرض من بقلها ، واستشهد على ذلك بقول العرب : ما رأيت من أحد ، بمعنى : ما رأيت أحدا ، وبقول الله (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ) وبقولهم : قد كان من حديث : فخلّ عنى حتى أذهب ، يريدون : قد كان حديث .

وقد أنكر من أهل العربية جماعة أن تكون من بمعنى الإلغاء فى شىء من الكلام ، وادّعوا أنّ دخولها فى كل موضع دخلت فيه مؤذن أن المتكلم مريد لبعض ما أدخلت فيه لاجميعه ، وأنها لاتدخل فى موضع إلا لمعنى مفهوم .

فتأويل الكلام إذًا على ما وصفنا من أمر من ذكرنا : فادع لنا ربك يخرج لنا بعض ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ؛ والبقل والقثاء والعدس والبصل : هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبها .

وأما الفُوم ، فإن أهل التأويل اختلفوا فيه . فقال بعضهم : هو الحنطة والخبز .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبو أحمد ومؤمل ، قالا : ثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء ، قال : الفُوم : الخبز .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبوأحمد ، ثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ومجاهد قوله (وَفُومِها) قالا : خبزها .

حدثنى زكريا بن يحيى بن أبى زائدة ومحمد بن عمرو ، قالا : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَفُومِها) قال : الخبز .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة والحسن : الفوم : هو الحبّ الذى تختبزه الناس .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة والحسن بمثله .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين ، عن أبى مالك فى قوله (وَفُومِها) قال : الحنطة .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط بن نصر عن السدى (وَفُومِها) الحنطة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : ثنا هشيم ، عن يونس ، عن الحسن وحصين ، عن أبى مالك فى قوله (وَفُومِها) : الحنطة .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر الرازى ، عن قتادة قال : الفوم : الحبّ الذى يختبز الناس منه .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال لى عطاء بن أبى رباح قوله (وَفُومِها) قال : خبزها ، قالها مجاهد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال لى ابن زيد : الفوم : الخبز .

حدثنى يحيى بن عثمان السهمى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله (وَفُومِها) يقول : الحنطة والخبز .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَفُومِها) قال : هو البرّ بعينه الحنطة .

حدثنا علىّ بن الحسن ، قال : ثنا مسلم الجرمى ، قال : ثنا عيسى بن يونس ، عن رشدين بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قول الله عزّ وجل (وَفُومِها) قال : الفوم : الحنطة بلسان بنى هاشم .

حدثنى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : ثنا عبد العزيز بن منصور ، عن نافع بن أبى نعيم أن عبد الله بن عباس سئل عن قول الله (وَفُومِها) قال : الحنطة ، أما سمعت قول أُحيحة بن الُجلاح وهو يقول :

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصًا وَاحِدًا　　وَرَدَ المَدِينَـةَ عَنْ زِرَاعَةِ فُومِ [1]

وقال آخرون : هو الثوم .

(١) فى اللسان (فوم) : وأنشد الأخفش لأبى محجن الثقفى :

قد كنت أحسبنى كأغنى واحد　　نزل المدينة عن زراعة فوم

وفى التاج : « واجد » بالجيم .

ذكر من قال ذلك :

حدثني أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا شريك ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : هو هذا الثوم .

حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : الفوم : الثوم ، وهو فى بعض القراءات وثومها ، وقد ذكر أن تسمية الحنطة والخبز جميعا فوما من اللغة القديمة ، حكى سماعا من أهل هذه اللغة : فوّموا لنا ، بمعنى : اختبزوا لنا ، وذكر أن ذلك قراءة عبد الله ابن مسعود وثومها بالثاء ، فإن كان ذلك صحيحا فإنه من الحروف المبدلة ، كقولهم : وقعوا فى عاثور شرّ ، وعافور شرّ ، وكقولهم للأثافى أثاثى ، وللمغافير مغاثير ، وما أشبه ذلك مما تقلب الثاء فاء ، والفاء ثاء ، لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء . والمغافير شبيه بالشىء الحلو ، يشبّه بالعسل ينزل من السماء حلوا يقع على الشجر ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) ؟!

يعنى بقوله (قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) قال لهم موسى : أتأخذون الذى هو أخسّ خطرا وقيمة وقدرا من العيش ، بدلا بالذى هو خير منه خطرا وقيمة وقدرا ، وذلك كان استبدالهم . وأصل الاستبدال : هو ترك شىء لآخر غيره مكان المتروك ؛ ومعنى قوله (أدْنى) أخس وأوضع وأصغر قدرا وخطرا ، وأصله من قولهم : هذا رجل دنىّ بين الدناءة ، وإنه ليدنى فى الأمور بغير همز إذا كان يتتبع خسيسها ، وقد ذكر الهمز عن بعض العرب فى ذلك سماعا منهم ، يقولون : ماكنت دنيئا ولقد دنأت ، وأنشدنى بعض أصحابنا عن غيره أنه سمع بعض بنى كلاب ينشد بيت الأعشى :

باسِلَةُ الوَقْعِ سَرَابِيلُها بِيضٌ إلى دانِئِها الظَّاهِرِ[1]

بهمز الدانئ ، وأنه سمعهم يقولون : إنه لدانئ خبيث ، بالهمز ، فإن كان ذلك عنهم صحيحا ، فالهمز فيه لغة ، وتركه أخرى .

ولا شكّ أن من استبدل بالمنّ والسلوى : البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم ، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه .

وقد تأوّل بعضهم قوله (الَّذِي هُوَ أَدْنَى) بمعنى الذى هو أقرب ، ووجه قوله (أَدْنَى) إلى أنه أفعل من الدنوّ الذى هو بمعنى القرب ، وبنحو الذى قلنا فى معنى قوله (الَّذِي هُوَ أَدْنَى) قاله عدد من أهل التأويل فى تأويله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قال (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) يقول : أتستبدلون الذى هو شرّ بالذى هو خير منه ؟

(١) فى ديوان الأعشى طبع القاهرة بشرح الدكتور محمد حسين (بيض إلى جانبها الظاهر) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (الَّذِى هُوَ أَدْنَى) قال : أردأ .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) .

وتأويل ذلك : فدعا موسى فاستجبنا له ، فقلنا لهم : اهبطوا مصرا ، وهو من المحذوف الذى اجتزئ بدلالة ظاهره على ذكر ماحذف وترك منه . وقد دللنا فيما مضى على أن معنى الهبوط إلى المكان إنما هو النزول إليه والحلول به .

فتأويل الآية إذًا : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا) قال لهم موسى : أتستبدلون الذى هو أخسّ وأردأ من العيش بالذى هو خير منه ؟ فدعا لهم موسى ربه أن يعطيهم ما سألوه ، فاستجاب الله له دعاءه ، فأعطاهم ما طلبوا ، وقال الله لهم (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) .

ثم اختلف القرّاء فى قراءة قوله (مِصْرًا) فقرأه عامة القرّاء مصرًا بتنوين المصر وإجرائه ؛ وقرأه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه . فأما الذين نوّنوه وأجروه ، فإنهم عنوا به مصرا من الأمصار ، لامصرا بعينه ، فتأويله على قراءتهم : اهبطوا مصرا من الأمصار ، لأنكم فى البدو ، والذى طلبتم لايكون فى البوادى والفيافى ، وإنما يكون فى القرى والأمصار ، فان لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش . وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالإجراء والتنوين ، كان تأويل الكلام عنده : اهبطوا مصرا البلدة التى تعرف بهذا الاسم ، وهى مصر التى خرجوا عنها ؛ غير أنه أجراها ونوّنها اتباعا منه خط المصحف ، لأن فى المصحف ألفا ثابتة فى مصر ، فيكون سبيل قراءته ذلك بالإجراء والتنوين سبيل من قرأ (قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ) منوّنة اتباعا منه خط المصحف . وأما الذى لم ينوّن مصر فإنه لاشك أنه عنى مصر التى تعرف بهذا الاسم بعينها، دون سائر البلدان غيرها .

وقد اختلف أهل التأويل فى ذلك نظير اختلاف القرّاء فى قراءته .

فحدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة (اهْبِطُوا مِصْرًا) أى مصرا من الأمصار (فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (اهْبِطُوا مِصْرًا) من الأمصار (فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) فلما خرجوا من التيه رفع المنّ والسلوى، وأكلوا البقول .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنى آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن قتادة فى قوله (اهْبِطُوا مِصْرًا) قال : يعنى مصرا من الأمصار .

وحدثنا القاسم بن الحسن ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (اهْبِطُوا مِصْرًا) قال : مصرا من الأمصار ، زعموا أنهم لم يرجعوا إلى مصر .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (اهْبِطُوا مِصْرًا) قال : مصرا من الأمصار ، ومصر لاتجرى فى الكلام ، فقيل : أىّ مصر ؟ فقال : الأرض المقدسة التى

كتب الله لهم ، وقرأ قول الله جل ثناؤه (ادْخُلُوا الأرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) .

وقال آخرون : هي مصر التي كان فيها فرعون .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، ثنا آدم ، ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله (اهْبِطُوا مِصْرًا) قال : يعني به مصر فرعون .

حدثت عن عمار بن الحسن ، عن ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

ومن حجة من قال : إن الله جل ثناؤه إنما عنى بقوله (اهْبِطُوا مِصْرًا) مصرا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها ، أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر ، وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة إذ قال لهم (يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ، قَالُوا يَا مُوسَى إنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ) إلى قوله (إنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ) فحرّم الله جل وعز على قائل ذلك فيما ذكر لنا دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة ، ثم أهبط ذرّيتهم الشام ، فأسكنهم الأرض المقدسة ، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون ، بعد وفاة موسى بن عمران ، فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة ، ولم يخبرنا عنهم أنه ردّهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها ، فيجوز لنا أن نقرأ (اهْبِطُوا مِصْرَ) ونتأوّله أنه ردّهم إليها .

قالوا : فإن احتجّ محتجّ بقول الله جل ثناؤه (فَأخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأوْرَثْنَاهَا بَنِي إسْرَائِيلَ) ؟ قيل لهم : فإن الله جل ثناؤه ، إنما أورثهم ذلك ، فملكهم إياها ولم يردّهم إليها ، وجعل مساكنهم الشأم .

وأما الذين قالوا : إن الله إنما عنى بقوله جل وعزّ (اهْبِطُوا مِصْرًا) مصر ، فإن من حجتهم التي احتجوا بها الآية التي قال فيها (فَأخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأوْرَثْنَاهَا بَنِي إسْرَائِيلَ) وقوله (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) قالوا : فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورّثهم ذلك وجعلها لهم ، فلم يكونوا يرثونها ثم لاينتفعون بها ، قالوا : ولا يكونون منتفعين بها إلا بمصير بعضهم إليها ، وإلا فلا وجه للانتفاع بها إن لم يصيروا أو يصر بعضهم إليها . قالوا : وأخرى أنها في قراءة أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود (اهْبِطُوا مِصْرَ) بغير ألف ، قالوا : ففي ذلك الدلالة البينة أنها مصر بعينها .

والذي نقول به في ذلك أنه لادلالة في كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين ، ولا خبر به عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع مجيئه العذر ، وأهل التأويل متنازعون تأويله .

فأولى الأقوال في ذلك عندنا والصواب : أن يقال : إن موسى سأل ربه أن يعطي قومه ما سألوه من

نبات الأرض على ما بينه الله جل وعز فى كتابه وهم فى الأرض تائهون ، فاستجاب الله لموسى دعاءه ، وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارا من الأرض التى تنبت لهم ماسأل لهم من ذلك ، إذ كان الذى سألوه لا تنبته إلا القرى والأمصار ، وأنه قد أعطاهم ذلك إذ صاروا إليه ؛ وجائز أن يكون ذلك القرار مصر ، وجائز أن يكون الشأم ، فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين (اهْبِطُوا مِصْرًا) وهى القراءة التى لايجوز عندى غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين ، واتفاق قراءة القراء على ذلك ، ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه ، إلا من لايجوز الاعتراض به على الحجة فيما جاءت به من القراءة مستفيضا بينها .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) .

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (وَضُرِبَتْ) أى فرضت ، ووضعت عليهم الذلة ، وألزموها من قول القائل : ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة ، وضرب الرجل على عبده الخراج ، يعنى بذلك وضعه ، فألزمه إياه ، ومن قولهم : ضرب الأمير على الجيش البعث ، يراد به ألزمهموه .

وأما الذلة ، فهى الفِعْلة من قول القائل : ذلّ فلان يذلّ ذلا وذلة ، كالصِّغرة من صغر الأمر ، والقِعدة من قعد ، والذلة : هى الصغار الذى أمر الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن لايعطوهم أمانا على القرار على ماهم عليه من كفرهم به وبرسوله ، إلا أن يبذلوا الجزية عليه لهم ، فقال جل وعز (قَاتِلُوا الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الحسن وقتادة فى قوله (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ) قالا : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأما المسكنة ، فإنها مصدر المسكين ، يقال : ما فيهم أسكن من فلان و ما كان مسكينا ولقد تمسكن مسكنة . ومن العرب من يقول : تمسكن تمسكنا ، والمسكنة فى هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة ، وهى خشوعها وذلها ، كما حدثنى به المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَالْمَسْكَنَةُ) قال : الفاقة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قوله (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) قال : الفقر .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : فى قوله (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) قال : هؤلاء يهود بنى إسرائيل . قلت له : هم قبط مصر ، قال : وما لقبط مصر وهذا ؟ لا والله ما هم هم ، ولكنهم اليهود يهود بنى إسرائيل ، فأخبرهم الله جل ثناؤه أنه يبدلهم بالعزّ ذلا ، وبالنعمة بؤسا ، وبالرضا عنهم غضبا ، جزاء منه لهم على كفرهم بآياته ، وقتلهم أنبياءه ورسله ، اعتداء وظلما منهم بغير حقّ ، وعصيانهم له ، وخلافا عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) .

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال باءوا إلا موصولا إما بخير وإما بشرّ، يقال منه : باء فلان بذنبه يبوء به بوءا وبواء . ومنه قول الله عزّ وجلّ (إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ) يعنى تنصرف متحملهما ، وترجع بهما قد صارا عليك دونى .

فعنى الكلام إذًا : ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم منه سخط .

كما حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) : فحدث عليهم غضب من الله .

حدثنا يحيى بن أبى طالب ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله : (وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) قال : استحقوا الغضب من الله .

وقدمنا معنى غضب الله على عبده فيما مضى من كتابنا هذا ، فأغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ) .

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : (ذَلِكَ) ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وإحلاله غضبه بهم ، فدلّ بقوله ذلك ، وهو يعنى به ما وصفنا ، على أن قول القائل ذلك يشمل المعانى الكثيرة إذا أشير به إليها .

ويعنى بقوله (بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ) : من أجل أنهم كانوا يكفرون ، يقول : فعلنا بهم من إحلال الذلّ والمسكنة والسخط بهم من أجل أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحقّ ، كما قال أعشى بنى ثعلبة [1] :

مَلِيكِيَّةٌ جاوَرَتْ بالحِجا زِقَوْمًا عُداةً وأرْضًا شَطِيرًا
بِمَا قَدْ تَرَبَّعُ رَوْضَ القَطا وَرَوْضَ التَّناضُبِ حتَّى تَصِيرَا

يعنى بذلك جاورت بهذا المكان هذه المرأة قوما عداة وأرضا بعيدة من أهله ، بمكان قربها كان منه ومن قومه ، وبدلا من تربعها روض القطا وروض التناضب ، فكذلك قوله (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ) يقول : كان ذلك منا بكفرهم بآياتنا ، وجزاء لهم بقتلهم أنبياءنا . وقد بينا فيما مضى من كتابنا أن معنى الكفر : تغطية الشىء وستره ، وأن آيات الله : حججه وأعلامه وأدلته على توحيده وصدق رسله .

فعنى الكلام إذًا فعلنا بهم ذلك من أجل أنهم كانوا يجحدون حجج الله على توحيده ، وتصديق رسله ، ويدفعون حقيتها ، ويكذبون بها .

ويعنى بقوله (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ) : ويقتلون رسل الله الذين ابتعثهم لإنباء ما أرسلهم به عنه لمن أرسلوا إليه ، وهم جماع ، واحدهم نبىّ غير مهموز ، وأصله الهمز ، لأنه من أنبأ عن الله ، فهو يُنْبِئُ عنه إنباء ، وإنما الاسم منه منبئ ولكنه صرف ، وهو مُفْعِل إلى فَعِيل ، كما صرف سميع إلى فعيل من

(١) هو الأعشى قيس ، ميمون . انظر ديوانه بشرح الدكتور محمد حسين ، طبع القاهرة ص ٩٣ .

مفعل ، وبصير من مبصر ، وأشباه ذلك ، وأبدل مكان الهمزة من النبىء الياء ، فقيل نبى . هذا ويجمع النبىّ أيضا على أنبياء ، وإنما جمعوه كذلك لإلحاقهم النبىء بإبدال الهمزة منه ياء بالنعوت التى تأتى على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو ، وذلك أنهم إذا جمعوا ما كان من النعوت على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو جمعوه على أفعلاء ، كقولهم ولى وأولياء ، ووصى وأوصياء ، ودعىّ وأدعياء ، ولو جمعوه على أصله الذى هو أصله ، وعلى أن الواحد نبىء مهموز ، لجمعوه على فعلاء ، فقيل لهم النبآء ، على مثال النبغاء ، لأن ذلك جمع ما كان على فعيل من غير ذوات الياء والواو من النعوت ، كجمعهم الشريك شركاء ، والعليم علماء ، والحكيم حكماء ، وما أشبه ذلك . وقد حكى سماعا من العرب فى جمع النبىّ النبآء ، وذلك من لغة الذين يهمزون النبىء ، ثم يجمعونه على النبآء ، على ما قد بينت ، ومن ذلك قول عباس بن مرداس فى مدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبآءِ إنَّكَ مُرْسَلٌ بالخَيْرِ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكا

فقال : يا خاتم النبآء ، على أن واحدهم نبىء مهموز . وقد قال بعضهم : النبى والنبوّة غير مهموز ، لأنهما مأخوذان من النبوة ، وهى مثل النجوة ، وهو المكان المرتفع ، وكان يقول : إن أصل النبى الطريق ، ويستشهد على ذلك ببيت القُطامىّ :

لَمَّا وَرَدْنَ نُبَيًّا وَاسْتَتَبَّ بِنَا مُسْحَنْفِرٌ كخُطوطِ النَّسْجِ مُنْسَحِلُ

يقول : إنما سمى الطريق نبيا ، لأنه ظاهر مستبين من النَّبْوَة ، ويقول : لم أسمع أحدا يهمز النبىّ ، قال : وقد ذكرنا ما فى ذلك ، وبينا ما فيه الكفاية إن شاء الله .

ويعنى بقوله (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقّ) أنهم كانوا يقتلون رسل الله بغير إذن الله لهم بقتلهم منكرين رسالتهم جاحدين نبوّتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (ذلكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ)

وقوله (ذلكَ) ردّ على ذلك الأولى ، ومعنى الكلام : وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، من أجل كفرهم بآيات الله ، وقتلهم النبيين بغير الحقّ ، من أجل عصيانهم ربهم ، واعتدائهم حدوده ، فقال جل ثناؤه (ذلكَ بِمَا عَصَوْا) والمعنى : ذلك بعصيانهم وكفرهم معتدين ، والاعتداء : تجاوز الحدّ الذى حدّه الله لعباده إلى غيره ، وكل متجاوز حدّ شىء إلى غيره ، فقد تعدّاه إلى ما جاوز إليه ؛ ومعنى الكلام : فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمرى ، وتجاوزوا حدّى إلى مانهيتهم عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

قال أبو جعفر : أما الذين آمنوا فهم المصدّقون رسول الله فيما أتاهم به من الحقّ من عند الله ، وإيمانهم

بذلك : تصديقهم به على ما قد بيناه فيما مضى من كتابنا هذا . وأما الذين هادوا ، فهم اليهود ، ومعنى هادوا : تابوا ، يقال منه : هاد القوم يهودون هَوْدا وهادة . وقيل : إنما سميت اليهود يهود من أجل قولهم (إِنَّا هُدْنا إِلَيكَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : إنما سميت اليهود من أجل أنهم قالوا (إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ) .

القول فى تأويل قوله عزّ وجل (وَالنَّصَارَى)

قال أبو جعفر : والنصارى جمع ، واحدهم نَصْران ، كما واحد سكارى سكران ، وواحد النَّشاوى نشوان ، وكذلك جمع كل نعت كان واحده على فَعْلان فإن جمعه على فعالَى ، إلا أن المستفيض من كلام العرب فى واحد النصارى نصرانىّ ، وقد حكى عنهم سماعا نصران بطرح الياء ، ومنه قول الشاعر :

تَرَاهُ إِذَا زَارَ العَشِيُّ مُحَنِّفًا وَيُضْحِى لَدَيْهِ وَهْوَ نَصْرَانُ شَامِسُ

وسمع منهم فى الأنثى نصرانة ، قال الشاعر :

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

يقال : أسجد : إذا مال ، وقد سمع فى جمعهم أنصار ، بمعنى النصارى ، قال الشاعر :

لَمَّا رَأَيْتُ نَبَطًا أَنْصَارَا شَمَّرْتُ عَنْ رُكْبَتَىَ الإِزَارَا
كُنْتُ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَى جَارَا

وهذه الأبيات التى ذكرتها تدل على أنهم سموا نصارى لنُصرة بعضهم بعضا ، وتناصرهم بينهم ، وقد قيل إنهم سموا نصارى من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج : النصارى إنما سموا نصارى من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة .

ويقول آخرون : لقوله (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) .

وقد ذكر عن ابن عباس من طريق غير مرتضى ، أنه كان يقول : إنما سميت النصارى نصارى ، لأن قرية عيسى بن مريم كانت تسمى ناصرة ، وكان أصحابه يسمون الناصريين ، وكان يقال لعيسى الناصرىّ .

حدثت بذلك عن هشام بن محمد ، عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قال : إنما سموا نصارى لأنهم كانوا بقرية يقال لها ناصرة ينزلها عيسى بن مريم ، فهو اسم تسمَّوا به ولم يؤمروا به .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصَارَى) قال : تسمَّوا بقرية يقال لها ناصرة ، كان عيسى بن مريم ينزلها .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَالصَّابِئِينَ)

قال أبو جعفر : والصابئون جمع صابئ ، وهو المستحدث سوى دينه دينا ، كالمرتدّ من أهل الإسلام

عن دينه ، وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئا ، يقال منه : صبأ فلان يصبأ صبأ ، ويقال : صبأت النجوم : إذا طلعت ، وصبأ علينا فلان موضع كذا وكذا ، يعني به طلع .

واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل . فقال بعضهم : يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين ، وقالوا : الذين عنى الله بهذا الاسم قوم لادين لهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهديّ ، وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق جميعا ، عن سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : (الصَّابِئُونَ) ليسوا بيهود ولا نصارى ولا دين لهم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن الحجاج بن أرطاة ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام ، عن عنبسة ، عن الحجاج ، عن مجاهد ، قال : الصابئون بين المجوس واليهود ، لاتؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حَكَّام ، عن عنبسة ، عن حجاج ، عن قتادة ، عن الحسن مثل ذلك .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح : الصابئين بين اليهود والمجوس لادين لهم .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال مجاهد : الصابئين بين المجوس واليهود ، لادين لهم .

قال ابن جريج : قلت لعطاء : الصابئين زعموا أنها قبيلة من نحو السواد ، ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى ، قال : قد سمعنا ذلك ، وقد قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : قد صبأ .

وحدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله : الصابئون ، قال : الصابئون : دين من الأديان ، كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لاإله إلا الله ، وليس لهم عمل ، ولا كتاب ، ولا نبيّ ، إلا قول لاإله إلا الله ، قال : ولم يؤمنوا برسول الله ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه : هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم .

وقال آخرون : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلّون إلى القبلة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحسن ، قال : حدثني زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ، ويصلّون الخمس ، قال : فأراد أن يضع عنهم الجزية ، قال : فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة .

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَالصَّابِئِينَ) قال : الصابئون قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، ويقرءون الزَّبور .

حدثني المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية قال : الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور .

قال أبو جعفر الرازي : وبلغني أيضا أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ، ويقرءون الزبور ، ويصلون إلى القبلة .

وقال آخرون : بل هم طائفة من أهل الكتاب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبي عن سفيان ، قال : سئل السدّى عن الصابئين فقال : هم طائفة من أهل الكتاب .

القول في تأويل قوله تعالى ذكره (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) .

قال أبو جعفر : يعنى بقوله (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) : من صدق وأقرّ بالبعث بعد الممات يوم القيامة ، وعمل صالحا فأطاع الله ، فلهم أجرهم عند ربهم . يعنى بقوله (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم .

فإن قال لنا قائل : فأين تمام قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ) ؟ قيل : تمامه جملة قوله (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) لأن معناه : من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، فترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه ، استغناء بما ذكر عما ترك ذكره .

فإن قال : وما معنى هذا الكلام ؟ قيل : إن معناه : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن بالله واليوم بالآخر فلهم أجرهم عند ربهم .

فإن قال : وكيف يؤمن المؤمن ؟ قيل : ليس المعنى فى المؤمن المعنى الذى ظننته من انتقال من دين إلى دين ، كانتقال اليهودىّ والنصرانى إلى الإيمان ، وإن كان قد قيل إن الذين عُنُوا بذلك من كان من أهل الكتاب على إيمانه بعيسى وبما جاء به حتى أدرك محمدا صلى الله عليه وسلم فآمن به وصدّقه ، فقيل لأولئك الذين كانوا مؤمنين بعيسى وبما جاء به إذ أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا بمحمد ، وبما جاء به ، ولكن معنى إيمان المؤمن فى هذا الموضع ثباته على إيمانه وتركه تبديله .

وأما إيمان اليهود والنصارى والصابئين ، فالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به ، فمن يؤمن منهم بمحمد ، وبما جاء به واليوم الآخر ، ويعمل صالحا ، فلم يبدّل ولم يغير ، حتى تُوُفّى على ذلك ، فله ثواب عمله وأجره عند ربه ، كما وصف جل ثناؤه .

فإن قال قائل : وكيف قال : فلهم أجرهم عند ربهم ، وإنما لفظ مَنْ لفظ واحد ، والفعل معه موحد ؟

قيل : مَنْ ، وإن كان الذى يليه من الفعل موحدا ، فإن له معنى الواحد والاثنين ، والجمع والتذكير والتأنيث ، لأنه فى كل هذه الأحوال على هيئة واحدة وصورة واحدة لايتغير ، فالعرب توحد معه الفعل وإن كان فى معنى جمع للفظه ، وتجمع أخرى معه الفعل لمعناه ، كما قال جل ثناؤه (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لايَعْقِلُونَ . ومنهم مَنْ يَنْظُرُ إلَيْكَ ، أفأنْتَ تَهْدِى العُمْىَ وَلَوْ كانُوا لايُبْصِرُونَ)، فجمع مرة مع من الفعل لمعناه ، ووحد أخرى معه الفعل ، لأنه فى لفظ الواحد ، كما قال الشاعر :

أَلِمَّا بِسَلْمَى عَنْكُما إنْ عَرَضْتُما وَقُولا لَهَا عُوجِى على مَنْ تَخَلَّفُوا

فقال : تخلفوا ، وجعل مَنْ بمنزلة الذين . وقال الفرزدق :

تَعالَ فإنْ عاهَدْتَنِى لاتَخُونُنِى نَكُنْ مِثْلَ مَنْ ياذِئْبُ يَصْطَحِبانِ

فثنى يصطحبان لمعنى مَنْ . فكذلك قوله (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخرِ فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وحّد آمن وعمل صالحا للفظ مَنْ ، وجمع ذكرهم فى قوله (فَلَهُمْ أجْرُهُمْ) لمعناه ، لأنه فى معنى جمع .

وأما قوله (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) فإنه يعنى به جل ذكره : ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم ما أعدّ الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده .

ذكر من قال عُنِى بقوله (مَنْ آمَنَ بِاللهِ) : مؤمنو أهل الكتاب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط بن نصر ، عن السدّى (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا) الآية ، قال : نزلت هذه الآية فى أصحاب سلمان الفارسى ، وكان سلمان من جُنْدَيْسابور ، وكان من أشرافهم ، وكان ابن الملك صديقا له مؤاخيا ، لايقضى واحد منهما أمرا دون صاحبه ، وكانا يركبان إلى الصيد جميعا . فبينما هما فى الصيد إذ رفع لهما بيت من خباء ، فأتياه ، فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه وهو يبكى ، فسألاه ما هذا ؟ فقال : الذى يريد أن يعلم هذا لايقف موقفكما ، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه ، فانزلا حتى أعلمكما . فنزلا إليه ، فقال لهما : هذا كتاب جاء من عند الله ، أمر فيه بطاعته ، ونهى عن معصيته ، فيه : أن لاتزنى ، ولا تسرق ، ولا تأخذ أموال الناس بالباطل ؛ فقصّ عليهما ما فيه ، وهو الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى ، فوقع فى قلوبهما وتابعاه فأسلما ، وقال لهما : إن ذبيحة قومكما عليكما حرام ، فلم يزالا معه كذلك يتعلمان منه ، حتى كان عيد للملك ، فجعل طعاما ، ثم جمع الناس والأشراف ، وأرسل إلى ابن الملك فدعاه إلى صنيعه ليأكل مع الناس ، فأبى الفتى وقال : إنى عنك مشغول ، فكل أنت وأصحابك ، فلما أكثر عليه من الرسل ، أخبرهم أنه لايأكل من طعامهم ، فبعث الملك إلى ابنه ، فدعاه وقال : ما أمرك هذا ؟ قال : إنا لا نأكل من ذبائحكم ، إنكم

كفار ليس تحلّ ذبائحكم ؟ فقال له الملك : من أمرك بهذا . فأخبره أن الراهب أمره بذلك ، فدعا الراهب فقال : ماذا يقول ابنى ؟ قال : صدق ابنك ، قال له : لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتك ، ولكن اخرج من أرضنا ، فأجّله أجلا ، فقال سلمان : فقمنا نبكى عليه ، فقال لهما : إن كنتما صادقين ، فإنا فى بيعة بالموصل مع ستين رجلا نعبد الله فيها ، فأتونا فيها ؟ فخرج الراهب ، وبقى سلمان وابن الملك ؛ فجعل يقول لابن الملك : انطلق بنا ، وابن الملك يقول نعم ، وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز ، فلما أبطأ على سلمان ، خرج سلمان حتى أتاهم ، فنزل على صاحبه وهو ربّ البيعة ، وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان ، فكان سلمان معهم يجتهد فى العبادة ، ويتعب نفسه ، فقال له الشيخ : إنك غلام حدث تتكلف من العبادة ما لاتطيق ، وأنا خائف أن تفتر وتعجز ، فارفق بنفسك وخفف عليها ، فقال له سلمان : أرأيت الذى تأمرنى به أهو أفضل ، أو الذى أصنع ؟ قال : بل الذى تصنع ؟ قال : فخلّ عنى . ثم إن صاحب البيعة دعاه فقال : أتعلم أن هذه البيعة لى ، وأنا أحقّ الناس بها ، ولو شئت أن أخرج هؤلاء منها لفعلت ، ولكنى رجل أضعف عن عبادة هؤلاء ، وأنا أريد أن أتحوّل من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء ، فإن شئت أن تقيم ههنا فأقم ، وإن شئت أن تنطلق معى فانطلق ؛ قال له سلمان : أىّ البيعتين أفضل أهلا ؟ قال : هذه . قال سلمان : فأنا أكون فى هذه ، فأقام سلمان بها ، وأوصى صاحب البيعة عالم البيعة بسلمان ، فكان سلمان يتعبد معهم . ثم إن الشيخ العالم أراد أن يأتى بيت المقدس ، فقال لسلمان : إن أردت أن تنطلق معى فانطلق ، وإن شئت أن تقيم فأقم ، فقال له سلمان : أيهما أفضل؟ أنطلق معك أم أقيم ؟ قال : لا بل تنطلق معى ، فانطلق معه فمرّوا بمقْعَد على ظهر الطريق ملقى ، فلما رآهما نادى : ياسيد الرهبان ، ارحمنى يرحمك الله ، فلم يكلمه ، ولم ينظر إليه ، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس ، فقال الشيخ لسلمان : اخرج فاطلب العلم ، فإنه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض ، فخرج سلمان يسمع منهم ، فرجع يوما حزينا ، فقال له الشيخ : مالك يا سلمان ؟ قال : أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم ، فقال له الشيخ : ياسلمان لاتحزن ، فإنه قد بقى نبىّ ليس من نبىّ بأفضل تبعا منه ، وهذا زمانه الذى يخرج فيه ، ولا أرانى أدركه ، وأما أنت فشاب لعلك أن تدركه ، وهو يخرج فى أرض العرب ، فإن أدركته فآمن به واتبعه ، فقال له سلمان : فأخبرنى عن علامته بشىء ، قال : نعم ، هو مختوم فى ظهره بخاتم النبوّة ، وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . ثم رجعا حتى بلغا مكان المقعد ، فناداهما فقال : يا سيد الرهبان ، ارحمنى يرحمك الله ، فعطف إليه حماره ، فأخذ بيده فرفعه ، فضرب به الأرض ودعا له ، وقال : قم بإذن الله ، فقام صحيحا يشتدّ ، فجعل سلمان يتعجب ، وهو ينظر إليه يشتدّ ، وسار الراهب فتغيب عن سلمان ولا يعلم سلمان ؛ ثم إن سلمان فزع فطلب الراهب ، فلقيه رجلان من العرب من كلب ، فسألهما : هل رأيتما الراهب ؟ فأناخ أحدهما راحلته ، قال : نعم راعى الصِّرمة هذا ! فحمله فانطلق به إلى المدينة . قال سلمان : فأصابنى من الحزن شىء لم يصبنى مثله قط ، فاشترته امرأة من جهينة ، فكان يرعى عليها هو وغلام لها . يتراوحان الغنم ، هذا يوما وهذا يوما ، فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد صلى الله

عليه وسلم ؛ فبينا هو يوما يرعى ، إذ أتاه صاحبه الذى يَعْقُبه ، فقال : أشعرت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبيّ ، فقال له سلمان : أقم فى الغنم حتى آتيك . فهبط سلمان إلى المدينة ، فنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودار حوله ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم عرف ما يريد ، فأرسل ثوبه ، حتى خرج خاتمه ، فلما رآه أتاه وكلمه ، ثم انطلق ، فاشترى بدينار ، ببعضه شاة وببعضه خبزا ، ثم أتاه به ، فقال : ما هذا ، قال سلمان : هذه صدقة ، قال : لاحاجة لى بها ، فأخرجها فليأكلها المسلمون ، ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزا ولحما ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا ؟ قال : هذه هدية ، قال : فاقعد ، فقعد ، فأكلا جميعا منها ، فبينا هو يحدثه إذ ذكر أصحابه ، فأخبره خبرهم ، فقال : كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبيا . فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : يا سَلْمانُ هُمْ مِنْ أهْلِ النّارِ ، فاشتدّ ذلك على سلمان ، وقد كان قال له سلمان : لو أدركوك صدّقوك واتبعوك ، فأنزل الله هذه الآية (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى حتى جاء عيسى ، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة ، وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا. وإيمان النصارى أنه من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى ، كان مؤمنا مقبولا منه ، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ، ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل ، كان هالكا .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا) الآية . قال سلمان الفارسى للنبى صلى الله عليه وسلم عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم ، قال : لم يموتوا على الإسلام ، قال سلمان : فأظلمت علىّ الأرض ، وذكر اجتهادهم ، فنزلت هذه الآية ، فدعا سلمان فقال : نزلت هذه الآية فى أصحابك ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم «مَنْ ماتَ على دِينِ عِيسَى وَماتَ على الإسْلامِ قَبْلَ أنْ يَسْمَعَ بِى فَهُوَ على خَيْرٍ ، وَمَنْ سَمِعَ بِى اليَوْمَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِى فَقَدْ هَلَكَ » .

وقال ابن عباس بما حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارَى وَالصَّابِئِينَ) إلى قوله (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) فأنزل الله تعالى بعد هذا (وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ) وهذا الخبر يدلّ على أن ابن عباس كان يرى أن الله جل ثناؤه كان قد وعد من عمل صالحا من اليهود والنصارى والصابئين على عمله فى الآخرة الجنة ، ثم نسخ ذلك بقوله (وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)

فتأويل الآية إذًا على ما ذكرنا عن مجاهد والسدى : إن الذين آمنوا من هذه الأمة ، والذين هادو

والنصارى والصابئين من آمن من اليهود والنصارى ، والصابئين بالله واليوم الآخر ، (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

والذى قلنا من التأويل الأول أشبه بظاهر التنزيل ، لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان بعض خلقه دون بعض منهم ، والخبر بقوله (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) عن جميع ما ذكر فى أول الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)

قال أبو جعفر : الميثاق : المفعال من الوثيقة إما بيمين ، وإما بعهد أو غير ذلك من الوثائق .

ويعنى بقوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) الميثاق الذى أخبر جل ثناؤه أنه أخذ منهم فى قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الآيات التى ذكر معها ، وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد ما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بنى إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، وأمره الذى أمركم به ، ونهيه الذى نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ، لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا ، فيقول : هذا كتابى فخذوه ، فما له لايكلمنا كما كلمك أنت يا موسى ، فيقول : هذا كتابى فخذوه ، قال : فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة فصعقتهم ، فماتوا أجمعون ، قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم ، فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا لا ، قال : أىّ شىء أصابكم ؟ قالوا : متنا ثم حيينا ، قال : خذوا كتاب الله ، قالوا لا ، فبعث ملائكته فنتقت الجبل فوقهم ، فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ، هذا الطور ، قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم ، قال : فأخذوه بالميثاق ، وقرأ قول الله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) حتى بلغ (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) قال : ولو كانوا أخذوه أول مرّة لأخذوه بغير ميثاق .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) .

قال أبو جعفر : وأما الطور فانه الجبل فى كلام العرب ، ومنه قول العجّاج :

دانَى جناحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرْ تَقَضِّىَ البازى إذا البازى كَسَرْ

وقيل إنه اسم جبل بعينه ، وذكر أنه الجبل الذى ناجى الله عليه موسى ، وقيل : إنه من الجبال ما أنبت دون ما لم ينبت .

ذكر من قال هو الجبل كائنا ما كان .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجدا ، ويقولوا حطة وطؤطئ لهم الباب ليسجدوا . فلم يسجدوا ودخلوا على أدبارهم ، وقالوا حنطة ، فنتق فوقهم الجبل . يقول : أخرج أصل الجبل من الأرض فرفعه فوقهم كالظلة ، والطور بالسريانية : الجبل ، تخويفا أو خوفا ، شك أبو عاصم . فدخلوا سجدا على خوف وأعينهم إلى الجبل ، وهو الجبل الذى تجلى له ربه .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : رفع الجبل فوقهم كالسحابة ، فقيل لهم : لتؤمنن أو ليقعن عليكم . فآمنوا ، والجبل بالسريانية : الطور .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) قال : الطور : الجبل ، كانوا بأصله فرفع عليهم فوق رءوسهم ، فقال : لتأخذن أمرى ، أو لأرمينكم به .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) قال : الطور : الجبل اقتلعه الله فرفعه فوقهم . فقال (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) فأقروا بذلك .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر عن الربيع ، عن أبى العالية (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) قال : رفع فوقهم الجبل يخوفهم به .

حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن النضر ، عن عكرمة ، قال : الطور : الجبل .

وحدثنا موسى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى لما قال الله لهم (ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ) فأبوا أن يسجدوا ، أمر الله الجبل أن يقع عليهم ، فنظروا إليه وقد غشيهم ، فسقطوا سجدا على شق ، ونظروا بالشق الآخر ، فرحمهم الله ، فكشفه عنهم ، فذلك قوله (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) وقوله (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الجبل بالسريانية : الطور .

وقال آخرون : الطور : اسم للجبل الذى ناجى الله موسى عليه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس الطور : الجبل الذى أنزلت عليه التوراة ، يعنى على موسى ، وكانت بنو إسرائيل أسفل منه .

قال ابن جريج : وقال لى عطاء : رفع الجبل على بنى إسرائيل فقال : لتؤمنن به أو ليقعن عليكم ، فذلك قوله (كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) .

وقال آخرون : الطور من الجبال : ما أنبت خاصة .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (الطُّورَ) قال : الطور من الجبال : ما أنبت وما لم ينبت فليس بطور .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

قال أبو جعفر : اختلف أهل العربية فى تأويل ذلك ، فقال بعض نحويى أهل البصرة : هو مما استغنى بدلالة الظاهر المذكور عما ترك ذكره له ، وذلك أن معنى الكلام : ورفعنا فوقكم الطور وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بقوّة ، وإلا قذفناه عليكم .

وقال بعض نحويى أهل الكوفة : أخذ الميثاق قول ، فلا حاجة بالكلام إلى إضمار قول فيه ، فيكون من كلامين ، غير أنه ينبغى لكل ما خالف القول من الكلام الذى هو بمعنى القول ، أن يكون معه أنْ كما قال الله جل ثناؤه (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ) قال : ويجوز أن تحذف أن .

والصواب فى ذلك عندنا أن كل كلام نطق به مفهوم به معنى ما أريد ، ففيه الكفاية من غيره ، ويعنى بقوله (خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ) ما أمرناكم به فى التوراة ، وأصل الإيتاء : الإعطاء ، ويعنى بقوله (بِقُوَّةٍ) بجدّ فى تأدية ما أمركم فيه وافترض عليكم .

كما حدثت عن إبراهيم بن بشار ، قال : حدثنا ابن عيينة ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) قال : تعملوا بما فيه .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) قال : بطاعة .

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) قال : القوّة : الجد ، وإلا قذفته عليكم ، قال : فأقرّوا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوّة .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (بِقُوَّةٍ) : يعنى بجدّ واجتهاد .

وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : وسألته عن قول الله (خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) قال : خذوا الكتاب الذى جاء به موسى بصدق وبحق ، فتأويل الآية إذاً : خذوا ما افترضناه عليكم فى كتابنا من الفرائض ، فاقبلوه واعملوا باجتهاد منكم فى أدائه ، من غير تقصير ولا توان ، وذلك هو معنى أخذهم إياه بقوّة بجدّ .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

قال أبو جعفر : يعنى : واذكروا ما فيما آتيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد ، وترغيب وترهيب

فاتلُوه واعتبروا به ، وتدبروه إذا فعلتم ذلك كى تتقوا وتخافوا عقابى بإصراركم على ضلالكم ، فتنتهوا إلى طاعتى ، وتنزعوا عما أنتم عليه من معصيتى .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة عن ابن عباس (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) قال : تنزعون عما أنتم عليه ، والذى آتاهم الله هو التوراة .

كما حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَاذْكُرُوا ما فِيهِ) يقول : اذكروا ما فى التوراة .

كما حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (اذْكُرُوا ما فِيهِ) يقول : أُمروا بما فى التوراة .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت ابن زيد عن قول الله (وَاذْكُرُوا ما فِيهِ) قال : اعملوا بما فيه بطاعة الله وصدق ، قال : وقال اذكروا ما فيه لاتنسوه ولا تغفلوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) ثم أعرضتم ، وإنما هو تفعلتم من قولهم ولاّنى فلان دبره : إذا استدبر عنه ، وخلفه خلف ظهره ، ثم يستعمل ذلك فى كل تارك طاعة أمر بها عزّ وجل معرض بوجهه ، يقال : قد تولى فلان عن طاعة فلان ، وتولى عن مواصلته ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه (فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) يعنى بذلك : خالفوا ما كانوا وَعَدوا الله من قولهم (لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) ونبذوا ذلك وراء ظهورهم ، ومن شأن العرب استعارة الكلمة ووضعها مكان نظيرها ، كما قال أبوذؤيب الهذلى :

فَلَيْسَ لِعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحاطَتْ بِالرِّقابِ السَّلاسِلُ
وَعادَ الفَتَى كالكَهْلِ لَيْسَ بِقائِلٍ ... سِوَى الحَقِّ شَيْئًا واسْتَراحَ العَوَاذِلُ

يعنى بقوله: أحاطت بالرقاب السلاسل، أن الإسلام صار فى منعه إيانا ما كنا نأتيه فى الجاهلية مما حرمه الله علينا فى الإسلام، بمنزلة السلاسل المحيطة برقابنا، التى تحول بين من كانت فى رقبته مع الغلّ الذى فى يده ، وبين ما حاول أن يتناوله . ونظائر ذلك فى كلام العرب أكثر من أن تحصى ، فكذلك قوله (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) يعنى بذلك أنكم تركتم العمل بما أخذنا ميثاقكم ، وعهودكم على العمل به بجدّ واجتهاد بعد إعطائكم ربكم المواثيق على العمل به ، والقيام بما أمركم به فى كتابكم ، فنبذتموه وراء ظهوركم ، وكنى بقوله جلّ ذكره ذلك عن جميع ما قبله فى الآية المتقدمة ، أعنى قوله (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ)

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ذكره (فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ) فلولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذى واثقتموه ، إذ رفع فوقكم الطور ، بأنكم تجتهدون فى طاعته ، وأداء فرائضه والقيام بما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه فى الكتاب الذى آتاكم ، فأنعم عليكم بالإسلام ورحمته التى رحمكم بها ، وتجاوز عنكم خطيئتكم التى ركبتموها بمراجعتكم طاعة ربكم ـ لكنتم من الخاسرين . وهذا وإن كان خطابا لمن كان بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما هو خبر عن أسلافهم ، فأخرج الخبر مخرج المخبر عنهم ، على نحو ما قدبينا فيم مضى ، من أن القبيلة من العرب تخاطب القبيلة عند الفخار أو غيره بما مضى من فعل أسلاف المخاطب بأسلاف المخاطب ، فتضيف فعل أسلاف المخاطب إلى نفسها ، فتقول : فعلنا بكم ، وفعلنا بكم . وقد ذكرنا بعض الشواهد فى ذلك من شعرهم فيما مضى .

وقد زعم بعضهم أن الخطاب فى هذه الآيات إنما أخرج بإضافة الفعل إلى المخاطبين به والفعل لغيرهم ، لأن المخاطبين بذلك كانوا يتولون من كان فعل ذلك من أوائل بنى إسرائيل ، فصيرهم الله منهم من أجل ولايتهم لهم .

وقال بعضهم : إنما قيل ذلك كذلك ، لأن سامعيه كانوا عالمين ، وإن كان الخطاب خرج خطابا للأحياء من بنى إسرائيل ، وأهل الكتاب ، إذ المعنى فى ذلك إنما هو خبر عما قصّ الله من أنباء أسلافهم ، فاستغنى بعلم السامعين بذلك عن ذكر أسلافهم بأعيانهم ، ومثل ذلك بقول الشاعر :

إِذَا ما انْتَسَبْنا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ وَلَمْ تَجِدِي مِنْ أَنْ تُقِرِّي بِهِ بُدَّا

فقال : إذا انتسبنا ، وإذا تقتضى من الفعل مستقبلا ، ثم قال : لم تلدنى لئيمة ، فأخبر عن ماض من الفعل ، وذلك أن الولادة قد مضت وتقدمت ، وإنما فعل ذلك عند المحتج به ، لأن السامع قد فهم معناه ، فجعل ماذكرنا من خطاب الله أهل الكتاب الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بإضافة أفعال أسلافهم إليهم نظير ذلك ، والأول الذى قلنا هو المستفيض من كلام العرب وخطابها ، وكان أبو العالية يقول فى قوله (فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) فيما ذكر لنا نحو القول الذى قلناه .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو النضر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) قال : فضل الله : الإسلام ، ورحمته : القرآن .

وحُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن الربيع بمثله .

القول فى تأويل قوله تعالى (لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ) .

قال أبو جعفر (فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) إياكم ، بإنقاذه إياكم بالتوبة عليكم من خطيئتكم وجرمكم ، لكنتم الباخسين أنفسكم ، حظوظها دائما ، الهالكين بما اجترمتم من نقض ميثاقكم وخلافكم أمره وطاعته . وقد تقدم بياننا قبل بالشواهد عن معنى الخسار بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) ﴾

يعنى بقوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ) ولقد عرفتم كقولك : قد علمت أخاك ولم أكن أعلمه ، يعنى عرفته ولم أكن أعرفه ، كما قال جل ثناؤه (وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) يعنى لاتعرفونهم الله يعرفهم . وقوله (الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ) أى الذين تجاوزوا حدّى وركبوا ما نهيتهم عنه فى يوم السبت ، وعصوا أمرى . وقد دللت فيما مضى على أن الاعتداء أصله تجاوز الحدّ فى كل شىء بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

قال : وهذه الآية وآيات بعدها تتلوها ، مما عدّد جل ثناؤه فيها على بنى إسرائيل الذين كانوا بين خلال دور الأنصار زمان النبى صلى الله عليه وسلم الذين ابتدأ بذكرهم فى أول هذه السورة من نكث أسلافهم عهد الله وميثاقه ما كانوا يبرمون من العقود ، وحذّر المخاطبين بها أن يحلّ بهم بإصرارهم على كفرهم ، ومقامهم على جحود نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتركهم اتباعه والتصديق بما جاءهم به من عند ربه ، مثل الذى حلّ بأوائلهم من المسخ والرجف والصعق ، وما لاقبل لهم به من غضب الله وسخطه .

كالذى حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ) يقول : ولقد عرفتم وهذا تحذير لهم من المعصية ، يقول : احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت ، إذ عصونى : اعتدوا ، يقول اجترءوا فى السبت .

قال : لم يبعث الله نبيا إلا أمره بالجمعة ، وأخبره بفضلها وعظمها فى السموات وعند الملائكة ، وأن الساعة تقوم فيها ، فمن اتبع الأنبياء فيما مضى كما اتبعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم محمدا قبل الجمعة ، وسمع وأطاع وعرف فضلها ، وثبت عليها بما أمره الله تعالى به ونبيه صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يفعل ذلك كان بمنزلة الذين ذكر الله فى كتابه ، فقال (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) وذلك أن اليهود قالت لموسى حين أمرهم بالجمعة وأخبرهم بفضلها : ياموسى ، كيف تأمرنا بالجمعة وتفضلها على الأيام كلها ، والسبت أفضل الأيام كلها ، لأن الله خلق السموات والأرض والأقوات فى ستة أيام ، وسبت له كل شىء مطيعا يوم السبت ، وكان آخر الستة .

قال : وكذلك قالت النصارى لعيسى بن مريم حين أمرهم بالجمعة ، قالوا له : كيف تأمرنا بالجمعة ، وأوّل الأيام أفضلها وسيدها ، والأول أفضل ، والله واحد ، والواحد الأول أفضل ؛ فأوحى الله إلى عيسى أن دعهم والأحد ، ولكن ليفعلوا فيه كذا وكذا مما أمرهم به ، فلم يفعلوا ، فقصّ الله تعالى قصصهم فى الكتاب بمعصيتهم .

قال : وكذلك قال الله لموسى حين قالت له اليهود ما قالوا فى أمر السبت : أن دعهم والسبت ، فلا

يصيدوا فيه سمكا ولا غيره ، ولا يعملون شيئا كما قالوا ، قال : فكان إذا كان السبت ظهرت الحيتان على الماء ، فهو قوله (إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا) يقول : ظاهرة على الماء ، ذلك لمعصيتهم موسى ، وإذا كان غير يوم السبت صارت صيدا كسائر الأيام ، فهوقوله (وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ) ففعلت الحيتان ذلك ما شاء الله ؛ فلما رأوها كذلك طمعوا فى أخذها وخافوا العقوبة ، فتناول بعضهم منها، فلم تمتنع عليه ، وحذر العقوبة التى حذّرهم موسى من الله تعالى ؛ فلما رأوا أن العقوبة لا تحل بهم عادوا وأخبر بعضهم بعضا بأنهم قد أخذوا السمك ولم يصبهم شىء ، فكثّروا فى ذلك، وظنوا أن ما قال لهم موسى كان باطلا ، وهو قول الله جل ثناؤه (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) يقول لهؤلاء الذين صادوا السمك ، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم؛ يقول : إذا لم يحيوا فى الأرض إلا ثلاثة أيام ولم تأكل ولم تشرب ولم تنسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير ، وسائر الخلق فى الستة الأيام التى ذكر الله فى كتابه ، فمسخ هؤلاء القوم فى صورة القردة ، وكذلك يفعل بمن شاء كما يشاء ، ويحوّله كما يشاء .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قال : ثنا محمد بن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، قال : قال ابن عباس : إن الله إنما افترض على بنى إسرائيل اليوم الذى افترض عليكم فى عيدكم يوم الجمعة ، فخالفوا إلى السبت فعظموه ، وتركوا ما أمروا به ، فلما أبوا إلا لزوم السبت ، ابتلاهم الله فيه ، فحرّم عليهم ما أحلّ لهم فى غيره ، وكانوا فى قرية بين أيلة والطور ، يقال لها مَدْين ، فحرّم الله عليهم فى السبت الحيتان : صيدها وأكلها ، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرّعا إلى ساحل بحرهم ، حتى إذا ذهب السبت ذهبن ، فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا ، حتى إذا كان يوم السبت أتين إليهم شرّعا ، حتى إذا ذهب السبت ذهبن ، فكانوا كذلك ، حتى إذا طال عليهم الأمد ، وقرموا إلى الحيتان ، عمد رجل منهم ، فأخذ حوتا سرّا يوم السبت، فخزمه بخيط ، ثم أرسله فى الماء ، وأوتد له وتدا فى الساحل ، فأوثقه ثم تركه ، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه ، أى إنى لم آخذه فى يوم السبت ، ثم انطلق به فأكله ، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك ، ووجد الناس ريح الحيتان ، فقال أهل القرية : والله لقد وجدنا ريح الحيتان ، ثم عثروا على ماصنع ذلك الرجل ، قال : ففعلوا كما فعل ، وأكلوا سرّا زمانا طويلا ، لم يعجل الله عليهم بعقوبة حتى صادوها علانية ، وباعوها بالأسواق ، وقالت طائفة منهم من أهل التقية : ويحكم ! اتقوا الله ، ونهوهم عما كانوا يصنعون ، وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ) لسخطنا أعمالهم ، ولعلهم يتقون .

قال ابن عباس : فبينا هم على ذلك أصبحت تلك البقية فى أنديتهم ومساجدهم ، وفقدوا الناس ، فلا يرونهم ، فقال بعضهم لبعض : إن للناس لشأنا ، فانظروا ما هو ؟ فذهبوا ينظرون فى دورهم ، فوجدوها

مغلقة عليهم ، قد دخلوا ليلا ، فغلقوها على أنفسهم ، كما تغلق الناس على أنفسهم ، فأصبحوا فيها قردة ، إنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة ، والصبيّ بعينه وإنه لقرد .

قال : يقول ابن عباس : فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نَهوا عن السوء لقلنا أهلك الجميع منهم ، قالوا : وهي القرية التي قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ) الآية .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) أحلت لهم الحيتان ، وحرمت عليهم يوم السبت ، بلاء من الله ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . فصار القوم ثلاثة أصناف ؛ فأما صنف فأمسك ونهى عن المعصية . وأما صنف فأمسك عن حرمة الله ، وأما صنف فانتهك حرمة الله ومرَد على المعصية ، فلما أبوا إلا الاعتداء إلى ما نهوا عنه ، قال الله لهم (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) فصاروا قردة لها أذناب تعاوى ، بعد ما كانوا رجالا ونساء .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ قال : نهوا عن صيد الحيتان يوم السبت ، فكانت تشرع إليهم يوم السبت ، وبلُوا بذلك فاعتدوا فاصطادوها ، فجعلهم الله قردة خاسئين .

حدثني موسى قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) قال : فهم أهل أيلة ، وهى القرية التى كانت حاضرة البحر ، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت ، وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا فى السبت شيئا ، لم يبق فى البحر حوت إلا خرج ، حتى يخرجن خراطيمهن من الماء ، فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر ، فلم ير منهن شىء ، حتى يكون يوم السبت ، فذلك قوله (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ) فاشتهى بعضهم السمك ، فجعل الرجل يحفر الحفيرة ، ويجعل لها نهرا إلى البحر ، فإذا كان يوم السبت فتح النهر ، فأقبل الموج بالحيتان ، يضربها حتى يلقيها فى الحفيرة ، ويريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر ، فيمكث ، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه ، فجعل الرجل يشوى السمك ، فيجد جاره ريحه ، فيسأله فيخبره فيصنع مثل ماصنع جاره ، حتى إذا فشا فيهم أكل السمك ، قال لهم علماؤهم : ويحكم ! إنما تصطادون السمك يوم السبت وهو لايحلّ لكم ، فقالوا : إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه ، فقال الفقهاء : لا ، ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء ، فدخل فقالوا لا ، وعتَوا أن ينتهوا ، فقال بعض الذين نهوهم لبعض (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) يقول : لم تعظونهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ، فقال بعضهم : (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) فلما أبوا قال المسلمون : والله لانساكنكم فى قرية واحدة ، فقسموا القرية بجدار ، ففتح المسلمون بابا ، والمعتدون فى السبت

بابا ، ولعنهم داود ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم ، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم ، فلما أبطئوا عليهم تسوّر المسلمون عليهم الحائط ، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ، ففتحوا عنهم ، فذهبوا فى الأرض ، فذلك قول الله عز وجل (فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) فذلك حين يقول (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلَى لِسانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ) فهم القردة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) قال : لم يمسخوا ، إنما هو مثل ضربه الله لهم مثل ماضرب مثل الحمار يحمل أسفارا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) قال : مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا . وهذا القول الذى قاله مجاهد قول لظاهر مادل عليه كتاب الله مخالف ، وذلك أن الله أخبر فى كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم (أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) وأن الله تعالى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم ، وأنهم عبدوا العجل ، فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أُمروا بدخول الأرض المقدسة ، فقالوا لنبيهم (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قاعِدُونَ) فابتلاهم بالتيه ، فسواء قال قائل : هم لم يمسخهم قردة ، وقد أخبر جل ذكره أنه جعل منهم قردة وخنازير ، وآخر قال : لم يكن شىء مما أخبر الله عن بنى إسرائيل أنه كان منهم من الخلاف على أنبيائهم والعقوبات والأنكال التى أحلها الله بهم ، ومن أنكر شيئا من ذلك وأقرّ بآخر منه ، سئل البرهان على قوله ، وعُورض فيما أنكر من ذلك بما أقرّ به ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح ، هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحجة التى لايجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة عليه ، وكفى دليلا على فساد قول إجماعها على تخطئته .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

يعنى بقوله (فَقُلْنَا لَهُمْ) أى فقلنا للذين اعتدوا فى السبت : يعنى فى يوم السبت . وأصل السبت الهدوّ والسكون فى راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم مسبوت لهدوّه وسكون جسده واستراحته ، كما قال جل ثناؤه (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً) أى راحة لأجسادكم ، وهو مصدر من قول القائل : سبت فلان يسبت سبتا . وقد قيل إنه سمى سبتا لأن الله جل ثناؤه فرغ يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى قبله ، من خلق جميع خلقه .

وقوله (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) أى صيروا كذلك ، والخاسئ المبعد المطرود ، كما يخسأ الكلب ، يقال منه : خسأته أخسؤه خسأ وخسوءا ، وهو يخسأ خسوءا ، قال : ويقال خسأته فخسأ وانخسأ ، ومنه قول الراجز :

كالكَلْبِ إنْ قُلْتَ لَهُ اخسا انْخَسأْ

يعنى إن طردته انطرد ذليلا صاغرا ، فكذلك معنى قوله (كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ) أى مبعدين من الخير أذلاء صغراء .

كما حدثنا بشار ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ) قال : صاغرين .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (خاسِئِينَ) قال : صاغرين .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ) أى أذلة صاغرين .

وحدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس خاسئا : يعنى ذليلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

اختلف أهل التأويل فى تأويل الهاء والألف فى قوله (فَجَعَلْنَاها) وعلام هى عائدة . فروى عن ابن عباس فيها قولان :

أحدهما ما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق عن الضحاك ، عن ابن عباس (فَجَعَلْنَاها) فجعلنا تلك العقوبة ، وهى المسخة نكالا ، فالهاء والألف من قوله (فجعلْنَاها) على قول ابن عباس هذا كناية عن المسخة ، وهى فعلة ، من مَسَخهم الله مسخة . فمعنى الكلام على هذا التأويل (فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ) فصاروا قردة ممسوخين (فجَعَلْنَاها) فجعلنا عقوبتنا ومسخنا إياهم (نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ).

والقول الآخر من قولى ابن عباس ما حدثنى به محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى قال: حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (فجَعَلْنَاها) يعنى الحيتان ، والهاء والألف على هذا القول من ذكر الحيتان ، ولم يجر لها ذكر ، ولكن لما كان فى الخبر دلالة كنى عن ذكرها ، والدلالة على ذلك قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ)

وقال آخرون : فجعلنا القرية التى اعتدى أهلها فى السبت ، فالهاء والألف فى قول هؤلاء كناية عن قرية القوم الذين مسخوا .

وقال آخرون : معنى ذلك : فجعلنا القردة الذين مسخوا نكالا لما بين يديها وما خلفها ، فجعلوا الهاء والألف كناية عن القردة .

وقال آخرون : (فجعلناها) يعنى به : فجعلنا الأمة التى اعتدت فى السبت نكالا .

القول فى تأويل قوله (نَكالًا)

والنكال مصدر من قول القائل : نكّل فلان بفلان تنكيلا ونكالا ، وأصل النكال : العقوبة ، كما قال عدىّ بن زيد العبادى .

لا يَحُطّ الضَّلِيلُ ما صَنَعَ العَبْدُ وَلا فِي نَكالِهِ تَنْكِيرُ

وبمثل الذى قلنا فى ذلك روى الخبر عن ابن عباس .

حدثنا أبوكريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (نَكالًا) يقول : عقوبة .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنى إسحاق ، قال : حدثنى ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله (فجعلناها نَكالًا) أى عقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى (لِمَا بينَ يَدَيْها وَما خَلْفَها)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك .

فقال بعضهم بما حدثنا به أبوكريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (لِمَا بينَ يَدَيْها) يقول : ليحذر من بعدهم عقوبتى (وَما خَلْفَها) يقول : الذين كانوا بقوا معهم .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (لِمَا بينَ يَدَيْها وَما خَلْفَها) لما خلا لهم من الذنوب ، وما خلفها : أى عبرة لمن بقى من الناس .

وقال آخرون بما حدثنى ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، قال : قال ابن عباس (فجعلناها نَكالًا لِمَا بينَ يَدَيْها وَما خَلْفَها) أى من القرى .

وقال آخرون بما حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال الله (فجعلناها نَكالًا لِمَا بينَ يَدَيْها) من ذنوب القوم (وَما خَلْفَها) أى للحيتان التى أصابوا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا أمعمر ، عن قتادة فى قوله (لِمَا بينَ يَدَيْها) من ذنوبها (وَما خَلْفَها) من الحيتان .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثنى عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله تعالى (لِمَا بينَ يَدَيْها) ما مضى من خطاياهم إلى أن هلكوا به .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) يقول: بين يديها مامضى من خطاياهم ، وماخلفها : خطاياهم التي هلكوا بها.

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله ، إلا أنه قال (وَمَا خَلْفَهَا) : خطيئتهم التي هلكوا بها .

وقال آخرون بما حدثني به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) قال: أما ما بين يديها : فما سلف من عملهم ، وما خلفها : فمن كان بعدهم من الأمم أن يعصوا فيصنع الله بهم مثل ذلك .

وقال آخرون بما حدثني به ابن سعد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عمى ، قال : حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) يعنى الحيتان جعلها نكالا لما بين يديها ، وما خلفها من الذنوب التي عملوا قبل الحيتان ، وما عملوا بعد الحيتان ، فذلك قوله (مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) .

وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية ما رواه الضحاك عن ابن عباس ، وذلك لما وصفنا من أن الهاء والألف فى قوله (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا) بأن تكون من ذكر العقوبة ، والمسخة التي مسخها القوم ، أولى منها بأن تكون من ذكر غيرها من أجل أن الله جل ثناؤه إنما يحذّر خلقه بأسه وسطوته ، وبذلك يخوّفهم . وفى إبانته عزّ ذكره بقوله (نَكَالًا) أنه عنى به العقوبة التي أحلها بالقوم ، ما يعلم أنه عنى بقوله (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) فجعلنا عقوبتنا التي أحللناها بهم عقوبة لما بين يديها وما خلفها ، دون غيره من المعانى ، وإذا كانت الهاء والألف بأن تكون من ذكر المسخة والعقوبة ، أولى منها بأن تكون من ذكر غيرها ، فكذلك العائد فى قوله (لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) من الهاء والألف أن يكون من ذكر الهاء والألف اللتين فى قوله (فَجَعَلْنَاهَا) ، أولى من أن يكون من غيره .

فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا : فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلنا عقوبتنا لهم ، عقوبة لما بين يديها من ذنوبهم السالفة منهم مسخنا إياهم ، وعقوبتنا لهم ولما خلف عقوبتنا لهم من أمثال ذنوبهم ، أن يعمل بها عامل ، فيمسخوا مثل ما مسخوا ، وأن يحلّ بهم مثل الذى حلّ بهم ، تحذيرا من الله تعالى ذكره عباده أن يأتوا من معاصيه مثل الذى أتى الممسوخون ، فيعاقبوا عقوبتهم .

وأما الذى قال فى تأويل ذلك (فَجَعَلْنَاهَا) يعنى الحيتان عقوبة لما بين يدى الحيتان من ذنوب القوم وما بعدها من ذنوبهم ، فإنه أبعد فى الانتزاع ، وذلك أن الحيتان لم يجر لها ذكر ، فيقال (فَجَعَلْنَاهَا) فإن ظنّ ظانّ أن ذلك جائز ، وإن لم يكن جرى للحيتان ذكر ، لأن العرب قد تكنى عن الاسم ولم يجر له ذكر ، فإن ذلك وإن كان كذلك ، فغير جائز أن يترك المفهوم من ظاهر الكتاب والمعقول به ظاهر فى الخطاب والتنزيل ، إلى باطن لادلالة عليه من ظاهر التنزيل ، ولا خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم منقول ، ولا فيه من الحجة إجماع مستفيض .

وأما تأويل من تأوّل ذلك : لما بين يديها من القرى ، وما خلفها ، فينظر إلى تأويل من تأول ذلك بما بين يدى الحيتان وما خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَوْعِظَةً) .

والموعظة مصدر من قول القائل : وعظت الرجل أعظه وعظا وموعظة : إذا ذكرته .

فتأويل الآية : فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها ، وتذكرة للمتقين، ليتعظوا بها ، ويعتبروا، ويتذكروا بها ، كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَمَوْعِظَةً) يقول : وتذكرة وعبرة للمتقين .

القول فى تأويل قوله (لِلْمُتَّقِينَ) .

وأما المتقون فهم الذين اتقَوا بأداء فرائضه،واجتناب معاصيه، كما حدثنا أبو كريب، قال: ثنا عثمان ابن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، قال : ثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) يقول : للمؤمنين الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعتى ، فجعل تعالى ذكره ما أحلّ بالذين اعتدوا فى السبت من عقوبته، موعظة للمتقين خاصة، وعبرة للمؤمنين دون الكافرين به إلى يوم القيامة .

كالذى حدثنا ابن حميد، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن عبد الله بن عباس فى قوله (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) إلى يوم القيامة .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) : أى بعدهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : أما موعظة للمتقين ، فهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) قال : فكانت موعظة للمتقين خاصة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج فى قوله (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) : أى لمن بعدهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)

وهذه الآية مما وبخ الله بها المخاطبين من بنى إسرائيل فى نقض أوائلهم الميثاق الذى أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه ، فقال لهم : واذكروا أيضا من نكثكم ميثاق ، إذ قال موسى لقومه ، وقومه بنو إسرائيل، إذ ادّارءوا فى القتيل الذى قتل فيهم إليه (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) والهزو : اللعب والسخرية ، كما قال الراجز :

قَدْ هَزِئَتْ مِنِّى أُمُّ طَيْسَلَهْ قالَتْ أَرَاهُ مُعْدِماً لاشَىْءَ لَهْ (١)

يعنى بقوله : قدهزئت : قد سخرت ولعبت ، ولا ينبغى أن يكون من أنبياء الله فيما أخبرت عن الله من أمر أو نهى هزؤ أو لعب ، فظنوا بموسى أنه فى أمره إياهم عن أمر الله تعالى ذكره بذبح البقرة عند تدارئهم فى القتيل إليه ، أنه هازئ لاعب ، ولم يكن لهم أن يظنوا ذلك بنبىّ الله ، وهو يخبرهم أن الله هو الذى أمرهم بذبح البقرة . وحذفت الفاء من قوله (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) وهو جواب ، لاستغناء ما قبله من الكلام عنه ، وحسن السكوت على قوله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) فجاز لذلك إسقاط الفاء من قوله (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) كما جاز ،وحسن إسقاطها من قوله تعالى (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا) ، ولم يقل : فقالوا إنا أرسلنا ، ولو قيل : فقالوا كان حسنا أيضا جائزا ، ولو كان ذلك على كلمة واحدة لم تسقط منه الفاء ، وذلك أنك إذا قلت قمت وفعلت كذا وكذا ، ولم تقل : قمت فعلت كذا وكذا ، لأنها عطف لا استفهام يوقف عليه ، فأخبرهم موسى إذ قالوا له ماقالوا إن المخبر عن الله جل ثناؤه بالهزء والسخرية من الجاهلين وبرأ نفسه مما ظنوا به من ذلك ، فقال (أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) يعنى من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل .

وكان سبب قيل موسى لهم (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) ماحدثنا به محمد بن عبد الأعلى قال : ثنا المعتمر بن سليمان ،قال : سمعت أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة ، قال : كان فى بنى إسرائيل رجل عقيم أو عاقر ، قال : فقتله وليه ، ثم احتمله ، فألقاه فى سبط غير سبطه ، قال : فوقع بينهم فيه الشرّ ، حتى أخذوا السلاح ، قال : فقال أولو النهى : أتقتتلون وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فأتوا نبى الله ، فقال : اذبحوا بقرة ، فقالوا (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ) إلى قوله (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) قال : فضرب ،فأخبرهم بقاتله ، قال : ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهبا ، قال : ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم ، فلم يورّث قاتل بعد ذلك .

وحدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : حدثنى أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قول الله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) قال : كان رجل من بنى إسرائيل ، وكان غنيا ولم يكن له ولد ، وكان له قريب وكان وارثه ، فقتله ليرثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى ، فقال له : إن قريبى قتل ، وأتى إلىّ أمر عظيم ، وإنى لا أجد أحدا يبين لى من قتله غيرك يا نبىّ الله ، قال : فنادى

(١) رواية البيت فى اللسان (طل) :

تهزأ منى أخت آل طيسله قالت أراه فى الوقار والعله

موسى فى الناس : أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا ، فلم يكن عندهم علمه ، فأقبل القاتل على موسى فقال : أنت نبيّ الله ، فاسأل لنا ربك أن يبين لنا ، فسأل ربه ، فأوحى الله إليه (إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) فعجبوا وقالوا (أتَتَّخِذُنا هُزُوًا ؟ قالَ أعُوذُ باللهِ أنْ أكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ . قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ، قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ لافارِضٌ) يعنى لاهرمة (وَلا بِكْرٌ) يعنى ولا صغيرة (عَوَانٌ بينَ ذلِكَ) أى نصف بين البكر والهرمة . (قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها ، قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها) أى صاف لونها (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) أى تعجب الناظرين (قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإنَّا إنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ . قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ لاذَلُولٌ) أى لم يذللها العمل (تُثِيرُ الأرْضَ) يعنى ليست بذلول فتثير الأرض ، وَلا تَسْقِي الحَرْثَ ، يقول ولا تعمل فى الحرث ، (مُسَلَّمَةٌ) يعنى مسلمة من العيوب (لاشِيَةَ فِيها) يقول لابياض فيها (قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) قال : ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها ، لكانت إياها ، ولكنهم شددوا على أنفسهم ، فشدّد الله عليهم ؛ ولولا أن القوم استثنوا فقالوا (وَإنَّا إنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ) لما هدوا إليها أبدا ، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى ، وهى القيّمة عليهم ، فلما علمت أنهم لايزكو لهم غيرها ، أضعفت عليهم الثمن ، فأتوا موسى ، فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة ، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها ، فقال لهم موسى : إن الله قد كان خفف عليكم ، فشدّدتم على أنفسكم ، فأعطوها رضاها وحكمها ، ففعلوا واشتروها ، فذبحوها ، فأمرهم موسى أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ، ثم عاد ميتا كما كان ، فأخذوا قاتله ، وهو الذى كان أتى موسى فشكى إليه ، فقتله الله على أسوأ عمله .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَإذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) قال : كان رجل من بنى إسرائيل مكثرا من المال ، وكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج ، فخطب إليه ابن أخيه ابنته ، فأبى أن يزوّجه إياها ، فغضب الفتى وقال : والله لأقتلنّ عمى ، ولآخذنّ ماله ، ولأنكحنّ ابنته ، ولآكلنّ ديته . فأتاه الفتى وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل ، فقال : يا عم ، انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أصيب فيها ، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى ، فخرج العم مع الفتى ليلا ، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ، ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه ، كأنه لايدرى أين هو فلم يجده ، فانطلق نحوه ، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه ، فأخذهم وقال : قتلتم عمى ، فأدّوا إلىّ ديته ، وجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه ، وينادى واعماه ، فرفعهم إلى موسى ، فقضى عليهم بالدية ، فقالوا له : يا رسول الله : ادع لنا حتى يتبين له مَن صاحبه ؟ فيؤخذ صاحب الجريمة ، فوالله إن ديته علينا لهينة ، ولكنا نستحى أن نعير به ، فذلك حين يقول الله جل ثناؤه (وَإذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادَّارأتُمْ فِيها وَاللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) فقال لهم موسى (إنَّ

الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قالوا : نسألك عن القتيل وعمن قتله ، وتقول : اذبحوا بقرة ، أتهزأ بنا ؟ قال موسى (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال : قال ابن عباس : فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى ، فشدد الله عليهم ، فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) ، والفارض : الهرمة التي لاتلد ، والبكر : التي لم تلد إلا ولدا واحدا ، والعوان : النصف التي بين ذلك،التي قد ولدت وولد ولدها فافعلوا ما تؤمرون (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) قال : تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها) من بياض ولا سواد ولا حمرة (قالوا الآن جئت بالحق) فطلبوها فلم يقدروا عليها ، وكان رجل من بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه ، وأن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه ، فكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ، فقال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبى ، فآخذه بثمانين ألفا ، فقال له الآخر : أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا ، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفا ، وزاد الآخر على أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه،حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: لا والله لا أشتريه منك بشيء أبدا ، وأبى أن يوقظ أباه ، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ،أن جعل له تلك البقرة ، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، فأبصروا البقرة عنده ، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة فأبى ، فأعطوه ثنتين فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشرا فأبى، فقالوا : والله لانتركك حتى نأخذها منك ، فانطلقوا به إلى موسى ، فقالوا : يا نبي الله إنا وجدنا البقرة عند هذا، فأبى أن يعطيناها، وقد أعطيناه ثمنا ، فقال له موسى : أعطهم بقرتك ، فقال : يا رسول الله أنا أحق بمالى، فقال : صدقت، وقال للقوم: أرضوا صاحبكم ، فأعطوه وزنها ذهبا فأبى ، فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها ، حتى أعطوه وزنها عشر مرات ، فباعهم إياها وأخذ ثمنها ، فقال اذبحوها ، فذبحوها ، فقال : اضربوه ببعضها ، فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين،فعاش، فسألوه من قتلك ؟ فقال لهم : ابن أخى ، قال : أقتله وآخذ ماله وأنكح ابنته ، فأخذوا الغلام فقتلوه .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، عن ابن زيد، عن مجاهد، وحدثنى المثنى ، قال: ثنا أبو حذيفة ، قال: ثنا شبل، قال: حدثنى خالد ابن يزيد ، عن مجاهد ، وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : ثنا إسمعيل ، عن عبد الكريم ، قال : حدثنى عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهبا يذكر ، وحدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، وحجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس ، وحدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : أخبرنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، فذكر جميعهم : أن السبب الذى من أجله قال لهم موسى (إن الله يأمركم أن

تَذْبَحُوا بَقَرَةً) نحو السبب الذى ذكره عبيدة وأبو العالية والسدى ، غير أن بعضهم ذكر أن الذى قتل القتيل الذى اختصم فى أمره إلى موسى كان أخا المقتول . وذكر بعضهم أنه كان ابن أخيه . وقال بعضهم : بل كانوا جماعة ورثة استبطئوا حياته . إلا أنهم جميعا مجمعون على أن موسى إنما أمرهم بذبح البقرة من أجل القتيل إذ احتكمو إليه عن أمر الله إياهم بذلك . فقالوا له : وما ذبح البقرة يبين لنا خصومتنا التى اختصمنا فيها إليك فى قتل من قتل ، فادعى على بعضنا أنه القاتل ، أتهزأ بنا ؟

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : قتل قتيل من بنى إسرائيل ، فطرح فى سبط من الأسباط ، فأتى أهل ذلك القتيل إلى ذلك السبط . فقالوا : أنتم والله قتلتم صاحبنا ؟ قالوا : لا والله ، فأتوا موسى ، فقالوا : هذا قتيلنا بين أظهرهم وهم والله قتلوه . فقالوا : لا والله يانبىّ الله طرح علينا ، فقال لهم موسى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) فقالوا : أتستهزئ بنا ؟ وقرأ قول الله جل ثناؤه (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) قالوا : نأتيك فنذكر قتيلنا والذى نحن فيه فتستهزئ بنا ؟ فقال موسى (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد وحجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ، ومحمد بن قيس لما أتى أولياء القتيل ، والذين ادّعوا عليهم قتل صاحبهم موسى ، وقصوا قصتهم عليه ، أوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ) قالوا : وما البقرة والقتيل ؟ قال : أقول لكم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، وتقولون : أتتخذنا هزوا ؟

قال أبو جعفر : فقال الذين قيل لهم (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) بعد أن علموا واستقرّ عندهم أن الذى أمرهم به موسى عليه السلام من ذلك عن أمر الله من ذبح بقرة جِدّ وحقّ (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ) فسألوا موسى أن يسأل ربه لهم ما كان الله قد كفاهم بقوله لهم : اذبحوا بقرة ، لأنه جل ثناؤه إنما أمرهم بذبح بقرة من البقر ، أىّ بقرة شاءوا ذبحها ، من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع ، أو صنف دون صنف . فقالوا بجفاء أخلاقهم وغلظ طبائعهم وسوء أفهامهم ، وتكلف ما قد وضع الله عنهم مؤنته ، تعنتا منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : لما قال لهم موسى (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ) قالوا له يتعنتونه (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ) فلما تكلفوا جهلا منهم ما تكلفوا ، من البحث عما كانوا قد كفوه من صفة البقرة التى أمروا بذبحها تعنتا منهم بنبيهم موسى صلوات الله عليه ، بعد الذى كانوا أظهروا له من سوء الظن به فيما أخبرهم عن الله جل ثناؤه بقولهم (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) عاقبهم عز وجل بأن خصّ بذبح ما كان أمرهم بذبحه من البقر ، على نوع منها دون نوع ، فقال لهم جل ثناؤه إذ سألوه فقالوا : ماهي ؟ ما صفتها وما

حليتّها؟ حلها لنا لنعرفها (قالَ إنَّها بَقَرَةٌ لافارِضٌ وَلا بِكْرٌ) يعنى بقوله جل ثناؤه : لافارض: لامسنة هرمة ، يقال منه : فرَضت البقرة تفرِض فروضا ، يعنى بذلك أسنت ، ومن ذلك قول الشاعر :

يا رُبَّ ذِى ضِغْنٍ علَىَّ فارِضٍ　　لَهُ قُــرُوءٌ كقُرُوءِ الحائِضِ

يعنى بقوله فارض : قديم . يصف ضغنا قديما ، ومنه قول الآخر :

لَهُ زِجاجٌ ولَهاةٌ فارِضٌ　　هَدْلاءُ كالوَطْبِ نُحاهَ الماخِضِ

وبمثل الذى قلنا فى تأويل فارض قال المتأوّلون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى علىّ بن سعيد الكندى ، قال : ثنا عبد السلام بن حرب ، عن خصيف ، عن مجاهد (لافارِضٌ) قال : لاكبيرة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن عطية ، قال : ثنا شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أو عن عكرمة ، شك شريك (لافارِضٌ) قال : الكبيرة .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : أخبرنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (لافارِضٌ) الفارض : الهرمة .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (لافارِضٌ) يقول : ليست بكبيرة هرمة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جُريج ، عن عطاء الخراسانىّ عن ابن عباس (لافارِضٌ) الهرمة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : الفارض : الكبيرة .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد قوله (لافارِضٌ) قال : الكبيرة .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (لافارِضٌ) يعنى لاهرمة .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : الفارض : الهرمة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : قال معمر ، قال قتادة : الفارض : الهرمة يقول : ليست بالهرمة ولا البكر ، عَوان بين ذلك .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : الفارض الهرمة التى لاتلد .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : الفارض : الكبيرة ،

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلَا بِكْرٌ) .

والبكر من إناث البهائم وبنى آدم ما لم يفتحله الفحل ، وهى مكسورة الباء لم يسمع منه فَعَل ولا يَفْعُل . وأما البكر بفتح الباء فهو الفتىّ من الإبل ، وإنما عنى جل ثناؤه بقوله (وَلَا بِكْرٌ) : ولا صغيرة لم تلد .

كما حدثنى علىّ بن سعيد الكندىّ ، قال : ثنا عبد السلام بن حرب ، عن خصيف ، عن مجاهد (وَلَا بِكْرٌ) : صغيرة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، البكر : الصغيرة .

حدثنا أبو كريب قال : ثنا الحسن بن عطية ، قال : ثنا شريك ، عن خصيف ، عن سعيد ، عن ابن عباس أو عكرمة شك (وَلَا بِكْرٌ) قال : الصغيرة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، عن عطاء الخراسانىّ ، عن ابن عباس (وَلَا بِكْرٌ) الصغيرة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة (وَلَا بِكْرٌ) ولا صغيرة .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَلَا بِكْرٌ) ولا صغيرة ضعيفة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَلَا بِكْرٌ) يعنى ولا صغيرة .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى فى البكر لم تلد إلا ولدا واحدا .

القول فى تأويل قوله تعالى (عَوَانٌ)

قال أبو جعفر : العوان : النصف التى قد ولدت بطنا بعد بطن ، وليست بنعت للبكر ، يقال منه : قد عوّنت إذا صارت كذلك ، وإنما معنى الكلام أنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، بل عوان بين ذلك ، ولا يجوز أن يكون عوان إلا مبتدأ ، لأن قوله بين ذلك كناية عن الفارض والبكر ، فلا يجوز أن يكون متقدما عليهما ، ومنه قول الأخطل :

وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ شُمْطٍ مُحَفَّلَةٍ ... وَمَا بِيَثْرِبَ مِنْ عُونٍ وأَبْكَارِ

وجمعها عُون ، يقال : امرأة عَوَان من نسوة عون ، ومنه قول تميم بن مقبل :

وَمَأْتَمٍ كالدُّمَى حُورٌ مَدَامِعُهَا ... لَمْ تَيْأَسِ العَيْشَ أَبْكَارًا وَلَا عُونَا

وبقرة عوان وبقر عون . قال : وربما قالت العرب : بقر عُوُن ، مثل رُسُل يطلبون بذلك الفرق بين جمع عوان من البقر ، وجمع عانة من الحُمُر ، ويقال : هذه حرب عوان : إذا كانت حربا قد قوتل فيها مرة

بعد مرة ، يمثل ذلك بالمرأة التى ولدت بطنا بعد بطن ، وكذلك يقال : حاجة عوان إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب أن ابن زيد أنشده :

قُعُودٌ لَدَى الأَبْوَابِ طُلاَّبُ حاجَةٍ	عَوَانٍ منَ الحاجاتِ أَوْ حاجَةً بِكْرَا

قال أبو جعفر : والبيت للفرزدق ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك تأوله أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا علىّ بن سعد الكندىّ ، ثنا عبد السلام بن حرب ، عن خصيف ، عن مجاهد (عَوَانٌ بينَ ذلكَ) : وسط ، قد ولدن بطنا أو بطنين .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (عَوَانٌ) قال : العوان : العانس النصف .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : العوان : النصف .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا ابن عطية ، قال : ثنا شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أو عكرمة ، شكّ شريك (عَوَانٌ) قال : بين ذلك .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (عَوَانٌ) قال بين الصغيرة والكبيرة ، وهى أقوى ما تكون من البقر والدوابّ ، وأحسن ما تكون .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس (عَوَانٌ) قال : النصف .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (عَوَانٌ) نصف .

وحدثت عن عمار ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة : العوان : نصَف بين ذلك .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد (عَوَانٌ) التى تنتج شيئا بشرط أن تكون التى قد نتجت بكرة أو بكرتين .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : العوان : النصف التى بين ذلك ، التى قد ولدت وولد ولدها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : العوان : بين ذلك ليست ببكر ولا كبيرة .

القول فى تأويل قوله تعالى (بَيْنَ ذلكَ)

يعنى بقوله (بينَ ذلكَ) : بين البكر والهرمة .

كما حدثنى المثنى قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (بينَ ذلكَ) : أى بين البكر والهرمة .

فإن قال قائل : قد علمت أن بين لاتصلح إلا أن تكون مع شيئين فصاعدا ، فكيف قيل بين ذلك وذلك واحد فى اللفظ ؟ قيل: إنما صلحت مع كونها واحدة ، لأن « ذلك » بمعنى اثنين ، والعرب تجمع فى ذلك وذاك شيئين ومعنيين من الأفعال ، كما يقول القائل : أظن أخاك قائما ، وكان عمرو أباك ، ثم يقول : قد كان ذاك ، وأظن ذلك ، فيجمع بذلك وذاك الاسم والخبر الذى كان لابد للظنّ وكان منهما ، فمعنى الكلام : قال : إنه يقول إنها بقرة لامسنة هرمة ، ولا صغيرة لم تلد ، ولكنها بقرة نصف ، قد ولدت بطنا بعد بطن ، بين الهرم والشباب ، فجمع ذلك معنى الهرم والشباب لما وصفنا ، ولو كان مكان الفارض والبكر اسما شخصين ، لم يجمع مع بين ذلك ، وذلك أن ذلك لايؤدى عن اسم شخصين ، وغير جائز لمن قال : كنت بين زيد وعمرو أن يقول : كنت بين ذلك ، وإنما يكون ذلك مع أسماء الأفعال دون أسماء الأشخاص .

القول فى تأويل قوله تعالى (فافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ) .

يقول الله لهم جل ثناؤه : افعلوا ما آمركم به تدركوا حاجاتكم وطَلِباتكم عندى ، واذبحوا البقرة التى أمرتكم بذبحها ، تصلوا بانتهائكم إلى طاعتى بذبحها إلى العلم بقاتل قتيلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)

ومعنى ذلك ، قال قوم موسى لموسى (ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها) : أى لون البقرة التى أمرتنا بذبحها ، وهذا أيضا تعنت آخر منهم بعد الأول ، وتكلف طلب ما قد كانوا كُفُوه فى المرة الثانية ، والمسئلة الآخرة ، وذلك أنهم لم يكونوا حصروا فى المرة الثانية ، إذ قيل لهم بعد مسئلتهم عن حلية البقرة التى كانوا أمروا بذبحها ، فأبوا إلا تكلف ماقد كفوه من المسئلة عن صفتها ، فحصروا على نوع دون سائر الأنواع ، عقوبة من الله لهم على مسألتهم التى سألوها نبيهم صلى الله عليه وسلم تعنتا منهم له ، ثم لم يحصرهم على لون منها دون لون ، فأبوا إلا تكلف ما كانوا عن تكلفه أغنياء ، فقالوا تعنتا منهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن عباس (ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها) فقيل لهم عقوبة لهم (إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) فحُصروا على لون منها دون لون ، ومعنى ذلك أن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها .

قال : ومعنى قوله (يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها) أىّ شىء لونها ، فلذلك كان اللون مرفوعا لأنه مرفوع ما ، وإنما لم ينصب ما بقوله يبين لنا ، لأن أصل أىّ وما جمع متفرّق الاستفهام كقول القائل : بين لنا أسوداء هذه البقرة أم صفراء ، فلما لم يكن كقوله بين لنا ، ارتفع على الاستفهام منصرفا [عما] [1] لم يكن له ، ارتفع على أى لأنه جمع ذلك المتفرّق ، وكذلك كل ما كان من نظائره ، فالعمل فيه واحد فى ما وأى .

(١) كذا فى المطبوعتين ؛ والزيادة التى وضعناها بين المعقوفين يتضح بها الكلام .

واختلف أهل التأويل فى معنى قوله (صَفْرَاءُ) فقال بعضهم : معنى ذلك سوداء شديدة السواد .

ذكر من قال ذلك منهم :

حدثنى أبو مسعود إسمعيل بن مسعود الجَحدرى ، قال : ثنا نوح بن قيس ، عن محمد بن سيف ، عن الحسن (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) قال : سوداء شديدة السواد .

حدثنى أبو زائدة زكريا بن يحيى بن أبى زائدة ، والمثنى بن إبراهيم قالا : ثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : ثنا نوح بن قيس ، عن محمد بن سيف ، عن أبى رجاء ، عن الحسن ، مثله .

وقال آخرون : معنى ذلك : صفراء القرن والظلف .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى هشام بن يونس النهشلى ، قال : ثنا حفص بن غياث ، عن أشعث ، عن الحسن فى قوله (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) قال : صفراء القرن والظلف .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنى هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن كثير بن زياد ، عن الحسن فى قوله (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) قال : كانت وحشية .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا مروان بن معاوية ، عن إبراهيم ، عن أبى حفص ، عن مغراء ، أو عن رجل ، عن سعيد بن جبير (بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) قال : صفراء القرن والظلف .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : هى صفراء .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا الضحاك بن مخلد ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) قال : لو أخذوا بقرة صفراء لأجزأت عنهم .

قال أبو جعفر : وأحسب أن الذى قال فى قوله (صَفْرَاءُ) يعنى به سوداء ، ذهب إلى قوله فى نعت الإبل السود : هذه إبل صفر ، وهذه ناقة صفراء : يعنى بها سوداء ، وإنما قيل ذلك فى الإبل لأن سوادها يضرب إلى الصفرة ، ومنه قول الشاعر :

تِلْكَ خَيْلِى مِنْهَا وتِلْكَ رِكَابِى　　هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

يعنى بقوله : هنّ صفر : هنّ سود ، وذلك إن وصفت الإبل به فليس مما توصف به البقر ، مع أن العرب لاتصف السواد بالفقوع ، وإنما تصف السواد إذا وصفته بالشدة بالحلوكة ونحوها ، فتقول : هو أسود حالك وحانك وحُلْكوك ، وأسود غربيب ودَجوجى ، ولا تقول : هو أسود فاقع ، وإنما تقول هو أصفر فاقع ، فوصفه إياه بالفقوع من الدليل البين على خلاف التأويل الذى تأوله قوله (إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ) المتأول بأن معناه : سوداء شديدة السواد .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَاقِعٌ لَوْنُهَا)

يعنى خالص لونها ، والفقوع فى الصفرة ، نظير النصوع فى البياض ، وهو شدته وصفاؤه .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال قتادة (فَاقِعٌ لَوْنُهَا) هي الصافي لونها .

حدثني المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية (فَاقِعٌ لَوْنُهَا) أي صاف لونها .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فَاقِعٌ) قال : نقيّ لونها .

حدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عمي ، قال : حدثني أبي عن أبيه ، عن ابن عباس (فَاقِعٌ لَوْنُهَا) شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيضّ ، قال أبو جعفر : أراه أبيض .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد في قوله (فَاقِعٌ لَوْنُهَا) قال : شديدة صفرتها ، يقال منه : فقع لونه يفقَع ، ويفقُع فقعا وفقوعا فهو فاقع ، كما قال الشاعر :

حَمَلْتُ عَلَيْهِ الوَرْدَ حتى تَرَكْتُهُ ذَلِيلاً يَسُفُّ التُّرْبَ وَاللَّوْنُ فَاقِعُ

القول في تأويل قوله تعالى (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

يعني بقوله (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) تعجب هذه البقرة في حسن خلقها ومنظرها وهيئتها الناظر إليها .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) أي تعجب الناظرين.

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا إسمعيل بن عبد الكريم ، قال : حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) قال : تعجب الناظرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)

قال أبو جعفر : يعني بقوله (قَالُوا) قال قوم موسى الذين أُمروا بذبح البقرة لموسى ، فترك ذكر موسى وذكر عائدَ ذكره ، اكتفاء بما دلّ عليه ظاهر الكلام .

وذلك أن معنى الكلام : قالوا له : ادع ربك ، فلم يذكر «له» لما وصفنا . وقوله (يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) : خبر من الله عن القوم بجهلة منهم ثالثة ، وذلك أنهم لو كانوا إذ أمروا بذبح البقرة ذبحوا أيها تيسرت ، مما يقع عليه اسم بقرة ، كانت عنهم مجزئة ، ولم يكن عليهم غيرها ، لأنهم لم يكونوا كُلِّفوها بصفة دون صفة ، فلما سألوا بيانها بأيّ صفة هي ، فبين لهم أنها بسنّ من الأسنان دون سنّ سائر الأسنان ، فقيل لهم هي عوان بين الفارض والبكر الضرع ، فكانوا إذ بينت لهم سنها لو ذبحوا أدنى بقرة بالسنّ التي بينت لهم ، كانت عنهم مجزئة ، لأنهم لم يكونوا كُلفوها بغير السنّ التي حدّت لهم ، ولا كانوا حُصروا على لون منها

دون لون، فلما أبوا إلا أن تكون معرّفة لهم بنعوتها، مبينة بحدودها التى تفرّق بينها وبين سائر بهائم الأرض، فشدّدوا على أنفسهم، شدّد الله عليهم بكثرة سؤالهم نبيهم واختلافهم عليه. ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم لأمته «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوهُ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَانْتَهُوا عَنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

قال أبو جعفر: ولكن القوم لما زادوا نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم أذى وتعنتا، زادهم الله عقوبة وتشديدا. كما حدثنا أبو كريب، قال: ثنا عثام بن على، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، لكنهم شدّدوا، فشدد الله عليهم.

حدثنا عمر بن عبد الأعلى، قال: ثنا المعتمر، قال: سمعت أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: لو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر عن أيوب، وحدثنى المثنى، قال: ثنا آدم، قال: ثنا أبو جعفر، عن هشام بن حسان جميعا، عن ابن سيرين، عن عبيدة السلمانى، قال: سألوا وشدّدوا، فشدّد الله عليهم.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، قال: لو أخذ بنو إسرائيل بقرة لأجزأت عنهم، ولولا قولهم (وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) لما وجدوها.

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قول الله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) لو أخذوا بقرة ما كانت لأجزأت عنهم (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ) قال: لو أخذوا بقرة من هذا الوصف لأجزأت عنهم (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) قال: لو أخذوا بقرة صفراء لأجزأت عنهم. (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ) الآية.

حدثنى المثنى بن إبراهيم، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد بنحوه؛ وزاد فيه، ولكنهم شددوا فشُدد عليهم.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: حدثنى حجاج، قال: قال ابن جريج، قال مجاهد: لو أخذوا بقرة ما كانت أجزأت عنهم.

قال ابن جريج: قال لى عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم. قال ابن جريج: قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: «إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَدْنَى بَقَرَةٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا على أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ».

حدثنى المثنى، قال: ثنا آدم، قال: ثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية، قال: لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا (وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ) لما هدوا إليها أبدا.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «إِنَّمَا أُمِرَ القَوْمُ بِأَدْنَى بَقَرَةٍ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا على أَنْفُسِهِمْ شُدِّدَ عَلَيْهِمْ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ».

حدثنى موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدى فى خبر ذكره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، قال: لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شدّدوا وتعنتوا موسى، فشدّد الله عليهم.

حدثنا أبو كريب قال: قال أبو بكر بن عياش، قال ابن عباس: لو أن القوم نظروا أدنى بقرة، يعنى بنى إسرائيل، لأجزأت عنهم، ولكن شددوا فشدّد عليهم، فاشتروها بملء جلدها دنانير.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: لو أخذوا بقرة كما أمرهم الله كفاهم ذلك، ولكن البلاء فى هذه المسائل، فقالوا (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ) فشدّد عليهم، فقال (إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ. فَقَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) قال: وشدد عليهم أشد من الأول فقرأ حتى بلغ (مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا) فأبوا أيضا، فقالوا (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ) فشدّد عليهم فقال (إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا) قال: فاضطروا إلى بقرة لا يعلم على صفتها غيرها، وهى صفراء، ليس فيها سواد ولا بياض.

قال أبو جعفر: وهذه الأقوال التى ذكرناها عمن ذكرناها عنه من الصحابة والتابعين، والخالفين بعدهم من قولهم: إن بنى إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم، من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله فيما أمر ونهى فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخصّ بعض ما عمه ظاهر التنزيل كتاب من الله أو رسول الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خصّ بعض ما عمه ظاهر التنزيل، بحكم خلاف ما دل عليه الظاهر، فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التى عمت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم، على نحو ما قد بيناه فى كتابنا، كتاب الرسالة، من لطيف القول فى البيان عن أصول الأحكام فى قولنا فى العموم والخصوص، وموافقة قولهم فى ذلك قولنا، ومذهبهم مذهبنا، وتخطئتهم قول

القائلين بالخصوص فى الأحكام ، وشهادتهم على فساد قول من قال: حكم الآية الجائية مجىء العموم على العموم ، ما لم يختص منها بعض ما عمته الآية ، فإن خص منها بعض ، فحكم الآية حينئذ على الخصوص فيما خص منها ، وسائر ذلك على العموم ، وذلك أن جميع من ذكرنا قوله آنفا ممن عاب على بنى إسرائيل مسألتهم نبيهم صلى الله عليه وسلم عن صفة البقرة التى أمروا بذبحها وسنها وحليتها ، رأوا أنهم كانوا فى مسئلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى ذلك مخطئين ، وأنهم لو كانوا استعرضوا أدنى بقرة من البقر إذ أمروا بذبحها بقوله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) فذبحوها ، كانوا للواجب عليهم من أمر الله فى ذلك مؤدين ، وللحق مطيعين ، إذلم يكن القوم حصروا على نوع من البقر دون نوع ، وسن دون سن ، ورأوا مع ذلك أنهم إذا سألوا موسى عن سنها ، فأخبرهم عنها وحصرهم منها على سن دون سن ، ونوع دون نوع ، وخص من جميع أنواع البقر نوعا منها ، كانوا فى مسألتهم إياه فى المسئلة الثانية بعد الذى خص لهم من أنواع البقر ، من الخطأ على مثل الذى كانوا عليه من الخطأ فى مسئلتهم إياه المسئلة الأولى. وكذلك رأوا أنهم فى المسئلة الثالثة على مثل الذى كانوا عليه من ذلك فى الأولى والثانية ، وأن اللازم كان لهم فى الحالة الأولى استعمال ظاهر الأمر ، وذبح أى بهيمة شاءوا مما وقع عليها اسم بقرة ، وكذلك رأوا أن اللازم كان لهم فى الحال الثانية استعمال ظاهر الأمر ، وذبح أى بهيمة شاءوا مما وقع عليها اسم بقرة عوان لافارض ولا بكر ، ولم يروا أن حكمهم إذ خص لهم بعض البقر دون البعض فى الحالة الثانية ، انتقل عن اللازم الذى كان لهم فى الحالة الأولى من استعمال ظاهر الأمر ، إلى الخصوص. ففى إجماع جميعهم على ماروينا عنهم من ذلك مع الرواية التى رويناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموافقة لقولهم ، دليل واضح على صحة قولنا فى العموم والخصوص ، وأن أحكام الله جل ثناؤه فى آى كتابه فيما أمر ونهى على العموم ما لم يخص ذلك ما يجب التسليم له ، وأنه إذا خص منه شىء فالمخصوص منه خارج حكمه من حكم الآية العامة الظاهر ، وسائر حكم الآية على ظاهرها العام ، ويؤيد حقيقة ما قلنا فى ذلك ، وشاهد عدل على فساد قول من خالف قولنا فيه .

وقد زعم بعض من عظمت جهالته ، واشتدت حيرته ، أن القوم إنما سألوا موسى ما سألوا ، بعد أمر الله إياهم بذبح بقرة من البقر ، لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها ، خصت بذلك ، كما خصت عصا موسى فى معناها ، فسألوه أن يحليها لهم ليعرفوها ، ولو كان الجاهل تدبر قوله هذا ، لسهل عليه ما استصعب من القول ، وذلك أنه استعظم من القوم مسئلتهم نبيهم ماسألوه تشددا منهم فى دينهم ، ثم أضاف إليهم من الأمر ما هو أعظم مما استنكره أن يكون كان منهم ، فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض الله عليهم فرضا ويتعبدهم بعبادة ، ثم لايبين لهم ما يفرض عليهم ، ويتعبدهم به ، حتى يسألوا بيان ذلك لهم ، فأضاف إلى الله تعالى ذكره ، ما لايجوز إضافته إليه ، ونسب القوم من الجهل إلى ما لاينسب المجانين إليه ، فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفرائض ، فنعوذ بالله من الحيرة ، ونسأله التوفيق والهداية .

وأما قوله (إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) فإن البقر جماع بقرة . وقد قرأ بعضهم : إن الباقر ، وذلك وإن كان فى الكلام جائزا لمجيئه فى كلام العرب وأشعارها ، كما قال ميمون بن قيس :

وَما ذَنْبُهُ أَنْ عافَتِ المَاءَ بَاقِرٌ وَما إِنْ تَعافُ المَاءَ إِلاَّ لِيُضْرَبا

وكما قال أمية :

وَيَسُوقُونَ باقِرَ الطَّوْدِ لِلسَّهْـــلِ مَهازِيلَ خَشْيَةً أَنْ تَبُورَا

فغير جائزة القراءة به لمخالفته القراءة الجائية مجىء الحجة بنقل من لايجوز عليه فيما نقلوه مجمعين عليه الخطأ والسهو والكذب .

وأما تأويل (تَشابَهَ عَلَيْنا) فإنه يعنى به : التبس علينا ، والقراء مختلفة فى تلاوته ، فبعضهم كانوا يتلونه : تشابه علينا ، بتخفيف الشين ونصب الهاء ، على مثال تفاعل ، ويذكر الفعل ، وإن كان البقر جماعا ، لأن من شأن العرب تذكير كل فعل جمع كانت وحدانه بالهاء ، وجمعه بطرح الهاء ، وتأنيثه كما قال الله تعالى فى نظيره فى التذكير (كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) فذكر المنقعر ، وهو من صفة النخل ، لتذكير لفظ النخل ، وقال فى موضع آخر (كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ) فأنث الخاوية ، وهى من صفة النخل بمعنى النخل ، لأنها وإن كانت فى لفظ الواحد المذكر على ما وصفنا قبل ، فهى جماع نخلة . وكان بعضهم يتلوه (إِنَّ البَقَرَ تَشَّابَهُ عَلَيْنا) بتشديد الشين وضم الهاء ، فيؤنث الفعل بمعنى تأنيث البقر ، كما قال (أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ) ويدخل فى أول تشابه تاء تدل على تأنيثها ، ثم تدغم التاء الثانية فى شين تشابه لتقارب مخرجها ومخرج الشين ، فتصير شينا مشددة ، وترفع الهاء بالاستقبال والسلامة من الجوازم والنواصب . وكان بعضهم يتلوه (إِنَّ البَقَرَ يُشابِهُ عَلَيْنا) فيخرج يشابه مخرج الخبر عن الذكر ، لما ذكرنا من العلة فى قراءة من قرأ ذلك (تَشابَهَ) بالتخفيف ، ونصب الهاء ، غير أنه كان يرفعه بالياء التى يحدثها فى أول تشابه التى تأتى بمعنى الاستقبال ، وتدغم التاء فى الشين ، كما فعله القارئ فى تشَّابه بالتاء والتشديد .

والصواب فى ذلك من القراءة عندنا (إِنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا) بتخفيف شين تشابه ونصب هائه ، بمعنى تفاعل ، لإجماع الحجة من القراء على تصويب ذلك ، ورفعهم ماسواه من القراءات ، ولا يعترض على الحجة بقول من يجوز عليه فيما نقل السهو والغفلة والخطأ .

وأما قوله (وإِنَّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ) فإنهم عنوا : وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها ، ومعنى اهتدائهم فى هذا الموضع معنى تبينهم أىّ ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

وتأويل ذلك ، قال موسى : إن الله يقول : إن البقرة التى أمرتكم بذبحها بقرة لاذلول ، ويعنى بقوله (لاذَلُولٌ) : أى لم يذللها العمل . فمعنى الآية : أنها بقرة لم تذللها إثارة الأرض بأظلافها ، ولا سُنى عليها الماء فيستى عليها الزرع ، كما يقال للدابة التى قد ذللها الركوب أو العمل : دابة ذلول بينة الذلّ - بكسر الذال ، ويقال فى مثله من بنى آدم : رجل ذليل بيّن الذلّ والذلة .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (إنها بَقَرَةٌ لاذَلُولٌ) يقول : صعبة لم يذلها عمل (تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِى الحَرْثَ) .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (إنها بَقَرَةٌ لاذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ) يقول : بقرة ليست بذلول يزرع عليها ، وليست تسنى الحرث .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (إنها بَقَرَةٌ لاذَلُولٌ) أى لم يذللها العمل (تُثِيرُ الأَرْضَ) يعنى ليست بذلول فتثير الأرض ، (وَلا تَسْقِى الحَرْثَ) يقول : ولا تعمل فى الحرث .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إنها بَقَرَةٌ لاذَلُولٌ) يقول : لم يذلها العمل (تُثِيرُ الأَرْضَ) يقول : تبين الأرض بأظلافها (وَلا تَسْقِى الحَرْثَ) يقول : لاتعمل فى الحرث .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال : الأعرج : قال مجاهد : قوله (لاذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِى الحَرْثَ) يقول : ليست بذلول فتفعل ذلك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبوسفيان ، عن معمر ، عن قتادة : ليست بذلول تثير الأرض ولا تسنى الحرث . ويعنى بقوله (تُثِيرُ الأَرْضَ) : تقلب الأرض للحرث ، يقال منه : أثرت الأرض أثيرها إثارة : إذا قلبتها للزرع ، وإنما وصفها جل ثناؤه بهذه الصفة ، لأنها كانت فيما قيل وحشية .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن كثير بن زياد ، عن الحسن قال : كانت وحشية .

القول فى تأويل قوله تعالى (مُسَلَّمَةٌ) :

ومعنى (مُسَلَّمَةٌ) مفعلة من السلامة ، يقال منه : سلمت تسلم فهى مسلمة .

ثم اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى سلمت منه ، فوصفها الله بالسلامة منه .

فقال مجاهد بما حدثنا به محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (مُسَلَّمَةٌ) يقول : مسلمة من الشية (وَلا شِيَةَ فِيها) لابياض فيها ولا سواد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد (لاشِيَةَ فِيها) قال : مسلمة من الشية (لاشِيَةَ فِيها) لابياض فيها ولا سواد .

وقال آخرون : مسلمة من العيوب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فِيها) أي مسلمة من العيوب .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (مُسَلَّمَةٌ) يقول : لاعيب فيها .

حدثني المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية (مُسَلَّمَةٌ) يعني مسلمة من العيوب .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس قوله (مُسَلَّمَةٌ) لاعوار فيها .

والذى قاله ابن عباس وأبو العالية ومن قال بمثل قولهما فى تأويل ذلك أولى بتأويل الآية مما قاله مجاهد لأن سلامتها لو كانت من سائر أنواع الألوان سوى لون جلدها لكان فى قوله (مُسَلَّمَةٌ) مكتفى عن قوله (لاشِيَةَ فِيها) . وفى قوله (لاشِيَةَ فِيها) مايوضح عن أن معنى قوله (مُسَلَّمَةٌ) غيرمعنى قوله (لاشِيَةَ فِيها) وإذ كان ذلك كذلك ، فمعنى الكلام أنه يقول : إنها بقرة لم تذللها إثارة الأرض وقلبها للحراثة ولا السنو عليها للمزارع ، وهى مع ذلك صحيحة مسلمة من العيوب .

القول فى تأويل قوله تعالى (لاشِيَةَ فِيها) :

يعنى بقوله (لاشِيَةَ فِيها) : لالون فيها يخالف لون جلدها ، وأصله من وشى الثوب ، وهو تحسين عيوبه التى تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سَداه ولُحمته ، يقال منه : وشيت الثوب فأنا أشيه شية ووشيا . ومنه قيل للساعى بالرجل إلى السلطان أو غيره واش ، لكذبه عليه عنده وتحسينه كذبه بالأباطيل ، يقال منه : وشيت به إلى السلطان وشاية ، ومنه قول كعب بن زهير :

تَسْعَى الوُشاةُ جَنابَيْها وَقَوْلُهُمُ إنَّكَ يا بْنَ أبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

والوشاة جمع واش : يعنى أنهم يتقوّلون بالأباطيل ، ويخبرونه أنه إن لحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم قتله .

وقد زعم بعض أهل العربية أن الوشى : العلامة ، وذلك لامعنى له إلا أن يكون أراد بذلك تحسين الثوب بالأعلام ، لأنه معلوم أن القائل : وشيت بفلان إلى فلان ، غيرجائز أن يتوهم عليه أنه أراد : جعلت له عنده علامة ، وإنما قيل (لاشِيَةَ فِيها) وهى من وشيت ، لأن الواو لما أسقطت من أولها أبدلت مكانها الهاء فى آخرها ، كما قيل : وزنته زنة ، ووسيته سة ، ووعدته عدة ، ووديته دية ، وبمثل الذى قلنا فى معنى قوله (لاشِيَةَ فِيها) قال أهل التأويل .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (لاشِيَةَ فِيها) أى لابياض فيها .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (لاشِيَةَ فيها) يقول : لابياض فيها .

حدثنى محمد بن عمرو قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (لاشِيَةَ فيها) أى لابياض فيها ولا سواد .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله ،

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس، عن أبيه ، عن عطية (لاشِيَةَ فيها) قال : لونها واحد، ليس فيها لون سوى لونها .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (لاشِيَةَ فيها) من بياض ولا سواد ولاحمرة .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (لاشِيَةَ فيها) هى صفراء ، ليس فيها بياض ولا سواد .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه، عن الربيع (لاشِيَةَ فيها) يقول : لابياض فيها

القول فى تأويل قوله تعالى : (قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ) فقال بعضهم : معنى ذلك : الآن بينت لنا الحقّ ، فتبيناه وعرفناه ، أنه بقرة عينت ، وممن قال ذلك قتادة .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال حدثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ) أى الآن بينت لنا .

وقال بعضهم : ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن القوم أنهم نسبوا نبيّ الله موسى صلوات الله عليه إلى أنه لم يكن يأتيهم بالحقّ فى أمر البقرة قبل ذلك وممن روى عنه هذا القول عبد الرحمن بن زيد .

حدثنى يونس، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : اضطروا إلى بقرة لايعلمون على صفتها غيرها، وهى صفراء ليس فيها سواد ولا بياض، فقالوا هذه بقرة فلان (الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ) وقبل ذلك والله قد جاءهم بالحق .

وأولى التأويلين عندنا بقوله (قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ) قول قتادة ، وهو أن تأويله : الآن بينت لنا الحق فى أمر البقرة ، فعرفنا أنها الواجب علينا ذبحها منها ، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها بعد قيلهم هذا، مع غلظ مؤنة ذبحها عليهم وثقل أمرها، فقال (فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) وإن كانوا قد قالوا بقولهم : الآن بينت لنا الحق ، هراء من القول ، وأتوا خطأ وجهلا من الأمر ، وذلك أن نبى الله موسى صلى الله عليه وسلم كان مبينا لهم فى كل مسئلة سألوها إياه ، وردّ رادّوه فى أمر البقرة

الحق ، وإنما يقال : الآن بينت لنا الحق إن لم يكن مبينا قبل ذلك . فأما من كان كل قيله فيما أبان عن الله تعالى ذكره حقا وبيانا ، فغير جائز أن يقال له فى بعض ما أبان عن الله فى أمره ونهيه ، وأدّى عنه إلى عباده من فرائضه التى أوجبها عليهم (الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ) ، كأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذلك .

وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم ، وكفروا بقولهم لموسى (الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ) ويزعم أنهم نفوا أن يكون موسى أتاهم بالحق فى أمر البقرة قبل ذلك ، وأن ذلك من فعلهم وقيلهم كفر ، وليس الذى قال من ذلك عندنا كما قال ، لأنهم أذعنوا بالطاعة بذبحها ، وإن كان قيلهم الذى قالوه لموسى جهلة منهم ، وهفوة من هفواتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) :

يعنى بقوله (فَذَبَحُوها) فذبح قوم موسى البقرة التى وصفها الله لهم وأمرهم بذبحها ، ويعنى بقوله (وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) أى قاربوا أن يدعوا ذبحها ، ويتركوا فرض الله عليهم فى ذلك .

ثم اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله كادوا أن يضيعوا فرض الله عليهم فى ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك . فقال بعضهم : ذلك السبب كان غلاء ثمن البقرة التى أمروا بذبحها وبينت لهم صفتها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا أبو معشر المدنى ، عن محمد بن كعب القرظى فى قوله (فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) قال : لغلاء ثمنها .

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد الهلالى ، قال : ثنا عبد العزيز بن الخطاب ، قال : ثنا أبومعشر ، عن محمد بن كعب القرظى (فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) قال : من كثرة قيمتها .

حدثنا القاسم ، قال : أخبرنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد وحجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ، ومحمد بن قيس فى حديث فيه طول ، ذكر أن حديث بعضهم دخل فى حديث بعض ، قوله (فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) لكثرة الثمن ، أخذوها بملء مَسْكها ذهبا من مال المقتول ، فكان سواء لم يكن فيه فضل ، فذبحوها .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ) يقول : كادوا لايفعلون ، ولم يكن الذى أرادوا لأنهم أرادوا أن لايذبحوها ، وكل شىء فى القرآن كاد أو كادوا أولو فإنه لايكون ، وهو مثل قوله (أَكادُ أُخْفِيها) .

وقال آخرون : لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن أطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه إلى موسى .

والصواب من التأويل عندنا ، أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للخلتين كلتيهما : إحداهما غلاء ثمنها مع ماذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها ، والأخرى خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم ، بإظهار الله نبيه موسى صلوات الله عليه وأتباعه على قاتله .

فأما غلاء ثمنها فإنه قد روى لنا فيه ضروب من الروايات . فحدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : اشتروها بوزنها عشر مرّات ذهبا ، فباعهم صاحبها إياها وأخذ ثمنها .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة قال : اشتروها بملء جلدها دنانير .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : كانت البقرة لرجل يبرّ أمه ، فرزقه الله أن جعل تلك البقرة له ، فباعها بملء جلدها ذهبا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، قال : حدثنى خالد بن يزيد ، عن مجاهد ، قال : أعطوا صاحبها ملء مسكها ذهبا ، فباعها منهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا إسمعيل ، عن عبد الكريم ، قال : حدثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول : اشتروها منه على أن يملئوا له جلدها دنانير ، ثم ذبحوها فعمدوا إلى جلد البقرة فملئوه دنانير ، ثم دفعوها إليه .

حدثنى محمد بن سعيد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى يحيى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : وجدوها عند رجل يزعم أنه ليس بائعها بمال أبدا ، فلم يزالوا به حتى جعلوا له أن يسلخوا له مسكها ، فيملئوه له دنانير ، فرضى به ، فأعطاهم إياها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : لم يجدوها إلا عند عجوز ، وإنها سألتهم أضعاف ثمنها ، فقال لهم موسى : أعطوها رضاها وحكمها ، ففعلوا واشتروها فذبحوها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة ، قال : لم يجدوا هذه البقرة إلا عند رجل واحد ، فباعها بوزنها ذهبا ، أو ملء مسكها ذهبا ، فذبحوها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السلمانى ، قال : وجدوا البقرة عند رجل ، فقال : إنى لا أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا ، فاشتروها بملء جلدها ذهبا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : جعلوا يزيدون صاحبها حتى ملئوا له مسكها ، وهو جلدها ذهبا .

وأما صغر خطرها وقلة قيمتها ، فإن الحسن بن يحيى حدثنا ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، قال : حدثنى محمد بن سوقة ، عن عكرمة ، قال : ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير .

وأما ما قلنا من خوفهم الفضيحة على أنفسهم ، فإن وهب بن منبه كان يقول : إن القوم إذ أمروا

بذبح البقرة إنما قالوا لموسى (أَتَتَّخِذُنا هُزُوًا) لعلمهم بأنهم سيفتضحون إذا ذبحت، فحادوا عن ذبحها.

حدثت بذلك عن إسمعيل بن عبد الكريم ، عن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه ، وكان ابن عباس يقول : إن القوم بعد أن أحيا الله الميت فأخبرهم بقاتله ، أنكرت قتلته قتله ، فقالوا ، والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآية والحق . حدثنى بذلك محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى عن أبيه ، عن ابن عباس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا) : واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسا ، والنفس التى قتلوها هى النفس التى ذكرنا قصتها فى تأويل قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) وقوله (فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) يعنى فاختلفتم وتنازعتم ، وإنما هو فتدارأتم فيها على مثال تفاعلتم من الدرء ، والدرء : العوج ، ومنه قول أبى النجم العجلى :

خَشْيَةَ طَغَامٍ إِذَا هَمَّ جَسَرْ بِأْكُلُ ذَا الدَّرْءِ وَيُقْصِي مَنْ حَقَرْ

يعنى ذا العوج والعسر ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

أَدْرَكْتُهَا قُدَّامَ كُلِّ مِدْرَهِ بالدَّفْعِ عَنِّى دَرْءَ كُلِّ عُنْجُهِ[1]

ومنه الخبر الذى حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا مصعب بن المقدام ، عن إسرائيل ، عن إبراهيم ابن المهاجر ، عن مجاهد ، عن السائب ، قال : « جاءنى عثمان ، وزهير ابنا أمية فاستأذنا لى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمَا ، أَلَمْ تَكُنْ شَرِيكِى فِى الجَاهِلِيَّةِ ؟ قلت : نعم بأبى أنت وأمى ، فنعم الشريك كنت لا تمارى ولا تدارى » يعنى بقوله : لا تدارى : لا تخالف رفيقك وشريكك ولا تنازعه ولا تشارّه ، وإنما أصل (فَادَّارَأْتُمْ) فتدارأتم ، ولكن التاء قريبة من مخرج الدال ، وذلك أن مخرج التاء من طرف اللسان وأصول الشفتين ، ومخرج الدال من طرف اللسان وأطراف الثنيتين ، فأدغمت التاء فى الدال فجعلت دالا مشددة ، كما قال الشاعر :

تُولِى الضَّجِيعَ إِذَا مَا اشْتَاقَهَا خَصِرًا عَذْبَ المَذَاقِ إِذَا مَا اتَّابَعَ القُبَلُ

يريد إذا ما تتابع القبل ، فأدغم إحدى التاءين فى الأخرى ، فلما أدغمت التاء فى الدال فجعلت دالا مثلها سكنت ، فجلبوا ألفا ليصلوا إلى الكلام بها ، وذلك إذا كان قبله شىء ، لأن الإدغام لا يكون إلا وقبله شىء ، ومنه قول الله جل ثناؤه (حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا) إنما هو تداركوا ، ولكن التاء منها أدغمت فى الدال ، فصارت دالا مشددة ، وجعلت فيها ألف إذا وصلت بكلام قبلها ليسلم الإدغام ، وإذا

---

(١) « قوله خشية طغام الخ » كذا فى النسخ ولم نعثر عليه بعد البحث ، فليحرر .

لم يكن قبل ذلك ما يواصله ، وابتدئ به ، قيل : تداركوا وتثاقلوا ، فأظهروا الإدغام ، وقد قيل يقال : ادّاركوا وادّارءوا .

وقد قيل : إن معنى قوله (فادّارأْتم فيها) فتدافعتم فيها من قول القائل درأت هذا الأمر عنى ، ومن قول الله (ويدْرأُ عنْها العذابَ) بمعنى يدفع عنها العذاب ، وهذا قول قريب المعنى من القول الأول لأنّ القوم إنما تدافعوا قتل قتيل ، فانتفى كل فريق منهم أن يكون قاتله ، كما قد بينا قبل فيما مضى من كتابنا هذا ، وبنحو الذى قلنا فى معنى قوله (فادّارأْتم فيها) قال أهل التأويل .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : حدثنى عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (فادّارأْتم فيها) قال : اختلفتم فيها .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَإِذْ قتلتُمْ نفْساً فادّارأْتُمْ فيها) قال بعضهم : أنتم قتلتموه ، وقال الآخرون : أنتم قتلتموه .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (فادّارأْتمْ فيها) قال : اختلفتم ، وهو التنازع تنازعوا فيه ، قال : قال هؤلاء : أنتم قتلتموه ، وقال هؤلاء لا ، وكان تدارؤهم فى النفس التى قتلوها .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : صاحب البقرة رجل من بنى إسرائيل قتله رجل ، فألقاه على باب ناس آخرين ، فجاء أولياء المقتول فادعوا دمه عندهم ، فانتفوا أو انتفلوا منه ، « شك أبو عاصم » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد بمثله سواء ، إلا أنه قال : فادعوا دمه عندهم ، فانتفوا « ولم يشكّ فيه » .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : قتيل كان فى بنى إسرائيل ، فقذف كل سبط منهم ، حتى تفاقم بينهم الشرّ ، حتى ترافعوا فى ذلك إلى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إلى موسى أن اذبح بقرة فاضربه ببعضها ، فذكر لنا أن وليه الذى كان يطلب بدمه هو الذى قتله من أجل ميراث كان بينهم .

حدثنى ابن سعد ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى شأن البقرة ، وذلك أن شيخا من بنى إسرائيل على عهد موسى كان مكثرا من المال ، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له ، وكان بنو أخيه ورثته ، فقالوا : ليت عمنا قد مات فورثنا ماله ، وأنه لما تطاول عليهم أن لا يموت عمهم أتاهم الشيطان ، فقال : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله ، وتغرّموا أهل المدينة التى لستم بها ديته ، وذلك أنهما كانتا مدينتين ، كانوا فى إحداهما ، فكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين ، قيس ما بين القتيل وبين المدينتين ، فأيهما كانت أقرب إليه غرمت الدية ، وإنهم لما سوّل

لهم الشيطان ذلك ، وتطاول عليهم أن لايموت عمهم ، عمدوا إليه فقتلوه ، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها ، فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ ، فقالوا عمنا قتل على باب مدينتكم ، فوالله لتغرمُنّ لنا دية عمنا . قال : أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ، ولاعلمنا قاتلا ، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا . وإنهم عمدوا إلى موسى ، فلما أتوا قال بنو أخي الشيخ : عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم ؛ وقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ، ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا ، وإن جبريل جاء بأمر ربنا السميع العليم إلى موسى ، فقال : قل لهم (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) ، فتضربوه ببعضها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا حسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، وحجاج عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس ، دخل حديث بعضهم في حديث بعض ، قالوا : إن سبطا من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة ، فاعتزلوا شرور الناس ، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا إلا أدخلوه ، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وتشرّف ، فإذا لم ير شيئا فتح المدينة ، فكانوا مع الناس حتى يمسوا ، وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير ، ولم يكن له وارث غير ابن أخيه ، فطال عليه حياته ، فقتله ليرثه ، ثم حمله فوضعه على باب المدينة ، ثم كمن في مكان هو وأصحابه . قال : فتشرّف رئيس المدينة على باب المدينة ، فنظر فلم ير شيئا ، ففتح الباب ، فلما رأى القتيل ردّ الباب فناداه ابن أخي المقتول وأصحابه : هيهات قتلتموه ثم تردّون الباب ، وكان موسى لما رأى القتل كثيرا في أصحابه بني إسرائيل ، كان إذا رأى القتيل بين ظهري القوم آخذهم ، فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال ، حتى لبس الفريقان السلاح ، ثم كفّ بعضهم عن بعض ، فأتوا موسى ، فذكروا له شأنهم فقالوا : يا رسول الله ، إن هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردوا الباب ، وقال أهل المدينة : يارسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور ، وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس ، ما قتلنا ولا علمنا قاتلا . فأوحى الله تعالى ذكره إليه أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) .

حدثني المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة ، قال : كان في بني إسرائيل رجل عقيم وله مال كثير ، فقتله ابن أخ له ، فجرّه فألقاه على باب ناس آخرين ، ثم أصبحوا فادعاه عليهم ، حتى تسلح هؤلاء وهؤلاء ، فأرادوا أن يقتتلوا ، فقال ذوو النهى منهم : أتقتتلون وفيكم نبيّ الله ، فأمسكوا حتى أتوا موسى ، فقصوا عليه القصة ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ، فقالوا (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : قتيل من بني إسرائيل طرح في سبط من الأسباط ، فأتى أهل ذلك السبط إلى ذلك السبط ، فقالوا : أنتم والله قتلتم صاحبنا ، فقالوا : لاوالله ، فأتوا إلى موسى فقالوا : هذا قتيلنا بين أظهرهم ، وهم والله قتلوه ، فقالوا : لاوالله يا نبي الله طُرِح علينا ، فقال لهم موسى صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) .

قال أبو جعفر : فكان اختلافهم وتنازعهم وخصامهم بينهم فى أمر القتيل الذى ذكرنا أمره على ما روينا عن علمائنا من أهل التأويل، هو الدرء الذى قال الله جل ثناؤه لذريتهم وبقايا أولادهم (فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) .

القول فى تأويل قوله (وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

ويعنى بقوله (وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) والله معلن ما كنتم تسرونه من قتل القتيل الذى قتلتم ثم ادارأتم فيه . ومعنى الإخراج فى هذا الموضع : الإظهار والإعلان لمن خفى ذلك عنه، وإطلاعهم عليه كما قال الله تعالى ذكره (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يعنى بذلك يظهره ويطلعه من مخبئه بعد خفائه ، والذى كانوا يكتمونه فأخرجه هو قتل القاتل القتيل ، كما كتم ذلك القاتل ومن علمه ممن شايعه على ذلك، حتى أظهره الله وأخرجه، فأعلن أمره لمن لا يعلم أمره ، وعنى جل ذكره بقوله (تَكْتُمُونَ) تسرون وتغيبون .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) قال : تغيبون .

حدثنى المثنى قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) ما كنتم تغيبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِى اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

يعنى جل ذكره بقوله (فَقُلْنَا) لقوم موسى الذين ادارءوا فى القتيل الذى قد تقدم وصفنا أمره اضربوا القتيل ، والهاء التى فى قوله (اضْرِبُوهُ) من ذكر القتيل ببعضها : أى ببعض البقرة التى أمرهم الله بذبحها فذبحوها .

ثم اختلف العلماء فى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، وأى عضو كان ذلك منها . فقال بعضهم: ضرب بفخذ البقرة القتيل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال ضرب بفخذ البقرة ، فقام حيا ، فقال : قتلنى فلان ، ثم عاد فى ميتته .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : ضرب بفخذ البقرة ، ثم ذكر مثله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، عن النضر بن عربى ، عن عكرمة ، فقلنا (اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) قال : بفخذها ، فلما ضرب بها عاش وقال : قتلنى فلان ، ثم عاد إلى حاله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن خالد بن يزيد ، عن مجاهد ، قال : ضرب بفخذها الرجل فقام حيا ، فقال : قتلنى فلان ، ثم عاد فى ميتته .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال أيوب عن ابن سيرين ، عن عبيدة : ضربوا المقتول ببعض لحمها . وقال معمر عن قتادة : ضربوه بلحم الفخذ فعاش ، فقال : قتلنى فلان .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أنهم ضربوه بفخذها فأحياه الله ، فأنبأ بقاتله الذى قتله وتكلم ، ثم مات .

وقال آخرون : الذى ضرب به منها هو البَضعة التى بين الكتفين

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش ، فسألوه من قتلك ؟ فقال لهم : ابن أخى .

وقال آخرون : الذى أمروا أن يضربوه به منها عظم من عظامها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : أمرهم موسى أن يأخذوا عظما منها ، فيضربوا به القتيل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ، ثم عاد ميتا كما كان ، فأُخذ قاتلُه ، وهو الذى أتى موسى ، فشكا إليه ، فقتله الله على أسوإ عمله .

وقال آخرون بما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : ضربوا الميت ببعض آرابها ، فإذا هو قاعد ، قالوا : من قتلك ؟ قال : ابن أخى ، قال : وكان قتله وطرحه على ذلك السبط ، أراد أن يأخذ ديته .

والصواب من القول فى تأويل قوله عندنا (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) أن يقال أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ، ليحيا المضروب ، ولا دلالة فى الآية ، ولا خبر تقوم به حجة على أىّ أبعاضها التى أمر القوم أن يضربوا القتيل به ، وجائز أن يكون الذى أمروا أن يضربوه به هو الفخذ ، وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف وغير ذلك من أبعاضها ، ولا يضرّ الجهل بأىّ ذلك ضربوا القتيل ، ولا ينفع العلم به مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها ، فأحياه الله .

فإن قال قائل : وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها ؟ قيل : ليحيا ، فينبئ نبى الله موسى صلى الله عليه وسلم والذين ادّارءوا فيه مَن قاتله .

فإن قال : وأين الخبر عن أن الله جل ثناؤه أمرهم بذلك لذلك ؟ قيل : ترك ذلك اكتفاء بدلالة ماذكر من الكلام الدالّ عليه ، نحو الذى ذكرنا من نظائر ذلك فيما مضى . ومعنى الكلام : فقلنا : اضربوه ببعضها ليحيا ، فضربوه فحيى ، كما قال جل ثناؤه (أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) والمعنى :

فضرب فانفلق، يدل على ذلك قوله (كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى ويُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

القول فى تأويل قوله تعالى (كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى) :

وقوله (كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى) مخاطبة من الله عباده المؤمنين ، واحتجاج منه على المشركين المكذّبين بالبعث ، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بنى إسرائيل بعد مماته فى الدنيا فقال لهم تعالى ذكره : أيها المكذّبون بالبعث بعد الممات ، اعتبروا بإحيائى هذا القتيل بعد مماته ، فإنى كما أحييته فى الدنيا فكذلك أحيى الموتى بعد مماتهم ، فأبعثهم يوم البعث ، فإنما احتجّ جل ذكره بذلك على مشركى العرب، وهم قوم أميون لا كتاب لهم ، لأن الذين كانوا يعلمون علم ذلك من بنى إسرائيل، كانوا بين أظهرهم ، وفيهم نزلت هذه الآيات ، فأخبرهم جل ذكره بذلك ، ليتعرّفوا علم من قبلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

يعنى جل ذكره : ويريكم الله أيها الكافرون المكذّبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله من آياته ، وآياته : أعلامه وحججه الدالة على نبوّته ، لتعقلوا وتفهموا أنه محقّ صادق، فتؤمنوا به وتتبعوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

يعنى بذلك كفار بنى إسرائيل ، وهم فيما ذكر بنو أخى المقتول ، فقال لهم : ثم قست قلوبكم : أى جفت وغلظت وعست ، كما قال الراجز :

وَقَدْ قَسَوْتُ وَقَسَا لِدَتِّى

يقال : قسا وعسا وعتا بمعنى واحد ، وذلك إذا جفا وغلظ وصلب، يقال منه : قسا قلبه يقسو قسوا وقسوة وقساوة وقساء .

ويعنى بقوله (مِنْ بَعْدِ ذلكَ) من بعد أن أحيا المقتول لهم الذى ادّارءوا فى قتله، فأخبرهم بقاتله، وما السبب الذى من أجله قتله، كما قد وصفنا قبل على ماجاءت الآثار والأخبار، وفصل الله تعالى ذكره بخبره بين المحقّ منهم والمبطل ، وكانت قساوة قلوبهم التى وصفهم الله بها ، أنهم فيما بلغنا أنكروا أن يكونوا هم قتلوا القتيل الذى أحياه الله ، فأخبر بنى إسرائيل بأنهم كانوا قتلته، بعد إخباره إياهم بذلك، وبعد ميتته الثانية .

كما حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ،

عن ابن عباس ، قال : لما ضرب المقتول ببعضها ، يعني ببعض البقرة جلس حيا ، فقيل له : من قتلك ؟ فقال : بنو أخي قتلوني ، ثم قُبض ، فقال بنو أخيه حين قبض : والله ما قتلناه ، فكذّبوا بالحق بعد إذ رأوه ، فقال الله (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) يعني بني أخي الشيخ (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) يقول : من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى ، وبعد ما أراهم من أمر القتيل ما أراهم ، (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) :

يعنى بقوله (فَهِيَ) قلوبكم ، يقول : ثم صلبت قلوبكم بعد إذ رأيتم الحقّ فتبينتموه وعرفتموه ، عن الخضوع له ، والإذعان لواجب حق الله عليكم ، فقلوبكم كالحجارة ، صلابة ويبسا ، وغلظا وشدّة ، أو أشد صلابة ، يعنى قلوبكم عن الإذعان لواجب حقّ الله عليهم ، والإقرار له باللازم من حقوقه لهم من الحجارة .

فان سأل سائل فقال : وما وجه قوله (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) وأو عند أهل العربية إنما تأتى فى الكلام لمعنى الشك ، والله تعالى جل ذكره غير جائز فى خبره الشك ؟ قيل : إن ذلك على غير الوجه الذى توهمته ، من أنه شك من الله جل ذكره فيما أخبر عنه ، ولكنه خبر منه عن قلوبهم القاسية ، أنها عند عباده الذين هم أصحابها الذين كذّبوا بالحقّ بعد ما رأوا العظيم من آيات الله ، كالحجارة قسوة أو أشدّ من الحجارة عندهم وعند من عرف شأنهم ، وقد قال فى ذلك جماعة من أهل العربية أقوالا :

فقال بعضهم : إنما أراد الله [1] جل ثناؤه بقوله (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) وما أشبه ذلك من الأخبار التى تأتى بأو كقوله (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) وكقول الله جلّ ذكره (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) فهو عالم أىّ ذلك كان ، قالوا : ونظير ذلك قول القائل : أكلت بُسْرة أو رطبة ، وهو عالم أىّ ذلك أكل ، ولكنه أبهم على المخاطب كما قال أبو الأسود الديلى :

أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا ... وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ وَالْوَصِيَّا

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رَشَدًا أُصِبْهُ ... وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

قالوا : ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكا فى أن حب من سمى رشد ، ولكنه أبهم على من خاطبه به . وقد ذكر عن أبى الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت ؟ فقال : كلا والله ، ثم انتزع بقول الله عزّ وجل (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) فقال أوَ كان شاكا من أخبر بهذا فى الهادى من الضلال ؟ .

وقال بعضهم : ذلك كقول القائل : ما أطعمتك إلا حلوا أو حامضا ، وقد أطعمه النوعين جميعا ،

(١) « قوله إنما أراد الله » أى الإبهام ، بقرينة ما سيأتى له ، ولعل الناسخ أسقط لفظة الإبهام .

فقالوا : فقائل ذلك لم يكن شاكا أنه قد أطعم صاحبه الحلو والحامض كليهما ، ولكنه أراد الخبر عما أطعمه إياه أنه لم يخرج عن هذين النوعين ، قالوا : فكذلك قوله (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) إنما معناه : فقلوبهم لاتخرج من أحد هذين المثلين إما أن تكون مثلا للحجارة فى القسوة ، وإما أن تكون أشدّ منها قسوة ، ومعنى ذلك على هذا التأويل : فبعضها كالحجارة قسوة ، وبعضها أشدّ قسوة من الحجارة .

وقال بعضهم : « أو » فى قوله (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) بمعنى : وأشدّ قسوة ، كما قال تبارك وتعالى (وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) بمعنى وكفورا ، وكما قال جرير بن عطية :

نالَ الخِلافَةَ أوْ كانَتْ لَهُ قَدَرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ

يعنى نال الخلافة وكانت له قدرا ، وكما قال النابغة :

قالَتْ ألا لَيْتَما هَذَا الحَمامُ لَنا إلى حَمامَتِنا أوْ نِصْفُهُ فَقَدِ

يريد : ونصفه .

وقال آخرون : « أو » فى هذا الموضع بمعنى بل ، فكان تأويله عندهم فهى كالحجارة بل أشدّ قسوة ، كما قال جل ثناؤه (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) بمعنى بل يزيدون .

وقال آخرون : معنى ذلك : فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة عندكم .

قال أبو جعفر : ولكل مما قيل من هذه الأقوال التى حكينا وجه ومخرج فى كلام العرب ، غير أن أعجب الأقوال إلىّ فى ذلك ما قلناه أولا ، ثم القول الذى ذكرناه عمن وجه ذلك إلى أنه بمعنى : فهى ، أوجه فى القسوة من أن تكون كالحجارة أو أشدّ ، على تأويل أن منها كالحجارة ، ومنها أشدّ قسوة ، لأن « أو » وإن استعملت فى أماكن من أماكن الواو حتى يلتبس معناها ومعنى الواو ، لتقارب معنييهما فى بعض تلك الأماكن ، فإن أصلها أن تأتى بمعنى أحد الاثنين ، فتوجيهها إلى أصلها من وجد إلى ذلك سبيلا ، أعجب إلىّ من إخراجها عن أصلها ومعناها المعروف لها .

قال : وأما الرفع فى قوله (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) فمن وجهين : أحدهما أن يكون عطفا على معنى الكاف التى فى قوله (كَالْحِجَارَةِ) لأن معناها الرفع ، وذلك أن معناها معنى مثل : فهى مثل الحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة . والوجه الآخر : أن يكون مرفوعا على معنى تكرير هى عليه ، فيكون تأويل ذلك فهى كالحجارة أو هى أشدّ قسوة من الحجارة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) :

يعنى بقوله جل ذكره (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) وإن من الحجارة حجارة يتفجر منها الماء الذى تكون منه الأنهار ، فاستغنى بذكر الماء عن ذكر الأنهار ، وإنما ذكّر فقيل منه للفظ ما ، والتفجر : التفعل من فجّر الماء ، وذلك إذا تنزّل خارجا من منبعه ، وكل سائل شخص خارجا من موضعه ومكانه فقد انفجر ، ماء كان ذلك أو دما أو صديدا أو غير ذلك ، ومنه قول عمر بن لجأ :

وَلَمَّا أَنْ قَرَنْتُ إلى جَرِيرٍ أَبَى ذُو بَطْنِهِ إلاَّ انْفِجارا

يعنى إلا خروجا وسيلانا .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ) لحجارة تشقق ، وتشققها : تصدّعها ، وإنما هى لما يتشقق، ولكن التاء أدغمت فى الشين، فصارت شينا مشددة ، وقوله (فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) فيكون عينا نابعة وأنهارا جارية .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) :

قال أبو جعفر : يعنى بذلك جل ثناؤه : وإن من الحجارة لما يهبط : أى يتردّى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته . وقد دللنا على معنى الهبوط فيما مضى بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع ، وأدخلت هذه اللامات اللواتى فى ما توكيدا للخبر ، وإنما وصف الله تعالى ذكره الحجارة بما وصفها به من أن منها المتفجر منه الأنهار ، وأن منها المتشقق بالماء ، وأن منها الهابط من خشية الله بعد الذى جعل منها لقلوب الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بنى إسرائيل مثلا ، معذرة منه جل ثناؤه لها دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بنى إسرائيل، إذ كانوا بالصفة التى وصفهم الله بها من التكذيب لرسله والجحود لآياته، بعد الذى أراهم من الآيات والعبر ، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج، مع ما أعطاهم تعالى ذكره من صحة العقول ، ومنّ به عليهم من سلامة النفوس التى لم يعطها الحجر والمدر ؛ ثم هو مع ذلك منه ما يتفجر بالأنهار ، ومنه ما يتشقق بالماء ، ومنه ما يهبط من خشية الله ، فأخبر تعالى ذكره أن من الحجارة ما هو ألين من قلوبهم لما يُدعون إليه من الحقّ .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق، وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله جل ثناؤه (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) قال : كل حجر يتفجر منه الماء ،أو يتشقق عن ماء ، أو يتردّى من رأس جبل ، فهو من خشية الله عزّ وجل ، نزل بذلك القرآن .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

حدثنى بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ثم عذر الحجارة ولم يعذر شقىّ ابن آدم ، فقال (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة مثله .

حدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عمي ، قال : حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ثم عذر الله الحجارة فقال (وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج أنه قال : فيها كلّ حجر انفجر منه ماء أو تشقق عن ماء ، أو تردّى من جبل ، فمن خشية الله ، نزل به القرآن .

ثم اختلف أهل النحو فى معنى هبوط ما هبط من الحجارة من خشية الله . فقال بعضهم : إن هبوط ماهبط منها من خشية الله : تفيؤ ظلاله . وقال آخرون : ذلك الجبل الذى صار دكا إذ تجلى له ربه .

وقال بعضهم : ذلك كان منه ويكون ، بأن الله جل ذكره أعطى بعض الحجارة المعرفة والفهم ، فعقل طاعة الله فأطاعه ، كالذى روى عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فلما تحوّل عنه حنّ . وكالذى روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ حَجَرًا كانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي الجاهِلِيَّةِ ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ » .

وقال آخرون : بل قوله (يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) كقوله (جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) ولا إرادة له ، قالوا : وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمرالله يرى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله ، كما قال زيد الخيل :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ　　تَرَى الأُكْمَ فِيها سُجَّدًا لِلْحَوافِرِ

وكما قال سويد بن أبى كاهل يصف عدوّا له يريد أنه ذليل :

ساجِدُ المَنْخِرِ إِذْ يَرْفَعُـهُ　　خاشِعُ الطَّرْفِ أَصَمُّ المُسْتَمِعِ

وكما قال جرير بن عطية :

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الرَّسُولِ تَضَعْضَعَتْ　　سُورُ المَدِينَـةِ والجِبالُ الخُشَّعُ[١]

وقال آخرون : معنى قوله (يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) أى يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه ، كما قيل : ناقة تاجرة : إذا كانت من نجابتها وفراهتها تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

وأَعْوَرَ مِنْ نَبْهانَ أَمَّا نَهارُهُ　　فَأَعْمَى وأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ

فجعل الصفة لليل والنهار ، وهو يريد بذلك صاحبه النبهانى ، الذى يهجوه من أجل أنه فيهما كان ماوصفه به .

وهذه الأقوال وإن كانت غير بعيدات المعنى مما تحتمله الآية من التأويل ، فإن تأويل أهل التأويل من علماء سلف الأمة بخلافها ، فلذلك لم نستجز صرف تأويل الآية إلى معنى منها . وقد دللنا فيما مضى على معنى الخشية ، وأنها الرهبة والمخافة ، فكرهنا إعادة ذلك فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

يعنى بقوله (وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) وما الله بغافل يا معشر المكذّبين بآياته والجاحدين

(١) تقدم البيت قريبا : لما أتى خبر الزبير تواضعت ، وكذلك فى اللسان وخزانة الأدب (٢ : ١٦٦) ، ولعل فيه روايتين .

نبوّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والمتقوّلين عليه الأباطيل من بنى إسرائيل وأحبار اليهود ، عما تعملون من أعمالكم الخبيثة ، وأفعالكم الرديئة ، ولكنه يحصيها عليكم ، فيجازيكم بها فى الآخرة أو يعاقبكم بها فى الدنيا ، وأصل الغفلة عن الشيء : تركه على وجه السهو عنه والنسيان له ، فأخبرهم تعالى ذكره أنه غير غافل عن أفعالهم الخبيثة ولا ساه عنها ، بل هو لها محص ، ولها حافظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

يعنى بقوله جل ثناؤه (أَفَتَطْمَعُونَ) يا أصحاب محمد : أى أفترجون يا معشر المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمصدّقين ما جاءكم به من عند الله أن يؤمن لكم يهود بنى إسرائيل ؟

ويعنى بقوله (أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) : أن يصدقوكم بما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم محمد من عند ربكم .

كما حدثت عن عمار بن الحسن ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا لكم ، يقول : أفتطمعون أن يؤمن لكم اليهود ؟ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) الآية ، قال : هم اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

قال أبو جعفر : أما الفريق فجمع كالطائفة لا واحد له من لفظه ، وهو فعيل من التفرّق سمى به الجماع كما سميت الجماعة بالحزب من التحزّب ، وما أشبه ذلك ، ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أُخِذُوا فلمَّا خِفْتُ أنْ يتفرَّقُوا   فريقَيْنِ مِنْهُمْ مُصْعِدٌ ومُصَوِّبُ

يعنى بقوله (مِنْهُمْ) من بنى إسرائيل ، وإنما جعل الله الذين كانوا على عهد موسى ، ومن بعدهم من بنى إسرائيل من اليهود الذين قال الله لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) ، لأنهم كانوا آباءهم وأسلافهم ، فجعلهم منهم إذ كانوا عشائرهم وفرطهم وأسلافهم ، كما يذكر الرجل اليوم الرجل وقد مضى على منهاج الذاكر وطريقته ، وكان من قومه وعشيرته فيقول : كان منا فلان ؛ يعنى أنه كان من أهل طريقته أو مذهبه أو من قومه وعشيرته فكذلك قوله (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

اختلف أهل التأويل فى الذين عنى الله بقوله (وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

فقال بعضهم بما حدثنى به محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فالذين يحرّفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد بنحوه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ) قال : هى التوراة حرّفوها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) قال : التوراة التى أنزلها عليهم يحرّفونها ، يجعلون الحلال فيها حراما ، والحرام فيها حلالا والحقّ فيها باطلا ، والباطل فيها حقا ، إذا جاءهم المحقّ برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محقّ ، وإن جاء أحد يسألهم شيئا ليس فيه حقّ ولا رشوة ولا شيء ، أمروه بالحقّ ، فقال لهم (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : أخبرنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل النبوّة ، ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق فى قوله (وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ) الآية ، قال : ليس قوله (يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ) يسمعون التوراة ، كلهم قد سمعها ، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم ، فأخذتهم الصاعقة فيها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، قال : بلغنى عن بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى : ياموسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية الله عز وجل ، فأسمعنا كلامه حين يكلمك ، فطلب ذلك موسى إلى ربه ، فقال : نعم فمرهم فليتطهروا ، وليطهروا ثيابهم ، ويصوموا ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتى الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى عليه السلام ، فوقعوا سجودا ، وكلمه ربه ، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم ،

حتى عقلوا ماسمعوا ، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل . فلما جاءوهم حرّف فريق منهم ما أمرهم به ، وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل : إن الله قد أمركم بكذا وكذا . قال ذلك الفريق الذى ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله عز وجل لهم ، فهم الذين عنى الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية وأشبههما بما دل عليه ظاهر التلاوة ، ما قاله الربيع بن أنس ، والذى حكاه ابن إسحق عن بعض أهل العلم من أن الله تعالى ذكره إنما عنى بذلك من سمع كلامه من بنى إسرائيل، سماع موسى إياه منه، ثم حرّف ذلك وبدّل، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه . وذلك أن الله جلّ ثناؤه إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عزّ وجلّ استعظاما من الله لما كانوا يأتون من البهتان ، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان ، وإيذانا منه تعالى ذكره عباده المؤمنين ، وقطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم ، بما أتاهم به محمد من الحقّ والنور والهدى ، فقال لهم : كيف تطمعون فى تصديق هؤلاء اليهود إياكم ؟ وإنما تخبرونهم بالذى تخبرونهم من الإنباء عن الله عزّ وجلّ عن غيب لم يشاهدوه ، ولم يعاينوه ، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه ، وأمره ونهيه ، ثم يبدّله ويحرّفه ويجحده ، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحقّ وهم لايسمعونه من الله ، وإنما يسمعونه منكم ، وأقرب إلى أن يحرّفوا ما فى كتبهم من صفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ، ويبدّلوه وهم به عالمون ، فيجحدوه ويكذّبوا - من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جل ثناؤه ، ثم حرّفوه من بعد ما عقلوه وعلموه متعمدين التحريف ؛ ولو كان تأويل الآية على ماقاله الذين زعموا أنه عنى بقوله (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ) يسمعون التوراة لم يكن المذكر قوله : (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ) معنى مفهوم ، لأن ذلك قد سمعه المحرّف منهم وغير المحرّف .

فخصوص المحرّف منهم بأنه كان يسمع كلام الله إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم دون غيرهم ممن كان يسمع ذلك سماعهم ، لامعنى له .

فإن ظنّ ظانّ أنما صلح أن يقال ذلك لقوله (يُحَرِّفُونَهُ) فقد أغفل وجه الصواب فى ذلك ، وذلك أن ذلك لو كان كذلك لقيل : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرّفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، ولكنه جلّ ثناؤه أخبر عن خاصّ من اليهود كانوا أعطوا من مباشرتهم سماع كلام الله تعالى ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل ، ثم بدلوا وحرّفوا ما سمعوا من ذلك ، فلذلك وصفهم بما وصفهم به ، للخصوص الذى كان خصّ به هؤلاء الفريق الذى ذكرهم فى كتابه تعالى ذكره .

ويعنى بقوله (ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) : ثم يبدلون معناه ، وتأويله : ويغيرونه . وأصله من انحراف الشىء عن جهته ، وهو ميله عنها إلى غيرها ، فكذلك قوله (يُحَرِّفُونَهُ) : أى يميلونه عن وجهه ومعناه الذى هو معناه إلى غيره ، فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ماحرّفوا ، وأنه بخلاف ماحرّفوه إليه ، فقال (يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ماعَقَلُوهُ) يعنى من بعد ماعقلوا تأويله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أى يعلمون أنهم فى تحريفهم ماحرّفوا من ذلك مبطلون كاذبون ، وذلك إخبار من الله جل

ثناؤه عن إقدامهم على البهت ، ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى صلى الله عليه وسلم ، وأنّ بقاياهم من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا ، على مثل الذى كان عليه أوائلهم من ذلك فى عصر موسى عليه الصلاة والسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)

أما قوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) فإنه خبر من الله جل ذكره عن الذين أيأس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، من يهود بنى إسرائيل الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا ، يعنى بذلك أنهم إذا لقوا الذين صدّقوا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله قالوا آمنا : أى صدقنا بمحمد وبما صدقتم به وأقررنا بذلك ، أخبر الله عز وجل عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين ، وسلكوا منهاجهم .

كما حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس قوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) . وذلك أن نفرا من اليهود كانوا إذا لقوا محمدا صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) يعنى المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا .

وقد روى عن ابن عباس فى تأويل ذلك قول آخر ، وهو ما حدثنا به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) أى بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه إليكم خاصة .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) الآية ، قال : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) .

يعنى بقوله (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) أى إذا خلا بعض هؤلاء اليهود الذين وصف الله

صفهم إلى بعض منهم ، فصاروا فى خلاء من الناس غيرهم ، وذلك هو الموضع الذى ليس فيه غيرهم ؛ قالوا : يعنى قال بعضهم لبعض : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ؟

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) .

فقال بعضهم بما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) يعنى بما أمركم الله به ، فيقول الآخرون : إنما نستهزئ بهم ونضحك .

وقال آخرون : بما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) أى بصاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ؛ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا لا تحدّثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم . فأنزل الله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) أى تقرّون بأنه نبى ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبى صلى الله عليه وسلم الذى كنا ننتظر ونجده فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقرّوا لهم به ، يقول الله : (أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ؟ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) أى بما أنزل الله عليكم فى كتابكم ، من نعت محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، (قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) أى بما منّ الله عليكم فى كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا به عليكم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ؟ .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) ليحتجوا به عليكم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، قال : قال قتادة (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) يعنى بما أنزل الله عليكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته .

وقال آخرون فى ذلك بما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) قال : قول يهود من قريظة حين سبهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم إخوة القردة والخنازير ، قالوا : من حدثك هذا حين أرسل إليهم عليا فآذوا محمدا ، فقال : يا إخوة القردة والخنازير .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله إلا أنه قال

هذا حين أرسل إليهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وآذوا النبى صلى الله عليه وسلم، فقال «اخْسَئُوا يا إِخْوَةَ القِرَدَةِ والخَنازِيرِ».

حدثنا القاسم، قال: حدثنى الحسين، قال: حدثنى حجاج، عن ابن جريج، قال: أخبرنى القاسم ابن أبى بزّة، عن مجاهد فى قوله (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) قال: «قام النبى صلى الله عليه وسلم يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إِخْوَانَ القِرَدَةِ وَيا إِخْوَانَ الخَنازِيرِ وَيا عَبَدَةَ الطَّاغُوتِ» فقالوا: من أخبر هذا محمدا؟ ما خرج هذا إلا منكم (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم؛ قال ابن جريج، عن مجاهد هذا حين أرسل إليهم عليا، فآذوا محمدا صلى الله عليه وسلم.

وقال آخرون بما حدثنى موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدى، (قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) من العذاب (لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ؟) هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عذّبوا به، فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أحبّ إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم.

وقال آخرون بما حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد فى قوله (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) قال: كانوا إذا سئلوا عن الشىء قالوا: أما تعلمون فى التوراة كذا وكذا؟ قالوا بلى، قال: وهم يهود، فيقول لهم رؤساؤهم الذين يرجعون إليهم: مالكم تخبرونهم بالذى أنزل الله عليكم فيحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون؟ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايَدْخُلَنَّ عَلَيْنا قَصَبَةَ المَدِينَةِ إلاَّ مُؤْمِنٌ» فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق، اذهبوا فقولوا آمنا، واكفروا إذا رجعتم؛ قال فكانوا يأتون المدينة بالبُكر، ويرجعون إليهم بعد العصر، وقرأ قول الله (وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون، ليعلموا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره؛ وإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر؛ فلما أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بهم، قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون، وكان المؤمنون الذين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يظنون أنهم مؤمنون، فيقولون لهم: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون بلى، فإذا رجعوا إلى قومهم (قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) الآية.

وأصل الفتح فى كلام العرب: النصر والقضاء والحكم، يقال منه: اللهم افتح بينى وبين فلان: أى احكم بينى وبينه، ومنه قول الشاعر:

ألا أَبْلِغْ بَنِى عِصَمٍ رَسُولاً ... بِأَنِّى عَنْ فُتاحَتِكُمْ غَنِىُّ[1]

(١) «قوله: ألا أبلغ بنى عصم الخ» كذا فى الأصل، والذى فى لسان العرب وشرح القاموس: ألا من مبلغ عمرا رسولا ٭ فإنى الخ، ولعلهما روايتان، فحرر.

قال : ويقال للقاضي : الفتاح ، ومنه قول الله عز وجل (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وبينَ قَوْمِنا بالحَقّ وأنْتَ خَيْرُ الفاتِحِينَ) أي احكم بيننا وبينهم .

فإذا كان معنى الفتح ما وصفنا ، تبين أن معنى قوله (قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) إنما هو أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ، ومن حكمه جل ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به في التوراة ، ومن قضائه فيهم أن جعل منهم القردة والخنازير ، وغير ذلك من أحكامه وقضائه فيهم ، وكل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به حجة على المكذّبين من اليهود المقرّين بحكم التوراة وغير ذلك .

فإن كان كذلك فالذى هو أولى عندى بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك (أتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) من بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى خلقه ، لأن الله جل ثناؤه إنما قصّ فى أول هذه الآية الخبر عن قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه : آمنا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فالذى هو أولى بآخرها أن يكون نظير الخبر عما ابتدئ به أولها ؛ وإذا كان ذلك كذلك ، فالواجب أن يكون تلاومهم كان فيما بينهم فيما كانوا أظهروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه من قولهم لهم : آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به ، وكان قيلهم ذلك من أجل أنهم يجدون ذلك فى كتبهم ، وكانوا يخبرون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان تلاومهم فيما بينهم إذا خلوا على ما كانوا يخبرونهم بما هو حجة للمسلمين عليهم عند ربهم ، وذلك أنهم كانوا يخبرونهم عن وجود نعت محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، ويكفرون به ، وكان فتح الله الذى فتحه للمسلمين على اليهود ، وحكمه عليهم لهم فى كتابهم ، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث ، فلما بعث كفروا به مع علمهم بنبوّته .

وقوله (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) خبر من الله تعالى ذكره عن اليهود اللائمين إخوانهم ، على ما أخبروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما فتح الله لهم عليهم ، أنهم قالوا لهم : أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون أن إخباركم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بما فى كتبكم أنه نبيّ مبعوث حجة لهم عليكم عند ربكم ، يحتجون بها عليكم ؟ أى فلا تفعلوا ذلك ، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم ، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك ، فقال جل ثناؤه (أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

يعنى بقوله جل ثناؤه أولا يعلم هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملتهم ، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وعلى إخبارهم المؤمنين بما فى كتبهم من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ، القائلون لهم (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) أن الله عالم بمايسرّون ، فيخفونه عن المؤمنين فى خلائهم من كفرهم وتلاومهم بينهم على إظهارهم ما أظهروا لرسول

الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى قيلهم لهم آمنا ، ونهى بعضهم بعضا أن يخبروا المؤمنين بما فتح الله للمؤمنين عليهم ، وقضى لهم عليهم فى كتبهم، من حقيقة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ، وما يعلنون فيظهرونه لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوهم، من قيلهم لهم: آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، نفاقا وخداعا لله ولرسوله وللمؤمنين.

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ) من كفرهم وتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم إذا خلا بعضهم إلى بعض. (وَما يُعْلِنُونَ) إذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا ليرضوهم بذلك .

حدثني المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ) يعنى ما أسرّوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم (وَما يُعْلِنُونَ) يعنى ما أعلنوا حين قالوا للمؤمنين آمنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)

يعنى بقوله جل ثناوه (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) ومن هؤلاء اليهود الذين قصّ الله قصصهم فى هذه الآيات وأيأس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، فقال لهم (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ) وهم إذا لقوكم قالوا آمنا .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) يعنى من اليهود .

وحُدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) قال : أناس من يهود .

قال أبو جعفر : يعنى بالأميين : الذين لايكتبون ولا يقرءون ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم: « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لانَكْتُبُ وَلا نَحْسُبُ » يقال منه رجل أمّىّ : أى بيّن الأمية .

كما حدثنى المثنى ، قال : حدثنى سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان ، عن منصور عن إبراهيم (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) قال : منهم من لايحسن أن يكتب .

حدثنى يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) قال : أميون لايقرءون الكتاب من اليهود .

وروى عن ابن عباس قول خلاف هذا القول ، وهو ما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ،

عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) قال : الأميون قوم لم يصدّقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتابا أنزله الله ، فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : (هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) وقال : قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله .

وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمىّ عند العرب هو الذى لا يكتب .

قال أبو جعفر : وأرى أنه قيل للأمى أمى نسبة له بأنه لايكتب إلى أمه ، لأن الكتاب كان فى الرجال دون النساء ، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه فى جهله بالكتابة دون أبيه كما ذكرنا عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لانَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ » وكما قال (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ) فإذا كان معنى الأمى فى كلام العرب ما وصفنا ، فالذى هو أولى بتأويل الآية ما قاله النخعى من أن معنى قوله (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) : ومنهم من لايحسن أن يكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاَّ أمانِىَّ)

يعنى بقوله (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) لايعلمون ما فى الكتاب الذى أنزله الله ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه كهيئة البهائم ، كالذى حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاَّ أمانِىَّ) إنما هم أمثال البهائم لايعلمون شيئا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) يقول : لايعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) لايدرون ما فيه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) قال : لايدرون بما فيه .

حدثنا بشر ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) لايعلمون شيئا : لايقرءون التوراة ، ليست تستظهر إنما تقرأ هكذا ، فإذا لم يكتب أحدهم لم يستطع أن يقرأ .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) قال : لايعرفون الكتاب الذى أنزله الله .

قال أبو جعفر : وإنما عنى بالكتاب : التوراة ، ولذلك أدخلت فيه الألف واللام ، لأنه قصد به كتاب معروف بعينه ، ومعناه : ومنهم فريق لايكتبون ولا يدرون ما فى الكتاب الذى عرفتموه ، الذى هو عندهم

وهم ينتحلونه ، ويدّعون الإقرار به من أحكام الله وفرائضه وما فيه من حدوده التى بينها فيه (إلا أمانىَّ) [1]

فقال بعضهم : بما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس (إلا أمانىَّ) يقول : إلا قولا يقولونه بأفواههم كذبا.

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إلا أمانىَّ) : إلا كذبا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

وقال آخرون بما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (إلا أمانىَّ) يقول : يتمنون على الله ما ليس لهم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (إلا أمانىَّ) يقول : يتمنَّون على الله الباطل وما ليس لهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إلا أمانىَّ) يقول : إلا أحاديث .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إلا أمانىَّ) قال : أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا ، وكانوا يتكلمون بالظنّ بغير ما فى كتاب الله ، ويقولون هو من الكتاب ، أمانىّ يتمنونها .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (إلا أمانىَّ) يتمنون على الله ما ليس لهم .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (إلا أمانىَّ) قال : تمنوا فقالوا نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم .

وأولى ما روينا فى تأويل قوله (إلا أمانىَّ) بالحقّ ، وأشبهه بالصواب ، الذى قاله ابن عباس ، الذى رواه عنه الضحاك ، وقول مجاهد : إن الأميين الذين وصفهم الله بما وصفهم به فى هذه الآية وأنهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله على موسى شيئا ، ولكنهم يتخرّصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذبا وزورا ، والتمنى فى هذا الموضع : هو تخلق الكذب وتخرّصه وافتعاله ، يقال منه : تمنيت كذا : إذا افتعلته وتخرّصته . ومنه الخبر الذى روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما تغنيت ولا تمنيت ، يعنى بقوله ما تمنيت : ما تخرّصت الباطل ولا اختلقت الكذب والإفك .

والذى يدلّ على صحة ما قلنا فى ذلك وأنه أولى بتأويل قوله (إلا أمانىَّ) من غيره من الأقوال قول الله جلّ ثناؤه (وَإِنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ) فأخبر عنهم جل ثناؤه ، أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنا

---

(١) لعل هنا سقطا من الناسخ ، ووجه الكلام : واختلف فى تأويل قوله « إلا أمانى » فحرر .

منهم لا يقينا ، ولو كان معنى ذلك أنهم يتلونه لم يكونوا ظانين ، وكذلك لو كان معناه : يشتهونه ، لأن الذى يتلوه إذا تدبره علمه ، ولا يستحقّ الذى يتلو كتابا قرأه وإن لم يتدبره بتركه التدبير ، أن يقال : هو ظانّ لما يتلو ، إلا أن يكون شاكا فى نفس ما يتلوه ، لايدرى أحقّ هو أم باطل ، ولم يكن القوم الذين كانوا يتلون التوراة على عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود فيما بلغنا شاكين فى التوراة أنها من عند الله ؛ وكذلك المتمنى الذى هو فى معنى المتشهى غير جائز أن يقال : هو ظانّ فى تمنيه ، لأن التمنى من المتمنى إذا تمنى ما قد وجد عينه ، فغير جائز أن يقال : هو شاكّ فيما هو به عالم ، لأن العلم والشك معنيان ينفى كل واحد منهما صاحبه ، لايجوز اجتماعهما فى حيز واحد ، والمتمنى فى حال تمنيه موجود تمنيه غير جائز أن يقال : هو يظنّ تمنيه ، وإنما قيل (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إلا أمانِيَّ) والأمانى من غير نوع الكتاب ، كما قال ربنا جل ثناؤه (وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ) والظنّ من العلم بمعزل ، وكما قال (وَما لِأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلَى) وكما قال الشاعر :

لَيْسَ بَيْنِى وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتابُ ... غيرَ طَعْنِ الكُلَى وَضَرْبِ الرِّقابِ

وكما قال نابغة بنى ذبيان :

حَلَفْتُ يَمِيناً غيرَ ذِى مَثْنَوِيَّةٍ ... وَلا عِلْمَ إلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بِغائِبِ

فى نظائر لما ذكرنا يطول بإحصائها الكتاب ، ويخرج بإلا ما بعدها من معنى ماقبلها ، ومن صفته وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الآخر ومن غير نوعه ، ويسمى ذلك بعض أهل العربية استثناء منقطعا ، لانقطاع الكلام الذى يأتى بعد إلا عن معنى ما قبلها ، وإنما يكون ذلك كذلك فى كل موضع حسن أن يوضع فيه مكان إلا لكن ، فيعلم حينئذ انقطاع معنى الثانى عن معنى الأول ، ألا ترى أنك إذا قلت : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاَّ أمانِيَّ) ثم أردت وضع لكن مكان إلا وحذف إلا وجدت الكلام صحيحا معناه صحته وفيه إلا ، وذلك إذا قلت (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لايَعْلَمُونَ الكِتابَ) لكن أمانى ، يعنى لكنهم يتمنون ، وكذلك قوله (ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ) لكن اتباع الظنّ بمعنى لكنهم يتبعون الظنّ ، وكذلك جميع هذا النوع من الكلام على ما وصفنا .

وقد ذكر عن بعض القرّاء أنه قرأ (إلاَّ أمانِيَ) مخففة ، ومن خفف ذلك وجهه إلى نحو جمعهم المفتاح مفاتح ، والقرقور قراقر ، وإن ياء الجمع لما حذفت خففت الياء الأصلية ، أعنى من الأمانى كما جمعوا الأثفية أثافى مخففة ، كما قال زهير بن أبى سلمى :

أثافِىَ سُفْعاً فى مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

وأما من ثقل (أمانِيَّ) فشدّد ياءها ، فإنه وجه ذلك إلى نحو جمعهم المفتاح مفاتيح والقرقور قراقير والزنبور زنابير ، فاجتمعت ياء فعاليل ولامها وهما جميعا ياءان فأدغمت إحداهما فى الأخرى ، فصارتا ياء واحدة مشددة .

فأما القراءة التى لايجوز غيرها عندى لقارئ فى ذلك فتشديد ياء الأمانى ، لإجماع القرّاء على أنها القراءة

التى مضى على القراءة بها السلف ، مستفيض ذلك بينهم ، غير مدفوعة صحته ، وشذوذ القارئ بتخفيفها عما عليه الحجة مجمعة فى ذلك ، وكفى خطأ على قارئ ذلك بتخفيفها إجماعا على تخطئته .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) وما هم ، كما قال جل ثناؤه (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) يعنى بذلك مانحن إلا بشر مثلكم . ومعنى قوله (إِلاَّ يَظُنُّونَ) لا يشكون ولا يعلمون حقيقته وصحته ، والظنّ فى هذا الموضع الشك ؛ فمعنى الآية : ومنهم من لايكتب ولا يخطّ ولا يعلم كتاب الله ، ولايدرى ما فيه إلا تخرّصا وتقوّلا على الله الباطل ، ظنا منه أنه محقّ فى تخرّصه وتقوّله الباطل . وإنما وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم فى تخرّصهم على ظنّ أنهم محقون وهم مبطلون ، لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أمورا حسبوها من كتاب الله ، ولم تكن من كتاب الله ، فوصفهم جل ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذى يوقنون به أنه من عند الله ، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتبعون ماهم فيه شاكون ، وفى حقيقته مرتابون ، مما أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارهم ، عنادا منهم لله ولرسوله ، ومخالفة منهم لأمر الله ، واغترارا منهم بإمهال الله إياهم .

وبنحو ما قلنا فى تأويل قوله (وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) قال فيه المتأوّلون من السلف .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) : إلا يكذبون .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (لايَعْلَمُونَ الكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) أى لايعلمون ولا يدرون ما فيه ، وهم يجحدون نبوّتك بالظنّ .

حدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة (وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) قال : يظنون الظنون بغير الحقّ .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : يظنون الظنون بغير الحقّ .

حُدثت عن عمارة ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (فويْلٌ) :

فقال بعضهم بما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق عن الضحاك ، عن ابن عباس (فَوَيْلٌ لَهُمْ) يقول : فالعذاب عليهم .

وقال آخرون بما حدثنا به ابن بشار ، قال : حدثنا ابن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، عن زياد بن فياض ، قال : سمعت أبا عياض يقول : الويل : ما يسيل من صديد فى أصل جهنم .

حدثنا بشر بن أبان الحطاب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن زياد بن فياض ، عن أبى عياض فى قوله (فَوَيْلٌ) قال : صهريج فى أصل جهنم يسيل فيه صديدهم .

حدثنا علىّ بن سهل الرملى ، قال : حدثنا زيد بن أبى الزرقاء ، قال : حدثنا سفيان بن زياد بن فياض ، عن أبى عياض ، قال : الويل واد من صديد فى جهنم .

حدثنا ابن حميد، قال : حدثنا مهران، عن شقيق، قال: (وَيْلٌ): ما يسيل من صديد فى أصل جهنم .

وقال آخرون بما حدثنا به المثنى ، قال : حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح التسترى ، قال : حدثنا علىّ بن جرير ، عن حماد بن سلمة بن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة العدوى ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الوَيْلُ جَبَلٌ فى النَّارِ » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنى عمرو بن الحرث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وَيْلٌ : وَادٍ فى جَهَنَّمَ يَهْوِى فيه الكافرُ أرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ إلى قَعْرِهِ » .

قال أبو جعفر : فمعنى الآية على ماروى عمن ذكرت قوله فى تأويل (وَيْلٌ) فالعذاب الذى هو شرب صديد أهل جهنم فى أسفل الجحيم لليهود الذين يكتبون الباطل بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله .

القول فى تأويل قوله تعالى (لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

يعنى بذلك : الذين حرّفوا كتاب الله من يهود بنى إسرائيل ، وكتبوا كتابا على ما تأوّلوه من تأويلاتهم مخالفا لما أنزل الله على نبيه موسى صلى الله عليه وسلم ، ثم باعوه من قوم لاعلم لهم بها ولا بما فى التوراة ، جهال بما فى كتب الله لطلب عرض من الدنيا خسيس ، فقال الله لهم (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .

كما حدثنى موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً) قال : كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدّثونهم أنه من عند الله ، ليأخذوا به ثمنا قليلا .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن

الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الأميون قوم لم يصدّقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتابا أنزله الله ، فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال (هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً) قال : عرضا من عرض الدنيا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) قال : هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله يحرّفونه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله ، إلا أنه قال : ثم يحرّفونه .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، عن قتادة (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) الآية ، وهم اليهود .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ) قال : كان ناس من بنى إسرائيل كتبوا كتابا بأيديهم ليتأكلوا الناس ، فقالوا : هذا من عند الله ، وما هو من عند الله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية قوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً) قال : عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، فحرّفوه عن مواضعه يبتغون بذلك عرضا من عرض الدنيا ، فقال (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا إبراهيم بن عبد السلام ، قال : ثنا على بن جرير ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة العدوى ، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) « الويل : جبل فى النار » وهو الذى أنزل فى اليهود لأنهم حرّفوا التوراة ، وزادوا فيها ما يحبون ، ومحوا منها ما يكرهون ، ومحوا اسم محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة ، فلذلك غضب الله عليهم ، فرفع بعض التوراة ، فقال (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى سعيد بن أبى أيوب ، عن محمد بن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، قال (وَيْلٌ) : واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لانماعت من شدّة حرّه .

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : ما وجه (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) ، وهل تكون الكتابة بغير اليد ، حتى احتاج المخاطب بهذه المخاطبة إلى أن يخبروا عن هؤلاء القوم الذين قص الله قصّهم ، أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ؟ قيل له : إن الكتاب من بنى آدم وإن كان منهم باليد ،

فإنه قد يضاف الكتاب إلى غير كاتبه وغير المتولى رسم خطه ، فيقال : كتب فلان إلى فلان بكذا ، وإن كان المتولى كتابته بيده غير المضاف إليه الكتاب إذا كان الكاتب كتبه بأمر المضاف إليه الكتاب . فأعلم ربنا بقوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) عباده المؤمنين ، أن أحبار اليهود تلى كتابة الكذب ، والفرية على الله بأيديهم ، على علم منهم وعمد للكذب على الله ، ثم تنحله إلى أنه من عند الله وفى كتاب الله ، تكذّبا على الله وافتراء عليه ، فنفى جل ثناؤه بقوله (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) أن يكون ولى كتابة ذلك بعض جهالهم بأمر علمائهم وأحبارهم ، وذلك نظير قول القائل : باعنى فلان عينه كذا وكذا ، فاشترى فلان نفسه كذا ، يراد بإدخال النفس والعين فى ذلك نفى اللبس عن سامعه ، أن يكون المتولى بيع ذلك وشراءه غير الموصوف به بأمره ، ويوجب حقيقة الفعل للمخبر عنه ، فكذلك قوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) أى فالعذاب فى الوادى السائل من صديد أهل النار فى أسفل جهنم لهم ، يعنى للذين يكتبون الكتاب الذى وصفنا أمره من يهود بنى إسرائيل محرّفا ، ثم قالوا : هذا من عند الله ، ابتغاء عرض من الدنيا به قليل ممن يبتاعه منهم ، وقوله (مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) يقول : من الذى كتبت أيديهم من ذلك (وَوَيْلٌ لَهُمْ) أيضا (مِمَّا يَكْسِبُونَ) يعنى مما يعملون من الخطايا ، ويجترحون من الآثام ، ويكسبون من الحرام بكتابهم الذى يكتبونه بأيديهم ، بخلاف ما أنزل الله ، ثم يأكلون ثمنه وقد باعوه ممن باعوه منهم على أنه من كتاب الله .

كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) يعنى من الخطيئة .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (فَوَيْلٌ لَهُمْ) يقول : فالعذاب عليهم قال : يقول من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) يقول : مما يأكلون به من السفلة وغيرهم .

قال أبو جعفر : وأصل الكسب : العمل ، فكل عامل عملا بمباشرة منه لما عمل ، ومعاناة باحتراف ، فهو كاسب لما عمل ، كما قال لبيد بن ربيعة :

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا

القول فى تأويل قوله :

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)

يعنى بقوله (وَقَالُوا) اليهود ، يقول : وقالت اليهود (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) ، يعنى لن تلاقى أجسامنا

النار ، ولن ندخلها ، إلا أياما معدودة . وإنما قيل معدودة وإن لم يكن مبينا عددها فى التنزيل ، لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم بذلك وهم عارفون عدد الأيام التى يوقتونها لمكثهم فى النار ، فلذلك ترك ذكر تسمية عدد تلك الأيام ، وسماها معدودة لما وصفنا .

ثم اختلف أهل التأويل فى مبلغ الأيام المعدودة التى عينها اليهود القائلون ما أخبر الله عنهم من ذلك .

فقال بعضهم بما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) قال ذلك أعداء الله اليهود ، قالوا : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم ، الأيام التى أصبنا فيها العجل أربعين يوما ، فإذا انقضت عنا تلك الأيام ، انقطع عنا العذاب والقسم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) قالوا : أيا ما معدودة بما أصبنا فى العجل .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً) قال : قالت اليهود : إن الله يدخلنا النار فنمكث فيها أربعين ليلة ، حتى إذا أكلت النار خطايانا واستنقتنا ، نادى مناد : أخرجوا كل مختون من ولد بنى إسرائيل ، فلذلك أمرنا أن نختتن ، قالوا : فلا يدعون منا فى النار أحدا إلا أخرجوه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : قالت اليهود : إن ربنا عتب علينا فى أمرنا ، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة ، ثم يخرجنا ، فأكذبهم الله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن قتادة ، قال : قالت اليهود : لن ندخل النار إلا تحلّة القسم ، عدد الأيام التى عبدنا فيها العجل .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) الآية .

قال ابن عباس : ذكر أن اليهود وجدوا فى التوراة مكتوبا : إن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم نابتة فى أصل الجحيم ، وكان ابن عباس يقول : إن الجحيم سقر ، وفيها شجرة الزقوم ، فزعم أعداء الله أنه إذا خلا العدد الذى وجدوا فى كتابهم أياما معدودة .

وإنما يعنى بذلك المسير الذى ينتهى إلى أصل الجحيم ، فقالوا : إذا خلا العدد انتهى الأجل فلا عذاب وتذهب جهنم وتهلك ، فذلك قوله (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) يعنون بذلك الأجل ، فقال ابن عباس : لما اقتحموا من باب جهنم ساروا فى العذاب ، حتى انتهوا إلى شجرة الزقوم آخر يوم من الأيام المعدودة ، قال لهم خزّان سقر : زعمتم أنكم لن تمسكم النار إلا أياما معدودة ، فقد خلا العدد وأنتم فى الأبد ، فأخذ بهم فى الصعود فى جهنم يرهقون .

حدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عمي ، قال : حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) إلا أربعين ليلة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، قال : « خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لن ندخل النار إلا أربعين ليلة ، وسيخلفنا فيها قوم آخرون ، يعنون محمدا وأصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رءوسهم : بَلْ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لاَ يَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَحَدٌ ، فأنزل الله جل ثناؤه (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) » .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرني الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، قال : « اجتمعت يهود يوما تخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) وسموا أربعين يوما ثم يخلفنا أو يلحقنا فيها أناس ، فأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَذَبْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ لاَ نَلْحَقُكُمْ ولاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللهُ أَبَداً » .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا عليّ بن معبد ، عن أبي معاوية ، عن جويبر ، عن الضحاك في قوله (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) قال : قالت اليهود : لانعذّب في النار يوم القيامة إلا أربعين يوما مقدار ما عبدنا العجل » .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَبِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ ، مَنْ أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمُ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ ؟ قالوا : إن ربهم غضب عليهم غضبة ، فنمكث في النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كَذَبْتُمْ وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَداً ، فنزل القرآن تصديقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبا لهم (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً) إلى قوله (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) » .

وقال آخرون في ذلك بما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كانت يهود يقولون : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذّب الله الناس يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا من أيام الآخرة ، وإنها سبعة أيام ، فأنزل الله في ذلك من قولهم (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً) الآية .

حدثنا ابن حميد قال : ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، قال : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن سعيد ابن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ويهود تقول :

إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذّب الناس فى النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار من أيام الآخرة ، فإنما هى سبعة أيام ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) الآية .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً) قال : كانت تقول : إنما الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذّب مكان كل ألف سنة يوما .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله ، إلا أنه قال : كانت اليهود تقول : إنما الدنيا ، وسائر الحديث مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال مجاهد : (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً) من الدهر ، وسموا عدة سبعة آلاف سنة ، من كل ألف سنة يوما يهود تقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاتَعْلَمُونَ) .

قال أبو جعفر : لما قالت اليهود ما قالت من قولها (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً) على ما قد بينا من تأويل ذلك ، قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لمعشر اليهود (أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) أخذتم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقا ، فالله لاينقض ميثاقه ، ولا يبدل وعده وعقده ، أم تقولون على الله الباطل جهلا وجراءة عليه .

كما حدثنا محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) أى موثقا من الله بذلك أنه كما تقولون .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن قتادة قال : قالت اليهود : لن ندخل النار إلا تحلة القسم عدّة الأيام التى عبدنا فيها العجل ، فقال الله « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) بهذا الذى تقولونه ، ألكم بهذا حجة وبرهان (فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ) فهاتوا حجتكم وبرهانكم (أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاتَعْلَمُونَ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : لما قالت اليهود ماقالت ، قال الله جل ثناؤه لمحمد (قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) يقول أدّخرتم عند الله عهدا ، يقول : أقلتم لا إله إلا الله لم تشركوا ، ولم تكفروا به ، فإن كنتم قلتموها فارجوا بها ، وإن كنتم لم تقولوها فلم تقولون على الله ما لاتعلمون ؟ يقول : لو كنتم قلتم : لا إله إلا الله ، ولم تشركوا به شيئا ، ثم متم على ذلك لكان لكم ذخرا عندى ، ولم أخالف وعدى لكم أنى أجازيكم بها .

حدثني موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط عن السدى ، قال : لما قالت اليهود ما قالت ، قال الله عز وجل : (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ) وقال فى مكان آخر (وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) ، ثم أخبر الخبر فقال (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) . وهذه الأقوال التى رويناها عن ابن عباس ومجاهد وقتادة بنحو ما قلنا فى تأويل قوله (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) لأن مما أعطاه الله عباده من ميثاقه أن من آمن به وأطاع أمره ، نجاه من ناره يوم القيامة . ومن الإيمان به الإقرار بأن لا إله إلا الله ، وكذلك من ميثاقه الذى واثقهم به ، أن من أتى الله يوم القيامة بحجة تكون له نجاة من النار فينجيه منها ، وكلّ ذلك وإن اختلفت ألفاظ قائليه . فمتفق المعانى على ما قلنا فيه ، والله تعالى أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

وقوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) تكذيب من الله القائلين من اليهود (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) وإخبار منه لهم أنه يعذّب من أشرك وكفر به وبرسله ، وأحاطت به ذنوبه فمخلد فى النار فإن الجنة لا يسكنها إلا أهل الإيمان به وبرسوله ، وأهل الطاعة له ، والقائمون بحدوده .

كما حدثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد ابن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) أى من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط كفره بما له من حسنة (فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

قال : وأما (بَلَى) فإنها إقرار فى كل كلام فى أوله جحد ، كما (نعم) إقرار فى الاستفهام الذى لا جحد فيه ، وأصلها بل التى هى رجوع عن الجحد المحض فى قولك : ماقام عمرو بل زيد فزيد فيها الياء ، ليصلح عليها الوقوف ، إذ كانت بل لا يصلح عليها الوقوف ، إذ كانت عطفا ورجوعا عن الجحد ، ولتكون أعنى (بلى) رجوعا عن الجحد فقط ، وإقرارا بالفعل الذى بعد الجحد ، فدلت الياء منها على معنى الإقرار والإنعام [١] ، ودلّ لفظ بل عن الرجوع عن الجحد .

قال : وأما السيئة التى ذكر الله فى هذا المكان فإنها الشرك بالله .

كما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يحيي بن سعيد ، عن سفيان ، قال : حدثنى عاصم ، عن أبى وائل (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) قال : الشرك بالله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) شركا .

---

(١) « الإنعام » أى الزيادة والمبالغة ، يقال : فعل كذا وأنعم : أى زاد وبالغ ، فليعلم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) قال : أما السيئة فالشرك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، مثله .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) ، أما السيئة فهى الذنوب التى وعد عليها النار .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) قال : الشرك .

قال ابن جريج ، قال قال مجاهد : (سَيِّئَةً) شركا .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) يعنى الشرك .

وإنما قلنا : إن السيئة التى ذكر الله جل ثناؤه أن من كسبها وأحاطت به خطيئته فهو من أهل النار المخلدين فيها فى هذا الموضع ، إنما عنى الله بها بعض السيئات دون بعض ، وإن كان ظاهرها فى التلاوة عاما لأن الله قضى على أهلها بالخلود فى النار ، والخلود فى النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان به ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل الإيمان لايخلدون فيها ، وأن الخلود فى النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان به ، فإن الله جل ثناؤه قد قرن بقوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) قولَه (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فكان معلوما بذلك أن الذين لهم الخلود فى النار من أهل السيئات ، غير الذين لهم الخلود فى الجنة من أهل الإيمان .

فإن ظنّ ظان أن الذين لهم الخلود فى الجنة من الذين آمنوا هم الذين عملوا الصالحات دون الذين عملوا السيئات ، فإن فى إخبار الله أنه مكفر باجتنابنا كبائر ما نهى عنه سيئاتنا ، ومدخلنا المدخل الكريم ، ما ينبئ عن صحة ما قلنا فى تأويل قوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) بأن ذلك على خاصّ من السيئات دون عامها .

فإن قال لنا قائل : فإن الله جل ثناؤه إنما ضمن لنا تكفير سيئاتنا باجتنابنا كبائر ما نهى عنه ، فما الدلالة على أن الكبائر غير داخلة فى قوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) قيل : لما صحّ من أن الصغائر غير داخلة فيه ، وأن المعنىّ بالآية خاص دون عام ، ثبت وصحّ أن القضاء والحكم بها غير جائز لأحد على أحد إلا على من وقفه الله عليه بدلالة من خبر قاطع عذر من بلغه ؛ وقد ثبت وصحّ أن الله تعالى ذكره قد عنى بذلك أهل الشرك والكفر به ، بشهادة جميع الأمة ، فوجب بذلك القضاء على أن أهل الشرك والكفر ممن عناه الله بالآية ؛ فأما أهل الكبائر فإن الأخبار القاطعة عذر من بلغته قد تظاهرت عندنا بأنهم غير معنيين بها ؛ فمن أنكر ذلك ممن دافع حجة الأخبار المستفيضة والأنباء المتظاهرة ، فاللازم له ترك قطع

الشهادة على أهل الكبائر بالخلود فى النار بهذه الآية ونظائرها التى جاءت بعمومهم فى الوعيد ، إذ كان تأويل القرآن غير مدرك إلا ببيان من جعل الله إليه بيان القرآن ، وكانت الآية يأتى عاما فى صنف ظاهرها ، وهى خاص فى ذلك الصنف باطنها ، ويسئل مدافعو الخبر بأن أهل الكبائر من أهل الاستثناء سؤالنا منكر رجم الزانى المحصن ، وزوال فرض الصلاة عن الحائض فى حال الحيض ، فإن السؤال عليهم نظير السؤال على هؤلاء سواء .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) اجتمعت عليه ، فمات عليها قبل الإنابة والتوبة منها ؛ وأصل الإحاطة بالشىء : الإحداق به بمنزلة الحائط الذى تحاط به الدار فتحدق به ، ومنه قول الله جل ثناؤه (نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) .

فتأويل الآية إذًا : من أشرك بالله واقترف ذنوبا جمة ، فمات عليها قبل الإنابة والتوبة ، فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبدا .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك ، قال المتأولون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى روق ، عن الضحاك (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : مات بذنبه .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح ، قال : ثنا الأعمش ، عن أبى رزين ، عن الربيع بن خيثم (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : مات عليها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : أخبرنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : يحيط كفره بماله من حسنة .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : حدثنى عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : ما أوجب الله فيه النار .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : أما الخطيئة فالكبيرة الموجبة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن قتادة (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : الخطيئة : الكبائر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا وكيع ويحيى بن آدم ، عن سلام بن مسكين ، قال : سأل رجل الحسن عن قوله (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) فقال : ما ندرى ما الخطيئة يا بنىّ ، اتل القرآن فكل آية وعد الله عليها النار فهى الخطيئة .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن

مجاهد فى قوله (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : كل ذنب محيط فهو ما وعد الله عليه النار .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى رزين (وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : مات بخطيئته .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبونعيم ، قال : ثنا الأعمش ، قال : ثنا مسعود أبو رزين ، عن الربيع بن خيثم فى قوله (وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : هو الذى يموت على خطيئته ، قبل أن يتوب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال قال وكيع : سمعت الأعمش يقول فى قوله (وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) مات بذنوبه .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) الكبيرة الموجبة .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (أحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) فمات ولم يتب .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حسان ، عن ابن جريج قال : قلت لعطاء (وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) قال : الشرك ، ثم تلا (وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (فأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه فأولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم أصحاب النار هم فيها خالدون ، ويعنى بقوله جل ثناؤه (أَصْحابُ النَّارِ) أهل النار ، وإنما جعلهم لها أصحابا لإيثارهم فى حياتهم الدنيا ما يوردهموها ، ويوردهم سعيرها ، على الأعمال التى توردهم الجنة ، فجعلهم جل ذكره بإيثارهم أسبابها على أسباب الجنة لها أصحابا ، كصاحب الرجل الذى يصاحبه مؤثرا صحبته على صحبة غيره ، حتى يعرف به . (هُمْ فيها) يعنى فى النار خالدون ، ويعنى بقوله (خالِدُونَ) مقيمون .

كما حدثنى محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (هُمْ فيها خالِدُونَ) : أى خالدون أبدا .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (هُمْ فِيها خالِدُونَ) لايخرجون منها أبدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨٢)

ويعنى بقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا) : أى صدقوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ويعنى بقوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) : أطاعوا الله ، فأقاموا حدوده ، وأدوا فرائضه ، واجتنبوا محارمه ، ويعنى بقوله

(أُولَـٰئِكَ) الذين هم كذلك (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) يعنى أهلها الذين هم أهلها ، هم فيها خالدون ، مقيمون أبدا . وإنما هـذه الآية والتى قبلها إخبار من الله عباده عن بقاء النار وبقاء أهلها فيها [1] ، ودوام ما أعدّ فى كل واحدة منهما لأهلها ، تكذيبا من الله جل ثناؤه القائلين من يهود بنى إسرائيل إن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، وإنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة ، فأخبرهم بخلود كفارهم فى النار وخلود مؤمنيهم فى الجنة .

كما حدثنى ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى من آمن بما كفرتم به وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها ؛ يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبدا ، لاانقطاع له أبدا .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

قد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا ، على أن الميثاق مفعال ، من التوثق باليمين ونحوها من الأمور التى تؤكد القول . فمعنى الكلام إذاً : واذكروا أيضا يامعشر بنى إسرائيل إذ أخذنا ميثاقكم لاتعبدون إلا الله ، كما حدثنى به ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أوعكرمة ، عن ابن عباس (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أى ميثاقكم (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) .

قال أبو جعفر : والقراءة مختلفة فى قراءة قوله (لَا تَعْبُدُونَ) فبعضهم يقرؤها بالتاء ، وبعضهم يقرؤها بالياء ، والمعنى فى ذلك واحد ، وإنما جازت القراءة بالياء ، والتاء وأن يقال : لاتعبدون ، ولا يعبدون وهم غيب ، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ؛ فكما تقول : استحلفت أخاك ليقومنّ ، فتخبر عنه خبرك عن الغائب لغيبته عنك ، وتقول : استحلفته لتقومنّ ، فتخبر عنه خبرك عن المخاطب ، لأنك قد كنت خاطبته بذلك ، فيكون ذلك صحيحا جائزا ، فكذلك قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) ولا يعبدون . من قرأ ذلك بالتاء ؛ فمعنى الخطاب إذ كان الخطاب قد كان بذلك ،

(١) لعل هنا سقطا ، والأصل : وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها ، بدليل ما بعده .

ومن قرأ بالياء ، فلأنهم ما كانوا مخاطبين بذلك فى وقت الخبر عنهم . وأما رفع لاتعبدون فبالتاء التى فى تعبدون ، ولا ينصب بأن التى كانت تصلح أن تدخل مع (لاتَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ) لأنها إذا صلح دخولها على فعل فحذفت ولم تدخل كان وجه الكلام فيه الرفع ، كما قال جل ثناؤه (قُلْ أفَغَيْرَ اللهِ تَأمُرُونِّى أعْبُدُ أيُّها الجاهِلُونَ) فرفع أعبد إذ لم تدخل فيها أن بالألف الدالة على معنى الاستقبال ، وكما قال الشاعر :

ألاَ أيُّهذَا الزَّاجِرِى أحْضُرُ الوَغَى ... وأنْ أشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْلِدِى

فرفع أحضر وإن كان يصلح دخول أن فيها ، إذ حذفت بالألف التى تأتى بمعنى الاستقبال ، وإنما صلح حذف أن من قوله (وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إسْرائِيلَ لاتَعْبُدُونَ) لدلالة ما ظهر من الكلام عليها ، فاكتفى بدلالة الظاهر عليها منها .

وقد كان بعض نحويى البصرة يقول : معنى قوله (وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إسْرائِيلَ لاتَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ) حكاية ، كأنك قلت استحلفناهم لاتعبدون ، أى قلنا لهم : والله لاتعبدون ، وقالوا : والله لايعبدون ، والذى قال من ذلك قريب معناه من معنى القول الذى قلنا فى ذلك .

وبنحو الذى قلنا فى قوله (وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إسْرائِيلَ لاتَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ) تأوّله أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له وأن لايعبدوا غيره .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : أخبرنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إسْرائِيلَ لاتَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ) قال : أخذنا ميثاقهم أن يخلصوا لله ولايعبدوا غيره .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إسْرائِيلَ لاتَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ) قال : الميثاق الذى أخذ عليهم فى المائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَبِالْوالِدَيْنِ إحْسانا) .

وقوله جل ثناؤه (وَبِالْوالِدَيْنِ إحْسانا) عطف على موضع أن المحذوفة فى لاتعبدون إلا الله ، فكان معنى الكلام : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل بأن لاتعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا ، فرفع لاتعبدون لما حذف أن ، ثم عطف بالوالدين على موضعها ، كما قال الشاعر :

مُعاوِىَ إنَّنا بَشَرٌ فاسْجِحْ ... فَلَسْنا بِالْجِبالِ وَلا الحَدِيدا

فنصب الحديد على العطف به على موضع الجبال ، لأنها لو لم تكن فيها باء خافضة كانت نصبا فعطف بالحديد على معنى الجبال لا على لفظها ، فكذلك ما وصفت من قوله (وَبِالْوالِدَيْنِ إحْساناً) وأما الإحسان فمنصوب بفعل مضمر يؤدى معناه قوله (وَبِالْوالِدَيْنِ) إذ كان مفهوما معناه ، فكان معنى الكلام لو أظهر

المحذوف : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل بأن لاتعبدوا إلا الله ، وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، فاكتفى بقوله (وَبِالْوَالِدَيْنِ) من أن يقال : وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، إذ كان مفهوما أن ذلك معناه بما ظهر من الكلام .

وقد زعم بعض أهل العربية فى ذلك أن معناه وبالوالدين فأحسنوا إحسانا ، فجعل الباء التى فى الوالدين من صلة الإحسان مقدمة عليه .

وقال آخرون : بل معنى ذلك أن لاتعبدوا إلا الله ، وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، فزعموا أن الباء التى فى الوالدين من صلة المحذوف ، أعنى أحسنوا ، فجعلوا ذلك من كلامين . وإنما يصرف الكلام إلى ما ادعوا من ذلك إذا لم يوجد لاتساق الكلام على كلام واحد وجه . فأما وللكلام وجه مفهوم على اتساقه على كلام واحد ، فلا وجه لصرفه إلى كلامين . وأخرى أن القول فى ذلك لو كان على ما قالوا لقيل : وإلى الوالدين إحسانا ، لأنه إنما يقال : أحسن فلان إلى والديه ، ولا يقال أحسن بوالديه إلا على استكراه للكلام. ولكن القول فيه ماقلنا ، وهو : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل بكذا وبالوالدين إحسانا على مابينا قبل ، فيكون الإحسان حينئذ مصدرا من الكلام ، لامن لفظه ، كما بينا فيما مضى من نظائره .

فإن قال قائل : وما ذلك الإحسان الذى أخذ عليهم بالوالدين الميثاق . قيل : نظير مافرض الله على أمتنا لهما من فعل المعروف لهما ، والقول الجميل ، وخفض جناح الذل رحمة بهما ، والتحنن عليهما ، والرأفة بهما ، والدعاء بالخير لهما ، وما أشبه ذلك من الأفعال التى ندب الله عباده أن يفعلوا بهما .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ) .

يعنى بقوله (وَذِى الْقُرْبَى) وبذى القربى أن يصلوا قرابته منهم ورحمه ، والقربى مصدر على تقدير فعلى من قولك : قربت منى رحم فلان قرابة وقربى وقربا بمعنى واحد . وأما اليتامى فهم جمع يتيم ، مثل أسير وأسارى ، ويدخل فى اليتامى الذكور منهم والإناث . ومعنى ذلك : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله وحده دون من سواه من الأنداد ، وبالوالدين إحسانا وبذى القربى أن تصلوا رحمه ، وتعرفوا حقه ، وباليتامى : أن تتعطفوا عليهم بالرحمة والرأفة ، وبالمساكين : أن تؤتوهم حقوقهم ، التى ألزمها الله أموالكم ، والمسكين : هو المتخشع المتذلل من الفاقة والحاجة ، وهو مفعيل من المسكنة ، والمسكنة : هى ذل الحاجة والفاقة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً) .

إن قال قائل : كيف قيل (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً) فأخرج الكلام أمرا ولما يتقدمه أمر ، بل الكلام جار من أول الآية مجرى الخبر ؟ قيل : إن الكلام وإن كان قد جرى فى أول الآية مجرى الخبر ، فإنه مما يحسن فى موضعه الخطاب بالأمر والنهى . فلو كان مكان لا تعبدون إلا الله ، لاتعبدوا إلا الله على وجه النهى من الله لهم عن عبادة غيره كان حسنا صوابا ، وقد ذكر أن ذلك كذلك فى قراءة أبىّ ابن كعب ، وإنما حسن ذلك وجاز لو كان مقروءا به ، لأن أخذ الميثاق قول ، فكان معنى الكلام لو كان

مقروءا كذلك : وإذ قلنا لبنى إسرائيل لاتعبدوا إلا الله ، كما قال جل ثناؤه فى موضع آخر (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) فلما كان حسنا وضع الأمر والنهى فى موضع : لاتعبدون إلا الله ، عطف بقوله (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) على موضع لاتعبدون ، وإن كان مخالفا كل واحد منهما ومعناه معنى مافيه : لما وصفنا من جواز وضع الخطاب بالأمر والنهى موضع لاتعبدون . فكأنه قيل : وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدوا إلا الله ، وقولوا للناس حسنا ، وهو نظير ما قدمنا البيان عنه ، من أن العرب تبتدئ الكلام أحيانا على وجه الخبر ، عن الغائب فى موضع الحكايات ، كما أخبرت عنه ، ثم تعود إلى الخبر على وجه الخطاب ، وتبتدئ أحيانا على وجه الخطاب ، ثم تعود إلى الإخبار على وجه الخبر ، عن الغائب لما فى الحكاية من المعنيين ، كما قال الشاعر :

أَسِيئِى بِنَا أَوْ أَحْسِنِى لَا مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ

يعنى تقليت . وأما الحسن فإن القراء اختلفت فى قراءته فقرأته عامة قراء الكوفة غير عاصم (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا) بفتح الحاء والسين ، وقرأته عامة قراء المدينة : (حُسْنًا) بضم الحاء وتسكين السين . وقد روى عن بعض القراء أنه كان يقرأ (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَى) على مثال فعلى .

واختلف أهل العربية فى فرق ما بين معنى قوله : حُسْنًا ، وحَسَنًا .

فقال بعض البصريين : هو على أحد وجهين : إما أن يكون يراد بالحسن الحسن ، وكلاهما لغة ، كما يقال : البخل ، والبخل ، وإما أن يكون جعل الحسن هو الحسن فى التشبيه ، وذلك أن الحسن مصدر . والحسن هو الشىء الحسن ، ويكون ذلك حينئذ كقولك : إنما أنت أكل وشرب ، وكما قال الشاعر :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

فجعل التحية ضربا .

وقال آخر : بل الحسن هو الاسم العام الجامع جميع معانى الحسن . والحسن هو البعض من معانى الحسن ، قال : ولذلك قال جل ثناؤه إذ أوصى بالوالدين (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) : يعنى بذلك أنه وصاه فيهما بجميع معانى الحسن . وأمر فى سائر الناس ببعض الذى أمره به فى والديه ، فقال (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) يعنى بذلك بعض معانى الحسن . والذى قاله هذا القائل فى معنى الحسن بضم الحاء وسكون السين غير بعيد من الصواب ، وإنه اسم لنوعه الذى سمى به ، وأما الحسن فإنه صفة وقعت لما وصف به ، وذلك يقع بخاص ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالصواب من القراءة فى قوله (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) لأن القوم إنما أمروا فى هذا العهد الذى قيل لهم : وقولوا للناس باستعمال الحسن من القول دون سائر معانى الحسن ، الذى يكون بغير القول ، وذلك نعت لخاص من معانى الحسن وهو القول ، فلذلك اخترت قراءته بفتح الحاء والسين ، على قراءته بضم الحاء وسكون السين .

وأما الذى قرأ ذلك (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَى) فإنه خالف بقراءته إياه كذلك قراءة أهل الإسلام ، وكفى شاهدا على خطأ القراءة بها كذلك ، خروجها من قراءة أهل الإسلام لو لم يكن على خطئها شاهد غيره ،

فكيف وهى مع ذلك خارجة من المعروف من كلام العرب ، وذلك أن العرب لاتكاد أن تتكلم بفعلى وأفعل إلا بالألف واللام أو بالإضافة . لايقال : جاءنى أحسن حتى يقولوا الأحسن ؛ ولا يقال أجمل حتى يقولوا الأجمل ، وذلك أن الأفعل والفعلى لايكادان يوجدان صفة إلا لمعهود معروف ، كما تقول : بل أخوك الأحسن ، وبل أختك الحسنى ، وغير جائز أن يقال : امرأة حسنى ، ورجل أحسن .

وأما تأويل القول الحسن الذى أمر الله به الذين وصف أمرهم من بنى إسرائيل فى هذه الآية لأن يقولوه للناس ، فهو ما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) أمرهم أيضا بعد هذا الخلق أن يقولوا للناس حسنا: أن يأمروا بلا إله إلا الله من لم يقلها ورغب عنها حتى يقولوها كما قالوها ، فإن ذلك قربة من الله جل ثناؤه .

وقال الحسن أيضا: لين القول من الأدب الحسن الجميل ، والخلق الكريم ، وهو مما ارتضاه الله وأحبه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) قال : قولوا للناس معروفا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) قال : صدقا فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم .

وحدثت عن يزيد بن هرون ، قال : سمعت سفيان الثورى ، يقول فى قوله : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) قال : مروهم بالمعروف ، وانهوهم عن المنكر .

حدثنى هرون بن إدريس الأصمّ ، قال : ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، قال : ثنا عبد الملك ابن أبى سليمان ، قال : سألت عطاء بن أبى رباح ، عن قول الله جلّ ثناؤه (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) قال : من لقيتَ من الناس فقل له حسنا من القول ، قال : وسألت أبا جعفر ، فقال مثل ذلك .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا القاسم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عن أبى جعفر وعطاء بن أبى رباح فى قوله (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) قال : للناس كلهم .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء مثله .

القول فى تأويل قوله (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

يعنى بقوله (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) أدّوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، قال : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) هذه وإقامة الصلاة تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها .

القول فى تأويل قوله (وَآتُوا الزَّكَاةَ) قد بينا فيما مضى قبل معنى الزكاة ، وما أصلها . وأما الزكاة التى كان الله أمر بها بنى إسرائيل الذين ذكر أمرهم فى هذه الآية ، فهى ما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا

عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَآتُوا الزَّكَاةَ) قال : إيتاء الزكاة ما كان الله فرض عليهم فى أموالهم من الزكاة . وهى سنة كانت لهم غير سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت زكاة أموالهم قربانا تهبط إليه نار فتحملها ، فكان ذلك تقبله ، ومن لم تفعل النار به ذلك كان غير متقبل ، وكان الذى قرّب من مكسب لايحلّ من ظلم أو غشم ، أو أخذ بغير ما أمر الله به وبينه له .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (وآتوا الزَّكاةَ) يعنى بالزكاة : طاعة الله والإخلاص .

القول فى تأويل قوله تعالى (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بنى إسرائيل ، أنهم نكثوا عهده ، ونقضوا ميثاقه ، بعد ما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له ، بأن لايعبدوا غيره ، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات ، ويصلوا الأرحام ، ويتعطفوا على الأيتام ، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم ، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به ، ويحثوهم على طاعته ، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها ، ويؤتوا زكاة أموالهم ، فخالفوا أمره فى ذلك كله ، وتولوا عنه معرضين ، إلا من عصمه الله منهم ، فوفى لله بعهده وميثاقه .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : لما فرض الله جلّ وعزّ عليهم ، يعنى على هؤلاء الذين وصف الله أمرهم فى كتابه من بنى إسرائيل، هذا الذى ذكر أنه أخذ ميثاقهم به ، أعرضوا عنه استثقالا له وكراهية ، وطلبوا ماخفّ عليهم إلا قليلا منهم ، وهم الذين استثنى الله فقال (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) يقول : أعرضتم عن طاعتى (إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ) قال : القليل الذين اخترتهم لطاعتى ؛ وسيحلّ عقابى بمن تولى ، وأعرض عنها يقول : تركها استخفافا بها .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عن عكرمة ، عن ابن عباس (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) أى تركتم ذلك كله .

وقال بعضهم : عنى الله جل ثناؤه بقوله (وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنى بسائر الآية أسلافهم ، كأنه ذهب إلى أنّ معنى الكلام (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ) ثم تولى سلفكم إلا قليلا منهم ، ولكنه جُعل خطابا لبقايا نسلهم على ماذكرناه فيما مضى قبل ، ثم قال : وأنتم يا معشر بقاياهم معرضون أيضا عن الميثاق الذى أخذ عليكم بذلك وتاركوه ترك أوائلكم .

وقال آخرون : بل قوله (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) خطاب لمن

كان بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل ، وذمٌّ لهم بنقضهم الميثاق الذى أخذ عليهم فى التوراة ، وتبديلهم أمر الله وركوبهم معاصيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)

قال أبو جعفر : قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) فى المعنى والإعراب نظير قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) وأما سفك الدم ، فإنه صبه وإراقته .

فإن قال قائل : وما معنى قوله (لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) وقال : أوكان القوم يقتلون أنفسهم ، ويخرجونها من ديارها ، فنهوا عن ذلك ؟ قيل : ليس الأمر فى ذلك على ما ظننت ، ولكنهم نهوا عن أن يقتل بعضهم بعضا ، فكان فى قتل الرجل منهم الرجل قتل نفسه ، إذ كانت ملتهما بمنزلة رجل واحد ، كما قال عليه السلام « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ فِى تَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ بَيْنَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » .

وقد يجوز أن يكون معنى قوله (لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) أى لايقتل الرجل منكم الرجل منكم ، فيقاد به قصاصا ، فيكون بذلك قاتلا نفسه ، لأنه كان الذى سبب لنفسه ما استحقت به القتل ، فأضيف بذلك إليه قتل ولىِّ المقتول إياه قصاصا بوليه ، كما يقال للرجل يركب فعلا من الأفعال يستحقّ به العقوبة ، فيعاقب العقوبة : أنت جنيت هذا على نفسك ، وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) أى لايقتل بعضكم بعضا (وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) ونفسك يا بن آدم أهل ملتك .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) يقول : لايقتل بعضكم بعضا ، (وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) يقول : لايخرج بعضكم بعضا من الديار .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن قتادة فى قوله (لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) يقول : لا يقتل بعضكم بعضا بغير حق (وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) فتسفك يا بن آدم دماء أهل ملتك ودعوتك .

القول فى تأويل قوله تعالى (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ) :

يعنى بقوله (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ) بالميثاق الذى أخذنا عليكم (لاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ) يقول : أقررتم بهذا الميثاق .

وحدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى (وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) .

اختلف أهل التأويل فيمن خوطب بقوله (وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) .

فقال بعضهم : ذلك خطاب من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام هجرته إليه ، مؤنبا لهم على تضييع أحكام ما فى أيديهم من التوراة التى كانوا يقرّون بحكمها ، فقال الله تعالى لهم (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ) يعنى بذلك إقرار أوائلكم وسلفكم ، وأنتم تشهدون على إقرارهم بأخذ الميثاق عليهم ، بأن لايسفكوا دماءهم ، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ، ويصدقون بأن ذلك حقّ من ميثاق عليهم ، وممن حكى معنى هذا القول عنه ابن عباس .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) أن هذا حقّ من ميثاقى عليكم .

وقال آخرون : بل ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن أوائلهم ، ولكنه تعالى ذكره ، أخرج الخبر بذلك عنهم مخرج المخاطبة ، على النحو الذى وصفنا فى سائر الآيات التى هى نظائرها ، التى قد بينا تأويلها فيما مضى .

وتأوّلوا قوله (وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) على معنى : وأنتم شهود .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية قوله (وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) يقول وأنتم شهود .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب عندى أن يكون قوله (وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) خبرا عن أسلافهم ، وداخلا فيه المخاطبون منهم الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) خبرا عن أسلافهم ، بأن كان خطابا للذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى أخذ ميثاق الذين كانوا على عهد رسول الله موسى صلى الله

عليه وسلم من بنى إسرائيل ، على سبيل ما قد بينه لنا فى كتابه ، فألزم جميع من بعدهم من ذريتهم من حكم التوراة ، مثل الذى ألزم منه من كان على عهد موسى منهم ؛ ثم أنب الذين خاطبهم بهذه الآيات على نقضهم ، ونقض سلفهم ذلك الميثاق ، وتكذيبهم ما وكدوا على أنفسهم له بالوفاء من العهود بقوله (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) فإن كان خارجا على وجه الخطاب للذين كانوا على عهد نبينا صلى الله عليه وسلم منهم ، فإنه معنىٌّ به كل من واثق بالميثاق منهم على عهد موسى ومن بعده ، وكل من شهد منهم بتصديق ما فى التوراة ، لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بقوله (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) وما أشبه ذلك من الآى بعضهم دون بعض ، والآية محتملة أن يكون أريد بها جميعهم ، فإن كان ذلك كذلك فليس لأحد أن يدعى أنه أريد بها بعض منهم دون بعض ، وكذلك حكم الآية التى بعدها ، أعنى قوله (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) الآية ، لأنه قد ذكر لنا أن أوائلهم ، قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرهم الذين أدركوا عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)

قال أبو جعفر : ويتجه فى قوله (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) وجهان : أحدهما أن يكون أريد به : ثم أنتم ياهؤلاء ، فترك « يا » استغناء بدلالة الكلام عليه ، كما قال (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) وتأويله : يا يوسف أعرض عن هذا . فيكون معنى الكلام حينئذ : ثم أنتم يا معشر يهود بنى إسرائيل بعد إقراركم بالميثاق الذى أخذته عليكم لاتسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم ، وبعد شهادتكم على أنفسكم بأن ذلك حق لى عليكم ، لازم لكم الوفاء لى به ، (تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ) متعاونين عليه فى إخراجكم إياهم بالإثم والعدوان ؛ والتعاون : هو التظاهر . وإنما قيل : التعاون التظاهر لتقوية بعضهم ظهر بعض ، فهو تفاعل من الظهر ، وهو مساندة بعضهم ظهره إلى ظهر بعض . والوجه الآخر أن يكون معناه : ثم أنتم قوم تقتلون أنفسكم ، فيرجع إلى الخبر عن أنتم ، وقد اعترض بينهم وبين الخبر عنهم بهؤلاء ، كما تقول العرب أنا ذا أقوم ، وأنا هذا أجلس . ولو قيل : أنا هذا أجلس كان صحيحا جائزا ، كذلك أنت ذاك تقوم .

وقد زعم بعض البصريين أن قوله هؤلاء فى قوله (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) تنبيه وتوكيد لأنتم ، وزعم

أنّ أنتم وإن كانت كناية أسماء جماع المخاطبين ، فإنما جاز أن يؤكدوا بهؤلاء وأولى ، لأنها كناية عن المخاطبين ، كما قال خُفاف بن ندبة :

أقُولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يأطِرُ مَتْنَهُ　　تَبَيَّنْ خُفافا أنّنِي أنا ذَلِكا

يريد أنا هذا ، وكما قال جل ثناؤه (حَتّى إذَا كُنْتُمْ فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ) .

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية نحو اختلافهم فيمن عنى بقوله (وأنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

ذكر اختلاف المختلفين فى ذلك :

حدثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال (ثُمَّ أنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإثْمِ والعُدْوانِ) إلى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم ، وتخرجوهم من ديارهم معهم ، فقال : أنبهم الله من فعلهم، وقد حرّم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم ، فكانوا فريقين طائفة منهم من بنى قَيْنُقاع حلفاء الخزرج والنضير وقريظة حلفاء الأوس ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج ، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وبأيديهم التوراة يعرفون منها ماعليهم وما لهم ، والأوس والخزرج أهل الشرك يعبدون الأوثان لايعرفون جنة ولا نارا ، ولا بعثا ، ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولا حراما ، ولا حلالا ؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم ، تصديقا لما فى التوراة وأخذا به بعضهم من بعض ، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس ، وتفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم ، ويطلّون ما أصابوا من الدماء ، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم ، مظاهرة لأهل الشرك عليهم ، يقول الله تعالى ذكره حين أنبأهم بذلك (أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) أى تفادونه بحكم التوراة وتقتلونه ؛ وفى حكم التوراة أن لايقتل ولا يخرج من ذلك ، ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ، ابتغاء عرض من عرض الدنيا ، ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ، فيما بلغنى نزلت هذه القصة .

وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنى عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ لاتَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ ولا تُخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أقْرَرْتُمْ وأنْتُمْ تَشْهَدُونَ) قال : إن الله أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة أن لايقتل بعضهم بعضا ، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه بما قدم يمينه فأعتقوه ، فكانت قريظة حلفاء الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فكانوا يقتتلون فى حرب سمير ، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءها ، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها فيغلبونهم ، فيخربون بيوتهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه ، فتعيرهم العرب بذلك ، ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا :

إنا أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم ، قالوا : فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تستذلّ حلفاؤنا ، فذلك حين عيرهم جل وعز فقال (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإثمِ والعُدْوانِ) .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : كانت قريظة والنضير أخوين ، وكانوا بهذه المثابة ، وكان الكتاب بأيديهم ، وكانت الأوس والخزرج أخوين فافترقا ، وافترقت قريظة والنضير ، فكانت النضير مع الخزرج ، وكانت قريظة مع الأوس ، فاقتتلوا ، وكان بعضهم يقتل بعضا ، فقال الله جلّ ثناؤه (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ) الآية .

وقال آخرون بما حدثني به المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية قال : كان فى بنى إسرائيل إذا استضعفوا قوما أخرجوهم من ديارهم ، وقد أخذ عليهم الميثاق أن لايسفكوا دماءهم ، ولايخرجوا أنفسهم من ديارهم . وأما العدوان فهو الفعلان من التعدى ، يقال منه : عدا فلان فى كذا عدوا وعدوانا ، واعتدى يعتدى اعتداء ، وذلك إذا جاوز حدّه ظلما وبغيا .

وقد اختلف القراء فى قراءة (تَظاهَرُونَ) فقرأها بعضهم : تظاهرون ، على مثال تفاعلون فحذف التاء الزائدة ،وهى التاء الآخرة ، وقرأها آخرون: تظاهرون ، فشدّد بتأويل تتظاهرون ، غير أنهم أدغموا التاء الثانية فى الظاء لتقارب مخرجيهما ، فصيروهما ظاء مشددة . وهاتان القراءتان وإن اختلفت ألفاظهما فإنهما متفقتا المعنى ، فسواء بأى ذلك قرأ القارئ لأنهما جميعا لغتان معروفتان وقراءتان مستفيضتان فى أمصار الإسلام بمعنى واحد ليس فى إحداهما معنى تستحق به اختيارها على الأخرى إلا أن يختار مختار تظاهرون المشددة طلبا منه تتمة الكلمة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارَى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارَى تُفادُوهُمْ) اليهود يوبخهم بذلك ، ويعرّفهم به قبيح أفعالهم التى كانوا يفعلونها ، فقال لهم : ثم أنتم بعد إقراركم بالميثاق الذى أخذته عليكم أن لا تسفكوا دماءكم ، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم (تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) يعنى به يقتل بعضكم بعضا ، وأنتم مع قتلكم من تقتلون منكم إذا وجدتم الأسير منكم فى أيدى غيركم من أعدائكم تفدوهم ويخرج بعضكم بعضا من دياره ، وقتلكم إياهم وإخراجكموهم من ديارهم حرام عليكم ، وتركهم أسرى فى أيدى عدوّكم ، فكيف تستجيزون قتلهم ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوّهم ، أم كيف لاتستجيزون ترك فدائهم ، وتستجيزون قتلهم وهم جميعا فى اللازم لكم من الحكم فيهم سواء ، لأن الذى حرّمت عليكم من قتلهم وإخراجهم من دورهم نظير الذى حرمت عليكم من تركهم أسرى فى أيدى عدوّهم (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ) الذى فرضت عليكم فيه فرائضى وبينت لكم فيه حدودى ، وأخذت عليكم بالعمل

بمافيه ميثاق فتصدّقون به ، فتفادون أسراكم من أيدى عدوّكم (وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) ، فتجحدونه فتقتلون من حرّمت عليكم قتله من أهل دينكم ومن قومكم ، وتخرجونهم من ديارهم ، وقد علمتم أن الكفر منكم ببعضه نقض منكم عهدى وميثاقى .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) فادين[1] والله إن فداءهم لإيمان ، وإن إخراجهم لكفر ، فكانوا يخرجونهم من ديارهم ، وإذا رأوهم أسارى فى أيدى عدوّهم افتكوهم .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عن عكرمة ، عن ابن عباس (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفْدُوهُمْ) قد علمتم أن ذلكم عليكم فى دينكم ، وهو محرّم عليكم فى كتابكم إخراجهم (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) أتفادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفرا بذلك ؟

حدثنى محمد بن عمرو ، قال ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفْدُوهُمْ) يقول : إن وجدته فى يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك ؟.

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، قال : قال أبو جعفر : كان قتادة يقول فى قوله (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) فكان إخراجهم كفرا وفداؤهم إيمانا .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) الآية ، قال : كان فى بنى إسرائيل إذا استضعفوا قوما أخرجوهم من ديارهم ، وقد أخذ عليهم الميثاق أن لايسفكوا دماءهم ، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ، وأخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم أن يفادوهم . فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم . فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، آمنوا بالفداء ففدوا ، وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، قال : ثنا الربيع بن أنس ، قال : أخبرنى أبو العالية أن عبد الله بن سلام مرّ على رأس الجالوت بالكوفة ، وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب ، ولا يفادى من وقع عليه العرب ، فقال له عبد الله بن سلام : أما إنه مكتوب عندك فى كتابك أن فادوهن كلهن .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) قال : كفرهم القتل والإخراج ، وإيمانهم الفداء . قال ابن جريج :

---

(١) قوله « أفتؤمنون ببعض الكتاب الخ » كذا فى الأصل ، ولعل وجه الكلام : أفتؤمنون ببعض الكتاب فادين ، وتكفرون ببعض مخرجين ، والله إن فداءهم الخ ، فحرر .

يقول : إذا كانوا عندكم تقتلونهم ، وتخرجونهم من ديارهم ، وأما إذا أسروا تفدوهم ؛ وبلغنى أن عمر بن الخطاب قال فى قصة بنى إسرائيل : إن بنى إسرائيل قد مضوا وإنكم أنتم تعنون بهذا الحديث .

واختلف القراء فى قراءة قوله (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارَى تَفْدُوهُمْ) فقرأه بعضهم : أسرى تفدوهم ، وبعضهم : أسارى تفادوهم ، وبعضهم : أسارى تفدوهم ، وبعضهم أسرى تفادوهم .

قال أبو جعفر : فمن قرأ ذلك : وإن يأتوكم أسرى ، فإنه أراد جمع الأسير ، إذ كان على فعيل على مثال جمع أسماء ذوى العاهات التى يأتى واحدها على تقدير فعيل ، إذ كان الأسر شبيه المعنى فى الأذى والمكروه الداخل على الأسير ببعض معانى العاهات ، وألحق جمع المستلحق به بجمع ماوصفنا ، فقيل أسير وأسرى ، كما قيل مريض ومرضى ، وكسير وكسرى ، وجريح وجرحى .

وقال أبو جعفر : وأما الذين قرءوا ذلك : أسارى ، فإنهم أخرجوه على مخرج جمع فَعلان ، إذ كان جمع فعلان الذى له فعلى قد يشارك جمع فعيل ، كما قالوا : سكارى وسكرى وكسالى وكسلى ، فشبهوا أسيرا وجمعوه مرة أسارى وأخرى أسرى بذلك ، وكان بعضهم يزعم أن معنى الأسرى مخالف معنى الأسارى ، ويزعم أن معنى الأسرى استئسار القوم بغير أسر من المستأسر لهم ، وأن معنى الأسارى معنى مصير القوم المأسورين فى أيدى الآسرين بأسرهم وأخذهم قهرا وغلبة .

قال أبو جعفر : وذلك مالاوجه له يفهم فى لغة أحد من العرب ، ولكن ذلك على ماوصفت من جمع الأسير مرة على فعلى ، لما بينت من العلة ، ومرة على فعالى لماذكرت من تشبيههم جمعه بجمع سكران وكسلان وما أشبه ذلك .

وأولى بالصواب فى ذلك قراءة من قرأ (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسْرَى) لأن فعالى فى جمع فعيل غير مستفيض فى كلام العرب ، فإذا كان ذلك غير مستفيض فى كلامهم ، وكان مستفيضا فاشيا فيهم جمع ما كان من الصفات التى بمعنى الآلام والزمانة ، وواحده على تقدير فعيل ، على فعلى ، كالذى وصفنا قبل ، وكان أحد ذلك الأسير ، كان الواجب أن يلحق بنظائره وأشكاله ، فيجمع جمعها دون غيرها ممن خالفها .

وأما من قرأ (تُفَادُوهُمْ) فإنه أراد أنكم تفدونهم من أسرهم ، ويفدى منكم الذين أسروهم ، ففادوكم بهم أسراكم منهم .

وأما من قرأ ذلك (تَفْدُوهُمْ) فإنه أراد أنكم يا معشر اليهود إن أتاكم الذين أخرجتموهم منكم من ديارهم أسرى فديتموهم فاستنقذتموهم ، وهذه القراءة أعجب إلىّ من الأولى ، أعنى : أسرى تفدوهم لأن الذى على اليهود فى دينهم فداء أسراهم بكل حال ، فدى الآسرون أسراهم منهم أم لم يفدوهم .

وأما قوله (وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) فإن فى قوله (وَهُوَ) وجهين من التأويل : أحدهما أن يكون كناية عن الإخراج الذى تقدم ذكره ، كأنه قال : وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، وإخراجهم محرّم عليكم ، ثم كرّر الإخراج الذى بعد وهو محرم عليكم تكريرا على هو ، لما حال بين الإخراج وهو كلام . والتأويل الثانى : أن يكون عمادا لما كانت الواو التى مع هو تقتضى اسما يليها دون

الفعل ، فلما قدم الفعل قبل الاسم الذى تقتضيه الواو أن يليها أوليت هو ، لأنه اسم ، كما تقول أتيتك وهو قائم أبوك ، بمعنى وأبوك قائم ، إذ كانت الواو تقتضى اسما ، فعمدت بهو ، إذ سبق الفعل الاسم ، ليصلح الكلام ، كما قال الشاعر :

فَأَبْلِغْ أَبَا يَحْيَى إِذَا مَا لَقِيتَهُ ... عَلَى العِيسِ فِى آبَاطِهَا عَرَقٌ يَبْسِ
بِأَنَّ السُّلَامِىَّ الَّذِى بِضُرَيَّةٍ ... أَمِيرَ الحِمَى قَدْ بَاعَ حَقِّى بَنِى عَبْسِ
بِثَوْبٍ وَدِينَارٍ وَشَاةٍ وَدِرْهَمٍ ... فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِمَا هَهُنَا رَأْسِ

فأوليت هل لطلبها الاسم العماد .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

يعنى بقوله جل ثناؤه (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ) فليس لمن قتل منكم قتيلا فكفر بقتله إياه ، بنقض عهد الله الذى حكم به عليه فى التوراة ، وأخرج منكم فريقا من ديارهم ، مظاهرا عليهم أعداءهم من أهل الشرك ظلما وعدوانا ، وخلافا لما أمره الله به فى كتابه الذى أنزله إلى موسى جزاء ، يعنى بالجزاء : الثواب ، وهو العوض مما فعل من ذلك والأجر عليه ، إلا خزى فى الحياة الدنيا . والخزى الذلّ والصغار ، يقال منه : خزى الرجل يخزى خزيا فى الحياة الدنيا ، يعنى فى عاجل الدنيا قبل الآخرة .

ثم اختلف فى الخزى الذى أخزاهم الله بما سلف من معصيتهم إياه .

فقال بعضهم : ذلك هو حكم الله الذى أنزله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، من أخذ القاتل بمن قتل والقود به قصاصا ، والانتقام للمظلوم من الظالم .

وقال آخرون : بل ذلك هو أخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم ، ذلة لهم وصغارا .

وقال آخرون : بل ذلك الخزى الذى جوزوا به فى الدنيا إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم النضير من ديارهم لأوّل الحشر ، وقتل مقاتلة قريظة وسبى ذراريهم ، فكان ذلك خزيا فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ) :

يعنى بقوله (وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ) ويوم تقوم الساعة يردّ من يفعل ذلك منكم بعد الخزى الذى يحلّ به فى الدنيا جزاء على معصية الله ، إلى أشد العذاب الذى أعدّ الله لأعدائه .

وقد قال بعضهم : معنى ذلك (وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ) من عذاب الدنيا ، ولا معنى لقول قائل ذلك بأن الله جل ثناؤه إنما أخبر أنهم يردّون إلى أشدّ معانى العذاب ، ولذلك أدخل فيه الألف واللام ، لأنه عنى به جنس العذاب كله ، دون نوع منه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

اختلف القراء فى قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) بالياء على وجه الإخبار

عنهم، فكأنهم نحوا بقراءتهم معنى (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) يعنى عما يعمله الذين أخبر الله عنهم أنه ليس لهم جزاء على فعلهم إلا الخزى فى الحياة الدنيا ، ومرجعهم فى الآخرة إلى أشدّ العذاب .

وقرأه آخرون (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) بالتاء على وجه المخاطبة . قال : فكأنهم نحوا بقراءتهم (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ) يا معشر اليهود (عَمَّا تَعْمَلُونَ) أنتم .

وأعجب القراءتين إلىّ قراءة من قرأ بالياء اتباعا لقوله (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ) ولقوله (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ) لأن قوله (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) إلى ذلك أقرب منه إلى قوله (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) فاتباعه الأقرب إليه أولى من إلحاقه بالأبعد منه .

والوجه الآخر غير بعيد من الصواب ، وتأويل قوله : وما الله بساه عن أعمالهم الخبيثة ، بل هو محص لها ، وحافظها عليهم ، حتى يجازيهم بها فى الآخرة ، ويخزيهم فى الدنيا ، فيذلهم ويفضحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

يعنى بقوله جل ثناؤه أولئك الذين أخبر عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ، فيفادون أسراهم من اليهود ، ويكفرون ببعض ، فيقتلون من حرّم الله عليهم قتله من أهل ملتهم ، ويخرجون من داره من حرّم الله عليهم إخراجه من داره ، نقضا لعهد الله وميثاقه فى التوراة إليهم . فأخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء ، وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم ، وابتاعوا المآكل الخسيسة الرديئة فيها ، بالإيمان الذى كان يكون لهم به فى الآخرة ـ لو كانوا أتوا به مكان الكفر ـ الخلود فى الجنان . وإنما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها ، عوضا من نعيم الآخرة الذى أعده الله للمؤمنين ، فجعل حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله ، ثمنا لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا .

كما حدثنا بزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ) : استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة .

قال أبو جعفر : ثم أخبر الله جل ثناؤه أنهم إذ باعوا حظوظهم من نعيم الآخرة ، بتركهم طاعته ، وإيثارهم الكفر به ، والخسيس من الدنيا عليه ، لاحظ لهم فى نعيم الآخرة ، وأنّ الذى لهم فى الآخرة العذاب غير مخفف عنهم فيها العذاب ، لأن الذى يخفف عنه فيها من العذاب ، هو الذى له حظ فى نعيمها ، ولا حظ لهؤلاء ، لاشترائهم الذى كان فى الدنيا ودنياهم بآخرتهم .

وأما قوله (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) فإنه أخبر عنهم أنه لاينصرهم فى الآخرة أحد ، فيدفع عنهم بنصرته عذاب الله ، لابقوته ولا بشفاعته ولا غيرهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾

يعنى بقوله جل ثناؤه (آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ) : أنزلناه إليه . وقد بينا أن معنى الإيتاء : الإعطاء فيما مضى قبل ، والكتاب الذى آتاه الله موسى عليه السلام هو التوراة .

وأما قوله (وقَفَّيْنا) فإنه يعنى وأردفنا ، وأتبعنا بعضهم خلف بعض ، كما يقفو الرجل الرجل إذا سار فى أثره من ورائه ، وأصله من القفا ، يقال منه : قفوت فلانا : إذا صرت خلف قفاه ، كما يقال دبرته : إذا صرت فى دبره . ويعنى بقوله (مِنْ بَعْدِهِ) : من بعد موسى . ويعنى (بالرُّسُلِ) : الأنبياء ، وهم جمع رسول . يقال : هو رسول وهم رسل ، كما يقال : هو صبور وهم قوم صبر ، وهو رجل شكور ، وهم قوم شكر .

وإنما يعنى جل ثناؤه بقوله (وقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ) أى أتبعنا بعضهم بعضا ، على منهاج واحد وشريعة واحدة ، لأن كل من بعثه الله نبيا بعد موسى صلى الله عليه وسلم إلى زمان عيسى بن مريم ، فإنما بعثه يأمر بنى إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها ، فلذلك قيل (وقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ) يعنى على منهاجه وشريعته ، والعمل بما كان يعمل به .

القول فى تأويل قوله تعالى (وآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ) :

يعنى بقوله (وآتَيْنا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ) أعطينا عيسى بن مريم . ويعنى (بالبينات التى آتاه الله إياها ما أظهر على يديه من الحجج والدلالة على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه ونحو ذلك من الآيات التى أبانت منزلته من الله ، ودلت على صدقه وصحة نبوته .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : ثنا محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (وآتَيْنا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ) أى الآيات التى وضع على يديه من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، والخبر بكثير من الغيوب ، مما يدخرون فى بيوتهم ، وما رد عليهم من التوراة مع الإنجيل الذى أحدث الله إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ) :

أما معنى قوله (وأيَّدْناهُ) فإنه قوّيناه فأعناه ، كما حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك (وأيَّدْناهُ) يقول : نصرناه ، يقال منه : أيدك الله : أى قوّاك ، وهو رجل ذو أيد وذو آد ، يراد : ذو قوة ، ومنه قول العجاج :

مِنْ أن تبدَّلْتُ بآدِيَ آدَا

يعنى بشبابى قوّة المشيب ، ومنه قول الآخر :

إنَّ القِداحَ إذا اجْتَمَعْنَ فرَامَها بالكسْرِ ذُو جَلَدٍ وَبَطْشٍ أيِّدِ

يعنى بالأيد : القوى .

ثم اختلف فى تأويل قوله (رُوحِ القُدُسِ) .

فقال بعضهم : روح القدس الذى أخبر الله تعالى ذكره أنه أيد عيسى به هو جبريل عليه السلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ) قال : هو جبريل .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى قوله (وأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ) قال : هو جبريل عليه السلام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله (وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ) قال : روح القدس : جبريل .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ) قال : أيَّد عيسى بجبريل وهو روح القدس .

وقال ابن حميد : حدثنا سلمة عن إسحق ، قال : حدثنى عبد الله بن عبدالرحمن بن أبى الحسين المكى ، عن شهر بن حوشب الأشعرى : «أن نفرا من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أخبرنا عن الروح؟ قال: أَنْشُدُكُمْ باللهِ وبأيّامِهِ عِنْدَ بَنِي إسْرائيلَ : هَلْ تَعْلَمُونَ أنَّهُ جِبْرِيلُ ، وَهُوَ يأتِينِى ؟ قالوا نعم » .

وقال آخرون : الروح الذى أيد الله به عيسى هو الإنجيل .

ذكر من قال ذلك .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ) قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحا ، كما جعل القرآن روحا ، كلاهما روح الله كما قال الله (وكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا) .

وقال آخرون : هو الاسم الذى كان عيسى يحيى به الموتى .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ) قال : هو الاسم الذى كان يحيى عيسى به الموتى .

وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قول من قال : الروح فى هذا الموضع جبريل ، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه أيد عيسى به ، كما أخبر فى قوله (إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) فلو كان الروح الذى أيده الله به هو الإنجيل لكان قوله : إذ أيدتك بروح القدس ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل تكرير قول لامعنى له . وذلك أنه على تأويل قول من قال : معنى (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) إنما هو إذ أيدتك بالإنجيل ، وإذ علمتك الإنجيل ، وهو لايكون به مؤيدا إلا وهو معلمه ، فذلك تكرير كلام واحد، من غير زيادة معنى فى أحدهما على الآخر ، وذلك خُلْفٌ من الكلام ، والله تعالى ذكره يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لايفيدهم به فائدة .

وإذا كان ذلك كذلك فبين فساد قول من زعم أن الروح فى هذا الموضع الإنجيل ، وإن كان جميع كتب الله التى أوحاها إلى رسله روحا منه لأنها تحيا بها القلوب الميتة ، وتنتعش بها النفوس المولية ، وتهتدى بها الأحلام الضالة . وإنما سمى الله تعالى جبريل روحا وأضافه إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له روحا من عنده من غير ولادة والد ولده ، فسماه بذلك روحا ، وأضافه إلى القدس ؛ والقدس : هو الطهر ، كما سمى عيسى بن مريم روحا لله ، من أجل تكوينه له روحا من عنده ، من غير ولادة والد ولده . وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا : أن معنى التقديس : التطهير ، والقدس : الطهر من ذلك .

وقد اختلف أهل التأويل فى معناه فى هذا الموضع نحو اختلافهم فى الموضع الذى ذكرناه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : القدس : البركة .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، قال : القدس : هو الربّ تعالى ذكره .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) قال : الله القدس ، وأيد عيسى بروحه ، قال : نعت الله القدس ، وقرأ قول الله جل ثناؤه (هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ) قال : القدس والقدّوس واحد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى عمرو بن الحرث ، عن سعيد بن أبى هلال ابن أسامة ، عن عطاء بن يسار ، قال : قال نعت [1] : الله : القدس .

القول فى تأويل قوله تعالى (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ) اليهود من بنى إسرائيل .

حدثنى بذلك محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد .

قال أبو جعفر : يقول الله جل ثناؤه لهم : يا معشر يهود بنى إسرائيل ، لقد آتينا موسى التوراة ،

(١) كذا فى م وهو الأقرب إلى الصواب ، ويؤيده الرواية التى قبلها عن يونس . وفى ب « كعب » فى موضع « نعت » . والظاهر أنه تحريف .

وتابعنا من بعده بالرسل إليكم ، وآتينا عيسى بن مريم البينات والحجج ، إذ بعثناه إليكم ، وقوّيناه بروح القدس ، وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلى بغير الذى تهواه نفوسكم ، استكبرتم عليهم تجبرا وبغيا استكبار إمامكم إبليس ، فكذبتم بعضا منهم ، وقتلتم بعضا ، فهذا فعلكم أبدا برسلى ، وقوله (أَفَكُلَّمَا) إن كان خرّج مخرج التقرير فى الخطاب فهو بمعنى الخبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك . فقرأه بعضهم (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) مخففة اللام ساكنة ، وهى قراءة عامة الأمصار فى جميع الأقطار . وقرأه بعضهم (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ) مثقلة اللام مضمومة . فأما الذين قرءوها بسكون اللام وتخفيفها ، فانهم تأوّلوها أنهم قالوا قلوبنا فى أكنة وأغطية وغلف ؛ والغلف على قراءة هؤلاء ، جمع أغلف : وهو الذى فى غلاف وغطاء ، كما يقال للرجل الذى لم يختتن : أغلف ، والمرأة غلفاء ، وكما يقال للسيف إذا كان فى غلافه : سيف أغلف ، وقوس غلفاء ، وجمعها غُلْف ، وكذلك جمع ما كان من النعوت ذكره على أفعل وأنثاه على فعلاء ، يجمع على فُعْل مضمومة الأول ساكنة الثانى ، مثل أحمر وحمر ، وأصفر وصفر ، فيكون ذلك جماعا للتأنيث والتذكير ، ولا يجوز تثقيل عين فُعْل منه إلا فى ضرورة شعر ، كما قال طرفة بن العبد :

أَيُّها الفِتْيانُ فِى مَجْلِسِنَا جَرِّدُوا مِنْها وِرادًا وَشُقُرْ

يريد : شُقْرا ، لأن الشعر اضطره إلى تحريك ثانيه فحركه .

ومنه الخبر الذى حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا الحكم بن بشير بن سلمان ، قال : ثنا عمرو بن قيس الملائى ، عن عمرو بن مرة الجملى ، عن أبى البخترى ، عن حذيفة قال : القلوب أربعة ، ثم ذكرها ، فقال فيما ذكر : وقلب أغلف : معصوب عليه ، فذلك قلب الكافر .

ذكر من قال ذلك ، يعنى أنها فى أغطية .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) أى فى أكنة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية بن صالح ، عن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) أى فى غطاء .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) فهى القلوب المطبوع عليها .

حدثنى عباس بن محمد ، قال : ثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج ، أخبرنى عبد الله بن كثير ، عن مجاهد قوله (وقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) عليها غشاوة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، قال : أخبرنى عبد الله بن كثير ، عن مجاهد (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) عليها غشاوة .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبوأحمد الزبيرى ، قال : ثنا شريك عن الأعمش قوله (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) قال : هى فى غلف .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) أى لاتفقه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) قال : هو كقوله (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحاق ، قال : ثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة فى قوله (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) قال : عليها طابع ، قال هو كقوله (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) أى لاتفقه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) قال : يقولون : عليها غلاف وهو الغطاء .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد فى قوله (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) قال : يقول قلبى فى غلاف ، فلا يخلص إليه مما تقول ، وقرأ (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) .

قال أبو جعفر : وأما الذين قرءوها (غُلُفٌ) بتحريك اللام وضمها ، فإنهم تأولوها أنهم قالوا : قلوبنا غلف للعلم ، بمعنى أنها أوعية ، قال : والغلف على تأويل هؤلاء جمع غِلاف ، كما يجمع الكتاب كتب ، والحجاب حجب ، والشهاب شهب .

فمعنى الكلام على تأويل قراءة من قرأ (غُلُفٌ) بتحريك اللام وضمها : وقالت اليهود قلوبنا غلُف للعلم ، وأوعية له ولغيره .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى عبيد بن أسباط بن محمد ، قال : ثنا أبى ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ) قال : أوعية للذكر .

حدثنى محمد بن عمارة الأسدى ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا فضيل ، عن عطية فى قوله (قُلُوبُنَا غُلُفٌ) قال : أوعية للعلم .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا فضيل ، عن عطية ، مثله .

حدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ) قال : مملوءة علما لاتحتاج إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولاغيره ،

والقراءة التى لايجوز غيرها فى قوله (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) هى قراءة من قرأ غلف بتسكين اللام، بمعنى أنها فى أغشية وأغطية، لاجماع الحجة من القراء وأهل التأويل على صحتها ، وشذوذ من شذّ عنهم بما خالفه من قراءة ذلك بضم اللام ، وقد دللنا على أن ماجاءت به الحجة متفقة عليه ، حجة على من بلغه ، وما جاء به المنفرد فغير جائز الاعتراض به على ما جاءت به الجماعة التى تقوم بها الحجة ، نقلا وقولا وعملا فى غير هذا الموضع ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا المكان .

القول فى تأويل قوله تعالى (بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ) : بل أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم، وجحودهم آيات الله وبيناته، وما ابتعث به رسله، وتكذيبهم أنبياءه ، فأخبر تعالى ذكره أنه أبعدهم منه ومن رحمته ، بما كانوا يفعلون من ذلك . وأصل اللعن : الطرد والإبعاد والإقصاء ، يقال : لعن الله فلانا يلعنه لعنا ، وهو ملعون ، ثم يصرّف مفعول ، فيقال هو لعين ، ومنه قول الشماخ بن ضرار :

ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا ونَفَيْتُ عَنْهُ مَكَانَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللَّعِينِ

قال أبو جعفر : فى قول الله تعالى ذكره (بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ) تكذيب منه للقائلين من اليهود (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) لأن قوله « بل » دلالة على جحده جل ذكره ، وإنكاره ما ادّعوا من ذلك ، إذ كانت « بل » لاتدخل فى الكلام إلا نقضا لمجحود .

فاذا كان ذلك كذلك ، فبين أن معنى الآية : وقالت اليهود قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه يا محمد ، فقال الله تعالى ذكره : ما ذلك كما زعموا ، ولكن الله أقصى اليهود ، وأبعدهم من رحمته ، وطردهم عنها ، وأخزاهم بجحودهم له ولرسله (فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ) .

فقال بعضهم : معناه : فقليل منهم من يؤمن ، أى لايؤمن منهم إلا قليل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِم فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ) فلعمرى لمن رجع من أهل الشرك أكثر ممن رجع من أهل الكتاب، إنما آمن من أهل الكتاب رهط يسير .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ) قال : لايؤمن منهم إلا قليل .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : فلا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة (فَقَلِيلاً مايُؤْمِنُونَ) قال : لايؤمن منهم إلا قليل . قال معمر وقال غيره : لايؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم .

وأولى التأويلات فى قوله (فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ) بالصواب ، مانحن متقنوه إن شاء الله ، وهو أن الله جل ثناؤه ، أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم فى هذه الآية ، ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان ، بما أنزل الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك نصب قوله (فَقَلِيلاً) لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره ؛ ومعناه : بل لعنهم الله بكفرهم فإيمانا قليلا ما يؤمنون . فقد تبين إذا بما بينا فساد القول الذى روى عن قتادة فى ذلك ، لأن معنى ذلك لو كان على ما روى من أنه يعنى به فلا يؤمن منهم إلا قليل ، أو فقليل منهم من يؤمن ، لكان القليل مرفوعا لامنصوبا ، لأنه إذا كان ذلك تأويله كان القليل حينئذ مرافعا ما وإن نصب القليل ، و « ما » فى معنى من ، أو الذى بقيت ما لامرافع لها . وذلك غير جائز فى لغة أحد من العرب .

فأما أهل العربية فإنهم اختلفوا فى معنى « ما » التى فى قوله (فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ) فقال بعضهم : هى زائدة لامعنى لها ، وإنما تأويل الكلام فقليلا يؤمنون ، كما قال جل ذكره (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) وما أشبه ذلك . فزعم أن « ما » فى ذلك زائدة ، وأن معنى الكلام : فبرحمة من الله لنت لهم ، وأنشد فى ذلك محتجا لقوله ذلك ببيت مهلهل :

لَوْ بِأَبَانَيْنِ جاءَ يَخْطُبُها		خُضِّبَ ما أَنْفُ خاطِبٍ بِدَمِ

وزعم أنه يعنى : خضب أنف خاطب بدم ، وأن « ما » زائدة .

وأنكر آخرون ما قاله قائل هذا القول فى « ما » فى الآية ، وفى البيت الذى أنشده ، وقالوا : إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء ، إذ كانت « ما » كلمة تجمع كل الأشياء ثم تخص وتعمّ ما عمته بما تذكره بعدها ، وهذا القول عندنا أولى بالصواب ، لأن زيادة « ما » لاتفيد من الكلام معنى فى الكلام غير جائز إضافته إلى الله جل ثناؤه ، ولعل قائلا أن يقول : هل كان للذين أخبر الله عنهم أنهم قليلا ما يؤمنون من الإيمان قليل أو كثير ، فيقال فيهم فقليلا ما يؤمنون ؟ قيل : إن معنى الإيمان : هو التصديق ، وقد كانت اليهود التى أخبر الله عنها هذا الخبر ، تصدّق بوحدانية الله وبالبعث والثواب والعقاب ، وتكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ونبوّته ، وكل ذلك كان فرضا عليهم الإيمان به ، لأنه فى كتبهم ، ومما جاءهم به موسى ، فصدّقوا ببعض هو ذلك القليل من إيمانهم ، وكذّبوا ببعض ، فذلك هو الكثير الذى أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به .

وقد قال بعضهم : إنهم كانوا غير مؤمنين بشىء ، وإنما قيل (فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ) وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : قلما رأيت مثل هذا قط ، وقد روى عنها سماعا منها : مررت ببلاد قلما

تنبت إلا الكراث والبصل ، يعنى : ما تنبت غير الكراث والبصل ، وما أشبه ذلك من الكلام الذى ينطق به بوصف الشيء بالقلة ، والمعنى فيه نفي جميعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) ولما جاء اليهود من بنى إسرائيل الذين وصف جل ثناؤه صفتهم (كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ) يعنى بالكتاب : القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم (مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) يعنى مصدق للذى معهم من الكتب التى أنزلها الله من قبل القرآن .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) وهو القرآن الذى أنزل على محمد مصدق لما معهم من التوراة والإنجيل.

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم من التوراة والإنجيل .

القول فى تأويل قوله تعالى (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا) أى وكان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التى أنزلها الله قبل الفرقان ، كفروا به ، يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى الاستفتاح : الاستنصار ، يستنصرون الله به على مشركى العرب من قبل مبعثه ، أى من قبل أن يبعث .

كما حدثنى ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، عن أشياخ منهم قالوا : فينا والله وفيهم ، يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم ، نزلت هذه القصة ، يعنى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا) قالوا : كنا قد علوناهم دهرا فى الجاهلية ، ونحن أهل الشرك ، وهم أهل الكتاب ، فكانوا يقولون : إن نبيا الآن مبعثه قد أظل زمانه ، يقتلكم قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، يقول الله (فَلَمَّا جَاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس : أن يهود كانوا

يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة : يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ماجاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قولهم (وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرِينَ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا يونس بن بكير ، قال : حدثنا ابن إسحق ، قال : حدثني محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت ، قال : حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عمي ، قال : حدثني أبي عن أبيه ، عن ابن عباس (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا) يقول : يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب ، يعني بذلك أهل الكتاب ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه .

وحدثنا محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبوعاصم ، قال : حدثني عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن عليّ الأزدي في قول الله (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا) قال: اليهود كانوا يقولون: اللهمّ ابعث لنا هذا النبيّ يحكم بيننا وبين الناس ، (يَسْتَفْتِحُونَ) يستنصرون به على الناس .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبوحذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن عليّ الأزدي ، وهو البارقي في قول الله جل ثناؤه (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ) فذكر مثله .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) كانت اليهود تستفتح بمحمد صلى الله عليه وسلم على كفار العرب من قبل ، وقالوا : اللهمّ ابعث هذا النبيّ الذي نجده في التوراة يعذّبهم ويقتلهم ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أنه بعث من غيرهم ، كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، قال : كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب ، يقولون : اللهمّ ابعث هذا النبيّ الذي نجده مكتوبا عندنا حتى يعذّب المشركين ويقتلهم ، فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الله (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرِينَ) .

حدثني موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدي (ولَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ

عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) قال : كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم ، وكانوا يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، ويسألون الله أن يبعثه فيقاتلوا معه العرب . فلما جاءهم محمد كفروا به حين لم يكن من بنى إسرائيل .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج . قال : قلت لعطاء قوله (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : كانوا يستفتحون على كفار العرب بخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويرجون أن يكون منهم ، فلما خرج ورأوه ليس منهم كفروا ، وقد عرفوا أنه الحقّ وأنه النبيّ ، قال (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرِينَ) .

قال : حدثنا ابن جريج ، وقال مجاهد : يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم تقول إنه يخرج (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا) وكان من غيرهم (كَفَرُوا بِهِ) .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج وقال ابن عباس : كانوا يستفتحون على كفار العرب .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنى الحمانى ، قال : حدثنى شريك ، عن أبى الحجاف ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير قوله (فلَمَّا جاءَهُمْ ماعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) قال : هم اليهود عرفوا محمدا أنه نبىّ ، وكفروا به .

حدثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَنْصِرُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : كانوا يستظهرون ، يقولون نحن نعين محمدا عليهم وليسوا كذلك يكذبون .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت ابن زيد عن قول الله عزّ وجل (وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) قال : كانت يهود يستفتحون على كفار العرب ، يقولون : أما والله لو قد جاء النبيّ الذى بشر به موسى وعيسى أحمد لكان لنا عليكم ، وكانوا يظنون أنه منهم والعرب حولهم ، وكانوا يستفتحون عليهم به ، ويستنصرون به (فلَمَّا جاءَهُمْ ماعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وحسدوه ، وقرأ قول الله جل ثناؤه (كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) قال : قد تبين لهم أنه رسول ، فمن هنالك نفع الله الأوس والخزرج بما كانوا يسمعون منهم أن نبيا خارج .

فإن قال لنا قائل : فأين جواب قوله (ولَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ) قيل : قد اختلف أهل العربية فى جوابه ، فقال بعضهم : هو مما ترك جوابه استغناء بمعرفة المخاطبين به بمعناه وبما قد ذكر من أمثاله فى سائر القرآن ، وقد تفعل العرب ذلك إذا طال الكلام فتأتى بأشياء لها أجوبة فتحذف

أجوبتها، لاستغناء سامعيها بمعرفتهم بمعناها عن ذكر الأجوبة ، كما قال جل ثناؤه (وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعاً) فترك جوابه . والمعنى : ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سيرت به الجبال لسيرت بهذا القرآن، استغناء بعلم السامعين بمعناه . قالوا فكذلك قوله (وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) .

وقال آخرون : جواب قوله (وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ) فى الفاء التى فى قوله (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وجواب الجزاءين فى كفروا به كقولك : لما قمت فلما جئتنا أحسنت ، بمعنى : لما جئتنا إذ قمت أحسنت .

القول فى تأويل قوله (فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرِينَ) .

قد دللنا فيما مضى على معنى اللعنة وعلى معنى الكفر ، بما فيه الكفاية ، فمعنى الآية فخزى الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عرفوا من الحقّ عليهم لله ولأنبيائه المنكرين ، لما قد ثبت عندهم صحته من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فى إخبار الله عزّ وجل عن اليهود بما أخبر الله عنهم بقوله (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) البيان الواضح أنهم تعمدوا الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد قيام الحجة بنبوّته عليهم، وقطع الله عذرهم بأنه رسوله إليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

ومعنى قوله جل ثناؤه (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) ساء ما اشتروا به أنفسهم . وأصل بئس بَئِس من البؤس، سكنت همزتها، ثم نقلت حركتها إلى الباء، كما قيل فى ظَلِلْتُ : ظِلْتُ، وكما قيل للكَبِد: كِبْد ، فنقلت حركة الباء إلى الكاف لما سكنت الباء ؛ وقد يحتمل أن تكون بئس وإن كان أصلها بئس من لغة الذين ينقلون حركة العين من فعل إلى الفاء إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستة ، كما قالوا من لَعِبَ لِعْبَ ، ومن سَئِمَ سِئْمَ ، وذلك فيما يقال لغة فاشية فى تميم ، ثم جعلت دالة على الذمّ والتوبيخ ووصلت بما .

واختلف أهل العربية فى معنى « ما » التى مع بئسما ، فقال بعض نحويى البصرة : هى وحدها اسم ، وأن يكفروا تفسير له نحو : نعم رجلا زيد ، وأن ينزل الله بدل من أنزل الله .

وقال بعض نحويى الكوفة : معنى ذلك : بئس الشىء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ، فما اسم بئس ، وأن يكفروا الاسم الثانى، وزعم أنّ «أن ينزل الله من فضله» إن شئت جعلت أن فى موضع رفع ، وإن شئت

فى موضع خفض : أما الرفع : فبئس الشىء هذا أن يفعلوه ؛ وأما الخفض : فبئس الشىء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا . قال : وقوله (لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ) كمثل ذلك ، والعرب تجعل « ما » وحدها فى هذا الباب بمنزلة الاسم التام كقوله : فنعما هى ، وبئسما أنت ، واستشهد لقوله ذلك برجز بعض الرجاز :

لاتَعْجَلا فِى السَّيْرِ وَادْلُوَاها لَبِئْسَما بُطْءٌ وَلا نَرْعاها

قال أبو جعفر : والعرب تقول : لبئسما تزويج ولا مهر ، فيجعلون « ما » وحدها اسما بغير صلة . وقائل هذه المقالة لايجيز أن يكون الذى يلى بئس معرفة موقتة وخبره معرفة موقتة . وقد زعم أن بئسما بمنزلة بئس الشىء اشتروا به أنفسهم، فقد صارت ما بصلتها اسما موقتا ، لأن اشتروا فعل ماض من صلة مافى قول قائل هذه المقالة ، وإذا وصلت بماض من الفعل كانت معرفة موقتة معلومة ، فيصير تأويل الكلام حينئذ: بئس شراؤهم كفرهم ، وذلك عنده غير جائز ، فقد تبين فساد هذا القول . وكان آخر منهم يزعم أن « أن » فى موضع خفض إن شئت ، ورفع إن شئت . فأما الخفض فأن تردّه على الهاء التى فى به على التكرير على كلامين ، كأنك قلت : اشتروا أنفسهم بالكفر . وأما الرفع فأن يكون مكررا على موضع « ما » التى تلى بئس . قال : ولا يجوز أن يكون رفعا على قولك : بئس الرجل عبد الله .

وقال بعضهم : بئسما شىء واحد يعرف ما بعده ، كما حكى عن العرب بئسما تزويج ولا مهر ، فرفع تزويج بئسما ، كما يقال بئسما زيد ، وبئسما عمرو ، فيكون بئسما رفعا بما عاد عليها من الهاء ، كأنك قلت : بئس شىء الشىء اشتروا به أنفسهم ، وتكون أن مترجمة عن بئسما .

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من جعل بئسما مرفوعا بالراجع من الهاء فى قوله (اشْتَرَوْا بِهِ) كما رفعوا ذلك بعبد الله ، إذ قالوا : بئسما عبد الله ، وجعل أن يكفروا مترجمة عن بئسما ، فيكون معنى الكلام حينئذ بئس الشىء باع اليهود به أنفسهم كفرهم بما أنزل الله بغيا وحسدا أن ينزل الله من فضله ، وتكون أن التى فى قوله : أن ينزل الله فى موضع نصب ، لأنه يعنى به أن يكفروا بما أنزل الله من أجل أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وموضع أن جر [1] . وكان بعض أهل العربية من الكوفيين يزعم أن « أن » فى موضع خفض بنية الباء ، وإنما اخترنا فيها النصب لتمام الخبر قبلها ، ولا خافض معها يخفضها ، والحرف الخافض لايخفض مضمرا ، وأما قوله (اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) فإنه يعنى به باعوا أنفسهم.

كما حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى(بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) يقول : باعوا أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال مجاهد (بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) يهود شَرَوُا الحقَّ بالباطل وكتمان ما جاء به محمد صلى الله عليه

(١) قوله : « وموضع جر » الظاهر أن أصله أو موضوع جر ، لأن المفعول لأجله قد يكون منصوبا ، وقد يكون مجرورا باللام ، فإذا كان مصدرا مؤولا بأن جاز اعتباره منصوبا أو مجرورا ويؤيد هذا ما أورده العكبرى فى إعراب الآية ، قال : أى بغوا لأن أنزل الله .

وسلم بأن يبنوه ، والعرب تقول : شريته بمعنى بعته ، واشتروا فى هذا الموضع افتعلوا من شريت ، وكلام العرب فيما بلغنا أن يقولوا : شريت بمعنى بعت ، واشتريت بمعنى ابتعت . وقيل إنما سمى الشارى[1] شاريا لأنه باع نفسه ودنياه بآخرته ، ومن ذلك قول يزيد بن مفرغ الحميرى :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِى ... مِنْ قَبْلِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ

ومنه قول المسيَّب بن علَس :

يُعْطَى بِهَا ثَمَناً فَيَمْنَعُهَا ... وَيَقُولُ صَاحِبُهَا أَلا تَشْرِى

يعنى به : بعت بردا ، وربما استعمل اشتريت بمعنى بعت ، وشريت فى معنى ابتعت ، والكلام المستفيض فيهم هو ما وصفت .

وأما معنى قوله (بَغْياً) فإنه يعنى به : تعدّيا وحسدا .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد عن قتادة (بَغْياً) قال أى حسدا ، وهم اليهود .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (بَغْياً) قال بغوا على محمد صلى الله عليه وسلم وحسدوه ، وقالوا : إنما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فما بال هذا من بنى إسمعيل ، فحسدوه أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبوجعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (بَغْياً) يعنى حسدا (أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وهم اليهود كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

قال أبو جعفر : فمعنى الآية : بئس الشىء باعوا به أنفسهم الكفر بالذى أنزل الله فى كتابه على موسى ، من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمر بتصديقه واتباعه ، من أجل أن أنزل الله من فضله ، وفضله حكمته وآياته ونبوّته (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يعنى به على محمد صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، من أجل أنه كان من ولد إسمعيل ، ولم يكن من بنى إسرائيل .

فإن قال قائل : وكيف باعت اليهود أنفسها بالكفر؟ فقيل (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) وهل يشترى بالكفر شىء ؟ قيل : إن معنى الشراء والبيع عند العرب : هو إزالة مالك ملكه إلى غيره بعوض يعتاضه منه ، ثم تستعمل العرب ذلك فى كل معتاض من عمله عوضا شرا أو خيرا ، فتقول : نعم ماباع به فلان نفسه ، وبئس ماباع به فلان نفسه ، بمعنى نعم الكسب أكسبها ، وبئس الكسب أكسبها إذا أورثها بسعيه عليها خيرا أو شرّا ، فكذلك معنى قوله جل ثناؤه (بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأهلكوها ، خاطبهم الله والعرب بالذى يعرفونه فى كلامهم ، فقال : بئس ما اشتروا به أنفسهم ، يعنى بذلك : بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم ، وبئس العوض ، اعتاضوا من كفرهم بالله فى تكذيبهم محمدا ، إذ كانوا قد رضُوا عوضا من ثواب الله وما أعدّ لهم لو كانوا

(١) الشارى هنا : أحد الشراة ، وهم الخوارج .

آمنوا بالله ، وما أنزل على أنبيائه بالنار ، وما أعدّ لهم بكفرهم بذلك . وهذه الآية وما أخبر الله فيها عن حسد اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم وقومه من العرب ، من أجل أن الله جعل النبوّة والحكمة فيهم دون اليهود من بنى إسرائيل ، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به مع علمهم بصدقه ، وأنه لله نبىّ مبعوث ورسول مرسل، نظيرة الآية الأخرى فى سورة النساء، وذلك قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ فَإِذًا لايُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً) .

القول فى تأويل قوله (أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

قد ذكرنا تأويل ذلك ، وبيّنا معناه ، ولكنا نذكر الرواية بتصحيح ما قلنا فيه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، عن أشياخ منهم قوله (بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) أى أن الله تعالى جعله فى غيرهم .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : هم اليهود ، ولما بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أنه بعث من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، مثله .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : قالوا : إنما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فما بال هذا من بنى إسمعيل ؟

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن علىّ الأزدى قال : نزلت فى اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ)

يعنى بقوله (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) فرجعت اليهود من بنى إسرائيل بعد الذى كانوا عليه من الاستنصار بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والاستفتاح به ، وبعد الذى كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبىّ مبعوث ، مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله نبيا مرسلا (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ) من الله استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بعث ، وجحودهم نبوّته ، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذى يجدون صفته فى كتابهم ، عنادا منهم له ، وبغيا وحسدا له وللعرب (عَلَى غَضَبٍ) سالف كان من الله عليهم قبل ذلك، سابق غضبه الثانى لكفرهم الذى

كان قبل ذلك بعيسى بن مريم ، أو لعبادتهم العجل ، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت ، يستحقون بها الغضب من الله .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، فيما أروى عن سعيد بن جبير أوعكرمة عن ابن عباس (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ علىغَضَبٍ)، فالغضب على الغضب غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبىّ الذى أحدث الله إليهم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد وعبد الرحمن ، قالا : ثنا سفيان عن أبى بكير ، عن عكرمة: (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) قال : كفر بعيسى وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يحيى بن يمان ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى بكير ، عن عكرمة (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) قال : كفرهم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن أبى بكير ، عن عكرمة مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الشعبىّ ، قال : الناس يوم القيامة على أربعة منازل : رجل كان مؤمنا بعيسى وآمن بمحمد صلى الله عليهما ، فله أجران ، ورجل كان كافرا بعيسى فآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فله أجر ، ورجل كان كافرا بعيسى فكفر بمحمد ، فباء بغضب على غضب ، ورجل كان كافرا بعيسى من مشركى العرب ، فمات بكفره قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فباء بغضب .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وبعيسى ، وغضب عليهم بكفرهم بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنى المثنى قال : ثنا أبوحذيفة ، قال: ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ): اليهود بما كان من تبديلهم التوراة قبل خروج النبىّ صلى الله عليه وسلم (عَلَى غَضَبٍ) جحودهم النبىّ صلى الله عليه وسلم وكفرهم بما جاء به .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) يقول : غَضَبَ الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضبه عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

حدثنى موسى ، قال: ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) : أما الغضب الأول ، فهو حين غضب الله عليهم فى العِجل ، وأما الغضب الثانى ، فغضب عليهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج وعطاء وعبيد بن عمير قوله (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ) قال : غضب الله عليهم فيما كانوا فيه من قبل خروج النبىّ صلى الله عليه

وسلم من تبديلهم وكفرهم ، ثم غضب عليهم فى محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ خرج فكفروا به .

قال أبو جعفر : وقد بينا معنى الغضب من الله على من غضب عليه من خلقه ، واختلاف المختلفين فى صفته ، فيما مضى من كتابنا هذا ، بما أغنى عن إعادته ، والله تعالى أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) .

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) وللجاحدين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم عذاب من الله إما فى الآخرة ، وإما فى الدنيا والآخرة ، مهين : هو المذل صاحبه ، المخزى الملبسه هوانا وذلة .

فإن قال قائل : أى عذاب هو غير مهين صاحبه ، فيكون للكافرين المهين منه ؟ قيل : إن المهين هو الذى قد بينا أنه المورث صاحبه ذلة وهوانا ، الذى يخلد فيه صاحبه ، لا ينتقل من هوانه إلى عز وكرامة أبدا ، وهو الذى خص الله به أهل الكفر به وبرسله ؛ وأما الذى هو غير مهين صاحبه : فهو ما كان تمحيصا لصاحبه ، وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام ، يسرق ما يجب عليه به القطع ، فتقطع يده ، والزانى منهم يزنى ، فيقام عليه الحد ، وما أشبه ذلك من العذاب والنكال ، الذى جعله الله كفارات للذنوب التى عذب بها أهلها ، وكأهل الكبائر من أهل الإسلام الذين يعذبون فى الآخرة بمقادير أجرامهم التى ارتكبوها ، ليمحصوا من ذنوبهم ، ثم يدخلون الجنة ، فإن كل ذلك وإن كان عذابا فغير مهين من عذب به ، إذ كان تعذيب الله إياه به ليمحصه من آثامه ، ثم يورده معدن العز والكرامة ويخلده فى نعيم الجنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) وإذا قيل لليهود من بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم (آمِنُوا) أى صدقوا (بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) يعنى بما أنزل الله من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . (قَالُوا نُؤْمِنُ) أى نصدق (بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) يعنى بالتوراة التى أنزلها الله على موسى .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) .

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) ويجحدون بما وراءه ، يعنى بما وراء التوراة .

قال أبو جعفر : وتأويل وراءه فى هذا الموضع : سوى ، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن : ما وراء هذا الكلام شىء ، يراد به ليس عند المتكلم به شىء سوى ذلك الكلام ، فكذلك معنى قوله (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) أى بما سوى التوراة ، وبما بعده من كتب الله التى أنزلها إلى رسله .

كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) يقول : بما بعده .

حدثني المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) أى بما بعده ، يعنى بما بعد التوراة .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) يقول : بما بعده .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً) أى ما وراء الكتاب الذى أنزل عليهم، من الكتب التى أنزلها الله إلى أنبيائه الحق ، وإنما يعنى بذلك تعالى ذكره القرآن الذى أنزله إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

كما حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) وهو القرآن ، يقول الله جل ثناؤه (وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ) وإنما قال جل ثناؤه (مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ) لأن كتب الله يصدِّق بعضها بعضا ، ففى الإنجيل والقرآن من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، والإيمان به ، وبما جاء به ، مثل الذى من ذلك فى توراة موسى عليه السلام ، فلذلك قال جل ثناؤه لليهود إذ أخبرهم عما وراء كتابهم الذى أنزله على موسى صلوات الله عليه من الكتب التى أنزلها إلى أنبيائه (إِنَّهُ الْحَقُّ مُصَدِّقاً) للكتاب الذى معهم ، يعنى أنه له موافق فيما اليهود به مكذّبون .

قال : وذلك خبر من الله أنهم من التكذيب بالتوراة على مثل الذى هم عليه من التكذيب بالإنجيل والفرقان ، عنادا لله ، وخلافا لأمره ، وبغيا على رسله صلوات الله عليهم .

القول فى تأويل قوله (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

يعنى جل ذكره بقوله (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ) قل يا محمد ليهود بنى إسرائيل الذين إذا قلت لهم (آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) لم تقتلون إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم (أَنْبِيَاءَهُ) وقد حرّم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم ، وذلك من الله جل ثناؤه تكذيب لهم فى قولهم (نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) ، وتعيير لهم .

كما حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : قال الله تعالى ذكره وهو يعيرهم ، يعنى اليهود (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

فإن قال قائل : وكيف قيل لهم (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ) فابتدأ الخبر على لفظ المستقبل ، ثم أخبر أنه قد مضى ؟ قيل : إن أهل العربية مختلفون فى تأويل ذلك ؛ فقال بعض البصريين :

معنى ذلك : فلم قتلتم أنبياء الله من قبل ، كما قال جل ثناؤه (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشَّيَاطِين) أى ما تلت ، وكما قال الشاعر :

ولقَدْ أمُرّ على اللئيمِ يَسُبُّنِي فمَضَيْتُ عنهُ وقُلْتُ لايَعْنِينِي

يريد بقوله : ولقد أمرّ ، ولقد مررت ، واستدلّ على أن ذلك كذلك بقوله : فمضيت عنه ، ولم يقل : فأمضي عنه ، وزعم أن فعل ويفعل قد تشترك معنى واحد ، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

وإنى لآتيكُمْ بشُكرِىَ ما مَضَى مِنَ الأمرِ واستِيجابِ ما كانَ فى غَدِ

يعنى بذلك ما يكون فى غد ، وبقول الحطيئة :

شَهِدَ الحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أنَّ الوَلِيدَ أحَقُّ بالعُذْرِ

يعنى يشهد ، وكما قال الآخر :

فَمَا أضْحَى وَلا أمْسَيْتُ إلاَّ أرَانِي مِنكُمُ فى كَوّفانِ

فقال أضحى ، ثم قال : ولا أمسيت .

وقال بعض نحويى الكوفيين : إنما قيل (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ) فخاطبهم بالمستقبل من الفعل ، ومعناه الماضى ، كما يعنف الرجل الرجل على ماسلف منه من فعل ، فيقول له : ويحك لم تكذب ولم تبغض نفسك إلى الناس ، كما قال الشاعر :

إذَا ما انْتَسَبْنا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ وَلَمْ تَجِدِى مِنْ أنْ تُقِرّى بِهِ بُدّا

فالجزاء للمستقبل ، والولادة كلها قد مضت ، وذلك أن المعنى معروف ، فجاز ذلك .

قال : ومثله فى الكلام إذا نظرت فى سيرة عمر لم تجده يسىء ، المعنى : لم تجده أساء ، فلما كان أمر عمر لايُشكّ فى مضيه ، لم يقع فى الوهم أنه مستقبل . فلذلك صلحت من قبل مع قوله (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ) .

قال : وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة ، إنما قتل الأنبياء أسلافهم الذين مضوا ، فتولوهم على ذلك ورضوا ، فنسب القتل إليهم .

والصواب فيه من القول عندنا أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل ، بما خاطبهم فى سورة البقرة وغيرها من سائر السور ، بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم ، وبما سلف من كفران أسلافهم نعمه ، وارتكابهم معاصيه ، واجترائهم عليه ، وعلى أنبيائه ، وأضاف ذلك إلى المخاطبين به ، نظير قول العرب بعضها لبعض : فعلنا بكم يوم كذا كذا وكذا ، وفعلتم بنا يوم كذا كذا وكذا ، على نحو ما قد بيناه فى غير موضع من كتابنا هذا ، يعنون بذلك أن أسلافنا فعلوا ذلك بأسلافكم ، وأن أوائلنا فعلوا ذلك بأوائلكم ، فكذلك ذلك فى قوله (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ) ، وإن كان قد خرج على لفظ الخبر عن المخاطبين به ، خبرا من الله تعالى ذكره عن فعل السالفين منهم ، على نحو الذى بينا ، جاز أن يقال من قبل ، إذ كان معناه : قل فلم يقتل أسلافكم أنبياء الله من قبل ، وكان معلوما بأن قوله

(فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ) إنما هو خبر عن فعل سلفهم ، وتأويل قوله (مِنْ قَبْلُ) أى من قبل اليوم .

وأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فإنه يعنى إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم كما زعمتم ، وإنما عنى بذلك اليهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلافهم ، إن كانوا وكنتم كما تزعمون أيها اليهود مؤمنين ، وإنما عيرهم جل ثناؤه بقتل أوائلهم أنبياءه عند قولهم حين قيل لهم (آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) لأنهم كانوا لأوائلهم الذين تولوا قتل أنبياء الله مع قيلهم (نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) متولين ، وبفعلهم راضين ، فقال لهم : إن كنتم كما تزعمون مؤمنين بما أنزل عليكم ، فلم تتولون قتلة أنبياء الله ، أى وترضون أفعالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ) أى جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وحقية نبوته ، كالعصا التى تحولت ثعبانا مبينا ، ويده التى أخرجها بيضاء للناظرين ، وفلق البحر ، ومصير أرضه له طريقا يبسا ، والجراد والقُمَّل والضفادع ، وسائر الآيات التى بينت صدقه وحقية نبوته ، وإنما سماها الله بينات ، لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة ، لا يقدر على أن يأتى بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له ، وإنما هى جمع بينة ، مثل طيبة وطيبات .

قال أبو جعفر : ومعنى الكلام : ولقد جاءكم يا معشر يهود بنى إسرائيل موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وحقية نبوته ، وقوله (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) يقول جل ثناؤه لهم : ثم اتخذتم العجل من بعد موسى إلها ، فالهاء التى فى قوله من بعده من ذكر موسى ، وإنما قال من بعد موسى ، لأنهم اتخذوا العجل من بعد أن فارقهم موسى ماضيا إلى ربه لموعده ، على ما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا ، وقد يجوز أن تكون الهاء التى فى بعده إلى ذكر المجىء ، فيكون تأويل الكلام حينئذ : ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعد مجىء البينات وأنتم ظالمون ، كما تقول : جئتنى فكرهته ، يعنى كرهت مجيئك .

وأما قوله (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) فإنه يعنى بذلك أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل ، وليس ذلك لكم ، وعبدتم غير الذى كان ينبغى لكم أن تعبدوه ، لأن العبادة لا تنبغى لغير الله ، وهذا توبيخ من الله لليهود ، وتعيير منه لهم ، وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا من اتخاذ العجل إلها ، وهو لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، بعد الذى علموا أن ربهم هو الربّ الذى يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ، ما أجراه على يدى موسى صلوات الله عليه ، من الأمور التى لا يقدر عليها أحد من خلق الله ، ولم يقدر عليها فرعون وجنده ، مع بطشه وكثرة أتباعه ، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حكم الله ، فهم إلى تكذيب محمد صلى الله

عليه وسلم وجحود ما فى كتبهم التى زعموا أنهم بها مؤمنون من صفته ونعته مع بعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدة أسرع . وإلى التكذيب بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) واذكروا إذ أخذنا عهودكم بأن خذوا ما آتيناكم من التوراة التى أنزلتها إليكم، أن تعملوا بما فيها من أمرى، وتنتهوا عما نهيتكم فيها، بجد منكم فى ذلك ونشاط، فأعطيتم على العمل بذلك ميثاقكم، إذ رفعنا فوقكم الجبل. وأما قوله (وَاسْمَعُوا) فإن معناه: واسمعوا ما أمرتكم به، وتقبلوه بالطاعة، كقول الرجل للرجل يأمره بالأمر: سمعت وأطعت، يعنى بذلك: سمعت قولك. وأطعت أمرك، كما قال الراجز:

السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّسْلِيمْ   خَيْرٌ وَأَعْفَى لِبَنِي تَمِيمْ

يعنى بقوله السمع: قبول ما يسمع، والطاعة لما يؤمر. فكذلك معنى قوله (وَاسْمَعُوا) اقبلوا ما سمعتم، واعملوا به.

قال أبو جعفر: فمعنى الآية: وإذ أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتيناكم بقوة، واعملوا بما سمعتم، وأطيعوا الله، ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك.

وأما قوله (قَالُوا سَمِعْنَا) فإن الكلام خرج مخرج الخبر عن الغائب، بعد أن كان الابتداء بالخطاب، فإن ذلك مما وصفنا من أن ابتداء الكلام إذا كان حكاية، فالعرب تخاطب فيه، ثم تعود فيه إلى الخبر عن الغائب، وتخبر عن الغائب، ثم تخاطب، كما بينا ذلك فيما مضى قبل. فكذلك ذلك فى هذه الآية، لأن قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) بمعنى قلنا لكم فأجبتمونا. وأما قوله (قَالُوا سَمِعْنَا) فإنه خبر من الله عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما فى التوراة، وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها، أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

القول فى تأويل قوله تعالى (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك، فقال بعضهم: وأشربوا فى قلوبهم حبَّ العجل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: ثنا معمر، عن قتادة (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) قال: أشربوا حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم.

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ) قال : أشربوا حبّ العجل بكفرهم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر عن أبيه ، عن الربيع (وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ) قال : أشربوا حبّ العجل فى قلوبهم .

وقال آخرون : معنى ذلك أنهم سُقُوا الماء الذى ذرّى فيه سُحالة العجل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : لما رجع موسى إلى قومه أخذ العجل الذى وجدهم عاكفين عليه فذبحه ، ثم حرّقه بالمبرد ، ثم ذراه فى اليمّ ، فلم يبق بحر يومئذ يجرى إلا وقع فيه شىء منه ، ثم قال لهم موسى : اشربوا منه فشربوا ، فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب ، فذلك حين يقول الله عزّ وجل (وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، قال : لما سُحِل فألقى فى اليمّ استقبلوا جرية الماء ، فشربوا حتى ملئوا بطونهم ، فأورث ذلك من فعله منهم جبنا .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين اللذين ذكرت بقول الله جل ثناؤه (وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ) تأويل من قال : وأشربوا فى قلوبهم حبّ العجل ، لأن الماء لايقال منه : أشرب فلان فى قلبه ، وإنما يقال ذلك فى حبّ الشىء ، فيقال منه : أشرب قلب فلان حبّ كذا ، بمعنى سُقى ذلك حتى غلب عليه وخالط قلبه ، كما قال زهير :

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ داخِلٍ	والحب يُشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَاءُ

قال : ولكنه ترك ذكر الحبّ اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام ، إذ كان معلوما أن العجل لايشرب القلب ، وأن الذى يشرب القلب منه حبه ، كما قال جل ثناؤه (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ ـ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا) وكما قال الشاعر :

أَلا إِنَّنِى سُقِيتُ أَسْوَدَ حالِكاً	أَلا بَجَلِى مِنَ الشَّرابِ أَلا بَجَلْ

يعنى بذلك سم أسود ، فاكتفى بذكر أسود ، عن ذكر السم ، لمعرفة السامع معنى ما أراد بقوله : سقيت أسود ، ويروى :	أَلا إِنَّنِى سُقِيتُ أَسْوَدَ سالِخاً

وقد تقول العرب : إذا سرّك أن تنظر إلى السخاء فانظر إلى هرم أو إلى حاتم ، فتجتزئ بذكر الاسم من ذكر فعله ، إذا كان معروفا بشجاعة أو سخاء أو ما أشبه ذلك من الصفات ، ومنه قول الشاعر :

يَقُولُونَ جاهِدْ يا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ	وَإِنَّ جِهاداً طَيِّئٌ وَقِتالُهَا

القول فى تأويل قوله تعالى (قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

يعنى بذلك جل ثناؤه : قل يا محمد ليهود بنى إسرائيل : بئس الشىء يأمركم به إيمانكم إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورسله ، والتكذيب بكتبه ، وجحود ما جاء من عنده ؛ ومعنى إيمانهم تصديقهم الذى

زعموا أنهم به مصدّقون من كتاب الله ، إذ قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، فقالوا : نؤمن بما أنزل علينا .

وقوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم ، وإنما كذّبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله ، وتأمر بخلافه . فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك ، فبئس الأمر تأمر به . وإنما ذلك نفى من الله تعالى ذكره عن التوراة أن تكون تأمر بشىء مما يكرهه الله من أفعالهم ، وأن يكون التصديق بها ، يدلّ على شىء من مخالفة أمر الله ، وإعلام منه جل ثناؤه أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم ، والذى يحملهم عليه البغى والعدوان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)

قال أبو جعفر : وهذه الآية مما احتجّ الله بها لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، على اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم ، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف ، كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى ، إذ خالفره فى عيسى صلوات الله عليه ، وجادلوا فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، وقال لفريق اليهود : إن كنتم محقين فتمنوا الموت ، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله ، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم ، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها ، والفوز بجوار الله فى جنانه إن كان الأمر كما تزعمون ، من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا ، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ، ونحن المحقون فى دعوانا . وانكشف أمرنا وأمركم لهم ، فامتنعت اليهود من إجابة النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت ، فذهبت دنياها ، وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها ، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فى عيسى ، إذ دعوا إلى المباهلة من المباهلة ، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم لَرَجَعُوا لا يَجِدُونَ أَهْلاً وَلا مالاً » .

حدثنا بذلك أبو كريب ، قال : حدثنا أبو زكريا بن عدىّ ، قال : حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثام بن علىّ ، عن الأعمش ، عن ابن عباس فى قوله « فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قال لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ،

عن عكرمة فى قوله (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قال : قال ابن عباس : لو تمنى اليهود الموت لماتوا .

حدثنى موسى ، قال : أخبرنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن ابن عباس ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، قال أبو جعفر فيما أروى : أنبأنا عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : لو تمنوه يوم قال لهم ذلك مابقى على ظهر الأرض يهودىّ إلا مات .

قال أبو جعفر : فانكشف لمن كان مشكلا عليه أمر اليهود يومئذ كذبهم وبهتهم وبغيهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهرت حجة رسول الله وحجة أصحابه عليهم ، ولم تزل والحمدلله ظاهرة عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (تَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) لأنهم فيما ذكر لنا (قَالُوا نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ـ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) فقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهم إن كنتم صادقين فيما تزعمون فتمنوا الموت ، فأبان الله كذبهم بامتناعهم ، من تمنى ذلك ، وأفلج حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو اليهود أن يتمنوا الموت ، وعلى أىّ وجه أمروا أن يتمنوه .

فقال بعضهم : أمروا أن يتمنوه على وجه الدعاء على الفريق الكاذب منهما .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب .

وقال آخرون بما حدثنى بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ) وذلك أنهم (قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) وقالوا (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) فقيل لهم (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : قالت اليهود (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) وقالوا (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) فقال الله (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ، فلم يفعلوا .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنى أبو جعفر ، عن الربيع ، قوله (قُلْ إِنْ كَانَتْ

لكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خالِصَةً) الآية ، وذلك بأنهم (قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نَصارَى) وقالوا (نَحْنُ أبْناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُهُ) .

وأما تأويل قوله (قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خالِصَةً) فإنه يقول : قل يامحمد إن كان نعيم الدار الآخرة ولذاتها لكم يا معشر اليهود عند الله، فاكتفى بذكر الدار من ذكر نعيمها، لمعرفة المخاطبين بالآية معناها . وقد بينا معنى الدار الآخرة فيما مضى بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وأما تأويل قوله (خالِصَةً) فإنه يعنى به صافية ، كما يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى ، يقال منه : خلص لى هذا الشىء ، فهو يخلص خلوصا وخالصة ، والخالصة مصدر مثل العافية ، ويقال للرجل : هذا خلصانى ، يعنى خالصى من دون أصحابى ، وقد روى عن ابن عباس أنه كان يتأول قوله (خالِصَةً) خاصة ، وذلك تأويل قريب من معنى التأويل الذى قلناه فى ذلك .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك عن ابن عباس (قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ) قال: قل يا محمد لهم ، يعنى اليهود إن كانت لكم الدار الآخرة ، يعنى الخير (عِندَ اللهِ خالِصَةً) يقول : خاصة لكم .

وأما قوله (مِنْ دُونِ النَّاسِ) فإن الذى يدل عليه ظاهر التنزيل، أنهم قالوا لنا الدار الآخرة عند الله خالصة من دون جميع الناس، ويبين أن ذلك كان قولهم ،من غير استثناء منهم من ذلك أحدا من بنى آدم، إخبار الله عنهم أنهم قالوا (لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نَصارَى) إلا أنه روى عن ابن عباس قول غير ذلك .

حدثنا أبو كريب ، قال: ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (مِنْ دُونِ النَّاسِ) يقول : من دون محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين استهزأتم بهم ، وزعمتم أن الحق فى أيديكم ، وأن الدار الآخرة لكم دونهم .

وأما قوله (فَتَمَنَّوُا المَوْتَ) فإن تأويله تشهوه وأريدوه . وقد روى عن ابن عباس أنه قال فى تأويله: فسلوا الموت، ولا يعرف التمنى بمعنى المسئلة فى كلام العرب. ولكن أحسب أن ابن عباس وجه معنى الأمنية إذ كانت محبة النفس وشهوتها ،إلى معنى الرغبة والمسئلة ،إذ كانت المسئلة هى رغبة السائل إلى الله فيما سأله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك عن ابن عباس (فَتَمَنَّوُا المَوْتَ) فسلوا الموت إن كنتم صادقين .

القول فى تأويل قوله :

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود وكراهتهم الموت، وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنى الموت، لعلمهم بأنهم إن فعلوا ذلك فالوعيد بهم نازل، والموت بهم حالّ، ولمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الله إليهم مرسل وهم به مكذّبون، وأنه لم يخبرهم خبرا إلا كان حقا كما أخبر، فهم

يحذرون أن يتمنوا الموت ، خوفا أن يحلّ بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب ، كالذى حدثنى محمد ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد فيما يروى أبو جعفر ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ) الآية ، أى ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب ، قالوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) ، أى لعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك عن ابن عباس (ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) ، يقول : يا محمد ولن يتمنوه أبدا ، لأنهم يعلمون أنهم كاذبون ، ولو كانوا صادقين لتمنوه ورغبوا فى التعجيل إلى كرامتى ، فليس يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله (فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وكانت اليهود أشدّ فرارا من الموت ، ولم يكونوا ليتمنوه أبدا .

وأما قوله (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) فإنه يعنى به بما أسلفته أيديهم ، وإنما ذلك مثَل ، على نحو ماتتمثل به العرب فى كلامها ، فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرّها أو جناية جناها فيعاقب عليها ، نالك هذا بما جنت يداك ، وبما كسبت يداك ، وبما قدمت يداك ، فتضيف ذلك إلى اليد ، ولعلّ الجناية التى جناها فاستحقّ عليها العقوبة كانت باللسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سوى اليد .

قال : وإنما قيل ذلك بإضافته إلى اليد ، لأن عُظْم جنايات الناس بأيديهم ، فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات التى يجنيها الناس إلى أيديهم ، حتى أضيف كل ماعوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده ، إلى أنها عقوبة على ما جنته يده ، فلذلك قال جل ثناؤه للعرب (ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) يعنى به : ولن يتمنى اليهود الموت بما قدموا أمامهم فى حياتهم من كفرهم بالله فى مخالفتهم أمره وطاعته فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به من عند الله ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ، ويعلمون أنه نبىّ مبعوث ، فأضاف جل ثناؤه ما انطوت عليه قلوبهم ، وأضمرته أنفسهم ، ونطقت به ألسنتهم من حسد محمد صلى الله عليه وسلم ، والبغى عليه ، وتكذيبه ، وجحود رسالته إلى أيديهم ، وأنه مما قدمته أيديهم ، لعلم العرب معنى ذلك فى منطقها وكلامها ، إذ كان جل ثناؤه إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها . وروى عن ابن عباس فى ذلك ما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) يقول : بما أسلفت أيديهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) قال : إنهم عرفوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبىّ فكتموه .

وأما قوله (وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) فإنه يعنى جل ثناؤه : والله ذو علم بظَلَمة بنى آدم يهودها

ونصاراها وسائر أهل الملل غيرها وما يعملون ، وظلم اليهود : كفرهم بالله فى خلافهم أمره وطاعته فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن كانوا يستفتحون به وبمبعثه ، وجحودهم نبوّته وهم عالمون أنه نبيّ الله ورسوله إليهم ، وقد دللنا على معنى الظلم فيما مضى بما أغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله :

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حَيَاةٍ) اليهود . يقول : يامحمد لتجدنّ أشدّ الناس حرصا على الحياة فى الدنيا ، وأشدّهم كراهة للموت اليهود ، كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد فيما يروى أبو جعفر عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حَيَاةٍ) يعنى اليهود .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن أبى العالية (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حَيَاةٍ) يعنى اليهود .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله . وإنما كراهتهم الموت لعلمهم بمالهم فى الآخرة من الخزى والهوان الطويل .

القول فى تأويل قوله (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) وأحرص من الذين أشركوا على الحياة ، كما يقال : هو أشجع الناس ومن عنترة ، بمعنى : هو أشجع من الناس ومن عنترة ، فكذلك قوله (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) لأن معنى الكلام : ولتجدنّ يا محمد اليهود من بنى إسرائيل أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، فلما أضيف أحرص إلى الناس وفيه تأويل من ، أظهرت بعد حرف العطف ردا على التأويل الذى ذكرنا .

وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة لعلمهم بما قد أعدّ لهم فى الآخرة على كفرهم مما لايقرّ به أهل الشرك ، فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لايؤمنون بالبعث ، لأنهم يؤمنون بالبعث ، ويعلمون مالهم هنالك من العذاب ، وأن المشركين لايصدّقون بالبعث ، ولا العقاب ، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت .

وقيل : إن الذين أشركوا ، الذين أخبر الله تعالى ذكره أن اليهود أحرص منهم فى هذه الآية على الحياة ، هم المجوس الذين لايصدّقون بالبعث .

ذكر من قال : هم المجوس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) يعنى المجوس .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) قال : المجوس .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا) قال : يهود أحرص من هؤلاء على الحياة .

ذكر من قال هم الذين ينكرون البعث .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد فيما يروى أبو جعفر ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا) وذلك أن المشرك لايرجو بعثا بعد الموت فهو يحبّ طول الحياة ، وأن اليهودىّ قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بما ضيع مما عنده من العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ)

هذا خبر من الله جل ثناؤه بقوله عن الذين أشركوا : الذين أخبر أن اليهود أحرص منهم على الحياة ، يقول جل ثناؤه : يودّ أحد هؤلاء الذين أشركوا إلا بعد فناء دنياه وانقضاء أيام حياته ، أن يكون له بعد ذلك نشور أو محيا أو فرح أوسرور ، لو يعمر ألف سنة ، حتى جعل بعضهم تحية بعض عشرة آلاف عام حرصا منهم على الحياة .

كما حدثنا محمد بن علىّ بن الحسن بن شقيق ، قال : سمعت أبى عليا ، أخبرنا أبوحمزة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) قال : هو قول الأعاجم : « سال زه نوروز مهرجان حر » .

وحدثت عن نعيم النحوى ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) قال : هو قول أهل الشرك بعضهم لبعض إذا عطس : « زه هزارسال » .

حدثنا إبراهيم بن سعيد ويعقوب بن إبراهيم ، قالا : ثنا إسمعيل بن علية ، عن ابن أبى نجيح عن قتادة فى قوله (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) قال : حببت إليهم الخطيئة طول العمر .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنى ابن معبد ، عن ابن علية ، عن ابن أبى نجيح فى قوله (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ) ، فذكر مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ) حتى بلغ (لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) : يهود أحرص من هؤلاء على الحياة ، وقد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة .

وحدثت عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن سعيد ، عن ابن عباس فى قوله (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) قال : هو قول أحدهم إذا عطس : « زه هزار سال » ، يقول عشرة آلاف سنة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) يعنى جل ثناؤه بقوله : (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) وما التعمير ، وهو طول البقاء ، بمزحزحه من عذاب الله . وقوله (هُوَ) عماد لطلب « ما » الاسم أكثر من طلبها الفعل . كما قال الشاعر :

فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِمَا هٰهُنَا رَأْسُ

وأن التى فى (أَنْ يُعَمَّرَ) رفع بمزحزحه . أو هو الذى مع « ما » تكرير عماد للفعل لاستقباح العرب النكرة قبل المعرفة . وقد قال بعضهم إن « هو » الذى مع « ما » كناية ذكر العمر ، كأنه قال : يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما ذلك العمر بمزحزحه من العذاب . وجعل أن يعمر مترجما عن هو ، يريد : ما هو بمزحزحه التعمير .

وقال بعضهم : قوله (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) نظير قولك : ما زيد بمزحزحه أن يعمر . وأقرب هذه الأقوال عندنا إلى الصواب ماقلنا ، وهو أن يكون هو عمادا ، نظير قولك ماهوقائم عمرو .

وقد قال قوم من أهل التأويل : إنّ أن التى فى قوله أن يعمر بمعنى وإن عمر ، وذلك قول لمعانى كلام العرب المعروف مخالف .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع عن أبى العالية (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) يقول : وإن عمر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : أن يعمر : ولو عمر .

وأما تأويل قوله (بِمُزَحْزِحِهِ) فإنه بمبعده ومنحيه ، كما قال الحطيئة :

وقالُوا تَزَحْزَحْ ما بِنا فَضْلُ حاجَةٍ إلَيْكَ وَما مِنَّا لِوَهْيِكَ رَاقِعُ

يعنى بقوله تزحزح : تباعد ، يقال منه : زحزحه يزحزحه زحزحة وزِحزاحا ، وهو عنك متزحزح : أى متباعد . فتأويل الآية : وما طول العمر بمبعده من عذاب الله ، ولا منحيه منه ، لأنه لابد للعمر من الفناء ومصيره إلى الله .

كما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد فيما أرى ، عن سعيد بن جبير ، أو عن عكرمة ، عن ابن عباس (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) : أى ما هو بمنحيه من العذاب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) يقول : وإن عمر . فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه .

حدثني المثنى قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ) فهم الذين عادَوا جبريل عليه السلام .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) ويهود أحرص على الحياة من هؤلاء ، وقد ودَّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة ، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب ، لو عمر كما عمر إبليس لم ينفعه ذلك، إذ كان كافرا ولم يزحزحه ذلك عن العذاب .

القول في تأويل قوله جل ثناؤه (واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) يعني جل ثناؤه بقوله (وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) والله ذو إبصار بما يعملون لايخفى عليه شيء من أعمالهم ، بل هو بجميعها محيط ، ولها حافظ ذاكر ، حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها ، وأصل بصير مبصر من قول القائل : أبصرت فأنا مبصر ، ولكن صرف إلى فعيل ، كما صرف مسمع إلى سميع ،وعذاب مؤلم إلى أليم ،ومبدع السموات إلى بديع وما أشبه ذلك.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه :

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)

أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم ، وأن ميكائيل وليٌّ لهم ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك ، فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نبوته .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس ، عن بكير ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس ، أنه قال : « حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لايعلمهن إلا نبيٌّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ : لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلَامِ ، فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ ، فقالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا : أيّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبيّ الأميّ في النوم ومن وليه من الملائكة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ لَئِنْ أَنَا أَنْبَأْتُكُمْ لَتُتَابِعُنِّي ، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق ، فقال : نَشَدْتُكُمْ

بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه ، فنذر نذرا : لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه . وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل » قال أبو جعفر فيما أرى « وأحب الشراب إليه ألبانها فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد الله عليكم ، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد . قال : وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد ، قالوا : أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة ؟ فعندها نتابعك أو نفارقك ، قال : « فإن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله عز وجل (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) إلى قوله (كأنهم لا يعلمون) فعندها باءوا بغضب على غضب » .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي الحسن ، يعنى المكى ، عن شهر بن حوشب الأشعرى « أن نفرا من اليهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فإن فعلت اتبعناك وصدقناك وآمنا بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنى ؟ قالوا نعم ، قال : فاسألوا عما بدا لكم . فقالوا : أخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيهما غلبت صاحبتها كان لها الشبه ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد . قالوا : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ قال : هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم أحب الطعام والشراب إليه ، شكرا لله ، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، قالوا : اللهم نعم ، قالوا : فأخبرنا عن الروح ؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل ، وهو الذى يأتينى ؟ قالوا نعم ، ولكنه

لنا عدوّ . وهو ملك إنما يأتى بالشدّة وسفك الدماء ، فلولا ذلك اتبعناك ، فأنزل الله فيهم (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ) إلى قوله (كأنَّهُمْ لايَعْلَمُونَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : حدثنى القاسم بن أبى بزة « أن يهود سألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ صاحبه الذى ينزل عليه بالوحى ، فقال جبريل . قالوا : فإنه لنا عدوّ ، ولا يأتى إلا بالحرب والشدة والقتال ، فنزل (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) الآية » .

قال ابن جريج وقال مجاهد : قالت يهود : يا محمد ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب ، وقالوا إنه لنا عدوّ ، فنزل (مَنْ كان عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) الآية .

وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبينهم فى أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا ربعىّ بن علية ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبىّ ، قال : « نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالا يبتدرون أحجارا يصلون إليها ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ههنا . فكره ذلك وقال : إنما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد فصلى ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم ، فأعجب من التوراة كيف تصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا بن الخطاب ، ما من أصحابك أحد أحبّ إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا ، قال : قلت إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدّق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدّق الفرقان ! قال : ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا بن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به ، قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذى لاإله إلا هو وما استرعاكم من حقه ، واستودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا ، قال : فقال عالمهم وكبيرهم إنه قد عظم عليكم فأجيبوه ، قالوا : أنت عالمنا وسيدنا ، فأجبه أنت ، قال : أما إذا أنشدتنا به ، فإنا نعلم أنه رسول الله ، قال : قلت ويحكم : أى هلكتم ، قالوا : إنا لم نهلك ، قال : قلت كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا إن لنا عدوّا من الملائكة ، وسلْما من الملائكة ، وإنه قرن به عدوّنا من الملائكة ، قال : قلت ومن عدوّكم ومن سلمكم ؟ قالوا : عدوّنا جبريل ، وسلْمنا ميكائيل ، قال : قلت وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا ، قال : قلت وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، قال : قلت فوالله الذى لاإله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدوّ لمن عاداهما ، وسلم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ، ولا لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل ، قال : ثم قمت ، فاتبعت النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلحقته وهو خارج من خَوْخة لبنى فلان ، فقال لى يا بن الخطاب ، ألا

أقرئك آيات نزلن ، فقرأ علىّ (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ) حتى قرأ الآيات ، قال : قلت بأبى وأمى يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك الخبر ، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر » .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن داود ، عن الشعبىّ ، قال : قال عمر : كنت رجلا أغشى اليهود فى يوم مدراسهم ، ثم ذكر نحو حديث ربعىّ .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود ، فلما أبصروه رحبوا به ، فقال لهم عمر : أما والله ما جئت لحبكم ، ولا للرغبة فيكم ، ولكن جئت لأسمع منكم ، فسألهم وسألوه ، فقالوا : من صاحب صاحبكم ؟ فقال لهم : جبريل ، فقالوا : ذاك عدوّنا من أهل السماء ، يطلع محمدا على سرّنا ، وإذا جاء جاء بالحرب والسنة ، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل ، وكان إذا جاء جاء بالخصب وبالسلم ، فقال لهم عمر : أفتعرفون جبريل وتنكرون محمدا . ففارقهم عمر عند ذلك ، وتوجه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدّثه حديثهم ، فوجده قد أنزل عليه هذه الآية (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا آدم ، قال : ثنا أبو جعفر ، عن قتادة ، قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب أقبل على اليهود يوما فذكر نحوه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) قال : قالت اليهود : إن جبريل هو عدوّنا ، لأنه ينزل بالشدّة والحرب والسنة ، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب ، فجبريل عدوّنا ، فقال الله جل ثناؤه (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ) قال : « كان لعمر بن الخطاب أرض بأعلى المدينة ، فكان يأتيها ، وكان ممرّه على طريق مدراس اليهود ، وكان كلما دخل عليهم سمع منهم ، وإنه دخل عليهم ذات يوم ، فقالوا : يا عمر ما فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد أحبّ إلينا منك ، إنهم يمرّون بنا فيؤذوننا ، وتمرّ بنا فلا تؤذينا ، وإنا لنطمع فيك . فقال لهم عمر : أىّ يمين فيكم أعظم ؟ قالوا : الرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطور سيناء . فقال لهم عمر : فأنشُدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطور سيناء ، أتجدون محمدا صلى الله عليه وسلم عندكم ؟ فأسكتوا ، فقال : تكلموا ماشأنكم ؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاكّ فى شىء من دينى ، فنظر بعضهم إلى بعض ، فقام رجل منهم فقال : أخبروا الرجل ، لتخبرُنّه أو لأخبرنّه ، قالوا نعم : إنا نجده مكتوبا عندنا ، ولكن صاحبه من الملائكة الذى يأتيه بالوحى هو جبريل ، وجبريل عدوّنا ، وهو صاحب كل عذاب أو قتال أو خسف ، ولو أنه كان وليه ميكائيل إذا لآمنا به ، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث . فقال لهم عمر : فأنشُدكم بالرحمن الذى

أنزل التوراة على موسى بطورسيناء ، أين مكان جبريل من الله ؟ قالوا : جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره . قال عمر : فأشهدكم أن الذى هو عدوّ للذى عن يمينه عدوّ للذى هو عن يساره ، والذى هو عدوّ للذى هو عن يساره عدوّ للذى هو عن يمينه، وأنه من كان عدوّهما فإنه عدوّ لله . ثم رجع عمر ليخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فوجد جبريل قد سبقه بالوحى ، فدعاه النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقرأه عليه ، فقال عمر : والذى بعثك بالحقّ ، لقد جئتك وما أريد إلا أن أخبرك » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق بن الحجاج الرازىّ ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مَغراء ، قال : ثنا زهير ، عن مجاهد ، عن الشعبىّ ، قال: انطلق عمر إلى يهود ، فقال : إنى أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى . هل تجدون محمدا فى كتابكم ؟ قالوا نعم ، قال : فما يمنعكم أن تتبعوه ، قالوا : إن الله لم يبعث رسولا إلا كان له كِفل من الملائكة ، وإن جبريل هو الذى يتكفل لمحمد، وهو عدوّنا من الملائكة، وميكائيل سِلْمنا ، فلو كان هو الذى يأتيه اتبعناه ، قال : فإنى أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، ما منزلتهما من ربّ العالمين ؟ قالوا : جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن جانبه الآخر ، فقال : إنى أشهد ما يقولان إلا بإذن الله ، وما كان لميكائيل أن يعادى سِلْم جبريل ، وما كان جبريل ليسالم عدوّ ميكائيل ، إذ مرّ نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هذا صاحبك يا ابن الخطاب ، فقام إليه، فأتاه وقد أنزل عليه (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ اللهِ) إلى قوله (فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافِرِينَ) .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا حصين بن عبد الرحمن ، عن ابن أبى ليلى فى قوله (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) قال : قالت اليهود للمسلمين : لوأن ميكائيل كان الذى ينزل عليكم لتبعناكم ، فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة ، وهو لنا عدوّ ، قال : فنزلت هذه الآية (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء بنحو ذلك .

وأما تأويل الآية ، أعنى قوله (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ اللهِ)، فهو أن الله يقول لنبيه: قل يامحمد لمعاشر اليهود من بنى إسرائيل الذين زعموا أن جبريل لهم عدوّ، من أجل أنه صاحب سطوات وعذاب وعقوبات ، لاصاحب وحى وتنزيل ورحمة فأبوا اتباعك ، وجحدوا نبوّتك ، وأنكروا ما جئتهم به من آياتى وبينات حكمى ،من أجل أن جبريل وليك وصاحب وحيى إليك، وزعموا أنه عدوّ لهم : من يكن من الناس لجبريل عدوّا ومنكرا أن يكون صاحب وحى الله إلى أنبيائه، وصاحب رحمته، فإنى له ولىّ وخليل، ومقرّ بأنه صاحب وحى إلى أنبيائه ورسله ، وأنه هو الذى ينزل وحى الله على قلبى من عند ربى ، بإذن ربى له بذلك ، يربط به على قلبى ويشدّ فؤادى .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) قال : وذلك أن اليهود قالت حين سألت محمدا صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة ، فأخبرهم بها على ما هى عندهم إلا جبريل ، فإن جبريل

كان عند اليهود صاحب عذاب وسطوة . ولم يكن عندهم صاحب وحى ، يعنى تنزيل من الله على رسله ، ولا صاحب رحمة ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سألوه عنه ، أن جبريل صاحب وحى الله، وصاحب نقمته، وصاحب رحمته . فقالوا : ليس بصاحب وحى ولا رحمة، هو لنا عدوّ . فأنزل الله عزّ وجل إكذابا لهم (قُلْ) يامحمد (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَه على قَلْبِكَ) يقول : فإن جبريل نزّله ، يقول : نزل القرآن بأمر الله، يشدّ به فؤادك، ويربط به على قلبك . يعنى بوحينا الذى نزل به جبريل عليك من عند الله ، وكذلك يفعل بالمرسلين والأنبياء من قبلك .

حدثنا بشر بن معاذ قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ) يقول : أنزل الكتاب على قلبك بإذن الله .

وحدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ) يقول : نزل الكتاب على قلبك جبريل .

قال أبو جعفر : وإنما قال جل ثناؤه (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ) وهو يعنى بذلك قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أمر محمدا فى أول الآية أن يخبر اليهود بذلك عن نفسه ، ولم يقل فإنه نزّله على قلبى ، ولو قيل على قلبى كان صوابا من القول ، لأن من شأن العرب إذا أمرت رجلا أن يحكى ما قيل له عن نفسه ، أن تخرج فعل المأمور مرّة مضافا إلى كناية نفس المخبر عن نفسه ، إذ كان المخبر عن نفسه ، ومرّة مضافا إلى اسمه ، كهيئة كناية اسم المخاطب لأنه به مخاطب ، فتقول فى نظير ذلك : قل للقوم إن الخير عندى كثير ، فتخرج كناية اسم المخبر عن نفسه ، لأنه المأمور أن يخبر بذلك عن نفسه ، وقل للقوم : إن الخير عندك كثير ، فتخرج كناية اسمه كهيئة كناية اسم المخاطب، لأنه وإن كان مأمورا بقيل ذلك، فهو مخاطب مأمور بحكاية ما قيل له ، وكذلك لاتقل للقوم : إنى قائم ، ولا تقل لهم : إنك قائم ، والياء من إنى اسم المأمور، بقول ذلك على ما وصفنا ، ومن ذلك قول الله عزّ وجل: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ) وتغلبون بالياء والتاء .

وأما جبريل ، فإن للعرب فيه لغات . فأما أهل الحجاز فإنهم يقولون جبريل وميكال، بغير همز، بكسر الجيم والراء من جبريل وبالتخفيف ، وعلى القراءة بذلك عامة قراء أهل المدينة والبصرة . أما تميم وقيس وبعض نجد فيقولون : جبرئيل وميكائيل ، على مثال جبرعيل وميكاعيل ، بفتح الجيم والراء، وبهمز وزيادة ياء بعد الهمزة ، وعلى القراءة بذلك عامة قرّاء أهل الكوفة ، كما قال جرير بن عطية :

عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبوا بِمُحَمَّدٍ وبِجَبْرَئِيلَ وكَذَّبُوا مِيكالا

وقد ذكر عن الحسن البصرى وعبد الله بن كثير أنهما كانا يقرآن جبريل ، بفتح الجيم وترك الهمز .

قال أبو جعفر : وهى قراءة غير جائزة القراءة بها ، لأن فعيل فى كلام العرب غير موجود ، وقد اختار ذلك بعضهم ، وزعم أنه اسم أعجمى ، كما يقال سمويل ، وأنشد فى ذلك :

بِحَيْثُ لَوْ وُزِنَتْ لَخْمٌ بأجمَعِها ماوازَنَتْ رِيشَةً مِنْ رِيشِ سَمْوِيلا

وأما بنو أسد فإنها تقول: جبرين، بالنون . وقد حكى عن بعض العرب أنها تزيد فى جبريل ألفا، فتقول: جبرائيل وميكائيل . وقد حكى عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ جبرئل، بفتح الجيم والهمز، وترك المدّ، وتشديد اللام . فأما « جبر وميك » ، فإنهما هما الاسمان اللذان أحدهما بمعنى عبد والآخر بمعنى عُبيد ، وأما « إيل » فهو الله تعالى ذكره ، كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا جابر بن نوح الحمانى ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، قال : قال ابن عباس : جبريل وميكائيل كقولك عبد الله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال: جبريل : عبد الله ، وميكائيل : عُبيد الله ، وكل اسم إيل فهو الله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إسمعيل بن رجاء ، عن عمير مولى ابن عباس : أن إسرائيل وميكائيل وجبريل وإسرافيل ، كقولك عبد الله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحرث ، قال : إيل : الله ، بالعبرانية .

حدثنا الحسين بن يزيد الضحاك ، قال : ثنا إسحق بن منصور ، قال : ثنا قيس ، عن عاصم ، عن عكرمة ، قال جبريل : اسمه عبد الله ، وميكائيل اسمه عُبيد الله ، إيل : الله .

حدثنى الحسين بن عمرو بن محمد العبقرىّ ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرىّ ، قال : ثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن علىّ بن حسين ، قال : اسم جبريل عبد الله واسم ميكائيل عبيد الله ، واسم إسرافيل عبد الرحمن ، وكل معبّد بإيل فهو عبد الله .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا قبيصة بن عقبة ، قال : ثنا سفيان ، عن محمد المدنى ، قال المثنى ، قال قبيصة : أراه محمد بن إسحق ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن علىّ بن حسين ، قال : ما تعدّون جبريل فى أسمائكم . قال جبريل : عبد الله ، وميكائيل : عُبيد الله ، وكل اسم فيه إيل فهو معبّد لله .

حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا سلمة ، عن ابن إسحق، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن علىّ بن حسين ، قال : قال لى : هل تدرى ما اسم جبريل من أسمائكم ؟ قال : قلت لا ، قال عبد الله ، قال : فهل تدرى ما اسم ميكائيل من أسمائكم ؟ قال لا ، قال عُبيد الله ، وقد سمى لى إسرائيل باسم نحو ذلك فنسيته ، إلا أنه قد قال لى : أرأيت كل اسم يرجع إلى إيل فهو معبد به .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبى ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن عكرمة فى قوله (جِبْرِيلَ) قال : جبر : عبد ، إيل : الله ، وميكا ، قال : عبد ، إيل الله .

قال أبو جعفر : فهذا تأويل من قرأ جبرائيل بالفتح والهمز والمدّ ، وهو إن شاء الله معنى من قرأ بالكسر وترك الهمز .

وأما تأويل من قرأ ذلك بالهمز ، وترك المدّ وتشديد اللام ، فإنه قصد بقوله ذلك كذلك إلى إضافة جبر وميكا إلى اسم الله الذى يسمى به بلسان العرب ، دون السريانىّ والعبرانىّ ، وذلك أن الآل بلسان العرب

الله ، كما قال (لايَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إلاًّ وَلا ذِمَّةً) فقال جماعة من أهل العلم: الآل : هو الله ، ومنه قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه لوفد بنى حنيفة ،حين سألهم عما كان مسيلمة يقول ، فأخبروه ، فقال لهم : ويحكم أين ذهب بكم ؟ والله إن هذا الكلام ماخرج من إلّ ولا برّ ، يعنى من إلّ : من الله .

وقد حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن سليمان التيمىّ ، عن أبى مجلز فى قوله (لايَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إلاًّ وَلا ذِمَّةً) قال: قول جبريل وميكائيل وإسرافيل ، كأنه يقول حين يضيف جبر وميكا وإسرا إلى إيل ، يقول عبد الله : لايرقبون فى مؤمن إلاًّ ، كأنه يقول : لايرقبون الله عزّ وجلّ .

القول فى تأويل قوله تعالى (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) القرآن . ونصب مصدّقا على القطع من الهاء التى فى قوله (نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ) فمعنى الكلام : فإن جبريل نزّل القرآن على قلبك يا محمد مصدقا لما بين يدى القرآن ؛ يعنى بذلك مصدقا لما سلف من كتب الله أمامه ، ونزلت على رسله الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه إياها : موافقة معانيه معانيها فى الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ،وما جاء به من عند الله ، وهى تصديقه .

كما حدثنا أبو كريب ، قال: ثنا عثمان بن سعيد، قال: ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق عن الضحاك، عن ابن عباس (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) يقول لما قبله من الكتب التى أنزلها الله ، والآيات والرسل الذين بعثهم الله بالآيات ، نحو موسى ونوح وهود وشعيب وصالح وأشباههم من الرسل صلى الله عليهم .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال: ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ) .

حدثت عن عمار قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَهُدًى) ودليل وبرهان، وإنما سماه الله جل ثناؤه هدى، لاهتداء المؤمن به، واهتداؤه به اتخاذه إياه هاديا يتبعه وقائدا ينقاد لأمره ونهيه وحلاله وحرامه ، والهادى من كل شىء ما تقدم أمامه ، ومن ذلك قيل لأوائل الخيل هواديها ، وهو ما تقدم أمامها ، وكذلك قيل للعنق الهادى ، لتقدمها أمام سائر الجسد .

وأما البشرى فإنها البشارة ، أخبر الله عباده المؤمنين جل ثناؤه أن القرآن لهم بشرى منه ، لأنه أعلمهم بما أعدّ لهم من الكرامة عنده فى جناته ، وما هم إليه صائرون فى معادهم من ثوابه ، وذلك هو البشرى التى بشر الله بها المؤمنين فى كتابه ، لأن البشارة فى كلام العرب هى إعلام الرجل بما لم يكن به عالما ،مما يسره من الخير قبل أن يسمعه من غيره، أو يعلمه من قبل غيره ، وقد روى فى ذلك عن قتادة قول قريب المعنى مما قلناه .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال: ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد، عن قتادة قوله (هُدًى وبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

لأن المؤمن إذا سمع القرآن حفظه ورعاه، وانتفع به واطمأن إليه، وصدّق بموعود الله الذى وعد فيه، وكان على يقين من ذلك.

القول فى تأويل قوله جل ذكره :

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

وهذا خبر من الله جل ثناؤه (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ) من عاداه وعادى جميع ملائكته ورسله وإعلام منه أن من عادى جبريل، فقد عاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميع ملائكته ورسله، لأن الذين سماهم الله فى هذه الآية هم أولياء الله، وأهل طاعته، ومن عادى لله وليا فقد عادى الله وبارزه بالمحاربة، ومن عادى الله فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته، لأن العدوّ لله عدوّ لأوليائه، والعدوّ لأولياء الله عدوّ له. فكذلك قال لليهود الذين قالوا : إن جبريل عدوّنا من الملائكة، وميكائيل ولينا منهم (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) من أجل أن عدوّ جبريل عدوّ كل ولىّ لله. فأخبرهم جل ثناؤه، أن من كان عدوّا لجبريل فهو لكل من ذكره من ملائكته ورسله وميكال عدوّ، وكذلك عدوّ بعض رسل الله عدوّ لله ولكلّ ولىّ.

وقد حدثنا ابن حميد، قال : ثنا يحيى بن واضح، قال : ثنا عبيد الله، يعنى العتكىّ، عن رجل من قريش، قال : «سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم اليهود فقال : أَسْأَلُكُمْ بِكِتَابِكُمُ الَّذِى تَقْرَءُونَ، هَلْ تَجِدُونَ بِهِ قَدْ بَشَّرَ بِى عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ اسْمُهُ أَحْمَدُ. فَقَالُوا اللهُمَّ وجدناك فى كتابنا، ولكنا كرهناك، لأنك تستحلّ الأموال، وتهريق الدماء. فأنزل الله (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ) الآية».

حدثت عن عمار، قال : ثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى، قال : إن يهوديا لقى عمر فقال له : إن جبريل الذى يذكره صاحبك هو عدوّ لنا، فقال له عمر : (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ). قال : فنزلت على لسان عمر، وهذا الخبر يدل على أن الله أنزل هذه الآية توبيخا لليهود فى كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وإخبارا منه لهم : أن من كان عدوّا لمحمد فالله له عدوّ، وأن عدوّ محمد من الناس كلهم، لمن الكافرين بالله الجاحدين آياته.

فإن قال قائل : أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة ؟ قيل بلى، فإن قال : فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما، وقد مضى ذكرهما فى الآية فى جملة أسماء الملائكة ؟ قيل : معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت : جبريل عدوّنا، وميكائيل ولينا، وزعمت أنها كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل صاحب محمد صلى الله عليه وسلم، أعلمهم الله أن من كان لجبريل عدوّا، فإن الله له عدوّ، وأنه من الكافرين، فنصّ عليه باسمه، وعلى ميكائيل باسمه، لئلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدوّا لله وملائكته ورسله ولسنا لله ولا لملائكته ورسله أعداء، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصا، وجبريل

وميكائيل غير دا خلين فيه ، وكذلك قوله (وَرُسُلِهِ) فلست يا محمد داخلا فيهم ، فنصّ الله تعالى على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ، ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم ، ويحسم تمويههم أمورهم على المنافقين . وأما إظهار اسم الله فى قوله (فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) وتكريره فيه ، وقد ابتدأ أوّل الخبر بذكره فقال (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ) فلئلا يلتبس لو ظهر ذلك بكناية ، فقيل : فإنه عدوّ للكافرين ، على سامعه من المعنىّ بالهاء التى فى فإنه أ ألله أم رسل الله جل ثناؤه ، أم جبريل ، أم ميكائيل ؟ إذ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت ، فإنه يلتبس معنى ذلك على من لم يوقف على المعنى بذلك لاحتمال الكلام ما وصفت ، وقد كان بعض أهل العربية يوجه ذلك إلى نحو قول الشاعر :

لَيْتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنْعَبُ دائبا كَانَ الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأَوْدَاجِ

وأنه إظهار الاسم الذى حظه الكناية عنه ، والأمر فى ذلك بخلاف ما قال ، وذلك أن الغراب الثانى لو كان مكنّى عنه ، لما التبس على أحد يعقل كلام العرب أنه كناية اسم الغراب الأوّل ، إذ كان لاشىء قبله يحتمل الكلام أن يوجه إليه غير كناية اسم الغراب الأول ، وإن قيل قوله (فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) [١] اسما لو جاء اسم الله تعالى ذكره مكنيا عنه لم يعلم من المقصود إليه بكناية الاسم إلا بتوقيف من حجة ، فلذلك اختلف أمراهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ) أى أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوّتك ، وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله الذى أنزله إلى محمد صلى الله عليه وسلم من خفايا علوم اليهود ، ومكنون سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدّلوه من أحكامهم ، التى كانت فى التوراة ، فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغى ، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات التى وصفت ، من غير تعلّم تعلّمه من بشر ، ولا أخذ شىء منه عن آدمى .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) يقول : فأنت تتلوه عليهم ، وتخبرهم به غدوة وعشية ، وبين ذلك وأنت عندهم أمىّ لم تقرأ كتابا ، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه ، يقول الله : فى ذلك لهم عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون .

---

(١) قوله « وإن قيل قوله فإن الله عدو الخ » كذا فى الأصل ، ولعل فيه تحريفا من النساخ ، ووجه الكلام : وإن قيل فى قوله فإن الله عدو للكافرين ، فإنه وجاء اسم الله الخ ، تأمل .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد ابن ثابت ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال ابن صوريا القطيونى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد ماجئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها ، فأنزل الله عزّ وجل (وَلَقَدْ أَنزَلْنا إليْكَ آيات بيِّنات وَما يَكْفُرُ بها إلا الفاسِقونَ) .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَما يَكْفُرُ بها إلا الفاسِقُونَ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَما يَكْفُرُ بها إلاّ الفاسِقُونَ) وما يجحد بها . وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى الكفر الجحود ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وكذلك بينا معنى الفسق ، وأنه الخروج عن الشىء إلى غيره .

فتأويل الآية : ولقد أنزلنا إليك فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحات ، تبين لعلماء بنى إسرائيل وأحبارهم ، الجاحدين نبوّتك ، والمكذّبين رسالتك ، أنك لى رسول إليهم ونبىّ مبعوث . وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوّتك التى أنزلتها إليك فى كتابى ، فيكذّب بها منهم ، إلا الخارج منهم من دينه ، التارك منهم فرائضى عليه فى الكتاب الذى تدين بتصديقه . فأما المتمسك منهم بدينه ، والمتبع منهم حكم كتابه ، فإنه بالذى أنزلت إليك من آياتى مصدّق ، وهم الذين كانوا آمنوا بالله ، وصدقوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل .

القول فى تأويل قوله جل ذكره :

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

اختلف أهل العربية فى حكم الواو التى فى قوله (أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً) فقال بعض نحويى البصريين : هى واو تجعل مع حروف الاستفهام ، وهى مثل الفاء فى قوله (أفكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ) قال : وهما زائدتان فى هذا الوجه ، وهى مثل الفاء التى فى قوله : فالله لتصنعنّ كذا وكذا ، وكقولك للرجل : أفلا تقوم ؛ وإن شئت جعلت الفاء والواو ههنا حرف عطف .

وقال بعض نحويى الكوفيين : هى حرف عطف أدخل عليها حرف الاستفهام . والصواب فى ذلك عندى من القول أنها واو عطف أدخلت عليها ألف الاستفهام كأنه قال جل ثناؤه (وَإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ واسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وعَصَيْنا ـ وكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) ثم أدخل ألف الاستفهام على وكلما ، فقال : (قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا . أوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) وقد بينا فيما مضى أنه غير جائز أن يكون فى كتاب الله حرف

لامعنى له ، فأغنى ذلك عن إعادة البيان على فساد قول من زعم ان الواو والفاء من قوله (أَوَ كُلَّمَا) و (أَفَكُلَّمَا) زائدتان لامعنى لهما .

وأما العهد: فإنه الميثاق الذى أعطته بنو إسرائيل ربهم لَيَعْمَلُنَّ بما فى التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرّة بعد أخرى، فوبخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك، وعير به أبناءهم، إذ سلكوا منهاجهم فى بعض ما كان جل ذكره أخذ عليهم بالإيمان به ، من أمر محمد صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما فى التوراة من نعته وصفته ، فقال تعالى ذكره : أوكلما عاهد اليهود من بنى إسرائيل ربهم عهدا ، وأوثقوه ميثاقا ، نبذه فريق منهم ، فتركه ونقضه ؟

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال مالك ابن الصيف : حين بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكرلهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وماعهد الله إليهم فيه : والله ما عهد إلينا فى محمد صلى الله عليه وسلم، وما أخذ له علينا ميثاقا ، فأنزل الله جل ثناؤه (أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة مولى ابن عباس ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مثله .

قال أبو جعفر : وأما النبذ فإن أصله فى كلام العرب الطرح ، ولذلك قيل للملقوط المنبوذ، لأنه مطروح مرمىّ به ، ومنه سمى النبيذ نبيذا ، لأنه زبيب أو تمر يطرح فى وعاء ، ثم يعالج بالماء ، وأصله مفعول صرف إلى فعيل ؛ أعنى أن النبيذ أصله منبوذ ، ثم صرف إلى فعيل فقيل نبيذ، كما قيل كفّ خضيب ولحية دهين ، يعنى مخضوبة ومدهونة ، يقال منه : نبذته أنبذه نبذا ، كما قال أبوالأسود الدؤلى :

نَظَرْتُ إلى عُنْوَانِهِ فَنَبَذْتُهُ كَنَبْذِكَ نَعْلًا أَخْلَقَتْ من نِعالِكَا

فمعنى قوله جل ذكره (نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) طرحه فريق منهم ، فتركه ورفضه ونقضه .

كما حدثنا بشر بن معاذ قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) يقول : نقضه فريق منهم .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله (نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) قال : لم يكن فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ، ويعاهدون اليوم وينقضون غدا . قال : وفى قراءة عبد الله : نقضه فريق منهم ، والهاء التى فى قوله (نَبَذَهُ) من ذكر العهد ، فمعناه : أوكلما عاهدوا عهدا نبذ ذلك العهد فريق منهم . والفريق الجماعة لاواحد له من لفظه ، بمنزلة الجيش والرهط الذى لاواحد له من لفظه ، والهاء والميم اللتان فى قوله (فَرِيقٌ مِنْهُمْ) من ذكر اليهود من بنى إسرائيل .

وأما قوله (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) فإنه يعنى جل ثناؤه : بل أكثر هؤلاء الذين كلما عاهدوا الله عهدا وواثقوه موثقا نقضه فريق منهم لايؤمنون ، ولذلك وجهان من التأويل :

أحدهما أن يكون الكلام دلالة على الزيادة والتكثير فى عدد المكذّبين الناقضين عهد الله على عدد الفريق ، فيكون الكلام حينئذ معناه : أو كلما عاهدت اليهود من بنى إسرائيل ربها عهدا نقض فريق منهم ذلك العهد ، لا ما ينقض ذلك فريق منهم ولكن الذى ينقض ذلك فيكفر بالله أكثرهم لا القليل منهم ، فهذا أحد وجهيه . والوجه الآخر أن يكون معناه : أو كلما عاهدت اليهود ربها عهدا نبذ ذلك العهد فريق منهم ، لا ماينبذ ذلك العهد فريق منهم فينقضه على الإيمان منهم بأن ذلك غير جائز لهم ، ولكن أكثرهم لا يصدّقون بالله ورسله ، ولا وعده ووعيده . وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على معنى الإيمان وأنه التصديق .

القول فى تأويل قوله جل ذكره .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ) أحبار اليهود وعلماءها من بنى إسرائيل (رَسُولٌ) يعنى بالرسول محمدا صلى الله عليه وسلم .

كما حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى فى قوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ) قال : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله (مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) فإنه يعنى به أن محمدا صلى الله عليه وسلم يصدّق التوراة ، والتوراة تصدقه فى أنه لله نبىّ مبعوث إلى خلقه .

وأما تأويل قوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) فإنه للذى هو مع اليهود ، وهو التوراة ، فأخبر الله جل ثناؤه أن اليهود لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بتصديق ما فى أيديهم من التوراة ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبىّ الله ، نبذ فريق ، يعنى بذلك أنهم جحدوه ورفضوه ، بعد أن كانوا به مقرّين ، حسدا منهم له وبغيا عليه .

وقوله (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وهم علماء اليهود الذين أعطاهم الله العلم بالتوراة وما فيها .

ويعنى بقوله (كِتَابَ اللهِ) التوراة ، وقوله (نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) جعلوه وراء ظهورهم ، وهذا مثل ، يقال لكل رافض أمرا كان منه على بال : قد جعل فلان هذا الأمر منه بظهر ، وجعله وراء ظهره ؛ يعنى به أعرض عنه وصدّ وانصرف .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) قال : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت ، فذلك قول الله (كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ومعنى قوله (كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) كأنّ هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود ، فنقضوا

عهد الله ، بتركهم العمل بما واثقوا الله على أنفسهم العمل بما فيه . لايعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه .

وهذا من الله جل ثناؤه إخبار عنهم أنهم جحدوا الحقّ على علم منهم به ومعرفة ، وأنهم عاندوا أمر الله، فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) يقول : نقض فريق (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لايَعْلَمُونَ) أى أن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم أفسدوا علمهم ، وجحدوا وكفروا وكتموا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

يعنى بقوله (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ) الفريق من أحبار اليهود وعلمائها ، الذين وصفهم جل ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذى أنزله على موسى وراء ظهورهم ، تجاهلا منهم وكفرا بما هم به عالمون كأنهم لايعلمون ، فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذى يعلمون أنه منزل من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ونقضوا عهده الذى أخذه عليهم فى العمل بما فيه ، وآثروا السحر الذى تلته الشياطين فى ملك سليمان بن داود فاتبعوه ، وذلك هو الخسار والضلال المبين .

واختلف أهل التأويل فى الذين عنوا بقوله (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) .

فقال بعضهم : عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة ، فوجدوا التوراة للقرآن موافقة ، تأمر من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه بمثل الذى يأمر به القرآن ، فخاصموا بالكتب التى كان الناس اكتتبوها من الكهنة على عهد سليمان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) على عهد سليمان ، قال : كانت الشياطين تصعد إلى السماء ، فتقعد منها

مقاعد للسمع ، فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم ، فتحدّث الكهنة الناس ، فيجدونه كما قالوا ، حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم ، فأدخلوا فيه غيره ، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة ، فاكتتب الناس ذلك الحديث فى الكتب ، وفشا فى بنى إسرائيل أن الجنّ تعلم الغيب ، فبعث سليمان فى الناس ، فجمع تلك الكتب ، فجعلها فى صندوق ، ثم دفنها تحت كرسيه ، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق ، وقال : لا أسمع أحدا يذكر أن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان ، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ، وخلف بعد ذلك خلْف ، تمثل الشيطان فى صورة إنسان ، ثم أتى نفرا من بنى إسرائيل ، فقال : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا ؟ قالوا : نعم ، قال : فاحفروا تحت الكرسى ، وذهب معهم فأراهم المكان ، فقام ناحية ، فقالوا له : فادن ، قال : لا ولكنى هاهنا فى أيديكم ، فإن لم تجدوه فاقتلونى ، فحفروا فوجدوا تلك الكتب ، فلما أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ، ثم طار فذهب ، وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحرا واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها ، فذلك حين يقول (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) قالوا : إن اليهود سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شىء من ذلك إلا أنزل الله عليه ماسألوا عنه فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا هذا أعلم بما أنزل إلينا منا ، وإنهم سألوه عن السحر ، وخاصموه به ، فأنزل الله جلّ وعزّ (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب ، فكتبوا فيه السحر والكهانة وماشاء الله من ذلك ، فدفنوه تحت مجلس سليمان ، وكان سليمان لا يعلم الغيب ، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر ، وخدعوا به الناس وقالوا : هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه ، فأخبرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث ، فرجعوا من عنده ، وقد حزنوا وأدحض الله حجتهم .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) قال : لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ) الآية ، قال : اتبعوا السحر ، وهم أهل الكتاب ، فقرأ حتى بلغ (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا على عهد سليمان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : تلت الشياطين

السحر على اليهود على ملك سليمان ، فاتبعته اليهود على ملكه ، يعنى اتبعوا السحر على ملك سليمان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، قال : عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام ، فكتبوا أصناف السحر ، من كان يحبّ أن يبلغ كذا وكذا ، فليفعل كذا وكذا ، حتى إذا صنعوا أصناف السحر ، جعلوه فى كتاب ، ثم ختموا عليه بخاتم على نقش خاتم سليمان ، وكتبوا فى عنوانه : هذا ماكتب آصف بن برخيا الصديق، للملك سليمان بن داود، من ذخائر كنوز العلم ، ثم دفنوه تحت كرسيه ، فاستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل ، حين أحدثوا ما أحدثوا ، فلما عثروا عليه قالوا : ماكان سليمان بن داود إلا بهذا، فأفشوا السحر فى الناس وتعلموه وعلموه، فليس فى أحد أكثر منه فى يهود ، فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود، وعدّه فيمن عدّه من المرسلين ، قال : من كان بالمدينة من يهود: ألاتعجبون لمحمد صلى الله عليه وسلم يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا ؛ فأنزل الله فى ذلك من قولهم على محمد صلى الله عليه وسلم (واتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشَّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلٰكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا) قال : كان حين ذهب ملك سليمان ارتدّ فئام من الجنّ والإنس، واتبعوا الشهوات ، فلما رجع الله إلى سليمان ملكه ، قام الناس على الدين كما كانوا ، وإن سليمان ظهر على كتبهم ، فدفنها تحت كرسيه ، وتوفى سليمان حدثان ذلك ، فظهرت الجنّ والإنس على الكتب بعد وفاة سليمان ، وقالوا : هذا كتاب من الله نزل على سليمان أخفاه منا ، فأخذوا به فجعلوه دينا ، فأنزل الله (وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لايَعْلَمُونَ . واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ) وهى المعازف واللعب ، وكل شىء يصدّ عن ذكر الله .

والصواب من القول فى تأويل قوله (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) أن ذلك توبيخ من الله لأحبار اليهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجحدوا نبوّته وهم يعلمون أنه لله رسول مرسل، وتأنيب منه لهم فى رفضهم تنزيله ، وهجرهم العمل به وهو فى أيديهم، يعلمونه ويعرفون أنه كتاب الله ، واتباعهم واتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين فى عهد سليمان ، وقد بينا وجه جواز إضافة أفعال أسلافهم إليهم فيما مضى ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

وإنما اخترنا هذا التأويل لأن المتبعة ماتلته الشياطين فى عهد سليمان وبعده، إلى أن بعث الله نبيه بالحقّ وأمر السحر لم يزل فى اليهود ، ولا دلالة فى الآية أن الله تعالى أراد بقوله واتبعوا بعضا منهم دون بعض ، إذ كان جائزا فصيحا فى كلام العرب إضافة ما وصفنا من اتباع أسلاف المخبر عنهم بقوله (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ) إلى أخلافهم بعدهم ، ولم يكن بخصوص ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر منقول ، ولا حجة تدلّ عليه ، فكان الواجب من القول فى ذلك أن يقال كل متبع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من اليهود داخل فى معنى الآية على النحو الذى قلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره (ماتَتْلُوا الشَّياطِينُ) يعنى جل ثناؤه بقوله (ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ) الذى تتلوا ، فتأويل الكلام إذًا : واتبعوا الذى تتلوا الشياطين .

واختلف فى تأويل قوله (تَتْلُوا) فقال بعضهم : يعنى بقوله (تَتْلُوا) تحدّث وتروى وتتكلم به وتخبر ، نحو تلاوة الرجل للقرآن وهى قراءته ؛ ووجه قائلو هذا القول تأويلهم ذلك إلى أن الشياطين هى التى علمت الناس السحر وروته لهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن عمرو ، عن مجاهد فى قول الله (وَاتَّبَعُوا ماتَتْلُوا الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) قال : كانت الشياطين تسمع الوحى ، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها ، فأرسل سليمان إلى ما كتبوا من ذلك فجمعه ، فلما توفى سليمان وجدته الشياطين فعلمته الناس ، وهو السحر .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) من الكهانة والسحر ، وذكر لنا والله أعلم أن الشياطين ابتدعت كتابا فيه سحر وأمر عظيم ، ثم أفشوه فى الناس وعلموهم إياه .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء قوله (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ) قال : نراه ما تحدّث .

حدثنى سالم بن جنادة السوائى ، قال : ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : انطلقت الشياطين فى الأيام التى ابتلى فيها سليمان ، فكتبت فيها كتبا فيها سحر وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسى سليمان ، ثم أخرجوها فقرءوها على الناس .

وقال آخرون : معنى قوله (ما تَتْلُوا) ما تتبعه وترويه وتعمل به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن عمرو العبقرى ، قال : حدثنى أبى ، عن أسباط ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس (تَتْلُوا) قال : تتبع .

حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى ، قال : ثنا يحيى بن إبراهيم ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن أبى رزين مثله .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله عزّ وجلّ أخبر عن الذين أخبر عنهم ، أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين على عهد سليمان ، باتباعهم ماتتله الشياطين ، ولقول القائل : هو يتلو كذا فى كلام العرب معنيان : أحدهما الاتباع ، كما يقال تلوت فلانا إذا مشيت خلفه وتبعت أثره كما قال جل ثناؤه (هُنالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ) يعنى بذلك تتبع . والآخر القراءة والدراسة ، كما تقول فلان يتلو القرآن ، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه ، كما قال حسان بن ثابت :

نَبِيٌّ يَرَى ما لايَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتابَ اللهِ فى كُلِّ مَشْهَدِ

ولم يخبرنا الله جل ثناؤه بأىّ معنى التلاوة كانت تلاوة الشياطين الذين تلوا ما تلوه من السحر على عهد سليمان ، بخبر يقطع العذر ، وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملا ، فتكون كانت متبعته بالعمل ، ودارسته بالرواية ، فاتبعت اليهود منهاجها فى ذلك ، وعملت به وروته .

القول فى تأويل قوله تعالى (على مُلْكِ سُلَيْمانَ)

يعنى بقوله جل ثناؤه (على مُلْكِ سُلَيْمانَ) فى ملك سليمان ، وذلك أن العرب تضع « فى » موضع على ، و« على » فى موضع فى ، من ذلك قول الله جل ثناؤه (ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) يعنى به على جذوع النخل ، وكما قال : فعلت كذا فى عهد كذا ، وعلى عهد كذا ، بمعنى واحد ، وبما قلنا من ذلك كان ابن جريج وابن إسحق يقولان فى تأويله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج (عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ) يقول : فى ملك سليمان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال ابن إسحق فى قوله (على مُلْكِ سُلَيْمانَ) أى فى ملك سليمان .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

إن قال لنا قائل : وما هذا الكلام من قوله (واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) ولا خبر معنا قبلُ عن أحد أنه أضاف الكفر إلى سليمان ، بل إنما ذكر اتباع من اتبع من اليهود ما تلته الشياطين ، فما وجه نفى الكفر عن سليمان ، بعقب الخبر عن اتباع من اتبعت الشياطين فى العمل بالسحر وروايته من اليهود ؟ قيل : وجه ذلك أن الذين أضاف الله جل ثناؤه إليهم اتباع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من السحر والكفر من اليهود ، نسبوا ما أضافه الله تعالى ذكره ، إلى الشياطين من ذلك إلى سليمان بن داود ، وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته ، وأنه إنما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والجنّ والشياطين وسائر خلق الله بالسحر ، فحسنوا بذلك من ركوبهم ما حرّم الله عليهم من السحر لأنفسهم عند من كان جاهلا بأمر الله ونهيه ، وعند من كان لاعلم له بما أنزل الله فى ذلك من التوراة ، وتبرأ بإضافة ذلك إلى سليمان من سليمان ، وهو نبىّ الله صلى الله عليه وسلم منهم بشر ، وأنكروا أن يكون كان لله رسولا ، وقالوا : بل كان ساحرا ، فبرأ الله سليمان بن داود من السحر والكفر عند من كان منهم ينسبه إلى السحر والكفر ، لأسباب ادعوها عليه قد ذكرنا بعضها ، وسنذكر باقى ماحضرنا ذكره منها ، وأكذب الآخرين الذين كانوا يعملون بالسحر ، متزينين عند أهل الجهل فى عملهم ذلك ، بأن سليمان كان يعمله ، فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون كان ساحرا أو كافرا ، وأعلمهم أنهم إنما اتبعوا فى عملهم

بالسحر ماتلته الشياطين فى عهد سليمان ، دون ما كان سليمان يأمرهم من طاعة الله ، واتباع ما أمرهم به فى كتابه الذى أنزله على موسى صلوات الله عليه .

ذكر الدلائل على صحة ما قلنا من الأخبار والآثار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، قال : كان سليمان يتتبع ما فى أيدى الشياطين من السحر ، فيأخذه فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته ، فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه ، فدنت إلى الإنس ، فقالوا لهم : أتريدون العلم الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك ؟ قالوا نعم . قالوا فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه ، فاستثارته الإنس فاستخرجوه فعملوا به ، فقال أهل الحجاز : كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر ، فأنزل الله جل ثناؤه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان ، فقال (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) الآية . فأنزل الله براءة سليمان على لسان نبيه عليهما السلام .

حدثنى أبو السائب السوائى ، قال : ثنا أبومعاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان الذى أصاب سليمان بن داود فى سبب أناس من أهل امرأة يقال لها جرادة ، وكانت من أكرم نسائه عليه ، قال : فكان هوى سليمان أن يكون الحق لأهل الجرادة فيقضى لهم ، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحد .

قال : وكان سليمان بن داود إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئا من نسائه ، أعطى الجرادة خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلى سليمان بالذى ابتلاه به ، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه ، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها : هاتى خاتمى ، فأخذه فلبسه ، فلما لبسه ، دانت له الشياطين والجنّ والإنس ، قال : فجاءها سليمان فقال : هاتى خاتمى ، فقالت : كذبت لست بسليمان ، قال : فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به ، قال : فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتبا فيها سحر وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسى سليمان ، ثم أخرجوها فقرءوها على الناس ، وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، قال : فبرئ الناس من سليمان وأكفروه ، حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأنزل جل ثناؤه (وَاتَّبَعُوا ماتَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ) يعنى الذى كتب الشياطين من السحر والكفر (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) فأنزل الله جل وعزّ عذره .

حدثنى محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : ثنا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت عمران بن حدير ، عن أبى مجلز ، قال : أخذ سليمان من كل دابة عهدا ، فإذا أصيب رجل فسئل بذلك العهد خلى عنه . فرأى الناس السجع والسحر وقالوا : هذا كان يعمل به سليمان ، فقال الله جل ثناؤه (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

حدثنا أبوحميد ، قال : ثنا جرير ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عمران بن الحرث ، قال : بينا نحن عند ابن عباس ، إذ جاءه رجل فقال له ابن عباس : من أين جئت ؟ قال : من العراق ، قال : من أية ؟

قال : من الكوفة ، قال : فما الخبر ؟ قال : تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم ، ففزع فقال : ما تقول لاأبا لك ، لو شعرنا مانكحنا نساءه ، ولا قسمنا ميراثه ، أما إنى أحدثكم من ذلك إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيأتى أحدهم [1] بكلمة حق قد سمعها ، فإذا حدث منه صدق كذب معها سبعين كذبة ، قال : فيشربها قلوب الناس ، فأطلع الله عليها سليمان ، فدفنها تحت كرسيه ، فلما توفى سليمان بن داود قام شيطان بالطريق فقال : ألا أدلكم على كنزه الممنع الذى لا كنز مثله ؟ تحت الكرسى ، فأخرجوه فقالوا هذا سحر ، فتناسخوا الأمم ، حتى بقاياهم ما يتحدث به أهل العراق ، فأنزل الله عذر سليمان (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا والله أعلم أن الشياطين ابتدعت كتابا فيه سحر وأمر عظيم ، ثم أفشوه فى الناس وأعلموهم إياه ، فلما سمع بذلك سليمان نبى الله صلى الله عليه وسلم فتتبع تلك الكتب ، فأتى بها فدفنها تحت كرسيه كراهية أن يتعلمها الناس ، فلما قبض الله نبيه سليمان عمدت الشياطين فاستخرجوها من مكانها الذى كانت فيه ، فعلموها الناس ، فأخبروهم أن هذا علم كان يكتمه سليمان ويستأثر به ، فعذر الله نبيه سليمان ، وبرأه من ذلك ، فقال جل ثناؤه (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : كتبت الشياطين كتبا فيها سحر وشرك ، ثم دفنت تلك الكتب تحت كرسى سليمان ؛ فلما مات سليمان استخرج الناس تلك الكتب ، فقالوا : هذا علم كتمناه سليمان ، فقال الله جل وعز (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينَ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله (وَاتَّبَعُوا ماتَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ) قال : كانت الشياطين تستمع الوحى من السماء ، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مثلها، وإن سليمان أخذ ما كتبوا من ذلك ، فدفنه تحت كرسيه ؛ فلما توفى وجدته الشياطين فعلمته الناس .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن أبى بكر ، عن شهر بن حوشب ، قال : لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا ، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا ، فكتبته وجعلت عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم ، ثم دفنته تحت كرسيه ؛ فلما مات سليمان قام إبليس خطيبا فقال : يأيها الناس إن سليمان لم يكن نبيا ، وإنما كان ساحرا ، فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته ، ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه ، فقالوا : والله لقد كان سليمان ساحرا ، هذا سحره ، بهذا تعبدنا ، وبهذا قهرنا ، فقال المؤمنون : بل كان نبيا مؤمنا ، فلما بعث

(١) « قوله : فيأتى أحدهم الخ » عبارة الدر المنثور : فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب عليها ألف كذبة ، فأشربتها قلوب الناس الخ .

الله النبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان ، فقالت اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحقّ بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، وإنما كان ساحرا يركب الريح ، فأنزل الله عذر سليمان (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) الآية .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثني ابن إسحق (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى لما ذكر سليمان ابن داود في المرسلين ، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون من محمد يزعم أنّ ابن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا ، فأنزل الله في ذلك من قولهم (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا) أى باتباعهم السحر ، وعملهم به (وَما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ) .

قال أبو جعفر : فإذا كان الأمر في ذلك على ماوصفنا وتأويل قوله (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا) ما ذكرنا ، فتبين أن في الكلام متروكا ترك ذكره اكتفاء بما ذكر منه ، وأنّ معنى الكلام (وَاتَّبَعُوا ماتَتْلُوا الشَّياطِينُ) من السحر (على مُلْكِ سُلَيْمانَ) فتضيفه إلى سليمان (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ) فيعمل بالسحر (وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) وقد كان قتادة يتأوّل قوله (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا) على ما قلنا .

حدثنا بشر بن معاذ قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا) يقول : ما كان عن مشورته ، ولا عن رضا منه ، ولكنه شىء افتعلته الشياطين دونه ، وقد دللنا فيما مضى على اختلاف المختلفين في معنى تتلوا ، وتوجيه من وجه ذلك إلى أن تتلو بمعنى تلت ، إذ كان الذى قبله خبرا ماضيا وهو قوله (وَاتَّبَعُوا) وتوجيه الذين وجهوا ذلك إلى خلاف ذلك ، وبينا فيه وفى نظيره الصواب من القول ، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع . وأما معنى قوله (ما تَتْلُوا) فإنه بمعنى الذى تتلوا وهو السحر .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق (وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ) أى السحر .

قال أبو جعفر : ولعلّ قائلا أن يقول : أو ما كان السحر إلا أيام سليمان ؟ قيل له : بلى قد كان ذلك قبل ذلك ، وقد أخبر الله عن سحرة فرعون ما أخبر عنهم ، وقد كانوا قبل سليمان ، وأخبر عن قوم نوح أنهم قالوا لنوح إنه ساحر ، قال : فكيف أخبر عن اليهود أنهم اتبعوا ما تلته الشياطين على عهد سليمان ؟ قيل : لأنهم أضافوا ذلك إلى سليمان على ماقد قدمنا البيان عنه ، فأراد الله تعالى ذكره تبرئة سليمان مما نحلوه ، وأضافوا إليه مما كانوا وجدوه إما في خزائنه ، وإما تحت كرسيه ، على ماجاءت به الآثار التى قد ذكرناها من ذلك ، فحصر الخبر عما كانت اليهود اتبعته فيما تلته الشياطين أيام سليمان دون غيره لذلك السبب ، وإن كانت الشياطين قد كانت تالية للسحر والكفر قبل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) .

اختلف أهل العلم فى تأويل « ما » التى فى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) فقال بعضهم : معناه الجحد وهى بمعنى لم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) فإنه يقول : لم ينزل الله السحر .

حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنى حكام عن أبى جعفر ، عن الربيع بن أنس (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) قال : ما أنزل الله عليهما السحر .

فتأويل الآية على هذا المعنى الذى ذكرناه عن ابن عباس والربيع من توجيههما معنى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) إلى : ولم ينزل على الملكين ، واتبعوا الذى تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت . فيكون حينئذ قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذى معناه التقديم .

فإن قال لنا قائل : وكيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنيا بالملكين : جبريل وميكائيل ، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبها الله بذلك ، وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط ، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر ، فأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة على الناس وردا عليهم .

وقال آخرون : بل تأويل « ما » التى فى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) الذى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال قال معمر : قال قتادة والزهرى : عن عبد الله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) كانا ملكين من الملائكة ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وذلك أن الملائكة سخروا من أحكام بنى آدم ، قال : فحاكمت إليهما امرأة ، فحافا لها ، ثم ذهبا يصعدان ، فحيل بينهما وبين ذلك ، وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، قال معمر : قال قتادة : فكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى أما قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ

ببابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ) فهذا سحر آخر خاصموه به أيضا ، يقول : خاصموه بما أنزل على الملكين وإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علمته الإنس فصنع وعمل به كان سحرا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ) فالسحر سحران : سحر تعلمه الشياطين ، وسحر يعلمه هاروت وماروت .

حدثنى المثنى قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (وَما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ) قال: التفريق بين المرء وزوجه.

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ) فقرأ حتى بلغ (فَلا تَكْفُرْ) قال : الشياطين والملكان يعلمون الناس السحر .

قال أبو جعفر : فمعنى الآية على تأويل هذا القول الذى ذكرنا عمن ذكرناه عنه ، واتبعت اليهود الذى تلت الشياطين فى ملك سليمان ، والذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وهما ملكان من ملائكة الله ، سنذكر ما روى من الأخبار فى شأنهما إن شاء الله تعالى .

وقالوا : إن قال لنا قائل : وهل يجوز أن ينزل الله السحر ، أم هل يجوز لملائكته أن تعلمه الناس ؟ قلنا له : إن الله عزّ وجلّ قد أنزل الخير والشرّ كله ، وبين جميع ذلك لعباده ، فأوحاه إلى رسله ، وأمرهم بتعليم خلقه، وتعريفهم ما يحلّ لهم مما يحرم عليهم ، وذلك كالزنا والسرقة وسائر المعاصى التى عرّفهموها، ونهاهم عن ركوبها ، فالسحر أحد تلك المعاصى التى أخبرهم بها ونهاهم عن العمل بها .

قالوا : ليس فى العلم بالسحر إثم ، كما لا إثم فى العلم بصنعة الخمر ونحت الأصنام والطنابير والملاعب ، وإنما الإثم فى عمله وتسويته .

قالوا : وكذلك لا إثم فى العلم بالسحر ، وإنما الإثم فى العمل به ، وأن يضرّ به من لا يحلّ ضرّه به .

قالوا : فليس فى إنزال الله إياه على الملكين، ولا فى تعليم الملكين من علماه من الناس، إثم إذا كان تعليمهما من علماه ذلك بإذن الله لهما بتعليمه، بعد أن يخبراه بأنهما فتنة، وينهياه عن السحر والعمل به والكفر، وإنما الإثم على من يتعلمه منهما ويعمل به ، إذ كان الله تعالى ذكره قد نهاه عن تعلمه والعمل به .

قالوا : ولو كان الله أباح لبنى آدم أن يتعلموا ذلك ، لم يكن من تعلمه حرجا ، كما لم يكونا حرجين لعلمهما به ، إذ كان علمهما بذلك عن تنزيل الله إليهما .

وقال آخرون : معنى (ما) معنى الذى ، وهى عطف على ما الأولى ، غير أن الأولى فى معنى السحر ، والآخرة فى معنى التفريق بين المرء وزوجه .

فتأويل الآية على هذا القول : واتبعوا السحر الذى تتلوا الشياطين فى ملك سليمان ، والتفريق الذى بين المرء وزوجه الذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) وهما يعلمان ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وذلك قول الله جل ثناؤه (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) وكان يقول : أما السحر فإنما يعلمه الشياطين ، وأما الذى يعلم الملكان فالتفريق بين المرء وزوجه ، كما قال الله تعالى .

وقال آخرون : جائز أن تكون (ما) بمعنى الذى ، وجائز أن تكون (ما) بمعنى لم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنى الليث بن سعد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، وسأله رجل عن قول الله (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) فقال الرجل : يعلمان الناس ما أنزل عليهما ، أم يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما ؟ قال القاسم : ما أبالى أيتهما كانت .

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : ثنا بشر بن عياض ، عن بعض أصحابه ، أن القاسم بن محمد سئل عن قول الله تعالى ذكره (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) فقيل له : أنزل أو لم ينزل ، فقال : لا أبالى أىّ ذلك كان ، إلا أنى آمنت به .

والصواب من القول فى ذلك عندى قول من وجه « ما » التى فى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) إلى معنى « الذى » دون معنى « ما » التى هى بمعنى الجحد ، وإنما اخترت ذلك من أجل أن « ما » إن وجهت إلى معنى الجحد فتنفى عن الملكين أن يكونا منزلا إليهما ، ولم يخل الاسمان اللذان بعدهما ، أعنى هاروت وماروت من أن يكونا بدلا منهما وترجمة عنهما ، أو بدلا من الناس فى قوله (يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ) وترجمة عنهما ، فإن جعلا بدلا من الملكين وترجمة عنهما ، بطل معنى قوله (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) لأنهما إذا لم يكونا عالمين بما يفرّق به بين المرء وزوجه ، فما الذى يتعلم منهما ما يفرّق بين المرء وزوجه .

وبعد ، فإن ما التى فى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) إن كانت فى معنى الجحد عطفا على قوله (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) فإن الله جل ثناؤه نفى بقوله (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) عن سليمان أن يكون السحر من عمله ، أو من علمه أو تعليمه ، فإن كان الذى نفى عن الملكين من ذلك نظير الذى نفى عن سليمان منه ، وهاروت وماروت هما الملكان ، فمن المتعلم منه إذًا ما يفرّق به بين المرء وزوجه ، وعمن الخبر الذى أخبر عنه بقوله (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) إنّ خطأ هذا القول لواضح بيّن ، وإن كان قوله هاروت وماروت ترجمة عن الناس الذين فى قوله (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) فقد وجب أن تكون

الشياطين هى التى تعلم هاروت وماروت السحر، وتكون السحرة إنما تعلمت السحر من هاروت وماروت، عن تعليم الشياطين إياهما . فإن يكن ذلك كذلك ، فلن يخلو هاروت وماروت عند قائل هذه المقالة من أحد أمرين : إما أن يكونا ملكين ، فإن كانا عنده ملكين ، فقد أوجب لهما من الكفر بالله والمعصية له ، بنسبته إياهما إلى أنهما يتعلمان من الشياطين السحر ويعلمانه الناس ، وإصرارهما على ذلك ومقامهما عليه ، أعظم مما ذكر عنهما أنهما أتياه من المعصية التى استحقا عليها العقاب ، وفى خبر الله عزّ وجلّ عنهما أنهما لا يعلمان أحدا ما يتعلم منهما (حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) ما يغنى عن الإكثار فى الدلالة على خطأ هذا القول . أو أن يكونا رجلين من بنى آدم ، فإن يكن ذلك كذلك فقد كان يجب أن يكون بهلاكهما قد ارتفع السحر والعلم به ، والعمل من بنى آدم ، لأنه إذا كان علم ذلك من قبلهما يؤخذ ، ومنهما يتعلم ، فالواجب أن يكون بهلاكهما ، وعدم وجودهما عدم السبيل إلى الوصول إلى المعنى الذى كان لا يوصل إليه إلا بهما ، وفى وجود السحر فى كل زمان ووقت ، أبين الدلالة على فساد هذا القول ، وقد يزعم قائل ذلك أنهما رجلان من بنى آدم ، لم يعدما من الأرض منذ خلقت ، ولا يعدمان بعد ما وجد السحر فى الناس ، فيدّعى ما لا يخفى بطوله .

فإذا فسدت هذه الوجوه التى دللنا على فسادها ، فبين أن معنى « ما » التى فى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) بمعنى الذى ، وأن هاروت وماروت مترجم بهما عن الملكين ، ولذلك فتحت أواخر أسمائهما ، لأنهما فى موضع خفض على الردّ على الملكين ، ولكنهما لما كانا لا يجرّان فتحت أواخر أسمائهما .

فإن التبس على ذى غباء ما قلنا ، فقال : وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه ؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة ؟ قيل له : إن الله جل ثناؤه عرّف عباده جميع ما أمرهم به ، وجميع ما نهاهم عنه ، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه . ولو كان الأمر على غير ذلك ، لما كان للأمر والنهى معنى مفهوم . فالسحر مما قد نهى عباده من بنى آدم عنه ، فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين اللذين سماهما فى تنزيله ، وجعلهما فتنة لعباده من بنى آدم كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) ، ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه ، وعن السحر ، فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما ، ويخزى الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما ، ويكون الملكان فى تعليمهما ، من علما ذلك لله مطيعين ، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه يعلمان ، وقد عبد من دون الله جماعة من أولياء الله ، فلم يكن ذلك لهم ضائرا إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به ، بل عبد بعضهم ، والمعبود عنه ناه ، فكذلك الملكان غير ضائرهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه ، وعظتهما له بقولهما (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) إذ كانا قد أدّيا ما أمرا به بقيلهما ذلك .

كما حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن عوف ، عن الحسن فى قوله (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) إلى قوله (فَلا تَكْفُرْ) أخذ عليهما ذلك .

ذكر بعض الأخبار التى فى بيان الملكين ، ومن قال إن هاروت وماروت هما الملكان اللذان ذكر الله جل ثناؤه فى قوله ببابل :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا معاذ بن هشام ، قال : حدثنى أبى ، عن قتادة ، قال : ثنا أبوشعبة العدوى فى جنازة يونس بن جبير أبى غلاب ، عن ابن عباس قال : إن الله أفرج السماء لملائكته ينظرون إلى أعمال بنى آدم ، فلما أبصروهم يعملون الخطايا ، قالوا : يا ربّ هؤلاء بنوآدم الذى خلقته بيدك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كلّ شىء ، يعملون بالخطايا ، قال : أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا ، قال : فأمروا أن يختار وا من يهبط إلى الأرض ، قال : فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، وأحلّ لهما ما فيها من شىء غير أن لايشركا بالله شيئا ولا يسرقا ، ولا يزنيا ، ولا يشربا الخمر ، ولا يقتلا النفس التى حرّم الله إلا بالحقّ ، قال : فما استمرّا حتى عرض لهما امرأة قد قسم لها نصف الحسن ، يقال لها بيذخت ، فلما أبصراها أرادا بها زنا ، فقالت لا إلا أن تشركا بالله وتشربا الخمر وتقتلا النفس وتسجدا لهذا الصنم ، فقالا : ما كنا لنشرك بالله شيئا ، فقال أحدهما للآخر : ارجع إليها ، فقالت : لا إلا أن تشربا الخمر ، فشربا حتى ثملا ، ودخل عليهما سائل فقتلاه ، فلما وقعا فيما وقعا فيه من الشرّ ، أفرج الله السماء لملائكته ، فقالوا : سبحانك كنت أعلم ، قال : فأوحى الله إلى سليمان بن داود أن يخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فكبلا من أكعبهما إلى أعناقهما بمثل أعناق البُخْت وجعلا ببابل .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا حجاج ، عن علىّ بن زيد ، عن أبى عثمان النهدى ، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا : لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والأرض والسماء والجبال : ربنا ألا تهلكهم ؟ فأوحى الله إلى الملائكة : إنى لو أنزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ونزلتم لفعلتم أيضا ، قال : فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا ، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم ، فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، وأنزلت الزهرة إليهما فى صورة امرأة من أهل فارس ، وكان أهل فارس يسمونها بيذخت ، قال : فوقعا بالخطيئة ، وكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا (رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا) فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن فى الأرض (ألا إنَّ اللهَ هُوَ الغَفورُ الرَّحِيمُ) فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا.

حدثنى المثنى ، قال : حدثنى الحجاج ، قال : ثنا حماد ، عن خالد الحذاء ، عن عمرو بن سعيد ، قال سمعت عليا يقول : كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس، وأنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت. فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أن يعلماها الكلام الذى إذا تكلم به يعرج به إلى السماء ، فعلماها فتكلمت فعرجت إلى السماء فمسخت كوكبا .

حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، قالا : ثنا مؤمل بن إسمعيل ؛ وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق جميعا ، عن الثورى ، عن محمد بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب ، قال : ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب ، فقيل لهم : اختاروا منكم

اثنين . وقال الحسن بن يحيى فى حديثه : اختاروا ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقيل لهما : إنى أرسل إلى بنى آدم رسلا ، وليس بينى وبينكم رسول ، انزلا لا تشركا بى شيئا ، ولا تزنيا ، ولا تشربا الخمر . قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه إلى الأرض ، حتى استكملا جميع ما نهيا عنه . وقال الحسن بن يحيى فى حديثه : فما استكملا يومهما الذى أنزلا فيه حتى عملا ما حرم الله عليهما .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا معلى بن أسد ، قال : ثنا عبد العزيز بن المختار ، عن موسى بن عقبة ، قال : حدثنى سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار ، أنه حدث أن الملائكة أنكروا أعمال بنى آدم ، وما يأتون فى الأرض من المعاصى ، فقال الله لهم : إنكم لو كنتم مكانهم أتيتم ما يأتون من الذنوب ، فاختاروا منكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقال الله لهما : إنى أرسل رسلى إلى الناس ، وليس بينى وبينكما رسول ، انزلا إلى الأرض ، ولا تشركا بى شيئا ، ولا تزنيا . فقال كعب : والذى نفس كعب بيده ما استكملا يومهما الذى نزلا فيه حتى أتيا ما حرّم الله عليهما .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : أنه كان من أمر هاروت وماروت : أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم ، فقيل لهما : إنى أعطيت ابن آدم عشرا من الشهوات فيها يعصوننى . قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل . فقال لهما : انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر ، فاحكما بين الناس . فنزلا ببابل دنباوند ، فكانا يحكمان ، حتى إذا أمسيا عرجا ، فإذا أصبحا هبطا ، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها ، فأعجبهما حسنها ، واسمها بالعربية الزهرة ، وبالنبطية بيدخت ، واسمها بالفارسية أناهيذ ، فقال أحدهما لصاحبه : إنها لتعجبنى . فقال الآخر : قد أردت أن أذكر لك ، فاستحييت منك ، فقال الآخر : هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر : إنا نرجو رحمة الله . فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها ، فقالت : لا ، حتى تقضيا لى على زوجى ، فقضيا لها على زوجها ، ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها ، فأتياها لذلك ، فلما أراد الذى يواقعها ، قالت : ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأىّ كلام تصعدان إلى السماء ، وبأىّ كلام تنزلان منها ، فأخبراها ، فتكلمت فصعدت ، فأنساها الله ماتنزل به ، فبقيت مكانها ، وجعلها الله كوكبا ، فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال : هذه التى فتنت هاروت وماروت . فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يستطيعا ، فعرفا الهلك ، فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا من عذاب الآخرة ، فعُلِّقا ببابل ، فجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر .

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : لما وقع الناس من بعد آدم فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله ، قالت الملائكة فى السماء : أى ربّ ، هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك ، وقد ركبوا الكفر ، وقتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة والزنا وشرب الخمر ، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم ، فقيل لهم : إنهم فى غيب ، فلم يعذروهم ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمرى ، وأنهاهما عن معصيتى ، فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى

الأرض ، وجعل بهما شهوات بنى آدم ، وأمرا أن يعبدا الله ولا يشركا به شيئا ، ونهيا عن قتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام والسرقة والزنا وشرب الخمر ، فلبثا على ذلك فى الأرض زمانا يحكمان بين الناس بالحقّ ، وذلك فى زمان إدريس ، وفى ذلك الزمان امرأة ، حسنها فى سائر الناس كحسن الزهرة فى سائر الكواكب ، وأنها أتت عليهما ، فخضعا لها بالقول ، وأراداها على نفسها ، وأنها ابت ألا أن يكونا على أمرها ودينها ، وأنهما سألاها عن دينها التى هى عليه ، فأخرجت لهما صنما وقالت : هذا أعبد ، فقالا : لاحاجة لنا فى عبادة هذا ، فذهبا فصبرا ماشاء الله ، ثم أتيا عليها ، فخضعا لها بالقول ، وأراداها على نفسها ، فقالت : لا إلا أن تكونا على ما أنا عليه ، فقالا : لاحاجة لنا فى عبادة هذا ، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم ، قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا الصنم ، أو تقتلا النفس ، أو تشربا الخمر . فقالا : كل هذا لاينبغى ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فسقتهما الخمر ، حتى إذا أخذت الخمر فيهما وقعا بها ، فمرّ بهما إنسان وهما فى ذلك ، فخشيا أن يفشى عليهما ، فقتلاه ، فلما أن ذهب عنهما السكر عرفا ما وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ، فحيل بينهما وبين ذلك ، وكشف الغطاء بينهما وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه من الذنب ، فعجبوا كل العجب ، وعلموا أن من كان فى غيب فهو أقلّ خشية ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض . وأنهما لما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة ، قيل لهما : اختارا عذاب الدنيا ، أو عذاب الآخرة ، فقالا : أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل ، فهما يعذّبان .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا فرج بن فضالة ، عن معاوية بن صالح ، عن نافع ، قال سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل قال : يا نافع انظر طلعت الحمراء ، قالها مرّتين أو ثلاثا ، ثم قلت : قد طلعت ، قال : لامرحبا ولا أهلا ، قلت : سبحان الله ! نجم مسخر سامع مطيع . قال : ماقلت لك إلا ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ المَلائِكَةَ قالَتْ : يارَبِّ كَيْفَ صَبْرُكَ على بَنِى آدَمَ فِى الخَطايا والذُّنوبِ ، قال : إنى ابْتَلَيْتُهُمْ وَعافَيْتُكُمْ . قالُوا لَوْ كُنَّا مَكانَهُمْ ما عَصَيْناكَ . قالَ : فاخْتارُوا مَلَكَيْنِ مِنْكُمْ . قالَ : فَلَمْ يألُوا أنْ يَخْتارُوا ، فاخْتارُوا هارُوتَ وَمارُوتَ » .

حدثنى المثنى قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : وأما شأن هاروت وماروت ، فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم ، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات ، فقال لهم ربهم : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فى الأرض بين بنى آدم ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما حين أنزلهما : عجبتما من بنى آدم ومن ظلمهم ومعصيتهم ، وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء ، وأنتما ليس بينى وبينكما رسول ، فافعلا كذا وكذا ، ودعا كذا وكذا ، فأمرهما بأمر ونهاهما ، ثم نزلا على ذلك ، ليس أحد لله أطوع منهما ، فحكما فعدلا ، فكانا يحكمان النهار بين بنى آدم ، فإذا أمسيا عرجا وكانا مع الملائكة ، وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان ، حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة

تخاصم ، فقضيا عليها ، فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه ، فقال أحدهما لصاحبه : وجدتَ مثل ماوجدتُ ؟ قال : نعم ، فبعثا إليها أن ائتينا نقض لك ، فلما رجعت ، قالا لها وقضيا لها : ائتينا ، فأتتهما ، فكشفا لها عن عورتهما ، وإنما كانت شهوتهما فى أنفسهما ، ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذتها ، فلمابلغا ذلك واستحلاّه وافتتنا ، طارت الزهرة ، فرجعت حيث كانت ، فلما أمسيا عرجا ، فردا ولم يؤذن لهما ، ولم تحملهما أجنحتهما ، فاستغاثا برجل من بنى آدم ، فأتياه فقالا : ادع لنا ربك ؟ فقال : كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا : سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء ، فوعدهما يوما ، وغدا يدعو لهما ، فدعا لهما فاستجيب له ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فنظر أحدهما إلى صاحبه ، فقالا : نعلم أن أنواع عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد ، ومع الدنيا سبع مرات مثلها[1] ، فأمرا أن ينزلا ببابل ، فثم عذابهما ، وزعم أنهما معلقان فى الحديد ، مطويان يصْطفقان بأجنحتهما .

قال أبو جعفر : وحكى عن بعض القراء أنه كان يقرأ (وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلِكَيْنِ) يعنى به رجلين من بنى آدم ، وقد دللنا على خطأ القراءة بذلك من جهة الاستدلال ، فأما من جهة النقل فإجماع الحجة على خطأ القراءة بها من الصحابة والتابعين وقرّاء الأمصار ، وكفى بذلك شاهدا على خطئها .

وأما قوله (بِبَابِلَ) فإنه اسم قرية ، أو موضع من مواضع الأرض .

وقد اختلف أهل التأويل فيها ، فقال بعضهم : إنها بابل دنباوند ، حدثنى بذلك موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى .

وقال بعضهم : بل ذلك بابل العراق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن أبى الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة فى قصة ذكرتها عن امرأة قدمت المدينة ، فذكرت أنها صارت فى العراق ببابل ، فأتت بها هاروت وماروت ، فتعلمت منهما السحر .

واختلف فى معنى السحر ، فقال بعضهم : هو خُدَع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر ، حتى يخيل إلى المسحور الشىء أنه بخلاف ماهو به ، نظير الذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، ويرى الشىء من بعيد فيثبته بخلاف ماهو على حقيقته ، وكراكب السفينة السائرة سيرا حثيثا يخيل إليه أن ماعاين من الأشجار والجبال سائر معه ؛ قالوا : فكذلك المسحور ذلك صفته ، يحسب بعد الذى وصل إليه من سحر الساحر ، أن الذى يراه أو يفعله بخلاف الذى هو به على حقيقته . كالذى حدثنى أحمد بن الوليد ، وسفيان بن وكيع قالا : ثنا يحيى بن سعيد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما سحر ، كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولم يفعله .

حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا ابن نمير ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : « سحر

(١) قوله « أن أنواع عذاب الله الخ » هكذا فى الأصل ، وفى المخطوطة رقم ٤٣ م تفسير بدار الكتب المصرية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى من يهود بنى زريق ، يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله » .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، قال : كان عروة بن الزبير ،وسعيد بن المسيب يحدثان : أن يهود بنى زريق عقدوا عُقَدَ سحر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوها فى بئر حزم [1] حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينكر بصره . ودله الله على ماصنعوا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر حزم [1] التى فيها العقد فانتزعها . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سَحَرَتْنِى يَهُودُ بَنِى زُرَيْق » .

وأنكر قائل هذه المقالة أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شىء عن حقيقته ، واستسخار شيء من خلق الله إلا نظير الذى يقدر عليه من ذلك سائر بنى آدم ، أو إنشاء شىء من الأجسام سوى المخاريق والخدع المتخيلة لأبصار الناظرين ، بخلاف حقائقها التى وصفنا ، وقالوا : لو كان فى وسع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لحقائق الأعيان عما هى به من الهيئات ، لم يكن بين الحقّ والباطل فصل . ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة ، فقلبت أعيانها . قالوا : وفى وصف الله جل وعزّ سحرة فرعون بقوله (فإذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) . وفى خبر عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سحر يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله » أوضح الدلالة على بطول دعوى المدعين : أن الساحر ينشئ أعيان الأشياء بسحره ، ويستسخر مايتعذّر استسخاره على غيره من بنى آدم ، كالموات والجماد والحيوان ، وصحة ما قلنا .

وقال آخرون : قد يقدر الساحر بسحره أن يحوّل الإنسان حمارا ، وأن يسحر الإنسان والحمار ، ويُنشئ أعيانا وأجساما .

واعتلوا فى ذلك بما حدثنا به الربيع بن سليمان ، قال : ثنا ابن وهب ، قال : أخبرنا ابن أبى الزناد ، قال : حدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها قالت : « قدمت علىّ امرأة من أهل دومة الجندل ، جاءت تبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حداثة ذلك ، تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به . قالت عائشة لعروة : يا بن أختى ، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفيها ، كانت تبكى حتى إنى لأرحمها ، وتقول : إنى لأخاف أن أكون قد هلكت . كان لى زوج فغاب عنى ، فدخلت علىّ عجوز ، فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلتِ ما آمرك به ، فأجعله يأتيك . فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما ، وركبت الآخر ، فلم يكن كشىء حتى وقفنا ببابل ، فإذا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر . فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفرى وارجعى . فأبيت وقلت : لا ، فقالا : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ،

(١) قوله « فى بئر حزم » هكذا بالأصل وبالمخطوطة رقم ٤٣م تفسير بدار الكتب ، والثابت فى الحديث : أنها بئر ذروان ، فحرر .

فذهبت ففزعت ، فلم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلتِ ؟ قلت نعم . فقالا : فهل رأيت شيئا ؟ قلت : لم أر شيئا . فقالا لى : لم تفعلى . ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى . فأبيت . فقالا : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه . فذهبت . فاقشعررت وخفت ، ثم رجعت إليهما فقلت : قد فعلت . فقالا : فما رأيت ؟ فقلت : لم أر شيئا . فقالا : كذبت لم تفعلى ، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى . فإنك على رأس أمرك . فأبيت . فقالا : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه . فذهبت إليه فبلت فيه . فرأيت فارسا متقنعا بحديد خرج منى ، حتى ذهب فى السماء ، وغاب عنى ، حتى ما أراه . فجئتهما فقلت : قد فعلت . فقالا : ما رأيت ؟ فقلت : فارسا متقنعا خرج منى فذهب فى السماء حتى ما أراه . فقالا : صدقت . ذلك إيمانك خرج منك . اذهبى . فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئا وما قالا لى شيئا . فقالت بلى ، لن تريدى شيئا إلا كان . خذى هذا القمح ، فابذرى فبذرت . فقلت أطلعى فأطلعت ، وقلت أحقلى فأحقلت ، ثم قلت أفركى فأفركت ، ثم قلت أيبسى فأيبست ، ثم قلت أطحنى فاطحنت ، ثم قلت أخبزى فأخبزت . فلما رأيت أنى لا أريد شيئا إلا كان ، سُقِط فى يدى وندمت ، والله يا أمّ المؤمنين ، والله مافعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا .

قال : أهل هذه المقالة بما وصفنا واعتلوا بما ذكرنا ، وقالوا : لولا أن الساحر يقدر على فعل ما ادّعى أنه يقدر على فعله ما قدر أن يفرّق بين المرء وزوجه . قالوا : وقد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يتعلمون من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ، وذلك لو كان على غير الحقيقة ، وكان على وجه التخييل والحسبان ، لم يكن تفريقا على صحة ، وقد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يفرّقون على صحة .

وقال آخرون : بل السحر أخذ بالعين .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) .

وتأويل ذلك : وما يعلم الملكان أحدا من الناس الذى أنزل عليهما ، من التفريق بين المرء وزوجه ، حتى يقولا له : إنما نحن بلاء وفتنة لبنى آدم ، فلا تكفر بربك .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : إذا أتاهما ، يعنى هاروت وماروت ، إنسان يريد السحر ، وعظاه وقالا له : لاتكفر إنما نحن فتنة ، فإن أبى قالا له : ائت هذا الرماد فبل عليه ، فإذا بال عليه خرج منه نور يسطع حتى يدخل السماء ، وذلك الإيمان ، وقيل شئ أسود كهيئة الدخان ، حتى يدخل فى مسامعه وكلّ شيء منه ، فذلك غضب الله ، فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر ، فذلك قول الله (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) الآية .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة والحسن (حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) قال : أخذ عليهما أن لايعلما أحدا حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال قتادة : كانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلما أحدا ، حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبوسفيان ، عن معمر ، قال : قال غير قتادة : أخذ عليهما أن لايعلما أحدا حتى يتقدما إليه فيقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : أخذ عليهما أن يقولا ذلك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخذ الميثاق عليهما أن لايعلما أحدا حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، لايجترئ على السحر إلا كافر .

وأما الفتنة في هذا الموضع ، فإن معناها الاختبار والابتلاء ، من ذلك قول الشاعر :

وَقَدْ فَتَنَ النَّاسَ فى دِينِهِمْ وخَلَّى ابنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلا

ومنه قوله : فتنت الذهب فى النار : إذا امتحنتها لتعرف جودتها من رداءتها ، أفتنها فتنة وفتونا .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) أى بلاء .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) .

قال أبو جعفر : وقوله جل ثناؤه (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا) خبر مبتدأ عن المتعلمين من الملكين ما أنزل عليهما ، وليس بجواب لقوله (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ) بل هو خبر مستأنف ، ولذلك رفع فقيل فيتعلمون . فمعنى الكلام إذًا : ومايعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فيأبون قبول ذلك منهما (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) .

وقد قيل : إن قوله (فَيَتَعَلَّمُونَ) خبر عن اليهود معطوف على قوله (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هارُوتَ وَمَارُوتَ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مايُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) وجعلوا ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم .

والذى قلنا أشبه بتأويل الآية ، لأن إلحاق ذلك بالذى يليه من الكلام - ما كان للتأويل وجه صحيح - أولى من إلحاقه بما قد حيل بينه وبينه من معترض الكلام . والهاء والميم والألف من قوله (مِنْهُمَا) من ذكر الملكين . ومعنى ذلك : فيتعلم الناس من الملكين الذى يفرّقون به بين المرء وزوجه ، و« ما » التى مع يفرّقون بمعنى الذى ، وقيل معنى ذلك : السحر الذى يفرّقون به ؛ وقيل : هو معنى غير السحر ، وقد ذكرنا اختلافهم فى ذلك فيما مضى قبل . وأما المرء فإنه بمعنى رجل من أسماء بنى آدم ، والأنثى منه المرأة ، يوحد ويثنى ، ولا يجمع ثلاثيه على صورته ، يقال منه : هذا امرؤ صالح ، وهذان امرآن صالحان ، ولا يقال : هؤلاء امرءو صدق ، ولكن يقال : هؤلاء رجال صدق ، وقوم صدق ، وكذلك المرأة توحد وتثنى ، ولا تجمع على صورتها ، يقال : هذه امرأة ، وهاتان امرأتان ، ولا يقال : هؤلاء امرآت ، ولكن هؤلاء نسوة .

وأما الزوج ، فإن أهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل : هى زوجه بمنزلة الزوج الذكر ، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون : هى زوجته كما قال الشاعر :

وَإنَّ الَّذِى يَمْشِى يُحَرِّشُ زَوْجَتِى كَماشٍ إلى أُسْدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُها[1]

(١) هو للفرزدق ، أنشده صاحب لسان العرب ـ وفى روايته : يسعى ، كساع ، فى موضع : يمشى ، كماش .

فإن قال قائل : وكيف يفرّق الساحر بين المرء وزوجه ؟ قيل : قد دللنا فيما مضى على أن معنى السحر تخييل الشيء إلى المرء، بخلاف ماهو به فى عينه وحقيقته، بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه . فإن كان ذلك صحيحا بالذى استشهدنا عليه . فتفريقه بين المرء وزوجه تخييله بسحره ، إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف ماهو به فى حقيقته من حسن وجمال، حتى يقبحه عنده، فينصرف بوجهه ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لامرأته فراقا ، فيكون الساحر مفرقا بينهما ، بإحداثه السبب الذى كان منه فرقة مابينهما . وقد دللنا فى غير موضع من كتابنا هذا على أن العرب تضيف الشيء إلى مسببه من أجل تسببه، وإن لم يكن باشر فعل ماحدث عن السبب ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع . فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قاله عدد من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع . قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مايُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ) وتفريقهما : أن يُؤَخِّذَ كل واحد منهما عن صاحبه، ويبغّض كل واحد منهما إلى صاحبه .

وأما الذين أبوا أن يكون الملكان يعلمان الناس التفريق بين المرء وزوجه ، فإنهم وجهوا تأويل قوله (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا) إلى فيتعلمون ، مكان ماعلماهم ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ، كقول القائل : ليت لنا كذا من كذا : أى مكان كذا ، كما قال الشاعر :

جَمَعْتَ مِنَ الخَيْرَاتِ وَطْبًا وعُلْبَةً وَصَرًّا لِأَخْلافِ المُزَمَّمَةِ البُزْلِ
وَمِنْ كُلِّ أخلاقِ الكِرَامِ نَمِيمَةً وَسَعْيًا على الجارِ المُجاوِرِ بالنَّجْلِ

يريد بقوله : جمعت من الخيرات . مكان خيرات الدنيا . هذه الأخلاق الرديئة ، والأفعال الدنيئة ، ومنه قول الآخر :

صَلَدَتْ صَفَاتُكَ أَنْ تَلِينَ حُيُودُهَا وَوَرِثْتَ مِنْ سَلَفِ الكِرَامِ عُقُوقَا

يعنى ورثت مكان سلف الكرام عقوقا من والديك .

القول فى تأويل قوله عزّ وجلّ (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) وما المتعلمون من الملكين هاروت وماروت ،مايفرّقون به بين المرء وزوجه ، بضارّين بالذى تعلموه منهما من المعنى الذى يفرّقون به بين المرء وزوجه ، من أحد من الناس ، إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضرّه ، فأما من دفع الله عنه ضرّه وحفظه من مكروه السحر والنفث والرق ، فإن ذلك غير ضارّه ولا نائله أذاه .

وللإذن فى كلام العرب أوجه : منها الأمر على غير وجه الإلزام ، وغير جائز أن يكون منه قوله (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللهِ) لأن الله جل ثناؤه قد حرّم التفريق بين المرء وحليلته بغير سحر ، فكيف به على وجه السحر على لسان الأمة . ومنها التخلية بين المأذون له والمخلى بينه وبينه .

ومنها العلم بالشيء ، يقال منه : قد أَذِنت بهذا الأمر ، إذا علمت به آذَن به إذْنًا . ومنه قول الحطيئة :

أَلا يَا هِنْدُ إِنْ جَدَّدْتِ وَصْلاً وَإِلا فَأْذَنِينِي بِانْصِرَامِ

يعني فأعلميني .

ومنه قوله جل ثناؤه (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ) وهذا هو معنى الآية ، كأنه قال جل ثناؤه (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ) بالذى تعلموا من الملكين من أحد إلا بعلم الله ، يعني بالذى سبق له في علم الله أنه يضره .

كما حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان في قوله (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) قال : بقضاء الله .

القول في تأويل قوله (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ) :

يعني بذلك جل ثناؤه (وَيَتَعَلَّمُونَ) أى الناس الذين يتعلمون من الملكين ، ما أنزل عليهما من المعنى الذى يفرّقون به بين المرء وزوجه ، يتعلمون منهما السحر الذى يضرّهم في دينهم ، ولا ينفعهم في معادهم . فأما في العاجل في الدنيا ، فإنهم قد كانوا يكسبون به ، ويصيبون به معاشا .

القول في تأويل قوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) :

يعني بقوله جل ثناؤه (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) الفريق الذين لما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) ، فقال جل ثناؤه : لقد علم النابذون من يهود بني إسرائيل كتابي وراء ظهورهم تجاهلا منهم ، التاركون العمل بما فيه ، من اتباعك يا محمد واتباع ما جئت به ، بعد إنزالي إليك كتابي ، مصدقا لما معهم ، وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم ، وما في أيديهم ، المؤثرون عليه اتباع السحر الذى تلته الشياطين على عهد سليمان ، والذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، لمن اشترى السحر بكتابي الذى أنزلته على رسولي ، فآثره عليه ، ماله في الآخرة من خلاق .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) يقول : قد علم ذلك أهل الكتاب في عهد الله إليهم ، أن الساحر لاخلاق له عند الله يوم القيامة .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) يعني اليهود ، يقول : لقد علمت اليهود أن من تعلمه أو اختاره ماله في الآخرة من خلاق .

وحدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) : لمن اشترى ما يفرق به بين المرء وزوجه .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ

فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) قال : قد علمت يهود أن فى كتاب الله فى التوراة أن من اشترى السحر وترك دين الله ما له فى الآخرة من خلاق ، فالنار مثواه ومأواه .

وأما قوله (لَمَنِ اشْتَرَاهُ) فإن مَن فى موضع رفع ، وليس قوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا) بعامل فيها ؛ لأن قوله (عَلِمُوا) بمعنى اليمين ، فلذلك كانت فى موضع رفع ، لأن الكلام بمعنى : والله لمن اشترى السحر ماله فى الآخرة من خلاق ، ولكون قوله (قَدْ عَلِمُوا) بمعنى اليمين حققت بلام اليمين ، فقيل (لَمَنِ اشْتَرَاهُ) كما يقال : أقسم لمن قام خير ممن قعد ، وكما يقال : قد علمت لعمرو خير من أبيك ، وأما مَن فهو حرف جزاء ، وإنما قيل اشتراه ولم يقل يشتروه ، لدخول لام القسم على من ، ومن شأن العرب إذا أحدثت على حرف الجزاء لام القسم أن لاينطقوا فى الفعل معه إلا بفعَل دون يفعل إلا قليلا ، كراهية أن يحدثوا على الجزاء حادثا وهو مجزوم ، كما قال الله جل ثناؤه (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ) ، وقد يجوز إظهار فعله بعده على يفعل مجزوما ، كما قال الشاعر :

لَئِنْ تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ بُيُوتُكُمْ　　لَيَعْلَمُ رَبِّى أَنَّ بَيْتِىَ وَاسِعِ

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (مالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) فقال بعضهم : الخلاق فى هذا الموضع : النصيب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (مالَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) يقول : من نصيب .

حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (مالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) من نصيب .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنى إسحق ، قال : ثنا وكيع ، قال سفيان : سمعنا فى (وَما لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) أنه ماله فى الآخرة من نصيب .

وقال بعضهم : الخلاق ههنا : الحجة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (وَمالَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) قال : ليس له فى الآخرة حجة .

وقال آخرون : الخلاق : الدين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، قال : قال الحسن (مالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) قال : ليس له دين .

وقال آخرون : الخلاق ههنا : القوام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، قال : قال ابن جريج : قال ابن عباس (ماله في الآخرة من خلاق) قال : قوام .

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : معنى الخلاق في هذا الموضع : النصيب ، وذلك أن ذلك معناه في كلام العرب . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « ليؤيدن الله هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » يعني لانصيب لهم ولا حظ في الإسلام والدين . ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

يدعون بالويل فيها لاخلاق لهم إلا سرابيل من قطر وأغلال

يعني بذلك لانصيب لهم ولا حظ إلا السرابيل والأغلال .

فكذلك قوله (ماله في الآخرة من خلاق) ماله في الدار الآخرة حظ من الجنة، من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يجازى به في الجنة ويثاب عليه ، فيكون له حظ ونصيب من الجنة ؛ وإنما قال جل ثناؤه (ماله في الآخرة من خلاق) فوصفه بأنه لانصيب له في الآخرة ، وهو يعني به لانصيب له من جزاء وثواب وجنة دون نصيبه من النار ، إذ كان قد دل ذمه جل ثناؤه أفعالهم التي نفى من أجلها أن يكون لهم في الآخرة نصيب على مراده من الخير ، وأنه إنما يعني بذلك أنه لانصيب لهم فيها من الخيرات ، وأما من الشرور فإن لهم فيها نصيبا .

القول في تأويل قوله تعالى (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) .

قال أبو جعفر رحمه الله : قد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى شروا : باعوا ؛ فمعنى الكلام إذًا : ولبئس ما باع به نفسه من تعلم السحر لو كان يعلم سوء عاقبته .

كما حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدي (ولبئس ما شروا به أنفسهم) يقول : بئس ما باعوا به أنفسهم .

فإن قال لنا قائل : وكيف قال جل ثناؤه (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) ، وقد قال قبل (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) فكيف يكونون عالمين بأن من تعلم السحر فلا خلاق له ، وهم يجهلون أنهم بئس ما شروا بالسحر أنفسهم ؟ قيل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذي توهمته ، من أنهم موصوفون بالجهل بما هم موصوفون بالعلم به ، ولكن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم ، وإنما معنى الكلام : وما هم ضارون به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، فقوله (لبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) ذم من الله تعالى ذكره فعل المتعلمين من الملكين التفريق بين المرء وزوجه ، وخبر منه جل ثناؤه عنهم أنهم بئس ما شروا به أنفسهم ، برضاهم بالسحر عوضا عن دينهم ، الذي به نجاة أنفسهم من الهلكة ، جهلا منهم بسوء عاقبة فعلهم ، وخسارة صفقة بيعهم ، إذ كان قد يتعلم ذلك منهما من لايعرف الله ، ولا يعرف حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، ثم عاد إلى الفريق

الذين أخبر الله عنهم أنهم نبذوا كتابه وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) فأخبر عنهم أنهم قد علموا أن من اشترى السحر ماله فى الآخرة من خلاق ، ووصفهم بأنهم يركبون معاصىَ الله على علم منهم بها ، ويكفرون بالله ورسله ، ويؤثرون اتباع الشياطين ، والعمل بما أحدثته من السحر ، على العمل بكتابه ووحيه وتنزيله ، عنادا منهم ، وبغيا على رسله ، وتعدّيا منهم لحدوده على معرفة منهم ، بما لمن فعل ذلك عند الله من العقاب والعذاب ، فذلك تأويل قوله .

وقد زعم بعض الزاعمين أن قوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) يعنى به الشياطين ، وأن قوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) يعنى به الناس ، وذلك قول لجميع أهل التأويل مخالف ، وذلك أنهم مجمعون على أن قوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ) معنىٌّ به اليهود دون الشياطين ، ثم هو مع ذلك خلاف ما دلّ عليه التنزيل ، لأن الآيات قبل قوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ) ، وبعد قوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) جاءت من الله بذمّ اليهود ، وتوبيخهم على ضلالهم ، وذما لهم على نبذهم وحى الله وآيات كتابه وراء ظهورهم ، مع علمهم بخطأ فعلهم ، فقوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) أحد تلك الأخبار عنهم .

وقال بعضهم : إن الذين وصف الله جل ثناؤه بقوله (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) فنفى عنهم العلم هم الذين وصفهم الله بقوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) وإنما نفى عنهم جل ثناؤه العلم بقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) بعد وصفه إياهم بأنهم قد علموا بقوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا) من أجل أنهم لم يعملوا بما علموا ، وإنما العالم العامل بعلمه ، وأما إذا خالف عمله علمه فهو فى معانى الجهال . قال : وقد يقال للفاعل الفعل بخلاف ما ينبغى أن يفعل وإن كان بفعله عالما : لو علمت لأقصرت ، كما قال كعب بن زهير المزنى ، وهو يصف ذئبا وغرابا تبعاه ، لينالا من طعامه وزاده :

إِذَا حَضَرَانِى قُلْتُ لَوْ تَعْلَمَانِهِ ... أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّى مِنَ الزَّادِ مُرْمِلُ

فأخبر أنه قال لهما : لو تعلمانه ، فنفى عنهما العلم ، ثم استخبرهما فقال : ألم تعلما ، قالوا : فكذلك قوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ) و (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) وهذا تأويل ، وإن كان له مخرج ووجه ، فإنه خلاف الظاهر المفهوم بنفس الخطاب ، أعنى بقوله (وَلَقَدْ عَلِمُوا) وقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ، وإنما هو استخراج . وتأويل القرآن على المفهوم الظاهر الخطاب ، دون الخفىّ الباطن منه ، حتى تأتى دلالة من الوجه الذى يجب التسليم له بمعنى خلاف دليله الظاهر المتعارف فى أهل اللسان الذين بلسانهم نزل القرآن أولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

يعني جل ثناؤه بقوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا) لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه آمنوا ، فصدّقوا الله ورسوله ، وما جاءهم به من عند ربهم ، واتقوا ربهم فخافوه ، فخافوا عقابه ، فأطاعوه بأداء فرائضه ، وتجنبوا معاصيه ، لكان جزاء الله إياهم وثوابه لهم على إيمانهم به ، وتقواهم إياه ، خيرا لهم من السحر وما اكتسبوا به ، لو كانوا يعلمون أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم من السحر ومما اكتسبوا به ، وإنما نفى بقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) العلم عنهم أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله ، وقدر جزائه على طاعته .

والمثوبة فى كلام العرب : مصدر من قول القائل : أثبتك إثابة وثوابا ومثوبة ، فأصل ذلك من ثاب إليك الشيء بمعنى رجع ، ثم يقال : أثبته إليك : أى رجعته إليك ورددته ، فكان معنى إثابة الرجل الرجل على الهدية وغيرها : إرجاعه إليها منها بدلا ، ورده عليه منها عوضا ، ثم جعل كل معوّض غيره من عمله أو هديته ، أو يد له سلفت منه إليه مثيبا له . ومنه ثواب الله عزّ وجل عباده على أعمالهم ، بمعنى إعطائه إياهم العوض والجزاء عليه ، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذى عملوا له .

وقد زعم بعض نحويي البصرة أن قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ) مما اكتفى بدلالة الكلام على معناه عن ذكر جوابه ، وأن معناه : ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا ، ولكنه استغنى بدلالة الخبر عن المثوبة عن قوله : لأثيبوا . وكان بعض نحويي أهل البصرة ينكر ذلك ، ويرى أن جواب قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ) وأن لو إنما أجيبت بالمثوبة ، وإن كانت أخبر عنها بالماضى من الفعل ، لتقارب معناها من معنى لئن فى أنهما جزاءان ، فإنهما جوابان للإيمان ، فأدخل جواب كل واحدة منهما على صاحبتها ، فأجيبت لو بجواب لئن ، ولئن بجواب لو لذلك وإن اختلفت أجوبتهما ، فكانت لو من حكمها وحظها أن تجاب بالماضى من الفعل ، وكانت لئن من حكمها وحظها أن تجاب بالمستقبل من الفعل لما وصفنا من تقاربهما ، فكان يتأوّل معنى قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا) ، ولئن آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير .

وبما قلنا فى تأويل المثوبة قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) يقول : ثواب من عند الله .

حدثنى يونس ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) أما المثوبة ، فهو الثواب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ) يقول : لثواب من عند الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (لاتَقُولُوا رَاعِنا) فقال بعضهم : تأويله لاتقولوا خلافا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء فى قوله (لاتَقُولُوا رَاعِنا) قال : لاتقولوا خلافا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (لاتَقُولُوا رَاعِنا) لاتقولوا خلافا .

وحدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبوأحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن رجل عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : تأويله : أرعنا سمعك : أى اسمع منا ونسمع منك .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله (راعِنا) أى أرعنا سمعك .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله جلّ وعزّ (يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا رَاعِنا) لاتقولوا اسمع منا ونسمع منك .

وحدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (رَاعِنا) قال : كان الرجل من المشركين يقول : أرعنى سمعك .

ثم اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله نهى الله المؤمنين أن يقولوا راعنا ، فقال بعضهم : هى كلمة كانت اليهود تقولها على وجه الاستهزاء والمسبة ، فنهى الله تعالى ذكره المؤمنين أن يقولوا ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا رَاعِنا) قول كانت تقوله اليهود استهزاء ، فزجر الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمد الزُّبيرىّ ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية (لاتَقُولُوا رَاعِنا) قال : كان أناس من اليهود يقولون : أرعنا سمعك ، حتى قالها أناس من المسلمين ، فكره الله لهم ما قالت اليهود ، فقال (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا راعِنا) كما قالت اليهود والنصارى .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لاتَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا) قال : كانوا يقولون راعنا سمعك ، فكان اليهود يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين ، فقال الله (لاتَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا) .

وحدثت عن المنجاب ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله (لاتَقُولُوا رَاعِنا) قال : كانوا يقولون للنبىّ صلى الله عليه وسلم : راعنا سمعك ، وإنما راعنا كقولك عاطنا .

وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا) قال : راعنا القول الذى قاله القوم (قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فى الدِّينِ) قال : قال هذا الراعن ، والراعن : الخطاء ، قال : فقال للمؤمنين : لاتقولوا خطاء كما قال القوم وقولوا انظرنا واسمعوا ، قال : كانوا ينظرون إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ويكلمونه ، ويسمع منهم ، ويسألونه ، ويجيبهم .

وقال آخرون : بل هى كلمة كانت الأنصار فى الجاهلية تقولها ، فنهاهم الله فى الإسلام أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنى هشيم ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، عن عطاء فى قوله (لاتَقُولُوا رَاعِنا) قال : كانت لغة فى الأنصار فى الجاهلية ، فنزلت هذه الآية (لاتَقُولُوا رَاعِنا وَ) لكن (قُولُوا انْظُرْنا) إلى آخر الآية .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا هشيم ، عن عبد الملك ، عن عطاء قال (لاتَقُولُوا رَاعِنا) قال : كانت لغة فى الأنصار .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عبد الملك ، عن عطاء ، مثله .

وحدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (لاتَقُولُوا رَاعِنا) قال : إن مشركى العرب كانوا إذا حدّث بعضهم بعضا يقول أحدهم لصاحبه : أرعَ سمعك ، فنهوا عن ذلك .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : راعنا قول الساخر ، فنهاهم أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : بل كان ذلك كلام يهودىّ من اليهود بعينه ، يقال له رفاعة بن زيد ، كان يكلم النبىّ صلى الله عليه وسلم به على وجه السبّ له ، وكان المسلمون أخذوا ذلك عنه ، فنهى الله المؤمنين عن قيله للنبى صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا) كان رجل من اليهود من قبيلة من اليهود يقال لهم بنو قَيْنُقاع ، كان يدعى رفاعة ابن زيد بن السائب .

قال أبو جعفر : هذا خطأ إنما هو ابن التابوت ليس ابن السائب ، كان يأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم. فإذا لقيه فكلمه فقال : أرعنى سمعك، واسمع غير مسمع . فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع ، كقولك اسمع غير صاغر ، وهى التى فى النساء (مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى الدِّينِ) يقول : إنما يريد بقوله (طَعْناً فِى الدِّينِ) ثم تقدم إلى المؤمنين فقال : لاتقولوا راعنا .

والصواب من القول فى نهى الله جل ثناؤه المؤمنين أن يقولوا لنبيه : راعنا ، أن يقال إنها كلمة كرهها الله لهم أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم، نظير الذى ذكر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال « لاتَقُولُوا للعِنَبِ الكَرْمَ ، ولَكِنْ قُولُوا الحَبلَة، ولا تَقُولُوا عَبْدِى وَلَكِنْ قُولُوا فَتاى » ، وما أشبه ذلك من الكلمتين اللتين تكونان مستعملتين بمعنى واحد فى كلام العرب . فتأتى الكراهة أو النهى باستعمال إحداهما ، واختيار الأخرى عليها فى المخاطبات .

فإن قال لنا قائل : فإنا قد علمنا معنى نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى العنب أن يقال له كرم ، وفى العبد أن يقال له عبد، فما المعنى الذى فى قوله (رَاعِنا) حينئذ الذى من أجله كان النهى من الله جل ثناؤه للمؤمنين عن أن يقولوه ، حتى أمرهم أن يؤثروا قوله (انْظُرْنا) ؟ قيل : الذى فيه من ذلك ، نظير الذى فى قول القائل : الكرم للعنب ، والعبد للمملوك ، وذلك أن قول القائل عبد[1] : لجميع عباد الله ، فكره النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يضاف بعض عباد الله بمعنى العبودية إلى غير الله ، وأمر أن يضاف ذلك إلى غيره بغير المعنى الذى يضاف إلى الله عزّ وجل ، فيقال : فتاى ، وكذلك وجه نهيه فى العنب أن يقال كرما خوفا من توهم وصفه بالكرَم وإن كانت مسكّنة ، فإن العرب قد تسكن بعض الحركات إذا تتابعت على نوع واحد ، فكره أن يتصف بذلك العنب ، فكذلك نهى الله عزّ وجل المؤمنين أن يقولوا راعنا ، لما كان قول القائل راعنا محتملا أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك ، وارقبنا ونرقبك ، من قول العرب بعضهم لبعض : رعاك الله ، بمعنى حفظك الله وكلأك ، ومحتملا أن يكون بمعنى أرعنا سمعك ، من قولهم : أرعيت سمعى إرعاء أو راعيته سمعى رعاء أو مراعاة ، بمعنى فرّغته لسماع كلامه ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

يَرْعَى إلى قَوْلِ سادات الرِّجالِ إذَا أَبْدَوْا لَهُ الحَزْمَ أَوْ ماشاءَهُ ابْتَدَعا

يعنى بقوله يرعى : يصغى بسمعه إليه مفرغه لذلك .

وكأن الله جل ثناؤه قد أمر المؤمنين بتوقير نبيه صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ، حتى نهاهم جلّ ذكره

(١) كذا فى المخطوطة ٤٣ م . وفى الأصول عبدى . تحريف .

فيما نهاهم عنه عن رفع أصواتهم فوق صوته وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، وخوّفهم على ذلك حبوط أعمالهم ، فتقدّم إليهم بالزجر لهم عن أن يقولوا له من القول ما فيه جفاء ، وأمرهم أن يتخيروا لخطابه من الألفاظ أحسنها ، ومن المعانى أرقها ، فكان من ذلك قولهم (رَاعِنا) لما فيه من احتمال معنى ارعنا نرعاك ، إذ كانت المفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، كما يقول القائل : عاطنا وحادثنا وجالسنا ، بمعنى افعل بنا نفعل بك ، ومعنى أرعنا سمعك حتى نفهمك وتفهم عنا ، فنهى الله تعالى ذكره أصحاب محمد أن يقولوا ذلك كذلك ، وأن يفردوا مسئلته بانتظارهم وإمهالهم ، ليعقلوا عنه بتبجيل منهم له وتعظيم ، وأن لا يسألوه ماسألوه من ذلك على وجه الجفاء ، والتجهم منهم له ، ولا بالفظاظة والغلظة ، تشبها منهم باليهود فى خطابهم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم بقولهم له : (اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنا) يدلّ على صحة ما قلنا فى ذلك قوله (ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَلا المُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) فدلّ بذلك أن الذى عاتبهم عليه مما يسرّ اليهود والمشركين .

فأما التأويل الذى حكى عن مجاهد فى قوله (رَاعِنا) أنه بمعنى خلافا ، فمما لا يعقل فى كلام العرب ، لأن راعيت فى كلام العرب إنما هو على أحد وجهين : أحدهما بمعنى فاعلت من الرعية ، وهى الرقبة والكلاءة . والآخر بمعنى إفراغ السمع ، بمعنى أرعيته سمعى ، وأما راعيت بمعنى خالفت ، فلا وجه له مفهوم فى كلام العرب ، إلا أن يكون قرأ ذلك بالتنوين ، ثم وجهه إلى معنى الرعونة والجهل والخطأ ، على النحو الذى قال فى ذلك عبد الرحمن بن زيد ، فيكون لذلك وإن كان مخالفا قراءة القراء معنى مفهوم حينئذ .

وأما القول الآخر الذى حكى عن عطية ومن حكى ذلك عنه أن قوله (رَاعِنا) كانت كلمة لليهود بمعنى السبّ والسخرية فاستعملها المؤمنون أخذا منهم ذلك عنهم ، فإن ذلك غير جائز فى صفة المؤمنين أن يأخذوا من كلام أهل الشرك كلاما لا يعرفون معناه ، ثم يستعملونه بينهم ، وفى خطاب نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ولكنه جائز أن يكون ذلك مما روى عن قتادة ، أنها كانت كلمة صحيحة مفهومة من كلام العرب ، وافقت كلمة من كلام اليهود بغير اللسان العربى ، هى عند اليهود سبّ وهى عند العرب أرعنى سمعك وفرّغه لتفهم عنى ، فعلّم الله جل ثناؤه معنى اليهود فى قيلهم ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأن معناها منهم خلاف معناها فى كلام العرب ، فنهى الله عزّ وجلّ المؤمنين عن قيلها للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، لئلا يجترئ من كان معناه فى ذلك غير معنى المؤمنين فيه أن يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وهذا تأويل لم يأت الخبر بأنه كذلك من الوجه الذى تقوم به الحجة ، وإذ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بتأويل الآية ما وصفنا ، إذ كان ذلك هو الظاهر المفهوم بالآية دون غيره .

وقد حكى عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤه (لا تَقُولُوا رَاعِناً) بالتنوين ، بمعنى : لا تقولوا قولا راعنا ، من الرعونة ، وهى الحمق والجهل ، وهذه قراءة لقراءة المسلمين مخالفة ، فغير جائز لأحد القراءة بها ، لشذوذها وخروجها من قراءة المتقدمين والمتأخرين ، وخلافها ما جاءت به الحجة من المسلمين ، ومن نوّن (راعِنا) نونه بقوله (لا تَقُولُوا) لأنه حينئذ عامل فيه ، ومن لم ينوّنه فإنه ترك تنوينه ، لأنه أمر محكىّ

لأن القوم كأنهم كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم (راعِنا) : بمعنى مسئلته إما أن يرعيهم سمعه ، وإما أن يرعاهم ويرقبهم ، على ماقد بينت فيما قد مضى ، فقيل لهم : لاتقولوا فى مسألتكم إياه راعنا ، فتكون الدلالة على معنى الأمر فى راعنا حينئذ سقوط الياء التى كانت تكون فى يراعيه . ويدلّ عليها . أعنى على الياء الساقطة كسرة العين من راعنا ، وقد ذكر أن قراءة ابن مسعود لاتقولوا « راعونا » بمعنى حكاية أمر صالحة لجماعة بمراعاتهم ، فإن كان ذلك من قراءته صحيحا وجه أن يكون القوم كأنهم نهوا عن استعمال ذلك بينهم فى خطاب بعضهم بعضا ، كان خطابهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو لغيره ، ولا نعلم ذلك صحيحا من الوجه الذى تصحّ منه الأخبار .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَقُولُوا انْظُرْنا) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَقُولُوا انْظُرْنا) وقولوا : يأيها المؤمنون لنبيكم صلى الله عليه وسلم : انتظرنا وارقبنا ، نفهم ونتبين ما تقول لنا وتعلمنا .

كما حدثنى محمد بن عمرو . قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَقُولُوا انْظُرْنا) فهمنا بيِّن لنا يا محمد .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَقُولُوا انْظُرْنا) فهمنا بين لنا يا محمد .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

يقال منه : نظرت الرجل أنظره نَظِرة بمعنى انتظرته ورقبته . ومنه قول الحُطيئة :

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ أَعْشاءَ صادِرَةٍ   لِلخِمْسِ طالَ بِها حَوْزِى وتَنْساسِى

ومنه قول الله عزّ وجل (يَوْمَ يَقُولُ المُنافِقُونَ والمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) يعنى به انتظرونا ، وقد قرئ أنظرنا بقطع الألف فى الموضعين جميعا ، فمن قرأ ذلك كذلك أراد أخرنا ، كما قال الله جل ثناؤه (قالَ رَبِّ فأَنْظِرْنِى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أى أخرنى ، ولا وجه لقراءة ذلك كذلك فى هذا الموضع ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أمروا بالدنوّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستماع منه ، وإلطاف الخطاب له ، وخفض الجناح ، لابالتأخر عنه ، ولا بمسئلته تأخيرهم عنه ، فالصواب إن كان ذلك كذلك من القراءة ، قراءة من وصل الألف من قوله (انْظُرْنا) ولم يقطعها ، بمعنى انتظرنا .

وقد قيل : إن معنى أنظرنا بقطع الألف بمعنى أمهلنا . حكى عن بعض العرب سماعا : أنظرنى أكلمك ، وذكر سامع ذلك من بعضهم أنه استثبته فى معناه ، فأخبره أنه أراد : أمهلنى ، فإن يكن ذلك صحيحا عنهم ، فانظرنا وأنظرنا بقطع الألف ووصلها متقاربا المعنى ، غير أن الأمر وإن كان كذلك ، فإن القراءة التى لاأستجيز غيرها ، قراءة من قرأ (وقُولُوا انْظُرْنا) بوصل الألف بمعنى انتظرنا ، لإجماع الحجة على تصويبها ورفضهم غيرها من القراءات .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه (وَاسْمَعُوا ولِلْكافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَاسْمَعُوا) : واسمعوا مايقال لكم ، ويتلى عليكم من كتاب ربكم ، وعوه وافهموه .

كما حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَاسْمَعُوا) اسمعوا ما يقال لكم .

فمعنى الآية إذاً : يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا لنبيكم : راعنا سمعك وفرّغه لنا ، نفهمك وتفهم عنا ماتقول ، ولكن قولوا انتظرنا ، وترقبنا ، حتى نتفهم عنك ما تعلمنا وتبينه لنا ، واسمعوا منه ما يقول لكم فعوه واحفظوه وافهموه . ثم أخبرهم جل ثناؤه أن لمن جحد منهم ومن غيرهم آياته ، وخالف أمره ونهيه ، وكذب رسوله ، العذاب الموجع فى الآخرة ، فقال : وللكافرين بى وبرسولى عذاب أليم ، يعنى بقوله الأليم : الموجع ، وقد ذكرنا الدلالة على ذلك فيما مضى قبل ، وما فيه من الآثار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

يعنى بقوله (ما يَوَدُّ) مايحبّ ، أى ليس يحبّ كثير من أهل الكتاب ، يقال منه : ودّ فلان كذا يودّه وُدّاً ووَدّاً ومودّة . وأما المشركون فإنهم فى موضع خفض ، بالعطف على أهل الكتاب .

ومعنى الكلام : مايحبّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ، أن ينزل عليكم من خير من ربكم .

وأما (أنْ) فى قوله (أنْ يُنَزَّلَ) فنصب بقوله (يَوَدُّ) . وقد دللنا على وجه دخول من فى قوله (مِن خَيْرٍ) وما أشبه ذلك من الكلام الذى يكون فى أوله جحد فيما مضى ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

فتأويل الكلام مايحبّ الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان ، أن ينزل عليكم من الخير الذى كان عند الله ينزله عليهم ، فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لاينزل الله عليهم الفرقان ، وما أوحاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم من حكمه وآياته . وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك ، حسدا وبغيا منهم على المؤمنين .

وفى هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين ، والاستماع من قولهم ، وقبول شىء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم ، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على مايستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد ، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ماهم مستبطنون .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته ، فيرسله إلى من يشاء من خلقه ، فيتفضل بالإيمان على من أحبّ ، فيهديه له ، واختصاصه إياهم بها إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه . وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه ، وهدايته من هدى من عباده ، رحمة

منه له ، ليصيره بها إلى رضاه ومحبته ، وفوزه بها بالجنة ، واستحقاقه بها ثناءه ، وكل ذلك رحمة من الله له .

وأما قوله (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عباده فى دينهم ودنياهم فإنه من عنده ابتداء ، وتفضلا منه عليهم ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه .

وفى قوله (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) تعريض من الله تعالى ذكره بأهل الكتاب، أن الذى آتى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به من الهداية تفضلا منه ، وأن نعمه لاتدرك بالأمانى ، ولكنها مواهب منه ، يختص بها من يشاء من خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

يعنى جل ثناؤه بقوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) إلى غيره ، فنبدله ونغيره ، وذلك أن يحوّل الحلال حراما ، والحرام حلالا ، والمباح محظورا ، والمحظور مباحا ، ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ . وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه إلى غيره ، فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية ، فسواء إذا نسخ حكمها ، فغير وبدّل فرضها ، ونقل فرض العباد عن اللازم ،كان لهم بها أوفر حظها ، فترك أو محى أثرها ، فعفى أو نسى ، إذ هى حينئذ فى كلتا حالتيها منسوخة ، والحكم الحادث المبدل به الحكم الأوّل ،والمنقول إليه فرض العباد،هو الناسخ ، يقال منه : نسخ الله آية كذا وكذا ينسخه نسخا ، والنسخة الاسم ، وبمثل الذى قلنا فى ذلك كان الحسن البصرى يقول .

حدثنا سوار بن عبد الله العنبرى ، قال : ثنا خالد بن الحرث ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن أنه قال فى قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) قال : قال أقرئ قرآنا ثم نسيه ، فلم يكن شيئا ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرءونه .

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (مانَنْسَخْ) فقال بعضهم بما حدثنى به موسى بن هرون ، قال: ثنا عمرو بن عمار ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) أما نسخها فقبضها .

وقال آخرون بما حدثنى به المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) يقول : ما نبدّل من آية .

وقال آخرون بما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن أصحاب عبد الله بن مسعود ، أنهم قالوا (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) : نثبت خطها ، ونبدل حكمها .

وحدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) : نثبت خطها ، ونبدل حكمها ، حدثت به عن أصحاب ابن مسعود .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : حدثني بكر بن شوذب ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أصحاب ابن مسعود (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) : نثبت خطها .

القول في تأويل قوله (أَوْ نُنْسِهَا)

اختلفت القراءة في قوله ذلك . فقرأها قرّاء أهل المدينة والكوفة (أَوْ نُنْسِهَا) . ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون تأويله ما ننسخ يا محمد من آية فنغير حكمها أو ننسها ، وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله ما نُنْسِكَ من آية أو ننسخها نجئ بمثلها . فذلك تأويل النسيان . وبهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) كان ينسخ الآية بالآية بعدها ، ويقرأ نبيّ الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك ، ثم تنسى وترفع .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله (مانَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا) قال : كان الله تعالى ذكره ينسى نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء ، وينسخ ما شاء .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : كان عبيد بن عمير يقول (نُنْسِهَا) : نرفعها من عندكم .

حدثنا سوار بن عبد الله ، قال : ثنا خالد بن الحرث ، قال : ثنا عوف ، عن الحسن أنه قال في قوله (أَوْ نُنْسِهَا) قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرئ قرآنا ثم نسيه ، وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يتأول الآية ، إلا أنه كان يقرؤها أو تَنْسَهَا بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه عنى أو تنسها أنت يا محمد .

ذكر الأخبار بذلك .

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا يعلى بن عطاء ، عن القاسم ، قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنْسَهَا) قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرؤها (أَوْ نُنْسِهَا) قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ، قال الله (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى - وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا هشيم ، قال : ثنا يعلى بن عطاء ، قال : ثنا القاسم بن ربيعة بن قائف الثقفي ، قال : سمعت ابن أبي وقاص يذكر نحوه .

حدثنا محمد بن المثنى وآدم العسقلاني قالا جميعا ، عن شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، قال : سمعت القاسم ابن ربيعة الثقفي يقول : قلت لسعد بن أبي وقاص : إني سمعت ابن المسيب يقرأ (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ

أَوْ نُنْسِها) فقال سعد : إن الله لم ينزل القرآن على المسيب ولا على ابنه . إنما هى مانسخ من آية أو تنسها يا محمد ثم قرأ (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى — وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) .

حدثنى المثنى قال : ثنا إسحق . قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها) يقول : ننسها : نرفعها . وكان الله تبارك وتعالى أنزل أمورا من القرآن ثم رفعها .

والوجه الآخر منهما أن يكون بمعنى الترك، من قول الله جل ثناؤه (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) يعنى به تركوا الله فتركهم . فيكون تأويل الآية حينئذ على هذا التأويل : ما ننسخ من آية ، فنغير حكمها ونبدل فرضها نأت بخير من التى نسخناها أو مثلها ، وعلى هذا التأويل تأوّل جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح . قال : حدثنى معاوية ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله (أَوْ نُنْسِها) يقول : أو نتركها لانبدّلها .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى قوله (أَوْ نُنْسِها) نتركها لاننسخها.

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها) قال : الناسخ والمنسوخ .

قال : وكان عبد الرحمن بن زيد يقول فى ذلك ما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (نُنْسِها) نمحها. وقرأ ذلك آخرون أو نَنْسَأها بفتح النون وهمزة بعد السين، بمعنى نؤخرها، من قولك: نسأت هذا الأمر أنسؤه نَسْئًا ونساء إذا أخرته. وهو من قولهم بعته بنساء يعنى بتأخير . ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أنسأ الفتى لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ[1]

يعنى بقوله أنسأ : أخر .

وممن قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين ، وقرأه جماعة من قرّاء الكوفيين والبصريين ، وتأوّله كذلك جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، ويعقوب بن إبراهيم ، قالا : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء فى قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأها) قال : نؤخرها .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى . قال : سمعت بن أبى نجيح ، يقول فى قول الله (أَوْ نَنْسَأها) قال : نرجئها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (أَوْ نَنْسَأها) نرجئها ونؤخرها .

(١) البيت من معلقة طرفة . والرواية المشهورة كما فى شرحى الزوزنى والتبريزى للمعلقات : ما أخطأ .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا فضيل ، عن عطية (أَوْ نَنْسَأها) قال : نؤخرها فلا ننسخها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى عبد الله بن كثير عن عبيد الأزدى ، عن عبيد بن عمير (أَوْ نَنْسَأها) إرجاؤها وتأخيرها . هكذا حدثنا القاسم عن عبد الله بن كثير ، عن عبيد الأزدى ، وإنما هو عن علىّ الأزدى .

حدثنى أحمد بن يوسف ، قال : ثنا القاسم بن سلام ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير ، عن علىّ الأزدى ، عن عبيد بن عمير أنه قرأها (نَنْسَأها) قال : فتأويل من قرأ ذلك كذلك : ما نبدّل من آية أنزلناها إليك يامحمد ، فنبطل حكمها ونثبت خطها ، أو نؤخرها فنرجئها ونقرّها ، فلا نغيرها ولا نبطل حكمها ، نأت بخير منها أو مثلها .

وقد قرأ بعضهم ذلك (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنْسَها) وتأويل هذه القراءة نظير تأويل قراءة من قرأ (أَوْ نُنْسِها) إلا أن معنى أو تَنْسَها : أنت يامحمد .

وقد قرأ بعضهم (ما نُنْسِخْ مِنْ آيَةٍ) بضم النون وكسر السين : بمعنى ما ننسخك يا محمد نحن من آية ، من أنسختك فأنا أُنسخك . وذلك خطأ من القراءة عندنا ، لخروجه عماجاءت به الحجة من القراءة بالنقل المستفيض . وكذلك قراءة من قرأ تُنْسَها أو تَنْسَها ، لشذوذها وخروجها عن القراءة التى جاءت بها الحجة من قراء الأمة .

وأولى القراءات فى قوله (أَوْ نُنْسِها) بالصواب من قرأ : أو نُنْسِها ، بمعنى نتركها ، لأنّ الله جل ثناؤه أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه مهما بدّل حكما أو غيّره ، أو لم يبدّله ولم يغيره ، فهو آتيه بخير منه أو بمثله . فالذى هو أولى بالآية إذ كان ذلك معناها ، أن يكون إذ قدّم الخبر عما هو صانع إذا هو غير وبدّل حكم آية ، أن يعقب ذلك بالخبر عما هو صانع ، إذا هو لم يبدّل ذلك ولم يغير . فالخبر الذى يجب أن يكون عقيب قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) قوله : أو نترك نسخها ، إذ كان ذلك المعروف الجارى فى كلام الناس . مع أن ذلك إذا قرئ كذلك بالمعنى الذى وصفت ، فهو يشتمل على معنى الإنساء ، الذى هو بمعنى الترك ، ومعنى النَّساء الذى هو بمعنى التأخير ، إذكان كل متروك فمؤخر على حال ما ، هو متروك . وقد أنكر قوم قراءة من قرأ (أَوْ نُنْسِها) إذا عنى به النسيان ، وقالوا : غير جائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نسى من القرآن شيئا مما لم ينسخ إلا أن يكون نسى منه شيئا ثم ذكره . قالوا : وبعد فإنه لو نسى منه شيئا لم يكن الذين قرءوه وحفظوه من أصحابه بجائز على جميعهم أن ينسوه .

قالوا : وفى قول الله جل ثناؤه (وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ) ما ينبئ عن أن الله تعالى ذكره لم ينس نبيه شيئا مما آتاه من العلم .

قال أبو جعفر : وهذا قول يشهد على بطوله وفساده ، الأخبار المتظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنحو الذى قلنا .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : حدثنا

أنس بن مالك: إن أولئك السبعين من الأنصار الذين قتلوا ببئر معونة ، قرأنا بهم وفيهم كتابا: بلغوا عنا[١] قومنا أنا لقينا ربنا ، فرضى عنا وأرضانا . ثم إن ذلك رفع . فالذى ذكرنا عن أبى موسى الأشعرى أنهم كانوا يقرءون : « لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى لهما ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » ثم رفع . وما أشبه ذلك من الأخبار التى يطول بإحصائها الكتاب . وغير مستحيل فى فطرة ذى عقل صحيح ، ولا بحجة خبر ، أن ينسىّ الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعض ما قد كان أنزله إليه . فإذا كان ذلك غير مستحيل من أحد هذين الوجهين . فغير جائز لقائل أن يقول ذلك غير جائز .

وأما قوله (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) فإنه جلّ ثناؤه لم يخبر أنه لايذهب بشىء منه ، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه ، فلم يذهب به والحمد لله . بل إنما ذهب بما لاحاجة بهم إليه منه ، وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه . وقد قال الله تعالى ذكره (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ) فأخبر أنه ينسى نبيه منه ماشاء . فالذى ذهب منه الذى استثناه الله . فأما نحن فإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل طلب اتساق الكلام على نظام فى المعنى ، لا إنكار أن يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسى نبيه بعض ما نسخ من وحيه إليه وتنزيله .

القول فى تأويل قوله تعالى (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) ، فقال بعضهم بما حدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) يقول : خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم .

وقال آخرون بما حدثنى به الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) يقول : آية فيها تخفيف ، فيها رحمة ، فيها أمر ، فيها نهى .

وقال آخرون : نأت بخير من التى نسخناها ، أو بخير من التى تركناها فلم ننسخها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) يقول : نأت بخير من التى نسخناها أو مثلها أو مثل التى تركناها . فالهاء والألف اللتان فى قوله (مِنْهَا) عائدتان على هذه المقالة على الآية فى قوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) والهاء والألف اللتان فى قوله (أَوْ مِثْلِهَا) عائدتان على الهاء والألف اللتين فى قوله (أَوْ نُنْسِهَا) .

وقال آخرون بما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : كان عبيد بن عمير يقول (نُنْسِهَا) نرفعها من عندكم ، نأت بمثلها أو بخير منها .

---

(١) قوله « إن أولئك السبعين الخ » عبارة الدر المنثور عن أنس قال : « أنزل الله فى الذين قتلوا ببئر معونة قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد : أن بلغوا الخ » .

حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (أَوْ نُنْسِهَا) نرفعها نأت بخير منها أو بمثلها .

وحدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا بكر بن شوذب ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أصحاب ابن مسعود ، مثله .

والصواب من القول في معنى ذلك عندنا : ماتبدّل من حكم آية فنغيره ، أو نترك تبديله فنقرّه بحاله ، نأت بخير منها لكم من حكم الآية التي نسخنا فغيرنا حكمها ، إما في العاجل لخفته عليكم ، من أجل أنه وضع فرض كان عليكم ، فأسقط ثقله عنكم ، وذلك كالذى كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ، ثم نسخ ذلك فوضع عنهم ، فكان ذلك خيرا لهم في عاجلهم ، لسقوط عبء ذلك وثقل حمله عنهم ؛ وإما في الآجل لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله ، وثقل عبئه على الأبدان ، كالذى كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة ، فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهر كامل في كلّ حول ، فكان فرض صوم شهر كامل كل سنة أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات ، غير أن ذلك وإن كان كذلك ، فالثواب عليه أجزل ، والأجر عليه أكثر ، لفضل مشقته على مكلفيه من صوم أيام معدودات ، فذلك وإن كان على الأبدان أشقّ ، فهو خير من الأول في الآجل لفضل ثوابه ، وعظم أجره ، الذى لم يكن مثله لصوم الأيام المعدودات . فذلك معنى قوله (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) ، لأنه إما بخير منها في العاجل لخفته على من كلفه ، أو في الآجل لعظم ثوابه وكثرة أجره ، أو يكون مثلها في المشقة على البدن ، واستواء الأجر ، والثواب عليه ، نظير نسخ الله تعالى ذكره فرض الصلاة شطر بيت المقدس ، إلى فرضها شطر المسجد الحرام ، فالتوجه شطر بيت المقدس ، وإن خالف التوجه شطر المسجد ، فكلفة التوجه شطر أيهما توجه شطره واحدة ، لأن الذى على المتوجه شطر البيت المقدّس من مؤنة توجهه شطره ، نظير الذى على بدنه من مؤنة توجهه شطر الكعبة سواء ، فذلك هو معنى المثل الذى قال جل ثناؤه (أَوْ مِثْلِهَا) .

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا) ما ننسخ من حكم آية أو ننسه ، غير أن المخاطبين بالآية لما كان مفهوما عندهم معناها اكتفى بدلالة ذكر الآية من ذكر حكمها ، وذلك نظير سائر ماذكرنا من نظائره فيما مضى من كتابنا هذا ، كقوله (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) بمعنى حب العجل ونحو ذلك . فتأويل الآية إذاً : ما نغير من حكم آية فنبدّله ، أو نتركه فلا نبدّله ، نأت بخير لكم أيها المؤمنون حكما منها ، أو مثل حكمها في الخفة والثقل والأجر والثواب .

فإن قال قائل : فإنا قد علمنا أن العجل لايشرب في القلوب ، وأنه لايلتبس على من سمع قوله (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) أن معناه : وأشربوا في قلوبهم حبّ العجل ، فما الذى يدلّ على أن قوله (مانَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) لذلك نظير ؟

قيل : الذى دلّ على أن ذلك كذلك قوله (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْمِثْلِهَا) وغير جائز أن يكون من

القرآن شيء خير من شيء ، لأن جميعه كلام الله ، ولا يجوز فى صفات الله تعالى ذكره أن يقال بعضها أفضل من بعض ، وبعضها خير من بعض .

القول فى تأويل قوله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ألم تعلم يا محمد أنى قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامى ، وغيرته من فرائضى التى كنت افترضتها عليك ، ما أشاء مما هو خير لك ولعبادى المؤمنين معك ، وأنفع لك ولهم ، إما عاجلا فى الدنيا ، وإما آجلا فى الآخرة ، أو بأن أبدل لك ولهم مكانه مثله فى النفع لهم عاجلا فى الدنيا ، وآجلا فى الآخرة ، وشبيهه فى الخفة عليك وعليهم ، فاعلم يا محمد أنى على ذلك وعلى كل شيء قدير ؛ ومعنى قوله (قَدِيرٌ) فى هذا الموضع : قوىّ . يقال منه : قد قدرت على كذا وكذا : إذا قويت عليه أقدر عليه ، وأقدر عليه قدرة وقدرانا ومقدرة ، وبنو مرة من غطفان تقول : قدِرت عليه بكسر الدال ، فأما من التقدير من قول القائل : قَدَرْتُ الشيء فإنه يقال منه : قدرته أقدره قدرا وقدَرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : أو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأنه له ملك السموات والأرض حتى قيل له ذلك ؟ قيل : بلى ، فقد كان بعضهم يقول : إنما ذلك من الله جل ثناؤه خبر عن أن محمدا قد علم ذلك ، ولكنه قد أخرج الكلام مخرج التقرير ، كما تفعل مثله العرب فى خطاب بعضها بعضا ، فيقول أحدهم لصاحبه : ألم أكرمك ، ألم أتفضل عليك ، بمعنى إخباره أنه قد أكرمه وتفضل عليه ، يريد : أليس قد أكرمتك ، أليس قد تفضلت عليك ، بمعنى قد علمت ذلك .

قال : وهذا لا وجه له عندنا ، وذلك أن قوله جل ثناؤه (أَلَمْ تَعْلَمْ) إنما معناه أما علمت ، وهو حرف جحد أدخل عليه حرف استفهام ، وحروف الاستفهام إنما تدخل فى الكلام ، إما بمعنى الاستثبات ، وإما بمعنى النفى ، فأما بمعنى الإثبات فذلك غير معروف فى كلام العرب ، ولا سيما إذا دخلت على حروف الجحد ، ولكن ذلك عندى وإن كان ظَهَرَ ظهور الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فإنما هو معنىّ به أصحابه الذين قال الله جل ثناؤه (لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا) والذى يدلّ على أن ذلك كذلك قوله جل ثناؤه (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) فعاد بالخطاب فى آخر الآية إلى جميعهم ، وقد ابتدأ أولها بخطاب النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لأن المراد بذلك الذين وصفت أمرهم من أصحابه ، وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيح أن يخرج المتكلم كلامه على وجه الخطاب منه لبعض الناس ، وهو قاصد به غيره ، وعلى

وجه الخطاب لواحد ، وهو يقصد به جماعة غيره ، أو جماعة والمخاطب به أحدهم ، وعلى هذا الخطاب للجماعة والمقصود به أحدهم . من ذلك قول الله جل ثناؤه (يا أيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالمُنافِقِينَ) ثم قال (وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فرجع إلى خطاب الجماعة ، وقد ابتدأ الكلام بخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونظير ذلك قول الكميت بن زيد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلى السِّرَاجِ المُنِيرِ أحْمَدَ لا يَعْدِلُنِي رَغْبَةٌ وَلا رَهَبُ
عَنْهُ إلى غيرِهِ وَلَوْ رَفَعَ النَّاسُ إلَيَّ العُيُونَ وَارْتَقَبُوا
وَقِيلَ أفْرَطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْ عَنَّفَنِي القائِلُونَ أوْ ثَلَبُوا
لَجَّ بِتَفْضِيلِكَ اللِّسانُ وَلَوْ أُكْثِرَ فِيكَ الضِّجاجُ وَاللَّجَبُ
أنْتَ المُصَفَّى المَحْضُ المُهَذَّبُ فِى النِّسْبَةِ إنْ نَصَّ قَوْمَكَ النَّسَبُ

فأخرج كلامه على وجه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو قاصد بذلك أهل بيته ، فكنى عن وصفهم ومدحهم بذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعن بنى أمية بالقائلين المعنفين ، لأنه معلوم أنه لاأحد يوصف بتعنيف مادح النبيّ صلى الله عليه وسلم وتفضيله ، ولا بإكثار الضّجاج واللجب فى إطناب القيل بفضله ، وكما قال جميل بن معمر :

ألا إنَّ جِيرَانِي العَشِيَّةَ رَائِحٌ دَعَتْهُمْ دَوَاعٍ مِنْ هَوًى وَمَنَادِحِ

فقال : ألا إن جيرانى العشية ، فابتدأ الخبر عن جماعة جيرانه ، ثم قال رائح ، لأن قصده فى ابتدائه ما ابتدأ به من كلامه الخبر عن واحد منهم دون جماعتهم ، وكما قال جميل أيضا فى كلمته الأخرى :

خَلِيلَيَّ فِيما عِشْتُما هَلْ رَأيْتُما قَتِيلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قاتِلِهِ قَبْلِي

وهو يريد قاتلته ، لأنه إنما يصف امرأة ، فكنى باسم الرجل عنها وهو يعنيها ، فكذلك قوله (ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ) وإن كان ظاهر الكلام على وجه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإنه مقصود به قصد أصحابه ، وذلك بين بدلالة قوله (وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسْألُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) الآيات الثلاث بعد ها على أن ذلك كذلك . أما قوله (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ) ولم يقل ملك السموات ، فإنه عنى بذلك ملك السلطان والمملكة دون الملك ، والعرب إذا أرادت الخبر عن المملكة التى هى مملكة سلطان قالت : ملك الله الخلق مُلْكا ، وإذا أرادت الخبر عن المِلك قالت : ملك فلان هذا الشىء فهو يملكه مِلْكا ومِلْكة ومَلْكا .

فتأويل الآية إذًا : ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى ، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدّل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى ما أشاء إذا أشاء ، وأقرّ منها ما أشاء . وهذا الخبر وإن كان من الله عزّ وجلّ خطابا

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة ،وجحدوا نبوّة عيسى ، وأنكروا محمدا صلى الله عليه وسلم ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة ، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما ، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته ، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه ، وإن له أمرهم بما شاء ونهيهم عما شاء ، ونسخ ما شاء ، وإقرار ما شاء ، وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه ، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه : انقادوا لأمرى ، وانتهوا إلى طاعتى فيما أنسخ وفيما أترك ، فلا أنسخ من أحكامى وحدودى وفرائضى ، ولا يهولنّكم خلاف مخالف لكم فى أمرى ونهيى وناسخى ومنسوخى ، فإنه لاقيِّم بأمركم سواى ، ولا ناصر لكم غيرى ، وأنا المنفرد بولايتكم والدفاع عنكم ، والمتوحد بنصرتكم بعزّى وسلطانى وقوّتى على من ناوأكم وحادّكم ، ونصب حرب العداوة بينه وبينكم ، حتى أعلى حجتكم ، وأجعلها عليهم لكم .
والولىّ معناه فعيل ، من قول القائل : وليت أمر فلان : إذا صرت قيما به فأنا إليه ،فهو وليه وقيمه ، ومن ذلك قيل : فلان ولى عهد المسلمين ، يعنى به : القائم بما عهد إليه من أمر المسلمين ، وأما النصير فإنه فعيل من قولك : نصرتك أنصرك ، فأنا ناصرك ونصيرك ، وهو المؤيد والمقوّى .

وأما معنى قوله (مِنْ دُونِ اللهِ) فإنه سوى الله وبعد الله ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

يانَفْسُ مالَكِ دُونَ اللهِ مِنْ وَاقِ وَمَا عَلَى حَدَثانِ الدَّهْرِ مِنْ بَاقِ

يريد مالك سوى الله وبعد الله من يقيك المكاره .

فمعنى الكلام إذاً : وليس لكم أيها المؤمنون بعد الله من قيم بأمركم ، ولا نصير فيؤيدكم ويقوّيكم فيعينكم على أعدائكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية :

فقال بعضهم بما حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنى يونس بن بكير ، وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قال : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أوعكرمة ، عن ابن عباس « قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهارا، نتبعك ونصدّقك . فأنزل الله فى ذلك من قولهم (أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) الآية » .

وقال آخرون بما حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد، عن قتادة قوله (أمْ تُرِيدُونَ أنْ تَسألُوا رَسُولَكُمْ كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) وكان موسى يسئل، فقيل له : (أرِنا اللهَ جَهْرَةً) .

حدثني موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) أن يريهم الله جهرة ، فسألت العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله ، فيروه جهرة .

وقال آخرون بما حدثني به محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) أن يريهم الله جهرة . فسألت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له الصفا ذهبا . قال : نَعَمْ وَهُوَ لَكُمْ كَمَائِدَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنْ كَفَرْتُمْ ، فأبوا ورجعوا .

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قال : « سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، فقال : نَعَمْ وَهُوَ لَكُمْ كَالْمَائِدَةِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِنْ كَفَرْتُمْ ، فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) أن يريهم الله جهرة » .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

وقال آخرون بما حدثنى به المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : « قال رجل : يا رسول الله لو كانت كفاراتنا كفارات بنى إسرائيل ! فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : اللَّهُمَّ لا نَبْغِيهَا . ما أَعْطَاكُمُ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا فَعَلَ أَحَدُهُمُ الْخَطِيئَةَ وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً على بابه وكَفَّارَتَهَا ، فَإِنْ كَفَّرَهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِى الدُّنْيَا ، وَإِنْ لَمْ يُكَفِّرْهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِى الآخِرَةِ . وَقَدْ أَعْطَاكُمُ اللهُ خَيْرًا مِمَّا أَعْطَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ، قَالَ (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا) . قال : وقال : الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ، وقال : مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ . فأنزل الله (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ) » .

واختلف أهل العربية فى معنى (أَمْ) التى فى قوله (أَمْ تُرِيدُونَ) .

فقال بعض البصريين : هى بمعنى الاستفهام ، وتأويل الكلام : أتريدون أن تسألوا رسولكم ؟

وقال آخرون منهم : هى بمعنى استفهام مستقبل منقطع من الكلام ، كأنك تميل بها إلى أوله كقول العرب : إنها لإبل يا قوم أم شاء ، ولقد كان كذا وكذا أم حدْس نفسى .

قال : وليس قوله (أَمْ تُرِيدُونَ) على الشك ، ولكنه قاله ليقبح له صنيعهم ، واستشهد لقوله ذلك ببيت الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالَا

وقال بعض نحويي الكوفيين : إن شئت جعلت قوله (أَمْ تُرِيدُونَ) استفهاما على كلام قد سبقه ، كما قال جل ثناؤه (الم تَنْزِيلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) فجاءت أم وليس قبلها استفهام ، فكان ذلك عنده دليلا على أنه استفهام مبتدأ على كلام سبقه .

وقال قائل هذه المقالة « أم » فى المعنى تكون ردّا على الاستفهام على جهتين : إحداهما أن تعرف معنى أىّ ، والأخرى أن يستفهم بها ، ويكون على جهة النسق ، وللذى ينوى به الابتداء ، إلا أنه ابتداء متصل بكلام ، فلو ابتدأت كلاما ليس قبله كلام ثم استفهمت لم يكن إلا بالألف أو بهل ، قال : وإن شئت قلت فى قوله (أَمْ تُرِيدُونَ) قبله استفهام فردّ عليه ، وهو فى قوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) . والصواب من القول فى ذلك عندى على ما جاءت به الآثار التى ذكرناها عن أهل التأويل أنه استفهام مبتدأ ، بمعنى : أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم . وإنما جاز أن يستفهم القوم بأم وإن كانت أم أحد شروطها أن تكون نسقا فى الاستفهام لتقدّم ماتقدّمها من الكلام ، لأنها تكون استفهاما مبتدأ إذا تقدمها سابق من الكلام ، ولم يسمع من العرب استفهام بها ولم يتقدمها كلام . ونظيره قوله جل ثناؤه (الم تَنْزِيلُ الكِتابِ لارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) وقد تكون « أم » بمعنى بل إذا سبقها استفهام لايصلح فيه أىّ ، فيقولون : هل لك قِبَلنا حق ، أم أنت رجل معروف بالظلم ؟ وقال الشاعر :

فَوَاللهِ ما أَدْرِى أَسَلْمَى تَغَوَّلَتْ ... أَمِ القَوْمُ أَمْ كُلٌّ إِلَىَّ حَبِيبُ

يعنى : بل كل إلىّ حبيب .

وقد كان بعضهم يقول منكرا قول من زعم أن « أم » فى قوله (أَمْ تُرِيدُونَ) استفهام مستقبل منقطع من الكلام يميل بها إلى أوله أن الأول خبر والثانى استفهام ، والاستفهام لايكون فى الخبر ، والخبر لايكون فى الاستفهام ، ولكن أدركه الشك بزعمه بعد مضىّ الخبر ، فاستفهم .

فإذا كان معنى «أم» ماوصفنا، فتأويل الكلام : أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم من الأشياء ، نظير ما سأل قوم موسى من قبلكم ، فتكفروا إن منعتموه فى مسئلتكم ما لايجوز فى حكمة الله إعطاؤكموه ، أو أهلكوا إن كان مما يجوز فى حكمته عطاؤكموه فأعطاكموه ، ثم كفرتم من بعد ذلك . كما هلك من كان قبلكم من الأمم التى سألت أنبياءها ما لم يكن لها مسئلتها إياهم ، فلما أعطيت كفرت ، فعوجلت بالعقوبات لكفرها بعد إعطاء الله إياها سؤلها .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَمَنْ يَتَبَدَّلْ) ومن يستبدل الكفر ، ويعنى بالكفر : الجحود بالله وبآياته بالإيمان ، يعنى بالتصديق بالله وبآياته ، والإقرار به ، وقد قيل عنى بالكفر فى هذا الموضع الشدة وبالإيمان الرخاء ، ولا أعرف الشدة فى معانى الكفر ، ولا الرخاء فى معنى الإيمان ، إلا أن يكون قائل ذلك أراد بتأويله الكفر بمعنى الشدّة فى هذا الموضع ، وبتأويله الإيمان فى معنى الرخاء ما أعدّ الله للكفار فى الآخرة من

الشدائد، وما أعدّ الله لأهل الإيمان فيها من النعيم، فيكون ذلك وجها وإن كان بعيدا من المفهوم بظاهر الخطاب.

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن أبي العالية (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمَانِ) يقول : يتبدّل الشدّة بالرخاء .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن أبي جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية بمثله .

وفي قوله (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) دليل واضح على ما قلنا من أن هذه الآيات من قوله (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا رَاعِنا) خطاب من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعتاب منه لهم على أمر سلف منهم مما سُرَّ به اليهود وكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، فكرهه الله لهم ، فعاتبهم على ذلك ، وأعلمهم أن اليهود أهل غشّ لهم ، وحسد وبغي ، وأنهم يتمنون لهم المكاره ، ويبغونهم الغوائل ، ونهاهم أن ينتصحوهم ، وأخبرهم أن من ارتدّ منهم عن دينه ، فاستبدل بإيمانه كفرا فقد أخطأ قصد السبيل .

القول في تأويل قوله تعالى (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) .

أما قوله (فَقَدْ ضَلَّ) فإنه يعني به ذهب وحاد ، وأصل الضلال عن الشيء : الذهاب عنه والحيد ، ثم يستعمل في الشيء الهالك والشيء الذي لا يؤبه له ، كقولهم للرجل الخامل الذي لاذكر له ولا نباهة : ضُلّ بن ضُلّ ، وقُلّ بن قُلّ ، كقول الأخطل في الشيء الهالك :

كُنْتَ القَذَى فِي مَوْجِ أكبرِ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلَّ ضَلالا

يعني هلك فذهب .

والذي عنى الله تعالى ذكره بقوله (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) فقد ذهب عن سواء السبيل وحاد عنه .

وأما تأويل قوله (سَوَاءَ السَّبِيلِ) فإنه يعني بالسواء : القصد والمنهج ، وأصل السواء : الوسط ، ذكر عن عيسى بن عمر النحوي أنه قال : ما زلت أكتب حتى انقطع سوائي ، يعني وسطي ، وقال حسان بن ثابت :

يا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَنَسْلِهِ بَعْدَ المُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ المُلْحَدِ

يعني بالسواء : الوسط ، والعرب تقول : هو في سواء السبيل ، يعني في مستوى السبيل ، وسواء الأرض : مستواها عندهم ، وأما السبيل فإنها الطريق المسبول صُرِّف من مسبول إلى سبيل .

فتأويل الكلام إذًا : ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفر ، فيرتدّ عن دينه ، فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول ، وهذا القول ظاهره الخبر عن زوال المستبدل بالإيمان الكفر عن الطريق ، والمعنى به الخبر عنه : أنه ترك دين الله الذي ارتضاه لعباده ، وجعله لهم طريقا يسلكونه إلى رضاه ، وسبيلا يركبونها إلى محبته ، والفوز بجناته ، فجعل جل ثناؤه الطريق الذي إذا ركب محجته السائر فيه ، ولزم وسطه

المجتاز فيه ، نجا وبلغ حاجته ، وأدرك طلبته لدينه الذى دعا إليه عباده مثلا لإدراكهم بلزومه واتباعه إدراكهم طلباتهم فى آخرتهم ، كالذى يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها طلبته من النجاة منها والوصول إلى الموضع الذى أمَّه وقصده ، وجعل مثل الحائد عن دينه والجائر عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته فى حياته ، ما رجا أن يدركه بعمله فى آخرته ، وينال به فى معاده وذهابه ، عما أمل من ثواب عمله ، وبعده به من ربه ، مثل الحائد عن منهج الطريق ، وقصد السبيل ، الذى لا يزداد وغولا فى الوجه الذى سلكه ، إلا ازداد من موضع حاجته بعدا ، وعن المكان الذى أمه وأراده نأيا . وهذه السبيل التى أخبر الله عنها ، أن من يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواءها ، هى الصراط المستقيم ، الذى أمرنا بمسئلته الهداية له بقوله (اهْدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

قال أبو جعفر : وقد صرّح هذا القول من قول الله جل ثناؤه ، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا) وإن صرف فى نفسه الكلام إلى خطاب النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما هو خطاب منه للمؤمنين وأصحابه ، وعتاب منه لهم ، ونهى عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم فى شىء من أمور دينهم ، ودليل على أنهم كانوا استعملوا ، أو من استعمل منهم فى خطابه ومسئلته رسول الله صلى الله عليه وسلم الجفاء ، وما لم يكن له استعماله معه تأسيا باليهود فى ذلك أو ببعضهم ، قال لهم ربهم ناهيا عن استعمال ذلك : لا تقولوا لنبيكم صلى الله عليه وسلم كما تقول له اليهود : راعنا تأسيا منكم بهم ، ولكن قولوا : انظرنا واسمعوا ، فإن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر بى وجحود لحقى الواجب لى عليكم فى تعظيمه وتوقيره ، ولمن كفر بى عذاب أليم . فإن اليهود والمشركين ما يودّون أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، ولكن كثيرا منهم ودّوا أنهم يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، من بعد ما تبين لهم الحقّ فى أمر محمد ، وأنه نبىّ إليهم وإلى خلقى كافة ، وقد قيل إن الله جل ثناؤه عنى بقوله (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) كعب بن الأشرف .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرى فى قوله (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) هو كعب بن الأشرف .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا أبو سفيان العمرى ، عن معمر ، عن الزهرى وقتادة

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) قال كعب بن الأشرف . وقال بعضهم بما حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثنى ابن إسحق ، وحدثنا أبوكريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان حُيَى بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشدّ يهود للعرب حسدا ، إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهدين فى ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله فيهما (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ) الآية . وليس لقول القائل، عنى بقوله (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) كعب بن الأشرف معنى مفهوم ، لأن كعب بن الأشرف واحد ، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيرا منهم يودّون لو يردّون المؤمنين كفارا بعد إيمانهم ، والواحد لايقال له كثير بمعنى الكثرة فى العدد ، إلا أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة التى وصف الله بها من وصفه بها فى هذه الآية، الكثرة فى العزّ ورفعة المنزلة فى قومه وعشيرته ، كما يقال : فلان فى الناس كثير ، يراد به كثرة المنزلة والقدر .

فإن كان أراد ذلك فقد أخطأ ، لأن الله جل ثناؤه قد وصفهم بصفة الجماعة . فقال (لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا) فذلك دليل على أنه عنى الكثرة فى العدد ، أو يكون ظن أنه من الكلام الذى يخرج مخرج الخبر عن الجماعة ، والمقصود بالخبر عنه الواحد ، نظير ما قلنا آنفا فى بيت جميل . فيكون ذلك أيضا خطأ . وذلك أن الكلام إذا كان بذلك المعنى ، فلا بد من دلالة فيه تدلّ على أن ذلك معناه ، ولا دلالة تدلّ فى قوله (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) أن المراد به واحد دون جماعة كثيرة ، فيجوز صرف تأويل الآية إلى ذلك ، وإحالة دليل ظاهره إلى غير الغالب فى الاستعمال .

القول فى تأويل قوله تعالى (حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)

ويعنى جل ثناؤه بقوله (حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) أن كثيرا من أهل الكتاب يودّون للمؤمنين ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم ، من الردّة عن إيمانهم إلى الكفر حسدا منهم ، وبغيا عليهم ، والحسد إذاً منصوب على غير النعت للكفار ، ولكن على وجه المصدر الذى يأتى خارجا من معنى الكلام الذى يخالف لفظه لفظ المصدر . كقول القائل لغيره : تمنيت لك ما تمنيت من السوء حسدا منى لك . فيكون الحسد مصدرا من معنى قوله : تمنيت من السوء ، لأن فى قوله تمنيت لك ذلك ، معنى حسدتك على ذلك ، فعلى هذا نصب الحسد ، لأن فى قوله (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا) يعنى : حسدكم أهل الكتاب على ما أعطاكم الله من التوفيق ، ووهب لكم من الرشاد لدينه ، والإيمان برسوله ، وخصكم به من أن جعل رسوله إليكم رجلا منكم ، رءوفا بكم رحيما ، ولم يجعله منهم ، فتكونوا لهم تبعا ، فكان قوله (حَسَدًا) مصدرا من ذلك المعنى .

وأما قوله (مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) فإنه يعنى بذلك : من قبل أنفسهم ، كما يقول القائل : لى عندك كذا وكذا ، بمعنى لى قبلك .

وكما حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر قوله (مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) وإنما أخبر الله جل ثناؤه

عنهم المؤمنين أنهم ودّوا ذلك للمؤمنين من عند أنفسهم ، إعلاما منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك فى كتابهم ، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على علم منهم بنهى الله إياهم عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحقّ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) أى من بعد ما تبين لهؤلاء الكثير من أهل الكتاب الذين يودّون أنهم يردونكم كفارا من بعد إيمانكم ، الحقّ فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند ربه ، والملة التى دعا إليها ، فأضاء لهم أن ذلك الحقّ الذى لايمترون فيه .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) من بعد ما تبين لهم أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإسلام دين الله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) يقول : تبين لهم أن محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله ؛ وزاد فيه : فكفروا به حسدا وبغيا ، إذ كان من غيرهم .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (مِنْ بَعْدِ ماتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) قال : الحقّ : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فتبين لهم أنه هو الرسول .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ) قال : قد تبين لهم أنه رسول الله .

قال أبو جعفر : فدلّ بقوله ذلك أن كفر الذين قصّ قصّتهم فى هذه الآية بالله وبرسوله عناد ، وعلى علم منهم ومعرفة بأنهم على الله مفترون .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عثمان بن سعيد ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ) يقول الله تعالى ذكره : من بعد ما أضاء لهم الحقّ لم يجهلوا منه شيئا ، ولكن الحسد حملهم على الجحد ، فعيرهم الله ولامهم ووبخهم أشدّ الملامة .

القول فى تأويل قوله تعالى (فاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (فاعْفُوا) فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ فى رأى أشاروا به عليكم فى دينكم ، إرادة صدكم عنه ، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم ، وعما سلف منهم من قيلهم لنبيكم صلى الله عليه وسلم (اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فى الدِّينِ) واصفحوا عما كان منهم من جهل فى ذلك ، حتى يأتى الله بأمره ، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء ، ويقضى فيهم مايريد ، فقضى فيهم تعالى ذكره ، وأتى بأمره ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به (قاتِلُوا الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلا يُحَرِّمُونَ ماحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الكِتابَ حتّى يُعطُوا الجزيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) فنسخ الله جل ثناؤه العفو عنهم ، والصفح بفرض قتالهم على المؤمنين ، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة ، أو يؤدّوا الجزية عن يد صغارا .

كما حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله (فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ) ونسخ ذلك قوله (فاقتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتّى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ) فأتى الله بأمره ، فقال (قاتِلُوا الّذِينَ لايُؤْمِنُونَ باللهِ وَلا باليَوْمِ الآخِرِ) حتى بلغ (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى صغارا ونقمة لهم ، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها (فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ) .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتّى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ) قال : اعفوا عن أهل الكتاب حتى يحدث الله أمرا ، فأحدث الله بعد فقال (قاتِلُوا الّذِينَ لايُؤْمِنُونَ باللهِ وَلا باليَوْمِ الآخِرِ) إلى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ) قال : نسخها (اقتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتّى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ) قال: هذا منسوخ نسخه (قاتِلُوا الّذِينَ لايُؤْمِنُونَ باللهِ وَلا باليَوْمِ الآخِرِ) إلى قوله (وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

قال أبو جعفر: قد دللنا فيا مضى على معنى القدير ، وأنه القوىّ ؛ فمعنى الآية ههنا : أن الله على كل مايشاء بالذين وصفت لكم أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم ، قدير إن شاء الانتقام منهم بعنادهم ربهم ، وإن شاء هداهم لما هداكم الله له من الإيمان ، لا يتعذّر عليه شىء أراده ، ولا يتعذّر عليه أمر شاء قضاءه ، لأن له الخلق والأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

قال أبو جعفر : قد دللنا فيا مضى على معنى إقامة الصلاة ، وأنها أداؤها بحدودها وفروضها ، وعلى تأويل الصلاة ، وما أصلها ، وعلى معنى إيتاء الزكاة ، وأنه إعطاؤها بطيب نفس ، على مافرضت ووجبت ،

وعلى معنى الزكاة ، واختلاف المختلفين فيها ، والشواهد الدالة على صحة القول الذى اخترنا فى ذلك بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .

وأما قوله (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ) فإنه يعنى جل ثناؤه بذلك : ومهما تعملوا من عمل صالح فى أيام حياتكم فتقدموه قبل وفاتكم ذخرا لأنفسكم فى معادكم ، تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة فيجازيكم به ؛ والخير : هو العمل الذى يرضاه الله . وإنما قال (تَجِدُوهُ) والمعنى : تجدوا ثوابه .

كما حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (تَجِدُوهُ) يعنى : تجدوا ثوابه عند الله .

قال أبو جعفر : لاستغناء سامعى ذلك بدليل ظاهر على معنى المراد منه ، كما قال عمرو بن لجأ :

وَسَبَّحَتِ المَدِينَةُ لا تَلُمْهَا رأَتْ قَمَرًا بِسُوقِهِمُ نَهَارَا

وإنما أراد : وسبح أهل المدينة ، وإنما أمرهم جل ثناؤه فى هذا الموضع بما أمرهم به من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وتقديم الخيرات لأنفسهم ، ليطهروا بذلك من الخطأ الذى سلف منهم فى استنصاحهم اليهود ، وركون من كان ركن منهم إليهم ، وجفاء من كان جفا منهم فى خطابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (رَاعِنا) إذ كانت إقامة الصلوات كفارة للذنوب ، وإيتاء الزكاة تطهيرا للنفوس والأبدان من أدناس الآثام ، وفى تقديم الخيرات إدراك الفوز برضوان الله .

القول فى تأويل قوله تعالى (إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين ، أنهم مهما فعلوا من خير وشر سرًّا وعلانية ، فهو به بصير لايخفى عليه منه شىء ، فيجزيهم بالإحسان جزاءه ، وبالإساءة مثلها . وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعدا ووعيدا ، وأمرا وزجرا ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدّوا فى طاعته ، إذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، كما قال (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ) وليحذروا معصيته ، إذ كان مطلعا على راكبها بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها ، وما أوعد عليه ربنا جل ثناؤه فمنهىّ عنه ، وما وعد عليه فمأمور به .

أما قوله (بَصِيرٌ) فإنه مبصر ، صرف إلى بصير ، كما صرف مُبدع إلى بديع ، ومؤلم إلى أليم .

القول فى تأويل قوله تعالى جل ذكره :

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَقَالُوا) وقالت اليهود والنصارى (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) .

فإن قال قائل : وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين ، واليهود تدفع

النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب ، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك ؟ قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه ، وإنما عنى به وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى ، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به معناه جمع الفريقان فى الخبر عنهما ، فقيل (قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) الآية ، أى قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . وأما قوله (مَنْ كَانَ هُوداً) فإن فى الهود قولين : أحدهما أن يكون جمع هائد ، كما جاء عُوط جمع عائط ، وعوذ جمع عائذ ، وحُول جمع حائل ، فيكون جمعا للمذكر والمؤنث بلفظ واحد ، والهائد : التائب الراجع إلى الحق . والآخر أن يكون مصدرا عن الجميع ، كما يقال : رجل صوم ، وقوم صوم ، ورجل فطر ، وقوم فطر ، ونسوة فطر .

وقد قيل : إن قوله (إلا مَنْ كَانَ هُوداً) إنما هو قوله : إلا من كان يهودا ، ولكنه حذف الياء الزائدة ، ورجع إلى الفعل من اليهودية .

وقيل : إنه فى قراءة أبىّ إلا من كان يهوديا أو نصرانيا ، وقد بينا فيما مضى معنى النصارى ، ولم سميت بذلك وجمعت كذلك ، بما أغنى عن إعادته .

وأما قوله (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن قول الذين قالوا (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) أنه أمانىّ منهم يتمنونها على الله بغير حقّ ولا حجة ولا برهان ولا يقين علم بصحة مايدّعون ، ولكن بادّعاء الأباطيل وأمانى النفوس الكاذبة .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) أمانىّ يتمنونها على الله كاذبة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) قال : أمانىّ تمنوا على الله بغير الحقّ .

القول فى تأويل قوله تعالى (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم بدعاء الذين (قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى) إلى أمر عدل بين جميع الفرق ، مسلمها ويهودها ونصاراها ، وهو إقامة الحجة على دعواهم التى ادعوا من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد قل للزاعمين إن الجنة لايدخلها إلا من كان هودا أو نصارى دون غيرهم من سائر البشر ، هاتوا برهانكم على ما تزعمون من ذلك ، فنسلم لكم دعواكم إن كنتم فى دعواكم من أن الجنة لايدخلها إلا من كان هودا أو نصارى محقين ، والبرهان : هو البيان والحجة والبينة .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) هاتوا بينتكم .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) هاتوا حجتكم

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) قال : حجتكم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) أى حجتكم . وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلين (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) إلى إحضار حجة على دعواهم ، ما ادّعوا من ذلك ، فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم فى دعواهم وقيلهم ، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدا .

وقد أبان قوله (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) على أن الذى ذكرنا من الكلام بمعنى التكذيب لليهود والنصارى فى دعواهم ما ذكر الله عنهم .

وأما تأويل قوله (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) فإنه احضروا وأتوا به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

يعنى بقوله جل ثناوه (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ) أنه ليس كما قال الزاعمون (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) ولكن من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فهو الذى يدخلها وينعم فيها .

كما حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : أخبرهم أن من يدخل الجنة هو من أسلم وجهه لله الآية وقد بينا معنى (بَلَى) فيما مضى قبل .

وأما قوله (مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) فإنه يعنى بإسلام الوجه التذلل لطاعته ، والإذعان لأمره . وأصل الإسلام : الاستسلام ، لأنه من استسلمت لأمره ، وهو الخضوع لأمره . وإنما سمى المسلم مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه .

كما حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يقول : أخلص لله . وكما قال زيد بن عمرو بن نُفَيل :

وأَسْلَمْتُ وَجْهِى لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلالا

يعنى بذلك استسلمتُ لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت له .

وخصّ الله جل ثناؤه بالخبر عمن أخبر عنه بقوله (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) بإسلام وجهه له دون سائر جوارحه ، لأن أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه وجهه ، وهو أعظمها عليه حرْمة وحقا ، فإذا خضع لشيء وجهه الذى هو أكرم أجزاء جسده عليه ، فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له ،

ولذلك تذكر العرب فى منطقها الخبر عن الشىء، فتضيفه إلى وجهه، وهى تعنى بذلك نفس الشىء وعينه، كقول الأعشى :

وأوّلِ الحُكْمَ على وَجْهِهِ ليْسَ قَضَائى بالهَوَى الجائرِ

يعنى بقوله على وجهه : على ما هو به من صحته وصوابه، وكما قال ذو الرمة :

فَطاوَعْتُ هَمّى وانْجَلَى وَجْهُ نازِلٍ مِنَ الأمْرِ لَمْ يَتْرُكْ خِلاجًا نزُولُهَا

يريد : وانجلى النازل من الأمر فتبين، وما أشبه ذلك، إذ كان حسن كل شىء وقبحه فى وجهه، وكان فى وصفها من الشىء وجهه بما تصفه به إبانة عن عين الشىء ونفسه.

فكذلك معنى قوله جل ثناؤه (بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ) إنما يعنى : بلى من أسلم لله بدنه، فخضع له بالطاعة جسده (وَهُوَ مُحْسِنٌ) فى إسلامه له جسده (فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)، فاكتفى بذكر الوجه من ذكر جسده، لدلالة الكلام على المعنى الذى أريد به بذكر الوجه.

وأما قوله (وَهُوَ مُحْسِنٌ) فإنه يعنى به فى حال إحسانه، وتأويل الكلام : بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له محسنا فى فعله ذلك.

القول فى تأويل قوله (فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

يعنى بقوله جل ثناؤه (فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فللمسلم وجهه لله محسنا جزاؤه وثوابه على إسلامه وطاعته ربه عند الله فى معاده.

ويعنى بقوله (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) على المسلمين وجوههم لله، وهم محسنون : المخلصين له الدين فى الآخرة من عقابه وعذاب جحيمه، وما قدموا عليه من أعمالهم.

ويعنى بقوله (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم فى الدنيا، ولا أن يمنعوا ما قدموا عليه من نعيم ما أعدّ الله لأهل طاعته.

وإنما قال جل ثناؤه (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) وقد قال قبل (فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) لأن مَن التى فى قوله (بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ) فى لفظ واحد ومعنى جميع، فالتوحيد فى قوله : (فَلَهُ أجْرُهُ) للفظ، والجمع فى قوله (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) للمعنى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

قال أبو جعفر : ذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من أهل الكتابين تنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض،

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، وحدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قالا جميعا : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : «لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رافع بن حُرَيملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى بن مريم وبالإنجيل، فقال رجل من أهل نجران من النصارى : ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهما (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) إلى قوله (فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) » .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ،وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) قال : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأما تأويل الآية ، فإنه قالت اليهود : ليست النصارى فى دينها على صواب ، وقالت النصارى : ليست اليهود فى دينها على صواب .

وإنما أخبر الله عنهم بقيلهم ذلك للمؤمنين إعلاما منه لهم بتضييع كل فريق منهم حكم الكتاب الذى يظهر الإقرار بصحته ، وأنه من عند الله ، وجحودهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه ، لأن الإنجيل الذى تدين بصحته وحقيقته النصارى، يحقق ما فى التوراة من نبوّة موسى عليه السلام ، وما فرض الله على بنى إسرائيل فيها من الفرائض، وأن التوراة التى تدين بصحتها وحقيقتها اليهود ، تحقق نبوّة عيسى عليه السلام، وما جاء به من عند الله من الأحكام والفرائض . ثم قال كل فريق منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم فى قوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ،وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ)، مع تلاوة كل واحد من الفريقين كتابه الذى يشهد على كذبه فى قيله ذلك .

فأخبر جل ثناؤه أن كل فريق منهم قال ما قال من ذلك على علم منهم أنهم فيما قالوه مبطلون ، وأتوا ما أتوا من كفرهم بما كفروا به على معرفة منهم بأنهم فيه ملحدون .

فإن قال لنا قائل : أوَ كانت اليهود والنصارى بعد أن بعث الله رسوله على شيء ، فيكون الفريق القائل منهم ذلك للفريق الآخر مبطلا فى قيله ما قال من ذلك ؟ قيل : قد روينا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس قبل ، من أن إنكار كل فريق منهم إنما كان إنكارا لنبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، الذى ينتحل التصديق به ، وبما جاء به الفريق الآخر ، لادفعا منهم أن يكون الفريق الآخر فى الحال التى بعث الله فيها نبينا صلى الله عليه وسلم على شيء من دينه ، بسبب جحوده نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف يجوز أن يكون معنى ذلك إنكار كل فريق منهم أن يكون الفريق الآخر على شيء بعد بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكلا الفريقين كان جاحدا نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فى الحال التى أنزل الله فيها هذه الآية .

ولكن معنى ذلك : وقالت اليهود : ليست النصارى على شىء من دينها منذ دانت دينها ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء منذ دانت دينها ، وذلك هو معنى الخبر الذى رويناه عن ابن عباس آنفا، فكذّب الله الفريقين فى قيلهما ما قالا .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ) قال : بلى قد كانت أوائل النصارى على شىء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا (وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) ولكن القوم ابتدعوا وتفرّقوا .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) قال : قال مجاهد : قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شىء .

وأما قوله (وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) فإنه يعنى به كتاب الله التوراة والإنجيل ، وهما شاهدان على فريقى اليهود والنصارى بالكفر ، وخلافهم أمر الله الذى أمرهم به فيه .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قالا جميعا : ثنا ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله (وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) أى كل يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به : أى يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم من الميثاق على لسان موسى بالتصديق بعيسى عليه السلام ، وفى الإنجيل مما جاء به عيسى تصديق موسى ، وما جاء به من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما فى يد صاحبه .

القول فى تأويل قوله تعالى (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) .

اختلف أهل التأويل فى الذين عَنَى الله بقوله (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

فقال بعضهم بما حدثنى به المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) قال : وقالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم .

حدثنا بشر بن سعيد ، عن قتادة (قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) قال : قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم .

وقال آخرون بما حدثنا به القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والإنجيل .

وقال بعضهم : عنى بذلك مشركى العرب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، فنسبوا إلى الجهل ، ونفى عنهم من أجل ذلك العلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ

لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) فهم العرب ، قالوا : ليس محمد صلى الله عليه وسلم على شىء .

والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أخبر تبارك وتعالى ، عن قوم وصفهم بالجهل ، ونفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين ، أنهم قالوا بجهلهم نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض ، مما أخبر الله عنهم أنهم قالوه فى قوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ) وجائز أن يكونوا هم المشركين من العرب ، وجائز أن يكونوا أمة كانت قبل اليهود والنصارى ، ولا أمة أولى أن يقال هى التى عنيت بذلك من أخرى ، إذ لم يكن فى الآية دلالة على أىّ من أىّ[1] ، ولا خبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتت حجته من جهة نقل الواحد العدل ، ولا من جهة النقل المستفيض .

وإنما قصد الله جل ثناؤه بقوله (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) إعلام المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أتوا من قيل الباطل ، وافتراء الكذب على الله ، وجحود نبوّة الأنبياء والرسل ، وهم أهل كتاب يعلمون أنهم فيما يقولون مبطلون ، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون ، وعلى الله مفترون ، مثل الذى قاله أهل الجهل بالله وكتبه ورسله ، الذين لم يبعث الله لهم رسولا ولا أوحى إليهم كتابا .

وهذه الآية تنبئ عن أن من أتى شيئا من معاصى الله على علم منه بنهى الله عنها ، فمصيبته فى دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلا به ، لأن الله تعالى ذكره عظم توبيخ اليهود والنصارى بما وبخهم به فى قيلهم ما أخبر عنهم بقوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ) من أجل أنهم أهل كتاب قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مبطلون .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

يعنى بذلك جل ثناؤه : فالله يقضى ، فيفصل بين هؤلاء المختلفين القائل بعضهم لبعض : لستم على شىء من دينكم يوم قيام الخلق لربهم من قبورهم ، فيتبين المحقّ منهم من المبطل بإثابته المحقّ ما وعد أهل طاعته على أعماله الصالحة ، ومجازاته المبطل منهم بما أوعد أهل الكفر به على كفرهم به فيما كانوا فيه يختلفون ، من أديانهم ومللهم فى دار الدنيا . وأما القيامة فهى مصدر من قول القائل : قمت قياما وقيامة ، كما يقال : عدت فلانا عيادة ، وصنت هذا الأمر صيانة ، وإنما عنى بالقيامة : قيام الخلق من قبورهم لربهم ؛ فمعنى يوم القيامة : يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

قد دللنا فيما مضى قبلُ على أن تأويل الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه . وتأويل قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) وأىّ امرئ أشدّ تعدّيا وجراءة على الله وخلافا لأمره ، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها ؟

(١) كذا فى مخطوطة دار الكتب رقم ٤٣ م .

والمساجد : جمع مسجد ، وهو كل موضع عبد الله فيه ، وقد بينا معنى السجود فيما مضى ، فمعنى المسجد : الموضع الذى يسجد لله فيه ، كما يقال للموضع الذى يجلس فيه : المجلس ، وللموضع الذى ينزل فيه : منزل . ثم يجمع منازل ومجالس نظير مسجد ومساجد . وقد حكى سماعا من بعض العرب مساجد فى واحد المساجد ، وذلك كالخطأ من قائله .

وأما قوله (أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) فإن فيه وجهين من التأويل : أحدهما أن يكون معناه : ومن أظلم ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه ، فتكون «أن» حينئذ نصبا من قول بعض أهل العربية بفقد الخافض وتعلق الفعل بها . والوجه الآخر أن يكون معناه : ومن أظلم ممن منع أن يذكر اسم الله فى مساجده . فتكون أن حينئذ فى موضع نصب تكريرا على موضع المساجد ، ورداًّ عليه .

وأما قوله (وَسَعَى فى خَرَابِها) فإن معناه : ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وممن سعى فى خراب مساجد الله . فسعى إذاً عطف على منع .

فإن قال قائل : ومن الذى عنى بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها) وأىّ المساجد هى ؟ قيل : إن أهل التأويل فى ذلك مختلفون ؛ فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) أنهم النصارى .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها) النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

وقال آخرون : هو بختنصر وجنده ، ومن أعانهم من النصارى ، والمسجد : مسجد بيت المقدس .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) الآية ، أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسىّ على تخريب بيت المقدس .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها) قال : هو بختنصر وأصحابه خرّب بيت المقدس ، وأعانه على ذلك النصارى .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ

اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها) قال : الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس ، حتى خرّبه وأمر به أن تطرح فيه الجيف . وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا .

وقال آخرون : بل عنى الله عزّ وجل بهذه الآية مشركى قريش ، إذ منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها) قال : هؤلاء المشركون ، حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طُوَى وهادنهم ، وقال لهم : ما كان أحد يردّ عن هذا البيت . وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصدّه . وقالوا : لايدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق . وفى قوله (وَسَعَى فى خَرَابِها) قالوا : إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحجّ والعمرة .

وأولى التأويلات التى ذكرتها بتأويل الآية قول من قال : عنى الله عز وجل بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ) النصارى . وذلك أنهم هم الذين سعوا فى خراب بيت المقدس . وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمنى بنى إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده .

والدليل على صحة ما قلنا فى ذلك قيام الحجة بأن لاقول فى معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التى ذكرناها ، وأن لامسجد عنى الله عزّ وجل بقوله (وَسَعَى فِي خَرَابِها) إلا أحد المسجدين : إما مسجد بيت المقدس ، وإما المسجد الحرام . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان معلوما أن مشركى قريش لم يسعوا قط فى تخريب المسجد الحرام وإن كانوا قد منعوا فى بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه ، صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله عزّ وجل بالسعى فى خراب مساجده ، غير الذين وصفهم الله بعمارتها ، إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام فى الجاهلية ، وبعمارته كان افتخارهم ، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذى يرضاه الله منهم . وأخرى : أن الآية التى قبل قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ) مضت بالخبر عن اليهود والنصارى ، وذمّ أفعالهم ، والتى بعدها نبهت بذمّ النصارى ، والخبر عن افترائهم على ربهم ، ولم يجر لقريش ولا لمشركى العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها ، فيوجه الخبر بقول الله عز وجل (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ) إليهم وإلى المسجد الحرام . وإذ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه ، هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، إذ كان خبرها لخبرهما نظيرا وشكلا ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك وإن اتفقت قصصها فاشتبهت .

فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا فى ذلك ليس كذلك ، إذ كان المسلمون لم يلزمهم قطُّ فرض الصلاة فى المسجد المقدّس ، فمنعوا من الصلاة فيه ، فيلجئون [1] توجيه قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) إلى أنه معنىّ به مسجد بيت المقدس ، فقد أخطأ فيما ظنّ من ذلك . وذلك أن الله جل ذكره ، إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة فى بيت المقدس من مؤمنى بنى إسرائيل ، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم ، والسعى فى خراب المسجد ، وإن كان قد دلّ بعموم قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) أن كل مانع مصليا فى مسجد الله فرضا كانت صلاته فيه أو تطوعا ، وكل ساع فى إخرابه فهو من المعتدين الظالمين .

القول فى تأويل قوله جل ذكره (أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ)

وهذا خبر من الله عزّ وجل عمن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، أنه قد حرّم عليهم دخول المساجد التى سعوا فى تخريبها ، ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها ما داموا على مناصبة الحرب إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهموها .

كالذى حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) وهم اليوم كذلك ، لايوجد نصرانى فى بيت المقدس إلا نهك ضربا ، وأبلغ إليه فى العقوبة .

حدثنا الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال الله عزّ وجل : (مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) وهم النصارى ، فلا يدخلون المسجد إلا مسارقة ، إن قدر عليهم عوقبوا .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) فليس فى الأرض رومىّ يدخلها اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه ، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤدّيها .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) قال : نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَحُجُّ بَعْدَ العامِ مُشْرِكٌ ، وَلا يَطُوفُ بِالبَيْتِ عُرْيانٌ » قال : فجعل المشركون يقولون : اللهم إنا منعنا أن ننزل .

وإنما قيل (أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) فأخرج على وجه الخبر عن الجميع ، وهو خبر عمن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، لأن من فى معنى الجميع وإن كان لفظه واحدا .

القول فى تأويل قوله تعالى (لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

أما قوله عزّ وجل (لَهُمْ) فإنه يعنى الذين أخبر عنهم أنهم منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .

وأما قوله (لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ) فإنه يعنى بالخزى : العار والشرّ والذلة ، إما القتل والسباء ، وإما الذلة والصغار بأداء الجزية .

(١) « قوله : فيلجئون » كذا فى الأصل ، وفى مخطوطة الدار رقم ٤٣ م ، ولعل الكلمة محرفة عن « فيكون » ، فتأمل .

كما حدثنا الحسن ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة (لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ) قال : يعطُون الجزية عن يد وهم صاغرون .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى قوله (لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ) أما خزيهم فى الدنيا : فإنهم إذا قام المهدىّ وفتحت القسطنطينية قتلهم ، فذلك الخزى ؛ وأما العذاب العظيم : فإنه عذاب جهنم الذى لا يخفف عن أهله ، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا .

وتأويل الآية : لهم فى الدنيا الذلة والهوان ، والقتل والسبى ، على منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعيهم فى خرابها ، ولهم على معصيتهم وكفرهم بربهم ، وسعيهم فى الأرض فسادا عذاب جهنم ، وهو العذاب العظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) لله ملكهما وتدبيرهما ، كما يقال لفلان هذه الدار ، يعنى بها أنها له ملكا ، فذلك قوله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) يعنى أنهما له ملكا وخلقا . والمشرق : هو موضع شروق الشمس ، وهو موضع طلوعها ، كما يقال لموضع طلوعها منه مطلع بكسر اللام ، وكما بينا فى معنى المساجد آنفا .

فإن قال قائل : أو ما كان لله إلا مشرق واحد ومغرب واحد ، حتى قيل (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) ؟ قيل : إن معنى ذلك غير الذى ذهبتَ إليه ، وإنما معنى ذلك : ولله المشرق الذى تشرق منه الشمس كل يوم ، والمغرب الذى تغرب فيه كل يوم . فتأويله إذا كان ذلك : معناه ولله ما بين قطرى المشرق ، وما بين قطرى المغرب ، إذ كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذى بعده ، وكذلك غروبها كل يوم .

فإن قال : أوَ ليس وإن كان تأويل ذلك ما ذكرت : فلله كل ما دونه الخلق خلقه[1] ؟ قيل : بلى .

فإن قال : فكيف خصّ المشارق والمغارب بالخبر عنها ، أنها له فى هذا الموضع دون سائر الأشياء غيرها ؟ قيل : قد اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله خصّ الله ذكر ذلك بما خصه به فى هذا الموضع ، ونحن مبينو الذى هو أولى بتأويل الآية بعد ذكرنا أقوالهم فى ذلك ، فقال بعضهم : خصّ الله جل ثناؤه ذلك بالخبر ، من أجل أن اليهود كانت توجه فى صلاتها وجوهها قبل بيت المقدس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مدة ، ثم حوّلوا إلى الكعبة ، فاستنكرت اليهود ذلك من فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا (مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا) فقال الله تبارك وتعالى لهم : المشارق والمغارب كلها لى ، أصرف وجوه عبادى كيف أشاء منها ، فحيثما تولّوا فثم وجه الله .

---

(١) كذا فى مخطوطة الدار رقم ٤٣ م .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عن علىّ عن ابن عباس ، قال : «كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، أمره الله عزّ وجلّ أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ قبلة إبراهيم عليه السلام فكان يدعو وينظر إلى السماء ، فأنزل الله تبارك وتعالى (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) إلى قوله (فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) فارتاب من ذلك اليهود ، وقالوا (ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا) فأنزل الله عزّ وجل (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) وقال (أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ).

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى نحوه .

وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين به التوجه شطر المسجد الحرام ، وإنما أنزلها عليه معلما نبيه عليه الصلاة والسلام بذلك وأصحابه ، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة ، حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب ، لأنهم لايوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية ، إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية ، لأن له المشارق والمغارب ، وأنه لايخلو منه مكان كما قال جل وعزّ (وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم فى التوجه شطر المسجد الحرام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد عن قتادة قوله جل وعز (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) ثم نسخ ذلك بعد ذلك ، فقال الله (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ).

حدثت عن الحسن ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) قال : هى القبلة ، ثم نسختها القبلة إلى المسجد الحرام .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحجاج بن المنهال ، قال : ثنا همام ، قال : ثنا يحيى ، قال : سمعت قتادة فى قول الله (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) قال : كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة وبعد ما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم وجه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام ، فنسخها الله فى آية أخرى (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) إلى (وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) قال : فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر القبلة .

حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعته ، يعنى زيدا يقول : قال عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَؤُلاءِ قَوْمُ يَهُود يَسْتَقْبِلُونَ بَيْتاً مِنْ بُيُوتِ اللهِ لَوْ أَنَّا اسْتَقْبَلْنَاهُ » ! فاستقبله

النبيّ صلى الله عليه وسلم ستة عشر شهرا ، فبلغه أن يهود تقول : والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم ، فكره ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ورفع وجهه إلى السماء . فقال الله عز وجل (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ) الآية .

وقال آخرون : نزلت هذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وسلم إذنا من الله عز وجل له أن يصلى التطوّع حيث توجه وجهه من شرق أو غرب ، فى مسيره فى سفره ، وفى حال المسايفة ، وفى شدّة الخوف ، والتقاء الزحوف فى الفرائض ، وأعلمه أنه حيث وجه وجهه فهو هنالك بقوله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : ثنا عبد الملك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر « أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته ، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ، ويتأول هذه الآية (أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) » .

حدثنى أبو السائب ، قال : ثنا ابن فضيل ، عن عبد الملك بن أبى سليمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر أنه قال « إنما نزلت هذه الآية (أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) أن تصلى حيثما توجهت بك راحلتك فى السفر تطوعا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجع من مكة يصلى على راحلته تطوّعا يومئ برأسه نحو المدينة » .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة ، فلم يعرفوا شطرها ، فصلوا على أنحاء مختلفة ، فقال الله عزّ وجلّ لهم : لى المشارق والمغارب ، فإن وليتم وجوهكم ، فهنالك وجهى ، وهو قبلتكم ؛ معلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أحمد ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا أبو الربيع السمان ، عن عاصم بن عبيد الله ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلا ، فجعل الرجل يأخذ الأحجار ، فيعمل مسجدا يصلى فيه ، فلما أصبحنا ، إذا نحن قد صلينا على غير القبلة ، فقلنا يارسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله عز وجل (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ») .

حدثنى المثنى ، قال : حدثنى الحجاج ، قال : ثنا حماد ، قال : قلت للنخعى : إنى كنت استيقظت أو قال أوقظت ، شكّ الطبرى ، فكان فى السماء سحاب ، فصليت لغير القبلة ، قال : مضت صلاتك ، يقول الله عزّ وجلّ (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : ثنا أبى عن أشعث السمان ، عن عاصم بن عبيد الله ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، قال « كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة فى سفر ، فلم ندر أين

القبلة فصلينا ، فصلى كلّ واحد منا على حياله ، ثم أصبحنا فذكرنا للنبيّ صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله عزّ وجلّ (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) » .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية فى سبب النجاشيّ ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تنازعوا فى أمره من أجل أنه مات قبل أن يصلى إلى القبلة ، فقال الله عز وجل : المشارق والمغارب كلها لى ، فمن وجه وجهه نحو شىء منها يريدنى به ، ويبتغى به طاعتى ، وجدنى هنالك . يعنى بذلك أن النجاشيّ وإن لم يكن صلى إلى القبلة ، فإنه قد كان يوجه إلى بعض وجوه المشارق والمغارب وجهه ، يبتغى بذلك رضا الله عزّ وجل فى صلاته .

ذكر من قال ذلك

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا هشام بن معاذ ، قال : حدثنى أبى ، عن قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أخاكُمُ النَّجاشيَّ قَدْ ماتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » قالوا : نصلى على رجل ليس بمسلم ، قال : فنزلت (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ للهِ) قال قتادة : فقالوا إنه كان لايصلى إلى القبلة ، فأنزل الله عزّ وجل (وَللهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك : أن الله تعالى ذكره إنما خصّ الخبر عن المشرق والمغرب فى هذه الآية بأنهما له ملكا وإن كان لاشىء إلا وهو له ملك ، إعلاما منه عباده المؤمنين أن له ملكهما وملك ما بينهما من الخلق ، وأن على جميعهم إذ كان له ملكهم طاعته فيما أمرهم ونهاهم ، وفيما فرض عليهم من الفرائض ، والتوجه نحو الوجه الذى وجهوا إليه ، إذ كان من حكم المماليك طاعة مالكهم ، فأخرج الخبر عن المشرق والمغرب ، والمراد به من بينهما من الخلق ، على النحو الذى قد بينت ، من الاكتفاء بالخبر عن سبب الشىء من ذكره والخبر عنه ، كما قيل (وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ) وما أشبه ذلك .

ومعنى الآية إذاً : ولله ملك الخلق الذى بين المشرق والمغرب يتعبدهم بما شاء ، ويحكم فيهم ما يريد عليهم طاعته ، فولوا وجوهكم أيها المؤمنون نحو وجهى ، فإنكم أينما تولوا وجوهكم فهنالك وجهى .

فأما القول فى هذه الآية ناسخة أم منسوخة ، أم لاهى ناسخة ولا منسوخة ؟ فالصواب فيه من القول أن يقال : إنها جاءت مجىء العموم ، والمراد الخاصّ ، وذلك أن قوله (فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) محتمل أينما تولوا فى حال سيركم فى أسفاركم ، فى صلاتكم التطوّع ، وفى حال مسايفتكم عدوّكم ، فى تطوّعكم ومكتوبتكم ، فثمّ وجه الله ، كما قال ابن عمر والنخعى ، ومن قال ذلك ممن ذكرنا عنه آنفا .

ومحتمل : فأينما تولوا من أرض الله فتكونوا بها ، فثم قبلة الله التى توجهون وجوهكم إليها ، لأن الكعبة ممكن لكم التوجه إليها منها .

كما قال أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن أبى سنان ، عن الضحاك ، والنصر بن عربى ، عن مجاهد

فى قول الله عزّ وجل (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) قال : قبلة الله ، فأينما كنت من شرق أو غرب فاستقبلها .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى إبراهيم ، عن ابن أبى بكر ، عن مجاهد ، قال : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها ، قال : الكعبة .

ومحتمل : فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم فهنالك وجهى أستجيب لكم دعاءكم .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج ، قال مجاهد : لمَّا نزلت (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) قالوا إلى أين ؟ فنزلت (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) .

فإذ كان قوله عز وجل (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) محتملا ما ذكرنا من الأوجه لم يكن لأحد أن يزعم أنها ناسخة أو منسوخة إلا بحجة يجب التسليم لها ، لأن الناسخ لايكون إلا بمنسوخ ، ولم تقم حجة يجب التسليم لها ، بأن قوله (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) معنىّ به : فأينما توجهوا وجوهكم فى صلاتكم فثم قبلتكم ، ولا أنها نزلت بعد صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس أمرا من الله عز وجل لهم بها أن يتوجهوا نحو الكعبة ، فيجوز أن يقال : هى ناسخة الصلاة نحو بيت المقدس ، إذ كان من أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة التابعين ، من ينكر أن تكون نزلت فى ذلك المعنى ، ولا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بأنها نزلت فيه ، وكان الاختلاف فى أمرها موجودا على ماوصفت . ولا هى إذلم تكن ناسخة لما وصفنا قامت حجتها بأنها منسوخة ، إذ كانت محتملة ما وصفنا بأن تكون جاءت بعموم . أو معناها فى حال دون حال إن كان عنى بها التوجه فى الصلاة ، وفى كل حال إن كان عنى بها الدعاء ، وغير ذلك من المعانى التى ذكرنا .

وقد دللنا فى كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام» ، على أن لاناسخ من آى القرآن وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا ما نفى حكما ثابتا ، وألزم العباد فرضه غير محتمل لظاهره وباطنه غير ذلك ؛ فأما إذا ما احتمل غير ذلك من أن يكون بمعنى الاستثناء أو الخصوص والعموم ، أو المجمل ، أو المفسر ، فمن الناسخ والمنسوخ بمعزل ، بما أغنى عن تكريره فى هذا الموضع ، ولا منسوخ إلا المنفى الذى كان قد ثبت حكمه وفرضه ، ولم يصحّ واحد من هذين المعنيين لقوله (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) بحجة يجب التسليم لها ، فيقال فيه : هو ناسخ أو منسوخ .

وأما قوله (فَأَيْنَمَا) فإن معناه : حيثما .

وأما قوله (تُوَلُّوا) فإن الذى هو أولى بتأويله أن يكون تولون نحوه وإليه ، كما يقول القائل : وليت وجهى [شَطْرَهُ][1] ووليته إليه ، بمعنى : قابلته وواجهته ، وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية لإجماع الحجة على أن ذلك تأويله وشذوذ من تأوّله بمعنى تولون عنه فتستدبرونه ، فالذى تتوجهون إليه وجه الله ، بمعنى قبلة الله .

وأما قوله (فَثَمَّ) فإنه بمعنى هنالك .

(١) شطره : نحوه ساقطة من الأصل ومخطوطة الدار رقم ٤٣ م ، ولكن السياق قبلها يقتضيها .

واختلف فى تأويل قوله (فَثَمَّ) فقال بعضهم : تأويل ذلك : فثم قبلة الله ، يعنى بذلك : وجهه الذى وجههم إليه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن النضر بن عربى ، عن مجاهد (فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) قال : قبلة الله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : أخبرنى إبراهيم ، عن مجاهد ، قال : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها .

وقال آخرون : معنى قول الله عز وجل (فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) فثم الله تبارك وتعالى .

وقال آخرون : معنى قوله (فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) فثم تدركون بالتوجه إليه رضا الله الذى له الوجه الكريم .

وقال آخرون : عنى بالوجه : ذا الوجه ، وقال قائلو هذه المقالة : وجه الله ، صفة له .

فإن قال قائل : وما هذه الآية من التى قبلها ؟ قيل : هى لها مواصلة ، وإنما معنى ذلك : ومن أظلم من النصارى الذين منعوا عباد الله مساجده أن يذكر فيها اسمه ، وسعوا فى خرابها ، ولله المشرق والمغرب ، فأينما توجهوا وجوهكم فاذكروه ، فإن وجهه هنالك يسعكم فضله وأرضه وبلاده ، ويعلم ما تعملون ، ولا يمنعكم تخريب من خرّب مسجد بيت المقدس ، ومنعهم من منعوا من ذكر الله فيه ،أن تذكروا الله حيث كنتم من أرض الله تبتغون به وجهه .

القول فى تأويل قوله (إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَاسِعٌ) يسع خلقه كلهم بالكفاية والأفضال والجود والتدبير .

وأما قوله (عَلِيمٌ) فإنه يعنى أنه عليم بأفعالهم لايغيب عنه منها شىء ولا يعزب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم .

القول فى تأويل قوله تعالى .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وقالوا معطوف على قوله (وَسَعَى فى خَرَابِهَا)

وتأويل الآية : ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ، وقالوا اتخذ الله ولدا ، وهم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله ، فقال الله جل ثناؤه مكذبا قيلهم ما قالوا من ذلك ومنتفيا[١] مما نحلوه ، وأضافوا إليه بكذبهم وفريتهم سبحانه ، يعنى بها : تنزيها وتبريئا من أن يكون له ولد ، وعلوا وارتفاعا عن ذلك . وقد دللنا فيما مضى على معنى قول القائل : سبحان الله بما أغنى عن إعادته

(١) « قوله ومنتفيا مما » ... الخ : كذا فى المخطوطة ٤٣ م بدار الكتب .

فى هذا الموضع ، ثم أخبر جل ثناؤه أن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا ؛ ومعنى ذلك : وكيف يكون المسيح لله ولدا ، وهو لايخلو إما أن يكون فى بعض هذه الأماكن إما فى السموات ، وإما فى الأرض، ولله ملك ما فيهما ، ولو كان المسيح ابنا كما زعمتم لم يكن كسائر ما فى السموات والأرض من خلقه وعبيده فى ظهور آيات الصنعة فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ؛ فقال بعضهم : معنى ذلك مطيعون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) : مطيعون .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عز وجل (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) قال : مطيعون ، قال : طاعة الكافر فى سجود ظله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد بمثله ، إلا أنه زاد : بسجود ظله وهو كاره .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) يقول : كلّ له مطيعون يوم القيامة .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : حدثنى يحيى بن سعيد ، عمن ذكره ، عن عكرمة (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) قال : الطاعة .

حدثت عن المنجاب بن الحرث ، قال : ثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس (قَانِتُونَ) : مطيعون .

وقال آخرون : معنى ذلك كل له مقرّون بالعبودية .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) كل مقرّ له بالعبودية .

وقال آخرون بما حدثنى به المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) قال : كل له قائم يوم القيامة . وللقنوت فى كلام العرب معان : أحدها الطاعة ، والآخر القيام ، والثالث الكفّ عن الكلام والإمساك عنه .

وأولى معانى القنوت فى قوله (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) الطاعة والإقرار لله عز وجل بالعبودية ، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة ، والدلالة على وحدانية الله عز وجل ، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها ، وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن لله ولدا بقوله : بل له ما فى السموات والأرض ملكا

وخلقا . ثم أخبر عن جميع ما فى السموات والأرض أنها مقرّة بدلالتها على ربها وخالقها ، وأن الله تعالى بارئها وصانعها ، وإن جحد ذلك بعضهم فألسنتهم مذعنة له بالطاعة ، بشهادتها له بآثار الصنعة التى فيها بذلك ، وأن المسيح أحدهم ، فأنى يكون لله ولدا وهذه صفته ، وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وجهته، أن قوله « كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة . وغير جائز ادّعاء خصوص فى آية عام ظاهرها إلابحجة يجب التسليم لها، لما قدبينا فى كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام».

وهذا خبر من الله جل وعز ، عن أن المسيح الذى زعمت النصارى أنه ابن الله مكذّبهم هو والسموات والأرض وما فيها ، إما باللسان ، وإما بالدلالة ، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم بطاعتهم إياه وإقرارهم له بالعبودية عقيب قوله (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) ، فدلّ ذلك على صحة ما قلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

يعنى جل ثناؤه بقوله (بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) مبدعها ، وإنما هو مفعل صرّف إلى فعيل ، كما صرف المؤلم إلى أليم ، والمسمع إلى سميع ؛ ومعنى المبدع : المنشئ والمحدث ، ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد ، ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعا ، لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره ، وكذلك كل محدث فعلا أو قولا لم يتقدّمه فيه متقدّم ، فإن العرب تسميه مبتدعا ، ومن ذلك قول الأعشى بن ثعلبة فى مدح هَوْذة بن علىّ الحنفى :

يُرْعَى إلى قَوْلِ سادَاتِ الرِّجالِ إذَا   أبْدَوْا لَهُ الحَزْمَ أوْ ما شاءَهُ ابْتَدَعا

أى يحدث ما شاء ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

فأيُّها الغاشِى القَذَّافَ الأتْيَعا   إنْ كُنْتَ لِلهِ التَّقِىَّ الأطْوَعا
فَلَيْسَ وَجْهُ الحَقِّ أنْ تَبَدَّعا

يعنى : أن تحدث فى الدين ما لم يكن فيه .

فمعنى الكلام : سبحان الله أنى يكون له ولد ، وهو مالك ما فى السموات والأرض ، تشهد له جميعا بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتقرّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها ، وموجدها من غير أصل ، ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله جل ثناؤه عباده ، أن مما يشهد له بذلك المسيح الذى أضافوا إلى الله جل ثناؤه بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل ، وعلى غير مثال هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) يقول : ابتدع خلقها ، ولم يشركه فى خلقها أحد .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يقول : ابتدعها فخلقها ، ولم يخلق مثلها شيئا فتتمثل به .

القول فى تأويل قوله تعالى : (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا) وإذا أحكم أمرا وحتمه . وأصل كل قضاء الأحكام والفراغ منه ؛ ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس : القاضى بينهم ، لفصله القضاء بين الخصوم ، وقطعه الحكم بينهم وفراغه ؛ ومنه قيل للميت : قد قضى ، يراد به قد فرغ من الدنيا وفصل منها ؛ ومنه قيل : ما ينقضى عجبى من فلان ، يراد : ما ينقطع ؛ ومنه قيل : تقضّى النهار : إذا انصرم ؛ ومنه قول الله عز وجل (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) أى فصل الحكم فيه بين عباده بأمره إياهم بذلك ، وكذلك قوله (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ) أى أعلمناهم بذلك وأخبرناهم به ، ففرغنا إليهم منه . ومنه قول أبى ذويب :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا		دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

ويروى :		وَتَعَاوَرَا مَسْرُودَتَيْنِ قَضَاهُمَا

ويعنى بقوله : قضاهما : أحكمهما ، ومنه قول الآخر فى مدح عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا		بَوَائِقَ فِى أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

ويروى : بوائج .

وأما قوله (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فإنه يعنى بذلك : وإذا أحكم أمرا فحتمه ، فإنما يقول لذلك الأمر كن فيكون ذلك الأمر على ما أمره الله أن يكون وأراده .

فإن قال لنا قائل : وما معنى قوله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وفى أى حال يقول للأمر الذى يقضيه كن ، أفى حال عدمه وتلك حال لا يجوز أمره ، إذ كان محالا أن يأمر إلا المأمور ؛ فإذا لم يكن المأمور استحال الأمر ، كما محال الأمر من غير آمر ، فكذلك محال الأمر من آمر إلا لمأمور ، أم يقول له ذلك فى حال وجوده ، وتلك حال لا يجوز أمره فيها بالحدوث ، لأنه حادث موجود ؛ ولا يقال للموجود : كن موجودا إلا بغير معنى الأمر بحدوث عينه . قيل : قد تنازع المتأوّلون فى معنى ذلك ، ونحن مخبرون بما قالوا فيه ، والعلل التى اعتلّ بها كل فريق منهم لقوله فى ذلك :

قال بعضهم : ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن أمره المحتوم على وجه القضاء ، لمن قضى عليه قضاء من خلقه الموجودين ، أنه إذا أمره بأمر نفذ فيه قضاؤه ، ومضى فيه أمره ، نظير أمره من أمر من بنى إسرائيل بأن يكونوا قردة خاسئين ، وهم موجودون فى حال أمره إياهم بذلك ، وحتم قضائه عليهم بما قضى فيهم ؛ وكالذى خسف به وبداره الأرض ، وما أشبه ذلك من أمره وقضائه فيمن كان موجودا من خلقه فى حال أمره المحتوم عليه ، فوجه قائلو هذا القول قوله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) إلى الخصوص دون العموم .

وقال آخرون : بل الآية عام ظاهرها ، فليس لأحد أن يحيلها إلى باطن بغير حجة يجب التسليم لها ، وقال : إن الله عالم بكل ما هو كائن قبل كونه ، فلما كان ذلك كذلك كانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة ، لعلمه بها قبل كونها ، نظائر التي هي موجودة ، فجاز أن يقول لها : كوني ، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود ، لتصوّر جميعها له ، ولعلمه بها في حال العدم .

وقال آخرون : بل الآية وإن كان ظاهرها ظاهر عموم ، فتأويلها الخصوص ، لأن الأمر غير جائز إلا لمأمور على ما وصفت قبل .

قالوا : وإذا كان ذلك كذلك ، فالآية تأويلها : وإذا قضى أمرا من إحياء ميت ، أو إماتة حيّ ، ونحو ذلك فإنما يقول لحيّ كن ميتا ، أو لميت كن حيا ، وما أشبه ذلك من الأمر .

وقال آخرون : بل ذلك من الله عزّ وجل خبر عن جميع ما ينشئه ويكوّنه ، أنه إذا قضاه وخلقه وأنشأه كان ووجد ، ولا قول هنالك عند قائلي هذه المقالة إلا وجود المخلوق ، وحدوث المقضي ، وقالوا : إنما قول الله عزّ وجل (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) نظير قول القائل : قال فلان برأسه ، وقال بيده : إذا حرّك رأسه ، أو أومأ بيده ولم يقل شيئا ، وكما قال أبو النجم :

وقَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلبَطْنِ الحَقِ ... قِدْمًا فَآضَتْ كَالْفَنِيقِ المُحْنِقِ

ولا قول هنالك ، وإنما عنى أن الظهر قد لحق بالبطن ، وكما قال عمرو بن حُمَمَة الدوسي :

فأَصْبَحَتْ مِثْلَ النَّسْرِ طارَتْ فِرَاخُهُ ... إِذَا رَامَ تَطْيَارًا يُقَالُ لَهُ قَعِ

ولا قول هناك ، وإنما معناه : إذا رام طيرانا وقع ، وكما قال الآخر :

امْتَلأَ الحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ... سَيْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي (١)

وأولى الأقوال بالصواب في قوله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أن يقال : هو عامّ في كل ما قضاه الله وبرأه ، لأن ظاهر ذلك ظاهر عموم ، وغير جائز إحالة الظاهر إلى الباطن من التأويل بغير برهان لما قد بينا في كتابنا « كتاب البيان عن أصول الأحكام » . وإذ كان ذلك كذلك ، فأمر الله جل وعز لشيء إذا أراد تكوينه موجودا بقوله (كُنْ) في حال إرادته إياه مكوّنا ، لا يتقدّم وجوده الذي أراد إيجاده وتكوينه إرادته إياه ، ولا أمره بالكون والوجود ، ولا يتأخر عنه ؛ فغير جائز أن يكون الشيء مأمورا بالوجود ، مرادا كذلك إلا وهو موجود ، ولا أن يكون موجودا إلا وهو مأمور بالوجود مراد كذلك ، ونظير قوله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) بأن خروج القوم من قبورهم لا يتقدّم دعاء الله ، ولا يتأخر عنه .

ويسئل من زعم أن قوله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) خاصّ في التأويل

(١) المعروف الموجود في الصحاح وكتب النحو : مهلا بدل سيلا ، ولعلهما روايتان .

اعتلالا بأن أمر غير الموجود غير جائز ، عن دعوة أهل القبور ، قبل خروجهم من قبورهم ، أم بعده ، أم هى فى خاص من الخلق ، فلن يقول فى ذلك قولا إلا ألزم فى الآخر مثله .

ويسئل الذين زعموا أن معنى قوله جل ثناؤه (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) نظير قول القائل : قال فلان برأسه أو بيده ، إذا حرّكه وأومأ ، ونظير قول الشاعر :

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي ... أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي

وما أشبه ذلك ، فانهم لا صواب اللغة أصابوا ولا كتاب الله وما دلت على صحته الأدلة اتبعوا ، فيقال لقائلى ذلك : إن الله تعالى ذكره أخبر عن نفسه أنه إذا قضى أمرا قال له كن ، أفتنكرون أن يكون قائلا ذلك ؟ فإن أنكروه كذّبوا بالقرآن ، وخرجوا من الملة ، وإن قالوا : بل نقرّ به ، ولكنا نزعم أن ذلك نظير قول القائل : قال الحائط فمال ، ولا قول هنالك ، وإنما ذلك خبر عن ميل الحائط ، قيل لهم : أفتجيزون للمخبر عن الحائط بالميل أن يقول : إنما قول الحائط إذا أراد أن يميل أن يقول هكذا فيميل ؟

فإن أجازوا ذلك خرجوا من معروف كلام العرب ، وخالفوا منطقها وما يعرف فى لسانها ، وإن قالوا ذلك غير جائز ، قيل لهم : إن الله تعالى ذكره أخبرهم عن نفسه ، أن قوله للشىء إذا أراده أن يقول له كن فيكون ، فأعلم عباده قوله الذى يكون به الشىء ووصفه ووكده ، وذلك عندكم غير جائز فى العبارة عما لا كلام له ولا بيان فى مثل قول القائل : قال الحائط فمال ، فكيف لم يعلموا بذلك ، فرق ما بين معنى قول الله (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقول القائل : قال الحائط فمال ، وللبيان عن فساد هذه المقالة موضع غير هذا نأتى فيه على القول بما فيه الكفاية إن شاء الله .

وإذا كان الأمر فى قوله جل ثناؤه (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) هو ماوصفنا ، من أن حال أمره الشىء بالوجود حال وجود المأمور بالوجود ، فتبين بذلك أن الذى هو أولى بقوله « فيكون » رفع [1] على العطف على قوله « يقول » ، لأن القول والكون حالهما واحد ، وهو نظير قول القائل : تاب فلان فاهتدى ، واهتدى فلان فتاب ، لأنه لايكون تائبا إلا وهو مهتد ، ولا مهتديا إلا وهو تائب ، فكذلك لايكون أن يكون الله آمرا شيئا بالوجود إلا وهو موجود ولا موجودا إلا وهو آمره بالوجود ، ولذلك استجاز من استجاز نصب فيكون من قرأ (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) بالمعنى الذى وصفنا ، على معنى أن نقول فيكون .

وأما رفع من رفع ذلك فانه رأى أن الخبر قد تمّ عند قوله (إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ) إذ كان معلوما أن الله إذا حتم قضاءه على شىء كان المحتوم عليه موجودا ، ثم ابتدأ بقوله فيكون ، كما قال جل ثناؤه (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ) ، وكما قال ابن أحمر :

يُعَالِجُ عَاقِرًا أَعْيَتْ عَلَيْهِ ... لِيُلْقِحَهَا فَيَنْتِجُهَا حُوَارَا

يريد : فإذا هو ينتجها حوارا .

---

(١) فى الأصل ومخطوطة الدار رقم ٤٣ م رفعا ، بالنصب .

فمعنى الآية إذاً : وقالوا : اتخذ الله ولدا ، سبحانه أن يكون له ولد ، بل هو مالك السموات والأرض وما فيهما ، كلّ ذلك مقرّ له بالعبودية بدلالته على وحدانيته ، وأنى يكون له ولد ، وهو الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل ، كالذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته وسلطانه ، الذى لايتعذّر عليه به شيء أراده ، بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه : كن فيكون موجودا كما أراده وشاءه ، فكذلك كان ابتداعه المسيح وإنشاؤه ، إذ أراد خلقه من غير والد .

القول فى تأويل قوله :

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ) فقال بعضهم : عنى بذلك النصارى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله جل وعز (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) قال : النصارى تقوله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله ، وزاد فيه (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ) النصارى .

وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة بن الفضل ، قالا جميعا : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رافع بن حُرَيملة : لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت رسولا من عند الله كما تقول ، فقل لله عز وجل فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قوله (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) الآية كلها .

وقال آخرون : بل عنى بذلك مشركى العرب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ) وهم كفار العرب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ) قال : هم كفار العرب .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَقَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ) أما الذين لايعلمون : فهم العرب .

وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل : إن الله تعالى عنى بقوله (وَقَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ) النصارى دون غيرهم ، لأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم ، وعن افترائهم عليه ، وادّعائهم له ولدا ، فقال جل ثناؤه مخبرا عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم . أنهم مع افترائهم على الله الكذب بقولهم (اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) ، تمنوا على الله الأباطيل ، فقالوا جهلا منهم بالله وبمنزلتهم عنده وهم بالله مشركون : لولا يكلمنا الله كما يكلم رسله وأنبياءه ، أو تأتينا آية كما أتتهم . ولا ينبغى لله أن يكلم إلا أولياءه ، ولا يؤتى آية معجزة على دعوى مدّع إلا لمن كان محقا فى دعواه ، وداعيا إلى الله وتوحيده .

فأما من كان كاذبا فى دعواه وداعيا إلى الفرية عليه ، وادّعاء البنين والبنات له ، فغير جائز أن يكلمه الله جل ثناؤه ، أو يؤتيه آية معجزة تكون مؤيدة كذبه وفريته عليه . وقال [1] الزاعم إن الله عنى بقوله (وَقَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ) العرب ، فإنه قائل قولا لاخبر بصحته ، ولا برهان على حقيقته فى ظاهر الكتاب ، والقول إذا صار إلى ذلك كان واضحا خطؤه ، لأنه ادّعى مالابرهان على صحته ، وادّعاء مثل ذلك لن يتعذّر على أحد .

وأما معنى قوله (لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ) فإنه بمعنى : هلا يكلمنا الله ، كما قال الأشهب بن رُميلة :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أفْضَلَ مَجْدِكُمْ ... بَنِى ضَوْطَرَى لَوْلا الكَمِىَّ المُقَنَّعا

بمعنى : فهلا تعدّون الكمىّ المقنع ؟ .

كما حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ) قال : فهلا يكلمنا الله .

قال أبو جعفر : فأما الآية فقد ثبت فيما قبل معنى الآية أنها العلامة ، وإنما أخبر الله عنهم أنهم قالوا : هلا تأتينا آية على ما نريده ونسأل ، كما أتت الأنبياء والرسل ، فقال عز وجل (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) .

اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) فقال بعضهم فى ذلك بما حدثني به محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) هم اليهود .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) اليهود .

(١) قوله « وقال الزاعم » : لعل فى الكلام تحريفا ، والأصل : وأما الزاعم ، وموضع « وأما » بياض فى المخطوطة ٣٤م تفسير .

وقال آخرون : هم اليهود والنصارى ، لأن الذين لايعلمون هم اليهود[١] .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قال : (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يعني اليهود والنصارى وغيرهم .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : قالوا يعني العرب ، كما قالت اليهود والنصارى من قبلهم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) يعني اليهود والنصارى .

قال أبو جعفر : قد دللنا على أن الذين عنى الله تعالى ذكره بقوله (وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ) هم النصارى ، والذين قالت مثل قولهم هم اليهود ، وسألت موسى صلى الله عليه وسلم أن يريهم ربهم جهرة ، وأن يسمعهم كلام ربهم ، كما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا ، وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسئلته ، تحكما منهم على ربهم ، وكذلك تمنت النصارى على ربها ، تحكما منها عليه أن يسمعهم كلامه ، ويريهم ما أرادوا من الآيات ، فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا من القول فى ذلك مثل الذى قالته اليهود وتمنت على ربها مثل أمانيها ، وأن قولهم الذى قالوه من ذلك إنما يشابه قول اليهود ، من أجل تشابه قلوبهم فى الضلالة والكفر بالله . فهم وأن اختلفت مذاهبهم فى كذبهم على الله ، وافترائهم عليه ، فقلوبهم متشابهة فى الكفر بربهم والفرية عليه ، وتحكمهم على أنبياء الله ورسله عليهم السلام . وبنحو ما قلنا فى ذلك قال مجاهد .

حدثني المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) قلوب النصارى واليهود .

وقال غيرهم : معنى ذلك تشابهت قلوب كفار العرب واليهود والنصارى وغيرهم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة : تشابهت قلوبهم : يعني العرب واليهود والنصارى وغيرهم .

حدثني المثنى ، ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) يعني العرب واليهود والنصارى وغيرهم ، وغير جائز فى قوله (تَشَابَهَتْ) التثقيل ، لأن التاء التى فى أولها زائدة أدخلت فى قوله تفاعل ، وإن ثقلت صارت تاءين ، ولا يجوز إدخال تاءين زائدتين علامة لمعنى واحد ، وإنما يجوز ذلك فى الاستقبال ، لاختلاف معنى دخولهما ، لأن إحداهما تدخل علماً للاستقبال ، والأخرى منهما التى فى تفاعل ، ثم تدغم إحداهما فى الأخرى فتثقل ، فيقال : تَشَّابه بعد اليوم قلوبنا ؛ فمعنى الآية : وقالت النصارى الجهال بالله وبعظمته : هلا يكلمنا الله ربنا ، كما كلم أنبياءه ورسله ، أو تجيئنا علامة من

(١) « قوله اليهود » كذا فى الأصل ، والمخطوطة ٤٣م تفسير ولعل الكلمة محرفة عن العرب .

الله نعرف بها صدق ما نحن عليه على ما نسأل ونريد ؟ قال الله جل ثناؤه : فكما قال هؤلاء الجهال من النصارى وتمنوا على ربهم ، قال مَن قبلهم من اليهود ، فسألوا ربهم أن يريهم الله نفسَه جهرة ، ويؤتيهم آية ، واحتكموا عليه وعلى رسله ، وتمنوا الأمانى ، فاشتبهت قلوب اليهود والنصارى فى تمرّدهم على الله، وقلة معرفتهم بعظمته ، وجرأتهم على أنبيائه ورسله ، كما اشتبهت أقوالهم التى قالوها .

القول فى تأويل قوله تعالى (قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) : قد بينا العلامات التى من أجلها غضب الله على اليهود ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وأعدّ لهم العذاب المهين فى مَعادهم ، والتى من أجلها أخزى الله النصارى فى الدنيا ، وأعدّ لهم الخزى والعذاب الأليم فى الآخرة ، والتى من أجلها جعل سكان الجنان الذين أسلموا وجوههم لله ، وهم محسنون فى هذه السورة وغيرها ، فأعلموا الأسباب التى من أجلها استحقّ كل فريق منهم من الله ما فعل به من ذلك ، وخصّ الله بذلك القوم الذين يوقنون ، لأنهم أهل التثبت فى الأمور ، والطالبون معرفة حقائق الأشياء على يقين وصحة ، فأخبر الله جل ثناؤه أنه بيّن لمن كانت هذه الصفة صفته ما بين من ذلك ، ليزول شكه ، ويعلم حقيقة الأمر ، إذ كان ذلك خبرا من الله جل ثناؤه ، وخبر الله الخبر الذى لا يعذر سامعه بالشكّ فيه ، وقد يحتمل غيره من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه ، من السهو والغلط والكذب ، وذلك منفىّ عن خبر الله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

ومعنى قوله جلّ ثناؤه (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) : إنا أرسلناك يامحمد بالإسلام الذى لاأقبل من أحد غيره من الأديان ، وهو الحقّ ، مبشرا من اتبعك فأطاعك ، وقبل منك ما دعوته إليه من الحقّ ، بالنصر فى الدنيا ، والظفر بالثواب فى الآخرة ، والنعيم المقيم فيها ؛ ومنذرا من عصاك فخالفك ، وردّ عليك ما دعوته إليه من الحقّ ، بالخزى فى الدنيا ، والذلّ فيها ، والعذاب المهين فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) وقال أبو جعفر : قرأت عامة القراء (وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) بضم التاء من تسئل ورفع اللام منها على الخبر ، بمعنى : يا محمد إنا أرسلناك بالحقّ بشيرا ونذيرا ، فبلغت ما أرسلت به ، وإنما عليك البلاغ والإنذار ، ولست مسئولا عمن كفر بما أتيته به من الحقّ ، وكان من أهل الجحيم .

وقرأ ذلك بعض أهل المدينة (وَلا تَسْأَلْ) جزما بمعنى النهى ، مفتوح التاء من تسأل ، وجزم اللام منها . ومعنى ذلك على قراءة هؤلاء : إنا أرسلناك بالحقّ بشيرا ونذيرا لتبلغ ما أرسلت به ، لاتسأل عن أصحاب الجحيم ، فلاتسأل عن حالهم .

وتأوّل الذين قرءوا هذه القراءة ما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن موسى بن عبدة ، عن

محمد بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْتَ شِعْرِى ما فَعَلَ أَبَوَاى»؟ فنزلت (وَلا تُسأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ).

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا الثورى، عن موسى بن عبدة، عن محمد بن كعب القرظى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْتَ شِعْرِى ما فَعَلَ أَبَوَاىَ؟ لَيْتَ شِعْرِى ما فَعَلَ أَبَوَاىَ؟ لَيْتَ شِعْرِى ما فَعَلَ أَبَوَاىَ؟» ثلاثا. فنزلت «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ». فما ذكرهما حتى توفاه الله.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: أخبرنى داود، عن أبى عاصم، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: «لَيْتَ شِعْرِى أَيْنَ أَبَوَاى»؟ فنزلت (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ).

والصواب عندى من القراءة فى ذلك قراءة من قرأ بالرفع على الخبر، لأن الله جل ثناوه قصّ قصص أقوام من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتهم، وكفرهم بالله، وجراءتهم على أنبيائه، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: إنا أرسلناك يا محمد بشيرا من آمن بك واتبعك، ممن قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءه، ونذيرا من كفر بك وخالفك، فبلغ رسالتى، فليس عليك من أعمال من كفر بك بعد إبلاغك إياه رسالتى تبعة، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك، ولم يجر لمسئلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عن أصحاب الجحيم ذكر، فيكون لقوله (وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ) وجه يوجه إليه.

وإنما الكلام موجه معناه إلى ما دلّ عليه ظاهره المفهوم، حتى تأتى دلالة بينة تقوم بها الحجة على أن المراد به غير مادلّ عليه ظاهره، فيكون حينئذ مسلما للحجة الثابتة بذلك، ولا خبر تقوم به الحجة على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يسأل فى هذه الآية عن أصحاب الجحيم، ولا دلالة تدلّ على أن ذلك كذلك فى ظاهر التنزيل.

والواجب أن يكون تأويل ذلك الخبر على ما مضى ذكره قبل هذه الآية، وعمن ذكر بعدها من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، دون النهى عن المسئلة عنهم.

فإن ظنّ ظانّ أن الخبر الذى روى عن محمد بن كعب صحيح، فإن فى استحالة الشكّ من الرسول عليه السلام فى أن أهل الشرك من أهل الجحيم، وأن أبويه كانا منهم، ما يدفع صحة ما قاله محمد بن كعب إن كان الخبر عنه صحيحا، مع أن فى ابتداء الله الخبر بعد قوله (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) بالواو بقوله: ولاتسئل [1] عن أصحاب الجحيم، وتركه وصل ذلك بأوله بالفاء، وأن يكون (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرا، ولا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ) أوضح الدلائل على أن الخبر بقوله: ولا تسئل، أولى من النهى، والرفع به أولى من الجزم.

وقد ذكر أنها فى قراءة أبىّ (وَما تُسْئَلُ) وفى قراءة ابن مسعود (وَلَنْ تُسْئَلَ) وكلتا هاتين القراءتين تشهد بالرفع، والخبر فيه دون النهى.

---

(١) فى الأصل: يقول فلا تسئل. وهو تحريف. والتصويب عن المخطوطة ٤٣ م تفسير.

وقد كان بعض نحويى البصرة يوجه قوله (وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الجَحِيمِ) إلى الحال كأنه كان يرى أن معناه : إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، غير مسئول عن أصحاب الجحيم ، وذلك إذا ضم التاء ، وقرأه على معنى الخبر ، وكان يجيز على ذلك قراءته : ولا تسئل ، بفتح التاء وضم اللام على وجه الخبر بمعنى : إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، غير سائل عن أصحاب الجحيم ، وقد بينا الصواب عندنا فى ذلك .

وهذان القولان اللذان ذكرتهما عن البصرى فى ذلك يرفعهما ما روى عن ابن مسعود وأبى من القراءة ، لأن إدخالهما ما أدخلا من ذلك من ما ولن يدل على انقطاع الكلام عن أوله وابتداء قوله (وَلا تُسْئَلُ) وإذا كان ابتداء لم يكن حالا . وأما أصحاب الجحيم ، فالجحيم هى النار بعينها إذا شبت وقودها ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

إذا شُبَّتْ جَهَنَّمُ ثُمَّ دارَتْ وأَعْرَضَ عَنْ قَوابِسِها الجَحِيمُ[1]

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

يعنى بقوله جل ثناؤه (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدا ، فدع طلب مايرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، فإن الذى تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم ، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية ، ولا تجتمع النصرانية واليهودية فى شخص واحد فى حال واحدة ، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك إلا أن تكون يهوديا نصرانيا ، وذلك مما لا يكون منك أبدا ، لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دينان متضادان فى حال واحدة ، وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك فى وقت واحد سبيل ، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل ، وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل ، فالزم هدى الله الذى لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل ، وأما الملة : فإنها الدين ، وجمعها الملل .

ثم قال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا : (لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارَى) (إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى) يعنى أن بيان الله هو البيان المقنع ، والقضاء الفاصل بيننا ، فهلموا إلى كتاب الله وبيانه ، الذى بين فيه لعباده ما اختلفوا فيه ، وهو التوراة التى تقرون جميعا بأنها من عند الله ، يتضح لكم فيها المحق منا من المبطل ، وأينا أهل الجنة ، وأينا أهل النار ، وأينا على الصواب ، وأينا على الخطأ ، وإنما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى هدى الله وبيانه ، لأن فيه تكذيب اليهود والنصارى فيما قالوا من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا

(١) دارت : هكذا فى الأصول ، ولعلها محرفة عن « زارت » مخفف زأرت .

أو نصارى ، وبيان أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن المكذّب به من أهل النار دون المصدّق به .

القول فى تأويل قوله (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) .

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ) يا محمد هوى هؤلاء اليهود والنصارى ، فيما يرضيهم عنك من تهوّد وتنصر ، فصرت من ذلك إلى إرضائهم ، ووافقت فيه محبتهم ، من بعد الذى جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم ، ومن بعد الذى اقتصصت عليك من نبئهم فى هذه السورة ، مالك من الله من ولىّ ، يعنى بذلك : ليس لك يا محمد من ولىّ يلى أمرك ، وقيم يقوم به ، ولا نصير ينصرك من الله ، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته ، ويمنعك من ذلك إن أحلّ بك ذلك ربك ، وقد بينا معنى الولىّ والنصير فيما مضى قبلُ .

وقد قيل إن الله تعالى ذكره ، أنزل هذه الآية على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن اليهود والنصارى دعته إلى أديانها ، وقال كل حزب منهم : إن الهدى هو ما نحن عليه ، دون ما عليه ، غيرنا من سائر الملل ، فوعظه الله أن يفعل ذلك ، وعلمه الحجة الفاصلة بينهم فيما ادّعى كل فريق منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

اختلف أهل التأويل فى الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) فقال بعضهم : هم المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من أصحابه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) : هؤلاء أصحاب نبىّ الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بكتاب الله ، وصدّقوا به .

وقال آخرون : بل عنى الله بذلك علماء بنى إسرائيل الذين آمنوا بالله ، وصدّقوا رسله ، فأقرّوا بحكم التوراة ، فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، والإيمان به ، والتصديق بما جاء به من عند الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) قال : من كفر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم من يهود فأولئك هم الخاسرون ، وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة ، لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين ، وتبديل من بدل منهم كتاب الله ، وتأولهم

إياه على غير تأويله ، وادّعائهم على الله الأباطيل ، ولم يجر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الآية التى قبلها ذكر ، فيكون قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) موجها إلى الخبر عنهم ، ولا لهم بعدها ذكر فى الآية التى تتلوها ، فيكون موجها ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء قصص غيرهم ، ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له . فإذا كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجها إلى أنه خبر عمن قصّ الله جل ثناؤه فى الآية قبلها والآية بعدها ، وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل . وإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : الذين آتيناهم الكتاب الذى قد عرفته يا محمد ، وهو التوراة ، فقرءوه واتبعوا ما فيه ، فصدّقوك وآمنوا بك ، وبما جئت به من عندى ، أولئك يتلونه حقّ تلاوته ، وإنما أدخلت الألف واللام فى الكتاب لأنه معرفة ، وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عرفوا أىّ الكتب عنى به .

القول فى تأويل قوله تعالى (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله عزّ وجل (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) فقال بعضهم : معنى ذلك : يتبعونه حقّ اتباعه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن المثنى ، قال : حدثنى ابن أبى عدىّ ، وعبد الأعلى ، وحدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ جميعا ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) يتبعونه حقّ اتباعه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الوهاب ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة بمثله .

وحدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا داود بن أبى هند ، عن عكرمة بمثله .

حدثنى الحسن بن عمرو العبقرى ، قال : حدثنى أبى ، عن أسباط ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) قال : يُحلون حلاله ويحرّمون حرامه ولا يحرفونه .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : قال أبو مالك : إن ابن عباس قال فى (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) فذكر مثله ، إلا أنه قال : ولا يحرّفونه عن مواضعه .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا المؤمل ، قال : ثنا سفيان قال : ثنا يزيد ، عن مرّة ، عن عبد الله فى قول الله عز وجل (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، قال : قال عبد الله بن مسعود : والذى نفسى بيده إن حقّ تلاوته أن يُحلّ حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ومنصور

ابن المعتمر ، عن ابن مسعود فى قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) أن يُحل حلاله ويحرّم حرامه ، ولايحرّفه عن مواضعه .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا الزبيرى ، قال : ثنا عباد بن العوّام عمن ذكره ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) يتبعونه حقّ اتباعه .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا عباد بن العوّام ، عن الحجاج ، عن عطاء ، بمثله .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن أبى رزين فى قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، وحدثنى المثنى ، قال : حدثنى أبونعيم ، قال : ثنا سفيان ، وحدثنى نصر بن عبد الرحمن الأزدى ، قال : ثنا يحيى بن إبراهيم ، عن سفيان قالوا جميعا ، عن منصور ، عن أبى رزين ، مثله .

حدثنا أبوحميد ، قال : ثنا جرير ، عن مغيرة ، عن مجاهد (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : عملا به .

حدثنى يعقوب ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك ، عن قيس بن سعد (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه . ألم تر إلى قوله (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا) يعنى الشمس إذا تبعها القمر .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن عبد الملك بن أبى سليمان ، عن عطاء وقيس بن سعد ، عن مجاهد فى قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يعملون به حقّ عمله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم ، عن عبد الملك ، عن قيس بن سعد ، عن مجاهد ، قال : يتبعونه حق اتباعه .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) يعملون به حقّ عمله .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا مؤمل بن إسمعيل ، قال : ثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن مجاهد فى قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه .

حدثنى عمرو ، قال : ثنا أبو قتيبة ، قال : ثنا الحسن بن أبى جعفر ، عن أبى أيوب ، عن أبى الخليل ، عن مجاهد (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه .

حدثنا عمرو ، قال : ثنا يحيى القطان ، عن عبد الملك ، عن عطاء قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه ، يعملون به حقّ عمله .

حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنى أبى ، عن المبارك ، عن الحسن (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ)

قال : أحلّوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وعملوا بما فيه . ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول : إن حقّ تلاوته أن يُحلّ حلاله ، ويُحرّم حرامه ، وأن يقرأه كما أنزله الله عز وجل ، ولا يحرّفه عن مواضعه .

حدثنا عمرو ، قال : ثنا أبو داود ، قال : ثنا الحكم بن عطية ، سمعت قتادة يقول (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه ، قال : اتباعه يحلون حلاله ، ويحرّمون حرامه ، ويقرءونه كما أنزل .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا عمرو بن عون ، قال : أخبرنا هشيم عن داود ، عن عكرمة فى قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) قال : يتبعونه حقّ اتباعه ، أما سمعت قول الله عز وجل (وَالقَمَرِ إِذَا تَلاهَا) قال : إذا تبعها .

وقال آخرون (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) يقرءونه حقّ قراءته .

والصواب من القول فى تأويل ذلك أنه بمعنى يتبعونه حقّ اتباعه ، من قول القائل : ما زلت أتلو أثره إذا اتبع أثره ، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله ، وإذا كان ذلك تأويله ، فمعنى الكلام الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك ، وبما جئتهم به من الحقّ من عندى ، يتبعون كتابى الذى أنزلته على رسولى موسى صلوات الله عليه ، فيؤمنون به ، ويقرّون بما فيه من نعتك وصفتك ، وأنك رسولى ، فرض عليهم طاعتى فى الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندى ، ويعملون بما أحللت لهم ، ويجتنبون ما حرّمت عليهم فيه ، ولا يحرّفونه عن مواضعه ، ولا يبدّلونه ولا يغيرونه ، كما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره .

أما قوله (حَقَّ تِلاوَتِهِ) فمبالغة فى صفة اتباعهم الكتاب ، ولزومهم العمل به ، كما يقال : إن فلانا لعالم حقّ عالم ، وكما يقال : إن فلانا لفاضل كل فاضل .

وقد اختلف أهل العربية فى إضافة حقّ إلى المعرفة ، فقال بعض نحويى الكوفة : غير جائزة إضافته إلى معرفة ، لأنه بمعنى أىّ ، وبمعنى قولك : أفضل رجل فلان ، وأفعل لا يضاف إلى واحد معرفة ، لأنه مبعض ، ولا يكون الواحد المبعض معرفة ، فأحالوا أن يقال : مررت بالرجل حقّ الرجل ، ومررت بالرجل جدّ الرجل ، كما أحالوا مررت بالرجل أىّ الرجل ، وأجازوا ذلك فى كل الرجل وغير الرجل ونفس الرجل ، وقالوا : إنما أجزنا ذلك ، لأن هذه الحروف كانت فى الأصل توكيدا ، فلما صرن مدوحا تركن مدوحا على أصولهن فى المعرفة ، وزعموا أن قوله (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ) إنما جازت إضافته إلى التلاوة ، وهى مضافة إلى معرفة ، لأن العرب تعتدّ بالهاء إذا عادت إلى نكرة بالنكرة ، فيقولون : مررت برجل واحد أمه ، ونسيج وحده ، وسيد قومه ، قالوا : فكذلك قوله (حَقَّ تِلاوَتِهِ) إنما جازت إضافة حقّ إلى التلاوة ، وهى مضافة إلى الهاء لاعتداد العرب بالهاء التى فى نظائرها فى عداد النكرات . قالوا : ولو كان ذلك حق التلاوة لوجب أن يكون جائزا : مررت بالرجل حقّ الرجل ، فعلى هذا القول تأويل الكلام : الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوة .

وقال بعض نحويي البصرة : جائزة إضافة حقّ إلى النكرات مع النكرات ، ومع المعارف إلى المعارف ، وإنما ذلك نظير قول القائل : مررت بالرجل غلام الرجل ، وبرجل غلام رجل . فتأويل الآية على قول هؤلاء : الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته .

وأولى ذلك بالصواب عندنا القول الأول ، لأن معنى قوله (حَقَّ تِلاوَتِهِ) أيّ تلاوة ، بمعنى مدح التلاوة التي تلوها وتفضيلها ، وأيّ غير جائزة إضافتها إلى واحد معرفة عند جميعهم ، وكذلك حق غير جائزة إضافتها إلى واحد معرفة ، وإنما أضيف فى حقّ تلاوته إلى ما فيه الهاء ، لما وصفت من العلة التى تقدم بيانها .

القول فى تأويل قوله تعالى (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله (أُولَئِكَ) هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته .

وأما قوله (يُؤْمِنُونَ بِهِ) فإنه يعنى يصدّقون به ، والهاء التى فى قوله به عائدة على الهاء التى فى تلاوته وهما جميعا من ذكر الكتاب الذى قال الله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ) . فأخبر الله جل ثناؤه أن المؤمن بالتوراة هو المتبع ما فيها من حلالها وحرامها ، والعامل بما فيها من فرائض الله التى فرضها فيها على أهلها ، وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته ، دون من كان محرّفا لها ، مبدلا تأويلها ، مغيرا سننها ، تاركا مافرض الله فيها عليه .

وإنما وصف جل ثناؤه من وصف بما وصف به من متبعى التوراة ، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم ، لأن فى اتباعها اتباع محمد نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، لأن التوراة تأمر أهلها بذلك ، وتخبرهم عن الله تعالى ذكره بنبوّته ، وفرض طاعته على جميع خلق الله من بنى آدم ، وإن فى التكذيب بمحمد التكذيب لها ؛ فأخبر جل ثناؤه أن متبعى التوراة ، هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهم العاملون بما فيها .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) قال : من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل ، وبالتوراة ، وأن الكافر بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الكافر بها الخاسر ، كما قال جل ثناؤه (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ) : ومن يكفر بالكتاب الذى أخبر أنه يتلوه من آتاه من المؤمنين حقّ تلاوته . ويعنى بقوله جل ثناؤه (يَكْفُرْ) : يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه ، ويبدّله ، فيحرّف تأويله ، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم ، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه .

وقال ابن زيد فى قوله بما حدثنى به يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَمَنْ

يكْفُرْ بِهِ فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ) . قال : من كفر بالنبى صلى الله عليه وسلم من يهود .
(فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)

وهذه الآية عظة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم فى صنعه بأوائلهم ، استعطافا منه لهم على دينه ، وتصديق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا بنى إسرائيل اذكروا أيادىَّ لديكم ، وصنائعى عندكم ، واستنقاذى إياكم من أيدى عدوِّكم فرعون وقومه ، وإنزالى عليكم المنَّ والسلوى فى تيهكم ، وتمكينى لكم فى البلاد ، بعد أن كنتم مذللين مقهورين ، واختصاصى الرسل منكم ، وتفضيلى إياكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه ، أيام أنتم فى طاعتى ، باتباع رسولى إليكم ، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندى ، ودعوا التمادى فى الضلال والغىّ .

وقد ذكرنا فيما مضى النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، والمعانى التى ذكَّرهم جل ثناؤه من آلائه عندهم ، والعالم الذى فضلوا عليه فيما مضى قبل ، بالروايات والشواهد ، فكرهنا تطويل الكتاب بإعادته إذ كان المعنى فى ذلك فى هذا الموضع وهنالك واحدا .

القول فى تأويل قوله :

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

وهذه الآية ترهيب من الله جل ثناؤه للذين سلفت عظته إياهم بما وعظهم به فى الآية قبلها ، يقول الله لهم : واتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدلين كتابى وتنزيلى ، المحرِّفين تأويله عن وجهه ، المكذِّبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم ، عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئا ، ولا تغنى عنها غناء ، أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بى ، وتكذيبكم رسولى ، فتموتوا عليه ، فإنه يوم لايقبل من نفس فيما لزمها فدية ، ولا يشفع فيما وجب عليها من حقّ لها شافع ، ولا هم ينصرهم ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إياه .

وقد مضى البيان عن كل معانى هذه الآية فى نظيرتها قبل ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

يعنى جل ثناؤه بقوله (وَإِذِ ابْتَلَى) وإذ اختبر ، يقال منه : ابتليت فلانا أبتليه ابتلاء ، ومنه قول الله عزّ وجل (وابْتَلُوا اليتَامَى) : يعنى به اختبروهم ، وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم اختبارا بفرائض فرضها عليه ، وأمر أمره به ، وذلك هو الكلمات التى أوحاهنّ إليه ، وكلفه العمل بهنّ ، امتحانا منه له واختبارا .

ثم اختلف أهل التأويل فى صفة الكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليله صلوات الله عليه ، فقال بعضهم : هى شرائع الإسلام ، وهى ثلاثون سهما .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : قال ابن عباس : لم يُبْتَلَ أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم ، ابتلاه الله بكلمات فأتمهنّ ، قال : فكتب الله له البراءة ، فقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) ، قال : عشر منها فى الأحزاب ، وعشر منها فى براءة ، وعشر منها فى المؤمنين ، وسأل سائل ، وقال : إن هذا الإسلام ثلاثون سهما .

حدثنا إسحق بن شاهين ، قال : ثنا خالد الطحان ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : ما ابتُلى أحد بهذا الدين فقام به كله غير إبراهيم ، ابتلى بالإسلام فأتمه ، فكتب الله له البراءة ، فقال : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) فذكر عشرا فى براءة ، فقال (التَّائِبُونَ العابِدُونَ الحَامِدُونَ) إلى آخر الآيات ، وعشرا فى الأحزاب (إِنَّ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ) وعشرا فى سورة المؤمنين ، إلى قوله (وَالَّذِينَ هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ) وعشرا فى سأل سائل (وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) .

حدثنا عبيد الله بن أحمد بن شُبْرُمة ، قال : ثنا علىّ بن الحسن ، قال : ثنا خارجة بن مصعب ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الإسلام ثلاثون سهما ، وما ابتُلى بهذا الدين أحد فأقامه إلا إبراهيم ، قال الله (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) فكتب الله له براءة من النار .

وقال آخرون : هى خصال عشر من سنن الإسلام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . فى الرأس : قصّ الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحكم بن أبان ، عن القاسم ابن أبى بزة ، عن ابن عباس بمثله ، ولم يذكر أثر البول .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا سليمان ، قال : ثنا أبو هلال ، قال : ثنا قتادة فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى

إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : ابتلاه بالختان ، وحلق العانة ، وغسل القبل والدبر ، والسواك ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، قال أبو هلال : ونسيت خصلة .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن مطر ، عن أبي الخلد ، قال : ابتلى إبراهيم بعشرة أشياء هن فى الإنسان : سنة الاستنشاق ، وقص الشارب ، والسواك ، ونتف الإبط ، وقلم الأظفار ، وغسل البراجم ، والختان ، وحلق العانة ، وغسل الدبر والفرج .

وقال بعضهم : بل الكلمات التى ابتلى بهن عشر خلال ، بعضهن فى تطهير الجسد ، وبعضهن فى مناسك الحج .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا محمد بن حرب ، قال : ثنا ابن لهيعة ، عن ابن هبيرة ، عن حنش ، عن ابن عباس فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) قال : ستة فى الإنسان ، وأربعة فى المشاعر ؛ فالتى فى الإنسان : حلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، والغسل يوم الجمعة ، وأربعة فى المشاعر : الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، والإفاضة .

و قال آخرون : بل ذلك : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) فى مناسك الحج .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت إسمعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) فمنهن (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وآيات النسك .

حدثنا أبو السائب ، قال : ثنا ابن إدريس ، قال : سمعت إسمعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح مولى أم هانئ فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال منهن (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) ومنهن آيات النسك (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) .

حدثنا محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) قال الله لإبراهيم : إنى مبتليك بأمر ، فما هو ؟ قال : تجعلنى للناس إماما ، قال نعم ، قال : ومن ذريتى ، قال : لاينال عهدى الظالمين ، قال : تجعل البيت مثابة للناس ، قال نعم ، وأمنا ، قال نعم ، وتجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، قال نعم ، وترينا مناسكنا وتتوب علينا ، قال نعم ، قال : وتجعل هذا البلد آمنا ، قال نعم ، قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم ، قال نعم .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح أخبره به ، عن عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد بنحوه ، قال : ابن جريج : فاجتمع على هذا القول مجاهد وعكرمة جميعا .

حدثنا سفيان ، قال : حدثنى أبى ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) قال : ابتلى بالآيات التى بعدها (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ) .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) فالكلمات (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وقوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) وقوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) وقوله (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ) الآية ، وقوله (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) الآية قال : فذلك كلمة من الكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم .

حدثنى محمد بن سعيد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) فمنهن (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) ومنهن (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) ومنهن الآيات فى شأن النسك ، والمقام الذى جعل لإبراهيم ، والرزق الذى رزق ساكنو البيت ومحمد صلى الله عليه وسلم فى ذريتهما عليهما السلام .

وقال آخرون : بل ذلك مناسك الحجّ خاصة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سلم بن قتيبة ، قال : ثنا عمرو بن نبهان ، عن قتادة ، عن ابن عباس فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : مناسك الحج .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان ابن عباس يقول فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : المناسك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : قال ابن عباس : ابتلاه بالمناسك .

حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، قال : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : إن الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم : المناسك .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا شريك ، عن أبى إسحق ، عن التميمى ، عن ابن عباس قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : مناسك الحجّ .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا الحمانى ، قال : ثنا شريك ، عن أبى إسحق ، عن التميمى ، عن ابن عباس فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : منهن مناسك الحجّ .

وقال آخرون : هى أمور منهن الختان .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا سلم بن قتيبة عن يونس بن أبى إسحق ، عن الشعبى (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : منهن الختان .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ، قال : ثنا يونس بن أبى إسحق ، قال : سمعت الشعبىّ يقول : فذكر مثله .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمد ، قال : ثنا يونس بن أبى إسحق ، قال : سمعت الشعبى ، وسأله أبو إسحق عن قول الله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : منهن الختان يا أبا إسحق .

وقال آخرون : بل ذلك الخلال الستّ : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، التى ابتلى بهنّ ، فصبر عليهنّ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يعقوب ابن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن أبى رجاء ، قال : قلت للحسن (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) قال : ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالنار فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة ، وابتلاه بالختان .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : إى والله ابتلاه بأمر فصبر عليه ، ابتلاه بالكوكب ، والشمس ، والقمر ، فأحسن فى ذلك ، وعرف أن ربه دائم لايزول ، فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا إلى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك ، فابتلاه الله بذبح ابنه وبالختان ، فصبر على ذلك .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبدالرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عمن سمع الحسن يقول فى قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : ابتلاه الله بذبح ولده ، وبالنار ، وبالكوكب ، والشمس ، والقمر .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا سلم بن قتيبة ، قال : ثنا أبو هلال ، عن الحسن (وَإِذِ ابْتَلَى ابْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) قال : ابتلاه بالكوكب ، وبالشمس ، والقمر ، فوجده صابرا .

وقال آخرون بما حدثنا به موسى بن هرون ، قال: ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : الكلمات التى ابتلى بهنّ إبراهيم ربه (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وأرنا مناسكنا ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) .

والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهنّ إليه ، وأمره أن يعمل بهنّ وأتمهن ، كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل ، وجائز أن

تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله فى تأويل الكلمات . وجائز أن تكون بعضه ، لأن إبراهيم صلوات الله عليه قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك ، فعمل به وقام فيه بطاعة الله ، وأمره الواجب عليه فيه . وإذ كان ذلك كذلك ، فغير جائز لأحد أن يقول : عَنَى الله بالكلمات التى ابتلى بهنّ إبراهيم شيئا من ذلك بعينه دون شىء ، ولا عَنى به كل ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها ، من خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع من الحجة ، ولم يصح فيه شى من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة التى يجب التسليم لما نقلته ، غير أنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نظير معنى ذلك خبران لو ثبتا أو أحدهما ، كان القول به فى تأويل ذلك هو الصواب .

أحدهما ما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا راشد بن سعد ، قال : حدثنى ريان بن فائد ، عن سهل بن معاذ ، بن أنس ، عن أبيه ، قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّى اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِى وَفَّى ، لأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَكُلَّمَا أَمْسَى : فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » حتى يختم الآية .

والآخر منهما ما حدثنا به أبو كريب ، قال : ثنا الحسن بن عطية ، قال : ثنا إسرائيل ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) قال أَتَدْرُونَ مَا وَفَّى ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « وَفَّى عَمَلَ يَوْمِهِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِى النَّهَارِ »

فلو كان خبر سهل بن معاذ عن أبيه صحيحا سنده ، كان بينا أن الكلمات التى ابتلى بهنّ إبراهيم ، فقام بهن هو قوله كلما أصبح وأمسى (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) أو كان خبر أبى أمامة عدولا نقلته ، كان معلوما أن الكلمات التى أُوحين إلى إبراهيم ، فابتلى بالعمل بهنّ ، أن يصلى كل يوم أربع ركعات ، غير أنهما خبران فى أسانيدهما نظر .

والصواب من القول فى معنى الكلمات التى أخبر الله أنه ابتلى بهنّ إبراهيم ما بينا آنفا .

ولو قال قائل فى ذلك : إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذى قاله غيرهم كان مذهبا ، لأن قوله (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وقوله (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ) وسائر الآيات التى هى نظير ذلك ، كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهنّ إبراهيم .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَأَتَمَّهُنَّ)

يعنى جل ثناؤه بقوله (فَأَتَمَّهُنَّ) فأتم إبراهيم الكلمات ، وإتمامه إياهنّ : إكماله إياهنّ بالقيام لله بما أوجب عليه فيهنّ ، وهو الوفاء الذى قال الله جل ثناؤه (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) يعنى وفى بما عهد إليه بالكلمات ، فأمره به من فرائضه ومحنه فيها .

كما حدثنى محمد بن المثنى ، قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (فأتَمَّهُنَّ) أى فأدّاهنّ .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (فأتَمَّهُنَّ) أى عمل بهنّ فأتمهنّ .

حدثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فأتَمَّهُنَّ) أى عمل بهنّ فأتمهنّ .

القول فى تأويل قوله تعالى (قالَ إنِّى جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً) :

يعنى جل ثناؤه بقوله (إنى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً) فقال الله : يا إبراهيم إنى مُصيرك للناس إماما يؤتمّ به ، ويقتدى به .

كما حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (إنّى جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً) ، ليؤتمّ به ، ويقتدى به . يقال منه : أممت القوم فأنا أؤمهم أما وإمامة : إذا كنت إمامهم .

وإنما أراد جل ثناؤه بقوله لإبراهيم (إنّى جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً) إنى مصيرك تؤمّ من بعدك من أهل الإيمان بى وبرسلى ، فتقدّمهم أنت ، ويتبعون هديك ، ويستنّون بسنتك التى تعمل بها ، بأمرى إياك ووحيى إليك .

القول فى تأويل قوله تعالى (قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) :

يعنى جل ثناؤه بذلك ، قال إبراهيمُ لما رفع الله منزلته وكرّمه ، فأعلمه ما هو صانع به من تصييره إماما فى الخيرات لمن فى عصره ، ولمن جاء بعده من ذرّيته وسائر الناس غيرهم ، يهتدى بهديه ، ويقتدى بأفعاله وأخلاقه : يارب ومن ذريّتى فاجعل أئمة يقتدى بهم ، كالذى جعلتنى إماما يؤتمّ بى ويقتدى بى ، مسئلة من إبراهيم ربه سأله إياها .

كما حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : قال إبراهيم (وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) يقول : فاجعل من ذريّتى من يؤتمّ به ويقتدى به .

وقد زعم بعض الناس أن قول إبراهيم (وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) مسئلة منه ربه لعقبه ، أن يكونوا على عهده ودينه ، كما قال (وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنامَ) ، فأخبر الله جل ثناؤه أن فى عقبه الظالم المخالف له فى دينه بقوله (لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) .

والظاهر من التنزيل يدلّ على غير الذى قاله صاحب هذه المقالة ، لأن قول إبراهيم صلوات الله عليه (وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) فى إثر قول الله جل ثناؤه (إنّى جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً) ، فمعلوم أن الذى سأله إبراهيم لذرّيته ، لو كان غير الذى أخبر ربه أنه أعطاه إياه لكان مبينا ، ولكن المسئلة لما كانت مما جرى ذكره ، اكتفى بالذكر الذى قد مضى من تكريره وإعادته ، فقال (وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) بمعنى : ومن ذريّتى فاجعل مثل الذى جعلتنى به من الإمامة للناس .

القول فى تأويل قوله تعالى (قالَ لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ)

هذا خبر من الله جل ثناؤه عن أن الظالم لايكون إماما يقتدى به أهل الخير ، وهو من الله جل ثناؤه جواب لما توهم فى مسئلته إياه أن يجعل من ذريّته أئمة مثله ، فأخبر أنه فاعل ذلك إلا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنه غير مصيره كذلك ، ولا جاعله فى محل أوليائه عنده ، بالتكرمة بالإمامة ، لأن الإمامة إنما هى لأوليائه وأهل طاعته ، دون أعدائه والكافرين به .

واختلف أهل التأويل فى العهد الذى حرّم الله جل ثناؤه الظالمين أن ينالوه ، فقال بعضهم : ذلك العهد هو النبوّة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال (لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) يقول : عهدى نبوّتى . فمعنى قائل هذا القول فى تأويل الآية : لاينال النبوّة أهل الظلم والشرك .

وقال آخرون : معنى العهد عهد الإمامة . فتأويل الآية على قولهم : لاأجعل من كان من ذرّيتك بأسرهم ظالما ، إماما لعبادى يقتدى به .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (قالَ لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قال : لايكون إمام ظالما .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال الله : (لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قال : لايكون إمام ظالما .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن عكرمة بمثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد فى قوله (قالَ لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قال : لا يكون إمام ظالم يقتدى به .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا مسروق بن أبان الحطاب ، قال : ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن مجاهد فى قوله (لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قال : لا أجعل إماما ظالما يقتدى به .

حدثنا محمد بن عبيد المحاربىّ ، قال : ثنا مسلم بن خالد الزنجىّ ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قال : لاأجعل إماما ظالما يقتدى به .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد (لايَنالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ) قال : لايكون إماما ظالم .

قال ابن جريج : وأما عطاء فإنه قال (إِنّى جاعِلُكَ لِلنّاسِ إماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) فأبى أن يجعل من ذرّيته ظالما إماما ، قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره .

وقال آخرون : معنى ذلك : أنه لاعهد عليك لظالم أن تطيعه فى ظلمه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) يعنى لاعهد لظالم عليك فى ظلمه أن تطيعه فيه .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا عبد الرحمن بن عبد الله ، عن إسرائيل ، عن مسلم الأعور ، عن مجاهد ، عن ابن عباس (قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) قال : ليس للظالمين عهد ، وإن عاهدته فانقضه .

حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن سفيان ، عن هرون بن عنترة ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : ليس لظالم عهد .

وقال آخرون : معنى العهد فى هذا الموضع : الأمان .

فتأويل الكلام على معنى قولهم ، قال الله : لاينال أمانى أعدائى ، وأهل الظلم لعبادى : أى لاأؤمنهم من عذابى فى الآخرة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ذلكم عند الله يوم القيامة لاينال عهده ظالم ، فأما فى الدنيا فقد نالوا عهد الله ، فوارثوا به المسلمين وعادوهم وناكحوهم به ، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) قال : لاينال عهد الله فى الآخرة الظالمون ، فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم وأكل به وعاش.

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا عبد الرحمن ، عن إسرائيل ، عن منصور ، عن إبراهيم (قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) قال : لاينال عهد الله فى الآخرة الظالمون ، فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم، فأمن به وأكل وأبصر وعاش .

وقال آخرون : بل العهد الذى ذكره الله فى هذا الموضع : دين الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : قال الله لإبراهيم (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) فقال : فعهد الله الذى عهد إلى عباده : دينه ، يقول : لاينال دينه الظالمين ، ألا ترى أنه قال (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ) يقول: ليس كل ذرّيتك يا إبراهيم على الحقّ .

حدثنى يحيى بن جعفر ، قال : أخبرنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) قال : لاينال عهدى عدوّ لى يعصينى ، ولا أنحلها إلا وليا لى يطيعنى .

وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر خبر ، عن أنه لاينال من ولد إبراهيم صلوات الله عليه عهد الله الذى هو النبوّة والإمامة لأهل الخير ، بمعنى الاقتداء به فى الدنيا ، والعهد الذى بالوفاء به ينجو فى الآخرة ، من وفى لله به فى الدنيا ، من كان منهم ظالما متعدّيا جائرا عن قصد سبيل الحقّ ، فهو إعلام من الله تعالى ذكره لإبراهيم أن من ولده من يشرك به ، ويجور عن قصد السبيل ، ويظلم نفسه وعباده .

كالذى حدثنى إسحق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، قال : ثنا عتاب بن بشر ، عن خصيف ، عن مجاهد فى قوله (لايَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ) قال : إنه سيكون فى ذرّيتك ظالمون .

وأما نصب الظالمين ، فلأن العهد هو الذى لاينال الظالمين ، وذكر أنه فى قراءة ابن مسعود (لايَنالُ عَهْدِىَ الظَّالِمُونَ) بمعنى أن الظالمين هم الذين لاينالون عهد الله ، وإنما جاز الرفع فى الظالمين والنصب ، وكذلك فى العهد ، لأن كل ما نال المرء فقد ناله المرء ، كما يقال : نالنى خير فلان ونلت خيره ، فيوجه الفعل مرّة إلى الخير ، ومرّة إلى نفسه . وقد بينا معنى الظلم فيما مضى فكرهنا إعادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

أما قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً) فإنه عطف بإذ على قوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) وقوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ) معطوف على قوله (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) واذكروا إذ ابتلى إبراهيمَ ربه ، وإذ جعلنا البيت مثابة . والبيت الذى جعله الله مثابة للناس هو البيت الحرام .

وأما المثابة فإن أهل العربية مختلفون فى معناها ، والسبب الذى من أجله أنثت ، فقال بعض نحويى البصرة : ألحقت الهاء فى المثابة لما كثر من يثوب إليه ، كما يقال سيارة لمن يكثر ذلك ونسابة .

وقال بعض نحويى الكوفة : بل المثاب والمثابة بمعنى واحد ، نظيره المقام والمقامة ، والمقام ذكر على قوله ، لأنه يريد به الموضع الذى يقام فيه ، وأنثت المقامة لأنه أريد بها البقعة . وأنكر هؤلاء أن تكون المثابة كالسيارة والنسابة ، وقالوا : إنما أدخلت الهاء فى السيارة والنسابة تشبيها لها بالداعية ؛ والمثابة ، مفعلة من ثاب القوم إلى الموضع : إذا رجعوا إليه ، فهم يثوبون إليه مثابا ومثابة وثوابا .

فمعنى قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) وإذ جعلنا البيت مرجعا للناس ، ومعاذا يأتونه كل عام ، ويرجعون إليه ، فلا يقضون منه وطرا ؛ ومن المثاب قول ورقة بن نوفل فى صفة الحرم .

مَثابٌ لأفْناءِ القَبائِلِ كُلِّها تَخُبُّ إلَيْهِ اليَعْمَلاتُ الصلائِحُ[1]

ومنه قيل : ثاب إليه عقله : إذا رجع إليه بعد عزوبه عنه ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

(١) « الصلائح » : هكذا بالصاد فى الأصل ، ولعلها محرفة عن « الطلائح » بالطاء ، أى المهازيل . وأورده صاحب اللسان فى ثوب وذمل : « تخب إليه اليعملات الذوامل » . ونسبه فى (ثوب) إلى أبى طالب ولم نجده فى لاميته التى مدح فيها النبى فى سيرة ابن هشام . كما لم نجده فى حائية ورقة بن نوفل التى فى الروض الأنف ص ١٢٧ .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : لايقضون منه وطرا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو حذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : يثوبون إليه ، لايقضون منه وطرا .

حدثنى موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : أما المثابة فهو الذى يثوبون إليه كل سنة ، لايدعه الإنسان إذا أتاه مرّة أن يعود إليه .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : لايقضون منه وطرا ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ، ثم يعودون إليه .

وحدثنى عبد الكريم بن أبى عمير ، قال : حدثنى الوليد بن مسلم ، قال : قال أبوعمرو ، حدثنى عبدة بن أبى لبابة فى قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) : قال لاينصرف عنه منصرف ، وهو يرى أنه قد قضى منه وطرا .

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : أخبرنا عبد الملك عن عطاء فى قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : يثوبون إليه من كل مكان ، ولا يقضون منه وطَرا .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا جرير ، عن عبد الملك ، عن عطاء ، مثله .

حدثنى محمد بن عمار الأسدى ، قال : ثنا سهل بن عامر ، قال : ثنا مالك بن مِغول ، عن عطية فى قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : لايقضون منه وطرا .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى الهذيل ، قال : سمعت سعيد ابن جبير ، يقول (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : يحُجون ويثوبون .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورىّ ، عن أبى الهذيل ، عن سعيد ابن جبير فى قوله (مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : يحجون ، ثم يحجون ، ولا يقضون منه وطرا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا ابن بكير ، قال : ثنا مسعر ، عن غالب ، عن سعيد بن جبير (مَثَابَةً لِلنَّاسِ) قال : يثوبون إليه .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا) قال : مَجْمَعا .

حدثني المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس (مَثَابَةً للنَّاسِ) قال : يثوبون إليه .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (مَثَابَةً للنَّاسِ) قال : يثوبون إليه .

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ) قال : يثوبون إليه من البُلدان كلها ويأتونه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وأَمْناً)

والأمن : مصدر من قول القائل أمن يأمن أمنا ، وإنما سماه الله أمنا ، لأنه كان فى الجاهلية معاذا لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقى به قاتل أبيه أو أخيه لم يَهِجْهُ، ولم يعرض له حتى يخرج منه ،وكان كما قال الله جل ثناؤه (أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وأَمْناً) قال : من أمّ إليه فهو آمن . كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى : أما (أَمْناً) فمن دخله كان آمنا .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (وأَمْناً) قال : تحريمه لايخاف فيه من دخله .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وأَمْناً) يقول : أمنا من العدوّ أن يحمل فيه السلاح ، وقد كان فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لايُسْبَوْنَ .

حدثت عن المنجاب ، قال : أخبرنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : (وأَمْناً) قال : أمنا للناس .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد فى قوله (وأَمْناً) قال : تحريمه لايخاف فيه من دخله .

القول فى تأويل قوله تعالى : (واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) :

اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك، فقرأه بعضهم (واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) بكسر الخاء، على وجه الأمر باتخاذه مصلى ، وهى قراءة عامة المصرين الكوفة والبصرة ، وقراءة عامة قرّاء أهل مكة وبعض قرّاء أهل المدينة .

وذهب إليه الذين قرءوه كذلك من الخبر الذى حدثنا أبو كريب ويعقوب بن إبراهيم ، قالا : حدثنا هشيم، قال : أخبرنا حميد ، عن أنس بن مالك ، قال: قال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت المقام مصلى ؟ فأنزل الله (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا ابن أبى عدىّ ، وحدثني يعقوب ، قال : ثنا ابن علية جميعا ، عن حميد ، عن أنس ، عن عمر ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثله .

حدثنا عمرو بن علىّ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا حميد ، عن أنس ، قال : قال عمر بن الخطاب : « قلت : يا رسول الله ، فذكر مثله » .

قالوا : فإنما أنزل الله تعالى ذكره هذه الآية أمرا منه نبيه صلى الله عليه وسلم باتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، فغير جائز قراءتها ، وهى أمر على وجه الخبر .

وقد زعم بعض نحويى البصرة أن قوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) معطوف على قوله (يا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ) (واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) ، فكان الأمر بهذه الآية ، وباتخاذ المصلى من مقام إبراهيم على قول هذا القائل ، لليهود من بنى إسرائيل ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما حدثنا الربيع بن أنس بما حدثت عن عمار بن الحسن ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، قال : من الكلمات التى ابتلى بهنّ إبراهيم قوله (واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) فأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، فهم يصلون خلف المقام .

فتأويل قائل هذا القول (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وقال (واتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)، والخبر الذى ذكرناه عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلُ ، يدلّ على خلاف الذى قاله هؤلاء ، وأنه أمر من الله تعالى ذكره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ، وجميع الخلق المكلفين .

وقرأه بعض قرّاء أهل المدينة والشام (وَاتَّخَذُوا) بفتح الخاء على وجه الخبر .

ثم اختلف فى الذى عطف عليه بقوله (وَاتَّخَذُوا) إذا قرئ كذلك على وجه الخبر ، فقال بعض نحويى البصرة : تأويله إذا قرئ كذلك وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً وإذ[1] اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى .

وقال بعض نحويى الكوفة : بل ذلك معطوف على قوله (جَعَلْنا) فكان معنى الكلام على قوله : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس واتخذوه مصلى .

والصواب من القول والقراءة فى ذلك عندنا (وَاتَّخِذُوا) بكسر الخاء ، على تأويل الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، للخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكرناه آنفا ، وأن عمرو بن علىّ حدثنا قال : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : ثنا جعفر بن محمد ، قال : حدثنى أبى ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) وفى مقام إبراهيم ، فقال بعضهم : مقام إبراهيم : هو الحجّ كله .

ذكر من قال ذلك :

(١) قوله « وإذ اتخذوا » : كذا فى المخطوطة ٤٢ تفسير بدار الكتب .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى قوله (مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ) قال : الحجّ كله مقام إبراهيم .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا سفيان بن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : الحجّ كله .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، قال : الحجّ كله مقام إبراهيم .

وقال آخرون : مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجِمار .

ذكر من قال ذلك :

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء بن أبي رباح (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : لأني قد جعلته إماما ، فمقامه عرفة والمزدلفة والجِمار .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد فى قوله (واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : مقامه جَمْعٌ وعَرَفَة ومِنًى ، لا أعلمه إلا وقد ذكر مكة .

حدثنا عمرو بن عليّ ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى قوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : مقامه عرفة .

حدثنا عمرو بن عليّ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا داود ، عن الشعبي قال : نزلت عليه وهو واقف بعرفة مقامِ إبراهيم (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) الآية .

حدثنا عمرو قال : ثنا بشر بن المفضل ، قال : ثنا داود ، عن الشعبي ، مثله .

وقال آخرون : مقام إبراهيم : الحرم .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن حماد بن زيد ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : الحرم كله مقام إبراهيم .

وقال آخرون : مقام إبراهيم : الحَجَر الذى قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناؤه ، وضعف عن رفع الحجارة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا سنان القزاز ، قال : ثنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى ، قال : ثنا إبراهيم بن نافع ، قال : سمعت كثير بن كثير يحدّث عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : جعل إبراهيم يبنيه ، وإسمعيل يناوله الحجارة ، ويقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) . فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة ، قام على حجر ، فهو مقام إبراهيم .

وقال آخرون : بل مقام إبراهيم ، هو مقامه الذى هو فى المسجد الحرام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) إنما أمروا أن يصلوا عنده ، ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئا مما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه[1] ، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) فهم يصلون خلف المقام .

حدثنى يونس ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) وهو الصلاة عند مقامه فى الحجّ ، والمقام : هو الحجر الذى كانت زوجة إسمعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه ، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب ، فغسلت شقه ، ثم دفعته من تحته وقد غابت رجله فى الحجر ، فوضعته تحت الشقّ الآخر ، فغسلته ، فغابت رجله أيضا فيه ، فجعلها الله من شعائره ، فقال (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) .

وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا : ما قاله القائلون : إن مقام إبراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم ، الذى هو فى المسجد الحرام ، لما روينا آنفا عن عمر بن الخطاب ، ولما حدثنا يوسف بن سلمان ، قال : ثنا حاتم بن إسمعيل ، قال : ثنا جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر ، قال : استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن ، فرمل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم ، فقرأ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) ، فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين . فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره ، إنما عنى بمقام إبراهيم ، الذى أمرنا الله باتخاذه مصلى ، هو الذى وصفنا . ولو لم يكن على صحة ما اخترنا فى تأويل ذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكان الواجب فيه من القول ما قلنا ، وذلك أن الكلام محمول معناه على ظاهره المعروف ، دون باطنه المجهول ، حتى يأتى ما يدلّ على خلاف ذلك ، مما يجب التسليم له .

ولا شكّ أن المعروف فى الناس بمقام إبراهيم هو المصلّى الذى قال الله تعالى ذكره (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) ؛ فإن أهل التأويل مختلفون فى معناه ، فقال بعضهم : هو المدّعى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا سفيان بن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : مصلى إبراهيم مُدَّعًى .

وقال آخرون : معنى ذلك : اتخذوا مصلّى تصلون عنده .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : أمرو أن يصلوا عنده .

(١) زاد بعض النسخ بعد أصابعه كلمة « فيها » ، ولا معنى لها . وهى ساقطة من المخطوطة ٤٢ م تفسير .

حدثني موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : هو الصلاة عنده ، فكأنّ الذين قالوا: تأويل المصلى ههنا المُدَّعَى، وجهوا المصلى إلى أنه مُفتَعَّل من قول القائل: صليت بمعنى دعوت . وقائلو هذه المقالة هم الذين قالوا : إن مقام إبراهيم هو الحجّ كله .

فكان معناه فى تأويل هذه الآية : واتخذوا عرفة والمزدلفة والمشعر والجمار وسائر أماكن الحجّ التى كان إبراهيم يقوم بها مداعىَ تدعوننى عندها، وتأتمون بإبراهيم خليلى عليه السلام فيها ، فإنى قد جعلته لمن بعده من أوليائى وأهل طاعتى إماما يقتدون به وبآثاره ، فاقتدوا به .

وأما تأويل القائلين القول الآخر ، فإنه : اتخذوا أيها الناس من مقام إبراهيم مصلًّى تصلون عنده ، عبادة منكم ، وتكرمة منى لإبراهيم . وهذا القول هو أولى بالصواب ، لما ذكرنا من الخبر عن عمر بن الخطاب وجابر ابن عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

القول فى تأويل قوله تعالى : (وَعَهِدْنَا إلى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ أنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَعَهِدْنا) : وأمرنا .

كما حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنى ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ) قال : أمرناه .

فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسمعيل بتطهير بيتى للطائفين . والتطهير الذى أمرهما الله به فى البيت ، هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ، ومن الشرك بالله .

فإن قال قائل: ومامعنى قوله (وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَعِيلَ أنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ للطَّائِفِينَ)؟ وهل كان أيام إبراهيم قبل بنائه البيت بيت يطهر من الشرك وعبادة الأوثان فى الحرم، فيجوز أن يكونا أمرا بتطهيره؟

قيل: لذلك وجهان من التأويل، قد كان لكل واحد من الوجهين جماعة من أهل التأويل . أحدهما: أن يكون معناه : وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل أن ابنيا بيتى مطهرا من الشرك والريب ، كما قال تعالى ذكره (أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أمْ مَنْ أسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ)، فكذلك قوله (وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَعِيلَ أنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ)، أى ابنيا بيتى على طهر من الشرك بى والريب .

كما حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط عن السدى (وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَعِيلَ أنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ) يقول: ابنيا بيتى. فهذا أحد وجهيه . والوجه الآخر منهما: أن يكونا أمرا بأن يطهرا مكان البيت قبل بنيانه ، والبيت بعد بنيانه ، مما كان أهل الشرك بالله يجعلونه فيه على عهد نوح ومن قبله من الأوثان ، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى ذكره قد جعل إبراهيم إماما يقتدى به مَن بعده .

كما حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (أَنْ طَهِّرَا) قال : من الأصنام التى يعبدون التى كان المشركون يعظمونها .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير (أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) قال : من الأوثان والريب .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد ابن عمير ، مثله .

حدثنى أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : من الشرك .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا أبو إسرائيل ، عن أبى حصين ، عن مجاهد (طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) قال : من الأوثان .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) قال : من الشرك وعبادة الأوثان .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة بمثله ، وزاد فيه : وقول الزور .

القول فى تأويل قوله تعالى (لِلطَّائِفِينَ) :

اختلف أهل التأويل فى معنى الطائفين فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : هم الغرباء الذين يأتون البيت الحرام من غربة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو بكر بن عياش ، قال : ثنا أبوحصين ، عن سعيد بن جبير فى قوله (لِلطَّائِفِينَ) قال : من أتاه من غربة .

وقال آخرون : بل الطائفون هم الذين يطوفون به غرباء كانوا أو من أهله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن العلاء ، قال : ثنا وكيع ، عن أبى بكر الهذلى ، عن عطاء (لِلطَّائِفِينَ) قال : إذا كان طائفا بالبيت ، فهو من الطائفين .

وأولى التأويلين بالآية ما قاله عطاء ، لأن الطائف هو الذى يطوف بالشىء دون غيره ، والطارئ من غربة لايستحق اسم طائف بالبيت إن لم يطف به .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَالْعَاكِفِينَ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَالْعَاكِفِينَ) والمقيمين به ، والعاكف على الشىء : هو المقيم عليه ، كما قال نابغة بنى ذبيان :

عُكُوفاً لَدَى أَبْيَاتِهِمْ يَشْمِدُونَهُمْ　　رَمَى اللهُ فِى تِلْكَ الأَكُفِّ الكَوَانِعِ [1]

وإنما قيل للمعتكف معتكف من أجل مقامه فى الموضع الذى حبس فيه نفسه لله تعالى .

---

(١) فى الديوان : يشدونها . وهى رواية فى البيت .

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله (وَالعاكِفِينَ) فقال بعضهم : عنى به الجالس فى البيت الحرام بغير طواف ولا صلاة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن أبى بكر الهذلى ، عن عطاء ، قال : إذا كان طائفا بالبيت فهو من الطائفين ، وإذا كان جالسا ، فهو من العاكفين .

وقال بعضهم : العاكفون : هم المعتكفون المجاورون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبو أحمدَ الزبيرى ، قال : ثنا شريك ، عن جابر عن مجاهد وعكرمة : (طَهِّرَا بَيْتِىَ للطَّائِفِينَ والعاكِفِينَ) قال : المجاورون .

وقال بعضهم : العاكفون هم أهل البلد الحرام .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا أبو بكر بن عياش ، قال : ثنا أبو حصين ، عن سعيد بن جبير فى قوله (وَالعاكِفِينَ) قال : أهل البلد .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَالعاكِفِين) قال : العاكفون : أهله .

وقال آخرون : العاكفون : هم المصلون .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس فى قوله (طَهِّرَا بَيْتِىَ للطَّائِفِينَ وَالعاكِفِينَ) قال : العاكفون : المصلون .

وأولى هذه التأويلات بالصواب ما قاله عطاء ، وهو أن العاكف فى هذا الموضع : المقيم فى البيت مجاورا فيه بغير طواف ولا صلاة ، لأن صفة العكوف ما وصفنا من الإقامة بالمكان ، والمقيم بالمكان قد يكون مقيما به وهو جالس ومصلّ وطائف وقائم ، وعلى غير ذلك من الأحوال ، فلما كان تعالى ذكره قد ذكر فى قوله (أنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ للطَّائِفِينَ والعاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ) المصلين والطائفين ، علم بذلك أن الحال التى عنى الله تعالى ذكره من العاكف ، غير حال المصلى والطائف ، وأن التى عنى من أحواله هو العكوف بالبيت على سبيل الجوار فيه ، وإن لم يكن مصليا فيه ولا راكعا ولا ساجدا .

القول فى تأويل قوله (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَالرُّكَّعِ) جماعة القوم الراكعين فيه له ، واحدهم : راكع ، وكذلك (السُّجُودِ) هم جماعة القوم الساجدين فيه له ، واحدهم ساجد ، كما يقال رجل قاعد ورجال قعود ، ورجل جالس ورجال جلوس ، فكذلك رجل ساجد ورجال سجود . وقيل : بل عنى بالركع السجود : المصلين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن أبى بكر الهذلى ، عن عطاء (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) قال : إذا كان يصلى فهو من الركع السجود .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) أهل الصلاة ، وقد بينا فيما مضى بيان معنى الركوع والسجود ، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا) : واذكروا إذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد بلدا آمنا ، يعنى بقوله آمنا : آمنا من الجبابرة وغيرهم أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله ، كما تنال سائر البلدان ، من خسف ، وانتقال ، وغرق ، وغير ذلك من سخط الله ومَثُلاته التى تصيب سائر البلاد غيره .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن الحرم حرم بحياله إلى العرش ، وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط ، قال الله له : أهبط معك بيتى يطاف حوله ، كما يطاف حول عرشى ، فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمان الطوفان حين أغرق الله قوم نوح رفعه وطهره ، ولم تصبه عقوبة أهل الأرض ، فتتبع منه إبراهيم أثرا ، فبناه على أساس قديم كان قبله .

فإن قال لنا قائل : أو ما كان الحرم آمنا إلا بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان ؟

قيل له : لقد اختلف فى ذلك ، فقال بعضهم : لم يزل الحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقه ، منذ خلقت السموات والأرض .

واعتلوا فى ذلك بما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحق ، قال : حدثنى سعيد بن أبى سعيد المقبُرى ، قال : سمعت أبا شريح الخزاعىّ يقول : لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال : « يا أيُّها النَّاسُ إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهِىَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، لا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أنْ يَسْفِكَ بِها دَماً ، أوْ يَعْضِدَ بِها شَجَراً ، ألا وإنَّها لا تَحِلُّ لأحَدٍ بَعْدِى ، وَلَمْ تَحِلَّ لى إلاَّ هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا على أهْلِها ، ألا فَهِىَ قَدْ رَجَعَتْ على حالِها بالأمْسِ ،

أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ فمن قال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد قَتَلَ بها ، فقُولُوا: إنَّ اللهَ قَدْ أحلَّها لرسولِه ولم يُحِلَّها لكَ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا عبد الرحيم بن سليمان ، وحدثنا ابن حميد وابن وكيع ، قالا : ثنا جرير جميعا ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة حين افتتحها : « هَذِهِ حَرَمٌ حَرَّمَهَا اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ، وَوَضَعَ هَذَيْنِ الأَخْشَبَيْنِ ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » .

قالوا فمكة منذ خلقت حرم آمن من عقوبة الله وعقوبة الجبابرة .

قالوا : وقد أخبرتْ عن صحة ما قلنا من ذلك الرواية الثانية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكرناها .

قالوا : ولم يسأل إبراهيم ربه أن يؤمنه من عقوبته وعقوبة الجبابرة ، ولكنه سأله أن يؤمن أهله من الجدوب والقحوط ، وأن يرزق ساكنه من الثمرات ، كما أخبر ربه عنه أنه سأله بقوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) .

قالوا : وإنما سأل ربه ذلك ، لأنه أسكن فيه ذريته ، وهو غير ذي زرع ولا ضَرْع ، فاستعاذ ربه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشا ، فسأله أن يؤمنهم مما حذّر عليهم منه .

قالوا : وكيف يجوز أن يكون إبراهيم سأل ربه تحريم الحرم ، وأن يؤمنه من عقوبته وعقوبة جبابرة خلقه وهو القائل حين حله ، ونزله بأهله وولده (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ) . قالوا: فلو كان إبراهيم هو الذى حرّم الحرم، أو سأل ربه تحريمه، لما قال عند بيتك المحرّم ، عند نزوله به ، ولكنه حرّم قبله ، وحرّم بعده .

وقال آخرون : كان الحرم حلالا قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد غيره، وإنما صار حراما بتحريم إبراهيم إياه ، كما كانت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالا قبل تحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها .

قالوا : والدليل على ما قلنا من ذلك ما حدثنا به ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : ثنا سفيان ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللهِ وأمَّنَهُ ، وإني حَرَّمْتُ المَدِينَةَ ما بَيْنَ لابَتَيْها، لايُصادُ صَيْدُها ولا تُقْطَعُ عِضَاهُها . »

حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا عبد الرحيم الرازى ، سمعت أشعث ، عن نافع ، عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ إبْرَاهِيمَ كانَ عَبْدَ اللهِ وَخَلِيلَهُ ، وإني عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وإنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وإني حَرَّمْتُ المَدِينَةَ ما بَيْنَ لابَتَيْها: عِضَاهَها وَصَيْدَها، وَلا يُحْمَلُ فِيها سِلاحٌ لِقِتالٍ ، وَلا يُقْطَعُ مِنْها شَجَرٌ إلا لِعَلَفِ بَعِيرٍ » .

حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا قتيبة بن سعيد ، قال : ثنا بكر بن مضر ، عن ابن الهاد ، عن أبي بكر ابن محمد ، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، عن رافع بن خديج ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وإنى أُحَرِّمُ المَدِينَةَ ما بَيْنَ لابَتَيْهَا » وما أشبه ذلك من الأخبار التى يطول باستيعابها الكتاب .

قالوا : وقد أخبر الله تعالى ذكره فى كتابه أن إبراهيم قال (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا) ولم يخبر عنه أنه سأل أن يجعله آمنا من بعض الأشياء دون بعض ، فليس لأحد أن يدّعى أن الذى سأله من ذلك الأمان له من بعض الأشياء دون بعض ، إلا بحجة يجب التسليم لها .

قالوا : وأما خبر أبي شريح وابن عباس فخبران لاتثبت بهما حجة ، لما فى أسانيدهما من الأسباب التى لايجب التسليم فيها من أجلها .

والصواب من القول فى ذلك عندنا ، أن الله تعالى ذكره جعل مكة حرما حين خلقها وأنشأها ، كما أخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه حرّمها يوم خلق السموات والأرض ، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله ، ولكن بمنعه من أرادها بسوء ، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات ، وعن ساكنيها ما أحلّ بغيرها وغير ساكنيها من النقمات ، فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم خليله ، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسمعيل ، فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاد فرض تحريمها على عباده على لسانه ، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه ، يستنون به فيها ، إذ كان تعالى ذكره ، قد اتخذه خليلا ، وأخبره أنه جاعله للناس إماما يقتدى به ، فأجابه ربه إلى ما سأله ، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه ، فصارت مكة بعد أن كانت ممنوعة بمنع الله إياها ، بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها على عباده ، ومحرّمة بدفع الله عنها بغير تحريمه إياها على لسان أحد من رسله فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم عليه السلام ، وواجب على عباده الامتناع من استحلالها ، واستحلال صيدها وعضاهها ، بإيجابه الامتناع من ذلك ببلاغ إبراهيم رسالة الله إليه بذلك إليهم ، فلذلك أضيف تحريمها إلى إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ » لأن فرض تحريمها الذى ألزم الله عباده على وجه العبادة له به ، دون التحريم الذى لم يزل متعبدا[1] لها به على وجه الكلاء والحفظ لها قبل ذلك ، كان عن مسئلة إبراهيم ربه إيجاب فرض ذلك على لسانه ، لزم العباد فرضه دون غيره .

فقد تبين إذًا بما قلنا صحة معنى الخبرين ، أعنى خبر أبي شريح وابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ » ، وخبر جابر وأبى هريرة ورافع بن خديج وغيرهم ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « اللَّهُمَّ إنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ » ، وأن ليس أحدهما دافعا صحة معنى الآخر كما ظنه بعض الجهال .

وغير جائز فى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بعضها دافعا بعضا إذا ثبت صحتها ، وقد جاء الخبران اللذان رويا فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيئا ظاهرا مستفيضا يقطع عذر من بلغه .

(١) فى المخطوطة ٤٢ م : « متعودا » فى مكان « متعبدا » .

وقول إبراهيم عليه السلام (رَبَّنا إنى أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ » ، فإنه إن يكن قال قبل إيجاب الله فرض تحريمه على لسانه على خلقه ، فإنما عنى بذلك تحريم الله إياه الذى حرّمه بحياطته إياه وكلائه من غير تحريمه إياه على خلقه على وجه التعبد لهم بذلك ، وإن يكن قال ذلك بعد تحريم الله إياه على لسانه على خلقه على وجه التعبد ، فلا مسئلة لأحد علينا فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) .

وهذه مسئلة من إبراهيم ربه أن يرزق مؤمنى أهل مكة من الثمرات دون كافريهم ، وخصّ بمسئلة ذلك للمؤمنين دون الكافرين ، لما أعلمه الله عند مسئلته إياه أن يجعل من ذريته أئمة يقتدى بهم ، أن منهم الكافر الذى لاينال عهده ، والظالم الذى لا يدرك ولايته ، فلما أن علم أن من ذرّيته الظالم والكافر ، خصّ بمسئلته ربه أن يرزق من الثمرات من سكان مكة المؤمن منهم دون الكافر ، وقال الله له : إنى قد أجبت دعاءك ، وسأرزق مع مؤمنى أهل هذا البلد كافرهم ، فأمتعه به قليلا . وأما مَن من قوله (مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) فإنه نصب على الترجمة ، والبيان عن الأهل ، كما قال تعالى (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتالٍ فِيهِ) بمعنى : يسئلونك عن قتال فى الشهر الحرام ، وكما قال تعالى ذكره (وللهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إليْهِ سَبِيلاً) بمعنى : ولله حجّ البيت على من استطاع إليه سبيلا .

وإنما سأل إبراهيم ربه ما سأل من ذلك ، لأنه حلّ بواد غير ذى زرع ولا ماء ولا أهل ، فسأل أن يرزق أهله ثمرا ، وأن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، فذكر أن إبراهيم لما سأل ذلك ربه ، نقل الله الطائف من فلسطين .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق بن الحجاج ، قال : ثنا هشام ، قال : قرأت على محمد بن مسلم : أن إبراهيم لما دعا للحرم (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) نقل الله الطائف من فلسطين .

القول فى تأويل قوله تعالى (قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً)

اختلف أهل التأويل فى قائل هذا القول ، وفى وجه قراءته ، فقال بعضهم : قائل هذا القول ربنا تعالى ذكره ، وتأويله على قولهم (قالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً) برزق من الثمرات فى الدنيا إلى أن يأتيه أجله ، وقرأ قائل هذه المقالة ذلك (فأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً) بتشديد التاء ورفع العين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : حدثنى أبو العالية ، عن أبىّ بن كعب فى قوله (وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذابِ النَّارِ) قال : هو قول الربّ تعالى ذكره .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : قال ابن إسحق : لما قال إبراهيم (رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) وعدل الدعوة عمن أبى الله أن يجعل له الولاية ، انقطاعا إلى الله ومحبة وفراقا لمن خالف أمره ، وإن كانوا من ذريته حين عرف أنه كان

منهم ظالم لاينال عهده ، يخبره عن ذلك حين أخبره ، فقال الله (وَمَنْ كَفَرَ) فإنى أرزق البرّ والفاجر ، (فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً) .

وقال آخرون : بل قال ذلك إبراهيم خليل الرحمن على وجه المسئلة منه ربه أن يرزق الكافر أيضا من الثمرات بالبلد الحرام ، مثل الذى يرزق به المؤمن ويمتعه بذلك قليلا ، ثم أضطرّه إلى عذاب النار ، بتخفيف التاء ، وجزم العين ، وفتح الراء ، من اضطره ، وفصل ثم اضطره بغير قطع ألفها ، على وجه الدعاء من إبراهيم ربه لهم والمسئلة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : قال أبو العالية : كان ابن عباس يقول : ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن ليث ، عن مجاهد (وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً) يقول : ومن كفر فأرزقه أيضا ، ثم أضطره إلى عذاب النار .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا والتأويل ، ما قاله أبىّ بن كعب وقراءته ، لقيام الحجة بالنقل المستفيض دراية بتصويب ذلك ، وشذوذ ما خالفه من القراءة ، وغير جائز الاعتراض بمن كان جائزا عليه فى نقله الخطأ والسهو ، على من كان ذلك غير جائز عليه فى نقله ، وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : قال الله : يا إبراهيم قد أجبت دعوتك ، ورزقت مؤمنى أهل هذا البلد من الثمرات ، وكفارهم متاعا لهم إلى بلوغ آجالهم ، ثم أضطرّ كفارهم بعد ذلك إلى النار .

وأما قوله (فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً) يعنى فأجعل ما أرزقه من ذلك فى حياته متاعا يتمتع به إلى وقت مماته .

وإنما قلنا إن ذلك كذلك ، لأن الله تعالى ذكره ، إنما قال ذلك لإبراهيم جوابا لمسئلته ما سأل من رزق الثمرات لمؤمنى أهل مكة ، فكان معلوما بذلك أن الجواب إنما هو فيما سأله إبراهيم لافى غيره ، وبالذى قلنا فى ذلك قال مجاهد ، وقد ذكرنا الرواية بذلك عنه .

وقال بعضهم : تأويله : فأمتعه بالبقاء فى الدنيا ، وقال غيره : فأمتعه قليلا فى كفره ما أقام بمكة ، حتى أبعث محمدا صلى الله عليه وسلم ، فيقتله إن أقام على كفره أو يجليه عنها ، وذلك وإن كان وجها يحتمله الكلام ، فإن دليل ظاهر الكلام على خلافه لما وصفنا .

القول فى تأويل قوله تعالى (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ) : ثم أدفعه إلى عذاب النار ، وأسوقه إليها ، كما قال تعالى ذكره (يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نار جَهَنَّمَ دَعًّا) ، ومعنى الاضطرار : الإكراه ، يقال : اضطررت فلانا إلى هذا الأمر : إذا ألجأته إليه ، وحملته عليه ، فذلك معنى قوله : (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ) أدفعه إليها ، وأسوقه سحبا وجرًّا على وجهه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

قد دللنا على أن بِئْس أصله بَئِس من البؤس، سكن ثانيه ونقلت حركة ثانيه، إلى أوله، كما قيل للكَبِد كِبْد، وما أشبه ذلك. ومعنى الكلام: وساء المصير عذاب النار، بعد الذى كانوا فيه من متاع الدنيا الذى متعتهم فيها. وأما المصير فانه مَفْعِل من قول القائل: صرت مصيرا صالحا، وهو الموضع الذى يصير إليه الكافر بالله من عذاب النار.

القول فى تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ): واذكروا إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، والقواعد جمع قاعدة، يقال للواحدة من قواعد البيت قاعدة، وللواحدة من قواعد النساء وعجائزهن قاعد، فتلغى هاء التأنيث، لأنها فاعل من قول القائل: قَعَدت عن الحيض، ولا حظّ فيه للذكورة، كما يقال: امرأة طاهر وطامث، لأنه لاحظّ فى ذلك للذكور، ولو عَنَى به القعود الذى هو خلاف القيام لقيل قاعدة، ولم يجز حينئذ إسقاط هاء التأنيث. وقواعد البيت: أساسه.

ثم اختلف أهل التأويل فى القواعد التى رفعها إبراهيم وإسمعيل من البيت، أهما أحدثا ذلك، أم هى قواعد كانت له قبلهما؟ فقال قوم: هى قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك، ثم درس مكانه، وتعفى أثره بعده، حتى بوأه الله إبراهيم عليه السلام، فبناه.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدم: يا ربّ إنى لأسمع أصوات الملائكة، قال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض وابن لى بيتا، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحفّ ببيتى الذى فى السماء، فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل، من حِراء، وطور زيتا، وطور سينا، وجبل لبنان، والجُودىّ، وكان رَبَضه من حراء فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم بعد.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) قال: القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك.

وقال آخرون: بل هى قواعد بيت كان الله أهبطه لآدم من السماء إلى الأرض، يطوف به كما كان يطوف بعرشه فى السماء، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى محمد بن بشار، قال: ثنا عبد الوهاب، قال: ثنا أيوب، عن أبى قِلابة، عن عبد الله بن

عمرو قال: لما أهبط الله آدم من الجنة قال: إني مهبط معك، أو منزل معك بيتا، يُطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يُصلى عند عرشي؛ فلما كان زمن الطوفان رُفع. فكانت الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله إبراهيم، وأعلمه مكانه، فبناه من خمسة أجبل: من حِراء، وثَبير، ولُبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر.

حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا إسمعيل بن علية، قال: ثنا أيوب، عن أبي قلابة، قال: لما أهبط آدم، ثم ذكر نحوه.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا هشام بن حسان، عن سوار، عن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كان رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم، يأنس إليهم، فهابته الملائكة حتى شَكَتْ إلى الله في دعائها وفي صلاتها، فخفضه إلى الأرض؛ فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش، حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته، فوجه إلى مكة، فكان موضع قدمه قرية، وخطْوُه مفازة، حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن؛ فلم يزل يطوف به، حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم فبناه، فذلك قول الله (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ).

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فنقص إلى ستين ذراعا، فحزن آدم، إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله تعالى، فقال الله: يا آدم إني قد أهبطت إليك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي، فانطلق إليه آدم فخرج، ومدّ له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة، فلم تزل تلك المفاوز بعد ذلك، فأتى آدم البيت وطاف به ومن بعده من الأنبياء.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن أبان، أن البيت أهبط ياقوتة واحدة، أو درّة واحدة، حتى إذا أغرق الله قوم نوح، رفعه وبقي أساسه، فبوأه الله لإبراهيم، فبناه بعد ذلك.

وقال آخرون: بل كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القُبَّة، وذلك أن الله لما أراد خلق الأرض علا الماءَ زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام، ثم دحا الأرض من تحتها، فلم يزل ذلك كذلك حتى بوأه الله إبراهيم، فبناه على أساسه، وقالوا: أساسه على أركان أربعة، في الأرض السابعة.

ذكر من قال ذلك:

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال جرير بن حازم، حدثني حميد بن قيس، عن مجاهد، قال: كان موضع البيت على الماء، قبل أن يخلق الله السموات والأرض، مثل الزبدة البيضاء، ومن تحته دُحيت الأرض.

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : قال عطاء وعمرو ابن دينار : بعث الله رياحا، فصفقت الماء ، فأبرزت فى موضع البيت عن حَشَفَة[1] كأنها القبة ، فهذا البيت منها، فلذلك هى أمّ القرى . قال ابن جريج: قال عطاء : ثم وَتَدَها بالجبال كى لاتكفأ بميد ، فكان أول جبل أبو قبيس .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب القمى ، عن حفص بن حميد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : وضع البيت على أركان الماء[2] على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفى عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت.

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يعقوب ، عن هرون بن عنترة ، عن عطاء بن أبى رباح ، قال : وجدوا بمكة حجرا مكتوبا عليه : «إنى أنا الله ذو بكة، بنيته يوم صنعت الشمس والقمر، وحففته بسبعة أملاك حنفا» .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : حدثنى عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد وغيره من أهل العلم أن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت ، خرج إليه من الشام ، وخرج معه بإسمعيل وأمه هاجر ، وإسمعيل طفل صغير يرضع ، وحملوا فيما حدثنى على البُراق ، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم ، فخرج وخرج معه جبريل ، فقال : كان لا يمرّ بقرية إلا قال : أبهذه أمرت يا جبريل ؟ فيقول جبريل : امضه ، حتى قدم به مكة ، وهى إذ ذاك عِضاه سَلَم وسَمُر، يربها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها ، والبيت يومئذ ربوة حمراء مَدِرة ، فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمرت أن أضعهما ؟ قال : نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر ، فأنزلهما فيه ، وأمر هاجر أم إسمعيل أن تتخذ فيه عريشا، فقال: (رَبِّ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) إلى قوله (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

قال ابن حميد : قال سلمة : قال ابن إسحق : ويزعمون والله أعلم، أن ملكا من الملائكة أتى هاجر أمّ إسمعيل، حين أنزلهما إبراهيم مكة ، قبل أن يرفع إبراهيم وإسمعيل القواعد من البيت ، فأشار لهما إلى البيت، وهو ربوة حمراء مدرة ، فقال لهما : هذا أول بيت وضع فى الأرض ، وهو بيت الله العتيق ، واعلمى أن إبراهيم وإسمعيل هما يرفعانه ، فالله أعلم .

حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا هشام بن حسان ، قال : أخبرنى حميد ، عن مجاهد ، قال : خلق الله موضع هذا البيت ، قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة ، وأركانه فى الأرض السابعة .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، قال : أخبرنى بشر بن عاصم ، عن ابن المسيب ، قال : حدثنا كعب، أن البيت كان غُثاءة على الماء : قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين سنة ، ومنه دحيت الأرض . قال : وحدثنا عن علىّ بن أبى طالب أن إبراهيم أقبل من إرمينية معه

---

(١) الحشفة : صخرة رخوة ، فى سهل من الأرض . والجزيرة فى البحر لايعلوها الماء (اللسان) .

(٢) قوله « وضع البيت على أركان الماء الخ » هكذا فى الأصل ، وعبارة الدر المنثور : كان البيت على أربعة أركان فى الماء الخ .

السكينة ، تدله على تبوئ البيت [١] ، كما تتبوأ العنكبوت بيتها ، قال : فرفعت عن أحجار تطيقه أو لاتطيقه ثلاثون رجلا . قال : قلت يا أبا محمد ، فإن الله يقول (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) قال كان ذاك بعد .

والصواب من القول فى ذلك عندنا : أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر عن إبراهيم خليله ، أنه وابنه إسمعيل رفعا القواعد من البيت الحرام ، وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم ، فجعله مكان البيت الحرام الذى بمكة . وجائز أن يكون ذلك كان القبة التى ذكرها عطاء ، مما أنشأه الله من زَبَد الماء ، وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درّة أهبطا من السماء ، وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم ، حتى رفع قواعده إبراهيم وإسمعيل ، ولا علم عندنا بأىّ ذلك كان من أىٍّ ، لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله ، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم بالنقل المستفيض ، ولا خبر بذلك تقوم به الحجة ، فيجب التسليم لها ، ولا هو إذ لم يكن به خبر على ما وصفنا ، مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس ، فيمثل بغيره ، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد ، فلا قول فى ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا ، والله تعالى أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) :

يعنى تعالى ذكره بذلك (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ) يقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) وذكر أن ذلك كذلك فى قراءة ابن مسعود ، وهو قول جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال: ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : يبنيان وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى بها إبراهيمَ ربه ، قال (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج ، قال : أخبرنى ابن كثير ، قال : ثنا سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ) قال : هما يرفعان القواعد من البيت ، ويقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) قال : وإسمعيل يحمل الحجارة على رقبته ، والشيخ يبنى .

فتأويل الآية على هذا القول : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل قائلين : ربنا تقبل منا .

وقال آخرون : بل قائل ذلك كان إسمعيل .

فتأويل الآية على هذا القول: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، وإذ يقول إسمعيل: ربنا تقبل منا ، فيصير حينئذ إسمعيل مرفوعا بالجملة التى بعده ، ويقول حينئذ خبر له دون إبراهيم .

---

(١) قوله « تدله على تبوىء البيت الخ » عبارة الدر المنثور : « تدله على موضع البيت كما تبنى العنكبوت بيتها ، فحفر من تحت السكينة ، فأبدى عن قواعد البيت ، ما يحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلا ، قال : قلت : يا أبا محمد » إلى آخر ما هنا ، فتأمل .

ثم اختلف أهل التأويل فى الذى رفع القواعد . بعد إجماعهم على أن إبراهيم كان ممن رفعها ، فقال بعضهم : رفعها إبراهيم وإسمعيل جميعا .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَعَهِدْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) قال : فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة ، فقام هو وإسمعيل ، وأخذا المعاول ، لايدريان أين البيت ، فبعث الله ريحا يقال لها ريح الخَجُوج ، لها جناحان ورأس فى صورة حية ، فكنست لهما ماحول الكعبة ، وعن أساس البيت الأول ، واتبعاها بالمعاول يحفران ، حتى وضعا الأساس ، فذلك حين يقول (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) فلما بنيا القواعد ، فبلغا مكان الركن قال إبراهيم لإسمعيل : يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا ، قال : يا أبت إنى كسلان تعب ، قال : علىّ بذلك ، فانطلق فطلب له حجرا فجاءه بحجر ، فلم يرضه ، فقال : ائتنى بحجر أحسن من هذا ، فانطلق يطلب له حجرا ، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ، ياقوتة بيضاء مثل الثَّغامة ، وكان آدم هبط به من الجنة فاسودّ من خطايا الناس ، فجاءه إسمعيل بحجر ، فوجده عند الركن ، فقال : يا أبت من جاءك بهذا ؟ فقال : من هو أنشط منك ، فبنياه .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة عن ابن إسحق ، عن عمرو بن عبد الله بن عتبة ، عن عبيد بن عمير الليثى ، قال : بلغنى أن إبراهيم وإسمعيل هما رفعا قواعد البيت .

وقال آخرون : بل رفع قواعد البيت إبراهيم ، وكان إسمعيل يناوله الحجارة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أحمد بن ثابت الرازى ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : جاء إبراهيم وإسمعيل يبرى نبلا قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسمعيل إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا ، وأشار إلى الكعبة ، والكعبة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، قال : فجعل إسمعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ، حتى دوّر حول البيت .

حدثنا ابن بشار القزاز ، قال : ثنا عبيد الله بن عبد المجيد أبو علىّ الحنفى ، قال : ثنا إبراهيم بن نافع قال : سمعت كثير بن كثير يحدّث عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء ، يعنى إبراهيم ، فوجد إسمعيل يصلح نبلا من وراء زمزم ، قال إبراهيم : يا إسمعيل إن الله ربك قد أمرنى أن أبنى له بيتا ، فقال له إسمعيل : فأطع ربك فيما أمرك ، فقال له إبراهيم : قد أمرك أن تعيننى عليه ، قال : إذًا أفعل ، قال : فقام

معه ، فجعل إبراهيم يبنيه وإسمعيل يناوله الحجارة ، ويقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ، فلما ارتفع البنيان ، وضعف الشيخ عن رفع الحجارة ، قام على حجر ، فهو مقام إبراهيم ، فجعل يناوله ويقولان : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقال آخرون : بل الذى رفع قواعد البيت إبراهيم وحده وإسمعيل يومئذ طفل صغير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، قالا : ثنا مؤمل ، قال : ثنا سفيان ، عن أبى إسحق ، عن حارثة ابن مصرف ، عن علىّ ، قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت ، خرج معه إسمعيل وهاجر ، قال : فلما قدم مكة رأى على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة ، فيه مثل الرأس ، فكلمه ، فقال : يا إبراهيم ابن على ظلى ، أو على قدرى ، ولا تزد ولا تنقص ، فلما بنى وخلّف إسمعيل وهاجر ، فقالت هاجر : يا إبراهيم إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله ، قالت : انطلق فإنه لايضيعنا ، قال : فعطش إسمعيل عطشا شديدا ، قال : فصعدت هاجر الصفا ، فنظرت فلم تر شيئا ، ثم أتت المروة ، فنظرت فلم تر شيئا ، ثم رجعت إلى الصفا ، فنظرت فلم تر شيئا ، حتى فعلت ذلك سبع مرات ، فقالت : يا إسمعيل مُتْ حيث لاأراك ، فأتته وهو يفحص برجله من العطش ، فناداها جبريل ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : أنا هاجر أمّ ولد إبراهيم ، قال : إلى من وكلكما ؟ قالت : وكلنا إلى الله ، قال : وكلكما إلى كاف ، قال : ففحص الأرض بأصبعه ، فنبعت زمزم ، فجعلت تحبس الماء ، فقال دعيه ، فإنها رواء .

حدثنا عباد ، قال : ثنا أبو الأحوص ، عن سماك ، عن خالد بن عرعرة أن رجلا قام إلى علىّ فقال : ألا تخبرنى عن البيت : أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال : لا ، ولكن هو أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، وإن شئت أنبأتك كيف بنى ؟ إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتا فى الأرض ، قال : فضاق إبراهيم بذلك ذرعا ، فأرسل الله السكينة وهى ريح خَجُوج ، ولها رأسان ، فاتبع أحدهما صاحبه ، حتى انتهت إلى مكة ، فتطوّت على موضع البيت ، كتطوّى الحجَفة ، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقرّ السكينة ، فبنى إبراهيم وبقى حجر ، فذهب الغلام يبغى شيئا ، فقال إبراهيم : لا ، ابغنى حجرا كما آمرك ، قال : فانطلق الغلام يلتمس له حجرا ، فأتاه فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه ، فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟ قال : أتانى به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل من السماء ، فأتماه .

حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا سعيد ، عن سماك ، قال : سمعت خالد ابن عرعرة يحدّث عن علىّ بنحوه .

حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو داود ، قال : ثنا شعبة وحماد بن سلمة وأبو الأحوص كلهم عن سماك ، عن خالد بن عرعرة ، عن علىّ بنحوه . فمن قال : رفع القواعد إبراهيم وإسمعيل ، أو قال رفعها إبراهيم ، وكان إسمعيل يناوله الحجارة ، فالصواب فى قوله أن يكون المضمر من القول لإبراهيم وإسمعيل ، ويكون الكلام حينئذ (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ) يقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) .

وقد كان يحتمل على هذا التأويل أن يكون المضمر من القول لإسمعيل خاصة دون إبراهيم ، ولإبراهيم خاصة دون إسمعيل ، لولا ماعليه عامة أهل التأويل ، من أن المضمر من القول لإبراهيم وإسمعيل جميعا .

وأما على التأويل الذى روى عن علىّ أن إبراهيم هو الذى رفع القواعد دون إسمعيل ، فلا يجوز أن يكون المضمر من القول عند ذلك إلا لإسمعيل خاصة .

والصواب من القول عندنا فى ذلك أن المضمر من القول لإبراهيم وإسمعيل ، وأن قواعد البيت رفعها إبراهيم وإسمعيل جميعا ، وذلك أن إبراهيم وإسمعيل إن كانا هما بنياها ورفعاها ، فهو ما قلنا ، وإن كان إبراهيم تفرّد ببنائها ، وكان إسمعيل يناوله ، فهما أيضا رفعاها ، لأن رفعها كان بهما ، من أحدهما البناء ، ومن الآخر نقل الحجارة إليها ومعونة وضع الأحجار مواضعها ، ولا تمتنع العرب من نسبة البناء إلى من كان بسببه البناء ومعونته ، وإنما قلنا ماقلنا من ذلك لإجماع جميع أهل التأويل على أن إسمعيل معنىّ بالخبر الذى أخبر الله عنه وعن أبيه أنهما كانا يقولانه ، وذلك قولهما (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فمعلوم أن إسمعيل لم يكن ليقول ذلك إلا وهو إما رجل كامل ، وإما غلام قد فهم مواضع الضرّ من النفع ، ولزمته فرائض الله وأحكامه ، وإذا كان فى حال بناء أبيه ما أمره الله ببنائه ورفعه قواعد بيت الله كذلك ، فمعلوم أنه لم يكن تاركا معونة أبيه ، إما على البناء ، وإما على نقل الحجارة ، وأىّ ذلك كان منه فقد دخل فى معنى من رفع قواعد البيت ، وثبت أن القول المضمر خبر عنه وعن والده إبراهيم عليهما السلام .

فتأويل الكلام : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ، يقولان ربنا تقبل منا عملنا وطاعتنا إياك ، وعبادتنا لك فى انتهائنا إلى أمرك الذى أمرتنا به ، فى بناء بيتك الذى أمرتنا ببنائه ، إنك أنت السميع العليم .

وفى إخبار الله تعالى ذكره أنهما رفعا القواعد من البيت وهما يقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) دليل واضح على أن بناءهما ذلك لم يكن مسكنا يسكنانه ، ولا منزلا ينزلانه ، بل هو دليل على أنهما بنياه ورفعا قواعده لكل من أراد أن يعبد الله ، تقربا منهما إلى الله بذلك ، ولذلك قالا (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) ولو كانا بنياه مسكنا لأنفسهما ، لم يكن لقولهما « تقبل منا » وجه مفهوم ، لأنه كانا يكونان لو كان الأمر كذلك سائلين أن يتقبل منهما ما لاقربة فيه إليه ، وليس موضعهما مسئلة الله قبول مالاقربة إليه فيه .

القول فى تأويل قوله (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وتأويل قوله (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) إنك أنت السميع دعاءنا ، ومسئلتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا ، من طاعتك فى بناء بيتك الذى أمرتنا ببنائه ، العليم بما فى ضمائر نفوسنا ، من الإذعان لك فى الطاعة ، والمصير إلى ما فيه لك الرضا والمحبة ، وما نبدى ونخفى من أعمالنا .

كما حدثنى القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج : أخبرنى أبو كثير ، قال : ثنا سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) يقول : تقبل منا إنك سميع الدعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾

وهذا أيضا خبر من الله تعالى ذكره عن إبراهيم وإسمعيل ، أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لانشرك معك فى الطاعة أحدا سواك ، ولا فى العبادة غيرك ؛ وقد دللنا فيما مضى على أن معنى الإسلام الخضوع لله بالطاعة .

وأما قوله (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) فإنهما خصّا بذلك بعض الذرية ، لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله صلى الله عليه وسلم قبل مسئلته هذه ، أن من ذرّيته من لاينال عهده لظلمه وفجوره ، فخصّا بالدعوة بعض ذريّتهما ، وقد قيل إنهما عنَيا بذلك العرب .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) يعنيان العرب ، وهذا قول يدلّ ظاهر الكتاب على خلافه ، لأن ظاهره يدل على أنهما دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهلَ طاعته وولايته والمستجيبين لأمره ، وقد كان فى ولد إبراهيم العرب وغير العرب ، والمستجيب لأمر الله والخاضع له بالطاعة من الفريقين ، فلا وجه لقول من قال : عنَى إبراهيم بدعائه ذلك فريقا من ولده بأعيانهم دون غيرهم إلا التحكم الذى لايعجز عنه أحد ، وأما الأمة فى هذا الموضع ، فإنه يعنى بها الجماعة من الناس من قول الله (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

القول فى تأويل قوله تعالى (وأَرِنا مَنَاسِكَنا)

اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم (وأَرِنا مَنَاسِكَنا) بمعنى رؤية العين ، أى أظهرها لأعيننا حتى نراها ، وذلك قراءة عامة أهل الحجاز والكوفة ، وكان بعض من يوجه تأويل ذلك إلى هذا التأويل يسكن الراء من أرنا ، غير أنه يُشمها كسرة .

واختلف قائل هذه المقالة وقراء هذه القراءة فى تأويل قوله (مَنَاسِكَنا) فقال بعضهم : هى مناسك الحجّ ومعالمه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وارِنا مَنَاسِكَنا) فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، والإفاضة من عرفات ، والإفاضة من جمع ، ورمى الجمار ، حتى أكمل الله الدين أو دينه .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (وأرِنا مَنَاسِكَنا) قال : أرنا نسكنا وحجنا .

حدثنا موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، قال : لما فرغ إبراهيم وإسمعيل من بنيان البيت ، أمره الله أن ينادى فقال : (وأذِّنْ فى النَّاسِ بِالحجِّ) فنادى بين أخشبى مكة : يا أيها الناس ، إن الله يأمركم أن تحجوا بيته ، قال : فوَقَرت فى قلب كل مؤمن ، فأجابه كل من سمعه من جبل أو شجر أو دابة : لبيك لبيك ، فأجابوه بالتلبية : لبيك اللهمّ لبيك ، وأتاه من أتاه ، فأمره الله أن يخرج إلى عرفات ونعتها ، فخرج ؛ فلما بلغ الشجرة عند العقبة استقبله الشيطان ، فرماه بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة ، فطار فوقع على الجمرة الثانية أيضا ، فصدّه فرماه وكبّر ، فطار فوقع على الجمرة الثالثة ، فرماه وكبّر ؛ فلما رأى أنه لا يطيقه ، ولم يدر إبراهيم أين يذهب ، انطلق حتى أتى ذا المجاز ، فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز ، فلذلك سُمى ذا المجاز ، ثم انطلق حتى وقع بعرفات ، فلما نظر إليها عرف النعت ، قال : قد عرفت ، فسميت عرفات ، فوقف إبراهيم بعرفات ، حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع ، فسميت المزدلفة ، فوقف بجمع ، ثم أقبل حتى أتى الشيطان حيث لقيه أوّل مرّة فرماه بسبع حصيات سبع مرّات ، ثم أقام بمنى حتى فرغ من الحجّ وأمره ، وذلك قوله (وأرِنا مَنَاسِكَنا) .

وقال آخرون : ممن قرأ هذه القراءة : المناسك : المذابح ، فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك : وأرنا كيف ننسك لك يا ربنا نسائكنا ، فنذبحها لك .

ذكر من قال ذلك .

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء (وأرِنا مَنَاسِكَنا) قال : ذبحنا .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا الثورى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، قال : مذابحنا .

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

حدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء : سمعت عبيد بن عمير يقول (وأرِنا مَنَاسِكَنا) قال : أرنا مذابحنا .

وقال آخرون (وأرْنا مَنَاسِكَنا) بتسكين الراء ، وزعموا أن معنى ذلك : وعلّمنا ودُلّنا عليها ، لأنّ معناها أرناها بالأبصار ، وزعموا أن ذلك نظير قول حُطائط بن يعفر أخى الأسود بن يعفر :

أرِينِى جَوَاداً ماتَ هُزْلاً لأنَّنِى أرَى ما تَرَيْنَ أوْ بَخِيلاً مُخَلَّداً

يعنى بقوله أرينى : دلينى عليه وعرّفينى مكانه ، ولم يعن به رؤية العين ، وهذه قراءة رويت عن بعض المتقدّمين .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء (أَرِنَا مَنَاسِكَنَا) : أخرجها لنا ، علمناها .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : قال ابن المسيب ، قال علىّ بن أبى طالب : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، قال : فعلت أى ربّ فأرنا مناسكنا ، أبرزها لنا ، علمناها ، فبعث الله جبريل فحجّ به . والقول واحد ، فمن كسر الراء جعل علامة الجزم سقوط الياء التى فى قول القائل أرِنيهِ ، وأقرّ الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم . ومن سكن الراء من أرنا توهم أن إعراب الحرف فى الراء، فسكنها فى الجزم ، كما فعلوا ذلك فى لم يكن ولم يك ، وسواء كان ذلك من رؤية العين ، أو من رؤية القلب ، ولا معنى لفرق من فرق بين رؤية العين فى ذلك ورؤية القلب .

وأما المناسك فإنها جمع منسك،وهو الموضع الذى ينسك لله فيه،ويتقرّب إليه فيه بمايرضيه من عمل صالح: إما بذبح ذبيحة له ، وإما بصلاة أو طواف أو سعى ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، ولذلك قيل لمشاعر الحجّ مناسكه ، لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس ، ويترددون إليها . وأصل المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل ويألفه ، يقال : لفلان منسك ، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شرّ ، ولذلك سميت المناسك مناسك ، لأنها تعتاد ويتردد إليها بالحجّ والعمرة ، وبالأعمال التى يتقرّب بها إلى الله ، وقد قيل : إن معنى النسك عبادة الله ، وأن الناسك إنما سمى ناسكا بعبادة ربه ، فتأوّل قائل هذه المقالة قوله (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) وعلمنا عبادتك كيف نعبدك ، وأين نعبدك ، وما يرضيك عنا فنفعله ؟ وهذا القول وإن كان مذهبا يحتمله الكلام ، فإن الغالب على معنى المناسك ما وصفنا قبل، من أنها مناسك الحجّ التى ذكرنا معناها ، وخرج هذا الكلام من قول إبراهيم وإسمعيل على وجه المسئلة منهما ربهما لأنفسهما، وإنما ذلك منهما مسئلة ربهما لأنفسهما وذريتهما المسلمين ، فلما ضما ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما صارا كالمخبرين عن أنفسهم بذلك، وإنما قلنا إن ذلك كذلك لتقدم الدعاء منهما للمسلمين من ذريتهما قبلُ فى أوّل الآية ، وتأخره بعدُ فى الآية الأخرى .

فأما الذى فى أول الآية فقولهما (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) ثم جمعا أنفسهما والأمة المسلمة من ذريتهما فى مسئلتهما ربهما أن يريهم مناسكهم فقالا (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) .

وأما التى فى الآية التى بعدها (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) فجعلا المسئلة لذريتهما خاصة ، وقد ذكر أنها فى قراءة ابن مسعود : وأرهم مناسكهم ، يعنى بذلك : وأر ذريتنا المسلمة مناسكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

أما التوبة فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب ، فتوبة العبد إلى ربه : أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه والإقلاع عنه ، والعزم على ترك العود فيه ، وتوبة الربّ على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه ، مغفرة له منه ، وتفضلا عليه .

(١) فى المخطوطتين ٤٢م،٤٣م تفسير : أرنيه أرته . والكلمة الثانية لاضرورة لها، ولعلها من خطأ الناسخ ، والأولى أصلها: أريئيه ، حذفت الياء الأولى للجزم كما قال المؤلف، والنون للوقاية ،والياء بعدها ضمير المتكلم مفعول به أول، والهاء مفعوله الثانى .

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب، فاحتاجا إلى مسئلة ربهما التوبة؟ قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة، فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك، وإنما خصا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت، لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله، وجائز أن يكونا عنيا بقولهما: وتب علينا: وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا، الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك، فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنيّ به ذريتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرّني فلان: إذا برّ ولده.

وأما قوله (إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فإنه يعني به: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم، المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

وهذه دعوة إبراهيم وإسمعيل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: « أنا دَعْوَةُ أبي إبْرَاهِيمَ، وبُشْرَى عِيسَى ».

حدثنا بذلك ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحق، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان الكلاعي، أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: نعم « أنا دَعْوَةُ أبي إبْرَاهِيمَ، وبُشْرَى عِيسَى » صلى الله عليهم وسلم.

حدثني عمران بن بكار الكلاعي، قال: ثنا أبو اليمان، قال: ثنا أبو كريب، عن أبي مريم، عن سعيد ابن سويد، عن العِرباض بن سارية السُّلَمي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنّي عِنْدَ اللهِ في أُمِّ الكِتابِ خاتَمُ النَّبِيِّينَ، وإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِهِ، وَسَوْفَ أُنَبِّئُكُمْ بِتأوِيلِ ذَلِكَ، أنا دَعْوَةُ أبي إبْرَاهِيمَ، وَبِشارَةُ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيا أُمّي ».

حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن وهب، قال: أخبرني معاوية، وحدثني عبيد بن آدم ابن أبي إياس العسقلاني، قال: حدثني أبي، قال: ثنا الليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، قالا جميعا، عن سعيد بن سويد، عن عبد الله بن هلال السلميّ، عن عرباض بن سارية السلمي، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بنحوه.

حدثني المثنى، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنا معاوية، عن سعيد بن سويد، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن عرباض بن سارية أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، فذكر نحوه.

وبالذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) ففعل الله ذلك ، فبعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفون وجهه ونسبه ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد .

حدثنا موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) هو محمد صلى الله عليه وسلم .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : قد استجيب ذلك ، وهو فى آخر الزمان ؛ ويعنى تعالى ذكره بقوله (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ) يقرأ عليهم كتابك الذى توحيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ)

ويعنى بالكتاب القرآن ، وقد بينت فيما مضى لم سمى القرآن كتابا ، وما تأويله ، وهو قول جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : ويعلمهم الكتاب : القرآن .

ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الحكمة التى ذكرها الله فى هذا الموضع . فقال بعضهم : هى السنة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، والحكمة : أى السنة .

وقال بعضهم : الحكمة هى المعرفة بالدين والفقه فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قلت لمالك : ما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين ، والفقه فى الدين ، والاتباع له .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَالحِكْمَةَ) قال : الحكمة : الدين الذى لايعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم يعلمهم إياها ، قال : والحكمة : العقل فى الدين ، وقرأ (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) وقال لعيسى (وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ) قال : وقرأ ابن زيد (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا) قال : لم ينتفع بالآيات حيث لم تكن معها حكمة ، قال : والحكمة شىء يجعله الله فى القلب ينوّر له به .

والصواب من القول عندنا فى الحكمة ، أنها العلم بأحكام الله التى لايدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم والمعرفة بها ، وما دلّ عليه ذلك من نظائره ، وهو عندى مأخوذ من الحكم الذى بمعنى الفصل

بين الحقّ والباطل بمنزلة الجِلسة والقِعدة من الجلوس والقعود ، يقال منه إن فلانا لحكيم بَيِّن الحكمة ، يعنى به أنه لبين الإصابة فى القول والفعل . وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم كتابك الذى تنزله عليهم ، وفَصْل قضائك ، وأحكامك التى تعلمه إياها .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَيُزَكِّيهِمْ) :

قد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى التزكية : التطهير ، وأن معنى الزكاة : النماء والزيادة ؛ فمعنى قوله (ويزكيهم) فى هذا الموضع ، ويطهرهم من الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، وينميهم ويكثرهم بطاعة الله .

كما حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُزَكِّيهِمْ) قال : يعنى بالزكاة : طاعة الله والإخلاص .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج ، قال : قال ابن جريج : قوله (وَيُزَكِّيهِمْ) قال : يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه .

القول فى تأويل قوله تعالى (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك : إنك يا ربّ أنت العزيز القوىّ الذى لايعجزه شىء أراده ، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك ، والحكيم : الذى لايدخل تدبيرَه خَلَل ولا زلل ، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا ، ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) وأىّ الناس يزهد فى ملة إبراهيم ، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها ، وإنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى ، لاختيارهم مااختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام ، لأن ملة إبراهيم هى الحنيفية المسلمة ، كما قال تعالى ذكره (ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا) فقال تعالى ذكره لهم : ومن يزهد عن ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة إلا من سفه نفسه .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) رغب عن ملته اليهود والنصارى ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ، وتركوا ملة إبراهيم ، يعنى الإسلام حنيفا ، كذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ

مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) قال : رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله ، وتركوا ملة إبراهيم الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى (إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) إلا من سفهت نفسه ، وقد بينا فيما مضى أن معنى السفه : الجهل . فمعنى الكلام : وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية إلا سفيه جاهل بموضع حظّ نفسه فيما ينفعها ويضرّها فى معادها .

كما حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) قال : إلا من أخطأ حظه ، وإنما نصب النفس على معنى المفسر ، وذلك أن السفه فى الأصل للنفس ، فلما نقل إلى من نصبت النفس بمعنى التفسير ، كما يقال : هو أوسعكم دارا ، فتدخل الدار فى الكلام على أن السعة فيها لا فى الرجل ، فكذلك النفس أدخلت ، لأن السفه للنفس لا لمن ، ولذلك لم يجز أن يقال سفه أخوك ، وإنما جاز أن يفسر بالنفس وهى مضافة إلى معرفة ، لأنها فى تأويل نكرة .

وقال بعض نحويى البصرة : إن قوله (سَفِهَ نَفْسَهُ) جرت مجرى سفه إذا كان الفعل غير متعدّ وإنما عدّاه إلى نفسه ورأيه [1] وأشباه ذلك مما هو فى المعنى نحو سفه ، إذا هو لم يتعدّ . فأما غبن وخسر فقد يتعدّى إلى غيره ، يقال : غبن خمسين ، وخسر خمسين .

القول فى تأويل قوله (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا) ولقد اصطفينا إبراهيم ، والهاء التى فى قوله (اصْطَفَيْنَاهُ) من ذكر إبراهيم ، والاصطفاء : الافتعال من الصفوة ، وكذلك اصطفينا افتعلنا منه ، صيرت تاؤها طاء لقرب مخرجها من مخرج الصاد .

ويعنى بقوله (اصْطَفَيْنَاهُ) اخترناه ، واجتبيناه للخلة ، ونصيره فى الدنيا لمن بعده إماما ، وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سنّ لمن بعده فهو لله مخالف ، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو لإبراهيم مخالف ، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته ، وجعله للناس إماما ، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة ، ففى ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أنّ من خالفه فهو لله عدوّ ، لمخالفته الإمام الذى نصبه الله لعباده .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) وإن إبراهيم فى الدار الآخرة لمن الصالحين ، والصالح من بنى آدم : هو المؤدّى حقوق الله عليه ، فأخبر تعالى ذكره عن إبراهيم خليله أنه فى الدنيا له صفىّ ، وفى الآخرة ولىّ ، وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده .

---

(١) عبارة اللسان : وقولهم سفه نفسه ، وغبن رأيه ، وبطر عيشه ، وألم بطنه ، ووفق أمره ، ورشد أمره ، كان الأصل سفهت نفس زيد ، ورشد أمره ؛ فلما حول الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه ، لأنه فى معنى سفه نفسه بالتشديد ، هذا قول البصريين والكسائى ، انتهت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)

يعنى تعالى ذكره بقوله (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) إذ قال له ربه : أخلص لى العبادة ، واخضع لى بالطاعة . وقد دللنا فيما مضى على معنى الإسلام فى كلام العرب ، فأغنى عن إعادته .

وأما معنى قوله (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فإنه يعنى تعالى ذكره : قال إبراهيم مجيبا لربه : خضعت بالطاعة ، وأخلصت العبادة لمالك جميع الخلائق ومدبرها دون غيره .

فإن قال قائل : قد علمت أن إذ وقت فما الذى وُقِّتَ به ، وما الذى صلته ، قيل : هو صلة لقوله : (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) . وتأويل الكلام : ولقد اصطفيناه فى الدنيا حين قال له ربه أسلم ، قال : أسلمت لربّ العالمين . وإنما معنى الكلام : ولقد اصطفيناه فى الدنيا حين قلنا له أسلم ، قال : أسلمت لربّ العالمين ، فأظهر اسم الله فى قوله (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) على وجه الخبر عن غائب ، وقد جرى ذكره قبلُ على وجه الخبر عن نفسه ، كما قال خُفاف بن نُدبة :

أقُولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يأطُرُ مَتْنَهُ تأمَّلْ خُفافاً إنَّنِى أنا ذَالِكا

فإن قال لنا قائل : وهل دعا الله إبراهيم إلى الإسلام ؟ قيل له نعم ، قد دعاه إليه ، فإن قال : وفى أىّ حال دعاه إليه ، قيل حين قال : « يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وذلك هو الوقت الذى قال له ربه أسلم من بعد ما امتحنه بالكواكب والقمر والشمس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَوَصَّى بِهَا) ووصّى بهذه الكلمة ، أعنى بالكلمة قوله (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وهى الإسلام الذى أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله ، وخضوع القلب والجوارح له .

ويعنى بقوله (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) عهد إليهم بذلك وأمرهم به . وأما قوله (وَيَعْقُوبُ) فإنه يعنى : ووصى بذلك أيضا يعقوب بنيه .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) يقول : ووصى بها يعقوب بنيه بعد إبراهيم .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) وصاهم بالإسلام ، ووصى يعقوب بمثل ذلك .

وقال بعضهم : قوله (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) خبر منقض ، وقوله (وَيَعْقُوبُ) خبر مبتدأ فإنه قال : ووصى بها إبراهيم بنيه ، بأن يقولوا : أسلمنا لرب العالمين ، ووصى يعقوب بنيه أن (يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ولا معنى لقول من قال ذلك ، لأن الذى أوصى به يعقوب بنيه نظير الذى أوصى به إبراهيم بنيه من الحث على طاعة الله والخضوع له والإسلام .

فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ماوصفت من أن معناه : ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : أن يابنيّ ، فما بال أن محذوفة من الكلام ؟ قيل : لأن الوصية قول ، فحملت على معناها ، وذلك أن ذلك لو جاء بلفظ القول لم تحسن معه أن ، وإنما كان يقال : وقال إبراهيم لبنيه ويعقوب : يا بنيّ ، فلما كانت الوصية قولا حملت على معناها دون قولها ، فحذفت أن التى تحسن معها ، كما قال تعالى ذكره (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) وكما قال الشاعر :

إِنِّى سَأُبْدِى لَكَ فِيمَا أُبْدِى		لِى شَجَنَانِ شَجَنٌ بِنَجْدِ
وَشَجَنٌ لِى بِبِلَادِ السِّنْدِ[1]

فحذفت (أن) إذ كان الإبداء باللسان فى المعنى قولا ، فحمله على معناه دون لفظه . وقد قال بعض أهل العربية إنما حذفت أن من قوله (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) اكتفاء بالنداء ، يعنى بالنداء قوله : يا بنيّ ، وزعم أن علته فى ذلك أن من شأن العرب الاكتفاء بالأدوات عن (أن) كقولهم ناديت هل قمت ، وناديت أين زيد . قال : وربما أدخلوها مع الأدوات فقالوا : ناديت أن هل قمت ، وقد قرأ جماعة من القرّاء (وأَوْصَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ) بمعنى عهد . وأما من قرأ (وَوَصَّى) مشددة فإنه يعنى بذلك أنه عهد إليهم عهدا بعد عهد ، وأوصى وصية بعد وصية .

القول فى تأويل قوله تعالى (يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ) إن الله اختار لكم هذا الدين الذى عهد إليكم فيه واجتباه لكم ، وإنما أدخل الألف واللام فى الدين ، لأن الذين خوطبوا من ولدهما وبنيهما بذلك كانوا قد عرفوه بوصيتهما إياهم به ، وعهدهما إليهم فيه ، ثم قالا لهم بعد أن عرفاهموه : إن الله اصطفى لكم هذا الدين الذى قد عهد إليكم فيه ، فاتقوا الله أن تموتوا إلا وأنتم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

إن قال لنا قائل أوَ إلى بنى آدم الموت والحياة ، فينهى أحدهم أن يموت إلا على حالة دون حالة ؟ قيل له : إن معنى ذلك على غير الوجه الذى ظننت ، وإنما معناه (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أى فلا تفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم . وذلك أن أحدا لايدرى متى تأتيه منيته ، فلذلك قالا لهم : (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) لأنكم لاتدرون متى تأتيكم مناياكم من ليل أو نهار ، فلا تفارقوا الإسلام ، فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذى اصطفاه لكم ربكم ، فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا .

(١) كذا فى الصحاح كما أورده المؤلف . وفى اللسان والتاج : الهند ، فى موضع (السند) . وهذا الشاعر عربى ، ولعله يقصد بلاد الهند أو السند مدينة البصرة ، لكثرة من كان فيها من جاليتهم منذ تأسيسها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)

يعنى تعالى ذكره بقوله (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ) أكنتم ، ولكنه استفهم بأم إذ كان استفهاما مستأنفا على كلام قد سبقه ، كما قيل (الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) وكذلك تفعل العرب فى كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه تستفهم فيه بأم ، والشهداء : جمع شهيد كما الشركاء جمع شريك ، والخصماء جمع خصيم .

وتأويل الكلام : أكنتم يا معشر اليهود والنصارى المكذّبين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الجاحدين نبوّته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت ، أى أنكم لم تحضروا ذلك ، فلا تدّعوا على أنبيائى ورسلى الأباطيل ، وتنحلوهم اليهودية والنصرانية ، فإنى ابتعثت خليلى إبراهيم وولده إسحق وإسمعيل وذرّيتهم بالحنيفية المسلمة ، وبذلك وصوا بنيهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم ، فلو حضرتموهم فسمعتم منهم علمتم أنهم على غير ما تنحلونهم من الأديان والملل من بعدهم .

وهذه آيات نزلت تكذيبا من الله تعالى لليهود والنصارى ، فى دعواهم فى إبراهيم وولده يعقوب أنهم كانوا على ملتهم ، فقال لهم فى هذه الآية (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ) فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده ، ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ) يعنى أهل الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى (إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

يعنى تعالى ذكره بقوله (إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ) إذ قال يعقوب لبنيه : وإذ هذه مكرّرة إبدالا من إذ الأولى : بمعنى أم كنتم شهداء يعقوب إذ قال يعقوب لبنيه حين حضور موته .

ويعنى بقوله (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى) أىّ شىء تعبدون من بعدى ، أى من بعد وفاتى ، قالوا : نعبد إلهك ، يعنى به قال بنوه له : نعبد معبودك الذى تعبده ، ومعبود آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلها واحدا ، أى نخلص له العبادة ، ونوحد له الربوبية فلا نشرك به شيئا ولا نتخذ دونه ربا .

ويعنى بقوله (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ونحن له خاضعون بالعبودية والطاعة ، ويحتمل قوله (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) أن تكون بمعنى الحال كأنهم قالوا : نعبد إلهك مسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه ، ويحتمل أن يكون خبرا مستأنفا ، فيكون بمعنى : نعبد إلهك بعدك ، ونحن له الآن وفى كل حال مسلمون ،

وأحسن هذين الوجهين فى تأويل ذلك أن يكون بمعنى الحال ، وأن يكون بمعنى نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق مسلمين لعبادته . وقيل : إنما قدم ذكر إسمعيل على إسحق لأن إسمعيل كان أسنّ من إسحق .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) قال : يقال بدأ بإسمعيل لأنه أكبر .

وقرأ بعض المتقدمين : وَإِلَٰهَ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ ، ظنا منه أن إسمعيل إذ كان عما ليعقوب فلا يجوز أن يكون فيمن ترجم به عن الآباء وداخلا فى عدادهم ، وذلك من قارئه كذلك قلة علم منه بمجارى كلام العرب ، والعرب لا تمتنع من أن تجعل الأعمام بمعنى الآباء ، والأخوال بمعنى الأمهات ، فلذلك دخل إسمعيل فيمن ترجم به عن الآباء ، وإبراهيم وإسمعيل وإسحق ترجمة عن الآباء فى موضع جرّ ، ولكنهم نصبوا بأنهم لا يجرّون . والصواب من القراءة عندنا فى ذلك (وَإِلَٰهَ آبَائِكَ) لإجماع القرّاء على تصويب ذلك وشذوذ من خالفه من القراء ممن قرأ خلاف ذلك . ونصب قوله إلها على الحال من قوله إلهك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

يعنى تعالى ذكره بقوله (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ) إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب وولدهم . يقول لليهود والنصارى : يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله ، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية فتضيفوها[1] إليهم ، فإنهم أمة ؛ ويعنى بالأمة فى هذا الموضع الجماعة والقرن من الناس ، قد خلت : مضت لسبيلها . وإنما قيل للذى قد مات فذهب : قد خلا ، لتخليه من الدنيا ، وانفراده بما كان من الأنس بأهله وقرنائه فى دنياه ، وأصله من قولهم خلا الرجل : إذا صار بالمكان الذى لا أنيس له فيه ، وانفرد من الناس ، فاستعمل ذلك فى الذى يموت على ذلك الوجه ، ثم قال تعالى ذكره لليهود والنصارى : إن لمن تنحلونه بضلالكم وكفركم الذى أنتم عليه من أنبيائى ورسلى ما كسبت ، والهاء والألف فى قوله (لَهَا) عائدة إن شئت على تلك ، وإن شئت على الأمة .

ويعنى بقوله (لَهَا مَا كَسَبَتْ) أى ما عملت من خير ، ولكم يا معشر اليهود والنصارى مثل ذلك ما عملتم ، ولا تؤاخذون أنتم أيها الناحلون ما نحلتموهم من الملل ، فتسئلوا عما كان إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب وولدهم يعملون ، فيكسبون من خير وشرّ ، لأن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم ، فإن الدّعاوى غير مغنيتكم عند الله ، وإنما يغنى عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم إن كنتم عملتموها وقدمتموها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)

(١) فى المخطوطتين ٤٢م ، ٤٣م تفسير : فتضيفونها ، بإثبات النون ، والصواب حذفها عطفا على : ولا تنحلوهم .

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) وقالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين : كونوا هودا تهتدوا ، وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا ، تعنى بقولها تهتدوا : أى تصيبوا طريق الحقّ .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير .

وحدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة جميعا ، عن ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد ابن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله عزّ وجل فيهم (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) احتجّ الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ حجة وأوجزها وأكملها ، وعلمها محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التى تجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذى ارتضاه واجتباه وأمر به ، فإن دينه كان الحنيفية المسلمة ، وندع سائر الملل التى نختلف فيها ، فينكرها بعضنا ويقرّ بها بعضنا ، فإن ذلك على اختلافه لاسبيل لنا على الاجتماع عليه كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم .

وفى نصب قوله (بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) أوجه ثلاثة : أحدها أن يوجه معنى قوله (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) إلى معنى : وقالوا اتبعوا اليهودية والنصرانية ، لأنهم إذ قالوا : كونوا هودا أو نصارى إلى اليهودية والنصرانية دعوهم ، ثم يعطف على ذلك المعنى بالملة ، فيكون معنى الكلام حينئذ : قل يا محمد لانتبع اليهودية والنصرانية ، ولا نتخذها ملة ، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا ، ثم يحذف نتبع الثانية ، ويعطف بالملة على إعراب اليهودية والنصرانية . والآخر أن يكون نصبه بفعل مضمر بمعنى نتبع . والثالث أن يكون أريد بل نكون أصحاب ملة إبراهيم ، أو أهل ملة إبراهيم ، ثم حذف الأهل والأصحاب ، وأقيمت الملة مقامهم ، إذ كانت مؤدّية عن معنى الكلام ، كما قال الشاعر :

حَسِبْتُ بُغَامَ رَاحِلَتِى عَنَاقاً وَمَا هِىَ وَيْبَ غَيْرِكَ بِالعَنَاقِ [1]

يعنى صوت عناق . فتكون الملة حينئذ منصوبة عطفا فى الإعراب على اليهود والنصارى ؛ وقد يجوز أن يكون منصوبا على وجه الإغراء ، باتباع ملة إبراهيم . وقرأ بعض القرّاء ذلك رفعا ، فتأويله على قراءة من قرأ رفعا ، بل الهدى ملة إبراهيم .

القول فى تأويل قوله تعالى (بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

والملة : الدين ، وأما الحنيف : فإنه المستقيم من كل شىء . وقد قيل : إن الرجل الذى تقبل إحدى قدميه على الأخرى إنما قيل له أحنف نظرا له إلى السلامة ، كما قيل للمَهلكة من البلاد المفازة ، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة ، وكما قيل للديغ السليم ، تفاؤلا له بالسلامة من الهلاك ، وما أشبه ذلك .

(١) البيت لذى الخرق الطهوى كما فى اللسان : (بغم) والبغام : صوت الناقة لاتفصح به . والعناق : الأنثى من أولاد المعزى .

فمعنى الكلام إذًا : قل يا محمد بل نتبع ملة إبراهيم مستقيما ، فيكون الحنيف حينئذ حالا من إبراهيم .

وأما أهل التأويل ، فإنهم اختلفوا فى تأويل ذلك ؛ فقال بعضهم : الحنيف : الحاجّ . وقيل : إنما سمى دين إبراهيم الإسلام الحنيفية ، لأنه أوّل إمام لزم العباد الذين كانوا فى عصره ، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة اتباعه فى مناسك الحجّ ، والائتمام به فيه . قالوا : فكلّ من حجّ البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته ، فهو حنيف مسلم على دين إبراهيم .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : ثنا القاسم بن الفضل ، عن كثير أبى سهل ، قال سألت : الحسن عن الحنيفية ، قال : حجّ البيت .

حدثنى محمد بن عبادة الأسدى ، قال : ثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا فضيل ، عن عطية فى قوله (حَنِيفاً) قال : الحنيف : الحاجّ .

حدثنى الحسين بن علىّ الصدائى ، قال : ثنا أبى ، عن الفضيل ، عن عطية ، مثله .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا حكام بن سالم ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزة ، عن مجاهد ، قال : الحنيف : الحاجّ .

حدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن التيمى ، عن كثير بن زياد ، قال : سألت الحسن عن الحنيفية ، قال : هو حجّ هذا البيت . قال ابن التيمى : وأخبرنى جويبر ، عن الضحاك ابن مزاحم ، مثله .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا ابن مهدى ، قال : ثنا سفيان ، عن السدى ، عن مجاهد (حُنَفَاءَ) قال : حجاجا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (حَنِيفاً) قال : حاجا .

حدثت عن وكيع ، عن فضيل بن غزوان ، عن عبد الله بن القاسم ، قال : كان الناس من مضر يحجون البيت فى الجاهلية يسمون حنفاء ، فأنزل الله تعالى ذكره (حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) .

وقال آخرون : الحنيف : المتبع ، كما وصفنا قبل من قول الذين قالوا : إن معناه الاستقامة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (حُنَفَاءَ) قال : متبعين .

وقال آخرون : إنما سمى دين إبراهيم الحنيفية ، لأنه أوّل إمام سنّ للعباد الختان ، فاتبعه من بعده عليه . قالوا : فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم ، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام ، فهو حنيف على ملة إبراهيم .

وقال آخرون : بل ملة إبراهيم حنيفا ، بل ملة إبراهيم مخلصا . فالحنيف على قولهم : المخلص دينه لله وحده .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين ، قال : ثنا أحمد بن المفضل ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) يقول : مخلصا .

وقال آخرون : بل الحنيفية الإسلام ، فكل من ائتمّ بإبراهيم فى ملته فاستقام عليها فهو حنيف .

قال أبو جعفر : الحنيف عندى : هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته ؛ وذلك أن الحنيفية لو كانت حجّ البيت لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه فى الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء ، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله (وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فكذلك القول فى الختان . لأن الحنيفية لو كانت هى الختان ، لوجب أن يكون اليهود حنفاء ، وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله (ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً) فقد صحّ إذا أن الحنيفية ليست الختان وحده ، ولا حجّ البيت وحده ، ولكنه هو ما وصفنا من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها ، والائتمام به فيها .

فان قال قائل : أو ما كان من كان من قبل إبراهيم صلى الله عليه وسلم من الأنبياء وأتباعهم مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامة إبراهيم وأتباعه ؟ قيل : بلى .

فإن قال : فكيف أضيف الحنيفية إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم ؟ قيل : إن كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفا ، متبعا طاعة الله ، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدا منهم إماما لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة ، كالذى فعل من ذلك بإبراهيم ، فجعله إماما فيما بينه من مناسك الحجّ والختان ، وغير ذلك من شرائع الإسلام ، تعبدا به أبدا إلى قيام الساعة ، وجعل ما سنّ من ذلك علما مميزا بين مؤمنى عباده وكفارهم ، والمطيع منهم له والعاصى . فسمى الحنيف من الناس حنيفا باتباعه ملته واستقامته ، على هديه ومنهاجه ، وسمى الضالّ عن ملته بسائر أسماء الملل ، فقيل : يهودى ونصرانى ومجوسى ، وغير ذلك من صنوف الملل .

وأما قوله (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يقول : إنه لم يكن ممن يدين بعبادة الأوثان والأصنام ، ولا كان من اليهود ، ولا من النصارى ، بل كان حنيفا مسلما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

يعنى تعالى ذكره بذلك : قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا : آمنا ، أى صدّقنا بالله .

وقد دللنا فيما مضى أن معنى الإيمان : التصديق بما أغنى عن إعادته ، وما أنزل إلينا ، يقول أيضا : صدقنا بالكتاب الذى أنزل الله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم إذ كانوا متبعيه ومأمورين منهيين به ، فكان وإن كان تنزيلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى التنزيل إليهم للذى لهم فيه من المعانى التى وصفت .

ويعنى بقوله (وَما أُنْزِلَ إلى إبْرَاهِيمَ) صدّقنا أيضا ، وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وهم الأنبياء من ولد يعقوب .

وقوله (وَما أُوتِىَ مُوسَى وعِيسَى) يعنى : وآمنا أيضا بالتوراة التى آتاها الله موسى ، وبالإنجيل الذى آتاه الله عيسى ، والكتب التى آتى النبيين كلهم ، وأقررنا وصدّقنا أن ذلك كله حقّ وهدى ونور من عند الله ، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حقّ وهدى يصدّق بعضهم بعضا على منهاج واحد فى الدعاء إلى توحيد الله ، والعمل بطاعته (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ) يقول : لانؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ، ونتبرأ من بعض ، ونتولى بعضا ، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام ، وأقرّت بغيرهما من الأنبياء ، وكما تبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقرّت بغيره من الأنبياء بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه ، بعثوا بالحقّ والهدى .

وأما قوله (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) فإنه يعنى تعالى ذكره : ونحن له خاضعون بالطاعة ، مذعنون له بالعبودية ، فذكر أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك لليهود ، فكفروا بعيسى وبمن يؤمن به .

كما حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا يونس بن بكير ، قال : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع وعازر وخالد وزيد وإزار بن أبى إزار وأشيع (١) ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ، فقال (أُومِنُ باللهِ وَما أُنْزِلَ إلَيْنا ، وَما أُنْزِلَ إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَعِيلَ وإسْحَقَ ويَعْقُوبَ والأسْباطِ ، وَما أُوتِىَ مُوسَى وعِيسَى ، وَما أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لانُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته وقالوا : لانؤمن بعيسى ، ولا نؤمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم (قُلْ يا أهْلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إلاّ أنْ آمَنّا باللهِ وَما أُنْزِلَ إلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ، وأنَّ أكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ) .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : ثنا محمد بن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه ،

(١) وأشيع : كذا فى المخطوطة ٤٣ م تفسير . وفى المخطوطة ٤٢ م : وأشيبع .

إلا أنه قال : ونافع بن أبي نافع ، مكان رافع بن أبي رافع ، وقال قتادة : أنزلت هذه الآية أمرا من الله تعالى ذكره للمؤمنين بتصديق رسله كلهم .

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ) إلى قوله (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدّقوا بأنبيائه ورسله كلهم ، ولا يفرّقوا بين أحد منهم .

وأما الأسباط الذين ذكرهم فهم اثنا عشر رجلا من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . ولدَ كلُّ رجل منهم أمة من الناس ، فسموا أسباطا .

كما حدثنا بشر بن معاذ قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قال : الأسباط : يوسف وإخوته بنو يعقوب ، ولد اثنى عشر رجلا ، فولد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا أسباطا .

حدثني موسى ، قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى ، أما الأسباط فهم بنو يعقوب يوسف ، وبنيامين ، وروبيل ، ويهوذا ، وشمعون ، ولاوى ، ودان ، وقهاث [1] .

حدثني المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : الأسباط : يوسف وإخوته بنو يعقوب اثنا عشر رجلا ، فولد لكل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا الأسباط .

حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا سلمة ، قال : حدثني محمد بن إسحق ، قال : نكح يعقوب بن إسحق وهو إسرائيل ابنة خاله ليا ابنة ليان بن توبيل بن إلياس ، فولدت له روبيل بن يعقوب ، وكان أكبر ولده ، وشمعون بن يعقوب ، ولاوى بن يعقوب ، ويهوذا بن يعقوب ، وريالون بن يعقوب ، ويشجر بن يعقوب ، ودينة بنت يعقوب ، ثم توفيت ليا بنت ليان ، فخلف يعقوب على أختها راحيل بنت ليان بن توبيل بن إلياس ، فولدت له يوسف بن يعقوب وبنيامين ، وهو بالعربية أسد ، وولد له من سرّيتين له اسم إحداهما زلفة ، واسم الأخرى بلهية أربعة نفر : دان بن يعقوب ، ونفتالى بن يعقوب ، وجاد بن يعقوب ، وأشرب بن يعقوب ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا ، نشر الله منهم اثنى عشر سبطا لايحصى عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله ، يقول الله تعالى (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً) .

القول في تأويل قوله جل ذكره :

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)

يعنى تعالى ذكره بقوله (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ) فإن صدّق اليهود والنصارى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، وأقرّوا بذلك مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم ، فقد وفقوا ورشدوا ولزموا

(١) المعدود هنا ثمانية ، وسيأتى تفصيل الاثنى عشر فى الرواية الآتية ، وبالجملة ففى أسمائهم اختلاف .

طريق الحقّ واهتدوا ، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم بدخولهم فى ملتكم ، بإقرارهم بذلك . فدلّ تعالى ذكره بهذه الآية ، على أنه لم يقبل من أحد عملا إلا بالإيمان بهذه المعانى التى عدها قبلها .

كما حدثنا المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا) ونحو هذا قال : أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى ، وأنه لايقبل عملا إلا به ، ولا تحرم الجنة إلا على من تركه .

وقد روى عن ابن عباس فى ذلك قراءة جاءت مصاحف المسلمين بخلافها ، وأجمعت قرّاء القرآن على تركها .

وذلك ما حدثنا به محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبى حمزة ، قال : قال ابن عباس : لاتقولوا (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا) فإنه ليس لله مثل ، ولكن قولوا : فإن آمنوا بالذى آمنتم به فقد اهتدوا ، أو قال : فإن آمنوا بما آمنتم به ، فكأن ابن عباس فى هذه الرواية إن كانت صحيحة عنه يوجه تأويل قراءة من قرأ (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ) فإن آمنوا بمثل الله ، وبمثل ما أنزل على إبراهيم وإسمعيل ، وذلك إذا صرف إلى هذا الوجه شرك لاشكّ بالله العظيم ، لأنه لامثل لله تعالى ذكره ، فنؤمن أو نكفر به ، ولكن تأويل ذلك على غير المعنى الذى وجه إليه تأويله ، وإنما معناه ما وصفنا ، وهو : فإن صدّقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه ، فقد اهتدوا ، فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء ، كقول القائل : مرّ عمرو بأخيك مثل ما مررت به ، يعنى بذلك مرّ عمرو بأخيك مثل مرورى به ، والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين ، لابين عمرو وبين المتكلم ، فكذلك قوله (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ) إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لابين المؤمن به .

القول فى تأويل قوله (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فى شِقَاقٍ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (وَإِنْ تَوَلَّوْا) وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه كونوا هودا أو نصارى ، فأعرضوا ، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله ، وبما جاءت به الأنبياء ، وابتعثت به الرسل ، وفرقوا بين رسل الله ، وبين الله ورسله ، فصدّقوا ببعض وكفروا ببعض ، فاعلموا أيها المؤمنون أنهم إنما هم فى عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، عن قتادة (وَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ) أى فى فراق .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع (فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ) يعنى فراق .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ) قال : الشقاق : الفراق والمحاربة ، إذا شاق فقد حارب ، وإذا حارب فقد شاقّ ، وهما واحد فى كلام العرب ، وقرأ (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ) وأصل الشقاق عندنا والله أعلم مأخوذ من قول القائل : شقّ عليه هذا الأمر إذا كربه وآذاه ، ثم قيل شاقّ فلان فلانا : بمعنى نال كل واحد منهما من صاحبه ما كربه

وآذاه وأثقلته مساءته ، ومنه قول الله تعالى ذكره (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما) بمعنى فراق بينهما .

القول فى تأويل قوله تعالى (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) :

يعنى تعالى ذكره بقوله (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ) فسيكفيك الله يا محمد هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك كونوا هودا أو نصارى تهتدوا من اليهود والنصارى ، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله ، وبما أنزل إليك ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق وسائر الأنبياء غيرهم ، وفرقوا بين الله ورسله ، إما بقتل السيف ، وإما بجلاء عن جوارك ، وغير ذلك من العقوبات . فإن الله هو السميع لما يقولون لك بألسنتهم ، ويبدون لك بأفواههم ، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضالة ، العليم بما يبطنون لك ولأصحابك المؤمنين فى أنفسهم من الحسد والبغضاء ، ففعل الله بهم ذلك عاجلا وأنجز وعده ، فكفى نبيه صلى الله عليه وسلم بتسليطه إياه عليهم ، حتى قتل بعضهم وأجلى بعضا وأذل بعضا ، وأخزاه بالجزية والصغار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (١٣٨)

يعنى تعالى ذكره بالصبغة : صبغة الإسلام ، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصر أطفالهم جعلتهم فى ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم فى النصرانية، فقال الله تعالى ذكره : إذ قالوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين به (كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارَى تَهْتَدُوا) قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتبعوا ملة إبراهيم صبغة الله التى هى أحسن الصبغ ، فإنها هى الحنيفية المسلمة، ودعوا الشرك بالله والضلال عن محجة هداه ، ونصب الصبغة من قرأها نصبا على الردّ على الملة ، وكذلك رفع الصبغة من رفع الملة على ردّها عليها ، وقد يجوز رفعها على غير هذا الوجه ، وذلك على الابتداء ، بمعنى : هى صبغة الله ؛ وقد يجوز نصبها على غير وجه الردّ على الملة ، ولكن على قوله (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ) إلى قوله (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) صبغة الله ، بمعنى آمنا هذا الإيمان ، فيكون الإيمان حينئذ هو صبغة الله ، وبمثل الذى قلنا فى تأويل الصبغة قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) أن اليهود تصبغ أبناءها يهود ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى ، وأن صبغة الله الإسلام ، فلا صبغة أحسن من الإسلام ، ولا أطهر ، وهو دين الله الذى بعث به نوحا والأنبياء بعده .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال عطاء (صِبْغَةَ اللهِ) صبغت اليهود أبناءهم خالفوا الفطرة .

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (صِبْغَةَ اللهِ) فقال بعضهم : دين الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر، عن قتادة (صِبْغَةَ اللهِ) قال : دين الله .

حدثنا أبوكريب ، قال : ثنا وكيع ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله (صِبْغَةَ اللهِ) قال : دين الله (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) ومن أحسن من الله دينا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : ثنا أبوأحمد الزبيرى ، قال : ثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبونعيم ، قال : ثنا سفيان ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : ثنا أبوأحمد ، قال : ثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قوله (صِبْغَةَ اللهِ) قال : دين الله .

حدثنا موسى بن هرون ، قال : ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط ، عن السدى (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) يقول : دين الله ، ومن أحسن من الله دينا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى عن أبيه ، عن ابن عباس (صِبْغَةَ اللهِ) قال : دين الله .

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد فى قول الله (صِبْغَةَ اللهِ) قال : دين الله .

حدثنى ابن البرقى ، قال : ثنا عمرو بن أبى سلمة ، قال : سألت ابن زيد ، عن قول الله (صِبْغَةَ اللهِ) فذكر مثله .

وقال آخرون (صِبْغَةَ اللهِ) فطرة الله .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله (صِبْغَةَ اللهِ) قال : فطرة الله التى فطر الناس عليها .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا محمد بن حرب ، قال : ثنا ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة ، عن مجاهد (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) قال : الصبغة : الفطرة .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثنا حجاج عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : (صِبْغَةَ اللهِ) الإسلام ، فطرة الله التى فطر الناس عليها .

قال ابن جريج : قال لى عبد الله بن كثير (صِبْغَةَ اللهِ) قال : دين الله ومن أحسن من الله دينا ؛ قال : هى فطرة الله ، ومن قال هذا القول ، فوجه الصبغة إلى الفطرة ، فمعناه : بل نتبع فطرة الله وملته

التى خلق عليها خلقه ، وذلك الدين القيم من قول الله تعالى ذكره (فاطِرُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) بمعنى خالق السموات والأرض .

القول فى تأويل قوله (وَنَحنُ لَهُ عابِدُونَ)

وقوله تعالى ذكره (وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ) أمر من الله تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقوله لليهود والنصارى الذين قالوا له ولمن تبعه من أصحابه (كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى) فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا : صبغة الله ، ونحن له عابدون ، يعنى ملة الخاضعين لله المستكينين له فى اتباعنا ملة إبراهيم ودينونتنا له بذلك ، غير مستكبرين فى اتباع أمره والإقرار برسالته رسله، كما استكبرت اليهود والنصارى ، فكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم استكبارا وبغيا وحسدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

قلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)

يعنى تعالى ذكره بقوله (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ) قل يامحمد لمعاشر اليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، وزعموا أن دينهم خير من دينكم ، وكتابهم خير من كتابكم لأنه كان قبل كتابكم ، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم ، أتحاجوننا فى الله ، وهو ربنا وربكم ، بيده الخيرات ، وإليه الثواب والعقاب ، والجزاء على الأعمال ، الحسنات منها والسيئات ، فتزعمون أنكم بالله أولى منا من أجل أن نبيكم قبل نبينا ، وكتابكم قبل كتابنا ، وربكم وربنا واحد ، وإن لكل فريق منا ماعمل واكتسب من صالح الأعمال وسيئها ، ويجازى فيثاب أو يعاقب ، لاعلى الأنساب وقدم الدين والكتاب .

ويعنى بقوله (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا) قل أتخاصموننا وتجادلوننا .

كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فى اللهِ) قل أتخاصموننا .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا) أتخاصموننا .

حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه، عن ابن عباس (أَتُحَاجُّونَنَا) أتجادلوننا .

فأما قوله (وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) فإنه يعنى : ونحن لله مخلصو العبادة والطاعة ، لانشرك به شيئا ، ولا نعبد غيره أحدا ، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان ، وأصحاب العجل معه العجل ، وهذا من الله تعالى ذكره توبيخ لليهود واحتجاج لأهل الإيمان ، بقوله تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : قولوا أيها المؤمنون لليهود والنصارى الذين قالوا لكم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا (أَتُحَاجُّونَنَا فى اللهِ) يعنى بقوله (فِى اللهِ) فى دين الله الذى أمرنا أن ندينه به ، وربنا وربكم واحد عدل لايجور ، وإنما يجازى العباد على ما اكتسبوا ، وتزعمون أنكم أولى بالله منا ، لقدم دينكم وكتابكم ونبيكم ، ونحن مخلصون له

العبادة لم نشرك به شيئا. وقد أشركتم فى عبادتكم إياه ، فعبد بعضكم العجل وبعضكم المسيح ، وأنى تكونوا خيرا منا ، وأولى بالله منا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)

قال أبو جعفر : فى قراءة ذلك وجهان : أحدهما (أَمْ تَقُولُونَ) بالتاء ، فمن قرأ كذلك ، فتأويله : قل يا محمد للقائلين لك من اليهود والنصارى كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أتجادلوننا فى الله أم تقولون إن إبراهيم ، فيكون ذلك معطوفا على قوله (أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللَّهِ) . والوجه الآخر منهما (أَمْ يَقُولُونَ) بالياء ، ومن قرأ ذلك كذلك وجّه قوله (أَمْ يَقُولُونَ) إلى أنه استفهام مستأنف كقوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) وكما يقال : إنها لإبل أم شاء ؛ وإنما جعله استفهاما مستأنفا لمجىء خبر مستأنف كما يقال أتقوم أم يقوم أخوك ، فيصير قوله أم يقوم أخوك خبرا مستأنفا لجملة ليست من الأول واستفهاما مبتدأ ، ولو كان نسقا على الاستفهام الأوّل لكان خبرا عن الأوّل ، فقيل : أتقوم أم تقعد . وقد زعم بعض أهل العربية أن ذلك إذا قرئ كذلك بالياء ، فإن كان الذى بعد أم جملة تامة فهو عطف على الاستفهام الأول ، لأن معنى الكلام قيل : أىّ هذين الأمرين كائن ، هذا أم هذا ؟

والصواب من القراءة عندنا فى ذلك (أَمْ تَقُولُونَ) بالتاء دون الياء عطفا على قوله (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا) بمعنى : أىّ هذين الأمرين تفعلون ، أتجادلوننا فى دين الله ، فتزعمون أنكم أولى منا ، وأهدى منا سبيلا ، وأمرنا وأمركم ما وصفنا على ما قد بيناه أيضا ، أم تزعمون أن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب ومن سمى الله كانوا هودا أو نصارى على ملتكم ، فيصحّ للناس بهتكم وكذبكم ، لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبيائه ، وغير جائزة قراءة ذلك بالياء لشذوذها عن قراءة القراء .

وهذه الآية أيضا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى الذين ذكر الله قصصهم ؛ يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى : أتحاجوننا فى الله ، وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا ، وأنكم على هدى ونحن على ضلالة ببرهان من الله تعالى ذكره فتدعوننا إلى دينكم ، فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه ، أم تقولون إن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى على دينكم فهاتوا على دعواكم ما ادّعيتم من ذلك برهانا فنصدّقكم ، فإن الله قد جعلهم أئمة يقتدى بهم ، ثم قال تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد إن ادّعوا أن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان أم الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ) :

يعني : فإن زعمتْ يا محمد اليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك كونوا هودا أو نصارى ، أن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، فمن أظلم منهم؛ يقول، وأيّ امرئٍ أظلم منهم وقد كتموا شهادة عندهم من الله بأن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين ، فكتموا ذلك ونحلوهم اليهودية والنصرانية .

واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك :

فحدثنى محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبوعاصم ، قال : ثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) قال فى قول يهود لإبراهيم وإسمعيل ومن ذكر معهما أنهم كانوا يهود أونصارى ، فيقول الله : لاتكتموا منى شهادة إن كانت عندكم فيهم ، وقد علم أنهم كاذبون .

حدثنى المثنى قال : ثنا أبوحذيفة ، قال : ثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) فى قول اليهود لإبراهيم وإسمعيل ، ومن ذكر معهما أنهم كانوا يهود أو نصارى ، فقال الله لهم : لا تكتموا منى الشهادة فيهم إن كانت عندكم فيهم ، وقد علم الله أنهم كانوا كاذبين .

حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : حدثنى إسحق ، عن أبى الأشهب ، عن الحسن أنه تلا هذه الآية (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ) إلى قوله (قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) قال الحسن : والله لقد كان عند القوم من الله شهادة أن أنبياءه برآء من اليهودية والنصرانية ، كما أن عند القوم من الله شهادة أن أموالكم ودماءكم بينكم حرام فبم استحلوها .

حدثت عن عمار ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) أهل الكتاب كتموا الإسلام ، وهم يعلمون أنه دين الله ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، أنهم لم يكونوا يهود ولانصارى ، وكانت اليهودية والنصرانية بعد هؤلاء بزمان، وأنه عنى تعالى ذكره بذلك أن اليهود والنصارى إن ادّعوا أن إبراهيم ، ومن سمى معه فى هذه الآية كانوا هودا أو نصارى ، بيّن لأهل الشرك الذين هم نصراؤهم كذبهم وادّعاءهم على أنبياء الله الباطل ، لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعدهم ، وإن هم نفوا عنهم اليهودية والنصرانية قيل لهم : فهلموا إلى ما كانوا عليه من الدين ، فإنا وأنتم مقرّون جميعا بأنهم كانوا على حقّ ، ونحن مختلفون فيما خالف الدين الذى كانوا عليه . وقال آخرون : بل عنى تعالى ذكره بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) اليهود فى كتمانهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونبوّته ، وهم يعلمون ذلك ويجدونه فى كتبهم

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام

وهم يعلمون أنه دين الله ، واتخذوا اليهودية والنصرانية ، وكتموا محمدا صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : ثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) قال : الشهادة النبىّ صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم ، وهو الذى كتموا .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، نحو حديث بشر بن معاذ عن يزيد .

حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) قال : هم يهود يسألون عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعن صفته فى كتاب الله عندهم ، فيكتمون الصفة .

وإنما اخترنا القول الذى قلناه فى تأويل ذلك ، لأن قوله تعالى ذكره (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) فى أثر قصة من سمى الله من أنبيائه ، وأمام قصته لهم ، فأولى بالذى هو بين ذلك أن يكون من قصصهم دون غيره .

فإن قال قائل : وأية شهادة عند اليهود والنصارى من الله فى أمر إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ؟ قيل : الشهادة التى عندهم من الله فى أمرهم ، ما أنزل الله إليهم فى التوراة والإنجيل ، وأمرهم فيها بالاستنان بسنتهم واتباع ملتهم ، وأنهم كانوا حنفاء مسلمين ، وهى الشهادة التى عندهم من الله التى كتموها حين دعاهم نبىّ الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فقالوا له : (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) وقالوا له ولأصحابه : (كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) فأنزل الله فيهم هذه الآيات فى تكذيبهم وكتمانهم الحقّ ، وافترائهم على أنبياء الله الباطل والزور .

القول فى تأويل قوله تعالى (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

يعنى تعالى ذكره بذلك : وقل لهؤلاء اليهود والنصارى ، الذين يحاجونك يا محمد (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) من كتمانكم الحقّ فيما ألزمكم فى كتابه بيانه للناس ، من أمر إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط فى أمر الإسلام ، وأنهم كانوا مسلمين ، وأن الحنيفية المسلمة دين الله الذى على جميع الخلق الدينونة به دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من الملل ، ولا هو ساه عن عقابكم على فعلكم ذلك ، بل هو محص عليكم حتى يجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهل فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فجازاهم عاجلا فى الدنيا بقتل بعضهم وإجلائه عن وطنه وداره ، وهو مجازيهم فى الآخرة العذاب المهين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

يعنى تعالى ذكره بقوله (تِلْكَ أُمَّةٌ) إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط .

كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : ثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة قوله تعالى (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا) يعنى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط .

حدثنى المثنى ، قال : ثنا إسحق ، قال : ثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله، وقد بينا فيما مضى أن الأمة : الجماعة .

فعنى الآية إذاً : قل يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك فى الله من اليهود والنصارى إن كتموا ما عندهم من الشهادة فى أمر إبراهيم ومن سمينا معه ، وأنهم كانوا مسلمين ، وزعموا أنهم كانوا هودا أو نصارى فكذبوا أن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب، والأسباط أمة قد خلت : أى مضت لسبيلها ، فصارت إلى ربها ، وخلت بأعمالها وآمالها ، لها عند الله ما كسبت من خير فى أيام حياتها ، وعليها ما اكتسبت من شرّ لا ينفعها غير صالح أعمالها ، ولا يضرّها إلا سيئها ، فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك ، فإنكم إن كان هؤلاء هم الذين بهم تفتخرون وتزعمون أن بهم ترجون النجاة من عذاب ربكم مع سيئاتكم ، وعظيم خطيئاتكم ، لاينفعهم عند الله غير ما قدّموا من صالح الأعمال، ولا يضرّهم غير سيئها، فأنتم كذلك أحرى أن لاينفعكم عند الله غير ما قدمتم من صالح الأعمال ، ولا يضرّكم غير سيئها ، فاحذروا على أنفسكم وبادروا خروجها بالتوبة والإنابة إلى الله مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفرية على الله وعلى أنبيائه ورسله ، ودعوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد ، فإنما لكم ما كسبتم ، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تسئلون عما كان إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط يعملون من الأعمال ، لأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة ، فإنما تسئل عما كسبت وأسلفت ، دون ما أسلف غيرها .

تمّ الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى ، وأوله : سيقول السفهاء

Elm[illegible] lmes
Bo[illegible] rary
Ne[illegible] rk
University